

فريدريك لوناوار



3.4.2017

رؤى لوناوار

رواية



رؤى لونا

الوحي الآتي من القمر
قدر جيوفاني تراتور المأساوي والرائع

فريدريك لوناوار

ترجمة: د. سليم طنوس

للطباعة والنشر والتوزيع



رؤى لونا

رؤى لونا

فريدريك لوناوار

ترجمة: د. سليم طنوس

© حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر



للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق ٢ - شارع الكويت

المنارة - بيروت - 2036 6308

لبنان - تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التفويض الفني **والخيال** للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2008

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الاللكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى جوهانا:

الراحلة قبل الأوان، والتي بدونها ما كان لهذا الكتاب أن يرى
النور.

تنويه

في هذه الرواية ، الأشخاص والحبكة، ثمرة نتاج خيالي... غير أنه خيال يندرج في إطار وحقبة زمنية محددين: النهضة وحوض المتوسط. من هنا كان حرصي على التمسك بصحة الأماكن والعادات والشخصيات التاريخية الذي غالباً ما تتفاعل حياتهم وأفكارهم مع مغامراتي، كما هي الحال بالنسبة إلى الأشخاص الرئيسيون في هذه الرواية، مثل الحبكة هم ثمرة نتاج خيالي، لكن بما أن الأمر يتعلق بالخيال الذي يندرج في حقبة زمنية وإطار محددين - النهضة وحوض المتوسط - فقد حرصتُ على احترام صحة الأماكن، العادات، الشخصيات التاريخية الواردة، الذين غالباً ما تتداخل حياتهم وأفكارهم مع مغامراتي، كما الحال بالنسبة لـ إيراسم، لوثر، البابا بولس الثالث، بيك ميراندول، مارسيل فيشين، آل ميدتشي، جوليا غونزاغا، جوان دوفالديس، أندريا غريني، جوهانس، ليشنبرغر، بول دو ميدلبورغ، فيليب ميلانكتون، ثيوفان ستريليتزاس، نيكولاس كوبرنيك، الأخوة بربروس، سليمان العظيم، شارل كانت وفرانسوا الأول، وأيضاً العودة إلى أفلاطون، أرسطو، يسوع، بولس، بطليموس، بلوتين، أوغسطين، ألبومازار، موسى بن شم توفه، ابن العربي، غريغوار بالاماس،
توما الأكويني، الخ...

الوجود واقع، وممارسة الحياة فن
مسار الحياة هو الانتقال من الخوف إلى الحب

تمهيد

1

كانت ملامح القرويين تعكس الخوف المسيطر عليهم، وقد تجمعوا على بضع خطى من الكوخ، أعينهم مثبتة على البيت، والعرق يقطر من جباههم المتغضنة... فجأة، رفع العجوز جيورجيو قبضته وصرخ بقوة:
- الموت للساحرة!

وانطلق الجميع من حوله. مرددين، نساءً ورجالاً، الهتاف ذاته، واندفعوا، كمن أصابه مسّ، داخل الغابة، باتجاه البيت، رافعين المذاري والرماح، وقد تلاشى الخوف من على ملامحهم، ليحل مكانه تصميم لا رجوع عنه، على التخلص نهائياً من الساحرة، وبالتالي من اللعنة التي حاقت بهم.

فُتح الباب المتداعي بسهولة من الهجوم الأول، فبدت الغرفة خالية يضيئها نور الشمس الشاحب، ويكتنفها جو خائق...
صرخت الأرملة ترابوني:

- أخرجني..

غير أن شاباً مخيفاً، كان قد انحنى فوق قدرٍ وُضع على موقد من الجمر، استدرك منبهاً:

- انظروا... الموقد مشتعل، والماء داخل القدر ساخن... لم يمض وقت طويل على خروجها.

وعقب العجوز جورجيو:

- لن أستغرب أن تكون قد اختبأت في الأدغال المجاورة... لنخرجها من مخبئها...

بحث القرويون على مدى ساعتين داخل الأحراج، مركزين اهتمامهم وبصرهم على رؤوس الأشجار... غير أن جهودهم ذهبت أدرج الرياح...، مما حدا بالحداد أن يهمس بصوت خافت:

- فلنذهب إلى الجحيم ونمارس شعوذاتها في غير هذا المكان...

ثم عرّج على الكوخ، ونفخ في الجمر الذي تطاير على أرضيته الخشبية، وشرع بكسر الطاولة الوحيدة بمساعدة الرجل الأعور، ليغذي بها ألسنة اللهب التي كانت تراقص في زوايا البيت الأربع، اصطدم الأعور بعائق فزلت قدمه وكاد يسقط أرضاً.

- يا للمفاجأة! حلقة للنجاة تحت المنضدة! صاح القروي.

تجمع الرجال والنساء وهم يصرخون، مشيرين بأصابعهم إلى البوابة، داسوا بأقدامهم ألسنة اللهب وتجمعوا حول البوابة محدّقين بالحلقة، كما لو أنها ستفتح لهم أبواب جهنم، ولم تمض لحظة على ابتهاجهم حتى حلّ الرعب من جديد، فانقطعت أنفاسهم، ونضحت جباههم بالعرق. أحضر الحداد مشعلين، وهو صامت، وأشار بفتح البوابة. أمسك أحد الرجال بالحلقة، ولحظة فتح الباب، ألقى الحداد المشعل في الكوة، فتراجع الجميع إلى الوراء بصورة عفوية.

- لم يحصل أي شيء، أكثرهم شجاعة، انحنى نحو الفراغ، فسقط المشعل من علو قامته رجل على أرض قاسية ما أنار الدرجات السبع لدرج صغير خشبي؛ لم يكن باستطاعته تمييز أي شيء آخر.

- صرخ جورجيو بلهجة توحى بالثقة، غير أنها تنمّ، في الواقع عن

قلق دفين:

- أخرجني من جحرك، أيتها الشريرة، إذا كنت لا تريدين أن تخرجني مشوية.

ران على الجميع صمت عميق قطعه الرجل العجوز متردداً: يجب أن نعود.
لم يتحرك أحد.

- صرخت الأرملة ترابوني: جميعهم جبناء، إذا كان زوجي اميليو قد مات، فهي السبب. وعلى الفور شمّرت عن ثوبها الداخلي وأمسكت بمشعل آخر ودخلت المخبأ.

ولدى وصولها إلى أسفل الدرج، أثار المشعل كامل المكان. تراءى لها وسط الجحر الصغير جسداً ساكناً مسجّى على فراش من القش الرطب ومغطى بشرشف، دنت المرأة منه مسيطرة على رعبها، نقلت قدمها خطوة إلى الأمام وبحركة سريعة رفعت الغطاء، كتمت صراخها وفي اللاشعور رسمت إشارة الصليب عدة مرات، وصعدت مسرعة، وعيناها جاحظتان فانقضت على الحداد وأخذته من ياقة قميصه وصاحت في وجهه: إنه فعل الشيطان.

دهش الراهب البواب من منظر هذا الطاقم الغريب من القرويين الحاملين جثماناً بشرياً على عربة، وطلب جيورجيو العجوز من الراهب بصوت مرتفع:

- أنا رئيس قرية أوستوني، نريد مقابلة رئيس الدير.
أجاب الراهب بلهجة صارمة:

- أبونا رئيس الدير غير موجود، ماذا تريدون؟
احتر القرويون لغياب رئيس الدير، لأن ما اكتشفوه له أهمية كبيرة،
لا يمكن تسليمه لراهب عادي. وبعد لحظات من التردد، استطرد رئيس
القرية طالباً:

- من يرعى إدارة الدير في فترة غيابه؟

- أجاب الراهب البواب بامتقاع: دوم سلفاتور وكيل رئيس الدير.
وبدا منزعجاً من هؤلاء القرويين البسطاء الذين لا يريدون التحدث
معه، لكنه عاد فقرر أنه لن يقع فريسة الانزعاج من أجل أمر بسيط.
وفيما كان الراهب البواب يلقي نظره على الجثمان المسجى بكفن
أبيض على العربة، سأل:

- ما الأمر؟ هل من وفاة؟

أكد القروي بصوت جهوري: هذا أسوأ!

قرأ الراهب على وجوه القرويين تعابير الرعب والخوف التي أفتعته
بضرورة استدعاء رئيس الدير.

يقع دير سان جيوفاني على هضبة صغيرة مشرفة على البحر، وتحيط
به أشجار الزيتون، وحتى منتصف القرن السادس عشر، كان ما يزال

المركز الديني الرئيسي لمنطقة آبروز، هذه الكتلة الجبلية الواقعة وسط إيطاليا، كانت متصلة بروما من طريق تراجانا الذي يصل إلى أسفل الدير عند مرفأ فينير الصغير، على مسافة عدة فراسخ جنوب بيسكارا أحد أكبر الموانئ على البحر الأدرياتيكي، والذي استقى اسمه من اسم الآلهة فينوس.

والحقيقة أن الأسطورة تتعلق بمعبد شيده تاجر في قديم الزمان نجح من الغرق بفضل الآلهة فينوس التي خرجت من الماء وأنقذته؛ وقد أهدى المعبد إلى فينوس المواسية المصلحة، وأصبح مزاراً يؤمه العديد من الأزواج ليحظوا ببركة آلهة الحب.

وقد شيدت هناك كنيسة على أنقاض دير وثني مع بداية القرن الثامن بفضل راهب بنديكتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم، والقديس جيوفاني، وفي عام 1004 حوّل البندكتيون الكنيسة إلى دير، ومن النادر أن يبقى الاسم الذي أعطي له محافظاً على ذكرى ماضيه الوثني: سان جيوفاني فينوس.

عرف الدير تطوراً كبيراً، وكان له طوال قرنين من الزمن إشعاعاً وازدهاراً اقتصادياً وثقافياً وروحياً. تُدرّس فيه الفنون، ومختلف المهن، يجمع بين أروقة مكتبة غنية مع العديد من الكتب الناسخين. ثم جاءت السنوات المظلمة، ففي عام 1194 دمره الجنود خلال الحرب الصليبية الرابعة، ومع ذلك استعاد الدير جزءاً من إشعاعه، لكن في عام 1466 تعرّض لزلزال دمر بعض أجزائه أيضاً. وفي عام 1478 قضى وباء الطاعون على الرهبان الذين حاولوا إعادة بنائه. ورغم الوباء تمكن الناجون، بالجد والاجهد والعمل والصلاة إلى ترميمه، وفي سنة النعمة هذه 1545 بقيت فيه مجموعة من أربعين راهباً يأمرون برئيسهم «دوم تيودورو» ونائبه رئيس الدير «دوم سالفاتور».

ولما كان الطقس ما زال رديناً خلال الأيام الأولى للصيام، فقد ارتدى نائب رئيس الدير جبة مقلنة من الصوف البني فوق ثوبه الأسود البندكتيني، وخرج للقاء القرويين.

- سلام المسيح! حياهم به، ماذا هناك؟ رفع العجوز جيورجيو قبعته وتنحنح قليلاً.

- نحن يا أبتى من قرية أستوني، على بعد عشرين فرسخاً تقريباً.

- لماذا تكبدتم عناء السفر لعدة أيام وأنتم تحملون هذا الجثمان؟

- ألا تعلم يا أبتى، أن لعنة قد حلت على قريتنا البائسة منذ عيد

الميلاد؟

- بالفعل، تلقينا طلباتكم لنا بالصلاة، تابع معلناً بأن رئيس الدير تذكر فجأة وصول مبعوث إلى الدير منذ قرابة الشهر، العديد من الأشخاص قضوا نحبهم بطريقة غامضة على ما أعتقد؟

- لقد بدا كل شيء واضحاً بعد الميلاد مباشرة، تابع القروي وهو راضٍ لكون الراهب ما زال يتذكر الحدث، لقد سقط ابن الحداد في البئر ومات غرقاً. في سان روبرتو سقط عمود الزريبة على اميليو وحطم عظامه. بعد ذلك بعدة أيام توفيت زوجة فرانسشكو وهي تضع مولودها. كذلك في قرية شاندلور رحل العجوز تينو في ليلة واحدة بعد أن تقياً كل ما في أحشائه، وهو الذي كان قوياً كشجرة السنديان.

- هذا محزن للغاية، وبالفعل سوف نستمر بالصلاة لسلامة أهلكم ومن أجل أن يحفظكم الرب من جميع المحن الأخرى.

- لن تذهب صلواتكم هدرًا؛ كل هذا البلاء يحمل بصمات الشر، الشيطان يا أبتى.

راقب القروي لدى النطق بهذه الكلمات ردود فعل الراهب فوجد أنه غير متأثر بكلامه، فتابع مشدداً كلامه:

- إنه بسبب تلك الساحرة المشعوذة التي تعيش في غابة فيديش، بالتأكيد إنها على اتصال بالشيطان أو أعوانه.
- وماذا تعرفون عن ذلك؟

- لقد استقرت المشعوذة الساحرة في كوخ مهجور قبل الميلاد بشهر قمري، ثم حضرت إلى القرية لتقدم طبها وعلاجها النباتي مقابل بعض الخضار والطيور، لم يتردد بعض الأهالي على طلب بعض الأدوية منها لتخفيف الآلام، وبدأوا يترددون على الكوخ، ولكن قبل حلول هذه المآسي علينا، كانت الساحرة ترفض مداواة الحداد المصاب بحروق شديدة في يده، كما أنها رفضت مساعدة فرانسشكو ولعته، مطلقة الشتائم والإهانات لرينا، ثم فقد أحدهم ابنه، والآخر زوجته وابنه، كل هذا ليس إلا من الشعوذة وسحر الشيطان.

ظل الراهب صامتاً مفكراً لبضع لحظات، ثم نظر إلى القروي العجوز وقال:

- أي إثبات تحملونه، يؤكد لكم أن تلك المرأة هي سبب كل هذه المصائب؟

- تابع القروي بصوته المرتعد الخائف: ما أعرفه أنها رمت بالحظ والمصير السيئين على القرية، فالمقبرة امتلأت بجثث الموتى خلال شهرين قمريين أكثر مما كان في أربعة فصول، إنها الساحرة! ألسنة النار وحدها ستحررنا من الوضع السيء!

- هيا، هيا، اهدأوا. لا يمكن اتهام وحرق الناس هكذا بدون سبب، يجب القيام بتحقيق حول هؤلاء الأموات، ومن ثم سؤال تلك المرأة، سأحدث عن هذا الموضوع مع حاكم المنطقة.

- لسنا بحاجة إلى حاكم المنطقة، لقد هربت الشريرة، ولدينا البرهان عن تعاملها وتآمرها مع الشر، الشيطان!
- نعم؟ لدي رغبة برويتها.

أظهر القروي ابتسامة دون أن يظهر أسنانه ومدّ يده إلى العربية قائلاً:
- هذا هو البرهان!

تقدّم نائب رئيس الدير مندهشاً، فتباعد القرويون بهدوء. أمسك دوم سلفاتور طرف الثوب الذي يغطي الجثمان، وبحركة تتم عن الاحترام، كشف عن وجه الجسد المسجّى.

الجثمان كان لرجل في الثلاثين من العمر، جميل الطلعة، رغم نحافته. كان عارياً تماماً، لاحظ نائب رئيس الدير على جنبه الأيسر قريباً من القلب ندبة كبيرة طويلة، الرجل يتنفس، وقلبه يخفق، لكن عيناه بقيتا مغمضتين.

- حسناً، تابع الراهب كلامه موجهاً للقرويين، ماذا يعني هذا؟

استأنف زعيم القرية الكلام:

- لقد وجدناه في كهف منزل الساحرة، كان حياً، لكنه فاقد الوعي. ومن المؤكد أن المرأة كانت تقوم بأعمال شعوذة عليه، أنظر لقد وضعت علامات الشيطان على القدمين واليدين. إنه مملوك، لهذا السبب أحضرناه إلى الدير!

لاحظ الراهب وجود إشارات هندسية غريبة الشكل مرسومة بفحم الخشب على قدميه وقبضتيه. قال في نفسه، ومع ذلك فإن هذه الرسوم لا تشبه الرموز الشيطانية، ويمكن إرجاعها إلى طريقة في العلاج، لأن العلامات كانت مغطاة بمرهم رائحته ولونه أشبه بالعنبر. والتفت إلى القرويين وقال:

- هل تعرفون هذا الرجل؟

- أجاب جيورجيو: كلا، إنه ليس من القرية، وتساءل كيف تمكن الرجل من السقوط في مخالب تلك المشعوذة؟

- قصة غريبة حقاً، حسناً فعلتم بإحضاره إلى هنا، سنبقية عندنا. أما أنتم فما عليكم إلا أن تتركوا المرأة في سبيلها بسلام، وإذا ما عاودت الظهور، أخبروني!

- لا تتأخروا عن طرد الروح الشريرة من الرجل، فالشيطان يسكنه بكل تأكيد.

ابتسم دوم سالفاتور كجواب على طلبه، وأمر بنقل الجريح إلى غرفة التمريض في الدير وطلب من القرويين الانصراف.

عند المساء قام برواية الحدث على مجلس الطائفة، وأوكل الغريب لصلاة الجماعة وعناية الأخ كاسبارو، الذي أكد لنائب رئيس الدير أن الجرح الخطير في الجانب الأيسر ناتج عن ضربة خنجر، ومن المحتمل أنها نفذت إلى القلب، لقد نجح هذا الرجل بأعجوبة، بعد تلقيه عناية جيدة بكمادات ولصاقات نباتية.

رغم ضعف نبضه، فإن وظائفه الحيوية تعمل بانتظام، لكنه ظل غائباً عن الوعي غارقاً في سبات عميق. استمع الرهبان إلى شرح نائب رئيس الدير، لكن دوم ماركو الذي شغل نائباً لرئيس الدير قديماً والطاعن في السن، لفت نظر دوم سلفاتور، أن تصرفه كان مخالفاً لقواعد نظام الدير، بقبوله استقبال غريب علماني داخل حرم الدير.

من المؤكد فعلاً، أن غرفة التمريض كانت واقعة في القسم المشترك الخاص للرهبان، فهو كساتر أديرة البندكتيين. كان دير سان جيوفاني في فينيري مؤلفاً من كنيسة ورهبانية وأبنية ملحقة بالدير حيث يعيش فيها الرهبان، ففي معظم الأديرة، كانت الأبنية المشتركة تحيط بالرهبانية، وهي الأساس الفعلي للدير الذي يسلكه الرهبان للتنقل من مكان إلى آخر. هنا، يقع الدير على أرض منحدر، وقد شيّد

البنائون الكنيسة على امتداد الجهة الغربية للرهبانية، ومعها مجمل أبنية الدير على ثلاث مستويات جنوب الرهبانية، القسم المنحدر باتجاه البحر، أما الواجهتان الجنوبية والشمالية للرهبان فتطلان على البساتين، وفي الطابق السفلي من الأقسام المشتركة غرف التموين والاستقبال والضيافة، وهي الأمكنة الوحيدة المفتوحة للغرباء من أقسام الدير، ووسط الرهبانية والكنيسة يقع المطبخ، وغرفة الطعام، وكذلك المكتبة، وغرفة التمرريض، والرسم. أما الطابق العلوي فيضم غرف نوم الرهبان والمراحيض، وغرفتان أحدهما لرئيس الدير والثانية لنائبه.

تقبل دوم سلفاتور بملء إرادته مسؤولية مخالفة القاعدة المقدسة، بقبوله شخصاً عادياً في حرم الدير، لقد برّر هذا القرار بالخطر الكبير لحالة المريض، التي كانت تتطلب عناية فائقة يصعب تقديرها خارج غرفة التمرريض. مذكراً إخوته بحسب روح وفكر مؤسسها (الرهبانية)، أن البر والإحسان هما الفضيلة الأسمى التي لا يمكن لأحد التهرب منها، حتى ولو خرق القواعد الناظمة. لم يقتنع غالبية الرهبان بخيار نائب رئيسهم، لكن في حالة غياب الرئيس، لا يمكن لأحد الاعتراض على قرارات نائبه.

أسدل الليل ظلامه على الدير، وبعد صلاة المساء قصد الرهبان غرف نومهم، كما توجه دوم سلفاتور إلى غرفة نومه المتواضعة.

هذا الرجل القوي والجريء ذو الأعوام الخمسين والوجه الهزيل الذي تثيره عينان زرقاوان، انتسب إلى رهبان البندكتيين في سن السابعة عشرة من عمره. جعلت منه سنون الدرس الطويلة أستاذاً في اللاهوت، والكتب المقدسة، انتخب للمرة الثالثة نائب رئيس دير سان جيوفاني في فينيري لعشر سنوات، وكان يتخذ جميع القرارات في غياب الرئيس الفعلي، وكان رجلاً لطيفاً متواضعاً،

بعكس دوم تيودورو رئيس الدير المنتخب مدى الحياة، العجوز البارد الفظ.

كان دوم سلفاتور منشغلاً في ذلك المساء، فلم يصدق قصة المشعوذة، والمس الشيطاني، غير أنه كان يشعر بارتباك ناجم عن حدس بأن هذا الرجل الجريح سيسبب له متاعب كثيرة.

وفيما كان الليل قد بلغ منتصفه أو كاد، قرع الأخ كاسبارو باب غرفة نائب الرئيس الدير.

- هيا بسرعة دوم سلفاتور!

- سأله نائب رئيس الدير: ماذا هناك؟ ثم نهض وفتح الباب قليلاً وهو ينهي ارتداء ثوب الرهينة.

- هناك أمر غريب يحدث في غرفة التمريض، الغرفة مضاءة ومقفلة من الداخل، والدم ينساب من أسفل بابها!

ثم أكمل الأخ راهب روايته خلال الطريق.

- نهضت باكراً قبل صلاة الصبح لتضميد الجريح، ولدى وصولي إلى غرفة التمريض، فوجئت بها منارة. وكم كانت دهشتي كبيرة.

عندما تحققت من أنها مقفلة من الداخل! وأن فتح الباب مستحيل.. ولما شعرت بسائل ساخن يسيل على خدائي، تحققت من كونه دمًا، أسرعت لأخبرك.. يبدو الأمر وكأن ثوراً ذُبح في الداخل.

- من كان ينام في غرفة التمريض هذه الليلة؟

- الرجل الجريح فقط، ذلك الذي أحضره القرويون.

عندما وصل الراهبان إلى عتبة الغرفة. أقدم الأخ غاسبارو على إنارة أسفل الباب المغلق بواسطة مشعله.

شعر نائب رئيس الدير بالغبثان لدى رؤية بقعة الدم الممتدة حتى قدميه، ثم أشار إلى الراهب بمساعدته على فتح الباب بالقوة، ولما تمكن الاثنان من كسر القفل، ظهر لهما منظر مرعبٌ مخيفٌ.

كانت الغرفة مضاءة بمشعل معلق على الجدار، والرجل الذي أحضره القرويون ممدداً على الأرض، وجهه منتفخ، وذراعاها متصالبان، والجرح في الجانب الأيسر ينزف دمًا؛ وعلى بعد أمتار منه جثة أخرى تسبح في بحر من الدم.

صرخ نائب الرئيس دوم موديستو: يا إلهي! هو... هو...

- لقد تحقق الأخ غاسبارو من بقر بطن الرجل، وصوته يرتجف، لقد فتح البطن بجرح نافذ بواسطة مشرط حاد كنت وضعتة جانب الجريح، أضاف وهو يلاحظ الآلة القاطعة إلى جانب الجثة.

- ماذا جرى؟ من ارتكب هاتين الجريمتين الهائلتين داخل جدراننا؟... ولماذا؟

- تساءل الأخ غاسبارو: لكن أين اختفى القاتل؟ الغرفة مغلقة من الداخل، لا يمكن للمجرم الخروج من الباب.

- ردّ النائب ممسكاً بملقط النار، أنت مصيب، ثم أشار على الراهب بفتح الخزانة، المكان الوحيد الذي يمكن لرجل الاختباء فيه. قفز الأخ غاسبارو وقلبه يخفق من شدة الخوف وأزاح الباب الخشبي، فلم يجد شيئاً.

حدّق الرجلان أحدهما في وجه الآخر مندهشين، اتجه دوم سلفاتور نحو النوافذ الصغيرة على مستوى السقف، لم يتمكن أحد من الخروج منها لضيقها حتى على طفل.. بقيت المدخنة وهي الحل الأخير المتبقي، من المحتمل أن يكون القاتل قد استعان بحبل عند الهرب.

أجرى الراهبان تفتيشاً دقيقاً في مدخل ومخرج المدخنة باستخدام مشعل، ورغم دهشتهم لم يعثراً على مؤشر أو أثر للشحار على الأرض، ولا أية علامة على طول الجدار.

هذا مستحيل، ومسح بإصبعه الجدار الأسود وخلص إلى القول: لو أن أي شخص عبر من هنا عليه أن يترك أثراً على الجدران.

- وتابع الأخ غاسبارو بصوت مرتجف إنه الشيطان بذاته الذي حضر إلى هنا.

حيال هذه الكلمات لم يكن بوسع نائب رئيس الدير إلا أن يفكر بتحذيرات القرويين غير أنه أبعد هذه الفكرة من رأسه.

- لا يمكننا ترك هاتين الجثتين بهذا الشكل، من المحتمل أن يحوم القاتل بين جدراننا، ناقوس صلاة الصبح سيقرع بعد قليل، يجب...
فجأة قاطعه الراهب الممرض الذي اتحنى على جسد الغريب، إنه ما زال حياً! إذ لم ينزف كثيراً من الدم، مع إمكانية الثام الجرح، قد يكتب له الحظ بالشفاء.

ساعد نائب رئيس الدير الراهب الأخ غاسبارو في نقل الجسد الذي لا حراك فيه على فراشه. وفيما كان الممرض يحاول إنقاذ الغريب المحتضر، قام بتنظيف جثمان الأخ موديستو. لما قرع جرس صلاة الصبح، تُرك الراهب الذي ما زال مرتعداً يتابع تقديم العناية، ومن ثم يعبر الرهبانية قاصداً الكنيسة لترأس القداس.

بعد انتهاء الشعائر الدينية، أقدم على إعلام الرهبان الأربعين مباشرة بمضمون الفقرة الاستثنائية، تبعه الأخ غاسبارو، فأعلمهم نائب رئيس الدير بالمآسي التي حصلت تلك الليلة، دون أن يذكر لهم أن الباب كان مقفلاً من الداخل، بقصد عدم إثارة الرعب اللامنطقي في الدير كان الجميع ينظرون إلى بعضهم مندهشين. من هو مرتكب جريمة من هذا النوع؟ لماذا حاول أيضاً قتل الجريح اللغز؟ وتساءلوا أيضاً ماذا كان يفعل الأخ موديستو في غرفة التمريض عند منتصف الليل؟ إلا إذا كان قد قتله أحدهم في مكان آخر ونقله فيما بعد لهذا المكان؟ أمضى الرهبان معظم نهارهم للإجابة على هذه الأسئلة بهدف تجنب الفضيحة خلال فترة غياب رئيس الدير، كما طلب دوم سلفادور من الجميع المحافظة على السر المتعلق بهذه الأحداث المأساوية، وأعلن في الخارج عن الموت الطبيعي لـ الأخ موديستو، ومنذ ذلك الوقت اتخذ الرهبان إجراءات المراقبة الدقيقة ليلاً نهاراً على جميع مداخل الدير.

مضى يومان على دفن الراهب المسكين في المقبرة الخاصة بالرهبان القريبة من الدير، مقابل البحر. وفور انتهاء الصلاة قصد دوم سلفاتور

غرفة التمريض برفقة الأخ غاسبارو، ما إن وصل إلى فراش المريض حتى سأل عن تحسن صحته.. بفضل نعمة الله بدأ يستعيد قواه. علق الممرض على الأورام في وجهه بأنها سطحية، ونجحت في إعادة غلق الجرح الخطير، لكن لو بقي كذلك لبضع ساعات إضافية لنفذ دمه وفارق الحياة.

- ألم يستعد وعيه؟

- ليس بعد، عرفت في حياتي جروحاً مماثلة في خطورتها، قد يبقى صاحبها أحياناً بين عالم الأحياء وعالم الأموات، فالله وحده يعرف قدره.

- نعم، إن حياته بين يدي المولى، تتمم نائب الرئيس العبارة وهو ينهض.

ثم قصد غرفته التي يستخدمها مكتباً له، جلس ودون كل أحداث اليوم. هذا التقرير كان معداً للراهب رئيس الدير الذي سيعود بعد عدة أسابيع من سفره الطويل إلى الخارج.

بدأ دوم سلفاتور يرتعد من الآن لفكرة إعلان الخبر المرعب لدوم تيودورو النزق.

هذا السبعيني المحب للنظام والانضباط، لن يتوانى عن تذكير نائبه أنه لم يقع حدث كبير كهذا أثناء حضوره إضافة إلى خدمة ثلاثين سنة قضاها في رئاسة الدير.

تمنى دوم سلفاتور حلّ لغز الجريمة البشعة قبل عودة رئيسه، لكن مع الأسف، لم ير أو يسمع أحد شيئاً ما في تلك الليلة، ولم يُعثر على أي أثر للقاتل. وما يُعرف فقط بشهادة بعض الأخوة الرهبان أن المسكين موديستو نهض من نومه وخرج من غرفته بين صلاة النوم والفجر. وبما أن هذا التقى يصاب بالأرق فكان يذهب إلى بهو الكنيسة للصلاة ليلاً

دون التسبب في إقلاق راحة أحد، لذلك تخيّل نائب رئيس الدير، أن الراهب قد يكون أحس بضجة مريبة في غرفة التمريض لدى مروره بجانب الرهبانية، وقد يكون التقى برجل كان يحاول الإجهاز على الجريح وقتله ختقاً، كما تدل على ذلك العلامات على وجهه. ومن الممكن أن يكون الراهب قد تدخل وكان ضحية القاتل المتوحش! كل هذا قابل للتصديق، قال نائب الرئيس في نفسه، لكن كيف تمكن من الفرار تاركاً الباب مقفلاً من الداخل؟

وسط هذه الأسئلة التي ملأت فكره، ذهب دوم سلفاتور يجثو أمام أيقونة العذراء المعلقة أمام سريره.

كان لدى دير البندكتيين في سان جيوفاني في فينيري خصوصية امتلاك معمل للأيقونات، هذه الرسوم المحفورة على الخشب، المثلة للسيد المسيح والسيدة العذراء أو للقديسين، كانت منتشرة بكثرة في الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، لكن منذ الانفصال في القرن الحادي عشر بين الكنيستين الشرقية والغربية فضّل اللاتينيون التابعون للكنيسة الغربية الحفر أو النحت على الزجاج بألوان متعددة لترزين الكنائس. بيد أن رئيس دير سان جيوفاني احتفظ بعد إقامته في الشرق بعدد كبير من رسوم هذه الصور المقدسة. كان قد أرسل راهبين موهوبين في الرسم إلى جزيرة كريت لتعلم فن تقنية الرسم، توفي أحدهما وأما الآخر «الأخ أنجيلو» فقد تابع ممارسة فنّه في معمل صغير يقع جانب غرفة التمريض، من هذا الواقع فإن كثيراً من الأيقونات كانت ترزين كنيسة الدير إضافة إلى بعض غرف الدير مثل غرفة الطعام، ومجلس الرهبان، وغرفة رئيس الرهبان ونائبه.

اعترف دوم سلفاتور وهو يحذّق بصورة العذراء أم المسيح، بالهموم التي تقضّ مضجعه. ومن ثم أوكل لها حياة وروح الرجل الذي دخل فجأة في حياة الدير المنتظمة، وكتلميذ وفّي لأرسطو وتوما الأكويني،

كان قليل الميل إلى تصديق وجود «ظواهر فائقة الطبيعة»، أو على الأقل التفتيش أولاً عن تفسير معقول لكل ظاهرة غريبة ظاهرياً.

سمح له هذا الموقف الحكيم باكتشاف ظهورات كاذبة للمولى والشيطان، أحياناً حتى لدى بعض رهبانه المتحمسين المهوسين. لكن هذه المرة بدأ يتساءل في أعماقه إذا كان الشيطان شريكاً في أحداث الأيام الأخيرة.

عندها، وبالرغم من الساعة المتأخرة، قرع أحدهم باب غرفته.

إلهي ماذا حدث أيضاً؟ فكّر الرجل الصالح وهو ينهض بصعوبة ليذهب ويفتح الباب، رافعاً برنسه كما تقتضي العادة بعد صلاة النوم، فقد بدا الراهب الأخ غاسبارو متوتراً جداً.

- فتح عينيه! لقد استعاد الجريح وعيه.

أخيراً اطمأن نائب رئيس الدير لدى سماعه النبأ المفرح، وعلى الفور لحق بالراهب المريض، لي طرح بعض الأسئلة على الرجل حول أحداث الليلة السابقة المؤلمة.

- تابع الأخ غاسبارو: لم ينطق بأي كلمة، غير أنه هادئ، عيناه مفتوحتان تحدقان بالسقف. دخل الراهبان غرفة التمريض، وقد بدا على دوم سلفاتور وقع المفاجأة عندما رأى نظرات الجريح.

كان الرجل فاقد الوعي، وجهه ضامر، وجنتاه بارزتان، لكن عينيه السوداويتين، كانت تطبعهما الرصانة، وتعبران عن أعماق ذاته. وفي اللحظة ذاتها عرف دوم سلفاتور أن هذا الرجل كان عائداً من الأعماق السحيقة، قرأ في روحه، تنبأ عن مستقبل مأساوي مشع وباهر، قال في نفسه: حتماً، لقد عرف هذا الرجل الجنة والنار.

- همس الراهب في أذن المريض، هل تسمعي يا صديقي؟

قد تسمعي ولا تقوى على إجابتي، تابع الراهب بصوت لطيف عذب.

- بعد فترة من الصمت، أمسك الراهب بيده، لم يبد الرجل أية ردة فعل، ثم أدار رأسه نحو الراهب وحدّق به دون أي كلمة، حاول دوم سلفاتور عبثاً التقاط أي كلام أصم في أعماق عينيه. بعد لحظات، أشاح الرجل بنظره عن الراهب وحدّق بالسقف من جديد.

أقلت نائب رئيس الدير تدريجاً يد الجريح، وابتعد نحو الباب، ثم تحقّق من صحة وضع الضماد الذي يشد صدره والتحق برئيس الدير. - إنه واع لما يجري حوله، لكنه غائب عن ذاته، بهذا همس دوم سلفاتور، قد يكون فقد الذاكرة؟

- يمكن لهذا أن يحدث عند وقوع صدمة عنيفة، وافقه على ذلك الراهب الممرض، هذا ما حدث لأخت والدتي عندما رأت زوجها يفارق الحياة بعد أن دهسته عربية.

- هل استعادت ذاكرتها؟

- نعم بعد أكثر من عام.

- كيف تم هذا؟

- بالصدفة تقريباً. في أحد الأيام عرض عليها تاجر مجموعة من الدمى، حدّقت خالتي في دمية صغيرة من القماش، ولم تحدّ بنظرها عنها. وفجأة عاد إليها جزء من ذاكرتها. التفتت نحو أمي وقالت: انظري لهذه الدمية كم تشبه تلك التي كنا نتنازع عليها في الماضي. كل يوم كانت أحداث من ماضيها تعود إليها إلى أن عاد لها إدراكها تماماً.

- استطرد نائب رئيس الدير وهو يقف أمام باب غرفته وقال: هذا شيء مهم، هل لاحظت نظرة ذلك الرجل.

أجاب الأخ غاسبارو بعد لحظة من التفكير، إنها خزينة وعميقة.

- طبعاً، لكن رأيت فيها النور، الذكاء، ولديّ الجرأة أن أضيف إلى

هذا: المعرفة.

هذا الرجل ليس قروبياً، يده لا تدلان على ذلك، فقد يكون تاجراً.
- سأقول فناناً أو مثقفاً، غير أن خيالي قد يتأمر علي. تابع معالجته
بانتهاب واسأله قدر المستطاع وأخبرني فيما لو نطق بأي كلمة.

افترق الراهبان، وكان من الصعب جداً الخلود إلى النوم، صلى دوم
سلفاتور من جديد للعدراء طالباً منها حماية هذا الرجل المجهول، أمنيته
الوحيدة هي أن يستعيد ذاكرته ليميط اللثام عن حادثة قتل السيد الأخ
موديستو التي ليس لها تفسير، والمحاولة التي تعرض لها بنفسه وكاد أن
يكون ضحيتها، إضافة للعطف الذي يكنه له. لقد تأثر بنظرته، متذكراً
قصة خالة الأخ غاسبارو، قال في نفسه: إن هذا الرجل كان قد أقام
جداراً بين وعيه وماضيه ليخفي صورة لا تطاق. أي صورة؟ كيف
يمكن جعله يستعيد ذاكرته؟ ماذا كان يفعل في كوخ تلك المطببة التي
يتهمها القرويون خطأً أم صواباً بالشعوذة؟

تحولت صلاة الراهب إلى الكثير من التساؤلات، استسلم بعدها
للنوم منحنيماً أمام أيقونة العدراء، إلى أن قرع ناقوس صلاة الفجر الذي
أيقظه من نومه.

خلال الأيام التي تلت، تحسنت حال الجريح الصحية كثيراً،
وأضحت بنيته مقبولة، بدأت قواه تعود بسرعة أدهشت الراهب
المرض. بعد ثمانية أيام استعاد وعيه، وكان باستطاعته النهوض والقيام
ببعض الخطوات، أما الأخ غاسبارو فكان يخاف عليه من السقوط
الذي يسيء إلى حالة جرحه الصدري، وعلى العكس قام دون سلفاتور
بتشجيعه ومراقبة جرحه، رغبة منه باستعادة حركته، ومعرفة الوسط
الذي يعيش فيه.

مستنداً تارة على الأخ الممرض وطوراً على نائب رئيس الدير، كان
الرجل يتحسن تدريجاً، غادر غرفة التمريض واجتاز الممر الواصل بين
الغرف المشتركة للطابق، المطبخ، غرفة الطعام، المكتبة، معمل

الأيقونات. وانتهى بالدخول إلى الرهبانية في آخر الرواق، ثم قام بدورة كاملة حولها. كان دوم سلفاتور يأمل كل يوم بأن يستعيد الرجل ذاكرته، ولم يتوانى عن التأمل بنظراته، لكن الرجل ظل صامتاً، لا شيء في عينيه يمكنه الإفصاح عن العاطفة أو التأثير أو العودة إلى ذاكرة مدفونة.

كان على نائب رئيس الدير أن يتحمل فيما بعد ملاحظات أكثرية الرهبان الذين يطالبونه بترك مريض الرهبانية يذهب إلى قسم الضيافة الفندقية، لكنه اعترض على ذلك بحجة أن الرجل تعرض لمحاولتي قتل، ومن الخطر جداً تركه وهو في هذه الحالة خارج حرم الدير المحروس والمراقب حالياً بشكل صارم. لم تقنع حجته وشروحاته الرهبان المتمسكين بضرورة التقيد الشديد بالقاعدة، النظام. كان نائب رئيس الدير يعرف أن من واجبه تقديم تقرير لرئيس الدير حول هذا القرار الجريء لدى عودته من السفر، ويعرف أيضاً أن العجوز رئيس الدير قد يخالفه الرأي ويطرد الجريح من الدير. الوقت ثمين، لم يبق سوى أياماً معدودات لعودة رئيس الدير في يوم عيد الفصح. بقي لدى نائب رئيس الدير ثلاثة أسابيع لمحاولة تمكين الرجل المجهول من استعادة ذاكرته، ومن ثم محاولة تفسير وكشف جريمة الأخ موديستو المريعة الغامضة.

عندما كان دوم سلفاتور يستقبل قبل حلول المساء بقليل فرا انجيلو صانع الأيقونات في الدير أفاده الأخير عن خبر شديد الغرابة.

تذكرت مباشرة بعد صلاة النوم، أنني أغفلت إقفال باب معمل الرسم بالمفتاح، همس فرا أنجيلو بانفعال موجهاً كلامه إلى نائب رئيس الدير الذي يسمعه؛ عدت فوراً لما اكتشفت أن الباب مفتوح قليلاً والغرفة مضاءة. اقتربت بحذر وألقيت نظرة نحو الداخل؛ كم كانت المفاجأة عظيمة عندما شاهدت الجريح جالساً إلى طاولتي المنارة. بمشعل وهو يحفر الخشب الذي تركه لليوم التالي.

- تريد القول أنه أمسك بأداة الحفر على الخشب لنقش رسم الأيقونة؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك! ولم أود الدخول، بل أسرعت لأخبرك بالأمر.

- حسناً فعلت، لنذهب إلى معمل الرسم ونستجلي الأمر...

تمتم نائب رئيس الدير وبدا قلقاً:

- آمل أن لا يكون أحد قد أقدم على إقفاله.

- دخلا الغرفة بعد إنارة زواياها الأربع. بمشاعلهم، كان الرجل قد انسحب دون شك إلى غرفة التمرريض، لكن عندما أثار الضوء طاولة المشغل، لم يتمالك الأخ أنجيلو أنفاسه ويحبس صراخه.

يعلو الخشب المدهون طبقة رقيقة من الحصى، كان فاقد الذاكرة عندها رسم صورة العذراء حاملة بعطف وحنان الطفل يسوع بين ذراعيها، قسما ت الوجه رائعة، والتناسب كاملاً.

صرخ الأخ أنجيلو: أقسم بالقديس بونوا أن هذا مدهش للغاية، كيف يمكن رسم عذراء الرحمة في زمن قصير جداً... دون توفر نموذج للنقل عنه؟

تساءل دوم سلفاتور: تريد القول أنه لم يتمكن الاستيحاء من أيقونة مرسومة سابقاً؟ بينما نظراته تجول في أنحاء الغرفة بحثاً عن نماذج محتملة.

- مستحيل! لم أرسم في حياتي هذه العذراء، إنها أيقونة من مدرسة الرسام الشهير اندريه روبليف من القرن الرابع عشر.

وعلق نائب الرئيس: هذا معناه أن رجلنا مارس الرسم سابقاً لهذه الأيقونة.

- طبعاً ومرات عدّة إذا ما وثقت بهيئته، لكنه لم يتعلم هذا الفن في إيطاليا.

- سأل دوم سلفاتور الذي زادت دهشته، هل تعرف مكاناً يتم فيه رسم صوراً لعذراء الرحمة؟

وضع الأخ أنجيلو اصبعه على شفثيه وظل يفكر لبعض الوقت.
- على حد معرفتي، هناك معملان في العالم حيث يتم فيهما رسم صور العذراء، الأول الدير الروسي الكبير في ساغورسك الذي لا يبعد كثيراً عن موسكو.

- صاح نائب رئيس الدير متعجباً: موسكو!
والثاني قمة أثوس في شبه جزيرة يونانية لا يقيم فيها سوى الرهبان، حيث انتشر الرسامون الروس.

- هذا يعني أن رجلنا قد تعلم رسم الأيقونات في روسيا أو اليونان.
التفت الأخ أنجيلو نحوه قائلاً:

- نعم لكن القليلين جداً من غير المتدينين يُقبلون في مراسم هذه الأمكنة السرية للأرثوذكسية، ومن المحتمل أن يكون رجلنا راهباً.

أخيراً، حتى لا يضاف إلى جو اللغظ الذي يسود الدير، قرر دوم سلفاتور الاحتفاظ بسرية هذا الاكتشاف المدهش، وأمر الأخ أنجيلو من الآن وصاعداً، ترك باب الرسم مفتوحاً، ومراقبة الوقائع والأعمال، وأعمال فاقد الذاكرة دون إزعاجه في عمله.

عند كل مساء، ما أن يخلد الرهبان إلى النوم، يأتي الرجل ويستقر في معمل الرسم ويتابع عمله، ثم يترك الأيقونة في مكانها دون إعاقة نظره لشيء آخر.

بعد أن رسم العذراء حاضنة طفلها، ووضع وريقات من الذهب على جوانب الشخصيات، كان هذا اختباراً لتناسق الألوان، وخلطها مع صفار البيض ومن ثم شرع بالرسم، منطلقاً من طبقات الجلد والملابس الداكنة، مع إضافة النور، عندها تنبض الأيقونة بالحياة بصورة مذهلة.

دُهِش الأخ أنجيلو من مهارة الرسام ودقة ونعومة ثنايا معطف العذراء، إنها بصمة لكبار رسّامي الأيقونات. من جهة فهو يرى أن تلك هي علامة صحة حدسه. أي مصير لا يصدّق الذي قاد راهباً أرثوذكسياً رساماً للأيقونات أن يتعرض لجرح خطير، فتلتقطه طبابة وسط كتلة جبلية إيطالية اسمها «ابروزيس؟». أي سر عميق كان بمقدوره حمله، ويؤدي البحث عنه في محاولة لقتله داخل الدير، دون التردد باغتيال

راهب آخر حضر للدفاع عنه؟ لم تكن لدى دوم سلفاتور سوى فكرة واحدة تشغله: اكتشاف هوية وقصة هذا الرجل، لكن كيف؟

في صباح أحد الأيام، وأثناء التراتيل الصباحية خطرت لنائب رئيس الدير فكرة جديدة أرجع مصدرها إلى الروح القدس، لأنها بدت رائعة له، هناك حظٌّ من اثنين: من أجل أن يكون فقد الذاكرة فذلك منذ أن عاش على قمة أثوس الشهيرة.

بيد أن دوم سلفاتور كان يقيم علاقات وثيقة مع تاجر ثري من بيسكارا يدعى «أدريانو توسكاني»، كان على سفر دائم للتجارة في اليونان. لماذا لا أوكل له مهمة الذهاب إلى قمة أثوس لاستقصاء المعلومات عن هذا الرسام العجيب للأيقونات؟ قبل التاجر المهمة طوعاً بالسفر إلى أثوس ما دام على أهبة استئجار سفينة للإبحار إلى اليونان. لم تكن أثوس تبعد عن بيسكارا أكثر من ثلاثة إلى أربعة أيام، وأكد أنه بعد قرابة أسبوعين سيعود حتماً.

توسل دوم سلفاتور إلى السماء بأن لا يعود رئيس الدير قبل عودة توسكاني وقيامه بالمهمة على أفضل وجه.

ظل منتظراً عودته بقلق، وكان يتابع مساء كل يوم في المعمل مدى تقدم عمل الرسام، تفصيل جلب اهتمام الراهبين: فالرجل أنهى تقريباً رسم الوجه، والملابس واليدين، لكنه ويا للعجب ترك عيني العذراء باللون الأبيض، لكن بعد خمسة أيام من إبحار توسكاني لاحظ دوم سلفاتور أن الرجل أكمل رسم الأيقونة وشرع برسم العينين. اهتم الراهب نائب رئيس الدير بعمل الرجل الذي قارب الكمال، وتحقق من أن عيني العذراء كانتا مغمضتين.

«عذراء بعينين مغمضتين! لم أر ولم أسمع أبداً شيئاً من هذا القبيل».

مضت فترة المفاجأة ليكتشف دوم سلفاتور الجمال الثاقب للعذراء. كان هذا التفصيل يبرز الابتسامة الخفيفة التي أظهرها الرسام في زوايا

فم أم المسيح، وأعطائها عمقاً، ولطافة وعذوبة لا مثيل لهما. هكذا بدت مريم مأخوذة في تأمل داخلي، بعيداً عن رسمها، فإنها تعطي ملامح غائبة، هذه السريرة تجعلها حاضرة بقوة حيال الطفل يسوع.

تمت دوم سلفاتور بصوت كاد يخنقه من شدة التأثر، هذه الأيقونة تشع قوة خارقة مؤثرة للغاية.

وقف لحظة طويلة أمام أيقونة العذراء ذات العينين المغمضتين، وتحول فضوله إلى صلاة، وصلاته إلى دموع لم يتمكن من كبتها. قال في نفسه: لم يحدث مطلقاً أن حصيلة صورة مرسومة تجعله شديد الإحساس بهذا الحضور الودّي لمريم العذراء.

هذه الأيقونة من أجمل التحف، لا يمكن أن تكون إلا من فعل رجل عبر الجحيم وعذاباته وتغلب عليه. رجل يأتي ليقول «الحنان الإلهي مثل حنان الأم، إنه أقوى من الموت». استفاق دوم سلفاتور فجأة من تأملاته على وقع صوت أجش، خرج مسرعاً من معمل الرسم، وعلى بعد عدة أمتار من ذلك المكان وأمام غرفة التمريض، لمح الرجل فاقد الذاكرة واقفاً، نظراته مملوءة بالرعب، أسرع الراهب نحوه لسؤاله عما يجري، لكن هذا الرجل إذا تكلم بعينه لأول مرة، فإن أي كلمة لن تتمكن من اجتياز شفثيه، وأشار بيده نحو غرفة التمريض الغارقة في الظلمة، قام نائب رئيس الدير بإضاءة الغرفة بمشعله، وأطلق بدوره صرخة الرعب.

راهب ينازع الحياة ممدداً على ظهره، عيناه جاحظتان، ونظره واهٍ، كما لو أنه رأى الشيطان بعينه، كان قد فارق الحياة.

في صباح الغد وبعد صلاة الصبح، أعلن نائب رئيس الدير للجماعة موت الأخ أنسلمو المفاجئ. ولتجنب انتشار حالة الذعر والهلع، عمل الرئيس على قضاء فترة الليل بصحبة أخيه الراهب الممرض في التحقق من أسباب الوفاة. هناك خلاصة فرضت نفسها، كان الراهب المسكين قد توفي نتيجة تجرعه السم، وبصورة مشابهة توصل الكاهنان إلى إعادة رسم حقيقة ما جرى. لم يقدم لهم فاقد الذاكرة أية معلومة، بعد أن أخبر نائب رئيس الدير، سقط على الفور في حالة من الإنهاك الكلي والوهن، التي لم يشف منها أبداً.

وتبعاً لعدّة مؤشرات مادية توصل الراهبان إلى إعداد فرضية يمكنها شرح وتفسير وفاة الراهب.

بعد صلاة النوم، قصد هذا الراهب المطبخ المجاور لغرفة الطعام، تناول قليلاً من النييد الممزوج بالأعشاب الطبية المعدّة لفاقد الذاكرة، والتي كان يحضرها الممرض كل مساء بعد الصلاة. في ذلك المساء استدعي الأخ غاسبارو على عجل لعيادة راهب أصيب بتشنجات شديدة في البطن، تاركاً طبق الطعام وعليه الدواء في المطبخ مع الشراب الذي ما زال ساخناً، ولسبب مجهول وجد الأخ أنسلمو كأس النييد وشربه. ولكن، في أثناء ذلك قام أحدهم بوضع السم الشديد. أدرك الراهب بسرعة أنه تعرض لتناول السم.

قصد غرفة التمريض على عجل آملاً العثور على دواء، لكن واحسرتاه، لم يكن لديه الوقت الكافي، وفارق الحياة على مرأى من فاقد الذاكرة الذي عاد لتوّه إلى غرفة التمريض، بعد أن غادر غرفة الرسم، والصحيح أنه هو من نبّه نائب رئيس الدير.

إذا كانت هذه الفرضية تسمح بفهم تسلسل الأحداث، بارتكازها على مؤشرات دقيقة، فإنها تترك التساؤل الأساسي دون جواب: من الذي دسّ السمّ في كأس الخمر المعدّ للرجل فاقد الذاكرة؟ لكن الذي يبدو أكثر احتمالاً بنظر الراهبين، أن أحدهم حاول من جديد قتل الرجل الغريب، وحسب هذه الفرضية كان الراهب الأخ أنسلمو ضحية شراسته.

هنا أيضاً، لم يتوصل التفسير إلى إقناع الأخوة الرهبان، بعضهم يرى في ذلك عمل من أعمال الشيطان، والآخرون من فعل فاقد الذاكرة، وكان لهذا ميزة وجود جنٍ مثالي.

كانت نظرية نائب رئيس الدير تشكل فعلاً في نظر الجماعة همماً كبيراً، قد يكون شخص ثالث من دسّ السم، بيد أن سور الدير وأبوابه مغلقين بإحكام منذ الجريمة الأولى، استنتاج مرعب يفرض نفسه: كان القاتل واحداً من جماعة الرهبان.

في هذا الظرف القاتل، عاد رئيس الدير دوم تيودورو من السفر مصحوباً بخمسة رهبان آخرين كانوا برفقته في جولته الطويلة، وقبل عبوره عتبة الدير، أعلمه بالأحداث الراهب الذي ذهب لملاقاته دون علم نائب رئيس الدير. لقد وصل الدير عند هبوط الظلام، وقصد الكنيسة وقت صلاة النوم. وارتاح رهبان الدير كثيراً لدى رؤية رئيسهم بعد غياب طويل. وقبل مغادرته الكنيسة همس رئيس الدير في أذن نائبه باللحاق به بعد ساعة في غرفته، وبعد أن يتناول وجبة خفيفة من الطعام.

وفي الوقت المحدد صعد دوم سلفاتور إلى غرفة رئيس الدير وقرع الباب الذي كان نصف مغلق ثلاث مرات.

- شكراً لله قالها دوم تيودورو الرئيس بصوت خافت.

دخل نائب الرئيس الغرفة المنارة بشمعتين كبيرتين موضوعتين على جهتي طاولة الرئيس الكبيرة.

كان رئيس الدير منكباً على قراءة صفحات كتاب كبير، لم يرفع حتى رأسه لاستقباله.

- تنهد الرئيس العجوز وقال: أعود منهكاً من سفر طويل، لأجد الحزن يأخذني، أن القاعدة لم تعد محترمة في هذا المكان.

أدرك دوم سلفاتور أن رئيس الرهبان على علم بكل ما جرى.

لم يستدعه في تلك الساعة المتأخرة للاستفسار بل للاتهام، جمع نائب رئيس الدير بُرُنسه على صدره بتواضع وخضوع ثم أجاب:

- ليسا تخني الله إذا أخليت بواجباتي، للأسف لم أتمكن من فعل شيء لمنع وقوع هاتين الجريمتين المرعبتين.

- قاطعه رئيس الدير بحزم: لتجاوز الآن حوادث القتل هذه، فهي ليست إلا من ثمار إهمالك.

بقي نائب الرئيس صامتاً مذهولاً، بينما دوم تيودورو يتابع القراءة في الكتاب، ثم تابع باللهجة نفسها المجبولة بالملل والتعب:

علمت أن شخصاً فقد الذاكرة على ما يبدو، وهو موجود تحت سقف ديرنا منذ عدة أسابيع، بالحاح وطلب منك. ألا تعلم أن عاداتنا تمنعنا من الاحتفاظ بأناس مدنيين ضمن سور الدير، حتى ولو كانوا جرحى؟

- أستطيع إذا رغبتم في ذلك، أن أروي لكم في الحال مما أعرفه بهذا الشأن، عندها ستصدر حكمك فيما إذا كنت أسأت التصرف نتيجة الاحتفاظ به هنا.

تهدد الراهب رئيس الدير مرة أخرى دون أن يرفع نظره عن كتابه وقال: هيا تكلم.

روى دوم سلفاتورو للرئيس الظروف التي استقبل فيها الجريح، والظروف الغريبة التي توفي فيها الأخ موديستو، استطرد الأب بانزعاج خفيف وقال: حسناً أعرف جيداً باقي الأحداث، لكنك لم تذكر لي لماذا بقي الرجل داخل مجمعنا، وكما أعلم الدير ليس ملجأ أو مضافة.

- أنا مستعد لتسليمه إليك. عملء إرادتي يا دوم تيودورو لكن لهذا الشخص ميزة خاصة...

لأول مرة رفع الرئيس نظره متوجهاً نحو محدّته، فقد لاح في داخل برودة عينيه الصغيرتين الغائرتين في محجريهما السوداوين الذين حفرتهما سنوات الصيام والتكفير عن الذنوب وميض من الدهشة. أكمل دوم سلفاتور روايته بحماس أكبر متشجعاً ببادرة الاهتمام هذه.

- ما أن فتح جفنيه، حتى أثرت بي نظراته وأذهلتني، حيث خلف هذا الجسد الذي أحته السنون، وهاتان العينان الحائرتان توجّستُ أني أمام إنسان عظيم، بدا لي معرفة بأن لهذا الرجل قصة جديرة بالانتباه، قررت الانتظار وإجراء تحقيق معه ما أن يبلغ درجة مقبولة من التحسن. ولكن ويا للأسف بالرغم من تحسن صحته اليوم، فإن الرجل لم ينطق بكلمة حتى الآن، ويبدو أنه ظل فاقد الوعي كالأيام الأولى.

- استدرك رئيس الدير بقسوة: حسناً، سيغادر المكان غداً إلى مأوى سان داميانو، كوننا غير مختصين ومهيئين للعناية بالمجانين.

- هذا طبعاً ما كنت أنوي فعله، لولا أنه منذ عدة أسابيع جرى حدث غير متوقع أكد انطباعي الأول.

قَطَّب رئيس الدير حاجبيه، روى له دوم سلفاتور واقعة الأيقونة وكلام الأخ أنجيلو التي بحسبها قد يكون الرجل راهباً من جبل آتوس. توقف نائب الرئيس عن الكلام، مترقباً ردة فعل عيني الرئيس، لكن الرئيس دوم تيودورو ظل صامتاً يرمقه بنظرات أشبه بنظرات النسر.

- تابع القول: للتأكد من حقيقة الأمر طلبت من صديقنا التاجر توسكاني الذي يبحر إلى اليونان في تجارة التوابل، ما إذا كان بمقدوره أن يعرج على آتوس، غادر صديقنا إلى اليونان مصطحباً معه صورة الجريح رسمها الأخ أنجيلو منذ أربعة عشر يوماً، في أفضل الأحوال أن يكون قد عاد منذ البارحة.

توقف دوم تيودورو عن الضغط بأسنانه وتكلم بسخرية:

- فكرة رائعة، هكذا سنعرف دون شك أن رجلنا هو راهب أرثوذكسي وأن سهماً ثانياً قد طعن به، بينما كان يحاول الفرار من الدير، قبل أن يجتاز البحر سباحة ليلتجئ إلى الساحرة التي تعتنى به وتعالجه والمكان ليس بعيداً عن هنا!

- قد تكون إقامته في آثوس تعود إلى زمن بعيد، وقد يكون الرجل عاش محناً كثيرة منذ ذلك الوقت. قال ذلك دوم سلفاتور مستدركاً دون أن يستسلم للاضطراب بسبب عجرفة الأب الرئيس التي كان معتاداً عليها. انتظر فقط حتى يُحضر إلينا توسكاني هوية وقصة هذا البائس، أو بعض المؤشرات التي قد تمكنه من استعادة ذاكرته، اسم، ذكرى هامة، قد تكون قادرة على إخلاء سبيله من سجنه الداخلي.

صمت ثقيل خيم في غرفة رئيس الدير.

- أخيراً، صرخ الراهب العجوز وهو يتفحص دوم سلفاتور: تظن نفسك أنك تعمل بدافع الشفقة؟

- أجاب نائب رئيس الدير باضطراب: نعم على ما يبدو لي.

- حسناً: أظن أنها ليست الشفقة التي أثار انتباهك حيال هذا الصعلوك المسكين.

- و... ما الأمر إذن؟

- إنه الفضول.

- الفضول؟

- استدرك دوم تيودورو وهو يوقع كلامه بابتهاج: نعم، الرغبة البسيطة التي لا تقاوم في المعرفة. أظن نفسك مدفوعاً بالشفقة المقدسة بينما لا تقوم إلا بالانصياع لإغواء المعرفة العبثي. أساس الموضوع أن مصير هذا الرجل يثير اهتمامك، أو قل من أجل إرضاء

رغبتك في اكتشاف ماضيه، حياته، اسمه...

- أقر نائب رئيس الدير أن فضوله يرقى إلى إنسانية ممزوجة بالرحمة والإحسان الإلهي، جاءت في غمرة حماسي لمساعدة هذا الرجل، لكن ألا يأمرنا السيد المسيح بأن لا نفصل أبداً الزيون عن البذار الصالح؟

- رد الراهب المدير الذي كان الغضب يسري في عروق جسده التي أضحت فجأة أشد بروزاً: كم من السهولة بمكان الاستعانة بالكتب المقدسة لتبرير الأمور الأكثر دناءة.

- بالنسبة إلى أي إنسان كائناً من كان، ألم يكن الفضول وحب المعرفة محمودتين من الفلاسفة كفضيلة أكثر منها نقيصة أو عيباً؟ ألم يؤكد أرسطو نفسه أن الاندهاش هو أصل الفلسفة.

تابع نائب رئيس الدير الذي لم يكن في نيته التنازل في المبارزة الثقافية الذهنية التي ساقه إليها رئيس الدير، ألم يذكر توما الأكويني أن طرح الأسئلة الفلسفية هو الذي قاد إلى طريق أنوار العقل أعظم قدماء الفلاسفة والذي أدى إلى اكتشاف الخالق الأوحده؟

قال دوم تيودورو غاضباً: لا يهمني ما كان يفكر به أرسطو أو أفلاطون. تعرف جيداً أنني لا أقدّر الأهمية العالية جداً التي يمنحها بعض فلاسفتنا إلى هؤلاء المفكرين الوثنيين. وما يعينني، أنني أفضل الرجوع إلى الكتب المقدسة التي تظهر أن الفضول هو في أساس كل العيوب وأولى الأمراض التي أدخلت الإنسان في الخطيئة، لأن الخطيئة الأصلية لم تأت إلا من رغبة حواء معرفة طعم الثمرة المحرمة. فضولها كان في رغبتها بالمعرفة رغم التحريم الإلهي، التي دفعته لتأكل من ثمر شجرة معرفة الخير من الشر. إنه أيضاً إغراء المعرفة، والمعرفة للمعرفة دفعت آدم ليلحق امرأته في سقوطها، وأنت دوم سلفاتور تظن أنك تقوم بالعمل الصالح لكنك خالفت قواعدنا، لم تفعل هكذا مع ذلك الرجل إلا رغبة في إرضاء فضولك، حاملاً رهباناً آخرين شركاء معك

بفعلتك، هذا أمر معروف يكفي أن يغيب الأب ليزرع الشيطان البلبلة بين الأبناء، غداً سيعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي، بعد صلاة الصبح مباشرة سوف يساق هذا الرجل إلى ملجأ سان داميانو.

- تعرف مثلي دوم تيودورو أن الرجل ليس مجنوناً، وسيكون هناك أيضاً، وإذا لم يفقد عقله كلياً فإنه سيموت بسبب بعض الأمراض الإنسانية التي تحصد كل عام أكثر من ثلث هؤلاء البؤساء.

- لقد فقد هذا الرجل صوابه، وديرنا ليس مضافة أو ملجأ يا دوم سلفاتور، استدرك الأب الرئيس الذي استعاد هدوءه، ثم أنك تنسى جرمي القتل المروعين اللتين ارتكبنا منذ وصوله الدير. إذا لم يكن هو الفاعل المباشر لهذه الجرائم، وهذا ما يجب التحقق منه، فهو في جميع الأحوال السبب في اختلالات الأمن، سأقوم بتحقيق جدي للكشف عن هذه الأعمال الإجرامية، لكن ما هو الأكثر إلحاحاً هو إبعاد مسبب الشر، وأنا مصمم على زيارته في ملجأ سان داميانو لأتحقق بنفسي فيما إذا كان به مس من الشيطان نفسه، وهذا ما يفكر به بعض إخوتنا الرهبان.

- أتوسل إليك، أبتى، لنتظر عودة توسكاني، من الممكن أن يأتينا ببعض الأخبار التي قد تساعد الرجل على عودة الذاكرة والاسم.

يرى الراهب الرئيس أن دوم سلفاتور يسعى لتأخير قرار اتخاذ يوم كان رئيساً للدير منذ قرابة ثلاثة عقود، أمام الله بذمتي وضميري، كان هذا يثيره بشكل مقبول، لكنه لم يظهر منه أي شيء.

- نحن نستقبل يوماً العشرات من الحجاج، والمسافرين، والفقراء المساكين حتى قطاع الطرق واللصوص، يتلقى كل واحد حسب العادة المتبعة في أديرنا، المأوى والطعام لمدة ثلاثة أيام مع لياليها في المضافة، ولا يمكن لأحد البقاء أكثر من ذلك، وأقل داخل السور.

دون هذا لن يكون بقدرتنا القيام بواجباتنا وحياتنا المكرسة للمديح

والشكر الإلهي، بفضل اهتماماتكم، التي أوافق عليها، استرد هذا الجريح عافية جسده، لكن ليس صحة العقل، لم ينطق بأي كلمة وهيأته تدل على أنه رجل منعزل في داخله، وكأنه ليس هنا يا دوم سلفاتور. أنت تعرف ذلك، وأجهل بأي عطف في غير مكانه أنت مصمم على تقديم العناية لمريض فاقد الوعي والذي يجلب الكثير من المآسي.

- ألحّ الراهب الذي لم يرفع رأسه، أترك لي فرصة أخيرة، إذا لم يعد توسكاني من السفر خلال ثلاثة أيام واستمر رجلنا بالصمت وعدم النطق، أعدكم بأني لن أضايقكم وسأرافقه بنفسي وحسب أوامركم إلى سان داميانو.

عاد الأب دوم تيودورو وأغرق عينيه في الكتاب، مُنهيًا الحوار بالصوت المتعب نفسه ودون جدوى.

- غداً عند الفجر بعد صلاة الصبح يا دوم سلفاتور.

صمت الراهب، لأنه يعرف أن رئيسه لا يرجع عن قراره.

ما أن غادر غرفة الراهب رئيس الدير، حتى قصد الكنيسة، وركع أمام أيقونة العذراء.

وبينما كان غارقاً في التأمل جاء الراهب البواب ليخبره بعودة التاجر توسكاني لتوّه ويطلبه بسرعة في غرفة الاستقبال رغم الساعة المتأخرة من الليل.

- شكراً لله، تنهد من غمرة الفرح.

ثم وثب راکعاً أمام الأيقونة وجرى سريعاً إلى بوابة الدير.

والآن؟ خاطب صديقه وشدَّ على يديه، وأخذه إلى مقربة من النار. الوجه المستدير للتاجر الشاب، يتناقض مع تنسك الراهب الهزيل، لكن في عينيها تتقد الشعلة نفسها، لغلامين يتقاسمان سرّاً محرماً ومسيطرّاً قليلاً على لهفته، عرف نائب رئيس الدير أن ضيفه كان مسرعاً حتى أنه لم يتناول العشاء، لهذا طلب من الراهب البواب تقديم الطعام قريباً من المدفأة الجدارية الكبيرة القديمة.

- لم تكن الأمور سيئة للغاية، أفصح التاجر بهذا، تمكنت من الوصول إلى قمة آتوس متحلاً شخصية سائح حاج، ما أن دخلت المكان، حتى قصدت الدير الروسي المسمى دير القديس بانتلامون، كان الراهب ظريفاً، يتكلم قليلاً لغتنا، تمكنت من سؤاله حول رجلنا وأظهرت له الصورة. كان الوجه يذكره بصورة غير واضحة بشيء ما، لكن من الصعب عليه البوح بأكثر من ذلك. سألته فيما إذا كان رساماً للأيقونات قد غادر أحد الأديرة في السنوات الأخيرة. عندها حدثني عن راهب شاب من أصل إيطالي تلميذ الرسام الكبير ثيوفان ستريليترا من جزيرة كريت والذي كان قد مُنع من رسم الأيقونات ومن ثم اختفى فجأة. لم يكن يعرف ذلك الرجل، لكنه يعرف أنه كان مترهبناً في دير سيمونوس بيترا.

عندها قررت الذهاب إلى سيمونتوس بيترا الدير الأكثر روعة من العشرين ديراً في الجزيرة، المعلق في أعلى الصخور المطلّة على البحر. لدى دخولي الدير سألت الراهب البواب، لكنه لم ينطق كلمة واحدة بالإيطالية، وعلى الفور طلب لي راهباً أصوله إيطالية من منطقة بيسمونت، رجل بسيط وفصيح، عندما أظهرت له صورة الرجل الجريح، صرخ مرتجياً وتعرّف فوراً على الرجل «ايوانس الأخ إيوانس» سألته بدروي مأخوذاً بالمنحى الذي أخذته المحادثة. «نعم، نعم كان رساماً رائعاً مشهوراً، لقد تعلم الرسم في فترة عدة أشهر، لكن رئيس الدير هنا طلب منه التوقف عن الرسم، لأن أيقوناته كانت تثير بعض الرهبان بسبب الجمال المعبر لوجوه العذراء. يجدر القول أن أي امرأة أو أنثى حيوان لم يكن لها أن تطأ أرض دير آتوس، ولم يرى النساء منذ سنين عديدة، أسرني الراهب بلهجة فظة، ثم أضاف بابتسامة ماكرة «أولئك الذين يرسمون الأيقونات ينسخونها من نماذج العصور السابقة، لكن الرهبان الذين رسموها سابقاً، كانوا يحاولون البحث في ذاكرتهم عن صور أمهاتهم، أو الأسوأ من ذلك من وجه رئيس الدير، الذي يجذونه قريباً من العذراء من ناحية القداسة.

مسكينة السيدة العذراء! سترون هذه الأعناق الشبيهة بعنق الثور، هذه الذقون المربعة التي يظهرونها لا ينقصها سوى اللحية! لكن الأخ إيوانس كان قد عرف الكثير من النساء قبل مجيئه إلى الدير! بينما كنت أسأله عن اسم معمودية الراهب إيوانس فكر للحظات: «للأسف لا أتذكر لم يبق قريباً من الرهينة سوى بضعة أشهر، فقد أمضى قرابة العامين تحت اسمه الديني. أتذكر أنه من مواليد كالابري، سألته عندها، ما هو مصير هذا الراهب؟ أجابني: «بعد أن طلب منه الرهبان القدماء التوقف عن الرسم، غادر الدير ولم أعرف أبداً عن مصيره شيئاً، لكن

أطرح السؤال على رئيس الدير وسيتذكر حتماً وهو يتكلم لغتنا».

قوطع توسكاني فجأة من قبل الراهب البواب الذي جاء يحمل الحساء الساخن وقطعة من الخبز وجبن الماعز. بالرغم من أنه كان متلهفاً لسماع ما تبقى. طلب دوم سلفاتور من ضيفه تناول الطعام قبل متابعة حديثه، لم يكن الرجل بحاجة للدعوة إلى الطعام الذي التهمه بدقائق معدودة، حيث كانت الأفكار تضطرب في ذهن الراهب، هل كان هذا المسلك صحيحاً؟

في حال الإيجاب، لماذا غادر آتوس إذاً؟ المعلومة الأخيرة التي قدمها له التاجر أثرت به، رغم كونه رومانياً، فإنه قد تربى عند جدته في كالابري، تأثر لفكرة أن ذلك الرجل الغريب كان يمكنه أن يكبر في المنطقة التي نشأ هو فيها.

ما أن تناول التاجر اللقمة الأخيرة حتى تابع سرد روايته.

- طلبت إذاً موعداً مع رئيس الدير، استقبلني بعد غد ذلك اليوم، كان رجلاً جامداً، فجأً ذا لحية مهيبة، رويت له القصة كاملة وأظهرت له رسم الرجل كذلك رسالتك، لم يبد أيّ تأثر أو انفعال وأكد لي أن الأمر يتعلق بشخص آخر. ونظراً لإلحاحي، قطع كلامه فجأة وصرخ بهذه الكلمات: كثير من الحجاج تعلموا رسم الأيقونات هنا أو في مكان آخر حسب المدرسة الروسية، الرجل الذي يهملك شأنه هو بالطبع واحد منهم، لكنني لا أعرف وجه هذا السيد.

عندها دعاني لمغادرة الدير بأسرع وقت. هذا ما فعلته بعد أن حاولت عبثاً رؤية الراهب الإيطالي ثانية. هذا هو المسار الوحيد الذي تمكنت من اكتشافه.

فكر دوم سلفاتور طويلاً قبل أن تظهر عليه ردة فعل.

- لا أعرف كيف أشكرك يا صديقي، معلوماتك هامة جداً قد تكون كافية لمحاولة القيام بشيء ما، لاسيما أن الأب رئيس الدير قد عاد لتوه وأمرني أن أصحب الرجل إلى سان داميانو.

صاح التاجر سان داميانو، لكن لقد انتهى منه. تعرفون مثلي راهبنا الجيد بالرغم من قلبه الكبير وصدوره الواسع، فإنه لا يقبل الشذوذ أو الاستثناء على القاعدة، ليس لدينا حرية الاختيار، لنذهب لملاقة المسكين الفقير، وليساعده الله.

توجهها مسرعين إلى غرفة التمريض، كان دوم سلفاتور متأثراً جداً بمنحى الأحداث، فقد ارتكب مخالفة جديدة للقاعدة باصطحابه التاجر إلى داخل السور..

حدّق بالرجل ذو النظرات الحائرة، وأمسكه دوم سلفاتور بكلتا يديه، كما كان يفعل سابقاً، تحدث معه كما لو كان في صالة عادية.

- يا صديقي لم أتمكن من الحصول على موافقة من رئيسنا العائد هذا المساء من سفر طويل، بأن يبقيك هنا أطول من المدة التي بقيت فيها، غداً صباحاً سأتمكن من فعل شيء من أجلك، سيتم حجزك في ملجأ، حيث ستنتهي أيامك مع المجانين، دون أن يتمكن أحد من إخراجك منه، حتى لو تحسنت حالتك، ولن تتمكن من مزاوله فنك، لأننا نعرف منذ البداية، أنك كنت تذهب كل ليلة إلى مشغل الأيقونات لترسم عذراء الرحمة. إنها صورة مذهلة. قاد هذا المؤشر صديقتنا أدريانو إلى جبل آتوس حيث تأكدنا تقريباً أنك أقمت فيه، لدينا فسحة الليل لنتمكن من تمزيق الستار الذي يغلق ذهنك، سأحاول أن أوقف فيك بعض الذكريات الدفينة، هذه فرصتك الأخيرة للعودة إلينا فاغتنمها!

أصغى الرجل إلى الراهب يامعان، ودون بادرة أي ردة فعل، ظل دوم سلفاتور صامتاً لفترة من الوقت طويلة نوعاً ما. ثم دعا ضيفه

لمغادرة الغرفة، وفي اللحظة التي كان يجتاز فيها عتبة الغرفة نادى فجأة:
- أخ إيوانيس.

كانت اللهجة موثوقة لدرجة أنها جعلت التاجر يقفز من مكانه،
لكن الرجل لم يأت بأي حركة.

جرّب الراهب نداء آخر، ثم أجلس فاقد الذاكرة على كرسي، محدقاً
في عينيه ومتوجهاً إليه تحت ذلك الاسم، تحدّث معه مطولاً عن كل ما
في جبل آتوس، وعن الأحداث التي رواها له أدريانو توسكاني.

بعد مضي ساعتين، بدأ الرجل الذي لم يبدِ أقل تأثر واهتمام،
بالتناقص. مهبط العزيمة لدرجة عالية، أقر عندها دوم سلفاتور بفشل
هذه المحاولة الأخيرة.

رافق التاجر من جديد الذي كان منهكاً مثله باذلاً مجهوداً كبيراً معه
لكن دون جدوى.

ثم عاد ثانية لرؤية فاقد الذاكرة الذي ظل متمدداً على الفراش في
غرفة التمريض، في لحظة الاستئذان توقف نائب رئيس الدير متردداً،
راجع نفسه وقرر مرة جديدة مخالفة قوانين الدير، وقضى ليلته راقداً
على فراش من القش إلى جانب الجريح.

لم يكن باستطاعته اتخاذ القرار في إبقاء هذا الشخص في الليلة التي
سيحتجز فيها، لم يكن يعرف عنه شيئاً، لكن العناية الإلهية هي التي
وضعت بين يديه. تمتم دوم سلفاتور ببعض الصلوات وهو مستلقٍ على
فراش القش، وتهدد عميقاً، وأطفأ المشعل.

كان من الصعب جداً الاستسلام للنوم، ورواية التاجر ما تزال
تلازمه، كان يبحث عن مؤشر مهما كان بسيطاً، أو أي تفصيل مهما
كان سخيفاً، لكن القدرة على إيقاظ ذاكرة ضيفه، تكون قد فاتته. أخيراً

قرر النوم لاستعادة قواه، لدى مشاهدة هذا الرجل وهو يغادر الدير صباح الغد.

أمسك بيده اليسرى المسبحة المصنوعة من بذور القصب وبدأ تلاوة:

السلام عليك يا مريم، سمحت له هذه الصلاة بالخلود إلى النوم.

بالرغم من كل ذلك بقيت الصور تلازم خياله، لقد تذكر أنه في طفولته كان يجد صعوبة في النوم، وكانت جدته تأتي إليه وتغني له بهدوء ودفء، وتهمس في أذنه تفاصيل قصة لعبة صغيرة، لم ينس مطلقاً واحدة منها. ومن دون علمه خرجت كلمات هذه التهويدة (أغنية لتتويم الأطفال) الكلايرية من شفثيه، مأخوذة بميلودية حزينة جميلة:

بينما كانت الجمل المنتظمة تنفذ في الصمت، بدأ فاقد الوعي يجلس في فراشه شيئاً فشيئاً، تبدلت نظرته كما لو أن وعيه رجع إليه فجأة، حضر أمام الرجل الغارق في أعماق ذاكرته، خيال أمه وهي تحنو فوق مهده وتنشد له التهويدة نفسها.

اختلطت عليه الصورة، ورأى نفسه ابن السبع سنوات في مقبرة القرية، وكيف ينزلون النعش الثقيل في الحفرة بينما الرجال يرتلون الصلوات. بقيت عيناه بلا دموع ولكن ضيقاً شديداً كان يجثم على صدر الصبي الصغير. واليوم، تنهمر دموع ساخنة غزيرة وتسيل على وجه الرجل المجدد الذي أضحاه. ثم استعاد صورة والده وهو يضع يده على كتفه، شاعراً بالتأثر ذاته والانفعال عينه، بارتعاد ورجفان يد ذلك القروي الصلب الذي لم يتمكن من السيطرة على حزنه.

وجه آخر، وجه فتاة جميلة ذات الشعر البندقي (نسبة للبندقية)، والعيان الواسعتان ذوات اللون الأخضر الزمردي فرضت نفسها عليه. منزوياً في طرف السرير، ضاماً ركبتيه بذراعيه القويين، عيناه

مغرورقتان بالدموع، تلفظ بهذه الكلمة البسيطة، وهي الأولى التي كان قد لفظها عند وصوله الدير.

- إيلينا.

قفز دوم سلفاتور من نومه، وتحقق مندهشاً أن ضيفه قد تكلم لتوه. أشعل شمعة، فرأى الرجل يجهش بالبكاء، اتجه نحوه وضمه بين ذراعيه بقوة وحنان الأب.

بكى الغريب طويلاً، وبين كل فترة وأخرى من البكاء، اعترف للراهب بقصته المرعبة.

- أدعى «جيو فاني تراتور» أنا ابن قروي من قرية صغيرة في كالابري، لقد تغيرت حياتي لحظة رؤيتي وجه إيلينا لأول مرة.

I القمر

كان ذلك منذ إثني عشر سنة، في سنة العفو (النعمة) تحت القيظ الشديد لشهر آب، كان جيوفاني يعمل في الحقول مع أبيه وأخيه الأصغر جياكومو، أول من لمح فرقة الفرسان. ترك جميع القرويين معاولهم وانتصبوا واقفين ليشهدوا هذا المنظر الفريد في تلك الناحية الفقيرة: يقارب العشرة من الرجال المسلحين يمتطون جيادا مسرجة واضحة الثراء يصعدون من البحر ويقربون من الشاطئ على مسافة عدة فراسخ من هناك، على واحد من الخلدجان الكثيرة للشاطئ المتعرج. انتبهوا لوجود الفلاحين، غير أنهم تابعوا طريقهم نحو القرية.

بعد أقل من ساعة، رجعوا على أعقابهم باتجاه البحر مندهشين، ترك القرويون عملهم أبكر من المعتاد وعادوا مسرعين بالرغم من الحر الشديد، لقد علموا بالقصة كاملة من فم العجوز غرازيانو، زعيم القرية، كان هؤلاء الرجال المسلحين يحرسون مدينة البندقية القوية، وهم عائدون من قبرص، تعرضت سفينتهم في عرض البحر للعديد من سفن القراصنة.

لقد نجحوا بالإفلات منهم تحت جناح الظلام، غير أنهم تعرضوا لكثير من المطاردات وقذائف المدفعية، كما أن السفينة أصيبت بأضرار بالغة. وقبل أن يواصلوا طريقهم نحو البندقية، قرروا إصلاح السفينة المعطوبة. كان القرويون يطلبون مبلغاً ضخماً من المال مقابل إعارتهم أجمل مساكنهم لإيواء بعض النبلاء، بينما ينكب البحارة على إصلاح الأعطال.

قَبْلَ زَعِيمِ الْقَرِيَةِ بِسُرْعَةٍ طَلِبَهُمْ، وَعَمَّ الْفَرَحَ أَيْضاً جَمِيعَ الْقَرْوِيِّينَ الْعَائِدِينَ مِنَ الْحَقُولِ لِهَذَا النِّزْلِ الطَّارِئِ. فَفِي عَصْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَوْقَدَتْ كَوْمَةً مِنَ النَّارِ وَسَطَ الْقَرِيَةِ لِشَيْءٍ عَجَلٍ عَلَى شَرَفِ الْبَنْدُوقِيِّينَ. عِنْدَهَا، رَأَى جِيوفَانِي إِيْلَيْنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، سَوْفَ لَنْ يَنْسَى أَبَداً تِلْكَ اللَّحْظَةَ: إِنَّهُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَالْقَمَرَ وَسَطَ النَّهَارِ بَدَرَ .

كَانَتْ تَمْتَطِي فِرْساً رَائِعَةً سُودَاءَ اللَّوْنِ، مَغْطَاةٌ بِمَعْطَفٍ قَرْمَزِيٍّ. شَعْرُهَا الْأَشْقَرُ الطَّوِيلُ يَطِيرُ مَعَ الرِّيحِ. كَانَتْ فِي الْمَقْدَمَةِ مَحَاطَةٌ بِعَشْرَةِ فِرْسَانٍ، لَكِنْ جِيوفَانِي لَمْ يَرَ سِوَاهَا مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى، يَكَادُ عَمْرُهَا عِنْدئذٍ أَنْ يَبْلُغَ الْخَمْسَةَ عَشَرَ عَاماً.

لَا حَظَّهَا مِنْ بَعِيدٍ أَتْنَاءَ تَنَاوُلِهَا الطَّعَامِ. مَفْتُوناً بِرُوعَةٍ وَجَمَالٍ وَأَنَاقَةٍ كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهَا. نَظراً لِعَدَمِ قَدْرَتِهِ عَلَى الْاِقْتِرَابِ مِنَ الْبَنْدُوقِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ عَلَى حِدَةٍ مَعَ بَعْضِ مِمَثْلِي الْقَرِيَةِ الْمُخْتَارِينَ مِنْ غِرَاتْرِيَانُو الْعَجُوزِ، كَانَ جِيوفَانِي قَدْ اعْتَلَى سَطْحَ أَحَدِ الْبُيُوتِ وَلَمْ يَتْرِكْ أَيَّاماً مِنْ حَرَكَاتِ الْمَرَاهِقَةِ. كَانَتْ الْفَتَاةُ بِصَحْبَةِ سَيِّدَتَيْنِ أَكْبَرَ مِنْهَا سَنًا، هُمَا الْمَرَاتَانِ الْوَحِيدَتَانِ فِي الْمَجْمُوعَةِ، إِحْدَاهُنَّ وَبِسَبَبِ نَبْلِ مَلَابِسِهَا قَدْ تَكُونُ وَالِدَتِهَا أَوْ خَالَتِهَا، وَالْأُخْرَى، مِنَ الْعَمْرِ ذَاتَهُ تَقْرِيْباً، كَانَتْ تَنْشِطُ مِنْ أَجْلِ رَاحَةِ السَّيِّدَتَيْنِ. جَلَسَ الْبَنْدُوقِيُّونَ بِمَجْمُوعَاتٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ أَشْخَاصٍ عَلَى كِرَاسِيٍّ وَطَاوَلَاتٍ قَدَّمَا الْقَرْوِيُّونَ لِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ.

التَّحَقُّ بِالْفِرْسَانِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنَ الْجُنُودِ. نَظراً لِأَنَّ مَعْظَمَ الطَّاقِمِ بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ، قَالَ جِيوفَانِي فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِسَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ يُمْكِنُهَا أَنْ تَسْعَ لِأَكْثَرِ مِنْ مِئَتِي رَجُلٍ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْأَحْصَنَةِ، طَبْعاً وَأَيْضاً الْعَدِيدِ مِنَ التَّجَارِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْبَنْدُوقِيَّةِ كَانُوا تِجَاراً قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مَشْهُورِينَ وَمَوْثُرِينَ فِي كُلِّ حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ.

فِي حِينٍ يَبْدُو لَهُ أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ، الَّتِي فَتَنَتْهُ بِجَمَالِهَا، هِيَ أَكْثَرُ مِنْ تَاجِرَةٍ. لَيْسَ فَقَطْ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَزِينَةً بِزِيِّ الْأَثْرِيَاءِ وَالْأَنَاقَةِ الْمُبْهَرَةِ، بَلْ

لأنها محط عناية ورعاية خاصة، جالسة وسط المرأتين الباقيتين في صدر المكان، وعلى أجميل طاولة، محاطة بجنود مسلحين، كانت تبدو موضوع عناية خاصة.

كان أحد الحراس ينهض بانتظام ويذهب إلى السيدتين للتأكد من أن كل شيء على ما يرام؛ قال جيوفاني في نفسه، من تكون إذن تلك الفتاة؟ قد تكون أميرة، حلم القروي الشاب الذي لا يعرف لخياله حدود. منذ أن رحلت عنه أمه، كان جيوفاني حساساً انفعالياً، طوّر قدرته على الإفلات والهروب من واقع يضجره ويقلقه مراراً ليلتجئ إلى عوالم سحرية يخترعها. كانت أحلامه تحمله عبر البحار في مغامرات عجيبة، حيث يمتزج الحب بالمعارك والكنوز الأسطورية. شارك في طفولته رفاقه أحلامه الأكثر غرابة وأدخلهم في محاولات البحث عن الكنز، هجوم القراصنة أو قصص حب في البلاط، لكن عندما كبر، فقد رفاقه الرغبة في اللعب وأكثر من ذلك، الأحلام، كانوا مشغولين جداً بأعمالهم المضنية في الحقول، ولم تكن لديهم هموم أخرى غير الزواج من قروية شجاعة، وإنشاء بيت من الحجر القاسي.

من جهته قاد جيوفاني الحياة الزاهدة والجادة نفسها، لكنه استمر بالأحلام ومغامرات الحب المثيرة، فقد ورث عن أمه وجهاً جميلاً، عينين سوداوين واسعتين ويدين ناعمتين وذلك ما كان يجذب نحوه أنظار فتيات القرية. لكنه لم يكن أبداً مفتوناً بهؤلاء القرويات ذوات الأحاديث والمشي الشنيع، لم يجد لديهن نعومة وزواعة أمه. ومنذ ذلك الوقت وفي سن الثلاثة عشر سنة ذهب مع أخيه إلى مدينة كاتنزارنو الكبيرة لبيتاعا منها حماراً.

كان معجباً بنعومة وملامح الصبايا (الفتيات)، أناقتهن، طريقتهن في التحدث الناعمة جداً، ولم يكن يحلم إلا بأن يجد امرأة جميلة ومهذبة ومثقفة.

كان يعرف أن قروياً مسكيناً أماً لا يمكنه مطلقاً مغادرة قريته أو التمكن من إغواء فتاة المدينة، وكذلك، توسل إلى راهب البلدة بأن يعلمه القراءة والكتابة، لم يكن رجل الدين مثقفاً جداً وكان لديه شيء آخر ليفعله، لكن عناد الصبي ومملكة التقبل المدهشة التي أظهرها فوراً، اقتنع بها ونقل إليه النذر اليسير مما يعرفه، خاصة اللغة اللاتينية الكنسية. هكذا أمضى جيوفاني أمسياته طوال عدة سنوات دون انقطاع في دراسة وقراءة كتاب خدمة القديس الروماني المكتوب باللاتينية الذي أودعه الراهب ساكريستيا كنيسة القرية المتواضعة. كان الصبي يعرف أن كتباً أخرى عديدة طبعت في العشرينات الأولى من القرن السادس عشر، التي تتحدث عن العلوم الطبيعية، الفلسفة، الدين، ويحلم بالحصول عليها.

كان يخطط لمغادرة القرية ليكتشف العالم وكنوز معرفته، لكنه لم يكن يعرف في أي وقت أو إلى أي جهة يذهب، ينتظر باضطراب فرصة أو هدفاً خاصاً ليدفعه إلى تنفيذ مخططه.

منذ أن نزل البندقيون قريته استولت عليه نوع من الحمى، فقد أمضى آخر النهار في حالة توتر كبير، عندما رأى الفتاة الشابة وسط مجموعة الفرسان، انقبض قلبه بشدة إلى درجة كاد يفقد معها الوعي.

انتابه شعور لا يوصف مثل حدس ساطع، أن تلك الفتاة جاءت من القدر، حاول طرد هذا الشعور الغريب، لكن دون جدوى. في المساء بدا قلقاً جداً عندما تأملها قرب النار، دون أن يكون واعياً لذلك، كان قلبه يغلي مدعوماً بخياله الواسع، فقد وجد في آخر المطاف هدفاً نبيلاً بقدر ما هو غير معقول: أن يغرم بتلك المجهولة، وأن تحبه.

بينما كانت الوليمة تشارف على الانتهاء، بقي هناك شيء واحد بالغ الأهمية بالنسبة لجيوفاني: معرفته في أي منزل ستبيت الفتاة. لم يلق أي صعوبة في التتبع بعينه لمسار فتاة البندقية. كانت تسكن مع قريبتها وسط حراسة خمسة من الرجال المسلحين في أجمل بيت من بيوت القرية، مُقاماً وسط الساحة. شاهد الشموع مضاءة خلف النوافذ، غير أنه لم يميز شيئاً. تهباً للهبوط من على مخبئه ليقترّب من المنزل حيث تمركزت شلّة من الجند لمراقبة المدخل.

نزل جيوفاني خلسة من مكان اختبائه وصمّم على الذهاب إلى البحر ليرى السفينة. لكن الظلام كان دامساً. التجأ إلى جرف في بطن صخرة منتظراً الفجر. ولم يتأخر عن الاستسلام للنوم.

أيقظته طلّاع نور النهار الأولى من حلم غريب ترك في نفسه نفحة عطر متحمساً ومعلقاً في آن واحد. لم يمكن لديه الوقت ليستسلم زيادة إلى سحره، لأنه كان يسمع عن بعد البحارة ينشطون على ظهر المركب. لقد شرعوا بالأمس بأعمال الإصلاح لهيكل السفينة وأحد صواربها الثلاث الذي تعرض للكسر. كان جيوفاني يعرف أن محاولتهم ستدوم من يومين إلى ثلاثة أيام على الأكثر. آملاً الصعود إلى متنها، تقدم من القبطان الذي كان يمشي على رمل الشاطئ واقترح عليه خدماته، قبل الأخير بطيبة خاطر، هذه اليد العاملة الإضافية لكن، ويا لحية أمل جيوفاني الكبيرة، طلب منه أن يكون عمله على الأرض مرافقاً فريق

الخطابين والنجارين المكلفين بجمع جذوع الأشجار. لدى عودته إلى المركب حوالي منتصف فترة بعد الظهر، قدّم له الشكر دون السماح له بالصعود على متن السفينة.

عاد جيوفاني إلى القرية عبر المروج حيث وجد والده وأخيه اللذين كانا قلقين بسبب غيابه الطويل. شرح لهم أنه جُنّد من قبل البندقين ليساعدهم في أعمال ترميم المركب وأنه قد يترك أعمال الحقول لعدة أيام. رفض والده هذا العمل لأن الفترة مخصصة لموسم جمع التبن وقد يتحول الطقس إلى عاصف.

بدل والده رأيه عندما قدّم له جيوفاني قطعة النقود التي أعطاه إياها القبطان لقاء خدماته. كانت النقود نادرة جداً بالنسبة إلى هؤلاء القرويين المساكين في كالابري لدرجة أنهم لا يستطيعون رفض المبلغ الذي سيسمح لهم بالذهاب إلى المدينة لشراء دابة أو أداة عمل.

لدى عودة جيوفاني إلى القرية لم يكن لديه سوى فكرة واحدة في رأسه: رؤية الفتاة من جديد. لقد نجح خلال النهار، في الحصول على بعض المعلومات من بحارة، السفينة العائدة إلى رجل ثري يملك أسطولاً من السفن استأجرها قاضي البندقية الأول لنقل شخصيات مرموقة من قبرص. كانت السفينة تنقل أيضاً بضاعة ثمينة من الشرق، نظراً لكون جزيرة قبرص كانت آنذاك تابعة للبندقية، ومركزاً تجارياً بين شبه الجزيرة الإيطالية والإمبراطورية العثمانية؛ والأهم من ذلك، فقد حصل جيوفاني على معلومة مصيرية من أحد معلّمي النجارة: وجود أخت وابنة حاكم قبرص وزوج حفيده قاضي البندقية على متن السفينة.

الفتاة الصغيرة التي استحوذت على قلبه هي ابنة الحاكم، وحفيده أكبر وأقوى شخصيات البندقية. المرأة الأكبر سناً كانت عمتهما والثالثة خادمتهم، تماماً كما توقع، بعيداً عن اليأس، فقد أجمّع هذا الخبر حبه. ثمّة سؤال حاول جاهداً أن يطرحه ولكنه عاد وتنبّه إلى حكمة عدم القيام بذلك: ما هو اسمها؟

ما أن حل المساء، حتى حاول الاقتراب من ساحة القرية حيث كان البندقيون يتأهبون لتناول العشاء. وبَّخه أحد مسنِّي القرية طالباً منه الابتعاد. فهم جيوفاني من نظرات الجنود الذين يراقبون المكان أنه لم يكن أمامه خيار آخر. كما في الليلة الماضية، تمركز على سطح أحد المنازل، غير أنه لم يحصل على معرفة جديدة، كان بعيداً جداً، ولكي يتمكن من تمييز وجه الفتاة أو سماع رنة صوتها الذي طغت عليه القهقهات والضحك، وأصوات الحراس المحيطين بها. بالرغم من كل هذا فقد سُرَّ من تأمل حركاتها الجميلة الناعمة، شعرها المذهب الذي كانت تضيئه موجات لهب المشاعل.

عندما ابتعدت الجميلة نحو مخدعها، متبوعة بحراسها، ظل لفترة طويلة جالساً في مركز مراقبته. عندما عاد إلى منزله العائلي البسيط كان الليل قد أرخى سدوله.

في الصباح، قصد الشاطئ من جديد وللمرة الثانية قبلوه في الورشة. هذه المرة كان حظه أكبر، إذ تمكن من القفز إلى أحد المراكب الذي كان يعمل جيئةً وذهاباً كالمكوك بين الشاطئ والسفينة. بما أنه لمع جيداً في عمل الخشب، فقد عُيِّن ضمن فريق النجارين الذين كانوا يصلحون الهيكل، المثقوب بفعل رمايات قذائف مدفعية البرابرة. واجتهدوا في إغلاق الثقوب بقدر الإمكان، لتستطيع السفينة استئناف رحلتها دونما خطر من وسط البحر حتى البندقية.

في وقت تناول الطعام عند منتصف النهار، تمكن جيوفاني من الصعود على الجسر خلصة، لم يكن أحداً ينتبه إليه ويراقبه. لم يستطع تمالك رغبته الجامحة في بلوغ الممشى وصولاً إلى الغرف الواقعة في مؤخرة السفينة. مع الأمل الجنوني في اكتشاف غرفة الفتاة، أدار قبضات العديد من الغرف، الأبواب موصدة كلياً، أخيراً التقى وجهاً لوجه مع ضابط الحراسة فناداه بقوة.

ادعى أنه تائه، غير أن الرجل لم يصدق كلامه وطرده من السفينة.

عاد جيوفاني بخفي حنين لا يجروء على الذهاب إلى الحقول لملاقة أبيه وأخيه دون أن يأتي بقطعة نقود أخرى. قرر عندها التوجه إلى القرية. كان البندقيون قد انتهوا من تناول الطعام وخلدوا إلى الراحة فرحين ببرودة البيوت، وغدت الساحة مقفرة.

فكرة رهيبة خطرت لجيوفاني، طردها في المرة الأولى، لكنها عاودته على الفور، داعبها لبعض الوقت ليتذوق طعمها الرهيب، قبل أن يعدها من جديد. عاودته مرة ثالثة، عندها استسلم لها، متجاوزاً خوفه. اجتاز الشاب الساحة وقصد الجانب الأيمن من المنزل الذي تنام فيه الفتاة. وسلك درجاً صغيراً من الخشب يقود إلى مستودع التبن. تحقق بارتياح أن الباب كان مفتوحاً، دخل الغرفة المظلمة المملوءة حتى نصفها بالقش، وكاد أن يختنق بسبب الحر الشديد، ومن ثمّ وباحتراس صعد فوق غرفة سيد المنزل، وأبعد التبن بهدوء ووضع عينيه بين فتحتين في أرضية غير متقنة الصنع.

تأقلم بصره بسرعة مع الظلام الذي يسود الغرفة، استطاع رؤية سريرين، على كل واحد منهما يوجد ما يشبه الشكل الممدد. للأسف، بالرغم من أنه على مسافة مترين، فمن الصعب عليه التعرف عليهما. بقي على هذا الموقف ساعة طويلة مسمراً في مكانه، حابساً نفسه متجنباً الإتيان بأي حركة قد تسبب صرير خشب الأرضية القديم، فجأة تحرك أحد الشكلين، وهب واقفاً متوجهاً نحو النافذة، وفتح بهدوء أحد درفاتها.

حزمة من الضوء ملأت جزءاً من الغرفة. تعرّف جيوفاني فوراً على الخادمة، المنحنية على حافة النافذة، في الجزء البعيد عن الضوء والنور القوي للظهيرة، استطاع تمييز الفتاة، فهي ما تزال نائمة مستلقية على ظهرها، مغمضة العينين، مرتدية قميصاً طويلاً من الحرير الأبيض.

كان شعرها الأشقر منشوراً حول وجهها، كهالة الشمس. إحدى

ذراعيها ممددة فوق رأسها والأخرى على بطنها. ابتسامة صغيرة ملأت وجهها، المزّين بالنمش، وأضفت عليه ملامح طفولية رائعة.

فجأة خفق قلب جيوفاني بسرعة لدرجة خاف أن تسمع ضرباته ويُكشف مكانه، وحركة تنفسه لم تكن أقل ضجيجاً من قلبه. كان يملأ عينيه من هذا الوجه مثلما نشرب ونرتوي من صورة مقدسة. هذا الجمال المفتوح يمثل بالنسبة إليه الجوهر الحقيقي للجمال. كل انحناء من جسمها يعبر عن أناقة لا متناهية. كل تفصيل في وجهها بدا فائق الكمال، لدرجة اقتناعه بأن في هذا العالم الواسع لا يوجد أي تناسب آخر يضاهي هذا التناسب ولا أي وجه آخر ترقى ملامحه إلى هذا الكمال. لكن ما كان يفتن الصبي أيضاً، وما كانت تخفيه الفتاة في عينيهَا الغمضتين عن نظر المجنون. لم يكن ذلك شكل الجفون أو حتى نعومة الأهداب الصغيرة، التي كانت تشوشه، بل التعبير عن الحنان والطيبة، وهذا المزيج الغريب من القوة والهشاشة اللذين ينبعثان من عينيهَا الغمضتين ومن ابتسامتها التي لا تكاد تظهر.

لم يكن لديه سوى رغبة واحدة: الدخول إلى سرّ هذه النظرة. أي حلم يُراودها؟ أي صور جميلة تسكن روحها؟ ماذا كان لون، عطر، حرارة ولغة روحها؟ دون أن يعي ما يقوم به، أغلق جفنيه وبدأ رحلة خيالية في قلب محبوبته.

- إيلينا، رددت الخادمة بدمائة، في اللحظة التي استدارت نحو سيدتها الصغيرة.

انتفض جيوفاني.

- إيلينا، تمتم قائلاً: إنها تدعى إيلينا.

عندها سمع فرقعة قوية، لأن القدر أراد أن يكون أحد الجسرين حيث كان الصبي مستلقياً، معفنأ حتى متصفه.

رفعت الخادمة نظرها إلى الأعلى فرأت الغبار يسقط من السقف. ومن ثم سمعت قرقعة أخرى. أسرع نحو سيدتها التي نهضت بهدوء من نومها وألصقتها إلى الحائط طالبة النجدة.

في الحال دخل حارسان، فتأكد لهما أن دعامة السقف مهددة بالسقوط، فقاما بإخراج السيدات من الغرفة، لقد دُهشا من هذا الانهيار المفاجئ للجسر الخشبي، وقصدا مستودع التبغ للبحث عن السبب، بالرغم من جهود جيوفاني لتمويه آثار مروره، غير أنهما لم يجدا صعوبة في القول أن هناك رجلاً استلقى على الدعامة المهترئة، فطلبوا المساندة. لم يتطلب الأمر سوى بضع دقائق حتى تمكن الجنود من إخراج الصبي المتكور وسط القش في الطرف الآخر من الغرفة. أمسكوا به واقتادوه أمام الضباط الذين حققوا معه بحضور غراتزيانو العجوز، بدأ جيوفاني التأكيد أنه جاء لينام في الهراء بشكل عادي. وبما أن تفسيراته لم تقنع أحداً، ونظراً لأن هذا البيت كان ممنوعاً دخوله على أهل القرية، فأنهى به الأمر إلى الإقرار بالحقيقة.

- ما أن رأيت الفتاة التي تدعى إيلينا قادمة إلى القرية على صهوة جوادها حتى أخذت بجمالها ورغبتُ في رؤيتها عن قرب.

أدهشَ هذا الاعتراف البندقيين، واستنتجوا من ذلك أن الشاب كان يريد استعمال القسوة تجاه إيلينا.

شرح لهم زعيم القرية الذي يعرف جيوفاني جيداً، بأنه لا يوجد شيء من هذا القبيل وكلمهم عنه بأنه شاب حالم، ومبدئي «مثالي»، أخيراً قرر الضباط احتجازه تحت حراسة شديدة.

في عشية ذلك اليوم، تشاور البندقيون فيما بينهم فوجدوا أن المسألة خطيرة لدرجة تتطلب معاقبة الشاب بقسوة. هذا الشاب متهم بأنه كان ينوي السرقة ومحاولة انتهاك حرمة السيدات بمراقبتهم خلصة من مخبئة. تفاقمت حالته عندما أكد أحد الضباط أنه فاجأه في اليوم نفسه يتجول قرب غرف الجسر العالي للمركب.

بدا جيوفاني مذعوراً، لا يعرف كيف وبماذا يجيب لتبرير فعلته. تقرّر بالتوافق مع أعيان القرية، المرتبكين، بأن أصول الضيافة لم تكن محترمة. ويخشون من انتقامات قاسية ضدهم كونهم قرويين ومساكين، أن يضرب جيوفاني بالسوط في الساحة العامة في اليوم التالي عند الظهر.

ما أن استفاقت إيلينا من صدمة هجوم القراصنة، حتى ارتعبت لدى علمها أنها نجت من تهديد رجل كامن في الهراء والذي قد يكون انتظر حتى هبوط الليل للاعتداء عليها، وفي الوقت نفسه أضافت هذه الواقعة قليلاً من التسليلات في أيام الانتظار المضجرة. فكّرت به باستمرار وحاولت تخيل وجه ذلك الشاب، هل كان قبيحاً؟ أعور؟ هل يحمل ندباً مخيفة تدل على أعماله السابقة؟ اندهشت لدى علمها أنه فتى، يقاربها في عمره، ولم يكن سيء السمعة في القرية. تساءلت عن الأسباب والدوافع المشجعة لهذا العمل، لقد سبب لها هذا السؤال دواراً لدرجة أنها ذهبت لتقابل قبطان الباخرة لتستأذنه بطرح أسئلة على الفتى قبل أن يطبق عليه الحكم القاسي. رفض هذا الأخير، متذرعاً بالخوف من حدوث أمر مفاجئ قد يسبب صدمة لابنة حفيده قاضي قضاة البندقية.

أمضت إيلينا ليلة غريبة عجيبة، وفي الوقت نفسه كانت منهكة

ومتوترة، حزينه وفرحة، قلقه وحائرة. لقد شغلت هذه الواقعة أهمية كبيرة متصاعدة في عقلها الرومنسي الخيالي، لأن إيلينا تملك طبعاً عاطفياً، يميل بسرعة للحلم والتخيل والانفعال. فيما كان من المتعارف عليه أن النساء النبيلات لا يحضرن العقوبات العلنية التي يحكم بها مجرمو الحق العام، قررت أن تفعل ما بوسعها لحضور التعذيب.

طبعاً، شيء من هذا القبيل يقززها وينفرها بعمق، لكن ذلك بالنسبة لها كان الوسيلة الوحيدة لرؤية الرجل الذي قام بتهديدها، وهذا أهم من كل شيء.

لم يجد النوم إلى عينيه سبيلاً. لم يكن لديه أي خوف من العقاب الذي ينتظره، غير أنه قرأ الجبن والعار في أعين القرويين الذين حضروا محاكمته ولم يكن يجروء على التفكير بالحزن والإذلال الذي قد يسببه لوالده. ومن ثم فكّر في إيلينا. هل سيتمكن من رؤيتها ويشرح لها براءته من كل ما اتهم به؟ كيف سيبدو بنظرها هل هو لص أم شرير منحرف؟ كيف له أن يقول لها أن فعلته كانت بدافع حبه لها؟ وهل أنه كان يريد فقط رؤية وجهها، والاقتراب من روحها؟

في اليوم التالي وعند منتصف النهار، اجتمع أهل القرية في الساحة، إضافة إلى بضعة أفراد من البندقيين الذين حضروا لتطبيق الحكم، بينما تابع الآخرون إنهاء إصلاح السفينة. كانت تلك آخر ليلة يمكثون فيها في القرية. بقدر الإقناع، حصلت إيلينا على الإذن بالحضور، بلعومها منقبض، وقد أخذت مكاناً على مقعد مريح بين النبلاء، على بعد خمسة عشر متراً من الشجرة حيث سيشهد المعتدي إليها ويضرب بالسياط.

وصل جيوفاني محباً بجنديين، اليدان موثوقتان من الخلف، مرّ أمام النبلاء، غير متجرباً على رفع نظره إليهم، لكنه ميّز وجود إيلينا، اضطربت الفتاة لرؤية البنية الجسدية الهزيلة لجيوفاني، كانت تتصوّره

أكثر خشونة وضخامة من نعومة ورقة جسده ووجهه، لم تكن تميز سوى صغر سنه، كل هذا كان يبدو ينظرها غير متوافق مع الجريمة التي أدين بها.

فكّ وثاق المحكوم بنية ربطه إلى الشجرة حيث التصق بها. ثم جرد من سترته ليتعري ظهره. ذكر القبطان بصوت قوي عالٍ بالوقائع والأحكام: عشرون جلدة بالسوط. التقت نحو جندي مسلح بحزام متين من الجلد، وأعطاه الإشارة برأسه.

من أول فرقة ضربة سوط، شعرت إيلينا بتوعك خفيف وأمسكت نفسها عن الصراخ وأمرت التوقف فوراً عن تعذيب الفتى. فرجع السوط من جديد جارحاً لحمه، بالرغم من أن الألم كان قوياً، فلم يفتح جيوفاني فمه، هذا الألم العذاب الذي يجده ظالماً، أثار فيه الحمية بشكل غريب.

مع كل ضربة سوط التي تمزق لحم ذلك الشاب، كان يزداد معها ضعف روح وقلب إيلينا، وتقوى عزيمة جيوفاني.

في نهاية العقوبة، فكّ وثاق المحكوم عليه ووجهه نحو الجمع والنبلاء، متكأً على جنديين، وبالرغم من ترنحه، حاول جيوفاني للمرة الأولى أن يلتقي نظره ينظر إيلينا، لكن رأسها انحنى جانباً والدموع الغزيرة غشت عينيها. حاول النظر بتمعن ولو للحظة إلى وجه الصبية غير الواضح المعالم، لكنه أصيب بدوار منعه من ذلك.

عندما عاد إلى وعيه، وجد نفسه ممدداً في كوخ امرأة عجوز من القرية تعرف منافع النباتات، كانت دهنت ظهره بضمادات من الطين والورق اللاصق، وإلى جانبه حارس عند أسفل السرير. تأكد جيوفاني من أن الوقت ليلاً. كان يشعر بحروق عميقة في ظهره المهشم. طلب أن يشرب، فمزجت له العجوز الماء ببعض النباتات التي ساعدته على تحمل الألم واستسلم للنوم. وبعد الفجر بقليل، من خروج الحارس. سمع جيوفاني ضجة كبيرة، فهم منها أن البندقيين بدأوا يغادرون القرية نهائياً. فكر بإيلينا التي كانت تبتعد عنه. كان قلبه حزيناً، لكنه غير قلق، مقتنعاً بعمق أنه سيجدها. هذه الفكرة الوحيدة كافية لتخفف من كربه.

أمضى النهار ممدداً عند العجوز الطيبة، ومع حلول الليل زاره والده، الذي كان محبطاً بشكل جلي.

جلس إلى جانب ابنه دون أي كلمة، أمسك جيوفاني يد والده فشد عليها والده بانفعال وتأثر. نظر إلى ابنه كأن يسأله عن حالته دون كلام، فأشار إليه جيوفاني بغمزة عين أنه بحالة أفضل.

قال بعد انتظار: أحزنتنا كثيراً.

- أطلب عقوك، أي، أجاب جيوفاني.

فتش طويلاً عن كيفية البوح له بأنه كان يحب إيلينا وأراد رؤيتها فقط، لكن لم تخرج منه أي كلمة.

قال الرجل بعد صمت: لقد ذهبوا، ثم نهض وترك ابنه في رعاية المطيبة.

بعد ثلاثة أيام، تمائل جيوفاني إلى الشفاء، إذ تمكن من السير طبيعياً، كان يصعب عليه عبور أزقة القرية لأنه سيتعرض للعديد من النظرات المعادية، وهذا يفرض عليه الاستقرار دائماً في بيت المرأة العجوز التي كانت تضع له اللصاقات عدة مرات في اليوم، وبفضل عنايتها شفيت جراحه بشكل جيد، غير أن ندباً عميقة بقيت ظاهرة أبدياً على ظهره. في صباح أحد الأيام، تلقى زيارة من خوري القرية الذي كان غائباً مدة عشرة أيام ليحل مكان زميل له مريض، ولأسفه الكبير، لم يلتق بالبندقين؛ وقد تنهّد غيظاً ما أن عرف بالأمر:

- إنها المرة الأولى التي يحدث شيء ما في القرية.

سأل الخوري، الذي يبدي عاطفة نحو جيوفاني، عن الأسباب الكامنة وراء فعله، واقترح عليه سماعها على كرسي الاعتراف.. لم يكن الشاب تقياً بشكل خاص، بل كان يمارس شعائر الدين، على غرار بقية القرويين؛ كطقس معتاد. كان يقصد الصلاة يوم الأحد ويصلي ويجلس على كرسي الاعتراف في الأعياد الكبيرة.

لم يكن لديه أي إخلاص للعداء ولا يصلي لها. وكان يؤمن بالله كما يؤمن بالحياة. تلك بديهية ليست بحاجة إلى أي سؤال، أو أي تفكير أو أية فكرة خاصة.

وجد الاعتراف أمراً طبيعياً، لأنه ارتكب خطيئة حقيقية سببت أضراراً للقرويين، فوجب عليه الندامة. بالمقابل كان من الصعب عليه أن يبوح للراهب بأسباب تعلق قلبه سريعاً بتلك الفتاة، وأنه لم يفعل سوى النظر إليها. وبخه الراهب لكونه يعيش كثيراً في الخيال، وأكد له أن التفكير برويتها من جديد ما هو إلا ضرب من الجنون.

حتى ولو حدث أن صادفها مرة أخرى، فإنه وعندها لن يكون لديها سوى الازدراء لهذا القروي المسكين.

إنها خطيئة في الزهو يا بني، التفكير بأنها ستحبك، أو حتى لو أحب أحدكما الآخر بإخلاص، إن الفرق بين ظروفكما الاجتماعية شاسع جداً، ما يجعل هذا الزواج أمام الله والناس مستحيلاً.

فهم جيوفاني حديث الكاهن، حتى أنه بدا له منطقياً. مع ذلك فمزال في أعماقه، صوت خفيف يهمس له بشيء آخر، لو جاءت هذه المرأة التي كان يحلم بها طويلاً، وإن أحبها من النظرة الأولى، تألم وقاسى الكثير بسبب حبها... فمن الممكن أن يجمعهما الخيال. هل كان ذلك صوت كبريائه كما يؤكد الراهب؟ لقد استولى الشك على عقله وبدا له أن قواه بدأت تنهار تدريجاً وتحرمه القوة الداخلية التي ساعدته في تحمل العذاب.

بعد أن مثل للاعتراف، تلا جيوفاني في الكنيسة الصلاة الربانية: «أبانا الذي في السموات»، مستغرقاً بالتفكير، حزيناً، ثم عاد إلى بيته. في الطريق راودت فكره أسئلة كثيرة أقلقته. صحيح إنه لم يعرف أي شيء عن مشاعر إيلينا تجاهه، قد تظنه مذنباً، أو تكون شعرت بنوع من الاكتفاء عندما رأته يتعذب، أو، أسوأ من ذلك، أنها لم تشعر إلا بعدم الاكتراث حيال هذا القروي المسكين الذي عومل مثل كلب شاردي يحوم حول خزانة الأطعمة؟ بدت هذه الأفكار مرعبة له، لكن جيوفاني يعرف أن عليه مواجهة الحقيقة، حبه لإيلينا سيبقى إلى الأبد مدفوناً في قلبه مثل سرٍّ وحيد لا يشاركه فيه أحد. وقد ينتهي به الأمر مثل بقية فتيان القرية، إلى الزواج من قروية وقضاء بقية حياته يعمل في الحقول. ذلك هو منطق حياته، لماذا الحلم بحياة أخرى؟ لماذا تصوّر سلوك حياة مغامرة والزواج من امرأة لا مثيل لها، وجمال نادر؟

تساءل جيوفاني أيضاً لماذا زرعت هذه الأحلام في عقله منذ

الطفولة، بينما فتیان القرية الآخرين لا يتطلعون إلا لأشياء بسيطة، في متناولهم ومقبولة من الجميع؟ هل كان عليه أن يضحي برغباته الأكثر عمقاً ليضمن حياة بسيطة وعادية؟ أو على العكس أن يستعمل كل شيء لبلوغها، بمخاطرة غير مدركة النتائج وفقدان تضامن وعطف أقربائه، وأن يفقد في الوقت نفسه الحياة التي يحلم بها والحياة الطبيعية التي بمقدوره أن يعيشها؟ التجربة التي عاشها تركته حائراً متردداً، فقد آمن ووثق بهذه الأحلام، وتبع رغبة قلبه دون تردد، لقد وجد نفسه في نهاية المطاف وحيداً أكثر من أي وقت مضى، محروماً من ثقة أهل القرية، دون النجاح في الحصول حتى على نظرة مباشرة من عيون إيلينا، أضف إلى ذلك أنها قد تكون سحبت من ذاكرتها ذكرى سيئة عن هذه القرية. ألم يدخله تخيلُه وكبرياؤه بقسوة في الخطأ، كما يظن الكاهن؟ أسئلة لا تفتأ تعذبه حتى وصل أخيراً إلى بيته، كان أبوه يعمل في الحقل، لكن أخاه الصغير جياكومو كان طريح الفراش من جراء لسعة عقرب في الليلة الفائتة، يصارع حمى شديدة.. كان الأخوان سعيدين لرؤية بعضهما، مع أنهما كانا يتخاصمان قليلاً ولم يحدث أن تقاسم جيوفاني مع أخيه أيّاً من أفكاره الحميمة. لم يكن لدى جياكومو الخيال الذي يتمتع به أخاه الأكبر، لكنه كان يحبه، لم يفكر أبداً في الحكم على أقواله أو أفعاله، حتى بدون أن يفهمها، تبادلوا بعض الكلام حول حالتها الصحية التي يرثى لها، دون التلميح إلى أحداث الأيام الأخيرة.

بينما كان جيوفاني يستعد لمغادرة البيت ليلتحق بوالده، رماه جياكومو بنظرة غريبة وأشار إليه بحركة من يده، كما لو يطلب منه البقاء، فوقف جيوفاني، لكن أخيه غمز بعينه. تردد للحظة، وخرج من الكوخ، ثم رجع على أعقابها.

- جياكومو ما الذي تريد قوله؟

أبقى الصغير عينيه خاشعتين.

ليس علي... لقد أقسمت لوالدي بأن ألزم الصمت، هكذا تمت جياكومو، ونظراته ما تزال هاربة تتجنب أخاه.

جلس جيوفاني على حرف السرير ونظر إلى أخيه الصغير، الذي رفع رأسه ببطء.

- الفتاة التي ضُربتَ من أجلها بالسياط، توقف جياكومو، لأن الذي كان عليه قوله هو صعب جداً، لكن نظرة أخاه المحرقة لم تترك له مجالاً للاختيار.

- لقد أرسلتُ أحدهم يحمل رسالة إليك.

صديقي:

أترك هذه الرسالة إلى أليك، دون أن أعرف ما إذا كنت قادراً على قراءتها وفهم معناها. لكن ذلك غير مهم، قلبي مشوش جداً، من جراء ذلك المساء الرهيب الذي خضعت فيه للعقاب الشديد، لكنني لا أحاول القول لك عما أحس به. علمت من قبل القضاة إصرارك على القول لهم: إنك اختبأت في الهراء لأنك كنت تحبني وتتمنى الاقتراب مني، لم يصدقوك و حكموا عليك بالصوصية. أنا أيضاً بدوري لم أصدقك عندما أبلغوني كلامك اللامنطقي. لماذا أحببتي دون أن تعرف شيئاً عني؟ ومن ثم عندما رأيتك تصل مكبلاً بالسلاسل مثل قاطع طرق فظ، لكن بوقار عالٍ، وعندما سمعت وقع السوط على لحمك، هذا الضرب الذي كنت تتحمله دون أن يصدر عنك أي تدمر، عندما رأيت عينيك المغرورتين بالدموع والفخر والشموخ... عرفت أنك كنت تقول الحقيقة. لا أعرف لماذا تحبني، وأقر أن هذا يتركني في حالة اضطراب غير أنني أصر أن تعرف أنني أصدقك.

دون شك لن تكون أمامنا أي فرصة للتلاقي، لكن دعني فقط أن أقدم لك اعتذاري للعذاب الظالم الذي سببه لك أصدقائي. لقد بكيت من أجلك.

إيلينا.

في هذا المكان السري قرب النهر حيث كان جيوفاني يأتي منذ طفولته، جلس شاداً ركبتيه بيديه، قرأ الرسالة عشرات المرات. كانت كلمات إيلينا قوية، غير متوقعة، مثبتة جداً، صعب عليه استيعابها من القراءة الأولى. لقد دخلت هذه الكلمات عقله وفكره ومن ثم قلبه. بقي صامتاً، مسمراً في مكانه، لا تجول في ذاكرته أية فكرة، ثم، فجأة، انهزم شلال الدموع من عينيه الواسعتين السوداوتين.

فرح مؤثر غمر روحه، كأنها أمواج عارمة طفت على سطح جلده وضميره. كان هذا الفرح أكبر من سعادة معرفته أن إيلينا نظرت إليه وعرفت مشاعره وبكت لعذابه. أقوى من غبطة التأكد أنها تجشمت المتاعب لتكتب له ولتخفف من آلامه، وأن قلبها كان رحباً جداً وطيباً كما كان يشعر به دائماً. ذلك الفرح يؤكد كل هذا، بل أوسع بكثير. ترجمة أحلامه التي لم تكن تكذب عليه، وقلبه الذي لم يخنه أبداً، وأسئلتها المشوشة وجدت أيضاً رداً ساطعاً: يجب اتباع الرغبات الأكثر عمقاً لشخصه، لأن الله هو الذي غرسها. الشك قضم روحه، رحل عنه الآن، أصبح يملك منذ ذلك الوقت واحداً من مفاتيح الوجود والحياة، وإن كانت شديدة الألم أحياناً.

كانت تلك اللحظة مقدمة في حياته. لأول مرة يتوجه إلى الله، إلى الأشجار، إلى النهر، إلى الحياة، إلى الكون كله، ليُفْضِيَ لهم صلاة الشكر. عرف بشكل مؤكد أن من واجبه عدم التوقف في البحث عن إيلينا، وعليه أن يجدها ويحبها.

بالرغم من صغر سنّه، كانت ملامح جيوفاني أشبه بملامح المتشرّد، الخدّاء ممزق، القميص مثل وشاح فوق بنتال مرّقع، ولحية وبرية، بدأ بالمشي وعمره سبعة وخمسين يوماً وليّلة.

غادر قريته التي ولد فيها بعد ثلاثة أسابيع من اكتشاف الرسالة التي حاول أباه إخفاءها.

راودته فكرة اتخاذ قرار بالذهاب إلى البندقية ليرى إيلينا من جديد، غير أنه أجّل رحلته إلى ما بعد انتهاء أعمال الحقول. حاول أباه كما فعل الخوري ثنيه عن القيام بمغامرة محفوفة بالمخاطر، لكن أي شيء لم ينل من تصميم هذا الشاب.

استيقظ في صباح أحد الأيام، قبل الفجر، وجمع مقتصداته الهزيلة من المال وسلك طريق نابولي، كان يعرف أن البندقية تقع إلى الشمال، في الطرف الآخر من البلاد، على الشاطئ الأدرياتيكي. طبعاً كان باستطاعته الوصول إليها في غضون أسبوع مستغلاً سفينة تجارية في مرفأ كتانزارو، حيث يدفع تكاليف السفر بالعمل على متن السفينة، لكنه كقروي أصيل، فضل الذهاب إلى البندقية من طريق البر. لأنه عليه كسب المال لقاء خدماته في المزارع ليأكل، يمكن عندها للرحلة أن تستغرق عدة أشهر.

دون أن يدري فسوف يؤثر هذا الاختيار على ما تبقى من وجوده.

لكن قراره هذا كان معللاً بالفهم الكبير الذي يشعر به جيوفاني. طبعاً فهو يريد العثور على إيلينا. طوال الطريق لم يتوقف عن ترديد هذه الجملة إلى محبوبته: «دون شك لن تكون لدينا الفرصة لنرى بعضنا من جديد» قرأ كلمة «دون شك» كما لو أضحت نداءً لطيفاً للفتاة. ألم يكن بمقدورها كتابة «بكل تأكيد؟» اندفاعه في الوصول إليها سيكون أقوى بعشر مرات. في الوقت نفسه، كان يعرف كم سيكون من الصعب عليه الاقتراب منها.. حتى لو تمكن من اجتياز الحاجز الأول، هل سيكون له من الذكاء والأناقة ما يكفي للنطق بالكلام الحلو ليغوي ويسحر قلب الفتاة النبيلة؟ ألن تكون خائبة بصورة رهيبة، لرؤية هذا القروي الجاهل والرت الثياب؟ الحب الذي يشعل قلبه لم يكن يكفي دون شك لجعل قلب إيلينا يميل إليه. اتكل على العناية الإلهية وقرر أن يترك الأحداث واللقاءات تقوده مستفيداً من كل معلومة أو تجربة، الفن، الدين، العلوم، العادات الجيدة، استعمال الأسلحة والكلام.. كان يعرف أن رحلة من هذا القبيل يمكن أن تدوم عاماً أو أكثر، لكن لم يكن ذلك يهمه، كان يعرف الانتظار يعطي نفسه كل الفرص للوصول إلى إيلينا ويأسر قلبها. ف فيما كان يقطع الطرق الطويلة، متوقفاً هنا وهناك ليكسب القليل من المال، منذ قرابة الشهرين، كانت نفسه مأخوذة بهذا الهدف وحسب.

لقاؤه الهام كان في أحد الفنادق مع بورجوازي صليبي بدا له مثقفاً، عرض عليه العمل في خدمته مقابل بعض المعلومات. قاده الرجل الذي كان يمسك بتجارة كبيرة للسيراميك إلى منزله؛ خلال الطريق شرح لجيوفاني الوضع السياسي المعقد في شبه الجزيرة الإيطالية، بالرغم من كونها موحدة ثقافياً باللغة، والعادات، والفكر أو الفنون، فهي سياسياً شديدة الانقسام.

في الشمال الغربي، دوقيتا سافوا وميلانو اللتان عرفتا كيف تحافظان

على استقلالهما، فكانتا باستمرار فريسة للاعتداءات والغزوات الفرنسية. في الشمال الشرقي، على البحر الأدرياتيكي، جمهورية البندقية التي تتمتع بقوة تجارية وبحرية كبيرة، يحكمها قاضي القضاة المنتخب على مدى الحياة. عند ذكر كلمة البندقية كان جيوفاني يتوقف وي طرح كثيراً من الأسئلة حول المدينة اللومباردية، لكن محدثه لم يكن يعرفها بعمق ولم يذهب إليها أبداً. ومع ذلك شرح له أن البندقية في تنافس دائم مع جمهورية جنوة الصغيرة، الواقعة في الجهة المقابلة على البحر المتوسط والمعرضة أيضاً للغزوات والاجتياحات الفرنسية.

أما جمهورية فلورنسا الكبيرة فكانت تضم جزءاً ليس باليسير من توسكانيا، محاطة بمقاطعات صغيرة مستقلة، مثل مودين، بارما أو بليزانس. وفي وسط شبه الجزيرة، شرق وجنوب جمهورية فلورنسا، تقع دول بابوية، مرتبطة بالبابا القوي (الحبر الأعظم)، الرئيس الروحي للكنيسة والزمني لمجموعة من المقاطعات، المتضمنة خاصة منطقة آبروزس الجبلية الفرنسية، مجمل جنوب شبه الجزيرة الإيطالية كان مؤلفاً من دولة واسعة وكان جيوفاني والتاجر من رعاياها، تلك هي مملكة نابولي وصقلية. يشغل العرش الفرع الأصغر لعائلة آراغون الإسبانية. لكن منذ نهاية القرن الخامس عشر، كان ملك فرنسا يطالب بصورة شرعية بحقوقه على عرش نابولي، وهكذا توصل شارل VIII الثامن ثم لويس الثاني عشر X II إلى الاستيلاء على المملكة، قبل أن يُرغما على التراجع والانسحاب أمام التحالف المسلح للدول الأوروبية الأخرى.

شرح التاجر أن مملكة فرنسا هي الأهم دون منازع في النصف الأول من القرن السادس عشر XV I، ظل يحكمها عسكرياً واقتصادياً مجمع سياسي قوي، وريث من إمبراطورية شارلمان، الإمبراطورية الرومانية الجرمنية المقدسة منتخباً من سبعة ناخبين. والحقيقة أن الإمبراطور كان يحكم فعلاً موزاييك واسع من الممالك والدول المستقلة الممتدة من بحر

البلطيق إلى المتوسط، وتشمل كيانات متنوعة مثل هولندا، وكونتيسة فرنسا، النمسا، المقاطعات السويسرية، بافاريا، سكسونيا، بوهيميا، دوقيات ميلانو والسافوا، جمهوريات جنوة وفلورنسا. أضاف التاجر أيضاً في عام 1519 وبعد وفاة ماكسيمليان، انتخب ملك إسبانيا شارل أو لوكسبورغ إمبراطوراً، منتصراً على مرشح آخر هو فرانسوا الأول ملك فرنسا، مضيفاً ممتلكاته الخاصة - مثل إسبانيا ومملكة نابولي وصقلية - إلى إمبراطوريته الواسعة، وأصبح شارل كنت السيد الحقيقي على أوروبا.

في عمق منطقة كالابري الفقيرة حيث ولد جيوفاني، لم يعرف أبداً هذه الحروب والصراعات، لكنه سمع أن الناس يتحدثون عن الإمبراطور. طرح الشاب أيضاً العديد من الأسئلة على البورجوازي الذي شرح له بالتفصيل تاريخ أوروبا والمنظمات السياسية للدول، وسرد له أيضاً النزاعات المستمرة بين شارل كنت وفرانسوا الأول. لكن ما أن وصل التاجر إلى منزله، لم يبق له أي فرصة للحدث مع جيوفاني. طلب منه العمل خمسة عشر ساعة في اليوم في قطع الخشب وتموين الفرن العملاق الذي كان يشوي السيراميك بالوقود، مؤجلاً المعلومات الجديدة.

بعد عشرة أيام، توصل جيوفاني إلى إدراك أنه سوف لن يحصل على أكثر مما حصل عليه وقرر متابعة طريقه.

لقد ترك منذ فترة وجيزة دول نابولي واتجه نحو الدول التابعة للبابوية، كان بمقدوره الانعطاف نحو شاطئ الأديرياتكي وتجنب الكتلة الجبلية آبروزس، لكن غريزته دفعته بالعكس إلى الولوج في الغابات الكثيفة المقفرة، هكذا كان لقاؤه الأول الحاسم لبحثه.

كان ذلك في صباح أحد أيام الخريف الجميلة، عندما دخل لتوه في أحد القرى الكبيرة وتدعى إيزرنيا وفوجئ برؤية تجمع تنبعث منه أصوات كبيرة أشبه بالضجيج في مركز المدينة، كان الناس يركضون هائجين، تقدم إلى امرأة عجوز مستفسراً السبب:

أجابته، وعيناها تكادان تخرجان من محاجرهما نظراً لأهمية الحدث: لقد ألقى القبض على ساحرة مشعوذة .

كان جيوفاني قد سمع الناس يتكلمون عن ذلك النوع من المخلوقات ويعرف أنهم متهمون بالتعامل مع الشيطان وأنهم سبب العديد من المآسي، لكنه لم ير أياً من هذه المخلوقات في حياته، وبدافع الفضول، تبع الجميع وبلغ وسط القرية.

اكتشف بنوع من الرعب فتاة فاتنة لا يصل عمرها إلى الخمسة عشر سنة، راکعة على منصة حيث وضعها أهل المدينة، يداها موثوقتان ومشودتان خلف ظهرها، وفمها مُلثَم، شعرها المسترسل في الطول الأصهب المائل للشقرة ينسال متبعثراً على فستان قرمزي. عيناها الزرقاوان كانتا تبدوان واسعتين لدرجة أنهما تشعلان الجميع بمزيج من الخوف والهيجان.

علم جيوفاني أنها كانت تعيش منفردة منذ وفاة أمها التي أخذت عنها معرفة وخبرة الأعشاب، وأن الفتاة تابعت تخفيف آلام وأتراح

السكان، جامعة من الغابات في الأمسيات التي يكون فيها القمر بدرأ، الأعشاب البرية التي كانت تستخلص منها الأدوية. لكن ومنذ عدة أشهر، توفي بعض الأشخاص الذين عالجتهم من الحمى الإبتانية، وبعد ذلك وصل المحصول إلى درجة كارثية.

خامر الشك فكر خوري القرية الذي توجه بصحبة العديد من المتحمسين الليلة الماضية إلى الغابة، حيث أكد هؤلاء الرجال أنهم شاهدوا الفتاة تمارس شعائر الشيطان. فقبضوا عليها وجاؤوا بها إلى القرية. أوصدوا الأبواب عليها طوال أربعة أيام محرومة من الماء والغذاء، ثم تعرضت للمساءلة من قبل أعيان القرية لكنها رفضت الإقرار بجرائمها. وبما أنه ما من أحد مخول بمحاكمة الساحرة، فقد أرسلت رسالة مع مسافر على ظهر الحصان إلى مدينة سولمونا الكبيرة بغية إخبار الأسقف. أعلمهم هذا الأخير أنه سيرسل في الحال راهباً محققاً ليقوم بالتحقيقات الأولية، فإذا ما تأكدت له الشكوك، فإن المرأة ستنقل إلى زرنانات الأسقفية الرهيبة ليستمع إليها الأسقف شخصياً، قصد إرضاء فضول السكان الذين يخشون من أن تتمكن الساحرة من مغادرة القرية دون التمكن من مشاهدتها ومعاقبتها. قرر الوجهاء عرضها أثناء النهار في الساحة العامة. خوفاً من كيلها ببعض الشتائم والتجديفات، وحتى لا تحاول إلقاء أذى السحر عليهم، فقاموا بربط فمها.

كان جيوفاني يراقب بانتباه الفتاة بينما الناس يرمونها بكل أنواع الثمار المعفنة متبوعة بالسخریات. كانت جالسة على عقيها ورأسها يلامس على صدرها، عند توجيه (إهانة) قوية جارحة أو كلمة عنيفة، كانت ترفعه فجأة، وعيناها تقدحان شرراً، ثم تعود وتحني رأسها باستسلام. شعر جيوفاني بحزن عميق، فغادر القرية على الطريق التي كانت تبعده عن المدينة، لم يعد قادراً على نسيان تلك المرأة، هل كانت فعلاً من أتباع الشيطان؟ لم يتمكن من تصور ذلك، نظرأها تنم عن

الخوف والظلم. وللمرة الثانية في حياته، توسل إلى الله بأن يساعد ذلك المخلوق المسكين، وتلا الصلاة الربانية أبانا الذي في السموات عدة مرات، في قلبه.

مع حلول المساء لجأ إلى الفندق، وجلس إلى الطاولة الوحيدة في مكان غير المشغول، وطلب وجبة ساخنة. تأمل صاحب الفندق بقرف لهذا المشرد، وطلب منه بأن يدفع سلفاً، قدّم له جيوفاني قطع النقود دون أن يتحرك له جفن وأضاف: غرفة واحدة وفراش من القش في الزريبة.

بينما كان يلتهم طعامه دخل راهب ورجل مسلح إلى الفندق، طلبا وجبة طيبة وجلسا مقابل جيوفاني، فهم من حديثهم أن الأمر يتعلق بالراهب المحقق وحارسه الذي جاء للتحقيق مع الفتاة. أنصت بأذنه واستمع. كانا قد وصلا على الجياد بهدف إجراء استراحة طوال الليل والذهاب صباحاً إلى القرية.

كان الراهب قد حجز غرفة وسينام الحارس في الاسطبل مع الخيول. علم جيوفاني أن الفتاة ستنتقل حتماً إلى المدينة الكبيرة للتحقيق معها ومحاکمتها من قبل الأسقف، على ما فهمه، وخاصة أن هذا الأسقف أقدم على حرق العديد من النساء ذوات الممارسات الشيطانية.

ما أن أنهى طعامه، حتى توجه جيوفاني إلى الإسطبل واستلقى على القش ولحق به الحارس في الحال، الذي استلقى بدوره مستسماً للنوم دون النطق بكلمة واحدة.

لم يتمكن جيوفاني من النوم، كانت نظرة الساحرة تشغل فكره وتلاحقه.

في منتصف الليل اتخذ قراراً خطيراً جدياً راسماً مخططه بشكل متقن، قبل الفجر بقليل يبدأ التنفيذ.

تأكد من كون الحارس غارقاً في النوم، ثم أمسك عصا غليظة وصرعه بضربة واحدة، لم تصدر عن الرجل أي صرخة ألم. ارتدى جيوفاني ثيابه وتقلد سيفه وخنجره، ثم شد وثاقه بقوة الجسد العديم الحركة، قبل أن يخفيه تحت التبن. حلق لحيته بقدر المستطاع، وأسرج الخيول وانتظر باضطراب وصول الراهب. عندما ظهر الأخير، أطلق صرخة تعجب ضعيفة عندما تحقق أن حارسه غير ملامحه.

لم يترك له جيوفاني الوقت للاعتراض، فقد وجه خنجره نحو بطنه البدين وأمره بامتطاء الحصان دون تدمر. تبدد الدهول، نفذ الراهب ما أمر به وهو يرتعد. ارتاح جيوفاني لتأكده أن المحقق كان جباناً، وذلك شرط النجاح لمخططة الجري، لأنه لم يعد قادراً على استعمال السلاح ضد خصم مصمم على قتل الراهب.

غادر الرجلان الفندق وامتطيا كل منهما حصانه جنباً إلى جنب قاصدين القرية، شكر جيوفاني السماء، لأنه كان يهوى منذ طفولته ركوب الخيل، وقد تعلم ذلك جيداً عند رئيس القرية الذي كان لديه الكثير منها، شرح للراهب ما يجب عليه القول والعمل ما أن يصل إلى الساحة. اتخذ لهجة تهديد وأكد لرجل الدين المرعوب أنه لن يتردد أبداً عن قتله فيما لو أصر على مخالفة أمره.

وصل الرجلان إلى المدينة وسط صيحات الجمهور. لم يتم وصولهم دون علم أحد بل تبعهم جمع من عدة مئات من المتسكعين الذين رافقوهم إلى الساحة حيث كانت المشعوذة موثوقة.

كما طلب جيوفاني: أمر الراهب دون التبرجل عن ظهر حصانه، بنزع وثاق الفتاة ووضعها على جواد حارسه. فوجئ الرجال الذين كانوا يراقبون ويحرسون الساحرة بطلب من هذا النوع، لكنهم لم يتجرأوا على مخالفة أوامر المحقق.

أنزلوها من على المنصة الموضوعة عليها، لكنهم أبقوا على رباط

فمها ووثاق يديها خلف ظهرها. ثم رفعها كامرأة فارسة على حصان الحارس. شعر جيوفاني بقليل من التأثر والانفعال بجسم الفتاة الطويل المرن يلتصق بجسمه.

ويبد حازمة متينة أمسكها من خصرها لكي لا تسقط وبالأخرى أرخى لجام حصانه لكي يتقدم نحو الأمام.

قرأ جيوفاني في عينيها مزيجاً من الثقة والحذر، لكنه فتن وسُحر خاصة بحدة نظرها، بالرغم من التعب والعطش اللذين كانا يعتصرانها. شك خفيف عَبَّرَ مخيلته وتساءل ماذا سيفعل فيما لو كان حقاً في مواجهة ساحرة حقيقية كانت تصر على فتنه وسحره.

لم يكن لديه الوقت مطلقاً ليتوقف عند هذه الفكرة قبلاً. بدأ الهمس يتصاعد من الجموع التي لم تكن تفهم لماذا يبدو المحقق وكأنه يرحل مع الساحرة، بينما المتفق عليه هو التحقيق معها بحضور أعيان القرية. وما أن وضعت الساحرة على ظهر الحصان، حتى خاطب خوري القرية الراهب وسأله عن معنى تصرفه، أجاب رجل الدين مرتبكاً وظهره دائماً في متناول خنجر جيوفاني: من الأفضل التحقيق مع المرأة في مكان آخر غير هذه الساحة العامة. فأجاب راهب القرية أنه سيكون من الحرص نقلها مخفورة برجلين قويين واقترب من حصان جيوفاني. شعر الفتى أن الوضع كاد أن يفلت من يده، دون إعطاء مجال للتفكير، سحب المرأة إليه وشد بقوة على الركاب فاندفع الحصان بسرعة وسط المتسكعين المندهشين. واستفاق الراهب من ذهوله وصاح:

- أوقفوه! أوقفوه! أنا لا أعرف هذا الرجل، إنه محتمل.

لكن فات الأوان، كان جيوفاني قد غادر الساحة من شارع يؤدي إلى مخرج المدينة. بما أن كل السكان تقريباً كانوا متجمعين في قلب المدينة، فإنه لم يلتق إلا ببعض الشيوخ الذين سمحوا له بالمرور.

الزمن اللازم ليتحرك الوجهاء ويرسلوا فرسانهم للحاق به جاء متأخراً، فقد قطع في هذه المدة نصف فرسخ.

استغرقت الساحرة بضع لحظات لتجد نفسها مختطفة على مرأى من جلاديتها، ونظراً لعصبية مختطفها فهمت أنه لم يكسب الرهان بعد وتصرف بمفرده. أشارت له بعينيها ليحررها من الكمامة. وما أن حررها حتى توجهت إليه قائلة: تابع السير حتى الجسر، ثم انعطف إلى اليسار على المسلك الضيق المحاذي للنهر. انصاع الفتى للأمر، مخلفين، غمامة من الغبار.

- لا تخف، طمأنته الفتاة التي تبدو وكأنها تقرأ أفكاره، سنصل الغابة قبل أن يتمكنوا من اللحاق بنا.

بالفعل دخلا غابة كثيفة، لا يمكن معها للجواد التقدم داخلها. أمرته الفتاة التي بدت مرتاحة لزوال الخطر: اربط حصانك إلى هذه الشجرة وفك وثاقي.

لم يتردد جيوفاني للمرة الثانية فقطع وثاقها بخنجره، وهرعت إلى المطرة المعلقة في السرج وشربت الماء حتى آخر قطرة، ثم ركزت نظرها إلى عيني جيوفاني وقالت:

- هؤلاء الملاعين منعوا عني الماء! اتبعني، فلن نجدونا مطلقاً في الغابة.

أمسكت بيده واقتادته وسط نباتات الحراج المظلمة.

سارا طوال ساعتين دون تبادل كلمة واحدة، أخيراً وصلا إلى قمة مرتفع من الأرض تحقق لهم إطلالة ورؤية واسعتين على الوادي. أشارت الفتاة إلى جيوفاني بوجود كوخ مموه في سديانة ذات ستة جذوع. ألقّت على فرع عال سلباً من الحبال مخفياً داخل تجويف صخرة، ثم أدخلت مخلصها في الخبا، تسلق جيوفاني الدرجة بشيء من التوجس والخوف، اطمأن لدى دخوله عشاً طرياً ناعماً، مصنوعاً من الأغصان الصغيرة والأعشاب اليابسة.

- هذا هو كهفي السري، أسرّت بهذا إلى جيوفاني بابتسامة عريضة، وأخرجت مطرة وبعض المؤونة من مخبئها، خذ وكلّ، أضافت وهي تناوله الفاكهة. أنا اسمي لونا. شكراً على ما فعلته، أجهل لماذا فعلت ذلك، لكن أشكرك.

ردّ جيوفاني بابتسامة على كلمة شكراً، ثم أشار إلى العدد الكبير من النباتات المعلقة في سقف الكوخ.

- إنها نباتات جففتها واستخدمها في الطبابة، لا يوجد أي شيء شرير في كل هذا.

- إذن لست ساحرة، هكذا قال جيوفاني بنية طاهرة. ذهلت، ثم قهقهت بضحكة فرحة.

- فيما لو كان العكس هل كنت هربت معي؟

ابتسم جيوفاني من جديد.

- كُنْتُ سألْتُني من قبل لماذا أطلقتَ سراحي وخلصتني من هؤلاء الناس؟ حسناً أنا نفسي لا أعرف. رأيتك بالأمس في الساحة ولا أعرف عنك شيئاً ولا حتى ما إذا كان الذي يقولونه عنك صحيحاً أو كذباً، غير أنني لم أتمكن من قبول الطريقة التي عوملتَ بها، شعرت طوال ذلك النهار بحزن عميق لدى التفكير بك. عندئذ، ما أن حلَّ المساء، ورأيت المحقق جاءني فكرة مساعدتك على الفرار، بالوصول إلى الحارس وتهديد الراهب البدين، لكن عليّ أن أقرّ لك أنني خفت أكثر منه، لأنني لم أتدرب على استعمال السلاح في حياتي.

استرسلا بعدها بضحكة كبيرة.

- انظر! قالت لونا ببهجة المنتصر مُحضرة كأساً من الخمر، سنحتفل بلقائنا! لقد أصغت إلى رواية جيوفاني بكثير من الدهشة والاستغراب، وتساءلت: من كان هذا الشاب الغريب الأطوار الذي خاطر بحياته لإنقاذ ولتخليص حياة فتاة مجهولة؟

شربا نخب اللقاء بفرح وقصت له لونا روايتها.

لم تكن قد عرفت أبيها مطلقاً وكبرت وحيدة مع أمها، المشار إليها بالإصبع من قبل سكان القرية الذين لا يروق لهم كثيراً وجود فتاة - أم. لكن بما أنها كانت قادرة على تخفيف الكثير من الأوجاع والأمراض، فلم يطردوها، كما يحدث كثيراً لمثل هؤلاء النسوة دون عائلة، اللواتي حملن من شاب أو رب عائلة عديم الذمة. الوقت يمضي، عند وفاة أمها، بدأ بعض الرجال وبينهم بعض الوجهاء مطارقتها والمطالبة بالحصول على رضاها.

لم تخف لونا عن جيوفاني بأنها حصلت على عدة عشاق مقربين وأنها كانت ذات طباع وسلوك هادئين، يتطلب الأمر الحصول على إعجابها! تأمر عليها بعض الذكور المرفوضين مستفيدين من البلبلة بعد

النكبات والمصائب التي حلت على المدينة، ومنهم الكاهن نفسه، مدعين أنهم شاهدوها تقوم بمراسيم عبادة الشيطان، بينما كانت تنتزه في الغابة لقطف الأعشاب والقمر بدر.

أصغى جيوفاني باهتمام، إلى كلماتها التي تنم عن الحقيقة. تبدد الشك شيئاً فشيئاً من قلب الشاب. كان يقف متأملاً مفاتها لدى سماعه كلامها، أحب جسدها الناعم المرن، الرشيقي وبشرتها البيضاء وأناملها الطويلة، أحب وجهها الذي ينبض بالحياة، عينيها الزرقاوين الملتهبتين، شعرها الغزير الطويل الأحمر المنسدل على ثدييها الصغيرين والمنحنيين. يقول في داخله: حقاً إنها امرأة فاتنة للغاية، والآن أفهم لماذا كانت تفتن رجال المدينة.

ما أن أنهت لونا روايتها، حتى قالت لـ جيوفاني: إنها جائعة، وعليها الذهاب لتفقد الأفخاخ التي نصبتها. نزلا من على الشجرة، بينما كانت لونا تفتش الأجراس، قام جيوفاني بإشعال النار، إذ اتفقا على انتظار الليل ليأكلا، لتجنب رؤية الدخان وهو يتصاعد.

بعدما جمع جيوفاني حاجته من الخشب وصنع كومة كبيرة مؤقتة، اتكأ إلى جذع شجرة دردار وتأمل السماء المائلة إلى الحمرة فوق الوادي. بينما كوكب النهار يختفي في الأفق، مفسحاً في المجال أمام القمر ليأخذ مكانه، راسماً حلقة كاملة، بدرأ.

انضمت إليه لونا، ويدها أرنباً برياً رائعاً. حضر النار، لا خطر من أن يرانا أحد، سأذهب لآتي بإبريق خمر آخر.

تسلقت الشجرة بينما جيوفاني يشعل الأغصان الصغيرة جداً باستخدام حجرين من الصوان الذين قدمتهما له الفتاة، انضمت إليه وشربا من جديد بانتظار جاهزية الجمر. كان جيوفاني يشد على الأرنب ليدخل السيخ عندما أمسكت لونا يده.

- أتريد أن أقرأ لك مستقبلك؟

بقي جيوفاني مستمراً دون ردّة فعل.

تعلمتُ من أمي أيضاً موهبة قراءة المستقبل وقدر الناس في أحشاء الحيوانات. لا يمكنني فعل ذلك إلا في الليالي التي يكون فيها القمر بديراً، لهذا أطلق علي الناس اسم لونا (القمر)، فهم يعتقدون أن الكواكب الليلية هي من توحى إليّ بهذه الرؤى الغريبة.

لا أعرف شيئاً عنك، لكن باستطاعتي رؤية أشياء من ماضيك ومستقبلك.

بقي جيوفاني مسمراً من الدهشة، مدركاً أنه قد يكون أمام ساحرة حقيقية. من أين كانت تستمد هذه القوة؟ من الله أو من الشيطان؟ بدأ يرتجف وساده القلق. قهقهت لونا ضاحكة.

- لا تخش شيئاً، جيوفاني، لا شيء شرير في هذا. تعلمت هذه الموهبة منذ ولادتي. عندما ألتقي بالناس تحدث لي رؤى عن حياتهم، علمتني والدتي القراءة في أحشاء الحيوانات عندما يكون القمر مكتملاً، أرى أشياء أكثر تحديداً أيضاً. قمت بهذا لعدد من وجهاء المدينة وكل ما قلته عن الماضي والمستقبل كان صحيحاً. ولهذا أيضاً يتهمني كاهن القرية بممارسات شيطانية. يقول بأن رؤى القمر هي ممارسات جاءت من أقدم العصور الوثنية وأن ذلك يعني تقديم عبادة وثنية للكواكب أكثر منه الاعتقاد أن بمقدورها الإيحاء بمعرفة أو قراءة المستقبل.

لم يكن جيوفاني بعيداً عن مشاركة الكاهن آراءه، كيف يمكن لأحدنا قراءة ماضي والأكثر من ذلك مستقبل الناس المجهولين دون أن يكون هذا موحى من قبل قوى فائقة للطبيعة؟

والدين المسيحي يدين هذه الممارسات، هذا بدون شك لأنها موحى بها من الشيطان. قرأت لونا من جديد أفكار الشاب، شدّت على يده برفق، لم يجروء على سحبها بالرغم من الخوف الذي كان يزعجه.

- لا يحب الكهنة أن نعرف الناس بمستقبلهم، لأن ذلك يهمهم أكثر من الذهاب إلى الصلاة أو الاعتراف. تابعت لونا بلهجة واثقة. لكن إذا ما منحني الطبيعة هذه الموهبة أليس من أجل شيء مفيد للآخرين في السعادة الأبدية؟. أتعرف أنني لا أرى إلا الذي يعطيني الله إياه لأراه. تبدو أقوال لونا منطقية بالنسبة لجيوفاني. قوة نبرتها مضافة إلى عذوبة صوتها ساهما أيضاً في تهدئة قلقه. في نهاية المطاف، قال في نفسه: قد تكون على حق.

لماذا يسمح الله لواحدة من خلقه بريئة كبراءة الطفل أن تكون موهوبة بقوى وسلطات شريرة؟ إذا كانت تملك هذه الموهبة منذ الولادة، فما ذلك إلا بإرادة الخالق. بقي صامتاً لفترة طويلة، مفكراً باقتراح الفتاة: فهل كانت لديه الرغبة في معرفة مستقبله؟

في أعماقه، كان جيوفاني كل شيء ما عدا كونه قدرياً. كان يشعر دائماً، بنوع من الحدث أو الاستشعار، فهو بمقدوره اختيار حياته وليس الانقياد لها. لهذا استقبل رغباته الأكثر عمقاً كأشياء ممكنة، ولنفس السبب أيضاً قرر، خلافاً لكل الناس، السفر للبحث عن إيلينا. كان يعرف أن عليه أخذ قدره بيده، دون هذا فإنه لن يغادر قريته. يقود الحياة التي لم يكن يرغبها وفي الوقت ذاته يسأل نفسه دائماً، لماذا كان مختلفاً جداً عن أقرانه من الأطفال. لماذا لديه رغبات بعيدة جداً عن رغبات رفاقه، لقد استنتج من ذلك أن عليه إتمام بعض الأعمال في حياته التي سيكون موحى بها من بعض القوى التي تحكم الكون والتي تتجاوزها. أليس هذا ما تسميه لونا «القدر»؟.

لكن هل من المفيد لأي منا معرفة قدره؟

تساءل: أليس من الأفضل اكتشافه تدريجياً كلما جاءت الرغبات، وحدثت اللقاءات أو الأحداث؟ ماذا تفيد معرفة القدر المستقبل خاصة إذا كان تعيساً؟ في تلك اللحظة كان يحلم بإيلينا، التي ترسم قدره.

هل كان مكتوباً في السجل الكبير لأقدار البشر، أن من واجبه البحث عنها، والعثور عليها وحتى أيضاً، أن يكون محبوباً منها؟ فيما لو أكدت لونا له ذلك، فكم هي عظيمة القوة التي سترفده! لكنها لو قالت له أنه يسير في الطريق الخطأ، فإن قدره هو البقاء طوال حياته في قريته، وأن إيلينا لم تكن تحبه أبداً.. فأبي قرار سيتخذ عندئذ؟ استغرق الشاب بعمق في أفكاره، فيما تمسك لونا بيده دائماً وتحترم صمته.

كانت تعرف أن سؤالها لم يكن دون جواب، هي أيضاً تقرأ في أحشاء الحيوانات بتخوف، أحياناً تصل إلى رؤى شبيهة بالكوابيس، التي أحببت أن تتجنبها. في إحدى المرات، تعرضت لمرض خطير جداً بعد حلم لوفاة مرعبة في أحشاء دجاجة جاءت بها أم فتية، فيما بعد توفيت المرأة نتيجة آلام حادة شديدة أثناء ولادة طفلها الخامس.

وبالتدريج، اعتادت نوعاً ما، على هذه الرؤى، كانت تعيشها بحدّة وهي ترويها، ثم ابتعدت عنها لدرجة نسيان أي إحساس بها. كانت تمارس مهارتها دون طرح أي سؤال كما يمارس الآخرون مهنتهم في الطبخ أو في مصنع الحدادة.

خرج جيوفاني تدريجاً من تأمله، وأفلت يد لونا.

بشعوره أن القرار الذي اتخذه يعود له وحده، فقد توصل إلى نتيجة مفادها أنه سيتابع بحثه، مهما تقول له الفتاة، إذن لم يكن يخشى شيئاً. في أفضل الأحوال، ستريحه في اختياره، وفي أسوأ تقدير سينسى بسرعة تلك الليلة الخالية من النجوم وكلماتها المأخوذة من أحشاء أرنبية برية.

بإشارة من رأسه، أعلم لونا بقبول عرضها.

أمسكت الفتاة بسكين وشقت بطن الحيوان وأبعدت جانبي الجرح عن بعضها، وأخرجت الأحشاء. وعلى ضوء النار، تركت الفتاة نظرها يضيع في أحشاء الحيوان المدماة.

كان جيوفاني ينظر بقليل من الخوف إلى عيني لونا. فقد تغيرت ألوانهما ومالتا إلى الحمرة واستقرتا كلياً في هذه الكتلة اللزجة وكأنهما في الوقت، ذاته، تنظران بعيداً، بعيداً جداً.

بسرعة استحوذ لونا تأثر شديد، أرجعت رأسها، كما لو أن شيئاً كان يخيفها منبثقاً من أحشاء الحيوان.

- امرأة، أرى امرأة محاطة بالجنود، يداها تحملان بطناً مكوراً، حقيقة، هي تحمل طفلاً، وهي معرضة لخطر كبير.

أغلقت لونا عينيها للحظات، كان صوتها غريباً، بدت ممسوسة بقوة خارجية. حذقت من جديد، في أحشاء الحيوان.

- أرى صبياً صغيراً، عمره سبع أو ثماني سنوات على الأكثر ينظر إلى تابوت ينزل في حفرة، يمسك دموعه، لكنه حزين، ضائع ناته، يمسك دموعه، لكن طبقة من الحزن تتوضع على قلبه إلى الأبد.

أرى الآن وجه المرأة التي تحمل الطفل، شعرها أسود داكن، ما زالت فتية، لكن قلبها وفكرها واسعان وعميقان، تعزي وتخفف من حزن الصبي. تريد أن تخرجه من غمه وحزنه، تداعب وجهه بحب كبير!

بدت لونا منهكة، استعادت قوتها.

- امرأة أخرى، أكبر منها سناً كما لو أنها تتألم في قلبها، تفكر برجل تحبه وهو محكوم بعقوبة كبيرة. تقول أنه كان عليها تجنب ذلك، تشعر بأنها مذنبه في كل ما يحصل.

أراها أكثر شباباً، أكثر شباباً بمقدار كبير. كم هي جميلة! لكن قلبها قلق، تنظر إلى جثة رجل قُتل بسيف اخترق جسده.

هذا الرجل، أرى قاتله! هو، هو... أنت الذي قتلته. أرى جثة ثانية هذه أيضاً، أنت الذي قتلته!

أرى ثلاثة... وأنت قاتلها!

أرى أيضاً رجلاً مرعوباً، يحمل ندبة على يده.. أنت تدنو منه.. تريد قتله بالسيف، ترفع ذراعيك. كل شيء يتوقف.

أرى أربعة مسنين جالسين على عروش، هناك عرش خامس فارغ، أنت في مقابلتهم، ينظرون إليك بطيبة. الأول يضع قبعة على شكل نجمة والثاني كفيف البصر، وآخر ذو لحية بيضاء طويلة، يرتدي ثوباً أبيض طويلاً دون خياطة.

يفتح العجوز الأول فمه ليقول: مكانك بيننا يا ولدي، لأن روحك عميقة ونقية. يتابع الثاني: مع أن يداك مضرجتان بالدم، لأنك ستقتل بسبب الحسد والغيرة، والخوف والغضب. إسمع العجوز الثالث يأخذ الكلام ويقول: إذا ما انتزعت الحياة للمرة الرابعة سيكون بسبب الحقد... عندها ستضيع روحك إلى الأبد.

الأخير يريك النجمة السماوية: تأمل، يا جيوفاني قدرك المضيء والمأساوي هل تقبله؟

بقيت لونا صامته، أغمضت عينها وسالت بعض الدموع على خديها. مسحتها ونظرت أخيراً إلى جيوفاني، اعذرني، لم يكن بودي أن أعرض عليك رؤية مستقبلك.

ظل جيوفاني كما لو كان مصعوقاً طوال فترة الرؤية:

لم يفهم شيئاً من هذه اللوحة الجدارية المدماة، شعر بنفسه أنه غريب جداً عن هذه القصة غير المفهومة. في أفضل الأحوال يكون شبه نفسه بالصبي الذي فقد أمه، لكن ليس هناك من فتاة سمراء عزته. فكر بإيلينا عندما تكلمت لونا عن امرأة تنظر بشفقة وعطف إلى رجل يتألم بسببها. لكن ذلك لا يعني أنها تشير إلى فتاة البندقية، فبحسب قارئة المستقبل كانت المرأة متقدمة في السن. ومن المستحيل أن يربط حياته بهذه القصة. ويقدر ما شعر بأنه مهتز بداخله، موبخاً، مفرغاً، فقد تأثرت بذاته في أعماق حياته الخاصة، دون أن يعرف فكره لماذا. كان موجوداً، متأثراً وغير قادر على التفكير أو النطق ولو بكلمة واحدة. قطعت لونا الصمت من جديد.

- هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أشياء بهذا الكم وبطريقة مشوشة جداً. لا أعرف من أنت، ليست لديك ملامح الرجل الذي رأيته لدى النظر في أحشاء الحيوان، هذا ليس مجرماً فقط، بل شعرت برجولته ومعرفته الواسعة ولديك بالنسبة لي ملامح القروي.

لستُ بالفعل سوى قروياً بسيطاً، تابع جيوفاني مطمئناً إلى كلماته.
أنا مثلك أيضاً لا أفهم شيئاً من كلامك الغريب العجيب.
ثم نهض بتوذة.

أنا منهك، هذا النهار المخبون، برواك الرهيبة، بالنبيذ، كل هذا أدار
رأسي، أنا بحاجة للاستسلام للنوم.

يمكنك الصعود إلى الكوخ، ستكون مرتاحاً فيه ولن توظك رطوبة
الفجر. بالنسبة لي فإن أولئك الأشرار جعلوني أتضور جوعاً وليس
بيني رفض هذه الطريدة. سألحق بك فيما بعد.. ثم بسلام، فأنا حقاً
لست ساحرة شريرة.

لم يكن لدى جيوفاني ما يكفي من القوة لكي يتسهم، لم يكن يفكر
بشيء أبداً. تسلق سلم الجبال بصعوبة واستلقى في زاوية من الكوخ
المعلق. وفي بضعة لحظات كان يغط في النوم.

في منتصف الليل، بدأ عصفور غريب بالتغريد، وتطلب الأمر من
جيوفاني عدة لحظات ليستعيد وعيه. فتاة كانت تنام إلى جانبه، متجمعة
وملتصقة به. تحير واندهش بشعرها وداعب بلطف وجهها المضاء بنور
القمر. فانتفض.

- إيلينا!

ما من شك كانت هنا، في هذه اللحظة تنام ملتصقة بسلام وسكون،
ذراع ممدد على صدرها، بالرغم من ذلك كان مستحيلاً، فلم يكن لدى
جيوفاني أدنى شك أنها هي، كان مفتوناً بسحر عينيها الواسعتين
المغمضتين، ونعومة بشرتها ورائحة شعرها المعطر بالمسك، لقد
حصلت له رغبة جامحة لا يمكن مقاومتها بوضع شفتيه على شفاهها.

وفي تلك اللحظة بالذات فتحت الفتاة أجفانها. بقي جيوفاني معلقاً
فوق عينيها نصف المغمضتين.

شفتاها القريبتان من شفتيه، فوجئ في بادئ الأمر، فقد تلاقت نظراتهما ببطء الحنان والشهوة. كان جيوفاني قد تهيأ لقطع سحر هذا الصمت اللذيذ ليسألها كيف يمكن أن تكوني هنا، عندما بدت الفتاة وكأنها تقرأ أفكاره الحميمة، وضعت اصبعها على فمه، ثم تركت ظهر يدها ينزلق على لحيته الطرية الفتية، على ذقنه، عنقه فوق صدره المعرّى، ثم أدارت يدها وصعدت في الجهة الأخرى من الوجه، على طول العنق، الوجه، حتى شعره الذي أمسكت به بقوة. جيوفاني لم يكن ليتمالك نفسه كان مفتوناً ويتلذذ بمداعبات المرأة مثل كوثر أو شراب إلهي.

قربت وجهها إلى مستوى وجهه، بينما كان جيوفاني يرى نظراتهما يذوب بعضها في الأخرى وشفاهما دائماً قريبتين من بعضهما أكثر فأكثر إلى أن تذوق منهما، التصقت به المرأة وغمرته بذراعيها المشتهيتين. وبلطف مررت يديها جيئة وذهاباً على ندب جراحه السابقة التي ما زالت واضحة حتى الآن في ظهره. كانت هذه المداعبات أو اللمسات تريحه جداً وتبدو كأنها تضع أفضل وأنعم المراهم.

شعرت بشهوة الفتى وبحركة حيوية، فاجأت جيوفاني، أدارته على ظهره وانتصبت فوقه، ودست عندها ذراعاً نحو عضوه الذكري الملتهب المنتصب، وأمسكت به وأدخلته في غارها الحميمي. وبحركة غريزية من وركيها، الوحشيتين تقريباً، استحوذت على جسد الفتاة، بينما كانت تطلق صراخات خافتة صغيرة، ثم انحنت فوقه، وجيوفاني يرتعش وهو يشعر بشعرها يلامس صدره على الوقع الشيطاني لوركها. ثمل من السعادة فوضع يديه، على ثدييها المهترتين وداعبهما بهدوء. كان انفعاله شديداً لدرجة الإغماء.

في أي لحظة استعاد وعيه..؟

كانت المرأة ملتفة عليه، عارية، والوجه مغطى بذراعيها، لقد بدأ بريق الفجر الباهت ينير بضوئه الكوخ.

تسمرت نظرة جيوفاني المثقلة وهو ينظر إلى شريكته.

- لونا! صاح متعجباً وهو ينهض بقوة.

كانت المرأة تنام، وانطباع لذيد ينير تقاسيم وجهها المستكين. رجع جيوفاني إلى الخلف مزجراً قائلاً: لقد خُدِعت من قبل الساحرة.

ارتجف من الخوف والغضب، جمع ثيابه ونزل مسرعاً من الكوخ قدر الإمكان، لبس قميصه وبنطاله وهو يمشي، وانتعل حذاءه الرث، ممسكاً بالسيف الذي سرقه من الجندي بيد، وبالأخرى مطرته من جلد الماعز وهرب راكضاً.

II

عطاره

هام على وجهه مثل شيطان عبر الغابة مدة ساعات وذهنه مضطرب، كان عاجزاً عن التوصل إلى تجميع أو إحضار أي فكرة، كان يجري، ويجري، دون هدف آخر سوى الهرب من تلك المرأة التي سحرتة. انتهى به الأمر إلى الخروج من الغابة وبلوغ الطريق. استراح لبعض الوقت على حافة الطريق وملاً مطرته من نبع مجاور، ثم سار باتجاه الشمال، قاصداً البندقية، نحو إيلينا.

كانت أفكاره قد تجمعت ببطء، على وقع أقدامه. بدا غاضباً من تصرف لونا التي انتحلت حتماً مظهر إيلينا لتفتنه وتغويه، ومرتبكاً أيضاً، لأنه شعر بتلك اللذة والاكتفاء عند ممارسته الحب مع تلك المجهولة. لام نفسه، حتى ولو اطمأن إلى التفكير بأن قلبه وجسده كانا كليّة متوجهين نحو حبيبته الغالية.

عندما مالت الشمس إلى الغروب، غطّ نائماً على جانب الطريق، إلى أسفل جذع سنديانة كبيرة، بالرغم من مسير خمسة عشر ساعة على طريق مستمرة في الصعود والهبوط، فلم يتمكن من تناول أي شيء من الطعام لأن أحشائه كانت مربوطة ومغلقة بسبب ما جرى في الليلة الماضية.

بينما كان يسعى جاداً إلى النوم، عادت الرؤية التي قدمتها الساحرة إلى ذاكرته، «كل ما قالت لي يبدو بعيداً جداً عن حياتي». في الوقت

نفسه، فإن حياتي غريبة عجيبة منذ بعض الوقت، ماذا سيحدث لي أيضاً؟ هل من الممكن أن أصبح مجرماً؟ كلا، أرفض تصديق ذلك، يكفي أنني لا أريد، لكن هل توجد إرادة أقوى من إرادتي ستقود خطواتي على طريق مرسوم سلفاً؟

هل يمكن الإفلات مما كانت الساحرة تسميه «القدر؟».

انتهى الأمر به إلى الاستسلام للنوم. راودته أحلام قوية، امتزجت برائحة الدم المرعبة ورائحة بشرة لونا المنعشة.
- بماذا كنت تحلم؟

انتفض جيوفاني، كانت الشمس تشرق في الأفق.
عملاق ملتح كان يقف أمامه، قهقه الرجل بضحكة كالرعد.
لقد كنت مضطرباً جداً أثناء نومك، كنت تتأوه أحياناً مثل نعجة تذبح، وأحياناً أخرى مثل عجلة (بقرة فتية) حبلية.
- من أنت؟ صرخ جيوفاني بصوت غير واثق، ويداه على غمد السيف.

- لا تخف شيئاً، أنا أدعى بيترو، أنا خادم رجل يسكن وحيداً في الغابات.

مدّ العملاق يده لـجـيـوفـاني لـيسـاعـده في النهوض، تردد الفتى في الإمساك بها، لكن قلبه قال له عليك أن لا تخشى. عندها أمسك ذراع العملاق الضخم المشعر وقفز على قدميه.

أنا أدعى جيوفاني، ماذا تفعل في مثل هذه الساعة المبكرة؟ أنا عائد من المدينة، أمس مشيت لساعات طويلة وتوقفت عند هبوط الليل في قرية أوستوني، ليست بعيدة عن هنا، أشار إلى جيوفاني بكوخ مستند إلى شجرة.
- أنا أ جلب المؤن وأشياء أخرى لسيدي، إذا كنت جائعاً، يمكنك الانضمام إلينا لتناول الغداء.

شعر جيوفاني بمعدته التي تنقبض من الألم، فقبل عرض العملاق وتبعه على الدرب الذي يتغلغل في الغابة.

بعد مسيرة بضع دقائق وسط أشجار السنديان، والزان والكستناء، وصلا إلى فسحة وسط الغابة تغمرها أشعة الشمس الصباحية اللطيفة. بيت صغير بُني من جذوع الأشجار وسط هذه الفسحة.

- لقد شيدته بمفردي، هتف بيثرو عندما قرأ الدهشة في عيني جيوفاني، وتطلب الأمر مني شهوراً، لكنه سيقينا على الحياة لعشرات السنين.

- إذا هذا البناء يقع في مكان منعزل؟

- تابع الرجل بنوع من التبصّر لأن سيدي طلب مني ذلك.

- تقوم بخدمة من؟

- ستعرف ذلك قريباً.

دخل العملاق وحده إلى البيت، وخرج منه بعد لحظات.

- ادخل، يا ولدي، سيدي يدعوك لتقاسمنا وجبتنا.

بخطى مترددة، اجتاز جيوفاني عتبة المنزل، وانتهى إلى غرفة كبيرة تديرها فتحتان. انتفض، كانت جدران الغرفة مغطاة تماماً بالكتب.

- إن... إنها كتب؟ سأل الشاب، بعينين جاحظتين. رجلاً عجوزاً

كان جالساً في آخر الغرفة، على كرسي مريح، نحيل البنية، مؤخرة جبهته يعلوها تاج من الشعر الفضي. كان منكباً على كتاب، رفع رأسه وحدّق بجيوفاني بنظرة ثاقبة.

- هل سبق أن رأيت قبلها.

- نعم، لكن ليس بهذه الكمية، تمتم جيوفاني بنفس متقطع.

هل تعرف القراءة؟

- قليلاً، أنا قروي عادي، غير أن كاهن قرיתי علمني قراءة اللاتينية في كتاب الصلاة.

تابع الرجل العجوز مندهشاً بشكل ملحوظ، خذ إذن. وهل قرأت كتباً أخرى.

- للأسف كلا، لكنني أحب ذلك كثيراً!

نهض العجوز عن كرسيه وقدم إلى جيوفاني كتاباً، بقي هذا الأخير هادئاً، عيناه مشدودتان إلى الكتاب المغلف بالجلد الأسمر الناعم.

- ماذا تدعى؟

- جيوفاني، تراتوري.

- حسناً، خذ يا صديقي. وقل لي ما إذا كنت قادراً على فهم شيء ما.

مدّ جيوفاني يده إلى الشيء الثمين، وداعب الغلاف، وفتحه بتأنٍ، وبدأ يشمّه.

- يا لها من رائحة ذكية.

- هتف الرجل العجوز بابتهاج هكذا يجب استقبال الكتاب!، قل

لنا الآن عن مضمونه، هل بمقدورك قراءة عنوان الكتاب واسم مؤلفه؟

ترك جيوفاني الصفحات تنساب بين أصابعه لغاية الصفحة الأولى

منه، تأملها للحظات، ومن حسن الحظ كان النص مكتوباً باللاتينية.

- ديزيديريوس إيراسموس.

- مرحى! صاح العجوز الذي بدا عليه الإعجاب.

وهل تعرف ترجمة هذا في لغتنا الإيطالية الجميلة؟

- المؤلف على ما اعتقد يدعى ديزيرييه إيراسم، وهو وعنوان الكتاب..

تردّد جيوفاني للحظات، لأن تلك الجملة بدت له غير ذات معنى،

لكنه لم يعرف كيف يترجمها بشكل آخر غير الذي قرأه.

- مديح الجنون.....

- هذا صحيح!

- لكن ما معنى هذا؟ كيف يمكننا مديح واحدة من ركائز الشرور والأمراض التي يمكن أن تصيب الإنسان؟

قَطَّب الرجل حاجبيه، حتماً هذا الفتى الذي لم يكن يعرفه إلا منذ خمس دقائق بدأ يروق له، بالرغم من كونه قروياً، فقد كان يتمنى تعلّم القراءة وهاهو ذا الآن مظهراً فضولية ذهنية ثقافية حقيقية.

هذا حقاً هو طعم ولذة عنوان هذا الكتاب! أمسك العجوز بيد جيوفاني ودعاه للجلوس إلى جانبه.

- لم يسبق لك أن سمعت من يتكلم عن إيراسم أليس كذلك؟

- أبدأ.

- وهل لديك فكرة عن الفلسفة؟

- صدقاً، كلا.. أنا.

- هل تلقيت تربية دينية؟ تابع العجوز بنبرة ارتياحية.

- لقد علمنا الكاهن الإيمان المسيحي ومن كثرة قراءة كتاب الصلوات، تعلمت الكثير من الأشياء عن سيدنا يسوع المسيح، لكن لم أفهم كل شيء.

مرَّ العجوز يده على رأسه الخالي جزئياً من الشعر، وكأنه يقيس البعد الكائن بين العطش للمعرفة لدى جيوفاني وبين المستوى الابتدائي لمعرفته.

لقد تردد في إطالة هذا الحديث عندما تابع الشاب يقول: لم تشرح لي من كان إيراسم وكيف يمكننا كيل المديح للجنون.

- أرى أن لديك تسلسل في الأفكار، هذا جيد، لن يكون لدينا متسع

في النهار للتطرق إلى هذا السؤال، لكن بمقدوري الآن أن أشرح لك شيئاً أو شيئين.

إيراسم هو أحد أصدقائي، راهب هولندي وفيلسوف أيضاً، أي صديق للحكمة. سافر عبر كل أوروبا وكرس جزءاً كبيراً من وجوده لقراءة وترجمة حكم الفلاسفة القدماء. همّته الرئيسي هو إثبات وجود توافق بين الكتب المقدسة المسيحية وفلسفة القدماء. ما يجب عليك معرفته: لن يدين بعض رجال الكنيسة، من أفكار الفلاسفة القدماء، بحجة أنها ليست مطلقة، مستوحاة من الله. الفلاسفة من جهتهم لا يريدون وضع الثقة إلا بالعقل البشري، ويرفضون صفة الوحي للكتب المقدسة.

أراد إيراسم التوفيق بينهما ظناً منه أن العقل لا يناقض أبداً الإيمان ومحتوى الوحي. أتفهم؟

- ليس جيداً، اعترف جيوفاني بتواضع، كل هذا جديد بالنسبة لي. لكن ماذا بخصوص عنوان كتابه؟

- يبحث إيراسم هنا في نقض عادات عصرنا، وخاصة عادات الأمراء ورجال الدين، كما أنه يهاجم الكنيسة وأقوياء هذا العالم، باعتماد نبرة تهكمية وذميمة مقدما إخراجاً مسرحياً لشخصية الجنون.

توقف العجوز وأعطى جيوفاني الكتاب.

- انظر بنفسك، افتح الكتاب واقرأ في أي مكان!

أخذ جيوفاني الكتاب من جديد ثم انكب على النص المطبوع وبدأ يقرأ ببطء:

- «كذلك في وسط كل بهجتهم وسعادتهم، يبدو لي الأمراء تعساء جداً، ما من أحد يُسمعهم الحقيقة، ويكرهون أن يكون لديهم متملقين بصفة أصدقاء.

يقال لي أن آذان الأمراء تأنف سماع الحقيقة وإذا كانوا يهربون من الحكماء وهذا بالضبط خوف أكثر منه مغامرة ليس بينهم صريح يجروا على قول الصدق بدل السانغ المقبول. هذا واقع، كون الملوك يكرهون الحقيقة».

قاطعه العجوز مندهشاً: أنت تقرأ اللاتينية جيداً، يا ولدي، تابع إذن، أرجوك.

ارتاح وتشجع من هذا الاختبار الأول الناجح، قلب جيوفاني بعض الصفحات واستأنف القراءة دون تحديد، في هذا المقطع، يستهزئ بإراسم بالفلاسفة.

- «لما أنهم لا يعرفون شيئاً، فهم يدعون معرفة كل شيء، وبما أنهم يجهلون أنفسهم فهم أحياناً لا يرون حتى الحفرة أو الحجر في طريقهم، إما لضعف بصر غالبيتهم، وإما لشروء عقولهم. بيد أنهم يدعون أحياناً رؤية أفكار، الكونيات، أشكالاً منفصلة، مواد أولية، ماهيات أو جواهر...».

بدأ الرجل العجوز بالضحك.

- إنه يهزأ بنا نحن، لكن هذا صحيح جداً، يا لها من عقلية لاذعة! لكنها لا تتوقف في طريقها الصحيح. اقرأ لنا بعض المقاطع، لكن الحال أفضل لدى سماعهم بصوت عال وأنت تحسن التدبير.

عاد جيوفاني من جديد وانكب على الكتاب وقرأ بضعة أسطر مكرّسة للمسائل والأسئلة التي يتساءل عنها اللاهوتيون:

- «هل كان بمقدور الله أن يتجسد في أحشاء امرأة؟ أو في شيطان، وفي حمار، وفي يقطينة، وفي حجر صوان؟ في هذه الظروف كيف ستتمكن اليقطينة من الوعظ والتبشير، والقيام بالعجائب وأن تصلب؟».

هذه المرة امتزجت ضحكات العملاق بضحكات الرجل العجوز الذي أصيب بنوبة سعال متكرر، عندها كاد جيوفاني أن يطير فرحاً، ليس فقط كونه قادراً على القراءة تقريباً دون تردد لنص لاتيني، بل لأن قراءته كانت تثير المرح أيضاً، لدى مضيفه.. قلب بضع صفحات فتوقف نظره على فقرة طويلة تخص البابوات، استعاد أنفاسه وانطلق في القراءة:

- «كم من الامتيازات ستأخذها الحكم منهم فيما لو استولت عليهم ولو لمرة واحدة. ماذا تقول الحكمة، لكن صغيرة من هذا الملح الذي تكلم عنه المسيح! ثروات كبيرة أمجاد عديدة، سلطات واسعة، انتصارات عديدة، خدمات كثيرة، كل هذه الاعفاءات والضرائب غفران شامل ومتعدد، والكثير من الخيول والبغال، الحراس، الكثير من الطيبات، الكثير من المتاجرات، يا له من حصاد، يا له من محيط زاخر شملته في بضع كلمات! سيضعون مكانها السهرات، الصيام، الدموع، الصلوات، المواعظ، الدروس، التنهدات، ألف جهد بائس من هذا النوع. لكن حتى لو أنه ليس من الضروري إهمال ماذا سيحصل لكل هؤلاء المحررين، الناسخين، هؤلاء الكتاب العدل، المحامين، كل هؤلاء المؤسسين، كل هؤلاء الأمناء، كل هؤلاء البقالين، هؤلاء الخوذيين، كل هؤلاء المصرفيين، كل هؤلاء السماسرة هذا الجمع الغفير الواسع المكلف جداً - عفواً، أريد أن أقول المحترم - سيكون مصيره الجوع. هذا صحيح سيكون عملاً غير إنساني دينياً، وأكثر مقتاً وكرهاً من أمراء الكنيسة الكبار أنفسهم، الأنوار الحقيقية للعالم، وسيقادون إلى الفقر والعصا»...

- صاح بحماس الرجل العجوز كل هذا وللأسف صحيح!

تعال يا ولدي، لقد أسعدتني، وهذه الكلمات الطيبة حرّكت شهيتي. طعامنا لا يساوي مطلقاً وجبات الإكليروس، لكن

إذا كان في مقدورك مشاركتنا الغذاء فساكون مسروراً لذلك.

دون انتظار جواب الفتى، التفت إلى خادمه.

- بيترو، جهز لنا طعاماً خفيفاً.

- لا. أعرف كيف أشكرك لحسن ضيافتك، تمتم جيوفاني الذي ما زال متأثراً من جهده في القراءة، لا أجرؤ على سؤالك من أنت، إنه لأمر غريب الالتقاء برجل واسع المعرفة، صديق لكاتب شهير، مالك هذا العدد الضخم من الكتب، ويعيش في هذه الغابة البعيدة جداً عن المدن. شدّ الرجل العجوز عينيه دلالة على الاكتفاء حتى ولو أنه اختار الوحداية والعزلة منذ زمن بعيد، فإنه يجد الراحة والفرح بالكلام مع هذا الفتى الفضولي.

- لقد عشت كل حياتي تقريباً في مدينة فلورنسا الجميلة، أتعرفها؟

- أنا من مواليد قرية صغيرة في كالابري ولا أعرف سوى الريف وبعض القرى المجاورة التي مررت بها وأنا قادم إليكم سيراً على الأقدام.
- وإلى أين تذهب هكذا، يا ولدي؟

- إلى البندقية.

- البندقية! لكن لماذا تضيع في جبال الآبروز؟ كان عليك المسير بمحاذاة الشاطئ، أو الأفضل أيضاً أن تستقل سفينة.

- أعرف، سيدي.. لكنني أردت أخذ مزيد من الوقت والقيام بمقابلات هامة مفيدة.

كانت فضولية الرجل العجوز قد أثرت، من كان إذن ذلك الفتى القروي وعن ماذا كان يبحث؟ قاطع خادمه أفكاره عندما أعلن عن جاهزية الطعام.

عندما جلسوا إلى الطاولة في الغرفة المجاورة، استأنف جيوفاني مجرى المحادثة.

- هل يمكنني سؤالك عما كنت تفعله في فلورنسا ولماذا تركت تلك المدينة الكبيرة لتأتي وتختبئ هنا؟
- ضحك العجوز مقهقهاً.

نعم ما قلت يا ولدي، لقد أتيت لأختبئ. أنا فيلسوف مثل إيراسم، نشرت سابقاً رسالة موجزة صغيرة لم ترق للسلطات السياسية ولا الدينية، لذلك نُفيت من المدينة وسافرت مع بيترو، خادمي الأمين، مصطحباً معي كل الكتب التي تمكنت من حملها. منذ ذلك الوقت، تغيرت الأمور، وباستطاعتي العودة إلى فلورنسا.. لكنني في نهاية المطاف سررت بوجودي هنا وطابت لي الحياة في هذا المكان النائي. أقدرُ على تكريس نفسي كلياً لدراساتي ولست مكرهاً أبداً على حضور الاجتماعات التي تضجرتني أكثر مما تسليني!

- وماذا كنت تدرس إذن؟ ردُّ جيوفاني، وعينه متشوقتان للمزيد.

- كل شيء، أهتم بالعلوم الطبيعية، الطب، اللاهوت، الفلسفة، الشعر، حركة الكواكب، والكتب المقدسة.. أترى، منذ ما يقرب القرن من الزمن استعادت حضارتنا المسيحية شبابها عن طريق إعادة اكتشاف المفكرين اليونانيين القدماء والرومان طبعاً، كنا نعرف طيلة القرون السابقة فكر كبار الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو، لكنها كانت قد وصلتنا عن طريق العرب وغالباً لم نكن نملك النصوص الأصلية باليونانية. غير أنه، منذ قرابة قرن من الزمن أدخلت مخطوطات يونانية لأفلاطون الكبير إلى إيطاليا عن طريق لاهوتيين بيزنطيين. في سنة 1439 دعا البابا أوجين الرابع VI إلى فلورنسا مسقط رأسي، لاجتماع ديني مسكوني لمحاولة التقريب بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، بالرغم من الفشل الجزئي للمجمع، فقد استقر العديد من العلماء اليونان القادمين بهذه المناسبة في توسكانيا، تحت رعاية دوميدتشي، وولدت أكاديمية جديدة، تعود بأصولها إلى المدرسة الشهيرة التي أسسها

أفلاطون وأوكلت إدارتها إلى كوم الذي سيصبح أستاذاً ومعلمي: مارسيل فيتشين. هل سبق أن سمعت بهذا الاسم؟
- للأسف، كلا، أقر جيوفاني، مرة أخرى خجلاً، لأنه اعترف بجهله.

- لقد التقيت به لأول مرة عام 1477، كان عمري عندها سبعة عشر عاماً، وعمره آنذاك أربعاً وأربعين وكان في ذروة شهرته.
استوعب جيوفاني هذه المعلومة الثمينة وقدّر أن الفيلسوف يجب أن يكون في الثلاثة والسبعين عاماً. تابع الرجل العجوز تاريخ حياته ونظراته تزداد بريقاً.

- يا لها من سنوات رائعة! موجّهاً من قبل مارسيل، تحت رعاية لوران دو ميديتشي، نجل كوم، فقد كانت الأكاديمية مركزاً للبحوث المتحمسة، حيث كنا نخرج هذه الكنوز الضائعة العائدة للعهد القديم. لذلك قررت تكريس حياتي للفلسفة. تعلمت اليونانية وأصبحت واحداً من أكثر المقرئين من مارسيل. أساعده في الترجمة الكاملة لأحاديث أفلاطون، التي نشرناها عام 1484، أما تساعيات (مجموعة من تسعة أجزاء) بلوتين فقد أنجزت بعد ذلك بعامين.

توقف الرجل العجوز للحظات، فكان استحضار ماضيه يؤثر به كثيراً. يبدو أنه كان مأخوذاً بصور تلك الأحداث.

استغل جيوفاني هذا التوقف ليطلب بصوت خجول:

- من هو بلوتين؟

- آه، يا له من مفكر رائع، تابع الفيلسوف بحماس.

هذا المعجب الكبير بأفلاطون الذي عاش في الاسكندرية وروما خلال القرن الثالث. لقد قام برحلة طويلة إلى الهند التي أثرت في أعماقه، يشكّل كتابه حصيلة للفكر القديم ويبقى أيضاً مشبعاً بتجربته

الروحانية الصوفية حول الله الفائق الوصف. بينما كنت أترجم كتاب بلوتين، كنت أنشأت صداقة مع رجل يصغرنى بعشر سنوات، يتمتع بذكاء متقد نادر، جيوفاني بيك دولاميراندول، صاحب الفكر الأكبر والأسمى. دون شك فهو من الذين عرفتهم في حياتي، كان قد وضع في رأسه فكرة هو لا يكاد يبلغ الثلاثة والعشرين من العمر، قام بتوجيه الدعوة لجميع العلماء إلى اجتماع، على حسابه الخاص في روما المسيحية. قصد مناقشتهم والتداول معهم عن التسعمائة أطروحة التي أتى على نشرها وكانت تلخص كل المسائل الفلسفية واللاهوتية. لكن البابا أدان سبعاً من أطروحاته على أنها مناقضة للإيمان المسيحي.

تصلب بيك في موقفه ونشر تبريراً أدان بجمل أطروحاته، وأرغم على الرجوع عن مشروعه والتجأ إلى فرنسا حيث أوقف وسجن. وبفضل تدخل لوران دو ميديشي، سُلّم أخيراً إلى مدينتنا التي استقبلته بالترحاب والسرور.

كنت سعيداً في التقاءه يوماً تقريباً طيلة السنوات الأخيرة من حياته القصيرة جداً، لأنه توفي عام 1494، بعد تبرئته من الشك بالهرطقة بسنة واحدة، وفي اليوم الذي دخلت فيه جيوش ملك فرنسا إلى فلورنسا.

توقف الفيلسوف عن الكلام، والعينان محدقتان بمحاورة الشاب، ثم أشاح بنظره، وبصوت منخفض، قال: لكن هذه هي قصة أخرى وذكرياتي تأخذني بعيداً. أريد فقط القول لك أنني حاولت سلوك طريق أستاذي الشهير واللامع مارسيل فيشين، وبيك دولاميراندول، اللذان حاولا اكتساب معرفة عالمية، دون سابق تجربة، دون أي حدود لغوية أو دينية.

شعر جيوفاني بنشوة، دُهل بما أتى على سماعه، فالعناية الإلهية

وضعت على طريقه رجلاً ذا معرفة وعلم عالمين. لم يكن ليصدق ما يسمعه:

- هتف بيترو قائلاً: لقد ذهبت شهيتك أيها الشاب، ملاحظاً أنه لم يلمس الخبز أو الجبن أو شريحة شحم الخنزير الموضوعه في طبقه.
- نعم.. إني أتضور جوعاً، لكنني منفعلة جداً لأنني صادفت أو التقيت بأمثالكم سيدي.

- نادني المعلم لوسيسوس، كما يفعل خادمي الأمين بيترو وتلامذتي القدامى في الأكاديمية. قال جيوفاني في نفسه أنه كان سيحلّم بالذهاب والتعلم في مكان كهذا، ثم فكر أن لديه هنا، أمامه، المعلم القادر على أن ينقل له كل هذه المعارف.

كان عليه البقاء هنا، الوقت اللازم لهذه الدراسات، يعادل الوقت اللازم لاستصلاح وزراعة هذا الجهل الذي سيكون قادراً أن يجعله حديقه. نعم، كان مقتنعاً بهذا، وتلك فرصة سانحة للاقتراب من إيلينا، لكن كيف الحصول من هذا المعلم وحارسه الشرس على الإذن بالعيش معهم؟.

لغاية انتهاء تناول الغذاء، سأل المعلم لوسوس جيوفاني مطولاً عن نفسه. حدّثه الفتى بقلب مفتوح راوياً له قصته. غير أنه أخفى من حديثه ما جرى له في اليومين الأخيرين، خوفاً من أن لا يصدقه الفيلسوف ويطرده في الحال.

تأثر الرجل العجوز من الذكاء والنقاوة اللتين مملّان قلب جيوفاني. وبينما كان يصغي إليه، جاءت له الرغبة بنقل معرفته إلى شخص فتي الذهن والفكر مثل فكره الخالي من أي معرفة، إضافة إلى ذلك الاتقان النسبي لدى الشاب للغة اللاتينية، حتى ولو كان من الواجب إتقانها على نحو جيد، لأنها ستسهل إذ ذاك تعليمه كثيراً. تساءل فيما إذا كانت العناية الإلهية قد أرسلت عن قصد هذا الفتى الشاب في شيخوخته، ليتمكن من نقل أساس وخلاصة معارفه وفكره. قرّر أن يعطي نفسه مهلة للتفكير ومراقبة جيوفاني بانتباه وبخاصة لجهة طباعه ومواظبته وحماسه للدرس.

ما أن انتهى الطعام حتى سأله العجوز إذا كان يتمنى البقاء معهما لبضعة أيام. طار جيوفاني من شدة الفرح عند سماعه هذه الكلمات ولم يتمالك نفسه عن الإجابة:

- العديد من الأسابيع، حتى الأشهر إذا كنتم ترغبون في ذلك!

- وإيلينا! لا تنسَ أنك غادرت قريتك وعائلتك لتلتحق بتلك الفتاة الفاتنة، لا للعيش مع عجوز نزق غضوب!

فرح المعلم لوسيوس، بعد التأكد من حماس الفتى. ثم أوكل إلى بيتر أن يريه المنزل ويشرح له عاداتهم وحياتهم. اقترح العملاق على جيوفاني اصطحابه إلى الغابة لجلب الحطب.

- قال الرجل وهو يجمع الحطب اليابس: لم أخطئ عندما أتيت بك إلى هنا، أعتقد أنك تروق لسيدي.

- لا أعرف. غير أنني سعيد باقتراح بقائي معكما. لم أتمكن من شكرك كما يجب، لأنك اقترحت عليّ مرافقتك لرؤية معلمك: يا له من رجل رائع أكثر مما كنت قادراً على تصوره. إنه علامة يتكلم اليونانية واللاتينية وست لغات عامية إضافة إلى الإيطالية. وخاصة أنه فيلسوف وعالم فلك شهير في عالم المسيحية!

توقف جيوفاني عن الكلام للحظة. لأنه كان يجهل ما تعنيه كلمة فلكي، ثم حاول تغيير مجرى الكلام:

- وأنت، هل كنت دائماً في خدمة لوسيوس؟ ألم تتزوج في حياتك؟

- مطلقاً! يا له من سؤال، لقد كان لدي العديد من المغامرات اللطيفة

عندما كنا نعيش في فلورنسا، أو حتى عندما كنت أرافق معلمي في سفره. لكنني مثله، لم يكن يروق لي العيش مع امرأة وتربية الأطفال. ولكن هل ترى أنه، مع التقدم في السن فقد تجاوزني اشتهاؤ النساء.

- وهل تدرس أيضاً مع سيدك؟

- ليس كما يجب. أعرف بعض الأشياء لأنه يحدثني عنها، أو أصغي

إلى أحاديثه عندما يأتي بعض الزوار نادراً لرؤيته: لقد أمضيت أكثر من ثلاثين عاماً وأنا في خدمته، وثلاثة عشرة ونحن هنا! لكن خلافاً عنك، فإنني لا أعرف قراءة اللاتينية؛ كتبي أنا، هي الأسلحة!

- الأسلحة! ردّ جيوفاني باندهاش. ماذا تريد القول؟
- كنت مدرباً على استعمال السلاح عند نبيل فلورنسي، السيد
غالفاو.

منذ سن العاشرة، تعلمت استعمال السيف، القوس والسهم،
السكين والرمح! من ثم أصبحت رئيس حرسه الشخصي وعلمت
استعمال الأسلحة للعديد من الرجال.

- لماذا تركت ذلك السيد الإقطاعي وجئت لخدمة المعلم لوسيو؟
- بسبب امرأة!

نظر جيوفاني بحيرة إلى العملاق الذي تابع، بابتسامة مرحة على
شفتيه:

- جعلت سيدي رجلاً مخدوعاً! فقد طردني ولم يقبل أي نبيل آخر بي
في خدمته خوفاً من الإساءة إليه.

فكرت بمغادرة المدينة والانخراط كمرتزق، غير أنني في نهاية
المطاف رضيت بوظيفة حارس شخصي للمعلم لوسيو. كان آنذاك
رجلاً مشهوراً في فلورنسا، تلقى الكثير من التهديدات لمواقفه الدينية
والسياسية.

عندما فرضوا عليه الغربة والهجرة، قررت مرافقته وأصبحت فيما
بعد الرجل الجاهز للقيام بكل شيء... وقريباً، وفي الستين من عمري،
سأكون دائماً هنا!

- خطرت فكرة في ذهن جيوفاني.

- أما زلت تعرف استعمال السلاح حتى الآن؟

- بالتأكيد! لدي هنا ما يكفيني لتسليح فيلق!

وأكثر من مرة اضطررت لاستعماله لطرده اللصوص وقطاع الطرق
الذين كانوا يتسكعون حول البيت.

- إذا ما مكثت هنا لبعض الوقت، أقبّل بتدريبي.

- نهض بيثرو مثقلاً ونظر إلى جيوفاني، ويداه مسمرتان على وركيه.

- لا شيء يفرحني يا ولدي أكثر من هذا!

أمضى جيوفاني الأيام التالية في حالة من النعم والدعاء. شكر السماء لهذا اللقاء الذي جعله ينسى تلك المتغطرة لونا. ساعد بيثرو بحماس منقطع النظير في أعماله البيتية، وبدأ يجتهد لإتقان اللاتينية وبالمناسبة الجدية. وأنهى في يومين الترجمة اللاتينية لمؤلف مانويل لايبكت الذي كان المعلم لوسيو قد وضعه تحت تصرفه.

بدأ أيضاً التدرّب مع بيثرو على استعمال السيف. كان يحب هذا التعاقب بين الدروس اللاتينية والتمارين الجسمانية، ويعجب كثيراً لصحبة الرجلين المتناقضين جداً بطباعهما. بقدر ما كان بيثرو مرحاً وحنوناً كالذئبة، بقدر ما اتضح أن المعلم لوسيو كان قاسياً جداً وقد يتابه الغضب الشديد ولكن لفترة قصيرة.

لم يكن جيوفاني ليكتث لكل هذا، بل كان يقدر أريحية ما يعلمه الفيلسوف.

في اليوم الثامن من وصوله بدأ امتحان الحقيقة: استدعاها المعلم لوسيو بعد الغداء مباشرة وكان يبدو رزيناً أكثر من المعتاد وبنبرة رسمية، طلب من جيوفاني الجلوس على مقعد خشبي بدون مسند.

- بدأ المعلم لوسيو معدلاً صوته: يا ولدي، لقد مضى على وجودك هنا أكثر من أسبوع، وأنت تشاركنا حياتنا حسب رغبتك، تتلقى تعاليمي وتعاليم بيثرو حسب رغباتك. ما الذي تتمناه بالنسبة إلى المستقبل؟

ظل جيوفاني صامتاً لعدّة لحظات. ثم قال بنبرة واثقة:

- يا معلم أتمنى من أعماق قلبي البقاء إلى جانبكم لمتابعة تعليمي.

- هذا جيد. لكن هل تعي ما معنى ذلك؟
 أجب جيو فاني حائراً وبنبرة مترددة:
 - بأن أواظب باجتهاد على دروسي، وأن أعمل دون كلل في دراستي.

- طبعاً. لكن هذا يلزمك من الوقت الكافي، لأنني لا أفكر أبداً في نقل معرفتي إلى شخص متقلب أو سطحي والذي سيغادر بحسب مزاجه، ليتلذذ في مكان آخر بعد أن يكون قد قضم بعض الأزهار المعطرة. إنك تدخل في طريق طويلة وصعبة. التكوين الفكري المتين يمكن أن يتطلب منك سنوات، حتى ولو كرست له كل وقتك. إذا كان في نيتك البقاء هنا لبضعة أسابيع أو أشهر فمن الأفضل متابعة طريقك والالتحاق بحسنائك بأسرع ما يكون.

كانت كلمات الرجل العجوز قاسية على قلب جيو فاني غير أنها تجبره على الحسم في غرض الإزدواجية الداخلية التي كان يعيشها. ففي داخله دائماً تعطش للمعرفة والحصول عليها وهي في الوقت ذاته بالنسبة إليه غاية بحد ذاتها، لديه رغبة شديدة للحاق بإيلينا والتمكن من استمالتها إليه، وكان يرى أن الدراسة هي الوسيلة الأفضل للوصول إلى هذه الغاية. بمعنى آخر، فإنه لن يخاطر في إضاعة إيلينا ليثقف عقله. بيد أن معلمه كان يفهمه بوضوح، وهو عدم قدرته على إخضاع تعلم الفلسفة لحب امرأة.

وجب عليه أن يأخذ على نفسه ولوج هذا الطريق بحسن نيته، وكامل قوته وعقله. يمكن لهذا التطوع أن يستغرق سنوات. فهل كان لديه الصبر لانتظار هذه المدة الطويلة قبل أن يلتقي مجدداً بمحبوبته؟ وهي: أليس ممكناً أن تكون مرتبطة عندما يجدها؟ كان الخطر جسيماً. أسبوع على الأقل عليه عدم اتخاذ مثل هذا القرار. واليوم، وهو يبدأ بتذوق لذة السعادة وفرح التثقف، لقد أضحي أمر الاختيار أصعب بكثير.

- كم من الوقت علي البقاء إلى جانبك؟ خلص إلى طلب ذلك من الرجل العجوز.

داعب الفيلسوف ذقنه مفكراً.

- يصعب علي إجابتك بشكل دقيق ومؤكداً أنه يتعلق بقدراتك وحماسك في طلب العلم. لكن لنقل أنه ليس من المقدر أن تبقى إلى جانبي لفترة أقل من ... ثلاث سنوات.

كرّر جيوفاني في داخله هو يرتعد: «ثلاث سنوات» دون التمكن من رؤية إيلينا من جديد! لقد بدا له ذلك فوق متناول قواه. طلب من معلمه فترة للتفكير. وافق هذا الأخير على منحه مهلة حتى صباح الغد.

أمضى جيوفاني النهار والليل في اجترار هذا التخيير بين أمرين. مهما قرّر، فإن عليه أن يقدم تضحية كبيرة حقيقية.

عند طلوع الشمس كان جيوفاني منهكاً من هذا الصراع الداخلي. لكنه اتخذ قراره.

فهو مثل جميع الذين كانوا أمام إجراء اختبار مؤلم، يشعر نفسه الآن وقد أزاح هماً عن كاهله. لقد فهم أن المعلم لوسيوس وبيترو يمنحانه الفرصة ليصبح رجلاً متفتحاً جسمانياً وقادراً على القتال والدفاع عن نفسه وعن الآخرين ضد قطاع الطرق والمتسكعين. رجلٌ مستنير عقلياً وفكرياً ومعنوياً قادراً أن يعرف نفسه ويفهم العالم.

خطر رهيب أن يفقد إيلينا، فلم يكن بمقدوره رفض هذه الفرصة. كان يعرف أيضاً أنه فيما لو أن إيلينا ما تزال حرة غير مرتبطة عندما سيرها، فإن حظوظه باستمالة قلبها ستكون أكبر بعشر مرات.

ذهب ليرى المعلم لوسيوس المشغول بسقاية بعض الخضار المزروعة. - يا معلم، قال بقناعة: لقد اتخذت قراري، أبقى معكم وبجانبكم المدة التي تبدو لكم ضرورية لتكويني.

كانت الأشهر التي توالى هي الأكثر حماساً في حياة جيوفاني الجديدة.

فالتمارين اليومية بصحبة بيترو جعلته يشعر بجسمه بطريقة مختلفة. بدا أكثر مرونة يتلمس كل واحدة من عضلاته. التدريب على استعمال السيف أعطاه فضلاً عن ذلك رشاقة وحيوية جديدتين.

كان يشعر بتبدل كلي بفضل المعلم لوسيوس. فقد قرر الرجل العجوز تلقيه عدة دروس متوازية. درس لاتيني، لكي يتوصل طالبه الفتى إلى إتقان لغة المثقفين والأدباء، الضرورية لقراءة معظم كتب الفلسفة واللاهوت. دروس في الكتب المقدسة واللاهوت، دروس باللغة اليونانية، ليتمكن من قراءة مؤلفات أشهر الفلاسفة والأناجيل في النص الأصلي. دروس في الفلسفة، ليس بهدف الحصول على معرفة كبيرة بمواضيع الأخلاق، العلوم الطبيعية وما وراء الطبيعة، بل ليتعلم التفكير بنفسه، ويطور ويُني عقله النقدي وقدراته في التمييز والتبصر. بالنسبة إلى المعلم لوسيوس، التفلسف معناه الحصول على المعرفة، وبخاصة، تطوير القدرة على التفكير دون سابق تجربة. التفلسف معناه أيضاً تعلم العيش مثل كائن بشري واع ومدرك، حر ومسؤول.

بالنسبة إليه، كما لصديقه إيراسم، الفلسفة لا تناقض الإيمان. فهي ببساطة، تسمح للإيمان أن يكون أنضج، أكثر شخصانية، وناقداً

صحيحاً ومضبوطاً حيال العقائد والأنظمة. كصديقه الهولندي، كان المعلم لوسيوس يعيب على الكنيسة أنها أدارت ظهرها إلى المثل الإنجيلية التي أشرفت على تأسيسها. كان ينقدها بشدة، لأنه يجبها ويتمنى رؤيتها تعود إلى بساطة ونقاوة أصولها، عندما كان يسوع يعظ في تلامذته على طرق اليهودية والجليل، حاثهم على ترك كل شيء ليتبعوه بيد أن كنيسة روما خاصة أصبحت على مر القرون أحد الأماكن الرئيسية للسلطة والفساد، والفساد السياسي، للفساد الجنسي وعبادة المال. لهذا السبب ثار الراهب الألماني الشاب مارتن لوثر، ضد السلطة الرومانية (روما). فقد طلب الابتعاد عن ممارسة منح صكوك الغفران، التي تنص على بيع غفران الخطايا لتجنب عقوبات المطهر في الحياة الأخرى. من بعده إيراسم، الذي دعا الكنيسة إلى الدخول في تحديث وإصلاح للعادات، والعودة إلى رسالة المسيح الأولى. مشعباً بأفكار الأنسين. كان يطلب أيضاً أن تترجم التوراة إلى لغة العامة ليتمكن كل مؤمن من قراءتها وممارسة عقله النقدي حول ما يتعلق بالمبادئ الإنجيلية. وما يتعلق بالعقيدة الرومانية (روما). قبل ذلك بعشر سنين تقريباً في كانون الثاني 1521، أقدمت الكنيسة على فصل لوثر، غير أن أفكاره لم تتوقف عن الانتشار في كامل شمال أوروبا بفضل دعم بعض الأمراء لها وتأييدها.

خارج فترة الدروس، كان المعلم لوسيوس يتطرق أيضاً مع تلميذه الشاب إلى مسائل شائكة والتي تثير حماسه وتستهويه. شرح له أن عليه مغادرة فلورنسا بعد عدة أشهر من القطيعة بين لوثر وروما، حيث أذان في كتيّب صغير، فصل الراهب السابق ويتنبرغ.

في أحد الأيام، فيما الشتاء يلفظ أنفاسه الأخيرة، سأل جيوفاني معلمه: لماذا لم يلتحق بمعكسر المجددين حيث يبدو عليه كأنه يشارك

الجزء الرئيسي من وجهات نظر مارتن لوثر.

- أجاب الرجل العجوز: بسبب مسألة فلسفية ولاهوتية رئيسية، مسألة حرية الاختيار أو القدرية.

- الاختيار الحر... تتم جيوفاني.

كانت مسألة القدر أو المصير والحرية الإنسانية في صلب اهتمامات جيوفاني. لأنه خلال لقائه بالساحرة والتي تنبأت له عن مصيره، كان يتساءل هل من الممكن للإنسان أن يغير مجراه عن طريق ممارسة الحرية، أو إذا ما كان محكوماً عليه التخبط دون جدوى؟

لكن القدر، المفهوم على أنه قسمة مكتوبة بالإرادة الإلهية، هل هو موجود فعلاً؟ أليس الكائن البشري فقط مهياً حسب ظروف ولادته، لغته، عائلته، تربيته؟ ألا تنص عظمة حرته، من طريق الجهود الدراسي والتفكير ليكون واعياً لهذه الصفات المكوّنة الملموسة وعلى السماح له باختيار حياته بحرية؟ أليس ما يفعله هو بإختياره البقاء قرب المعلم لوسوس بدل السفر من جديد إلى البندقية كما كانت رغبته تدفعه لفعله؟ كل هذه المسائل كانت تمتلك جيوفاني، مركزاً انتباهه إلى ملاحظة معلمه حول «حرية الاختيار». كان ينتظر بصبر كي يشرح له معلمه ما الذي تعنيه هذه العبارة، وبماذا يُررر رفضه والانضمام إلى الإصلاح اللوثيري. ستكون أيضاً الفرصة السانحة ليوجه سؤاله إلى معلمه حول مسألة الحرية والقدر.

بعد صمت طويل، انتهى الرجل العجوز وترك كرسيه قاصداً وسط الغرفة الرئيسية، طالباً من جيوفاني مساعدته على إزاحة الطاولة والكراسي سحب البساط حيث ظهرت فتحة أدهشت الفتى.

قال العجوز بنبرة جدلة: ستكتشف مكتبي السرية، افتح الكوة بينما أبحث أنا عن شمعة لتضيء المكان.

نزل الرجلان إلى كهف صغير في الأرض، على يمين الدرج يستقر صندوق من الخشب، كبير الحجم. فتحه الرجل العجوز بمفتاح كان يحمله في عنقه. الصندوق المملوء بالقش يحتوي على ما يقرب من الثلاثين كتاباً.

- كنوز مكتبي الشخصية، علق الفيلسوف بهذه الكلمات.

- سأله جيوفاني: هل تخاف اللصوص قطاع الطرق؟.

- كلا، الكتب لا قيمة لها عند اللصوص في هذه المنطقة. لكنني أخشى أن يأتي حريق ويدمر كل هذه المؤلفات والكتب العزيزة عليّ. هنا، لا يوجد شيء يمكن الخوف منه.

أخرج المعلم لوسيو بعض الكتب من القش. جذب واحد منها انتباه جيوفاني. كان غلافه سميكاً ومربوطاً بشكل جيد.

- يا له من كتاب جميل، تتم جيوفاني معجياً!

- آه، إنه درة أو لؤلؤة مجموعتي!

أمسك الفيلسوف الكتاب وفتحه.

- إنه كتاب نادر جداً، كتبه عالم فلكي عربي يدعى الكندي. لديك هنا النسخة الوحيدة باللاتينية. لهذا الكتاب قيمة لا تقدر بثمن وأخشى أن ينتهي به الأمر ويتضرر من رطوبة هذا الكهف.

ثم أعاده إلى مكانه بعناية. وقبل أن يأخذ كتاباً آخر أعاد إغلاق الصندوق وصعد من جديد الدرجات السبع يتبعه جيوفاني حاملاً المشعل. وبينما كان الشاب يغلق باب الكهف ويعيد تغطيته بالبساط والأثاث، ذهب العجوز لبحث عن كتابين آخرين في مكتبته وناول جيوفاني الكتب الثلاثة.

- خذ يا ولدي.

انكب جيوفاني على هذه الغنيمة الثمينة. الكتاب الأول كان

باختصار رسالة للرسول القديس بولس موجهة إلى أهل روما . والتي لم يكن قد قرأها حتى الآن. الثاني عبارة عن كتاب صغير لإيراسم عنوانه «نقد لاذع أو مجابهة حول حرية الاختيار» هي عبارة عن النسخة الأصلية المنشورة في بال (Pale) عام 1524، أو بالضبط منذ عشر سنوات، وهو آخر كتاب للوثر نُشرَ عام 1525 عنوانه: (De Servo Arbitrio أي «عبودية الاختيار»)، وكانت الكتب الثلاثة مكتوبة باللاتينية.

لديك هنا ثلاثة نصوص أصلية وجوهرية لمناقشة المفهوم المسيحي للحرية الإنسانية، سأعطيك بعض الإضاءات حول هذه النقطة، وهكذا سأشرح لك السبب الذي من أجله لم أتبع لوثر، لكن قبل ذلك إقرأ مطلع رسالة بولس، إنها اللذة الفائقة لدى سماع هذا النص وهو يقرأ بصوت عال.

فتح جيوفاني الكتاب الصغير، وحنجرته مشدودة، بدأ بقراءته: «بولس، خادم يسوع المسيح، رسول كرّس نفسه بدعوة إلهية لبشر بإنجيل الله...».

نحن نؤمن بالذي قام من بين الأموات سيدنا يسوع، الذي سُلم للصلب ومات بسبب خطايانا وقام من أجل تبرئتنا...

بينما انتهى جيوفاني من قراءة الجزء الأول من رسالة بولس طلب العجوز التوقف هنا. هاهو المفتاح الأساسي الذي يركز عليه الفكر البولسي. لكي تفهم جيداً هذا الفكر الذي سيكون له تأثير كبير على مدى القرون حتى على النزاع بين مفكرين كبيرين هما إيراسم ولوثر، سأقول لك بضع كلمات حول بولس، المؤسس الحقيقي للمدين المسيحي.

- أليس سيدنا يسوع المسيح هو من أسس الدين الذي يحمل اسمه؟
اندهش جيوفاني.

- ليس بهذه البساطة! لقد عاش المسيح حياة سرية طوال ثلاثين سنة ووعظ وبشّر في الجموع مدة ثلاث سنوات قبل أن يموت على الصليب، ثم حسب شهادة تلاميذه، قام من بين الأموات، وأمضى بعدها أربعين يوماً معهم، قبل أن يغادر عالمنا نهائياً.

كان يسوع يهودياً مؤمناً، وجه كلامه إلى اليهود كي يعيدهم إلى سلوك الشريعة التي نقلها موسى حسب المضمون الروحي لا حسب الكلمات، مذكراً دون انقطاع أن ما يهمه فقط هو الحب (الحب هو الأهم). فإذا صح القول (على هذا النحو) فهو مجدد كبير للمدين

اليهودي، لكن إلى أي حدّ كان يريد الذهاب في هذا الإصلاح؟ هذا ليس واضحاً دائماً، إذا ما تقيدنا بالإنجيل الأربعة، التي تروي حياته، تعاليمه التي كتبت بعد موته بعدة عقود. لكن إلى جانب هذه الإنجيل هناك رجل كتب رسائل عدة أو رسائل تقوية أثرت كثيراً في كنيسة الأزمنة الأولى وميزتها عن دين الكنييس، ذلك الرجل يدعى شاوول.

كان يهودياً عالماً وتقياً. بدأ بعد عدة سنوات من موت يسوع في تعذيب واضطهاد تلامذة المسيح، كما تعرف ذلك دون شك، أن هذه الكلمة تعني «المبارك»، «المختار من الله». في أحد الأيام بينما كان ذاهباً إلى دمشق، ليلقي القبض على المسيحيين، سقط من على جواده، وسمع صوتاً آتياً من السماء قائلاً: شاوول، شاوول، لماذا تضطهدينى؟. كان المتكلم يسوع المسيح نفسه. بعدها تحول شاوول إلى المسيحية وأخذ اسم بولس واعتنق الإيمان وعقيدة تلامذة يسوع، منذئذ، أضحي دون شك الرسول الأكثر حماسة لنشر الإنجيل، أي الخبز السعيد.. المسيح، ابن الله، الذي تألم ومات من أجل خلاص البشر. لأنه حتى قبل الرسل الآخرين ذاتهم، كان مقتنعاً بالصفة الشاملة للخلاص الذي جاء به من اختاره الله.

قال جيوفاني خجلاً: لست متأكداً من فهمي، أي فرق بين الإدراك والتصور اليهودي للخلاص وما ينشره تلامذة المسيح.

تابع العجوز: سأصل إليه، سأصل إليه، لأن لب المسألة التي أنوي شرحها لك. وفقاً للكتب المقدسة اليهودية، كان الإنسان منصفاً عادلاً أمام الله لأنه يطبق مبادئ وتعاليم الشرع التي أعطيت لموسى. لهذا السبب أراد بطرس ويعقوب والرسل الآخرون فرض وصايا الله الواردة في الشرع اليهودي على الداخلين الجدد في الدين المسيحي.

لكن لدى بولس تفسيراً وفهماً آخراً لتعاليم يسوع. بالنسبة إليه، منذ مجيء المسيح، لم يكن الإنسان مُبرراً أمام الله من طريق التقيد بالشرع

اليهودي بل بإيمانه فقط يسوع المسيح، ابن الله ومخلص العالم. لم يعد منذ ذلك الوقت ضرورياً الطلب من الأتباع الجدد الآتين من الوثنية التقيد بالمبادئ والمفاهيم العديدة للشرع اليهودي، كما كان يوصي به الرسل.

وحده الإيمان بالمسيح، يكفي لجعله بريئاً أمام الله، يذكر بولس ذلك مطوّلاً في رسالته، شارحاً ومفسراً عقيدته «الخطيئة الأصلية»: الموت هو نتيجة الخطيئة التي اقترفها أول إنسان في البشرية - آدم - ويسوع هو آدم الجديد، المرسل من الله، الذي أتى ليحررنا ويخلصنا من لعنة الموت، آخذاً على عاتقه كل خطايانا وذنوبنا ليفتح لنا باب الحياة الأبدية. وتوصّل بولس إلى إقناع الرسل الآخرين، الذين عرفوا يسوع بذاته لحماً وعظماً؟ قال جيوفاني مندهشاً:

- لقد أثار جدلاً حاداً! فدعا بطرس إلى نقاش كبير في القدس، اجتماع اعتبر تقليدياً بمثابة أول مجمع ديني للكنيسة الفتية. قدّم بولس الحجج بشكل جيد، مذكراً بأعمال يسوع وسلوكه اللذين نقلهما تلامذته بأنفسهم، وتوصل إلى إقناع المترددين الأكثر تشدداً. ويُعدُّ هذا الانقطاع الحقيقي الذي تطوّر ونشر دين يسوع خارج الطائفة اليهودية، البداية الفعلية للمسيحية. كان بولس مقتنعاً أن إعلان المسيح المخلص يتوجه لكل إنسان، مهما كانت لغته ولون بشرته، لكي يتلقى الحياة الأبدية بالإيمان بيسوع المسيح.

توقف العجوز هنيهة، أغلق عينيه للحظات، ثم ابتسم لـ جيوفاني وتابع بصوت رزين: لنأتي الآن إلى مسألة الاختيار الحر. فيما بعد، حاول المفكرون المسيحيون الأوائل الذين يُطلق عليها اسم آباء الكنيسة، تحليل هذا الخلاص الذي تم بفضل الله - لأن الإيمان هو هبة من الله - والإحاح على الجزء المتعلق بالاستحقاق الذي يعود للإنسان. فقد أكدوا أن الإنسان يشارك في خلاصه لدى قبوله بحرية نعمة الإيمان

بالقيام بالأعمال الصالحة، علامات وضمانات لإيمانه بالمسيح. بشكل آخر، حتى ولو أن الخلاص قد أعطي لمرة واحدة من قبل يسوع المسيح، فالإنسان يبقى حراً بقبوله أو رفضه وعليه إظهار عودته إلى الدين المسيحي بأعمال صالحة وعادلة ألهمت بعض اللاهوتيين بشكل خاص على الحرية البشرية.

ظل بيلاج (راهب إنكليزي 360 - 422) مقتنعاً أن الإنسان لا يمكنه أن يكون متمتعاً بالخلاص دون المشاركة بنشاط خلاصه بالأعمال الخيرية الصالحة.

من جهته فقد حارب أغستين ذلك بقوة، مؤكداً أنه إذا كان الإنسان يملك جزءاً من حرية الاختيار فهذا الجزء يكون هزيل جداً ويشكل الخلاص أساس ثمرة النعمة الإلهية.

لقد استند في اعتقاده على الرسالة التي كتبها بولس إلى الرومانيين وعلى كتابات القديس أغسطين ضد بيلاج Pelage، خطأ لوثر خطوة أخرى ليؤكد أن الإنسان كان مستفيداً من الخلاص فقط بفضل النعمة الإلهية (العفو الإلهي) وإيمانه بيسوع المسيح. يقود هذا الموقف إلى إلغاء فكرة كاملة عن مشاركة الإنسان في سلامته (خلاصه)، وهنا نُجبرُ على التأكيد أن الله حَتَمَ على بعض الرجال أن يمتلكوا الإيمان وينعموا بالخلاص مهما كانت أعمالهم، أما الآخرين. الذين لم يتلقوا هبة الإيمان بأن يحكم عليهم مهما كانت أعمالهم. حتى ولو لم يقل ذلك بوضوح، فتلاميذه لم يحرموا أنفسهم من ذلك، أمثال صديق جان كالفن. فكر جيوفاني لعدة لحظات، حيث بدا له الموقف مدهشاً، كيف يمكن لإله طيب كَلِيَّة أن يعد وإلى الأبد بعض البشر بالخلاص ويدين البعض الآخر دون الأخذ بعين الاعتبار. بالحرية وبأفعال كل واحد؟

طلب جيوفاني من العجوز تفسيراً لهذه النقطة.

- لهذا السبب بالضبط لم أتمكن من تأييد لوثر! بالرغم من أنني أوافق

وجهاً نظره حول التنقية والتنظيف الكبيرين اللذين تحتاجهما الكنيسة، حول فضائح بيع صكوك الغفران (التبرئة)، وضرورة اختصار وتخفيض عدد الأسرار وسلطة البابا وأيضاً حول فائدة كل مسيحي من قراءة الكتاب المقدس وتمارين ذهنه على النقد. فإذا أخذنا هذه النظرية في حدها الأبعد، فهي تجعل من الله ما يشبه المستبد الظالم المتعصب للسلطة الذي يختار - حسب أي مواصفات - عدالة أعمال بعض الناس ويرفض أعمال آخرين. وأخيراً جعل الكائن البشري دمية متحركة مجردة ومحرومة من كل حرية.

تفضّل، اقرأ إذن هذا النص من كتاب وضعه لوثر رداً على كتاب إيراسم الذي كان يعيب عليه عقيدته حول حرية الاختيار.

فتح الفيلسوف كتاب الحرية المقيدة وسلّمه إلى جيوفاني. رأى الشاب أن بعض الأسطر كان مشدّد عليها (وضع خط تحتها):

- هكذا فالإرادة البشرية موضوعة بين شيئين، مثل دابة. إذا كان الله هو من يمتطيها، فهي تريد أن تذهب وتأتي حيث يريد الله، كما يقول المزمور: «لقد أصبحت مثل دابة للركوب، وأنا دائماً معك». وإذا ما امتطاها الشيطان وترغب الذهاب وتأت حيث يريد الشيطان. وليس في تحكّمه الجري نحو واحد أو نحو آخر من هؤلاء الفرسان ليبحث عنه، بل على الفرسان أنفسهم أن يناضلوا للحصول عليه ويملكونه.

ثار العجوز بحمية:

هذا الإله الذي يستولي على البعض ويسلّم الآخرين لسلطان الشيطان ليس إلهي، لأن هذا يعود إلى القول، بما أن الله هو قادر على كل شيء، وأن الله ليس فقط سبب الخير بل الشر أيضاً، هذا بحق ما فهمه صديقي إيراسم وهذا هو السبب الذي من أجله كتب نقده اللاذع حول حرية الاختيار.

أمسك الفيلسوف الكتاب وفتحته قريباً من نهايته.

- خَلَصَ إيراسم بحق إلى أن نظرية لوثر تقود إلى حد التناقض المريب الذي بحسبه: الله يمجّد للبعض أعمالهم الحسنة بالمجّد الأبدي ويعاقب الآخرين على أعمالهم السيئة بالعذاب الأبدي.

هذا الموقع لا يمكننا تحمله. ونحن كمسيحيين، لا يمكننا الموافقة على هذا التمثيل أو التصور اللفظ لله. وكعلماء إنسانيين، لا يمكننا قبول أن يكون الإنسان مجرداً كلية من حق الاختيار. أعتقد وللأسف أن لوثر قد خفّض من قيمة الإنسان وهو يريد تمجيد وتعظيم الله. نحن ننوي على العكس تمجيد الله برفع مكانة الإنسان، لأن عظمة الله هي أنه خلق إنساناً حراً وهنا تكمن عظمة الإنسان بالقدرة على معرفة الله بكامل حريته والمشاركة في سعادته الأبدية بالإيمان، لكن أيضاً بأعماله، إن كانت موحة ومدعومة بالنعمة الإلهية.

نتشارك مع لوثر همّة في إعادة الاعتبار لكلام وفكر كل شخص حيال استبداد السلطة الرومانية التي تنوي التسلط والتحكم بإيمان الجميع. في هذا، المجال يكون لوثر عالم أنسي (بشؤون الإنسان) حقيقي ولهذا السبب كنت قد أيدته ودعمته سابقاً ضد السلطات الكنيسة عندما فصلته الكنيسة ودفعت ثمن ذلك بالنفي، غير أنه لا يمكننا القبول أن هذا التحرر من الرومانية مقابل ثمن الحرية الإنسانية. بيد أن مسألة الاختيار الحر، فتعود إلى الكنيسة الرومانية بالرغم من كل عيوبها، فهي التي حملت الخطاب الذي أنقذ الكرامة الإنسانية!

شعر جيوفاني أنه على اتفاق تام مع كلام معلّمه، وقد بدا له فعلاً أنه من الأفضل أن يكون الإنسان حراً من أن يكون عبداً، مع احتمال فقدان روحه إذا اختار الشر عوضاً عن الخير. ثم أردف متسائلاً:

- لكن لماذا فضّل لوثر هذا الحل اللاهوتي الذي يناقض التقليد

الكنسي الطويل؟

- هذا سؤال جيد. أقوم بطرحه على نفسي منذ زمن طويل، وأعتقد

أن الجواب هو في طباع وسمات الكاهن القديم ففي كتابات عديدة كتب لوثر عن نفسه أن الخوف كان دائماً يتآكله . وكان قد دخل الدير ليفي يقسم قطعه أمام العذراء مريم في إحدى الليالي حيث كان خلالها مرعوباً من عاصفة هبت في ذلك الوقت. ما أن دخل الدير حتى وجد نفسه معذباً بسبب حرصه على خلاص نفسه، بالإكثار من التقشف والصوم والحقيقة وأنه كان مشعباً بنبوءة سيئة حول الخلاص بالأعمال على حساب الإيمان والنعمة. وكان يشعر داخلياً أنه غير قادر على الخلاص بمجهوداته الخاصة، وأنه سقط في مفهوم مناقض تماماً، مؤداه أن الإنسان لا دخل له في شيء من خلاصه أو هلاكه.

لقد شرح بنفسه كيف تحرّر من همومه بإعادة مطالعة رسالة بولس إلى الرومانيين وفهمها بطريقة كأن الخلاص يتعلق كلياً بالإيمان الذي تقدمه النعمة، وليس الأعمال.

منذ ذلك الوقت فارقه الخوف من العذاب الأبدي، ومن ثم منحه الله الإيمان، لقد حصل على الخلاص، أكانت أفعاله سيئة أم حسنة. غادر الدير، وتزوج راهبة سابقة وتمتع بالشراب والطعام وتوقف عن الإنشغال بخلاصه الأبدي.

- أفهم، لكن ما هي بدقة وجهة نظرك حول هذه المسألة؟

- مع إیراسم والتقليد المسيحي الكبير، أعتقد أن الإنسان يدين بخلاصه إلى الله، لكن عليه أن يتعاون بحرية اختياره وأعماله الصالحة. في جميع الأحوال أوافق لوثر أنه من الصعب العيش مع هذه المسؤولية أكثر من الاقتناع بها، ومهما أمكننا فعله، خيراً أو شراً فنحن ننال الخلاص... بينما يكون المؤمنون ملعونين منبوذين.

لكن بالنسبة إليك ما خلاص أولئك الذين ليس لديهم الإيمان المسيحي، كالثونيين، واليهود أو المؤمنين بالله؟

- أعتقد أنه، دون معرفتهم، سيتلقون نعمة المسيح وسيعطى لهم

الخلاص، مثل المسيحيين، بحسب رحمة الله وأفعالهم الحسنة. أقنعتني القراءة المثابرة للفلاسفة اليونان، وخاصة أفلاطون الرائع، أن هؤلاء المفكرين الكبار كانوا قد تلقوا أيضاً من النعم والتور الإلهي أكثر بكثير من أساقفة الكنيسة المقدسة.

أدرك جيوفاني أنه هو نفسه لا يعرف فيما إذا لديه الإيمان، كان يؤمن بصورة طبيعية، دون أن يكون هذا الإيمان ناضجاً، متعلقاً أو حياً. منذ أن شرع في قراءة الفلاسفة الوثنيين في العصور القديمة، كان يشعر بقربه الشديد من أفكارهم أكثر من أقوال التوراة، التي لم يكن يفهم معناها أو التي كانت تصدمه.

مسألة الخلاص هذه كانت تشغل باله حيث يتساءل فيما إذا كانت حياته مرسومة مسبقاً، وما إذا كان قدره مكتوباً وأن ليس بمقدوره تغيير أي شيء فيه، حسب ظن لوثر، أو أنه كان حراً ومسؤولاً عن أفعاله ووجوده.

وما هو رأيك، على ضوء عقائد الفلاسفة، حول القدر وحرية الاختيار؟

نهض المعلم لوسيوس وذهب لينتقي كتاباً من مكتبته، ويقدمه إلى جيوفاني مرفقاً بابتسامة.

- خذ، هذا أولاً واقرأ! إنها المقدمة لتسعمائة أطروحة، كان صديقي جيوفاني بيك دولاميراندول يريد عرضها على كل علماء عصره والتي أدانها البابا من قبل. إنها أعجوبة صغيرة وستجد فيها ما أفكر به حول الحرية البشرية.

شكر جيوفاني معلمه وخرج من المنزل، ابتعد وجلس إلى جذع سديانة قديمة مغطاة بالطحالب. فتح الكتاب الصغير وقرأ عنوانه: «الكرامة الإنسانية»، ثم بدأ القراءة بانفعال: أبائي الأجلاء، قرأت في الكتب العربية أن العربي المغربي عبد الله، عندما كان يسأل عن أي

مشهد يبدو له أكثر جدارة بالإعجاب في هذا المسرح الذي هو العالم،
 كان يجيب ليس في نظره شيئاً جديراً بالإعجاب أكثر من الإنسان.
 أغمض الشاب عينيه للحظات، رفع رأسه نحو السماء وتذوق روعة
 الشمس الربيعية التي كانت تداعب وجهه عبر أوراق الشجر. تنهد
 بعمق وقال في نفسه: هذا صحيح، ياله من حظ أن يكون الفرد إنساناً
 لا حيواناً أو نباتاً، خالٍ من العقل لا يسعه أن يتسائل عن أسرار الكون
 أو أن يتأمل ملياً فيها. أو ملاكاً سماوياً دون جسد يتيح له التمتع بملذات
 الأرض.

مرت الأسابيع، وجيوفاني يقرأ ويعيد قراءة الكتاب الصغير لبيك دو لاميراندول الذي كان يحمّسه في هذا الوقت، بينما المعلم لوسيو يتابع تعليمه المواد الأساسية، وبيترو يدرّبه على استعمال الأسلحة. توصل جيوفاني إلى معرفة استعمال السلاح بمهارة إلى أبعد من التمرين الجسماني البسيط وحتى من الفائدة التي قد يتمكن من جنيها، كان يجد في هذا استمرارية حقيقية مع عمله الفكري. تماماً دراساته، فالقتال يتطلب الصرامة والنظام والدقة. يجب أن تكون الحركة دقيقة ومحددة بقدر دقة الفكر.

بالرغم من كون أيامه مشدودة بالعمل، كان جيوفاني يفكر دائماً بإيلينا، أو على الأصح، كانت إيلينا حاضرة فيه، دون الشعور بالحاجة للتفكير بها. كانت دائماً تسكن هناك، في كل لحظة من حياته، حتى ولو كان جسده مشغولاً بالأكل أو بقطع الخشب، أو أن يكون عقله منشغلاً بمسألة فلسفية أو مسألة قواعد في اللغة اللاتينية، فهو دائم التواصل مع الفتاة، وصورة وجهها ذات العينين المغمضتين اللتين بقيتا منقوشتين في ذاكرته.

عند المساء، وقبل النوم، يستغرق في تأملها ويتريث على ملامح فمها، وحواجبها. ويفرق في شعرها المبعثر، يمسك يدها الناصعة البياض، يداعب جفونها المغلقة، دون أن يتمكن من رؤية لون عينيها، عندئذ كل الممكنات كانت تغرد في داخله.

انفتح الربيع على الصيف وعلى صورة الطبيعة، فكرُ جيوفاني وجسده كانا يخرجان من شتاء طويل من التعلم الأكثر بدائية، ليبدأ بالتمتع بالثمار الأولى لعمله المجهد. كان يتقدم بسرعة لدرجة أن معلمه سرَّع في برنامج تعليمه وجعله يقرأ نصوص أفلاطون وأرسطو بسرعة. كان أفلاطون قد عرف العبقرى سقراط وأخرجه مسرحياً عبر أحاديث وحوارات من اختراعه، التي كانت تسمح بطريقة حيوية عرض الأطروحات الأكثر أهمية لفلسفته. خدم أرسطو مدة عشرين سنة في الأكاديمية، المدرسة المشهورة التي أسسها أفلاطون، ثم ترك معلمه ليؤسس مدرسته الخاصة، الكلية، مزاجه مثل تعليمه، يختلف في نقاط عدّة عن معلمه الشهير. بقدر ما كان أفلاطون مثالياً متوجهاً نحو الأشياء السماوية، منشغلاً خاصة بالروح الخالدة وحالماً بمدينة مثالية، بقدر ما كان أرسطو واقعياً يحاول بناء فلسفته انطلاقاً من تجربته الخاصة الحساسة، فأمضى زمناً طويلاً في ملاحظة (تأمل) الطبيعة والحيوانات والبشر. وفاقاً لطبعه، كان جيوفاني يشعر بنفسه معجباً بالفكر الأفلاطوني، لكنه كان مفتوناً بكتاب الأخلاق لأرسطو الذي يعرف فيه الفيلسوف الصداقة والتأمل، هما الغائيتان الحقيقيتان للكائن البشري، وهما القادرتان على إحلال السعادة الدائمة.

خلال فترة القيظ الشديد في شهر آب بينما كان يستفيد من طراوة النهر ويحاول ترجمة الجزء الأخير من كتاب أرسطو، حدث لقاء فريد لدرجة اعتقد أنه كان ضحية هلوسة.

فقد سمع أولاً فرقعات على الطريق، ثم صدى وقع سنابك حصان تقترب خطاه شيئاً فشيئاً. اختبأ خلف شجرة، لمح في الحال، على أقل من ثلاثين خطوة، حصاناً أبيض تمتطيه فارسة غريبة، امرأة ذات شعر طويل كستنائي منسدل على كتفيها، متدثرة بمشلع أسمر داكن. ما أن وصلت مطبتها إلى الماء، حتى نزلت المرأة وجثت القرفصاء لتنهل من ماء النهر.

- قال جيوفاني وقد خرج من محبته: تبدين أكثر عطشاً من جوادك.
نهضت الفتاة بحيوية ومدت يدها إلى خنجر معلق إلى خصرها،
اقترب جيوفاني منها بابتسامة جذابة.
- لا تخشي شيئاً.

- زجرته الفتاة المرتعبة بشكل جلي. قف مكانك، لا تتحرك.
حيال هذه اللهجة الحاسمة، توقف جيوفاني على عدة أمتار من
الغريبة، التي كانت عيناها من لون شعرها الكث، كانت لا تزيده عمراً
سوى القليل، وذات جمال مذهل، لم يسبق له أن رأى في حياته نبلاً من
هذا القبيل في وجه أنوثي، اللهم سوى وجه إيلينا. لكنه بقي مذهولاً من
مشيتها ومظهرها، مرتدية ثياب رجل ومن قماش فظ ومنتسخ، تبدو
منهكة.

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أنا أدعى جيوفاني، أسكن في هذه الغابات. أراك منهكة، من
الممكن أنك بحاجة للمساعدة؟

- أرغب في أن أرتوي (أزيل العطش) أنا وفرسي، لا تقترب مني.
- حسناً، إذا كنت بحاجة إلى أي شيء.

ابتعد جيوفاني لعدة خطوات، واستند إلى شجرة وتظاهر بمتابعة
القراءة، وبالْحَقِيقَة كان نبضه يتسارع وفكره يطرح آلاف الأسئلة،
تابعت الشرب من النهر وهي تراقب جيوفاني بطرف عينيها، ورشت
الماء على عنق فرسها وجففتها بقطعة قماش، ثم أمسكت بلجامها،
وعادت أدراجها. بعد بضع خطوات، التفتت نحو الشاب الذي لم يكن
ليجرؤ على رفع رأسه من كتابه، خوفاً من إخافتها، وخاطبته بلهجة أقل
وحشية من السابق:

- ماذا تقرأ؟

- علم الأخلاق إلى نيكوماك لأرسطو.

أقلت المرأة على جيوفاني نظرة مندهشة.

- هل أنت راهب؟

- كلا، أدرس لدى معلمي الذي يسكن كوخاً خلف الهضبة.

- وسط هذه الأحراش؟

- نعم، إنه نوع من التنسك.

بدت المرأة أكثر اطمئناناً.

- هل لديك شيء للأكل؟

أخرج جيوفاني قطعة خبز وتفاحة من جيب بنطاله، وأعطاهما للفتاة.

- كنت قد جلبت هذا لعشائي، إنه يسير جداً ويكاد لا يسدّ رمقك،

لكن..

هذا يكفي. أجابت المرأة منتزعة الطعام بحيوية، هذا سيسمح لي

التحمل حتى هبوط الليل.

- إلى أين تذهيبن إذن؟

- عضت على الفاكهة، ثم مسحت شفيتها.

- إلى دير سان جيوفاني في فينيري إنه في هذا الاتجاه أليس صحيحاً؟

سألت مشيرة بذراعها نحو الشرق.

تذكر جيوفاني أن بييترو كان قد أشار إلى هذا الدير الكبير الواقع على

شاطئ البحر، على بعد عشرين فرسخاً تقريباً.

- نعم، ستبلغينه قبل حلول الظلام إذا ما انطلقت بفرسك بأقصى

سرعة.

- إنه الله الذي وضعك على طريقي. اسمي جيوليا.

- وأنا جيوفاني، أجاب الشاب وهو معتاذ قليلاً لرؤية هذه الغريبة تغادر بسرعة، التي كان يتلهف للتعرف عليها بصورة أعمق.
- شكراً جيوفاني.

امتطت الفتاة فرسها، وحدقت في عيني الشاب للمرة الأخيرة وهمزت فرسها وغادرت مسرعة.

بقي جيوفاني حالماً، من كانت تلك الفارسة الغامضة؟ ملاحظها ملامح فتاة نبيلة، لكن ثيابها ثياب خادمة. كانت بدون شك تريد السفر متخفية، هل من الممكن أن تكون قد هربت على عجل من خطر أحدق بها؟

ما أن وصل إلى المنزل، حتى ذهب إلى معلمه وروى له الحكاية. فوجئ معلمه كما هو نفسه من غرابة هذا اللقاء. لقد سمع كلاماً عن دير سان جيوفاني إن فينيري، الأكبر بين الأديرة عند الرهبان البنديكيتين إلى الشرق من جبال الأبروز، غير أنه لم يصدق أن ذهب إليه من قبل.

- إذا وضع القدر هذه المرأة بطريقة غريبة جداً على طريقك، فصلّ من أجلها. أسرّ بهذا إلى جيوفاني. هذا هو الشيء الوحيد المفيد الذي يمكنك فعله، ومن يعرف فقد تراها ذات يوم وستفهم معنى هذا اللقاء.

العناية الإلهية أحياناً، تضع على طريقنا أشخاصاً لهم بعض الصفات المشتركة معنا، مع روحنا، مع الخطوط الرئيسية لقدرةنا الشخصي، دون أن تكون لدينا الوسائل لفهم ذلك. إذا كانت هذه المرأة قد أثرت فيك، فصلّ من أجلها، يا ولدي، وسلّمها لعناية الله. وهكذا فإنك تقبل بوصل وجمع روحك إلى روحها في هذا السر الكبير الذي هو الحب، الذي يصل الكائنات البشرية بطريقة غير مرتبة والذي تطلق عليه الكنيسة تواصل القديسين.

فتح جيوفاني عينيه المتسائلتين.

وتابع العجوز: تواصل القديسين، معناه أن جميع البشر متصلون فيما بينهم بقدر مشترك، وأن خيوطاً غير مرئية تصل بعضنا ببعض.. يمكن لصلواتنا أن تساعد الأشخاص الذين لم يحصل أن قابلناهم، ويمكن أن تساعدنا صلوات الأشخاص الذين لا يعرفوننا أبداً. لأنه إذا كان كل البشر موصولين بقدر تضامنهم، فإن الله يرغب أيضاً في تأسيس علاقة بطريقة أكثر حميمية ليس فقط على الأرض، بل في العالم اللامرئي، كائنات لها بعض النقاط المشتركة في روحهم وطبعهم. أبعد من عائلتنا الخاصة باللحم والدم، نحن ننتمي إلى عائلات روحية، عائلات الأرواح، إذا كنت تفضل ذلك.

لقاؤنا المدهش جداً هو دون شك مثال جيد على ذلك، فهو ليس ثمرة صدفة، بل ثمرة قوة خفية قادتنا الواحد نحو الآخر، لأنه كان لنا شيء مشترك وشيء ما لتبادله. لكن قد يحصل أيضاً أن تتعلق صلواتنا الموجهة إلى الله بأشخاص لا نعرفهم أو أننا لن نعرفهم مستقبلاً، والذين يشكلون جزءاً من حياتنا الروحية التي ننتمي إليها. وعند القيامة النهائية، في نهاية الأزمنة، سيكتشف بعضنا بعضاً.

لم يرغب الفيلسوف المتابعة حول هذا الموضوع، فأضاف بصوت مرح: لقد سلّمْتُك منذ عدة أشهر كتاباً صغيراً لييك دو لاميراندول، هل قرأته كله؟

انفجرت أسارير وجه جيوفاني.

أجاب، بلهجة حادة لدرجة أن معلمه فهم في الحال أنه يشاركه العديد من المرات آراءه.

- ممتاز، وماذا حفظت منه؟

- كثير من الأفكار لامست فكري الذي ما زال جديداً في ممارسة الفلسفة، تابع وهو خجل جداً لعلمه أن عليه تقديم كشف عن عمل قصير بقدر ما هو عظيم والذي أثر به في العمق. كنت متأثراً بطموح بيك. بمحاولته إيجاد التوافق بين كل الفلسفات واللاهوتيات وحكم البشرية. منذ ظهور الوحي المسيحي إلى القبلانية اليهودية من الأسرار الأورفية⁽¹⁾ إلى الديانة الزرادشتية من عقائد الفيثاغورثية إلى الفلسفات العرية، ومن الأفلاطونية إلى الأرسططالية. لا أعرف ما إذا كان شيء ممكناً من هذا القبيل، لكن مشروعاً من هذا النوع يبدو مشكوراً جداً. توقف جيوفاني قليلاً، مترقباً في نظرة معلمه تشجيعاً محتملاً.

لم يتابع بيك مشروعه حتى النهاية، هذا المشروع الذي تشير إليه بحق أنه كريم جداً. سأكون من ناحيتي متشككاً فيما يخص إمكانية الجمع بفرح بين العقائد المختلفة. فعلاً إنه صعب جداً مهما يقل عنه بيك. إنه يحاول تنسيق الفكر الأفلاطوني وأفكار تلميذه أرسطو. يبدو

(1) الأورفية: مذهب يوناني قديم.

لي من غير الواقعي وجود إرادة التوفيق، في كل شيء. المسيح مع زرادشت، موسى وجامليك، محمد وأوغستين. أظن أنه من الممكن عرض بعض أوجه التقارب، لكن سيبقى هناك الكثير من التباعد. ستأكد من ذلك بنفسك من خلال دراساتك، لكن تابع شرحك، ماذا علق في ذهنك أيضاً من هذا الكتيّب؟

- كما قلت لي، من وجهة نظره حول الحرية الإنسانية، يريد بيك إتيان أن كرامة الإنسان تأتي من واقع كونه الكائن الحي الوحيد المجرد من طبيعة خاصة توجهه نحو هذا أو ذاك من التصرف. لأن الإنسان ليس محمداً بطبيعته، فهو الكائن الأكثر حرية. يمكنه اختيار الخير والشر، العيش مثل ملاك أو مثل دابة. يقول بيك أيضاً: إن الإنسان هو خالق حياته الخاصة. هذه الفكرة أثرت فيّ بعمق! يمكننا أن نصبح كما نريد. حقيقة أشعر بأنني معجب بهذا الاحتمال، حتى ولو أعطانا مسؤولية كبيرة. من جهة أخرى حفظت عن غيب مقطعاً يقدم فيه بيك كلاماً سامياً من فم الله.

توقف جيوفاني للحظات، لأن معلمه قطب حاجبه موافقاً، عندئذ هاجم بصوت عال ما وضعه الفيلسوف الفلورنسي على لسان الخالق، متوجهاً إلى الكائن البشري.

- «إذا كنتُ قد أخرجتك إلى العالم في وضعية متوسطة فذلك من أجل أن تتفحص بارتياح كل ما هو موجود في العالم حولنا، إذا لم أجعلك سماوياً ولا أرضياً لا فانياً ولا خالداً، هذا بنية، أنه عندما تكون لديك، إن صح القول، من القدرة التحكيمية والتشريفية بأن تصنع نفسك بنفسك، تعطي نفسك الشكل الذي سيحظى باختيارك. قد تنحط إلى أشكال سفلية، حيوانية، كما يمكنك بقرار من عقلك، أن تتخذ أشكالاً علياً، إلهية».

- استطرد، المعلم لوسيوس بوحدة:

- كما ترى، لا توجد فكرة أكثر بعداً عن النظرية اللوثرية، حول هذه النقطة شاركت صديقي بيك وجهات نظره.

كان جيوفاني يتحرق رغبة بوضع اعتراض على معلمه لكنه بقي يتردد خوفاً من الظهور مغروراً، أخيراً لم يسعه إلا أن يقتحم الموقف مواجهاً معلمه:

- بعد هذه القراءة والملاحظات لم تلحُّ بشأن بيك دو لاميراندول حول حرية الاختيار، أتساءل كيف يمكن الإيمان بتأثير الكواكب، من جهة مناقضاً لما نوّكده من جهة أن الإنسان هو حرٌّ بخلق وتكوين حياته، ومن جهة أخرى خاضع للحتمية الفلكية (المتعلقة بالكواكب)؟
- صرخ الفيلسوف ونهض عن كرسيه، أنت محق تماماً يا ولدي، إنها الحقيقة التي من أجلها نرغم على الإعجاب بالسحر وكل أنواع الأحداث السرية الخفية، فإن جيوفاني بيكو، ينتقد التنجيم بشدة دائماً.
لكن، في هذه الحال، لماذا تمارسه أنت؟

تابع جيوفاني بقليل من الحيرة. لقد أكد لي بيترو نفسه أنك كنت واحداً من أشهر المنجمين في المسيحية.

- لا أعرف ما إذا كنت، منجماً شهيراً، تابع المعلم بنوع من التواضع المقنع. ما أنا متأكد منه، أن الكواكب لا تحتم علينا، كما كان يقول بطليموس، المنجم الكبير في العهود القديمة الذي عاش في القرن الثاني في الاسكندرية «الكواكب تميل، لكنها بلا ضرورة». بالنسبة لبطليموس التأثير الكوكبي، الذي يعطي أطباع الشخص، يضاف إلى الظروف العائلية أو المدنية، والإنسان يحتفظ دائماً بجزء من حرية الاختيار حيال كل هذه التأثيرات. لا يوجد إذن أي حتمية مطلقة. أي قدرية، باستثناء أن يكون خاضعاً لهذه الظروف وأن لا يمارس حرية الاختيار، هذه التي كانت لسوء الحظ حالة أولئك الذين يعيشون فقط وفق رغباتهم الجسدية لا وفق عقولهم.

هذا ما أكده توما الأكويني، الذي آمن أيضاً بتأثير الكواكب ويؤكد أنه بالإمكان التنبؤ عن مستقبل (قدر) فرد خاضع لشهواته وأهوائه لأنه وفق القول المأثور، «الطبع يكوّن مستقبلاً». لكن الرجل القادر على السيطرة على نفسه وعلى تنظيم طبعه وفق القوانين العليا للأخلاق وللفكر يفلت من كل حتمية ويشارك بحرية في مستقبله ومصيره من ساعة، وهذا أمر مفرح، فكل تنبؤ تنجيمي يصبح مستحيلًا وغير أكيد. - على ما فهمته، الكواكب تؤثر على الجسد والأهواء والرغبات وليس على الروح الفكرية للإنسان حيث تكمن حرية الاختيار؟ - هذا هو المقصود.

- لكن كيف الإفلات من الظروف المحيطية المؤثرة سواء عائلية، جماعية، أو فلكية (كواكب) والتحرر أو التعاون بحرية في صنع قدرنا بدل خضوعنا له؟

- لا يمكن الإفلات مطلقاً وكلياً من الظرف المحيط. يبقى الإنسان مطبوعاً طوال حياته بلغته، بتربيته، بطبعه الفطري، وماذا أيضاً: كذلك إذا ما كنا نملك صحة هشة أو عاهة جسدية منذ الولادة، فإنها ستبقى مدى الحياة. لكن بممارسة حرية الاختيار التي تكمن في الجزء الأكثر روحانية في الضمير أو النفس أي الذكاء والإرادة يمكن للإنسان أن يختار تلك التي توجه وجوده، وأفكاره، وأفعاله في جهة ليست فقط ثمرة طبعه، ورغباته، وغرائزه، أو أيضاً لآراء معدة سلفاً من التقليد الذي تلقاه. بطريقة أخرى، دون الخروج من ظروف الولادة، فإن شخصاً غضوباً منفِعلاً سيبقى دائماً غضوباً والفنان فناً، يمكن السيطرة على طبعه، وأن يكون سيد نفسه، فيصل إلى درجة رفض الاستسلام لأهوائه. لا نولد أحراراً، بل نصبح كذلك.

- حيال هذا الإنسان، لا يمكن لمنجم ما التنبؤ عن أي شيء.

- يمكن للمنجم القول بأن مع هذا النوع من التوضيح الفلكي

«الشكل السماوي»، كوكب المريخ مهيمناً. مثلاً، فلان من الناس عدواني، وأن هناك خطر في أن يصبح جريحاً أو أن يجرح آخرين. وأنه سيكون عسكرياً أو مرتزقاً. كل هذا سيتحقق طبعاً إذا كان الفرد لا يدعو نفسه للعيش فقط حسب نزواته، منذ تعلمه معرفة ذاته وتمالك نفسه، سيمكن تجنب تحقيق بعض الأشياء، غير أنه سيبقى دائماً متحمساً داخلياً، وستكون لديه الرغبة بالنضال، لكنه سيرفض السماح للضيف بالتعبير والسيطرة ويتمالك ذاته، يمكنه عند ذلك صنع قدره (مستقبل) مخالفاً ما يبدو أنه كان مسجلاً في سماء ولادته.

يمكنه أن يصبح راهباً مثلاً، ويتحول عنفه إلى عنف روحاني للحصول على الفضائل السماوية. كما يقول المسيح: «يمكن الفوز بمملكة الله بالقوة، والعيون فقط يمكنهم الاستيلاء عليها».

فهم جيوفاني جيداً كلام معلمه، لكن اعتراضاً كان يلاحقه، مفكراً بلقائه مع إيلينا ورؤى لونا، لم يتمكن منع نفسه من طرح سؤال على الفيلسوف:

لكن هل كل أحداث القدر تأتي من المزاج فقط؟ ألا توجد بعض اللقاءات، والتجارب والامتحانات أو بعض الأحداث المفرحة، مكتوبة منذ الأزل؟ حرّك المعلم ولوسوس عينيه موافقاً.

- أنت محقّ تماماً! أعتقد أيضاً، أن العناية الإلهية أرادت وضع بعض اللقاءات أو بعض الأحداث السعيدة أو السيئة، على طريقنا، سوف لن نهرب منها أبداً.

ستكون لدى أحدهم هموم صحية خطيرة، وآخر سيقابل معلماً روحياً في لحظة مهمة من حياته، وثالث سيقع في حب امرأة معينة، غير أن كل واحد يمكنه التصرف بحرية حيال الأحداث المبرجة في كتاب القدر. سيشكو الرجل المريض من حظه التعيس ويتعذب طوال حياته، أو أن يخرج من محنته قوياً وكبيراً، يمكن لذلك الشاب أن يتبع معلمه

الروحي أو أن يتابع طريقه، والذي كان مغرماً سيتزوج بهذه المرأة أو يختار أخرى غيرها.

الكواكب هي علامات أو إشارات وضعتها العناية الإلهية لتسمح لنا بالتعرف جيداً على أنفسنا وفك رموز وألغاز قدرنا، من أجل تحديده كل ذلك بطريقة مطلقة. يجب النظر إليها كمناورات تضيء طريقنا، لا وسيلة لاستلابنا.

- لكن من أين يأتي علم التنجيم يا معلم؟ كيف توصل البشر إلى وضع علاقة بين موقع الكواكب لحظة ولادتهم والخطوط الكبرى لمزاجهم وقدرهم؟

- إن مراقبة الظواهر السماوية قديم قدم الحضارات الأولى، في كل مكان حيث بنى الإنسان قرى ومدناً، كان يراقب السماء، أما علم التنجيم كما وصل إلينا، فقد ترسخ قبل ميلاد المسيح وحتى قبل موسى في المدينتين الكلدانيتين أور وبابل. كما الكان الكلدانيون، والرومان يطلقون تسمية المنجمون على الذين يتابعون حركة الكواكب والنجوم. وقد اعتادوا على أن يلاحظوا ذلك كتابة عن كيفية حركة الأجرام السماوية، على ألواح من الآجر بالإضافة إلى كل ظاهرة كونية خاصة، لقاء أو اجتماع الكواكب، ظهور نجم مذنب، كسوف الشمس، خسوف القمر، ومن ناحية أخرى، كانوا يدرّسون كل حدث هام حصل على الأرض من وباء، أو مجاعة أو محصول استثنائي أو ولادة أو موت ملك أو حرب أو غزو... فوصلوا إلى وضع علاقات بين الأحداث، والظواهر السماوية والأحداث الأرضية.

وهكذا ولد علم «التنجيم» (Astrologie)، وهي كلمة يونانية عليك التمكن من إيجاد الكلمة الأصلية المشتقة منها.

- أجاب جيوفاني: «الحديث عن الكواكب».

- بالضبط، لقد عزي الكلدانيون إلى الشمس، والقمر، إلى الكواكب

الخمسة التي نراقب حركتها في السماء وسميت «كواكب» مشتقة من كلمة يونانية تعني تائه، أو متنقل أو شارد، لأن الأمر يتعلق بكواكب تائهة أو متنقلة، بمختلف الظواهر الكونية، وسبب كل الأحداث والظواهر الأرضية، وبما أن هذه الظواهر السماوية تتكرر بانتظام، فإنها تحدث على الأرض من جديد لأحداث مشابهة.

سمحت المراقبة لعدة آلاف من السنين هذه المعرفة التجريبية والتنبؤ عن مجاعة، عن حرب أو فيضان.

- استدرك جيوفاني وقال أفهم، لكن في أي وقت بدئ بالاهتمام بمصير وقدر الأشخاص؟ كيف جاءت فكرة وضع طالع فلكي «خريطة بروج السماء، وعلاقتها بالولادة؟».

- بعد ذلك بكثير! بعد قرون عديدة من الملاحظة والمراقبة جاءت فكرة تقسيم الشريط السماوي الذي يمكن بواسطته مراقبة مسار الشمس والقمر، والكواكب الأخرى إلى اثني عشر موقعاً متساوياً كل واحد يساوي ثلاثين درجة.

كان هذا التقسيم يتوافق بالفعل مع ملاحظة مزدوجة. لتلك المتعلقة بالنجوم الثابتة لوحظ أن تلك المجموعة من النجوم تشبه بشكلها حيواناً وسميت باسمه المقطع المؤلف من ثلاثين درجة من فلك البروج، وهكذا ولد رمز الاثني عشر برجاً. لكن وبصورة أصح، هذه الشارات تتوافق مع دورة سنوية للشمس، وعلى وقع الفصول. أنت قروي، ستفهم ذلك جيداً. هكذا نبدأ دائرة الأبراج مع الانقلاب الربيعي في 21 آذار. البرج الأول هو الحمل، يعبر إذن عن هذا الانبثاق لقوة الحياة التي تحيي الطبيعة مع بداية الربيع. البشر الذين يولدون خلال هذه الفترة مطبوعون بطباع المبادر الجريء والمقدام، الفعال، وأحياناً العدواني، ثم في 21 نيسان يأتي برج الثور. إنها الفترة الثانية من الربيع، التي كما تعرف، تتميز بوفرة المراعي، على صورة الطبيعة، نجد عند مواليد الثور

الثبات، القوة والسلطة، التفتح والتطور وتفتق الحواس (نمو) لكن أيضاً العناد والحقد. هم من المجترات!

واعتباراً من 21 أيار الفترة الثالثة من الربيع، النمو السريع نحو الأعلى للنباتات والأغصان والأوراق، لكن أيضاً حركة النحل ذهاباً وإياباً التي تجني رحيق الأزهار في تلك الفترة الهوائية من التبادل تتوافق مع برج الجوزاء المطبوع بالحركة، القدرة على التكيف، التواصل، لكن أيضاً السطحية ولهو الصبيان.

في 23 من حزيران، تكون الشمس في أعلى قبة السماء ويكون النهار في أطول فتراته، إنه الانقلاب الصيفي. تراجع النهار الذي يتبع حتى الانقلاب الشتوي القادم.

يرمز إليه بشكل مناسب بالسرطان وحده من الحيوانات الذي يسير إلى الخلف، مواليد السرطان يتمتعون بفكر متوجه نحو طفولتهم وأمور الماضي، وخلال هذه الفترة الأولى من الصيف تتكون البذور والحبوب، كل الطبيعة في فترة حمل.

إنه إذن علاقة خصوبة، وأمومة، مواليد متعلقون ومولعون بالبيت، بالعائلة، بالقيم التقليدية، هم أيضاً مبدعون ذوو خيال واسع.

- ولدت أُمي في هذه الفترة من السنة، صحيح أن هذه كانت صفاتها أو طباعها، لم يمنع جيوفاني نفسه من التعليق على ذلك.

- نعم، أتذكر جيداً وجهها ويديها الناعمتين، صوتها العذب جداً، لا تغضب مطلقاً، خلافاً لأبي الذي ولد بعدها بقليل حوالي مطلع شهر آب.

- صحيح سنصل إليه، تابع المنجم في الثالث والعشرين من تموز يأتي برج الأسد الذي يرمز في الطبيعة إلى انتصار النبات، نضوج الثمر، قوة وسلطة الشمس والقيظ الشديد. أولئك الذين يولدون في تلك الفترة هم أناس أقوياء، وهم بحاجة إلى السطوع والتعبير عن

سيطرتهم أو إبداعهم، لكنهم أيضاً يفرطون بالتكبر والتبجح.
ارتسمت على وجه جيوفاني ابتسامة صغيرة.

- تابع المعلم لوسيسوس: في الثالث والعشرون من آب تدخل الشمس برج العذراء، إنها فترة الحصاد والجني، أي نهاية مراحل طويلة حيث البذرة المزروعة في الشتاء تعطي السنبله الناضجة، تقطف السنابل، وتنفرط البذور، كل شيء في الطبيعة يتمايز، ينتفي، ويعود إلى الضروري. مواليد العذراء مميزون بالفكر الذي يحسب، يفصل (يميز) وينظم، ليس لديهم طاقة حيوية كبيرة بل قدرة كبيرة على العمل، الدقة والتحليل. وفي الثالث والعشرون من أيلول يأتي الاعتدال الخريفي الذي يرمز إليه بالميزان، إنه التوازن التام بين طول النهار والليل، إنه التوازن بين حرارة الصيف وقساوة الشتاء.

إنها فترة لطيفة، متناسقة. هكذا فإن مواليد الميزان هم دائماً يبحثون عن السلام، التوازن، العدل. وكذلك يمكنهم البقاء بصورة دائمة مترددين، هم أيضاً متواضعون ومتسامحون مثل مواليد الحمل رمز التوازن أو التعادل الآخر (الربيع - الشتاء)، هم عيّدون ومغضبون.

في الثالث والعشرين من تشرين الأول تدخل الشمس برج العقرب، هذا البرج الخريفي الثاني الذي يشير إلى موت النبات، يتوقف العشب عن النمو، تتساقط الأوراق وتتعفن، مواليد هذا البرج متأثرون بقوة التعبير وشدة التحول بالموت والولادة من جديد، الذي يجعلهم قلقون أو مخربون فيما لم يتوصلوا إلى تحقيق كيميائهم الداخلية التي تدفعهم لتجاوز غرائزهم القوية والولوج إلى نور أسمي، إلى سر مخبأ. ثم يأتي برج القوس في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، كل شيء يبدو ميتاً في الطبيعة، لكن على صورة الرجل الحصان الذي يطلق سهماً نحو الشمس، القوس داخلياً، ميال نحو الإنبعاث، يعرف أن النبات سينطلق من جديد وأن هذا الموت ليس إلا ظاهرياً. فمواليد القوس هم

متوجهون نحو مثالي عالٍ، هم متفائلون، مجذوبون بالبعيد، بالأسفار الطويلة للجسد والروح. مولعون بالحرية، وقد يكونوا أيضاً عصاة ثائرون متمردون لا يحتملون أي تبعية. حوالي الواحد والعشرين من كانون الأول يأتي الانقلاب الشتوي على صورة الطبيعة المعراة المتأملّة، الصامتة، القاسية، مواليدي برج الجدي هم جديون منكمشون، اقتصاديون أحياناً حزينون ومتوحدون. نوه المعلم لوسيوس بابتسامة صغيرة: أنا من مواليدي هذا البرج.

- اعترض جيوفاني قائلاً: مع ذلك ليست هذه هي الصفة التي أراها فيك.

- استطرد الفيلسوف مازحاً: آه، وأي صفة أو طبع تراه فيّ؟

- أنت طيب، كريم، طبعاً جدي، لكنك لست حزين. ومن ثم فإن لديك هدفاً مرتفعاً سامياً تسعى دون توقع التقدم في المعرفة.

- نعم، لكن هذا أيضاً من صفات مواليدي برج الجدي. مثل العنزة التي تمثلهم والتي ترمز إلى الأيام الطويلة، هم طموحون، مجتهدون ومثابرون، ويتوقون دون توقف إلى السمو والارتفاع داخلياً واجتماعياً.

إلى أي شيء يرمز الماعز إلى إطالة الأيام وإلى هذه الرغبة في الارتفاع؟

- ضع عنزة (أو ماعزاً) في أي مكان وراقبها، فإنها ستصعد إلى المكان أو الشيء الأكثر علواً. إذا ما وضعنا واحدة في هذه الغرفة، فلن تمضي خمس دقائق حتى تراها تصعد على الطاولة.

- صاح جيوفاني الذي كان دائماً يحرس قطعان الماعز: هذا صحيح.

- برج الدلو، العشرون من كانون الثاني، يرمز في الطبيعة إلى استيعاب البذار الذي زرع حديثاً الذي يندمج في الأرض، كما يلقح الفكر المادة. الدلو ليس حيواناً، بل ملاكاً، صورة للذكاء، لانتصار

الفكر الروح على كثافة المادة. مولود الدلو مثقف قادر على الابتعاد عن الأشياء الحساسة. مفكر حر لا يفعل إلا حسب ضميره، منشط وموقف يريد إنبات أفكار جديدة في أحشاء الأرض، قادرة على تحويلها.

التاسع عشر من شباط، يأتي البرج الأخير وهو برج الحوت. نلاحظ في الطبيعة هذه الحالة الموقته، غير المحددة بلا شكل بين الشتاء الذي ينتهي والربيع الذي يعلن عن نفسه. على صورة الطبيعة إن مواليد هذا الحيوان، غير قابلين للحجز، يجولون في الأعماق المتحركة لنفسهم وخيالهم. موهوبون بحساسية كبيرة تجعلهم قادرين على الإخلاص كلية للآخرين، ومن صفاتهم الضياع وعدم معرفة ما هم فيه.

توقف المعلم لوسوس ونهض ليتناول كأساً من الماء. بقي جيوفاني غارقاً في التفكير، لقد ولد قبل الانقلاب الربيعي بقليل، إذن هو من مواليد برج الحوت. وصحيح أنه كان حالمًا موهوباً بقدرة تخيلية قوية، فقد اكتشف أيضاً أنه كان يشعر بشفقة وحنان كبيرين كما حصل عندما كانت لونا خاضعة للعقاب الشعبي في ساحة القرية وأنه شعر بحاجة ملحة لتخليصها، ولو غامر بحياته. كما لو أنه كان غريباً فإن لكل الأفراد المولودين في نفس الفترة من السنة بهذه الطريقة خطوطاً وصفات مشتركة.

لكن هذا ممكن شرحه، كما فعل معلمه، بسبب تأثير الظروف المحيطة المتعلقة بتعاقب الفصول. لم يكن عندها المجموعات النجمية الثابتة التي توحى أسماؤها بأسماء أبراج الحظ. فالمهم هو الفصول ورموزها. لذلك كان من الضروري أن يكون لدى شعوب البلدان الحارة مزاجاً مختلفاً عن شعوب المناطق الباردة، فالرجل المولود في الشتاء يحب أن يكون مختلفاً، أكثر باطنية مثلاً، من مواليد رجل ولد في الصيف. يمكن لجيوفاني أن يستوعب هذا، لكنه كان يعرف أن التنجيم يذهب إلى أبعد من ذلك، ويهتم أيضاً باليوم وساعة ولادة الفرد. فسأل معلمه مستفسراً حول هذا الموضوع.

- كلمة هوروسكوب تعني عن ساعة عند البابليين، أجاب الفيلسوف، بدئاً بصورة متأخرة في وضع وترتيب البروج الفلكية للملك، أي أنه كانت تسجل لحظة ولادته مواقع الشمس والقمر والكواكب الخمسة الأخرى في الدائرة السماوية حيث تتحرك هذه الكواكب، وجرت العادة تقسيم لوحة أو جدول الأبراج من ولادة الملك إلى أربعة أجزاء متساوية تمثل الجهات الأربع الأصلية: الشرق، الجنوب، الغرب والشمال. كان ينظر مثلاً أين كان النور أو الضوء موضوعاً والكواكب في الساعة والمكان المحددين لولادة الملك وكانت تدون في الأماكن الصحيحة على لوحة أبراجه. وهكذا إذا ولد عند الفجر، فترسم الشمس، صاعداً لحظة الولادة، وإذا ولد عند منتصف النهار، تكون الشمس في قبة السماء، وعلى العكس فيما لو ولد عند غروب الشمس، فيدوّن أن شمس الملك كانت في المنحدر، أو في عمق (آخر) السماء إذا ولد أثناء الليل. وكانت توضع بقية الكواكب في مكانها، مهتمين بشكل خاص بتلك التي كانت مضمومة إلى زوايا الأوروسكوب الأربعة، وهكذا يلاحظ أن الرجل الذي كوكبه المريخ في الصعود أو في قبة السماء عدوانياً، محباً للحرب، ويكون عسكرياً جيداً، أو على العكس، أن الرجل الذي كوكبه الزهراء مض، كان لطيفاً ومبدعاً.

ترى أن تفسير الأبراج الفردي يتأسس على هذا التسجيل المزدوج، السماوي والأرضي الاثنان المضيئان والكواكب الخمسة في الأبراج أو العلاقة الاثني عشر للوحة الأبراج وللزوايا الأربعة لها.

انتشرت هذه الممارسة في إمبراطورية الاسكندر الكبير وفي الإمبراطورية الرومانية التي ورثت المعارف التنجيمية عن الكلدانيين.

كان جيوفاني منشداً إلى شفتي معلمه، وفكر أنه سيكون من المفيد له أن يعرف طالعه.

- يا معلم، لدي طلب من الصعب عليّ صياغته.

نظر الرجل العجوز إلى عيني جيوفاني، كانت نظرتة حادة لكنها وديعة.

- لدى سماعي لكم أقول في نفسي أنه سيكون مفيداً جداً لي أن أعرف سماء ولادتي.

- أرى أن المسائل الكونية الكبيرة تهتمك أقل مما تهتمك صرّتك، صاح الفيلسوف في سخرية.

- أخفض جيوفاني رأسه محمراً خجلاً.

- تابع الشيخ بنبرة تهكمية، أنا أتهكم عليك، ثم تابع بنبرة أبوية: طلبك في موضعه تماماً ولكنني أقول لك الحقيقة، كان في نيتي تحديد وتفسير طالعك، لكن هل تعرف تاريخ ميلادك؟

كان جيوفاني يعرف أنه ولد قبل الربيع وقالت له أمه أنه جاء إلى العالم عند غروب الشمس، في ليلة قمر مكتمل (بدر).

بما أنه يعرف عمره، دخل حديثاً في التاسعة عشر من عمره، كان يكفي القيام بعملية حساب بسيطة لمعرفة أنه من مواليد شهر آذار في العام 1514. تلقى الفيلسوف المعلومة بحذر:

- لا يمكنني تفسير أو قراءة برجك دون النظر إلى التقويم اليومي للإحاطة بمواقع الكواكب.

- تقويم الأحداث هي عبارة عن جداول فلكية يعاد نسخها بفضل المشاهدة اليومية، لمواقع الشمس، وللقمر والكواكب الخمسة الأخرى.

لقد مضى قرابة القرن والفلكيون يدونون هذه المواقع. اشترت كل هذه الجداول والألواح عندما كنت أدرس التنجيم في فلورنسا، من العام 1490 حتى 1520، وقد لحقت بي إلى منفاي.

- يمكنك إذن تحديد شمس ولادتي.

- طبعاً، إذا ما كانت كل المعلومات المقدمة من قبل أمك تسمح لي التحديد بشكل صحيح يوم وساعة ولادتك. ستتكلم عن ذلك معاً.

لنرى.. الأربعاء القادم، يوم عطارد، ماذا تقول في ذلك؟

انتظر جيوفاني بفارغ الصبر قدوم يوم عطارد في عشية ذلك اليوم وبعد الانتهاء من دروسه اليومية توجه نحو الغابة للترويح عن نفسه تسكع طويلاً، تنقله أفكاره بدأ النهار بالأفول فقرر جيوفاني العودة بسرعة إلى المنزل، حتى لا يتأخر عن موعد العشاء.

بينما كان يقترب من الفتحة وسط الغابة، وصلت مسامعه أصوات غريبة، فحث خطاه. سمع هذه المرة صراخاً، جرى مسرعاً نحو البيت الذي يعج بضجيج المعركة. تسمّر في مكانه لحظة ثم قفز نحو مخزن الأسلحة، وعاد فوراً مسلحاً بسيفين وسكين متجهماً نحو الغرفة الواسعة.

كان أثنائها مبعثراً، كأن أحدهم عبث بها. وفي الوسط، كان بيترو يدور حول طاولة صغيرة، وهو يقاتل ضد ثلاثة رجال مسلحين بسكاكين طويلة، وهناك رابع صرعه العملاق، ممدداً على أرض الغرفة. أعجب العملاق من الوصول المفاجئ لـ جيوفاني:

- تحية يا صديقي: أنت تصل في الوقت المناسب لتساعدني في قتل هؤلاء القبحاء!

من هول المفاجأة، التفت قطاع الطرق إلى الخلف. وفي لحظة دون التفكير غرز جيوفاني سيفه في ذراع الأول الذي هرب وهو يولول. وتلقى الثاني لكمة طاولة صغيرة رماه بها بيترو أصابته في رأسه مباشرة

أما الثالث فقد ألقى سكينه أرضاً طالباً الرحمة والعفو، بينما يهم جيوفاني لِيُنْفِذَ السيف في بطنه.

أمسك سكينه وقذف السيف إلى بيترو. الذي دون تردد، بتر بضربة سريعة يد البائس وصرخ:

- وإذا ما عاودتم الكرة، فإني سأقطع رؤوسكم. فر الرجل صارخاً مثل خنزير هارب من الذبح. ثم أمسك بيترو بالرجلين الممددين على الأرض وشد وثاقهما وربطهما إلى شجرة أمام المنزل.

- من هم هؤلاء؟ أين المعلم؟ صاح جيوفاني الذي بدأ لتوه إدراك ما حصل.

- قال العملاق وهو يلهث متعباً هيا لنخرجه. لحسن الحظ، فقد تمكنت من احتجازه في غرفته بمأمن عندما رأيت هؤلاء اللصوص قادمون.

كان الرجل العجوز مازال يرتجف من شدة التأثر. روى له بيترو نتيجة المعركة وكيف كان جيوفاني قد أبلى بلاء حسناً وشجاعة.

- أنا فخور بك يا ولدي! لم تكتف بإتقان استعمال الكلمات والأفكار بمهارة وفن، بل تعرف الآن أيضاً استعمال السيف، وهذا ما يسعدنا!

أراد بيترو قطع أيدي الوغدتين الآخرين المسجونين، لكن سيده عارض هذه العقوبة الأليمة، فقد أغلق عينيه عندما حاول بيترو تحذيرهما قبل أن يطلق سراحهما مرعوبين، فأطلق اللسان ساقهما للريح وانطلقا هائمين دون الالتفات إلى الخلف.

- صاح جيوفاني فرحاً: انظر إلى هؤلاء الأشرار سوف لن نراهم قريباً.

- أجاب بيترو بارتباب: ندعو العذراء والقديسين سماع دعائك،

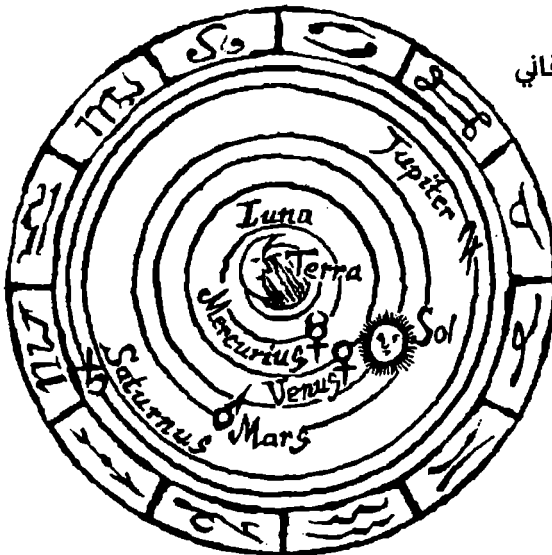
هذه هي المرة الخامسة أو السادسة التي تتعرض فيها لهذا النوع من الزيارات منذ مجيئنا لهذا المكان. ان شاء الله سوف لن يعودوا يوماً ما للثأر بأعداد كبيرة أو أن يقوموا بحرق الكوخ الخشبي.

طويَ الحادث بسرعة، حتى أن جيوفاني راوده طوال الليل كابوس رهيب رأى فيه نفسه يقطع أيدي المئات من اللصوص الذين كانوا يهاجمونه في آنٍ معاً.

في صباح الغد، اقترب من معلمه، قبل أن يحدثه معلمه عن طالعه، سأله عن الأسباب التي دفعته لإطلاق سراح اللصوص، بدل تسليمهم إلى العدالة، شرح له الفيلسوف عندئذ أن جبال الآبروز تشكل جزءاً من الدول البابوية، ولا يتمنى أن يعلم البابا بوجوده في هذا المكان، ليس لأنه يخاف على أمنه، بل يتمنى البقاء مخفياً، وتجنب إجباره على العودة إلى روما ليبرئ ساحته أو ليقوم بالتدريس. ثم نهض الرجل العجوز وذهب يبحث عن ورقة كبيرة في غرفته. أعطاها لجيوفاني.

- خذ، هذه سماء ولادتك.

جيوفاني



تأمل الشاب بانفعال الدائرة الكبرى المرسومة بالفرجار. في المركز كوكب الأرض متوضعاً مثل موقع الصرّة في الجسم، ثم دائرة مشتركة المركز (مثل كرة) كانت ترسم مسار القمر.

وكرة أخرى، مسار عطارد، وثالثة مسار الزهرة، بعيداً قليلاً تأتي مسارات الشمس، ثم المريخ ثم جوبيتر، والأكثر بعداً من المركز كان كوكب زحل. الحافة الخارجية للدائرة مؤلفة من رموز الأبراج الاثني عشر، الكواكب الواقعة على الدائرة أو الحلقة تقابل مختلف رموز الأبراج، أخيراً، كان يخترق الدائرة محوران: محور شرق غرب يشير إلى الأبراج من حيث الصعود والهبوط، ومحور شمال جنوب يشير إلى الأبراج في وسط وأطراف السماء.

سأبدأ بشرح مواقع الشمس والقمر، لأنهما الكوكبان الأكثر أهمية، تناول الرجل العجوز لوحة الأبراج من يدي جيوفاني وقال: حظنا كبير أن أمك كلمتك عن ميلادك والقمر بدر، وسمحت لي هذه المعلومة الثمينة ليس فقط بتحديد موقع الكوكبين، لكن بفضل تقاومي أيضاً (التي تدل على موقع الأحداث في يوم معين من الأعوام السابقة)، تمكنت من تحديد اليوم الصحيح لميلادك.

حملق جيوفاني عينيه.

- لقد كان هناك بالفعل قمر مكتمل عام 1514 عند الاعتدال الربيعي. تحديداً في ليلة 20 إلى 21 آذار من ذلك العام. إذا كانت المعلومات المنقولة من قبل والدتك موثوقة، فتكون قد وُلدت في كالابري عام 1514 بعد مغيب الشمس.

سعل الرجل العجوز قليلاً، ثم تابع شرحه:

- بما أنك ولدت عشية الاعتدال الربيعي فإن برجك هو الحوت، الشمس واقعة في الدرجة الأخيرة من برج الحوت، ولأن القمر بدر، فإن شمسك تكون في الجهة المقابلة للقمر في سماء ولادتك. هذا

بالضبط في نهاية برج العذراء، عطارد والزهرة مترافقان في بداية برج الحوت. المريخ في بداية الجدي، جوبيتر في بداية الثور وزحل على 25 درجة من العقرب. إذا كنت فعلاً ولدت في بداية الليل، فيكون زحل مهيمناً، لأن برج العقرب يرتفع من الشرق لحظة ولادتك.

جوبيتر من جهته، يغرب في الغرب والشمس ليست بعيدة جداً عن المغرب لأنها تكون قد غابت لتوها.

- توقف المعلم لوسيو س قليلاً.

- ماذا يعنيه كل هذا؟ تتم جيوفاني

- شيء ما يلزم لتحديد طالعك. وهذا يتطلب بعض العلم والمعرفة، وشيء آخر هو تفسيره وهذا أيضاً فنٌ بحد ذاته، تابع العجوز مظهراً بعض الثقة. كنت معروفاً جداً في فلورنسا في هذا الفن الذي استدعى وجود صفات بديهية أكثر منها المتعلقة بالفكر. لهذا فإن منجمين اثنين لن يفسرا مطلقاً الطالع نفسه بالطريقة نفسها. أصرُّ على ذلك، يا ولدي، لأن هذه نقطة أساسية يصطدم بها العديد من مؤيدي ومناهضي التنجيم. فالتنجيم ليس علماً دقيقاً، مثل المنطق أو الرياضيات، بل هو علم يستخدم مصطلحات رمزية تتطلب تفسيراً. الكواكب هي رموز مختلف مقدرات الكائن البشري وإشارات الأبراج ترمز فيما يخصها إلى كل الغنى، موزعة على اثني عشر رمزاً للمزاج البشري. عند تغيير المنجم لموقع كوكب في البرج فإنه يبحث عن إدراك كيفية تمكين هذه القدرة أو تلك التعبير عن نفسها.

كان جيوفاني يحبس أنفاسه، مع استبصار أن الدقائق التالية ستكشف له شيئاً ما.

- لنتناول إذن برجك، الشمس هي رمز الإرادة، المثل الأعلى، الفعل، وتمثل أيضاً، بطريق القياس، الجنس الذكري، الأب، السلطة، الزوج بالنسبة للمرأة لكن بمثابة القلب والعينين.

«شمسك في برج الحوت» ذلك يعني أن قدراتك الشمسية ملونة بصفات وميزات البرج الأخير في دائرة الأبراج. أذكرك أن الحوت يرمز إلى الدين المسيحي وليس ذلك صدفة، لأن رسالة المسيح قريبة بشكل كبير من صفات هذا البرج. وهكذا فانت رجل مثالي مفرط الحساسية ومنفعل، تشعر بالشفقة أمام ألم الآخر، لديك بطريقة فطرية بعض الحب والمهبة الذاتية، يمكن أن تذهب إلى حدّ التضحية. أنت منجذب نحو كل ما يتعلق بالسّرّ، بالجهول، باللامرئي، ستصادف طبعاً رجالاً يُعتبرون حُجّة في هذه المسائل، أنت تشعر دائماً بالرغبة إلى الفرار، التي يمكن أن تأخذ أحياناً شكل الهرب من الحقيقة، وأحياناً الرغبة في تحقيق هدف عالٍ سام.

دهش جيفواني لهذه الملاحظة. فعلاً لماذا يشعر دائماً بالحاجة للهرب من عالمه اليومي. لكنه كان يبقى أمام لغز وجوده: هل كانت مغادرته القرية هروباً من الواقع أم محاولة منه لتحقيق هدف عالٍ من خلال ذلك؟

- تابع المنجم: نقيض الشمس، القمر، يرمز إلى الجوهر الأثوي، الجسد، المادة. في الموضوع، فهو يرمز إلى الذاكرة والانفعالات، الأم، المرأة، بل أيضاً جموع الشعب أو مداخل الجسم أو المعدة. إن وجود قمرك في برج العذراء يظهر عن حيوية ضعيفة وبعض القلق، أنت مهموم، وقد تكون مدققاً بشكل مفرط، في كل الأحوال نزيه جداً.. لديك قدرة كبيرة على التقيد بالنظام، ذاكرة رائعة ورغبة كبيرة بالتعلم، هذا ما سبق أن تحققت منه. أضاف المنجم بنوع من الخبث. أنت مشدود ومنجذب نحو النساء الذكيات، الجدييات، اللواتي لهنّ معارف كثيرة. الآن، من المهم تفسير هذا التقابل بين الشمس والقمر المتعلق بتاريخ ميلادك.. هذا ينم عن صراع داخلي عميق بين عقلك وجسدك، أو بين هدفك الأسمى وحياتك اليومية. لقد فقدت أمك وأنت طفل، على ما أعتقد؟

- نعم.

- يمكن قراءة هذا أيضاً في الشكل الذي يرمز إليه القمر، أمك تتحمل بعمق وشدة فقدان حيويتها، الممثلة بالشمس، يمكن لهذا التقابل في الموقع أيضاً أن يقودك إلى الخلاف مع الناس، أضف إلى ذلك أن القمر هو في هيئة سيف بالنسبة لمريخ ولادتك، الذي يعني العنف، النزاع. ستعرض في المستقبل للعنف من قبل الناس أو من النساء.

فكر جيوفاني بأنه قاسى من عقوبة رهيبة بسبب حبه لإيلينا.

- يظهر هذا المنظر السيء بين القمر وكوكب المريخ مثل وجود زحل في برج العقرب المسيطر، للأسف أنك توشك جيداً على التعرض أو ممارسة بعض العنف في حياتك، في كل الأحوال فإن قدرك سيكون مليئاً بالأزمات، وإعادة النظر، بالأموات والانبعاثات المتتالية.

في هذه اللحظة فكر جيوفاني بتنبؤات الساحرة، هل من الممكن أن يكون له قدرٌ مأساوي مضطرب؟ هل سيصبح قاتلاً؟

- هذا العذاب الداخلي وهذه الأزمات متطابقين بسبب واقع أن كوكب جوبيتر، الذي هو خير ومناسب، في حالة ضعف. هذا يعني أولاً أنك مفتون بالعالم، وبطريقة ما أنت تأمل الفوز به أو تحصل فيه على منصب مرموق. جوبيتر المتصل جيداً بالمريخ وكوكب الزهرة أيضاً يؤمن لك الحماية والحظ خاصة في الحب.

رفع المنجم رأسه ناظراً الفتى الذي كان يرتجف تأثراً.

- أعرف أن هذه المسألة تهلك بشكل خاص، لهذا يجب النظر إلى موقع الزهرة يوم مولدك. لكن هذا الموقع منظور إليه بشكل جيد. موقعها في برج الحوت يظهر ميلاً لامثال المرأة التي تحب وحتى تضحيتك بنفسك من أجلها. يمكن أن يكون هذا ميلاً للحب الإلهي. عرفت الكثير من المتزهدين الذين كانت لهم المواقع الكونية ذاتها.

إن اجتماع الزهرة وعطارد، الذي يرمز إلى الذكاء، يظهر اتحاداً جيداً بين قلبك وفكرك، يمكن للحب أن يحملك إلى الدراسة كما يمكن لدراستك أن تقودك إلى الحب.

أمسك جيوفاني أنفاسه وقال في نفسه: إذا قدر لهذا أن يكون صحيحاً في الاتجاهين.

في كل الأحوال، هذا الموقع يؤكد أنك منجذب أو أنك تجذب النساء الذكيات والثققات. أهنتك على ذلك، سأضيف أن كوكب العذراء هو أيضاً متصل بشكل جيد بكوكب المريخ، هذا يعني التحالف بين الحب والرغبة الجنسية. بشكل آخر، لا يمكنك أن تحب حقاً دون رغبة أو شهوة ولا أن تشتهي (جنسياً) دون حب. توقف المنجم طويلاً.

- لقد رأينا الشيء الرئيسي بإيجاز، يبقى قول كلمة أيضاً عن الموقع المهم لعطارد في برجك. مهمة أولاً لأنه المسيطر، لكن أيضاً لأنه الطريق الذي لا يمكن تجنبه بين شمسك وقمرك.

أظهر جيوفاني إشارة تدل على عدم استيعاب.

- نعم، إذا ما تفحصنا طالعك بشكل جيد، فإنه يبدو جلياً أن صعوبتك الرئيسية معبر عنها بالتقابل بين الشمس والقمر. سيكون أمامك طوال حياتك، النضال لتتفوق على هذا التناقض. بيد أن كلاً من هذين الكوكبين موصول أو مرتبط بطريقة إيجابية بزحل، إنه هو الذي يضمن جمع الممكن بين هذين القطبين لشخصيتك. يرمز زحل إلى ضرورة التجرد والحداد، ويسمح أيضاً للإنسان أن يتخلص من الصلة مع والدته، أن يكبر وهو يقبل المصائب والأزمات والتجارب. كان القدماء يسمونه «الشرير الأكبر» لأنه يشير إلى أقدار مؤلمة، يجلب العقبات والمصاعب. لقد أصيب معلمي مارسيل فيشين بالاكتئاب طوال حياته وعُزي سبب ذلك إلى الموقع القوي لزحل في دائرة طالعهِ،

لكن عندما يفهم الإنسان أنه بمقدوره أن ينمو ويكبر عبر اختبارات وأن التراجع والوجدانية تسمح له بالدخول في سعادة، عندها يستحق فعلاً اسم الرجل.

زحل موجود هنا ليحررنا من الأربطة التي توثقنا بشكل شديد إلى أمناء، إلى ماضينا، إلى طفولتنا، إلى الذات، إلى الأرض. هو الكبير والمربي المخيف لذكائنا، يقودنا إلى السماء عبر جحيم أهوائنا التي تغلبنا عليها. لهذا فإن معظم الرهبان يتأثرون بشدة بهذا الكوكب الذي يهين للانفراد إلى الدراسة، إلى الوجدانية، إلى التقشف. وكان معلمي يقول، متكلماً عن نفسه: إن أطفال زحل هم محكومون بالبحث عن القلق عن الجمال، والخير، والحقيقي.

- هذا ينطبق عليك بشكل جيد! لاحظ جيوفاني.

- نعم، لدي تفسير تنجيمي يشبه في الكثير من النقاط طالع معلمي والعكس صحيح، لكن هل هذا مدهش؟ الموقع المركزي لزحل يشير إلى أن مستقبلك سيكون مزروعاً بالاختبارات والحنن مثل العديد من المراحل التدريسية لتستطيع الحصول على الحكم السامية والحقيقية. سبق أن فقدت والدتك وأنت طفل. يمكنك الجري طوال حياتك خلف نساء أخريات، أو أن تقبل هذا الامتحان والخروج منه مرتفعاً، ناضجاً في خياراتك العاطفية. لكن احترس أيضاً بأن لا تترك نفسك تفتن بصرامة وقسوة زحل. يشير طالعك أنه بحاجة إلى حنان وعطف أنثوي، وحياة اجتماعية، وجمال. الواقع أن حياتك تتأرجح بين هذين الكوكبين الكبيرين جوبيتر وزحل واللذان يحددان روايتي طالعك: زحل المسيطر الصاعد وجوبيتر الهابط.. يدفعك جوبيتر على التطابق مع الكون والتمتع بالحياة، بينما زحل يدعوك إلى الابتعاد عن العالم والسيطرة على الغرائز.

يأتيك جوبيتر بالحظ السعيد، الحماية واليسر، بينما زحل قسمتك

من المحن الميئة. يجعلك جويتر متفانلاً فيما يجعلك زحل متشائماً.
كان جيوفاني متأثراً بعمق بهذا الكلام الذي كان يبدو له صحيحاً
جداً. مظهراً بعض علامات التعب. استأنف المنجم كلامه بنبرة أكثر
تعباً، لكن مع ذلك مقتنعاً:

- مثلما هو الحال بالنسبة للتقابل بين الشمس والقمر، فإن حياتك
ليست سوى جهداً مستمراً قصد الموافقة بين الأضداد التي تتواجه في
داخلك كما في أحداث مستقبلك. طريقك في الحياة اذن هو أن
تتجاوز هذه المواجهات. بعبارات تنجيمية، علينا جميعاً الانتقال من
القمر إلى الشمس، أي من انفعالاتنا الفورية إلى إرادتنا الواعية، بأن
ندمج على التوالي كل الأبعاد الأخرى لشخصيتنا المرمزة بالكواكب
الأخرى.

لكن بالنسبة لك فإن طريق الحياة هذا متوتر جداً وفي الوقت نفسه
أكثر إلحاحاً وأشد صعوبة بسبب التقابل الأصلي بين قمرك وشمسك.
صمت الرجل العجوز، ثم رفع نظره ببطء نحو جيوفاني.
- هناك الكثير من الأشياء الواجب التحدث عنها حول طبعك
وقدرك. لكنك تعرف عن ذلك ما يكفي حالياً، فأنا متعب.
يؤكد لك طالعك أن لديك الاستعدادات الممتازة للفلسفة.

شكر جيوفاني معلمه، وكما لو أنه سُحق تحت حمل ثقيل مما سمعه،
فخرج من الغرفة وهو يتعثر شديد القلق، ثم توجه نحو الغاية. كانت
أفكاره تدافع في رأسه، كل ذلك يبدو أنه يؤكد ولو جزئياً، بعض
الأحداث الرهيبة التي تنبأت عنها الساحرة. في الوقت نفسه، كان
يقول في نفسه إذا حدثه القدر لمرتين، ألا يمكن تجنب حدوث هذه
الأشياء؟

مسألة أخرى، من طراز آخر كانت تقلقه، فالتنجيم يسمح بفهم

الأشخاص مثل قدر، وحرية الاختيار، لكنه يقدم أيضاً المعرفة النفسية والرمزية الغزيرة، متيحاً الولوج إلى معرفة أفضل للذات وللآخرين. عندما يفكر بذلك، كان جيوفاني يقول في نفسه إنه يرغب تعلم التنجيم. يرغب في تعلم كيفية وضع طالع إيلينا ومقارنته مع طالعه! كان يتصور أيضاً، ما أن يصل إلى البندقية ويتقدم من إيلينا بهذه الطريقة: «أنا منجم، إذا كنت ترغين فأنا قادر على وضع مخطط طالعك وتفسير سماء ميلادك»، إنها طريقة رائعة للاقتراب من الفتاة، وخاصة أن معلمه قال له: إن المنجمين كانوا مرغوبين في بلاط أوروبا ويتخاطفون خدماتهم. يمكنه أيضاً ليس فقط التقرب من إيلينا، بل كسب حياته بجدارة وكرامة والخروج إلى الأبد من وضعه كقروي.

كلما تعمق في التفكير، كانت الفكرة تبدو له رائعة من جميع النواحي، عليه أن يبقى على الأقل لمدى عامين بالقرب من معلمه، وهذا كاف دون شك لتعلم مهنة المنجم. غير أن عائقاً ظهر في عقله. من أجل وضع مخططات الطالع عليه اقتناء تقويم أحداث السنوات الماضية، وقد يكلف هذا التقويم أموالاً طائلة ولا يرى كيف يمكنه الحصول على هذا المبلغ. ولدى قلب المسألة في رأسه، توصل إلى فكرة جديدة: لماذا لا يطلب من معلمه السماح بنسخ التقويم الذي بحوزته؟ يمكنه بهذا الشكل تخطيط طالع كل الأشخاص المولودين بين 1490 و1520، وهذا عمل كبير يضمن له القدرة على وضع طالع إيلينا، التي يجب أن يكون تاريخ ولادتها بعده بعدة سنوات. هذا يتطلب عدة مئات من الساعات طبعاً، لكنه على استعداد أن يسهر ليليه طوال عامين إذا كان ذلك ضرورياً. وما عليه إلا أن يأتي بالورق والحبر وهذا أقل كلفة بكثير.

بعد أن فكر ملياً، قرر مكاشفة معلمه بهذه المسألة المصيرية بالنسبة لمستقبله.

أصغى إليه معلمه بصبر وأناة. صمت لعدة دقائق بينما كان جيوفاني شديد القلق، ثم أعطى موافقته، منوهاً أنه سيقدم للفتى الحبر والورق، لأن الرجل العجوز كان في أعماقه مفتوناً بالقدرة على نقل هذه المعرفة المعقدة والقليلة الانتشار. كان يقدر في جيوفاني ذكائه، وحساسيته، شجاعته وإرادته في التعلم. وأضحى الآن مقتنعاً بشدة أن العناية الإلهية قد جمعتهما لهذه الغاية.

كان جيوفاني مشوشاً. في عشية ذلك اليوم بالذات، بدأ في نسخ تقويم تواريخ الأحداث على دفتر كبير قدمه له معلمه، واعتباراً من بعد غد قرر الفيلسوف استبدال درس اللغة اللاتينية بدرس يومي حول التنجيم.

بعد مضي عدة أسابيع، ذهب جيوفاني إلى المدينة لشراء دفاتر أخرى. بعد يومين من السير على الأقدام وصل إلى مدينة سولمونا الرائعة المحاطة كلية بأسوار عالية. هذه المدينة تفخر بماضيها المجيد لأنها شهدت ولادة الشاعر أوفيد، وكانت مركزاً ثقافياً هاماً. أخذ جيوفاني بكل تعليمات بيترو الذي فضّل البقاء قرب معلمه خشية من هجوم آخر للصوص. وتوصل، بصعوبة إلى إيجاد المكتبة التي كانت تباع أيضاً الحبر والورق. ما أن أتم مشترياته، حتى تجول قليلاً لعدة ساعات في المدينة. وفي الوقت ذاته كان تائهاً ومفتوناً بالضجة، والحركة، وبجمال النساء، ولباس الرجال، والروائح والعطور المتنوعة.

لقد كان خجلاً من لباسه، مرعوباً قليلاً من فكرة أنه في يوم قادم عليه أن يعيش في مدينة كبيرة واسعة وشهيرة. سببت له هذه الفكرة دوارةً شديداً.. غير أنه قال في نفسه وهو يأخذ طريق العودة إلى البيت «لندع الأمور تأخذ مجراها...».

مضى حتى الآن ثلاث سنوات بينما جيو فاني يدرس على معلمه. كان تحول، على المستوى الجسماني والفكري مذهلاً. الفتى الحالم، الأمي والهزيل البنية أضحى رجلاً صلباً شديداً وثقفاً.

لم يفقد شيئاً من أهدافه أو من حساسيته، لكنه كان أقل سذاجة، أكثر تصميمًا، أكثر ترسخاً. في الواقع اكتسب من بيترو تكويناً جسدياً في استعمال السيف. وأضحى أكثر قوة ورشاقة من معلمه. كان يحدث أحياناً أن يتمكن من الانتصار على معلمه أثناء التمرين. لم يحصل أي حدث منذ الهجوم الأخير للصوص وقد أسف جيو فاني، لأنه كان يشعر بنفسه الاستعداد لإنهائهم.

هذا التقدم إلى جانب الفيلسوف العجوز كان أيضاً ممتازاً. أتقن اليونانية بشكل جيد، بقصد قراءة نصوص الفلاسفة، والتعرف على الكتب المقدسة المسيحية، التي حفظ بعض المقاطع منها عن ظهر القلب. كانت ذاكرته جيدة، وهذا ما سهل عليه دراساته.

لكن ما كان يستهويه فوق كل شيء هو التنجيم. أصبح يعرف حتى الآن كيف يمكن وضع رسماً للطالع انطلاقاً من روزنامة الأحداث وجداول وخطوط العرض والطول التي تسمح بحساب التوجه الطبوغرافي لسماء شخص ما تبعاً لساعة ومكان ولادته. من جهة أخرى فقد أنهى نسخ الجداول الصالحة في إيطاليا، وكذلك روزنامة

تسلسل الأحداث التي تعطي المواقع اليومية للشمس، والقمر والكواكب، لأنه تعلم رموز الكواكب وعلامات الأبراج وبدأ في القدرة على التفسير الصحيح الخاص بقدر أو طالع ما.

أبعد من الفائدة الفكرية التي كان يحملها في هذا المجال، كانت الناحية العملية لهذا الفن، والفائدة المادية والاجتماعية التي سيجنيها تزيده تحفزاً أضعافاً مضاعفة.

ما زالت إيلينا تسكن أفكاره وأحلامه، لكن حبه للفتاة نضج أيضاً. لقد صمم بأن لا يهرب في الخيالي ويتجنب من الآن وصاعداً أي فكرة أو صورة لم تكن مبنية على ذكريات محددة. سمح له عمله الفلسفي والتنجيمي بالتعلم على معرفة نفسه بشكل أفضل. عرف أنه ميال بطبيعته تصوّر الناس أو الأشياء بطريقة مثالية جداً. قرّر إذن أن يناضل ضد هذه السّمة من طبعه، وأن يمارس الانتباه في كل لحظة على أفكاره، خاصة تلك التي تعني إيلينا. كان ينتظر بصبر رؤيتها من جديد ويزرع في قلبه ذكرى وجهها، دون البحث عن تخيل ما هي عليه الآن خاصة أنه كان يقرأ كل مساء قبل النوم البطاقة الصغيرة التي كتبتها له. حتى ولو أنه يعرف منذ سنوات كل كلمة، فقد كان يتأثر وينفعل في كل مرة تقع فيها عيناه على كتابة تلك الفتاة، الأثر الوحيد الملموس للقاءه العابر مع بنت البنديقية.

مضت ثلاث سنوات على وصوله إلى منزل معلمه، التعهد الذي أخذه على نفسه أمامه كان قد رفع، ويعلم أنه سيغادر قريباً، في كل الأحوال كان يشعر بضرورة إكمال وإتمام تكوينه الفلكي بصورة أفضل، الذي أصبح همه الرئيسي وزاد سفره الذي سيقوده إلى قلب إيلينا.

كان مقتنعاً من ذلك لاسيما أنه منذ شهرين في نهاية شهر آب تقريباً، حضر رجل للقاء معلمه. فيلسوف إسباني يدعى خوان دو فالدس واحد

من أندر الأشخاص الذين يعرفون مكان لوسيووس. جاء ليخبره بوفاة صديقهم المشترك: ديزيريه إيراسم التي حصلت في 12 تموز من هذه السنة 1536. تأثر المعلم لوسيووس جداً لهذا الحدث. تبادل الرجلان مطولاً الحديث عن مشاكل وشؤون العالم. بما أنه لم يتلقَ أي زيارة أخرى منذ ما يقارب العامين، فقد اغتنم الفيلسوف مناسبة انتخاب الكسندر فارنير للكرسي الرسولي في تشرين الأول (أكتوبر) عام 1534.

لم يتفاجأ أبداً، وهو نفسه قبل ذلك بعشرين سنة، قد تنبأ للكاردينال أنه سيكون يوماً ما حبراً أعظم (بابا).. بالرغم من كونه أباً لأربعة أطفال! شرح خوان دوفالديس للوسيووس أن انتخاب هذا الثعلب العجوز فارنيز - الذي قارب عمره آنذاك ست وستون سنة - كان قد أنعش شهرته كمنجم وأن العديد من النبلاء، بدءاً من البابا نفسه، كانوا يسعون لاكتشاف مكان مخبئه لاقتياده إلى روما: «ليحميني الله منهم!..» صاح الفيلسوف، أنا مسرور على الأقل لمعرفة أن شهرته كانت دائماً معتبرة». سأل صديقه مطولاً حول قرارات الحبر الأعظم الجديد، الذي اتخذ لنفسه اسم بول III (بولس الثالث). لقد أعطاه الإسباني أخباراً مطمئنة. بالرغم من استمرار مزاولته سياسة المحاباة التي تنص على توزيع الأملاك الكنسية إلى أبنائه وأحفاده، يبدو أنه كان ميالاً إلى إصلاح الكنيسة. فكّر في الحوار مع البروتستانت فقرر على الفور تشكيل مجموعة من الأساقفة (كاردينالات) المفتوحين على المواضيع الإنجيلية، للتحضير إلى عقد مجمع كبير بعد تلقيه دعماً من إيراسم. رداً على ذلك، قام البابا بإهداء العالم الإنساني قبعة الأسقف، مرفقة بدخل كنسي مرموق. هدايا سامة قطعتة نهائياً عن الإصلاحيين، وكان الفيلسوف قد أسرع لرفضها. ضحك المعلم لوسيووس بأعلى صوته لدى سماعه الخبر. بمناسبة هذه الزيارة اكتشف جيوفاني أن معلمه ليس فقط معروفاً كونه عالماً كبيراً بل لكونه أكبر منجمي زمنه. أجرى الكثير من التنبؤات

التي تحققت. لقد نال إعجابه هذا الخبر وأراحه في تصميمه على أن يصبح بدوره منجماً مشهوراً، ما سيمكنه بفخر من عزو مقدرته إلى التكوين الذي نقله له معلمه الشهير. لكنه بقي حائراً عندما سمع الفيلسوف الإسباني يتكلم عن استقراره في نابولي ولقائه مع كونتيسة شابة جميلة ومثقفة، تدعى جوليا غونزاغا. لم يتمالك نفسه من الدخول في المحادثة ورواية لقائه الغريب، قبل ذلك بعامين، مع تلك الفارسة الفاتنة المسماة جوليا، التي كانت تعدو نحو دير سان جيوفاني دو فينيري. وبقي خوان دوفالديس حالماً للحظات، ثم سأل جيوفاني:

- تقول إن ذلك اللقاء كان قد تم في مطلع شهر آب من عام 1534؟
- نعم.

- وتقول أيضاً أن الشابة جميلة جداً، ذات شعر طويل كستنائي، غير أنها ترتدي لباس رجل وكانت تبدو مرعوبة؟
- أكد جيوفاني ذلك وهو يهش برأسه.
- سيكون ذلك تطابق عجيب.

كان جيوفاني، بيترو والمعلم لوسيو معلقين إلى شفاه الإسباني.
- يجب أن أقص لكم حكاية جوليا غونزاغا العجيبة، كونتيسة دو فوندي، لأنه من المحتمل جداً أن تكون هي التي شاهدتها ذلك اليوم، كم هي الحياة عجيبة.

- صاح الفيلسوف: لا تجعلنا نكتب أكثر من هذا.

الشابة جوليا هي ابنة لودوفيكو غونزاغا كونت سابونيتا وفرانثيسكا فيشي، تلقت منذ نعومة أظفارها تربية مهذبة مرهفة. في سن الثالثة عشرة أصبحت مثقفة جداً بالموسيقا، الفلسفة، اللاهوت والعلوم الطبيعية. من جهة أخرى، وبما أنها فتاة جميلة جداً، فقد أثارت إعجاب كل أولئك الذين يلتقون بها. قبل بلوغها الأربعة عشر عاماً،

تزوجت من فسبازيانو كولونا، كونت فوندي، المدينة الجميلة الواقعة بين روما و نابولي، وغير بعيدة عن شاطئ المتوسط، على مسيرة فارس يومين. كان الكونت رجلاً ثرياً ومثقفاً ولكنه يكبرها بثلاث وثلاثين سنة. أرملاً، وله ابنة من عمر جوليا. مغرماً لحد الجنون بزوجه الشابة، مما أثار غيرة ابنته. بعد عامين من زواجهما، توفي الكونت إثر حادث وترك شابة أرملة في السادسة عشر من عمرها على رأس إرث رائع كبير. بقدر ما كان ذكاًؤها، كما جمالها وثروتها، فقد كانت محط أطماع الكثيرين في إيطاليا، غير أن الكونت ترك في وصيته الأخيرة بنداً اشترطياً يمنع زوجته الشابة من الزواج بعد موته تحت طائلة فقدان كل هذه الثروات لصالح ابنته.

- آه أيها الأوباش! صاح بيترو بضحكة عالية مقهقهاً.

- كان من العدل تقاسم الميراث بين زوجته وابنته دون هذا البند الاشتراطي الأرعن، صحح المعلم لوسيو.

زد على ذلك أن مأساة رهيبة نتجت عن المنافسة. قبلت جوليا بالفعل البند الاشتراطي وتعهدت بأنها لن تتزوج من جديد. فحوّلت القصر الثري إلى مركز فكري جمع الكثير من المفكرين، الفنانين ورجال الكنيسة. ورسم لها الفنانان الكبيران تيتين، وديل بيومبو لوحة لشخصها. وكسبت الكونتيسة شهرة لدرجة أن فوندي تحوّلت إلى بلاط المعجبين المرتعدين الذين كانوا يسعون جميعاً لاستمالة قلب الأرملة الشابة. وعلى ما يقال ودون شك، وسري جداً، كان لها بعض العشاق الذين منهم، حسب ما يشاع الكاردينال الشاب إيوليتو من ميديتشي.

- تعجب المعلم لوسيو الذي كان يعرف منذ طفولته عائلة ميديتشي، عندما غادرت فلورنسا.

- بالفعل فهو يكبر جوليا بقليل، عرف نهاية مأساوية لكن قبل

الوصول إلى هذا الحب، علي أن أروي لكم الحادثة الصعبة التصديق التي جرت أحداثها في ليلة الثامن إلى التاسع من آب 1534 التي بلبت حياة الكونتيسة.

توقف خوان دوفالديس عن الكلام وتناول كأساً من الخمر، بينما ظل مضيفوه صامتين، منتظرين تنمة روايته.

- حوالي منتصف الليل، أيقظتُ جوليا لإعلامها أن القرصان الشهير باربروس نزل على الشاطئ، وبصحبه ألفين من الجنود الإنكشاريين الأتراك بهدف خطفها.. ليقدمها هدية إلى السلطان سليمان العظيم! وصل القرصنة إلى أبواب المدينة وسيبلغون القصر خلال بضع دقائق. لم تتردد جوليا لحظة مصحوبة بواحد من خدمها بالإسراع نحو الاسطبل، وأسرجت حصانها المفضل وهربت مرتدية قميص النوم عبر الجبل، وعدت مع الخادم طوال الليل عبر هضاب جبال الأبروز، وعند طلوع الفجر، استلقوا بضع لحظات ليأخذوا قسطاً من الراحة، وحاول خادمها اغتصابها، عاجلته جوليا بضربة خنجر بقرت بطنه، لبست ثيابه وتابعت طريقها باتجاه دير سان جيوفاني دو فينيري، حيث أمِلتُ اللقاء بأعز أصدقائها، الكاردينال دو ميديتشي، المفترض أن يكون هناك لقضاء رياضته الروحية.

التفت فالديس نحو جيوفاني، المأخوذ كلياً بروايته.

- من الممكن حقاً أن تكون سلكت ذلك الطريق والتقت بك عند مساء ذلك اليوم. عندما توقفت على ضفة النهر لكي تسقي حصانها.

- تابع بيترو: هذا أكيد، يا للخسارة لأنك لم تأت بها إلى هنا.

- رغبت في ذلك لكنها كانت مذعورة وراغبة بمتابعة طريقها بأسرع ما يمكن، أجاب جيوفاني.

أفهم الآن لماذا؟

- هذه القصة الخيالية تكاد لا تصدق، تابع المعلم لوسيوس، وماذا حصل فيما بعد؟
تنهد خوان دوفالديس عميقاً.

- كان الكاردينال في ذلك الوقت موجوداً في روما، وقد علم بهجوم القراصنة في اليوم التالي. فجهز جيشاً من ستة آلاف رجل، وصلوا فوندي، فوجدوا المدينة مدمرة محترقة. كان باربيروس قد غادر المدينة خالي الوفاض، لكن في غمرة غضبه من تمكن فريسته من الإفلات، قام بذبح جميع السكان الذين استطاع القبض عليهم، ونهب البيوت الثرية ودنس قبور أسياد القصور، كانت تلك مذبحة مريعة.
بقي الرجال الثلاثة صامتين مذعورين، متصورين مشاهد الرعب التي تكلم عنها الإسباني.

- سأل بيترو: لكن لأي سبب فكر باربيروس بالقبض على جوليا الجميلة ليقدمها للسلطان؟ هذه العملية على أرض البابا محفوفة بالخطر، ألم يكن لدى سيد القسطنطينية عشرات الزوجات في حرمه؟
- يا صديقي، أنت تضع الإصبع على المظهر الأكثر غموضاً في كل هذه القضية والذي لم يكشف عنه بعد.

الفرضية المطروحة من قبل الكثيرين دنيئة. قد تكون ابنة زوج جوليا، التي لم تقبل أن تكون مجردة من الإرث لصالح هذه المرأة التي تكرهها، قد أخبرت القرصان عن جمال الكونتيسة النادر ووعده بتسليمه ثروات القصر مقابل عملية الاختطاف هذه. عملياً كان القراصنة على علم تام بالأمر، ويبدو أن متواطئين معهم قادوهم إلى القصر. ولكن لا دليل إثبات ضد الآنسة «فسبازيانوكولونا» مع أن الشكوك أكدت بعد ذلك بسنة، عندما عثر على الكاردينال ميديتشي، الصديق الأفضل والسند الأكيد لجوليا، مقتولاً في حدائق الكونتيسة. لكن يقال أيضاً، أن هذا الفعل ممكن اقترافه من قبل عاشق آخر رفضت

جوليا الفاتنة استقباله. منذ ذلك الوقت قررت الكونتيسة الشابة بعد نفاذ صبرها من كل هذه الدسائس أن تنعزل عن العالم، فاستقرت في أحد أديرة نابولي وقامت بدعم الكثير من الأعمال الخيرية. تعرّفتُ عليها في الربيع الفائت عن طريق صديقنا «برناردينو أوشينو» الواعظ في تنسك الصيام في نابولي.

هذه المرة التفت فالديس نحو صديقه لوسيو، وكما قيل أن ذلك اللقاء كان مفيداً، لأن الكونتيسة ميالة جداً لأفكارنا. منذ ذلك الوقت شرعت بدعم جماعاتنا الإنجيلية والسعي للتقريب بين الكاثوليك والإصلاحيين.

- هذا جيد، وافق العالم الإنساني.

استمرت المحادثة حول نشاطات خوان دوفالديس في نابولي وتحوّله عبر المدن الكبيرة الإيطالية لدعم هذه المجموعات الإنجيلية التي كانت تحاول إصلاح الكنيسة من الداخل وفي الوقت نفسه الذي تحد فيه من سيطرة اللوثرين.

كان جيوفاني محبباً في أعماق أعماقه بهذه الرواية، لم يتوقف عن التفكير بالكونتيسة جوليا طوال عدة أسابيع. قال في نفسه: أي مصير مأساوي مؤلم لشخص كان في البداية مسروراً بالطبيعة والحياة، كما أوصى له معلمه، فقد صلى مراراً لهذا الشخص الذي لمح لفترة قصيرة جداً وتابع تساؤله حول معنى هذا اللقاء.

تلك كانت أفكار جيوفاني في هذه الأيام الجميلة من أواخر الخريف. في صباح أحد الأيام بينما كان يتجول في الحراج على بعد أقل من مئة متر من المنزل، وجد نفسه وجهاً لوجه مع عشرة فرسان مدججين بالسلاح.

- سأل واحد من الفرسان قبل أن يكون لدى جيوفاني الوقت الرد عليه: هل صحيح أن هذا المكان يسمى ميديتشي؟
- نعم.

- نحن نبحث عن منزل المعلم لوسبيوس كونستانتيني.

بقي الفتى مسمراً، لم يعرف مع من يتكلم، من الممكن أن يكون معلمه في خطر كبير، كان عليه دون شك الكذب لكن كيف يمنع هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح الذهاب إلى المكان والتحقق؟

- آه! أنت أبكم أو بليد؟ تابع الفارس بنبرة شريرة. تحقق جيوفاني من كون الجنود يضعون شارات البابا على لباسهم وعلى تروسهم. هذا ما طمأنه نوعاً ما.

- أنا.. أنا لا أعرف ما إذا كان هنا، لكنني سأذهب وأتحقق، وعلي أن أعلمه؟

ردّ الفارس بدفع جيوفاني بركلة قوية حتى قبل أن يتمكن من النهوض، أما الرجال فقد غمزوا أحصنتهم وانطلقوا نحو البيت. ركض جيوفاني في أثرهم. عندما وصل إلى الفتحة وسط الغابة، رأى بيترو يناقش أحدهم الذي ترجل عن حصانه ويده وثيقة. بما أن بيترو لم يظهر أي عدائية، فقد أبطأ جيوفاني خطاه، واقترب منهم بحذر.

دخل بيترو المنزل بصحبة أحد الفرسان، وهو الوحيد الذي لم يكن

يحمل أسلحة. بينما ترجل الآخرون بدورهم. عندما رأوا جيوفاني، ناداه أحدهم، وهو الذي ركله وأوقعه أرضاً:

- قل لي، أيها البليد، أتعرف أين يمكن أن نسقي جيانا؟

شدّ جيوفاني على قبضتيه، كانت لديه رغبة رهيبية بأن ينقض عليه، لكنه تمالك نفسه.

- طبعاً، سيدي، أجاب بنوع من السخرية. يمر النهر على بعد مئتي متر خلف المنزل.

لم يجب الرجل. أرسل الجنود الآخرين ليقودوا الأحصنة وبقي معه فارس وحيد أمام الباب. بينما كان جيوفاني يستعد ليجتاز عتبة المنزل، سد عليه الرجل الطريق بذراعه. هذه المرة تجاوز الحد، دون تفكير، وبحركة سريعة مفاجئة انتزع جيوفاني سيف الجندي ودفعه نحو الخلف.

صدم الرجل بصخرة كبيرة وتمدد على الأرض، وقبل أن يكون لدى الآخر الوقت الكافي للرد، ضربه الفتى ضربة قوية على خوذته بمسطح سكينه، فخرّ على الأرض دون أي كلمة، ثم وضع جيوفاني السيف على عنق الجندي الذي أهانه.

- قد أكون ذو تفكير بسيط، لكنني تعلمت الدفاع والقتال، إذن دافع عن نفسك.

تراجع جيوفاني بضع خطوات إلى الخلف، وأمسك بسيف الرجل الممدد أرضاً ورماه إلى الرجل الذي عاود النهوض. بدا الجندي غائب الذهن، تردد لبعض الوقت، ثم هجم على جيوفاني.

أصغى بيترو إلى فرقة السلاح، فخرج مسرعاً من المنزل، وأمام هذا المشهد، أمر جيوفاني بالكف عن القتال.

- ليس قبل أن يطلب المعذرة، رد عليه الفتى الذي كان يقاتل بقوة

الأسد.

لم يكن بيترو يفهم ما جرى لكنه كان فخوراً جداً بتلميذه.
فلم يتوان عن تشجيعه:

- هيا يا ولدي، أسرع في خطاك واحترس جيداً.
بسرعة ظهرت على الجندي بوادر التعب.

شعر جيوفاني أن اللحظة المناسبة دنت لالتهاء منه، تجنب هجوماً
أعد بشكل سيء، وقام بوضع ساقه خلف ساق خصمه ودفعه إلى
الخلف وتمدد على الأرض مرة أخرى تحت تحيات العملاق وإعجاباه.
أنتظر اعتذاراتك أيها الفظ السيء الخلق، قال جيوفاني واضعاً
السيف على صدره.

- أنا.. أنا.. أعتذر.

- درس جيد!

اقرب بيترو من تلميذه وربت على كتفه.

- لم يعد لدي الشيء الكثير لأعلمك إياه، تابع العملاق قبل أن يساعد
الجندي على النهوض. اذهب، قال له ذلك بحدة، إعتن برفيقك ودعنا
بسلام، ريثما ينتهي المعلمون من حديثهم.

نفذ الرجل النصيحة بسرعة ولم يكن ينتظر أفضل من ذلك.

- لقد خاطرت بمشاجرتك مع جندي تابع للبابا الكبير، يا ولدي.
لكني لا أقدر أن ألوّمك لأنك أردت الدفاع عن شرفك، لو كنت في
مكانك لفعلت الشيء نفسه.

- ما الذي جاؤوا يفعلونه هنا جنود البابا؟

- الرجل الذي في الداخل ليس جندياً، إنه كاردينالاً.

- نعم، ومعلمنا يبدو عليه أنه يتذكر وجهه، جاء خفية مصحوباً
بهؤلاء الحراس. لا أعرف كيف اقتفى أثرنا وهو يحمل رسالة من البابا.

فتح جيوفاني عينيه محملاً.

- قال: الرسالة ذات أهمية عالية، وسرية للغاية، لأنه طلب مني الخروج من البيت لبقيا منفردين مع المعلم لوسيو. أسأل نفسي ما الذي يمكن أن يتحدثا عنه في الداخل، تابع العملاق بنبرة مغتظة قليلاً. دام الحديث عدة ساعات وكان جيوفاني وييترو ينتظران أمام البيت بعصبية وتوتر متزايدين.

أخيراً، رافق الفيلسوف الكاردينال حتى مدخل البيت وحيّاه باحترام. غادر الجيش الصغير بسرعة مثلما جاء، وبقي الرجال الثلاثة صامتين لبعض الوقت جيوفاني ينظر إلى معلمه: كان يبدو منهكاً. - ما يطلبه مني محال، أخرج... تفوّه العجوز أخيراً، وعيناه تهومان في الفراغ.

- سأل ييترو، ما الموضوع؟ يبدو وكأن الفيلسوف قد استعاد رشده. - لا أقدر التكلم عن ذلك لأي شخص كائن من كان. حتى لكما، يا أصدقائي، إنه أمر عالي الخطورة، من واجبي أن أختلي في غرفتي طوال أيام وأسابيع، تابع العجوز بنبرة تعبة. ومال برأسه نحو جيوفاني.

- كل دروسك معطلة، افعل ما يروق لك، ثم توجه إلى ييترو. - عندما أنتهي من فعل ما علي أن أفعله، سأرسلك إلى روما لنقل رسالة إلى البابا. حتى ذلك الوقت، أتمنى أن لا يزعجني أحد، ستجلب لي وجباتي إلى غرفتي.

استدار العجوز واجتاز عتبة الباب متنهداً بعمق:

- ليساعدني الله! .

مرت الأيام والأسابيع والأشهر، كان الفيلسوف العجوز قد جمع العديد من المؤلفات التي منها كتاب الكندي الشهير في فرغته. يقلب الصفحات طوال النهار وأحياناً الليل ولا يخرج إلا مرتين في اليوم ليقوم بنزهة قصيرة. لقد انقضت حتى الآن أربعة أشهر وهو يقوم بهذا العمل غير المعقول.

في صباح أحد الأيام، خرج من غرفته وناول بيترو مغلفاً كبيراً، وضعت عليه أختام الفيلسوف بعناية.

- إليك هذا، ستحمله إلى البابا من صباح الغد. ستذهب أولاً لمقابلة الكاردينال الذي رأيته هنا، لقد كتبت اسمه على المغلف، سيقودك إلى الحبر الأعظم، وستسلمه الرسالة يدأ بيد. خاصة، يجب أن لا يقع محتوى هذا المغلف في أيدي أخرى أبداً، أتسمعي. إذا ما هوجمت من قبل قطاع الطرق فمزقها فوراً، حافظ عليها من الضياع.

تأثر العملا بالنيرة الجدية لمعلمه، ووافق بحركة من رأسه، دون النطق ولو بكلمة.

- طلب جيوفاني: معلمي، هل بمقدوري أن أعبر عن التماس؟

- هل هذه هي اللحظة المناسبة؟ أنا بحاجة للراحة.

- هذا مهم.

جلس العجوز:

- حسناً إني أصغي لك.

كان جيوفاني متأثراً جداً، منذ عدة أسابيع، اتخذ قراره بالرحيل، ولكن كيف سيذهب ويعلم معلمه المحبوب بذلك.

- لقد مضت حتى الآن ثلاث سنوات وأنا تلميذ لك بسعادة لا توصف. بفضل كرمك، وخلال عدة سنوات، كسبت معرفة غير مؤمّلة. فضلاً عن ذلك: تعلمت كيف أعرف نفسي بنفسني وحب البحث عن الحقيقة، سيكون لدي الكثير لأتعلمه منك وحياتي كاملة لن تكفي لاستقبال معارفك.

أدار رأسه ببطء نحو بيتر:

الشيء نفسه ينطبق عليك يا صديقي، لن أتمكن أبداً من وفاء الذين الكبير الذي عليّ تسديده لك.

ونظر من جديد إلى الرجل العجوز الذي كان يصغي بانتباه إلى تلميذه.

أنا اليوم مزعم على ترككم، هذا القرار يكسر قلبي، لأنني أحبكم أكثر من أهلي الفعليين.

كانت لدى جيوفاني صعوبة كبيرة في التحكم بانفعاله وتأثره، كان صوته ضعيفاً ومرتبجاً.

- لكن قلبي لم يتوقف أبداً عن حب هذه الفتاة التي لحظتها لفترة قصيرة جداً في قرأتي. بسببها، تركت والدي وأخي، وبفضلها، التقيت بكم. لقد آن الأوان بالنسبة إلي أن أذهب إليها.

توقف قليلاً وخفض رأسه لإخفاء دموعه. صمت عميق ران على الغرفة.

- لا أعرف ما يخفيه لي القدر، من الممكن أنني مسافر نحو أمل خائب أشبه بسراب.

لكن لا يمكنني توقع أكثر من ذلك، علي متابعة طريقي. معلمي العزيز، أستاذك بالسفر منذ الغد وأنا أسدي لك بدوري هذه الخدمة بأن أذهب إلى روما وتسليم هذه الرسالة إلى البابا.

- لم يتمكن الرجلان من عدم إبداء حركة عبرت عن دهشتهمما وقلقهما.

تابع جيوفاني: أعرف أن بيترو منهك، ويشكو من روماتيزم خبيث، والطريق إلى روما طويلة وغير آمنة، سأكون سعيداً أن أقوم بهذه التحويلة عن طريقي، وأمر بالمدينة المقدسة وأتوكل على الله قبل متابعة طريقي إلى البندقية.

هز المعلم لوسيوس رأسه، برصانة مليئة بالحزن.

- كنت أعرف أن هذه اللحظة ستأتي عاجلاً أم آجلاً، يا جيوفاني العزيز. وعلي أن أصرح لك أنني كنت آمل أن تأتي هذه اللحظة في أبعد ما أمكن. لقد كنت طيلة السنوات الثلاث التلميذ الأفضل الذي يمكن لأي معلم أن يأمله.

تقطع صوته:

- أنت ما زلت فتياً، طبعك النزق قد يخلق لك مشاكل كثيرة. يقول أرسطو أننا لا نصبح فلاسفة حقيقيين إلا بعد سن الخامسة والأربعين من العمر. لن أجبرك على البقاء عندي حتى ذلك السن المتقدم، لقد اكتسبت بذكاء الكثير من المعارف والآن ستكفل الحياة بإكمال تربيتك وفكرك.

أعرف أنك ستبدو وتظهر كمنجم جدير بمعلمه.

الآن اذهب يا ولدي، خذ دفاترك المتعلقة برزنامة الأحداث وبعض الكتب التي ترغب حملها من بين كتب مكتبي، وإذا كان بيترو موافقاً على ذلك خذ معك الرسالة للحبر الأعظم.

أدار جيوفاني وجهه المليء بالدموع نحو بيترو الذي أذعن وهو يحرك رأسه بحركة عنيفة، ثم ارتدى في أحضان معلمه وترك العنان لدموعه تنهمر.

غادرهما في صباح ذلك اليوم غير متمنين إطالة الوداع الصعب. كان لا يعرف ما إذا كان القدر سيسمح له بالعودة يوماً ما ويرى أصدقاءه الأعزاء، كان يأمل ذلك من أعماق قلبه، أخذ معه دفاتره الثمينة، وثلاثة كتب مكتوبة باليونانية: وليمة أفلاطون، أخلاق نيوماك لأرسطو، والعهد الجديد.

دس الرسالة المخصصة للبابا تحت غمد سيفه، ووضع دفاتره وكتبه في خرجه، وكذلك مطرة وثوباً من الصوف وبعض المؤن. وتأكد من أن لديه في جيبه بعض الدوكات من النقود التي كان معلمه قد أعطاه إياها كمصاريف ضرورية للذهاب إلى روما والبندقية، ثم عانق صديقيه دون النطق بكلمة، وسلك طريق المدينة الخالدة دون الالتفات إلى الوراء.

بدأت الشمس تميل نحو الغروب، غادر جيوفاني الطرق الثانوية وسار بخطى سريعة على طريق فاليريا، ازداد قلقه بعد ثلاث ساعات من المسير، عندما سمع وقع سنابك أحصنة من بعيد، وتعلو كلما اقتربت منه. التفت إلى الخلف فلمح خمسة أحصنة تعدو على الطريق المقفر. عندما أضحى الفرسان على مسافة عشرين متراً منه، رآهم وهم مرتدون معاطف سوداء مخفين وجوههم بأقنعة. شعر بغريزته أن هناك خطراً يهدده.

بقفزة كبيرة ألقى بنفسه في الغابة القصيرة الشجر وجرى مسرعاً نحو الغابة الكبيرة. ترك الفرسان الطريق وانطلقوا يلاحقونه. تمكن من الوصول إلى الأشجار في اللحظة التي وصل فيها الرجل الأول الذي يرتدي السواد على مستواه. توجب على الفارس إبطاء سيره بغية تجنب الأغصان، بينما جيوفاني كان يدخل عميقاً في الغابة القصيرة الشجر، جارياً بلا توقف، تمكن من الحصول على بعض التقدم والتجأ إلى أغصان سنديانة عالية، لاهثاً والخوف يمتلكه، بدأ يراقب وصول الفرسان السود، مصلياً وضارعاً بأن لا يخطر في بالهم فكرة النظر إلى الأعلى. كانوا منتشرين يفتشون الغابة بدقة. بدأ الظلام بالهبوط ففكر جيوفاني أن عليه الاستفادة من الظلام لمغادرة هذا المكان. بينما كان ينزل عن الشجرة، سمع قدوم أحد الفرسان، ومر ببطء من تحته بالضبط. لم يتردد جيوفاني للحظة، وثب على خصمه الذي لم يكن لديه

الوقت ليصرخ وتمزغا في الأرض سوية. وبحيوية ورشاقة السنور، أمسك في عنقه وضغط طويلاً على الشريان الثباتي إلى أن فقد الرجل وعيه، ثم وضعه على حصان، وركب بدوره حصانه وعدا مسرعاً نحو مخرج الغابة.

ما أن أصبح من جديد على الطريق نحو فاليريا، بدأ حصانه يعدو مسافة عدة فراسخ، قبل أن يسلك طريقاً معاكسة. عندما شعر بنفسه أنه في مأمن، أنزل الرجل من على الحصان وأوثق يديه خلف ظهره بشدة ثم نزع عنه قناعه من الجلد وبدأ بإنعاشه بلكمات وصفعات قوية على وجهه. عاد الفارس الأسود إلى رشده، عندما أحس بالوضع، وجد صعوبة في تخيل أن هذا الفتى قد اختطفه وأنه تمكن من الهرب.

- ألسنت أنت تلميذ المنجم؟

- لكن أين تعلمت أن تدافع عن نفسك بهذا الشكل؟

- علي أنا أن أسألك من أنتم، ماذا تريدون؟ لماذا تتكرون هكذا خلف معاطف واسعة وهذه الأقنعة؟

قهقه الرجل بقوة وبقي صامتاً. أمسك جيوفاني سكينه ووضعها على عنق السجين:

- ليس من طبعي الصبر في هذا المساء.

إذا رفضت الإجابة على أسئلتني فإنني لن أتردد عن ذبحك مثل دجاجة عادية.

- أقسمت أن لا أقول شيئاً. إذا ما تكلمت، فإن رفاقي سيقتلونني.

- لماذا تطاردونني؟

- لاستعادة الرسالة التي عليك تسليمها إلى البابا.

إذا الأمر كذلك، فكر جيوفاني.

- لكن من أنتم؟ هذا الإهتمام الكبير بالرسالة؟

- أنت لا تعرف محتوياتها؟

فهم الرجل من ملامح جيوفاني أن المنجم كان قد حافظ على سر فحوى الرسالة، وتابع بكثير من الثقة:

- صدقني، من الأفضل لك أن تتخلص منها.

ما تكشفه هو أكثر رعباً من مذهب يسقط على الأرض، أعطني إياها وعد إلى بيتك وقل لمعلمك أنك أضعتها، أعدك بأنك لن تكون مهتماً بعد الآن.

قهقهه جيوفاني ضاحكاً.

- أنت الموجود في الجانب السيء من السيف وليس أنا. لقد قطعت عهداً لمعلمي بأن أسلم هذه الرسالة إلى البابا وسأفي بعهدي، لا يهمني ما الذي تحتويه.

- إذن فإنك لن تنام أبداً بسلام، حتى لو قتلني، سيطاردك رفاقي في كل مكان. وإذا ما توصلت إلى الإفلات، فإن آخرين سيأتون ويلاحقونك حتى يحصلوا على الرسالة. ليس لديك أية فرصة بالوصول حياً إلى البابا.

أدرك جيوفاني أن الرجل ينطق الصواب. علم أيضاً أنه وحتى تحت تهديد سكينه، فإنه سيرفض التصريح بأي شيء. فكر ثم اتخذ قراراً حكيماً، بما أن هؤلاء المطاردين المجهولين سيقون في أثره، فعليه العدول عن الذهاب إلى روما من طريق فاليريا، فسلك الطرق المحايدة أشد خطراً بسبب قطاع الطرق، والأكثر سهولة هو الجري على طريق فاليري بالاتجاه المعاكس للمدينة الخالدة (روما) حيث لن يلاحقني أي عائق. من هناك، التحق بمرفأ بيسكارا وأبحر على سفينة وفي أقل من أسبوع سأكون في روما من طريق البحر.

اتخذ قراره، فقام بربط الرجل إلى شجرة بصورة متينة، وهرب على الحصان باتجاه البحر الأدرياتيكي.

قطع جزءاً كبيراً من الليل، لكنه توقف بعد ذلك ليريح جواده. عند الفجر، استأنف طريقه.

لدى حلول الظلام لمح البحر أخيراً، وعند وصوله المرفأ ربط حصانه أمام الفندق، ودخله، وبعد تناول شيئاً من الطعام (كسرة خبز) استعلم عن السفن المتوجهة إلى روما.

بينما كان يناقش صاحب الفندق، انفتح الباب بعنف وبقوة، ظهر ثلاثة رجال متشجين السواد في النافذة.

هرع جيوفاني إلى مؤخرة الحانة وتعدى النافذة، وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل آخر ملثم كان يحرس خلفية الفندق (النزل). جرّد جيوفاني سيفه وتلاطمت النصول. سيطر فوراً على خصمه الذي جرحه في فخذه. وفرّ في ظلام الليل بينما الآخرون انطلقوا سيراً على الأقدام أو ممتطين جيادهم للبحث عنه. تساءل: «كم عددهم إذن؟ وكيف تصرفوا ليجدّوا في أثري بهذه السرعة؟». بينما كان يجري باتجاه البواخر العديدة الراسية على طول الأرصفة، كانت أصوات سنابك الخيل وأصوات أخرى تأتي من كل حذب وصوب، مدركاً أنه مطوّق، صعد جيوفاني إلى داخل مركب صغير. وتحقق من وجود حارسين نائمين نوماً عميقاً وهبط إلى قعر السفينة، واختبأ خلف صناديق البضاعة.

عند منتصف الليل سمع ضجّة على ظهر السفينة، أمسك أنفاسه، غير أنه فهم في الحال أن الأمر يتعلق ببحارة عادوا بعد ليلة مجنون ثملين، عاد السكون من جديد لبضع ساعات.

ما أن أشرقت الشمس حتى عادت الحركة لتدب من جديد وأبحر المركب.

قرر جيوفاني بأن لا يغادر مخبأه ما دام لم يصل إلى مرفأ آخر. لم يكن معتاداً أبداً على تمايل المركب في عرض البحر، ظل مريضاً طوال النهار، وخاصة كلما زادت الرياح القوية من ارتجاج السفينة مثل قشرة ثمرة الجوز. بعد نهار كامل، ليلة ونهاراً آخر من الإبحار، رسا المركب في مرفأ.

لم يكن لدى جيوفاني أية فكرة عن مكان وجوده، لكن مهما يكن، فقد اقتنع أنه أفلت نهائياً من ملاحقيه. ويأمل في كل الأحوال أن تكون السفينة سلكت طريق الجنوب.

عند حلول الليل، والتأكد من مغادرة معظم الطاقم المركب، خرج من مخبئه ونزل على الأرض القاسية بابتهاج. لمح بواخر ضخمة والكثير من الأنوار المجاورة للمرفأ الذي تملأه حركة كبيرة بالرغم من الساعة المتأخرة، قال في نفسه: لقد رسينا في مدينة كبيرة، قد تكون باري فيما لو كنا سلكنا طريق الجنوب؟ أو على الأصح هل تكون فيما لو سلكنا لسوء الحظ طريق الشمال.

اقترب من بحار مشغول بفك عُقد حبل من القنب.

- نحن في أي مدينة يا صديقي؟

تفرّسه الرجل كما لو حدث له ظهور لمريم العذراء.

- ماذا؟

- أسألك أن تقول لي اسم هذه المدينة.

جال البحار بعينه المستديرتين ورفع رأس نحو السماء:

- هذه فينيسيا! هذه مدينة البندقية.

III

جوبیتر

- هل لسيدي المنجم أن يكبذ نفسه عناء الدخول.
أمال جيوفاني نظره نحو الخادم، فنهض بهدوء ودخل مكتب عمل
سيد المنزل.

- هتف الرجل البدين بصوت مرتفع: آه! يا لسعادتي أن ألتقي بعد
جهد، بسيدي العزيز داسكولا.

ردّ جيوفاني بابتسامة عريضة واستقر على مقعد أشار إليه مضيفه.
أخذ الرجل مكانه على مقعد مريح أكثر اتساعاً، من الجهة الثانية
للمدفاة المصنوعة من الرخام، وتابع بالنبرة البشوشة ذاتها:

- لديّ نيّة أن أشيد بمهارتك في كل الجهات، لا يتداول في القصور
إلا عن التنجيم اللافت للنظر الذي قمت به للقاضي زورزي حول عدم
احتمال تسميته في مجلس العشرة. وأمس أيضاً قال لي صديقي كوريني:
كم كانت رؤيتك صائبة فيما يخص وضعه المالي الحرج.

مع ذلك لم أتوانَ عن تكرار أنه يجب أخذ الرأي بكثير من الحذر
والتبصر، لأن الظروف والأوضاع الكوكبية تتعلق بتفسير بشري غير
معصوم عن الخطأ.

- دع التواضع، يا عزيزي، ليست شهرتك موضع جدل، ففي
غضون عدة أشهر أسرت قلوب أهل البندقية، حتى قاضي القضاة
استقبلك في جلسة خاصة.

خفض جيوفاني رأسه.

- لا أقدر، يا سيدي على الإجابة عن هذه المسألة.

- كتمانك يشرفك.

غبن الرجل عينيه وضم يديه بأطراف أصابعه.

- لكن، قل لي، في أي وقت بالضبط وصلت البندقية؟

- منذ ستة أشهر خلت، سيدي.

- شيء رائع! شهرة من هذا المستوى في زمن قصير جداً! إذا كنت لا

أبالغ، أنت تلميذ الفلورنسي الشهير لوسيوس كونستانتيني، وقد استقبلك هنا الفيلسوف نيكولا سيلستيني.

- أنت تستعلم بشكل جيد، عندما عرف معلمي أنني متجه إلى

البندقية، أعطاني اسم صديقه، الذي استقبلني بكل لطف ومحبة.

- لكن... قل لي، لأي سبب أنت تودّ التوجه إلى البندقية؟ هل من

أجل إتمام دراستك بدل أن تذهب إلى فلورنسا أو روما؟.. من أجل

الفتيات أو من أجل المال؟

- انفجر الرجل ضاحكاً، أبدى جيوفاني ابتسامة صغيرة وأجاب

بطريقة ساخرة:

- للإثنين، طبعاً.

- آه! كم أنت محق! هل تعلم أنه منذ بعض الوقت انتهى إجراء إحصاء

أكثر من مئة وعشرين ألف نسمة في مدينتنا، أن عدد المومسات بلغ أكثر

من عشرة آلاف! وإذا أجريت حساباً تجد عاهرة واحدة لكل ستة

رجال في المتوسط، فهن يتكفلن بسرعة في سلبك كل أرباحك! آه! من

الثلثيمات! ليتك تعرف كم سرقت مني.

- «سرقت» كلمة كبيرة جداً. لا بد أنك كنت موافقاً نوعاً ما.

- للأسف! الرجل كائن غير منطقي، يُكرّس الأيام ليكسب عدة عشرات من الدوكات.. يفقدها بسرعة خلال بضع دقائق في أحضان امرأة مجهولة.
- الحق يقال، سيدي، سأدهشك إذا صرّحت لك أنه لم يسبق لي أن تذوقت سحر النساء اللواتي تتكلم عنهنّ.

ذهل الرجل مما سمع، ثم أغمض عينيه.

- آه... لم أكن أعرف أنك كنت تفضّل الغلمان.

- كلا أبداً، سيدي. يحدث فقط أن قلبي شغوف وكلف.

نهض الرجل وضرب فخذه براحة يده.

- لكن ليس لهذا أي علاقة بذاك، يا ولدي! كيف يمكن لحب امرأة أن ينهي لذة التمتع بكل الأخريات؟

ابتسم جيوفاني دون الإجابة، حيث لم يكن لديه الرغبة بإطالة هذا الحديث وشعر بالأسف للدخول فيه.

- آه، تبدو لي جاداً في كلامك، يا صديقي الشاب، تابع المضيف وهو يميل نحوه. وهل يمكننا معرفة اسم الأميرة التي اختطفت قلبك؟

- اسمح لي أن أحافظ على سرّي، سيدي، أجب جيوفاني وهو يحدق بمحادثته. لكن أعتقد أنك كنت قد طلبت مجيبي بسبب شأن أو مسألة تجارية.

تعديل الرجل واتخذ شكلاً جدياً.

- نعم، أنت محق، لننتقل من القول إلى الفعل، اسمع، أنني أعمل في تجارة التوابل، وأحد أهم تجار المدينة، وأن بحارنا في حالة متزايدة من انعدام الأمان في هذه السنوات الأخيرة، أتردد حالياً في السماح لسفني الشراعية بالإبحار. قيل لي أنك تقدر، من طريق استشارة الكواكب، أن تقدم لي النصائح الثمينة حول اللحظة المناسبة للبدء بهذا المشروع... هل هذا صحيح؟

- بالفعل، عندما أضع طالعك الفلكي وأنظر إلى مواقع الكواكب في الأشهر القادمة سأكون قادراً على تقديم النصح لك في نهاية المطاف. لكن مرة أخرى، رأيي ليس غير قابل للخطأ، أحسب ذلك للعلم، ضمن عوامل أخرى.

- أن ترسم طالعي الفلكي، ليكن. ومن ناحية أخرى قمت به بدافع الفضولية فقط، لكن كيف يمكنك معرفة مواقع الكواكب بالنسبة للأشهر الآتية؟

- بالطريقة نفسها التي تسمح بمعرفة مواقعها في الماضي.

تتبع الكواكب في القبة السماوية مساراً معروفاً تماماً منذ قدم الزمن، وبلاستعانة ببعض الحسابات الفلكية، يمكن معرفة ماذا سيكون عليه الموقع اليومي على مدى عدة سنوات، وحتى عدة قرون لو كان لدينا متسع من الوقت لإجراء هذه الحسابات.

وهل درست علم الفلك؟ سأل التاجر المتأثر جداً بالعلم الواسع لدى محادثه.

- كلاً، لدي لوحات وجداول فلكية تسمى (جداول التسلسل الزمني للأحداث)، بالنسبة للعشريات الماضية. انفقت مدخولاتي الأولى لاقتناء التقاويم الفلكية المتعلقة بالسنوات الثلاث القادمة، هكذا يمكنني محاولة القيام ببعض التنبؤات التي تخص المستقبل، بمقارنة مرور الكواكب على النقط الأساسية للطالع الفلكي المتعلق بتاريخ الولادة لشخص ما.

بقي التاجر منفعلاً.

- إليك الكتب المعنية بهذا الأمر، رد جيوفاني مخرجاً من كيسه الكبير دفاتره ووزناته الجديدة المطبوعة، أنا بحاجة فقط للمكان، السنة، الشهر، اليوم وإذا كان ممكناً الساعة المتعلقة بميلادك، قصد وضع

طالعك الفلكي ومقارنته مع المسار الحالي للكواكب حسب مشروعك.

أسرع التاجر في تقديم كل المعلومات الضرورية لجيوفاني، في أقل من عشرين دقيقة، ووضِع هذا الأخير معلومات مضيفه. بالمقابل كان بحاجة إلى أكثر من ساعة لدراسة موقع مختلف الكواكب في الأشهر القادمة واستخراج النتيجة. لذلك نصح التاجر بالانتظار أيضاً لمدة شهرين قبل أن يسمح لباخره بالسفر.

كان التاجر راضٍ جداً. سدد له ثمن استشارته: أربعون دوكاً، ذلك كان مبلغاً ضخماً لعمل سريع بهذا الشكل، بعد ذلك، حياً ضيفه ونزل مسرعاً إلى الطابق الأرضي من القصر حيث كان الغندول ينتظره.

كانت هذه الاستشارات تضجره جداً، لكنها تسمح له بكسب معيشته بشكل جيد، أما، في البندقية، فكل شيء باهظ الثمن: الملابس، الشقق السكنية، خدمة الزورق. وهكذا أصبح خلال عدة أشهر شخصية مرموقة، مما ترتب عليه الحفاظ على موقعه الاجتماعي وإنفاق الأموال الطائلة ليحصل على المظاهر الخارجية للجمال والغنى اللذين بدونهم لا يمكن لأحد الاتصال مع الطبقات الرفيعة.

طلب من سائق المركب أن يأخذه إلى قصر بريولي، في حي كاستللو. ترك المركب نهر سان موريزيو وانعطف إلى اليسار في القناة الكبيرة وسار بمحاذاة القصر الفخم الذي أنهى بناءه قاضي القضاة العجوز أندريا غريتي. خلافاً للشائعات، لم يلتق جيوفاني بدوق البندقية على انفراد، لكنه تقدم إليه، قبل ذلك بثلاثة أسابيع حيث أظهر قاضي القضاة اهتماماً خاصاً بهذا الشاب الماهر والطموح. عرض عليه المحيء لرؤيته في القصر الدوقية للتكلم والتحدث عن العلم والكواكب، التي يؤمن بها إلى حد ما، وفي كل الأحوال دون أن يرسل له دعوة رسمية. كان جيوفاني ينتظر الأذن بفارغ الصبر، إشارة من أعلى شخصية كبيرة

في المدينة لا من أجل طموحه الاجتماعي، بل من أجل طموحه الحميم: التقرب من إيلينا.

بعد عدة أيام فقط من وصوله المفاجئ إلى البندقية، عثر جيوفاني، دون صعوبة، على آثار ابنة قاضي القضاة، بالواقع، كانت كل البندقية تتسلي بأحداث الحياة العاطفية المتغيرة لآندريا غريتي الذي كان لديه أولاداً من زوجته الشرعية، ومن راهبة حبيسة الدير، ومن خليلات تركيات عرفهن أثناء إقامته في القسطنطينية. كانت إيلينا الابنة الثانية لفيينا وهي بدورها الحفيدة الشرعية لقاضي القضاة. كانت فيينا قد تزوجت باولو كونتاريني، المنحدر من واحدة من أقدم وأرفع وأشهر عائلات الأشراف الرومانيين. إيلينا كونتاريني ذلك اسمها، كانت تسكن في قصر واقع على القناة الكبيرة.

علم جيوفاني عاجلاً بخبرين آخرين جديدين رئيسيين، الأول جيد والآخر سيء، الأول أن إيلينا، بالرغم من أنها كانت واحدة من أجمل فروع الأرسطوقراطية في البندقية، لم تكن بعد قد تزوجت، وكاد جيوفاني يفقد وعيه فرحاً عندما علم بذلك.

لكن سعادته كانت قد أفسدت بسبب خبر آخر: وهو أن إيلينا غادرت البندقية منذ عدة أشهر للالتحاق بوالدها، حاكم جزيرة قبرص البعيدة.

والواقع أن الفتاة كانت توزع حياتها بين البندقية، حيث تقيم أمها التي تشكو من متاعب صحية، ونيقوسيا العاصمة القبرصية البعيدة، ثم علم، بتأثر وتوتر مؤلمين أن إيلينا ستعود إلى البندقية خلال الصيف، وعلى أبعد حد في الخريف. قرّر إذن انتظار عودتها والتمتع بالربيع بغية الدخول والتعرف على مجتمع البندقية الراقي بفضل ممارسته التنجيم:

كان نجاح عمله قد تجاوز كل التوقعات الأكثر تفاؤلاً. منذ اليوم استضافته الأول عائلة فيلسوف عجوز صديق لمعلمه، وقد تمكن في

البدء من ممارسة فنه بسرعة لدى أثرياء البندقية، الذين سارعوا في نشر إشاعة أن شاباً ماهراً جَميلاً تلميذاً للمنجم الإيطالي الشهير، جاء للاستقرار في البندقية. لم يخف جيوفاني أصوله الكالابرية غير أنه بدل اسمه، الذي ينم عن أصله القروي والذي يمكن أن يتعرف عليه من قبل أي واحد من أهل البندقية من الذين حاكموا الشاب في قريته مسقط رأسه، كان يؤكد أنه جاء من مدينة كاتانزارو في كالبريا، الوحيد الذي كان يعرفها وسمى نفسه جيوفاني دوسكولا. كانوا يتخاطفونه: الأرملة لمعرفة ما إذا كانت ستتزوج من جديد. والتاجر للاطمئنان على تجارتها، والوجيه النبيل لمعرفة تطور وضعه. تحقق جيوفاني بسرعة أن الذي سحره في التنجيم - معرفة الذات والخطوط الكبرى للقدر - كانت تهمه أقل بكثير من مسائل المال، السلطة والحب. في الوهلة الأولى، كان يفتأ من ذلك، من ثم مال نحوه وانحنى أمام المتطلبات المحسوسة الملموسة لربائته، المال والعلاقات التي كانت تولدها لتسمح له بلوغ هدفه الوحيد بثبات وثقة ألا وهو ملاقة إيلينا.

بعد أن انعطف يساراً في القناة الكبرى ومن ثم أبحر في محاذة ساحة القديس مرقص والقصر الدوقي، غيّر الزورق اتجاهه في قناة عريضة واقعة خلف حرم القديس زكريا، ثم من جديد إلى اليسار في قناة صغيرة تقود إلى قصر بريولي الرائع. كان جيوفاني يحب بشكل خاص هذا البناء المحاط بالقنوات، الذي تعود ملكيته إلى واحدة من أكبر عائلات البندقية. بما أن مالكة كان مفلساً، هنا يمكن أن يكون أحدهم قادراً، فقيراً، أو غنياً، ودون وزن سياسي، اضطر لاستئجار شقة صغيرة مؤلفة من صالون، وغرفة حمام وغرفة لبعض المسافرين الميسورين، وهكذا قرر جيوفاني بعد أن بدأ يكسب جيداً السكن في هذا القصر الضخم. كان بمقدوره استقبال بعض الأشخاص في صالونه الخاص خاصة النساء، اللواتي كن يطمنين أن لا يستشرن في بيوتهن حرصاً على

الأسرار، عندما لا يكون مدعواً لتناول الغداء أو العشاء، كان يتقاسم وجباته مع عائلة بريولي التي يقدر ويثمن حسن ضيافتها والمستوى الفكري الرفيع لها. هنا في هذا المكان تمكن من جمع أكثر المعلومات التي تعني إيلينا، لأن عائلة بريولي المقربة من كونتاريني، كانت تعرف جيداً حفيده قاضي القضاة.

توقف المركب أمام المدخل الرئيسي للقصر، دس جيوفاني قطعة من النقود في يد صاحب الزورق ثم تسلق الدرج الرئيسي حتى الطابق الثالث، ودخل شقته.

نزع مشلحه الأسود وحذاءه، شرع ترتيب جداول رزنامة الأحداث في خزانة الصالون، الموصدة بالفتاح والتي تحتوي على أئمن أمتعته.

مرر يده في مؤخرة الخزانة وأمسك المغلف المخبأ خلف بعض كتب الفلسفة. عندما نظر إلى الرسالة التي عهد لها معلمه الموجهة إلى البابا أحس المنجم بانقباض في قلبه. حتى الآن مضى فصلان على مغادرته منطقة الآبروز قاصداً روما، والظروف الدرامية التي كانت تمنعته من الوفاء بوعدده.

في البداية، كان متأكداً أن القدر قرر أن تجري الأمور على هذا النحو، طبعاً، بالنسبة إليه، أن يتجنب مقابلة أحداً من أولئك الفرسان السود الذين يسعون للاستيلاء على الرسالة الثمينة وقد يكون أيضاً، السماح له بمقابلة إيلينا دون انتظار. وعندما علم أن إيلينا لن تعود قبل عدة أشهر، فقد وضع مشروعاً للاستفادة من هذه الفترة للذهاب إلى روما، لكن الأحداث تابعت من جديد، بطريقة ميكانيكية تقريباً دون التمكن من أن يكون سيّد حياته وإرادته. لدى وصوله، بدت نجاحات استشاراته الأولى عظيمة لدرجة أن نظمت له لقاءات تقريباً يومية مع أكبر عائلات البندقية. ويوماً بعد يوم، كانت تزداد معرفة الناس به

وتزداد ثروته. أما استئناف السفر إلى روما، والتعرض إلى أخطار الرحلة، فسوف تؤخر هذا الصعود الاجتماعي وتبعده إلى الأبد عن امرأة قلبه. إذا كانت العناية الإلهية وضعت في ظروف رائعة ممتازة لكي يعثر عليها، فهل سيكون بمقدوره القيام بهذه المخاطرة الحمقاء بمغادرة البندقية؟ مع مرور الأسابيع، صمم على انتظار عودة إيلينا قبل أن يقوم بتنفيذ المهمة التي عهد له بها معلمه. من وقت لآخر، كان يطمئن نفسه متذكراً أن هذا الأخير لم يحدّد له أي صفة مسرعة، حتى أنه أوصاه بإتلاف الرسالة في حال الخطر. هذا معناه أن أمن هذه الرسالة أهم من سرعة وصولها.

بالرغم من هذه الحجج، التي يرويها لنفسه دون إدراك صوابها وصحتها، كان جيوفاني ذا ضمير سيء. في كل مرة يفتح فيها الخزانة، لم يكن قادراً على منع نفسه من التحقق من أن الرسالة دائماً في مكانها. وكل مرة، ينظر إليها، كان يناديه الصوت الداخلي نفسه ويقول له: عليك أن تفي بوعدك كأولوية مطلقة قبل أي شيء آخر.

أغلق جيوفاني الخزانة الجدارية، وأعاد المفتاح الصغير إلى عنقه وبدل ثيابه لكي يذهب لتناول العشاء عند مضيفيه. كانت غرفة الطعام واقعة في الطابق الأسفل، ست نوافذ مفتوحة على قناة صغيرة تضيء على هذه الغرفة ذات السقف العالي، ميزة رسمية.

جلس إلى جانب سيدة المنزل، حيا مدعواً مجهولاً، رجلاً في الثلاثين من عمره ذو لحية سوداء مشدبة قصيرة، كان جالساً على الطاولة قريباً من سيد المنزل، ردّ الأخير التحية بلطف إلى جيوفاني:

- أوغستينو غابريللي، سعيد بمعرفتك.

- جيوفاني داسكولا، وأنا كذلك.

لم أعد إلى البندقية إلا منذ ثلاثة أيام، لكن سبق أن سمعتهم يتكلمون عنك لمرتين، وأنني بفرح كبير وفضول قبلت دعوة مضيفينا الذين قدّموا لي فرصة لقائك.

كان الشاب يحاول دائماً المحافظة على هدوئه بعد كل هذه الإطراءات، كان يعرف أن أي عثرة، تنبئ عن أول فشل، وهذه المدائح ستحول إلى تهكمات. كذلك كان يحاول بأن لا يعطي الكثير من الأهمية على ما يقال عنه أو يفكرون به. الشيء الوحيد الذي يحسب، هو أن إيلينا كانت ترغب بلقائه عندما ستعود. ذلك هو السبب الوحيد الذي كان يشجعه على الاهتمام بسمعته وشهرته الصعبة.

- لا أعرف، سيدي ماذا قالوا لك عني، لكنني آمل أن لا أخيب توقعك.

- كل شيء جيد، لكن نادني أوغستينو لست أكبر منك سنًا بكثير.

- حسناً، بما أن التعارف قد تم، لنتناول هذه الوجبة من سمك الآنشوا المدخن، أضافت صاحبة المنزل. موجهة الكلام إلى جيوفاني.

- هل تعرف أن صديقنا أوغستينو المهتم بالفن قد حصل على دروس واسعة في اللاهوت؟

- بضع سنوات في روما، لأنني أفكر بتكريس نفسي للحياة الكهنوتية، لكن فتاة جميلة سمراء، حبتها الطبيعة كل شيء، حادثني عن هدفي قبل رسمي كاهناً بقليل، وغبرت وجهتي نحو تجارة الفن!

- أنت مدهش حقاً، هتف سيد المنزل، النساء الأكثر إثارة لم يتمكنّ أبداً من حرق معظم كهنتنا وأساقفتنا عن النداء الداخلي، فأنا لا أتكلم عن البابا بول الثالث الذي رُسم كاردينالاً في سن العشرين لأنه وضع أخته الجميلة، جوليا في سرير البابا الكسندر السادس بورجيا وأن اللباس القرمزي لم يمنعه من أن يرزق بأربعة أطفال، والعديد من المحظيات، وهذا بالضبط ما كنت أرفض قوله.

ألا تؤمن أن كنيسةنا بحاجة إلى إصلاح عميق لعادات وآداب رجال الدين، إذا كانت لا تريد أن تكون مفرغة تماماً من قبل المصلحين المحددين؟

- أوافقك على ذلك، تابع بريولي بجدية أكبر. ليس لدي الكثير من التعاطف مع لوثر، ذي الشخصية الفظة والمتكبرة، غير أنني أعطيه الحق حول هذه النقطة وبعض النقاط الأخرى.

- يبدو أن مدينتكم مصممة على البقاء حيادية في هذا النزاع، لاحظ جيوفاني. وإذا لم يكن للإصلاح هنا معبداً أو راهباً إلا أنني

استطعت أن أتحقق من أنكم لا تدينوا المدافعين عن العقيدة الجديدة.
- هذا صحيح، تابع سيد المنزل، نحن نؤيد البابا، لكننا لا نرغب مطلقاً في تسليمه الهراطقة.

ابتسم جيوفاني وقال:

- هذا يؤكد جيداً اهتمامكم الدائم بالاستقلال، يبدو لي ذلك!

أعجب اوغستينو بملاحظة جيوفاني.

- كما يقول المثل الشعبي «أهل البندقية أولاً، والمسيحيون فيما بعد».

أرى أن صديقنا قد فهم جيداً معنى سياسة المدينة الفخورة.

تابع وهو يداعب لحيته:

- هل يمكنك الاستفادة من معارفك الفلكية - التنجيمية لأطرح عليك

سؤالاً تهز أهميته كل المسيحية؟

- تفضل.

- هل لوثر هو المسيح الكذاب؟

منذ لحظة وصوله إلى البندقية، سمع جيوفاني مراراً هذا التأكيد العجيب من فم المتحمسين من أنصار البابا. كان معلمه قد أثار مسألة المسيح الدجال خلال تدريسه عن رؤيا القديس يوحنا. في هذا النص التنبؤي، الذي يختم الكتب المقدسة المسيحية، لم يرد أبداً ذكر المسيح الدجال بشكل واضح، لكن «حيوانات» في خدمة الشيطان الذين يغفون المؤمنين ويحيدونهم عن الإيمان الحقيقي. بالضبط في هاتين الرسالتين يتكلم يوحنا عن مجيء المسيح الدجال في نهاية الأزمنة وأن كل الذين يدعون أنهم المسيح الدجال، هؤلاء المضللون وهؤلاء الدجالون الذين خرجوا من بيننا، لكنهم لم ليسوا من أتباعنا.

كان المعلم لوسيو قد شرح لجيوفاني أنه منذ زمن الرسل، وكل جيل من المسيحيين ينتظر ويعتقد بدنو نهاية الزمن، الاضطهادات

العديدة التي تعرض لها تلامذة يسوع والاضطرابات التي حصلت في الإمبراطورية الرومانية تبدو أنها تؤكد الكتب المقدسة التي كانت تعلن عن النهاية القريبة للعالم، مسبقة بويلات من كل الأنواع. لكن بعد انقلاب الإمبراطور إلى المسيحية، في أواسط القرن الرابع، تغير الضمير المسيحي من الأعماق.

كان أوغستين أفضل المعبرين عن هذه الحالة الفكرية الجديدة إذ أعلن أن نهاية العالم لم تكن وشيكة بالقدر الذي أعلن عنه الرسل في الزمن البابوي للمؤسسين المتتابعين لزمن الكنيسة، الذي خلاله يجب أن يعلن الخبر المفرح عن المسيح إلى جميع الأمم. عندها فقط ستأتي نهاية الأزمنة وسيظهر ملكوت الله.

طوال ما يقرب من ألف سنة أوقفت الحياة في هذا التوتر الأخروي (المتعلق بالأخرويات: مشتقة من آخر) الناتج عن الانتظار الوشيك لنهاية العالم. شكل القرن الرابع عشر منعطفاً هاماً. المجاعات، حرب المئة عام، الطاعون الذي قضى على أكثر من ثلث سكان أوروبا، القدر نفسه من الكوارث الذي لم يجعلنا نتوانى عن تفسير ذلك بمثابة المحن الكبيرة الواجب أن تسبق نهاية العالم. لكن العلامة النهائية، البرهان على أن التاريخ البشري قد وصل إلى نهايته، كانت اكتشاف العالم الجديد من قبل كريستوف كولومبوس: هكذا فإن الإنجيل سيكون معلناً لكل الخليقة أن الدينونة الأخيرة يمكن أن تحدث حسب تنبؤات المسيح نفسه. كان المعلم لوسيوس يتذكر الصدمة التي هزّت المسيحية لدى إعلان الاكتشاف الذي قام به الملاح البرتغالي. لكن إذا كانت نهاية العالم وشيكة، عندها يجب أن تظهر إشارة أو علامة أخرى. ظهور المسيح الدجال.

خادم الشيطان هذا، النبي الكاذب، يجب أن يقود العديد من المؤمنين من طريق محاكاة المسيح الحقيقي أو أن يجعل نفسه مرسلًا من

قبله. كان المعلم لوسيوس يتساءل أيضاً عن مجيء المسيح الدجال، المزامن لاكتشاف العالم الجديد، لكنه لم يماثل هذه الشخصية في لوثر، أو بأي شخص آخر.

جمع جيوفاني ذكرياته وانتهى إلى الاعتراف:

- أجهل ما إذا كان لوثر هو المسيح الدجال الذي يحكى عنه في الكتب المقدسة، أو حتى أي آخر خادم للشيطان، لكن يبدو لي أن هذا يناسب جيداً دعاية البابويين لكي يكون صحيحاً. فهقه أوغستينو بضحكة راعده.

- طبعاً! المسألة من جهة أخرى هي معرفة ما إذا كان المسيح الدجال شخصية واحدة وفريدة، كما يظن ذلك معظم الكاثوليك، أو أن الأمر يتعلق بطبقة أو مؤسسة كما يؤكد ذلك المصلحون. ما رأيك في هذا؟ فهم جيوفاني إلى أين يريد محادثه أن يقوده.

- أنت تتكلم عن البابوية أليس كذلك؟

- سأكون بالواقع فضولياً في معرفة رأيك حول اتهامات لوثر وتلامذته ضد روما الكاثوليكية. والمقر البابوي أليس هو مقر المسيح الدجال؟ يدعي البابوات بأنهم يمثلون المسيح على الأرض، في حين أنهم ليسوا حسب المصلحين، سوى الهيئة المناقضة والشيطانية. كان المسيح عفيفاً طاهراً، البابوات هم شهوانيون مغتلمون. كان المسيح فقيراً والبابوات أغنياء أثرياء، المسيح يرفض أي سلطة زمنية أرضية في حين يلهث البابوات خلف الحكم والتشريعات. المسيح طلب بأن لا ننادي أحداً على الأرض باسم «أب» أو «قديس» لأنه يؤكد: «أن ليس لديكم سوى أب واحد وإله واحد وقديس»، بيد أن البابوات يريدون أن يطلق عليهم «الأب الفائق القداسة»، باختصار بالنسبة إلى الراهب الألماني السابق، فإن البابوية ليست سوى مكان للمسيح الدجال،

واستمراراً لبابل ولروما الوثنية، التي انتحلت لنفسها صفة رأس وقلب المسيحية.

- ليس أكثر من أنني لا أتبع البابويين الذين يتهمون لوثر بالرسول الكاذب الآتي من داخل الكنيسة لإغواء العديد من المؤمنين بأكاذيبه، كذلك بالمقدار نفسه لا أؤيد الطروحات التي تشبه الكرسي الرسولي بعرش الحيوان في رؤيا القديس يوحنا أو بالمسيح الدجال. يبدو لي كل هذا أنه نوع من الجدل أو الحرب الكلامية المبسطة.

قاطع بريولي العجوز جيوفاني:

لا يبدو مطلقاً أنك تؤمن بوشوك اقتراب نهاية الأزمنة يا صديقي الشاب، أليست الدلائل كافية من حيث عددها لكي تقنعك؟ وماذا تقول عن ذلك الكواكب؟

- صراحة، ليس لدي أي فكرة معينة فيما يخص الكواكب حول هذا الموضوع، لم يخطر ببالي أبداً استشارتها حول هذه المسألة.

في الوقت ذاته الذي كان يتكلم فيه جيوفاني، عبرت فكرة مفاجئة مخيلته. تذكر أنه بعد زيارة القاصد الرسولي، كان معلمه قد عمل طوال عدة أشهر في حسابات فلكية علمية. تساءل فجأة فيما إذا كان ذلك موضوع أبحاثه الدؤوبة التي تقارب الجنون: حول تاريخ (موعد) نهاية العالم. هذا لن يكون عبثياً نظراً لأن الكاثوليك والبروتستانت لا يفكرون إلا بهذا وخاصة أن المعلم لوسيوس الحائز على شهرة أفضل منجمي عصره. لكن هل من الممكن التنبؤ عن حدث من هذا النوع انطلاقاً من بعض الظروف والمواقع الكوكبية الاستثنائية؟

من الغريب أن منجماً يحمل مهارتك لا يبدو أنه مهتم بهذه المسائل الأخاذة المثيرة للاهتمام، أضاف مضيفه المغتاض قليلاً.

اعترف جيوفاني بتواضع، الحقيقة، أنا مازلت شاباً وتابعت كل

تكويني لدى معلم واحد، بعيداً عن حركية المدن، مهما كان المعلم كبيراً، فلم يكن لديه الوقت، في أقل من أربع سنوات بأن ينقل لي كل معارفه. منذ أن وصلت إلى هنا، اكتشفت العديد من المواضيع التي تشغل الأفكار المنفتحة، والتي كوّنت حولها، للأسف، فكرة ضعيفة نوعاً ما.

- قال جيوفاني أريد أن أسألك حول نقطة أخرى جذابة مثل السابقة، من الممكن أن لا تكون أبداً في الواقع على هذا الجدل الآخر الذي يهز المسيحية.

- أصغي إليك:

- إذا لم يكن لوثر هو المسيح الدجال، فهل هو النبي الذي أعلن عنه المنجم العربي الكبير ألبومزار منذ قرون عديدة؟

لم يكن اسم هذا النجم غريباً على جيوفاني.

كان يعرف أن المسيحيين قد ورثوا المعارف التنجيمية عن القدماء من طريق المفكرين العرب، الذين أغنوها بدورهم. يبدو لي أن أبو معشر الفلكي كان واحداً منهم؛ غير أنه لم يسبق له أن سمع أو قرأ تنبؤاً يخص لوثر وهذا يبدو له غير متوقع.

- علي أيضاً أن أقر بجهلي هذا الموضوع. أجاب جيوفاني مرتباً تابع أوغستينو:

- واسم ليشتنرغر ألا يستحضر أي شيء في ذهنك أيضاً؟

- حرك جيوفاني رأسه، وفتح كل المدعويين أعينهم المتسائلة.

- لكن لا أطلب إلا تسليط الضوء على هذه المسألة. تابع النجم مظهراً ابتسامة مسلية ومنفتحة.

- سأكون مسروراً، إذا كان ضيفنا يسمح بذلك، فأنا متحمس لهذا الموضوع، تابع أوغستينو ملتفتاً نحو بريولي.

- إفعل إذن! أجاب النبيل البندقي دون تردد، لكن قبل كل شيء فلتستبدل الأطباق حتى لا تقاطع في الكلام.

أطاعت الخادمة، تلمس أوغستينو لحيته وبدأ روايته بصوت رزين:

بدأ كل شيء في عام 1484 مع نشر تنبؤات بول دو ميدليبورغ،

أسقف أوربينو. في هذا النص أخرج رجال الدين من الماضي نبوءة تنجيمية قديمة كانت قد تمت في القرن التاسع من قبل المنجم العربي الكبير أبو معشر الفلكي. قدّر هذا المنجم وعلى مدى العديد من القرون حدوث إلتقاء بين كوكب جوبيتر وزحل الذي يحدث كل عشرين سنة، على ما أعتقد؟

- أكد جيوفاني بالفعل أن هذا صحيح.

قدر أبو معشر الفلكي حسابياً أنه في عام 1484، سيحدث القران الكبير في برج العقرب، واستنتج من ذلك ظهور نبي جديد. في عام 1492 نشر يوهاناس ليشتنبرغ، وهو فلكي من ماينس (مدينة في ألمانيا) بدوره نبوءة أبو معشر الفلكي التي أكملها بتعليقاته الخاصة، أحفظ نصّه عن ظهر القلب: «تشير هذه الكوكبة من النجوم الرائعة وتوافق الكواكب خاصة، على أنه يجب أن يولد نبي صغير سيفسر الكتاب المقدس بشكل رائع، وسيقدم أيضاً إجابات مع كل الاحترام للألوهية، ويعيد النفوس البشرية إليها، لأن المنجمين يطلقون اسم أنبياء صغار على أولئك الذين يأتون بتغييرات في الشرائع أو يخلقون طقوساً جديدة أو يعطون تفسيراً مختلفاً للكلام الذي يقول الناس بألوهيته».

دهش جيوفاني، بما سمع، لم يكن يستطيع منع نفسه من التفكير إلا بلوثر، استغل وصول الخادمة التي أتت بالطبق الرئيسي ليسأل محدثه. - قل لي دون الانتظار طويلاً: هل ولد لوثر أثناء ذلك القران الذي حصل عام 1484؟

طبعاً! في كل الأحوال لا أحد يعرف بالضبط تاريخ ميلاده. تتنوع الآراء بين تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1483 وتشرين الثاني (نوفمبر) 1484، لكنني سأعود فيما بعد إلى هذه المسألة لأنها محط نقاش وجدل كبيرين بين البروتستانت والكاثوليك. لنعد أيضاً قليلاً، إذا وافقتم، على النص لشتنبرغ، الذي وضع بعد ثماني سنوات من ولادة لوثر انطلافاً

من تنبؤ أبو معشر الفلكي. كان لشتنبرغر قد أرفق نصه برسوم يظهر راهبين: أحدهما كبير والآخر صغير. يبدو الكبير وهو يوبخ أحدهم حاملاً إبليساً يقف على كتفه في تعليقه، يكتب المنجم: «ترى راهباً بنوب أبيض مع الشيطان واقف على كتفيه، وهو يرتدي معطفاً كبيراً يصل إلى الأرض وأمامه عريضة؛ وهناك راهب صغير يتبعه. سيكون ذكاؤه حاداً وسيعرف الكثير من الأشياء ويملك حكمة كبيرة. غير أنه سينطق بالكاذب، وسيكون ضميره طعماً للنيران. وسيكون كالعقرب لأن هذا القران تم في بيت المريخ وفي الظلمات، كان يقذف مراراً سماً من ذيله، وسيكون سبباً في إراقة الكثير من الدماء.

بقي أغستينو صامتاً، والكُل ينظر إليه بانتباه.

- هيا إبدأ بالأكل فالطبق ساخن؛ وما أن انتهت ربة البيت من طلبها. حتى قال جيوفاني المفتون بالوصف الذي قدّمه لشتنبرغر:
- إن نبوءة من هذا النوع تسرق الشهية، ويمكنني أن أقول لكم، أن ذلك يتجاوز الإطار الحصري للحسابات التنجيمية.

كانت لهذا الرجل موهبة التكهن. في كل الأحوال، لا يمكن بحسب رأي وصف غموض لوثر، ذكائه ومكره، مهارته في تفسير الأناجيل ووحشية مهاجميه وخصومه.

- أليس كذلك! أجاب بريولي وهو يهاجم لحم الدجاج بالزيتون بضربة قوية من شوكة كانت بيده.

- أتعرفون أن لوثر قد عرف نفسه في النبوءة؟... تابع أوغستينو:

- أفضل من ذلك، لقد قام هو نفسه بطباعتها عام 1527 ووضع مقدمتها، مع الابتعاد عن نص ليشتنبرغر.

- كنت أعتقد أن لوثر معارض للتنجيم، قال جيوفاني متعجباً.

- كان بالفعل كذلك، إلى أن تمكن أحد تلامذته وهو فيليب

ميلانشتون، منجم ماهر، بأن نبوءة أبو معشر الفلكي وليشتنبرغر لا يمكن أن تنطبق إلا عليه.. وإن كان من صلب مصلحته أن يقبلها خدمة لقضية الإصلاح. منذ ذلك الحين لم يتوقف البروتستانت عن توزيع هذا النص.

- إنه استخدام جيد للتنجيم!

- أنا لا أقولك هذا، لكن مسألة تاريخ ميلاده تبقى كاملة دون حل. لوثر نفسه لا يستطيع التأكيد بدقة، بفارق سنة، لحظة مجيئه إلى العالم. بما أنه لا يوجد سجل يشير إلى ذلك، ولا أي شاهد موثوق يتذكر، فإن كل واحد يُحدّد تاريخ ولادته وفق ما يريد إثباته، بين نهاية عام 1483 ونهاية عام 1484 لا أحد يكذب أنه كان قد ولد، بالضبط أو تقريباً في لحظة القران الكبير الذي تنبأ به أبو معشر الفلكي وأنه من مواليد برج العقرب. لكن حسبما يكون أحدنا منجماً بروتستنتياً أو كاثوليكياً، فإنه يتدبر أمر سنة ولادته ويومها وساعتها وفق الطالع الفلكي المحدد الذي يريد وصفه. هكذا فإن تلميذه ميلانختون وضع الشمس في قران مع جوبيتر وزحل في قطاع الموضوع الكوكبي الذي يتحكم بالدين، بينما يتدبر البابويون فيما يخصهم بأن يكون هذا القران الثلاثي في المجال العائد للأمور الجنسية والعهر.

ضحك جيوفاني بصوت عال؛ وتابع أوغستينو:

- لهذا أردت سؤالك حول الطالع الفلكي (التنجيمي) لمارتن لوثر، لأنه من جهة ينادى به على أنه النبي المنتظر، ومن الجهة الأخرى على أنه كائن فاسق لا يمكن أن يكون سوى نبياً كاذباً، أو النبي الدجال بعينه. هذا مثير للاهتمام حقاً، علق جيوفاني. ليس لدي، للأسف، أي وسيلة للتحقق من تاريخ ولادة هذا الاصلاحى، لكنني أعدكم بدراسة جدية لطالعه التنجيمي إذا ما حصلت يوماً ما على معلومات موثوقة حول هذا الموضوع.

- لن أتأخر عن ذلك، لكنني أخشى للأسف أن تعوزني الدقة في هذا المجال.

أضاف بريولي بعد الانتهاء من تناول طبقه:

- إنه، في كل الأحوال موضوع مشوق.

حل صمت كبير حول الطاولة، فيما الجميع متأملاً كلام أوغستينو. نادت سيدة المنزل الخادمة لترفع الأطباق، وبما أن الصمت قد بدأ يشغلها وكانت تخشى أن يسترسل ضيوفها في نقاشات مضجرة حول الدين، فتشت عن موضوع جديد أكثر تسلية. فجأة خطرت لها فكرة. لكن في الواقع، يا عزيزي، قالت موجهة الكلام إلى جيوفاني، أنت الذي تهتم بالشابة إيلينا كوتاريني، هل تعرف أنها عائدة إلى البندقية؟ بقي جيوفاني متيبساً في مكانه لبضع لحظات، ثم تلفظ بكلام غير مفهوم...

- لقد علمت ذلك قبل الطعام بالضبط، من فم صديقنا أوغستينو الذي كان على السفينة نفسها، التي أقلت الفاتنة الجميلة ابنة حاكم قبرص.

- أنت.. أنت عائد من قبرص؟

- قبل البارحة، لم أكن أعرف أنك تعرف الفاتنة إيلينا كوتاريني. أكيد أنت رجل مدهش جداً؟

- لا أعرفها مطلقاً، أسرع جيوفاني مضيفاً، الذي أوشك على الاختناق.. ببساطة لقد سمعت الناس فقط يتكلمون عن هذه الفتاة، التي يقولون عنها إنها جميلة جداً وذكية وقد أتيح لي الحصول على بعض المعلومات عن هذه الإنسانة الجميلة من ضيفنا.

- حسناً أنت ذكي وحقق، يا صديقي! قال أوغستينو:

- ليس لي أي رأي خاص حول الفتاة كوتاريني، تابع جيوفاني

مسيطرأ على نفسه حتى العذاب لكي يحافظ على مظهره اللائق. لقد حصل لي الشرف إذا سمحت لي فرصة معرفة هذه الفتاة اللطيفة.

ضحكة فرح ملأت الغرفة، وأربكت جيوفاني إلى أقصى حد.

يمكن لهذه الفرصة أن تحدث بسرعة، تابع أوغستينو، لقد أقمت، خلال سفري في البحر، علاقات ود مع تلك الفتاة الرائعة، وقد دعنتني إلى حفل صغير ستقيمه في الأسبوع القادم في منزلها.. يمكنني أن أقترح عليها بأن تنضم إلينا. ما رأيك في هذا؟

- سأكون مسروراً من ذلك، تلعثم جيوفاني الذي لم يكن يقدر على التفكير أو التنفس.

- سأوصي بك بحرارة لدى أمها، أضافت صوفيا بريولي بلهجة فرحة، إنها صديقة عزيزة جداً ورائعة! ثق بي، أنا متأكدة أنك ستكون مدعوأ.

غادر الزورق منزل بريولي.

كان الطقس كامداً، منذ الصباح، وكانت المدينة مغلفة بطبقة رقيقة من الضباب.

اكتشف جيوفاني وجهاً جديداً للبندقية، فهذا الغطاء يضيء على المدينة عطراً جذاباً، وأجواء خاصة تتوافق والمشاعر المضطربة التي تعذب قلبه.

منذ أسبوع، وهو يتحضر للقاء إيلينا، يومان بعد لقائه أوغستينو غايريللي، تلقى في قصر بريولي كلمة صغيرة مكتوبة بيد الفتاة الشابة، تعرف جيوفاني على الكتابة دون أدنى تردد، حتى ولو كان الخط أكبر، أكثر ثقة، كانت الرسالة تقول ببساطة:

سيدي المنجم:

«قيل لي منذ عودتي من قبرص كل عمل عنك وسأكون سعيدة بأن تكون بين مدعوي إلى السهرة التي سأحييها الخميس القادم. الخميس هو يوم جوبيتر إذا لم أخطئ؟ آمل أن يكون فال خير للتعرف، إذا كان بمقدورك الانضمام إلينا، تعال عند قدوم الليل».

إيلينا كونتاريني

في اليوم التالي أوصل رده:

الآنسة كونتاريني

أشكرك لهذا الإطراء ولدعوتك اللطيفة.

جويتر هو كوكب النبل والسعادة وذلك هو يوم رائع ومناسب للتعرف على إنسانة مثلك، لها شهرة كبيرة. إذن، وبغبطة كبيرة أقبل أن أكون من ضمن مدعويك.

جيوفاني داسكولا

كان انشغاله الوحيد هو معرفة ما إذا كانت الفتاة ستعرف عليه. الاسم المستعار اتخذته لنفسه ليخفي أصوله ولكن ليس ملامح وجهه. لم يكن من المستحيل أن تكون إيلينا قد احتفظت بذكرى غير واضحة. في تلك الحالة، تهاياً لينكر ذلك علانية، لم يكن بمقدوره الإقرار بهويته الحقيقية لإيلينا إلا عندما يكونان منفردين. إذا ما كانت الظروف تسمح بذلك يوماً ما.

انعطف الزورق نحو القناة الكبيرة.

بدأ جيوفاني يشعر بقلبه يخفق بسرعة كلما اقترب الوقت. انتظر هذه اللحظة أربع سنوات ولم يتوصل إلى الإدراك أنه، بعد بضع دقائق، سيكون وجهاً لوجه أمام إيلينا. حلم بدا له أنه غير معقول. اليوم، رفعت الخواطر والعوائق لقد أصبح رجلاً فاتناً ومثقفاً. كانت إيلينا دائماً حرة وقد دعتة إلى منزلها.

ومع ذلك، كان جيوفاني يعرف أن الرعب الكبير ينتظره، هو العائق الأخير الذي لا وجه له كان يحمل اسم: المجهول. جيوفاني لم يكن يعيش في الخيال كان يعرف أنه هو نفسه يمكن أن يكون خائب الأمل من هذا اللقاء، أن الفتاة التي عرفها قليلاً يمكن أن تكون قد تبدلت ولم تعد كما كانت. ويعرف أيضاً أنه من المحتمل أن لا ينال إعجابها، وأن يكون لها حبيب، وأنها لا تهتم مطلقاً بالتنجيم وأنها دعتة من باب المجاملة ليس إلا.

كان المجهول ينتظر جيوفاني شعر بسببه بتشنجات مؤلمة في معدته. الغندول ينساب ببطء نحو قصر كونتاريني، الواقع على الضفة اليسرى للقناة الكبيرة، في حي سان صموئيل (القديس صموئيل). منذ عودة إيلينا، كان جيوفاني يمر كل يوم في زورق أمام القصر مع الأمل الخفي بمشاهدة الفتاة الواقفة أمام النافذة. لقد لاحظ الكثير من الحركة استعداداً للحفلة، لكن دون رؤيته وجه محبوبته.

ارتدى لهذه المناسبة أجمل حليته، من الحرير والمخمل الأزرق والذهبي، والتي اشتراها بمبالغ طائلة من تاجر مشهور من رياتو.

كان يعرف أنه في البندقية، أكثر من أي مكان آخر، المظهر، مظهر الوجه، البزة، المنزل، الزورق، جميعها دلائل تنم عن نبل وذوق رفيع. إن عالماً قبيحاً يرتدي ثياباً غير لائقة، ومقيماً في مكان غير لائق، سيبدو غليظاً أرسقراطياً وسيفقد كل سحر واعتبار.

على مر الشهور تعلم جيوفاني أصول اللعبة في البندقية في أدق تفاصيلها.

وصل الغندول أمام مدخل القصر. فوانيس تضيء الباب الكبير المفتوح الذي أمامه أسطول لا ينقطع من الزوارق المتعددة الألوان.

استقبل خادم القصر جيوفاني وسأله عن اسمه؛ بعد تحقق قصير، أرشده الرجل إلى درج عريض يقود إلى الطابق العلوي. عند كرسي الدرج، كانت تقف شابة أراحتة من معطفه وعلقته في حجرة الثياب.

صعد جيوفاني الدرج المصنوع من الحجر ببطء شديد وقد جنّ جنونه، كان يسمع ضجيج أصوات، وخاصة موسيقى سماوية، تصدح من فرقة آلات وترية؛ انتهى به المطاف إلى صالة استقبال رحبة واسعة مضاءة بأنوار دافئة ومتألثة صادرة عن ثلاث ثريات من الكريستال والشموع. ثماني نوافذ عالية تطل على القناة الكبيرة، في الوسط درج

فخم باذخ من الرخام الأبيض يؤدي إلى الغرف مزين بلوحات عديدة، بينما الجدران ملبسة بقماش أحمر.

طاولات عامرة بأنواع الطعام الفاخر والعديد من أنواع المشروبات مرتبة على طول الجدران. وفي زاوية من الغرفة، فرقة موسيقية من خمسة موسيقيين جالسين على منبر أعد للمناسبة. عندما دخل جيوفاني إلى الصالون كان ما يقرب من الخمسين مدعواً جميعهم في سن الشباب، يتحدثون بفرح.

توقف في أعلى الدرجات، وفي حالة ثابتة، جال بنظره في كل الغرفة بغية تحديد المكان الذي من صورتها وحدها تجعله يرتعد.

- إليكم ها هو منجمنا! ناداه فجأة صوت مألوف لديه.

التفت جيوفاني ووجد نفسه بين ذراعي أوغستينو المحاط بمجموعة من الأصدقاء.

- أنت رائع! أضاف تاجر الفن الشاب.

- لم أكن أريد أن أجعلك تخجل مني! أنت الذي جعلتهم يدعونني إلى هذا المكان الإلهي.

- هذه احتفالات، أيها الطيب! لرفع التكلفة وتقول لي أنت بدل أنتم! وأنا كذلك. هذا رائع، أليس كذلك؟ أنا أكتشفه مثلك وفي الوقت ذاته. أنه ليس الأكبر، لكن دون ريب أحد أكبر قصور البندقية الرائعة. تعال، سأقدم لك بعض الأصدقاء الذين هم أيضاً أصدقاء لإيلينا.

تقدم أوغستينو نحو شاب طويل القامة من الطبقة الأرستقراطية الرفيعة وامرأتين شابتين. دهش جيوفاني بجمال إحداهن، السحنة شاحبة، الشعر جناحي غراب، عينان جميلتان زرقاوان ملغزتان، ترتدي السواد. وتدعى أنجيليكا.. مؤكداً أنها من برج العقرب «فكر جيوفاني وهو يتأمل الفتاة».

أنا مسحورة بالتعرف إليك، همست في أذنه. يقال أنك أيضاً ماهر في تفسير المظاهر والأشكال الكوكبية... كم هذا مدهش.

- أنت ممدحيني.. يا آنستي.

لنبدأ، أنا متأكدة أنه سبق أن علمت شارة برجك الكوكبي!

- اعترف أنني لن أندعش من أن تكوني من برج العقرب.

- حسناً، كلا!

- أرايت أنني لست على مستوى شهرتي.

- أنا من برج الثور، لكن طالعي في برج العقرب.. إذن لست مخطئاً

حقاً، عزيزي المنجم.

- أرى، يا آنستي، أنه سبق أن فسّر لك برجك.

- لقد سبق أن قام أهلي بوضع طالع كل أبنائهم.

لدي إذن خارطة سماء ولادتي، لكن سأكون سعيدة جداً لو تأتي وتقوم

بتفسيرها.

- احذر يا صديقي من هذا المخلوق اللطيف: لقد قامت بانتزاع أكثر من

شخص واحد لم يراً بعد من سمها اللطيف!

كان الصوت اللطيف قد تمتم خلفه. أجاب وهو يضحك، وفي غمرة

اللعبة:

- أعتقد أنني كبير بما فيه الكفاية لأدافع عن نفسي ضد العقارب وحتى

ضد الثيران!

ثم استدار، وتشجع، فتاة جميلة فاتنة تمد له يدها.

- إيلينا كونتاريني.

بقي جيوفاني مجمداً، تابعت إيلينا بنفس الابتسامة المرحبة..

- أنا... أنا... بالحقيقة.

- حسناً، عد إلى وعيك، صديقي. صاح أوغستينو وهو يضرب على

ظهر جيوفاني. مع أننا كنا قد أخبرناك أن إيلينا كانت أجمل نساء البندقية.

بقي جيوفاني لثوان طويلة، غير قادر على أي كلمة، أية حركة، مبهوراً.

- شعر أشقر طويل ذو بريق أصهب يحيط بوجه ملائكي تنيره عينان خضراوان كبيرتان. كانت إيلينا ترتدي فستاناً أرجوانياً تزينه خيوط ذهبية، مكوراً عند الرقبة يزيناها عقد من اللؤلؤ الناعم، الذي يترك لنا تمييز صدرٍ مؤثرٍ جميل. شعر جيوفاني بالصدمة العميقة نفسها، كالتي شعر بها عندما رأى إيلينا للمرة الأولى. لكن الفتاة اليوم احتلت مكانة كبيرة في قلبه لدرجة أن الانفعال الذي طفا عليه كان أقوى وقعاً.

فوجئت إيلينا في البداية، وبعدها، مرتبكة من حدة نظرة جيوفاني وخموده، أمسكته من ذراعه مما زاد من اضطراب وارتباك الشاب:
- تفضل إذن وتناول بعض الطعام يا صديقي.

أخذته نحو صحون السفرة حيث بدأ جيوفاني يتماسك نفسه شيئاً فشيئاً.

- إعذري تصرفي. أنا.. أنا مرتبك بسبب جمالك. ضحكت الفتاة بصوت عالٍ.

- لا أصدقك! يوجد في البندقية الكثير من الفتيات الحسنات وحتى هنا!

- شيء ما فيك هو مختلف جداً.

- أنت تتقن التحدث إلى النساء، لكن لتعرف أن أمور الفكر تهمني أكثر من المظاهر الجسدية أو الكلام المعسول.

أكلمك بصدق وإخلاص، بعد قول هذا، أشاطرك حبك لما يفرح الروح أكثر مما يفرح الحواس. لكنني لا أعزل الجميل الحسن عن الخير الصالح. كتلميذ لأفلاطون، أظن أن وجهاً جميلاً هو هبة من الله ليعلق قلباً يقوده إلى تأمل الجمال والكرم الإلهيين.

تأثرت إيلينا لتأكدها من أنه كان مهتماً بالفلسفة، فابتسمت.

- أنت ترفع مستوى النقاش فجأة إلى درجة، سأتوسل فيها إليك أن تحدثني عن أشياء أكثر بساطة وملموسة!

- لا أصدق شيئاً. قيل لي أنك كنت نفحة عقل قبل أن تكوني امرأة.

- الأمر كذلك! ساكون فضولية لمعرفة أي من أصدقائي أو أعدائي.

لقد لفظت بهذا الكلام فيما يتعلق بي.

- على علمي، ليس لك أعداء مطلقاً، ولم أجد لنفسي إلا بالمعجبين.

مالت إيلينا برأسها وأمسكت بكأسين صغيرين أعطت جيوفاني أحدهما.

- تذوق قشدة سرطان البحر اللذيذة.

وهو يتابع إيلينا بنظره، بلل جيوفاني شفاهه في الكأس.

- أم... شهى بالفعل.

- تلك هي طريقة أخذتها عن جدتي. أنا مولعة بالطبخ.

توقف جيوفاني عن الحركة وقال:

لا تقولي لي أنك أنت التي حضّرت كل هذه المأكولات؟

- كلا، اطمنن، البعض منها فقط.

لكن لتتكلم عنك، أنت تثير اهتمامي كثيراً.

على حد علمي، أنك وصلت البندقية منذ ستة أشهر فقط، وسبق أن استملت المدينة بمهارتك التنجيمية، من أين أتيت ولماذا اخترت مدينتنا لتبدأ مهنتك الباهرة؟

ستار من الغمام غلّف نظر جيوفاني، لاحظت إيلينا في الحال أن سؤالها أيقظ لدى جيوفاني ذكرى مؤلمة دون شك.

اعذرني على تطفلي، تقول لي أمي أنني مباشرة جداً وعفوية.
- أرجوك، إيلينا..

استعداد رشده:

- الآنسة كونتاريني..

- قل يا إيلينا.. إذا كنت تسمح أن أدعوك جيوفاني؟

- ترغرغت عينا الشاب بالدموع.

- طبعاً، إيلينا.

أحست إلينا بشعور غريب، لدى رؤيته، والانفعال يغمره، شيء ما لم تعشه من قبل. « هذا الشعور اللامنطقي »... إنها تعرفت سابقاً على هذا المجهول، أو بالأحرى على روحه.. وأن تلك الروح قريبة منها، قريبة جداً.

امرأة في الأربعين من العمر توجهت مسرعة نحو الفتاة:

- إيلينا، عزيزتي، أنت تقصرين في كل واجباتك، لا يتوقف مدعووك عن الوصول وأنت تنفردين في زاوية بدل من أن تستقبلهم.
- أنت محقة، ماما. أقدم لك جيوفاني داسكولا.

- آه، هذا هو أنت إذن الذي يستأثر بابنتي! حدثتني صديقتي السيدة صوفيا بريولي كثيراً من الأمور الحسنة عنك.

- اعذرني جيوفاني، أتركك في عناية والدتي. إلى اللقاء فيما بعد.

على ممرض تقريباً، غادرت إيلينا لاستقبال ضيوفها.

أصغى جيوفاني إلى فينا كونتاريني لعدة دقائق وضع لها إكليلاً من الغار. غير أن أفكاره لم تترك إيلينا، كان يشعر بنفسه محبطاً بسبب سعادة مؤلمة تقريباً. عندما انضم إليه أوغستينو وأصدقاءه، لم يتوصل إلى التفكير بشيء آخر غير كلمات إيلينا. لابتسامتها المنقوشة في داخله، ولم يتمكن من منع عينيه من البحث عنها دون انقطاع.

كانت نظراتهما تتلاقى في العديد من المرات، أشاحت إيلينا نظرها بوجل، لكنها لم تكن تستطيع منع نفسها هي أيضاً، وسط ألف واجب، من التأثر بهذه النظرة السوداء والعميقة، التي لم تكن لتفارقها إن صح القول. مع أن جيوفاني كان الأول بين المدعوين الذي أراد مغادرة الحفل، وهو مطمئن جداً، من ناحية مشاعره نحو إيلينا أو من الاهتمام الذي كانت الشابة تكنه له. المدعوون الآخرون الذين لم يتوقفوا عن سؤاله حول التنجيم، يضجرونه ويحيدونه عن أفكاره الحميمية. كان يحس بالحاجة الملحة إلى الانفراد بنفسه.

توجه نحو مضيفته إيلينا التي كانت دائماً محاطة بالمدعوين، لم تتمكن من إخفاء ارتباكها لدى رؤيته وهو يتقدم نحوها، ما أن اقترب منها، حتى أمسكت بذراعه من جديد وأخذته جانباً.

- إيلينا، علي المغادرة، لا أعرف كيف أشكرك على هذا الحفل الرائع.

- أنت تتركني بهذه السرعة؟

- يجب ذلك، لكنني ألهب شوقاً لرؤيتك من جديد.. في ظروف

أكثر ملاءمة. إذا كان هذا لا يصدملك مطلقاً.

- على العكس ساكون سعيدة جداً باستئناف الحديث الذي كنا قد

بدأناه.

- متى يمكنكني الالتقاء بك من جديد؟

ردت إيلينا دون أي تردد.

- بعد غد، تعال إلى هنا في ساعة العصرية إذا قدرت على ذلك.

- سأكون في الموعد المحدد.

قبل جيوفاني يدها بولع وبانحناء لطيفة، ثم رافقته إيلينا بصمت حتى الدرج. بينما كان ينزل نحو الطابق الأرضي حيث الزورق بانتظاره، نادته قائلة:

- سوف تحدثني عن أفلاطون، أليس كذلك؟

توقف جيوفاني في الحال، عيناه تسطعان بالسعادة، ثم نزل بقية الدرجات دون الالتفات إلى الخلف.

في الساعة السادسة عشرة بالتحديد، أوصل الزورق جيوفاني إلى أمام قصر كونتاريني. قام خادم بإراحته من معطفه وأدخله في الطابق. استقبل الفتى بحرارة من قبل والدة إيلينا التي قدم لها باقة من الزنبق الوردي.

- يا لها من التفاتة عذبة! لم يكن عليك أن تفعل هذا، إنه لسرور عظيم أن أستقبلك من جديد. لكنك كنت قد غادرتنا باكراً قبل أمس.

- أنا آسف على ذلك، فالحفل غير قابل للنسيان! ظهرت إيلينا فجأة في أعلى الدرج الذي يقود إلى غرفة الاستقبال في غرف الطابق الثاني. مرتدية ثوباً أزرق فيروزياً وبطرشياً من البروكار الوردي. شعرها الطويل مجدولاً ومرفوعاً على شكل رأسيّة، مضيئاً عليها مظهر أميرة من القرون الوسطى. لم يتمكن جيوفاني من تمالك الانفعال الشديد الذي كان يشد صدره عند النظر إليها وهي تهبط الدرجات ببطء ودلال.

- انظري يا عزيزتي كم هي جميلة، قالت فينيا كونتاريني مظهرة الباقة، إنها متوافقة تماماً مع شالك (وشاحك).

- أنت ساحر يا سيد داسكولا! أجابت إيلينا وهي تمد له يدها.

- لثمها جيوفاني وهو يرتعد.

- أنا منفعل جداً لرويتك من جديد، آنسة كونتاريني.

التفتت إيلينا نحو أمها.

- ماما، هل يمكنني استقبال السيد داسكولا في الصالون الصغير؟
- طبعاً، يا عزيزتي، هو أكثر وديّة من تلك الصالة الواسعة وستكونان في هدوء البال. سأطلب من جوليانا بأن تقدم لكما الشوكولا الساخن.
ما رأيك في ذلك يا صديقي؟
- اكتشفت هذا الشراب العجيب منذ فترة قصيرة وأقر أنني أتلذذ به جداً.

- هل تعرف أن هذا الشراب انتشر بكثرة منذ عدة سنوات في بلاط إسبانيا، حيث يمكن تحضيره مع كل أنواع التوابل. هل سبق أن تذوّقته معطراً بالقرفة؟
- مطلقاً.

- حسناً، سنقوم بذلك!

أخذت إيلينا جيوفاني إلى الطابق الأعلى. ممر يخدم صالة صغيرة نسبياً متواضعة غير أنها مضاءة بأربع نوافذ عالية تطل على القناة الكبرى، وكذلك عدة غرف. دخل الاثنان إلى الصالون الصغير المزين بشكل ثري. جلست إيلينا في زاوية ديوان عريض ودعت جيوفاني ليأخذ مكانه في الزاوية الأخرى، على مسافة متر منها تقريباً.
- لديكِ أخت، على ما أعتقد؟ سأل الشاب بقصد محاولة طرد الضيق الذي كان يثقل نفسه.

- نعم، لكنها بقيت في قبرص مع والدي.

- حدثيني عن تلك الجزيرة الجميلة، أنت تطيلين الإقامة فيها بحسب ما قيل لي؟

- منذ ما يقرب الخمس سنوات يعمل والدي كمحافظ أو حاكم للجزيرة وأوزع حياتي بين البندقية ونيقوسيا.

- أمل أنك ستقضين بعض الوقت بيننا قبل أن تنضمي إلى والدك وأختك؟

تأملت إيلينا جيوفاني بشيء من الخبث، والتزمت الصمت لبضع لحظات، ثم استأنفت الكلام بنبرة البوح بالسراً!

- الآن ونحن بمفردنا، هل بمقدوري أن أناديك باسمك الجميل؟

- لا يمكنك أن تسرّيني أكثر من ذلك.. إيلينا.

- إذن قل لي جيوفاني أفضّل أفلاطون أم أرسطو؟

بقي جيوفاني مندهلاً (مذهولاً)، منذ لقاء ما قبل الليلة الماضية. كان قد فهم أن إيلينا تهتم بالفلسفة، غير أنه لم يكن يتنظر مطلقاً أن تفتح المحادثة بهذا الشكل.

تمالك نفسه وأجابها بصراحة:

- لدي إعجاب بأرسطو الكبير وأعيد قراءة البعض من كتبه، مثل رائعته «آداب نيوماك»، لكن علي الإقرار أن تفضيلي يذهب إلى أفلاطون الإلهي الذي عرف، قبل أن يطلع على الوحي التوراتي كيف يسمو بالعقل البشري إلى قممه التي لا مثيل لها.

- قبل لي أنك تقرأ للفلاسفة بالنص اليوناني، هل هذا صحيح؟

- هذا ضروري إذا أردنا فهمه جيداً، اعترف جيوفاني دون تبجح. لقد كنت محظوظاً بلقاء معلم علمني الفلسفة، اللاتينية واليونانية طوال سنوات عديدة، والذي كان هو نفسه، واحداً من تلامذة مارسيل فيشين الشهير.

حدقت إيلينا بجيوفاني بنظرة تسطع بالإعجاب.

- حظ أو فرصة كنت طبعاً قد استحققتها بسبب مهارتك وتعطشك للمعرفة، تابعت الفتاة في الحال. أنا ألتهب وأتلهف لأعلم كل شيء عنك؟

لقد أثرت فيه هذه الجرأة دون إطراء أو غنج.

وردٌ عليها بنبرة متّقدة هائمة:

- وأنا، لأعلم كل شيء عنك!

أخفّضت إيلينا عينيها. كان لديها طبع عنيد وأحياناً عفوي يكشف بسرعة كبيرة عن مشاعرها وأحاسيسها. بيد أنها فتنّت فوراً بجيوفاني.

منذ عودتها من قبرص، كان أصدقاؤها قد كلموها بحماس عن هذا الشاب والمنجم اللامع، الذي تتعلق به النخبة العليا من مجتمع البندقية، ثم أعلمها أوغستينو أن جيوفاني سيشرّفه أن يتعرف عليك.

كانت مندهشة من ذلك، وزيادة أن فضوليتها تدفعها للمعرفة.

وفي أمسية الحفل، كانت حساسة في الحال لجماله المدلهم قليلاً، بدكائه، إلى عطر السرّ الذي يفوح منه.

كانت أيضاً قد علمت أنه لا يعرف إن كان له صديقة أم لا.

منذ يومين، وأفكارها مشغولة بهذا المجهول الذي لم يكن يترك أي فتاة غير مبالية، كانت إيلينا تشعر أيضاً أنها تروق لجيوفاني. لم يتوان أصدقاؤها عن التنويه أحياناً بشيء من الغيظ، نظره لم يتركها ولو للحظة، هذه الجاذبية المتبادلة كانت تبدو لها غريبة، لكن هذه النسمة السحرية التي سادت خلال اللقاء، لم تكن إلا لتأجيج النار التي بدأت تصل إلى قلبها.

- هكذا إذن، تابعت دراستك لدى فيلسوف، ألم تتعلم التنجيم عنده

أيضاً؟

- هذا صحيح، يعتبر المعلم لوسبوس في فلورنسا وفي روما بمثابة واحد من أكبر منجمي أوروبا، غير أنني كنت بعيداً من أن أتصور هذا عندما قابلته.

- بالضبط! لقد سمعت القول أن معلمك يعيش متخفياً في غابة

الأبروز، كيف تمكنت من الالتقاء به؟ ومن جهة أخرى لماذا كنت تبحث عنه؟

- بالحقيقة، لم أبحث عنه فعلاً... أو أنني كنت أبحث، دون علمي بذلك، عن لقاء رجال مثله. لكنها العناية الإلهية هي التي وضعت علي طريقي.

حملت إيلينا وقالت:

- كن أكثر وضوحاً، يا صديقي.

- اعذريني، هذا صحيح ان قصتي غامضة جداً.

للإيجاز، لنقل أنني غادرت المنطقة حيث وُلدت بهدف تعلم كيفية العيش، ولقاء أشخاص وشخصيات مثيرة للاهتمام، لتعميق معارفي الهزيلة.

وهكذا في صباح أحد الأيام، وعلى حافة الطريق، التقيت برجل اقتادني إلى سيّده، الذي لم يكن غير ذلك الفيلسوف المشهور.

قوطع جيوفاني عن الكلام بسبب قدوم خادمة مرحة وبدينة دخلت الغرفة دون قرع الباب، والطبق الشهوي في يدها.

هوذا يمكن أن يغنيكم! احترسوا، الشوكولا ساخنة جداً!

- شكراً، جوليانا، أجابت إيلينا وهي تنهض لكي تضع طاولة صغيرة منخفضة أمام الكنباي (الكرسي).

وضعت الخادمة الأكواب والكاتو.

عندما رفعت وجهها نحو جيوفاني، ثبتت نظرها بعض الثواني، كما لو أنه كان يظهر بعض الدهشة، ثم غادرت حريصة على ترك الباب نصف مغلق، عادت إيلينا إلى مكانها على المقعد، لكن أكثر قرباً بوضوح من الشاب، حيث ناولته كوباً.

انتبه، لقد سمعت ما قالته جوليانا!

- شكراً، إيلينا، أجب جيوفاني وهو يمسك بالكأس التي وضعها في الحال على وكتبه.

انتظرت إيلينا أيضاً إلى أن يبرد الشراب واستندت إلى المقعد.

- حدثني عن عائلتك.. عن المدينة التي وُلدت فيها..

ليس من سؤال يربك جيوفاني أكثر من هذا، قرر في كل الأحوال أن يكون صادقاً ما أمكن، دون إفشاء سرّه.

- لقد فقدت والدتي بينما كنت في سن السابعة.

- اعذرني، أنا آسفة.

- لا ذنب لك في ذلك، إيلينا، تابع جيوفاني وهو يتسّم، ممسكاً غريزياً يد الفتاة.

بارتباك، سحبت يدها لكن بحركة لطيفة.

- عشت وحيداً مع والدي وأخي الأصغر في مدينة صغيرة في كالابري، تابع جيوفاني برصانة. جاهداً في تجاوز اضطرابه، منحدرًا من نبالة صغيرة مفلسة، كان والدي تاجر خيول، هل تعرفين منطقة كالابري؟

تجهّم نظر إيلينا، وأشاحت بنظرها نحو النافذة التي كانت تطل على القناة الكبرى.

- توقفت فيها مرة واحدة، منذ أربع أو خمس سنوات، لكنها ذكرى سيئة.

لقد غرقت سفينتنا أثناء عودتنا من قبرص بسبب هجوم القراصنة.

- غرق! ردّد جيوفاني، متنبها لسير ذكرياتها حول حادث قد يغير حياته.

- لا يهم الفرق لقد عشت هناك حدثاً مكدرًا جداً، يراود أحلامي مراراً...

نظرت إيلينا من جديد إلى عين جيوفاني.

- لكنني لا أرغب في التكلم عنها الآن.

كان جيوفاني محبطاً لأنها لم تكن قد نسيت أي شيء من لقائهم الخيب جداً لدرجة أنها لا تريد التكلم عن ذلك؛ ناولته قطعة كاتو باللوز، واستمرت قائلة:

- حدثني عن أفلاطون. أتعرف أن فلسفته ليست مقدرة جداً هنا في البندقية؟ معلمونا الذين يدرسون في بادو كلهم متحمسون ومؤيدون لأرسطو، يرون أنه أكثر واقعية ومخلصاً لحقيقة الوقائع.

- هذا لا يدهشني، أنتم أهل البندقية، أنتم أولاً عمليون! لقد أمضى أرسطو حياته في ملاحظة الإنسان والطبيعة، ثم في تصنيف، وتحليل وتشريح وترتيب ذلك الذي فهمه. أفلاطون بالتحديد، يستند إضافة لذلك إلى تجربته الداخلية (الباطنية) في تأمل الأفكار والمثل: الخبر، الصحيح، الجميل، الذي يعيد إلينا كل الواقع. لذلك فإن فلسفة أفلاطون تؤثر في بشدة.

هل قرأت أدبه الحوارية (المسرحية)؟ الوليمة خاصة؟.

للأسف كلا. لأنني بخلافك لست ملما بقراءة اليونانية واللاتينية. لقد لقتني معلمي بعض مبادئ الفلسفة وقرأت بعض الفقرات من الكتب، لكن الوليمة لم تنطرق إليها مطلقاً. عما يتحدث هذا الكتاب؟.

- عن الحب.

- عن الحب؟ يجدر بك أن تحدثني عنه، يا صديقي، إنه موضوع يهمني.

- مثلما كنت أقوله لك أثناء حديثنا الأخير، يظهر أفلاطون الجمال المحسوس (المدرک بالحس أو بالعقل)، الذي يحرك شعورنا في جسد أو وجه، يقودنا إلى جمال الروح وإلى الجمال الإلهي.

توقف جيوفاني عن الكلام ونظر إلى إيلينا بقوة. بدورها أطالت الفتاة النظر إليه. كانت تعرف أنه سيقول لها شيئاً ما يخصه. كان بمقدورها تغيير موضوع الحديث. أو خفض عينيها، غير أنها صممت على تلقي ما سيقوله لها دون معرفة بماذا كانت ستجيب. سمعته يُقر، بصوت أبخه الانفعال قليلاً:

لذلك، إيلينا، لست خجولاً مطلقاً من القول أنه منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، أحببتك.

لم يفكر جيوفاني بالأثر الذي قد يحدثه كلامه. كان يحب إيلينا بإخلاص، وظل يفكر بها طوال سنوات، حتى أنه لم يدرك كم سيكون لهذا التصريح المفاجئ وقعاً مفاجئاً يصدم الفتاة التي تعتقد أنها قابلته للمرة الأولى منذ يومين فقط.

حلَّ ذكاء إيلينا كل ما يمكن أن يكون لهذه الكلمات من وقع مفاجئ ومبكر. غير أن قلبها كان يحدثها بلغة أخرى لغة مُلغزة. عرفت أن جيوفاني كان صادقاً وعلمت أيضاً أن هذا الحب سيجد صدى فيها «بقيت صامته» غير أنها مدت يدها ببطء نحو جيوفاني وهي تحديق به دون أن تضعف.

ارتجف جسم جيوفاني وهو يمد ذراعه وانطلق يلطف إلى اللقاء المنتظر مع جسد إيلينا وقلبيها. تلامست أصابعهما، مثل تويجات زهرة واحدة تكشفت وتفتحت للمرة الأولى في الشمس اغرورقت الدموع في عيني جيوفاني، فتأثرت إيلينا كثيراً لدرجة أن اجتاحتها رغبة مجنونة لترتمي بين ذراعيه.

مع ذلك أمسكت نفسها. لم يجروا جيوفاني على الذهاب إلى بعد من هذا التبادل الغرامي الأول. اكتفى بالضغط على الفتاة بقوة فتشابكت أصابعهما، وأغلقت أعينهما. أصبح البعد بينهما أمراً لا يحتمل.

سألها وكأنه يستلهم قصيدة شعر:

- متى يمكنني أن أراك من جديد؟

جعلتها كلمة (أنت دون تكلف) ترتعد أكثر مما تفعل أكثر القبلات جنوناً. تمكنت من تجميع بعض الأفكار ورأت أنه من الأفضل أن لا يتلاقيا من جديد في منزلها كي لا تثار الشكوك في أمها.

- هل تستقبل نسوة بقصد قراءة طالعهن التنجيمي دون دراية أهل البندقية في ذلك؟

- هذا يحصل، وسأكون مفتوناً باستقبالك في منزلي. لكن صاحبة المنزل تعرف جيداً أملك.

- لا يهم ذلك! سأقول الحقيقة: المنجم الذي يتخاطفه كل الناس اقترح عليّ أن يرسم لي خارطة سمائي استجابة لرغبتني في المعرفة... إذا كنت سأتزوج قريباً!

أصغى جيوفاني وقد اعتراه شحوب شديد جعل يد إيلينا تسقط من يده:
- لأن هناك ما يشير إلى التساؤل؟

- لدي بعض المتقدمين الذين يروقون لوالدتي، لكن سيكون لك أن تقول لي ما إذا كانوا يستحقون ذلك... أو ما إذا كان علي الانتظار أيضاً، قالت ذلك بنبرة مازحة، وأضافت: أطلب من صوفيا بريولي ما إذا كان بمقدوري تناول العشاء عندها بعد الاستشارة.

- هكذا تكون قواعد اللياقة مضمونة، أضافت إيلينا وهي تنهض، ونهض الشاب بدوره.

- إلى مساء الغد؟

هذا سريع نوعاً ما لكي لا ترى فيه والدتي خُبثاً! لنقل بعد ثلاثة أو أربعة أيام، إذا كان هذا ممكناً بالنسبة إلى عائلة بريولي. تابع جيوفاني أخذ المهمة على عاتقه.

- مهلاً، يا عزيزتي، صاحت فينا كوتاريتي في الوقت الذي كانت فيه الفتاة أسفل الدرج. لا تنس أنه علينا الخروج لشراء قبعة من محلات غريماتي من أجل الأمسية.

- ساصل، ماما، لقد انتهينا للتو! ردت إيلينا من خلال الباب.

ثم استدارت نحو جيوفاني وطبعت قبلة على خده قبل أن تنسحب.

- أعادر لأبدل ملابسي. اطلب من والدتي تاريخ ميلادي، اليوم والساعة. إلى اللقاء!

لم يكن لدى جيوفاني الوقت الكافي للرد على هذه الحركة العابرة؛ حياها بنظرة بينما كانت تختفي في الممر الذي يقود إلى الغرفة. نزل الدرج وإذا به وجها لوجه مع والدته إيلينا.

شرح لها أنه دعا ابنتها لمنزل عائلة بريولي من أجل استشارة تنجيمية حول مستقبلها العاطفي. وجدت إيلينا أن تلك كانت فكرة رائعة وأغتنمت الفرصة لتهمس في أذن جيوفاني، أنها نفسها كانت تميل إلى ابن غريماتي، والذي كانتا ستهبان لتناول طعام العشاء معه في هذه الليلة بالذات.

- هذا طالب زواج من إيلينا، أسرته، لكن للأسف، إنها لم تحسم أمرها بعد.

- أجاب جيوفاني بشيء من السخرية سأضحك بكل سرور في هذا الاتجاه... فيما لو أن الكواكب لم تُشر عليّ بوجود طريق آخر.

- طبعاً، ردت فينا، مرتبكة.

- لكن يلزمني تاريخ ميلادها وساعة ولادتها فيما لو كنت تتذكرين.

- طبعاً.

- كتبت فينا بعض الكلمات على ورقة صغيرة ناولتها إلى جيوفاني

الذي دسها في جيبه.

- تماماً. اسمحي لي أن أحبيك سيدتي أملاً بلقائنا قريباً.
- تعال إذن وأرو لي ما الذي تقوله الكواكب بخصوص ابنتي! أنا أعرفها، إنها لن تقول لي الحقيقة!
- سأتي بسرور إلى هذا المكان الرائع، أجب جيوفاني مودعاً مضيفته.
- تذكرت الأخيرة فجأة.
- السيد داسكولا!
- استدار جيوفاني مندهشاً.
- كيف وجدت الشوكولا؟
- الله!...
- أنا جدُّ مرتاحة لهذا عُد متى شئت.

شكرها جيوفاني ثم هبط الدرج الكبير، استرد معطفه وتقدم نحو الباب الكبير الذي ينتهي عند القناة حيث ينتظره الزورق: بدّل رأيه فجأة وعاد إلى الخادم الذي يرافقه.

- ألا يوجد مخرج آخر على الشارع الصغير؟ أرغب في تمرين عضلات ساقِي.

- بالتأكيد، سيدي.

تقدم الخادم جيوفاني وقاده نحو باب صغير من الخشب الذي يفتح على ممر ضيق.

عندما أغلق الخادم الباب أعلم سائق الزورق بأن لا ينتظره. راقب جيوفاني الأماكن. رأى أن الشارع الضيق، الذي لا يسمح بالمرور لرجلين، يداً متقاطعتاً، يقود إلى القناة الكبرى ويخاذي جميع جوانب القصر. رفع رأسه ولاحظ أنه في كل طابق عدة نوافذ تطل على الشارع الضيق في الثالث والأخير تسطع نافذة صغيرة التي، حسب ما فهمه

من شكلها أنها المكان المخصص لتهويه الغرفة أو صالة حمام إيلينا.

اضطرب تفكيره لهذا الاكتشاف، سلك الشارع الضيق مسافة مئتي متراً ليصل إلى شارع كبير ثم انعطف نحو اليسار على حوض سان صموئيل وقلبه جذل، واختفى في شوارع سان ماركو الفتية. عندما وصل إلى قصر بريولي، كان النهار قد بدأ بالأفول، صعد مسرعاً إلى غرفته، وخلع معطفه برشاقة وكذلك حذاءه وفتح الخزانة الجدارية وأخرج منها جداوله الفلكية وانكب على العمل فوراً. بعد أن انتهى من رسم خريطة سماء إيلينا بقي صامتاً لفترة طويلة، مأخوذاً بأفكاره ثم
تمتم:

- هذا لا يصدق!

في تلك اللحظة قرعت الخادمة مارينلاً الباب لتدعوه إلى تناول العشاء.

بدأت إيلينا مشرقة، عند مدخل القصر. كانت ترتدي معطفاً من المخمل الأحمر، وكان شعرها مربوطاً وتضع على رأسها قبعة متناسقة مع معطفها.

- ياله من فرح عظيم أن أراك من جديد؛ إنك تبدين أجمل مع مرور كل هذه السنوات.

- أنا محظوظة بايواء شاب ظريف وماهر...

احمر وجه إيلينا وصار بلون معطفها.

- أنا أضايقك يا عزيزتي صوفيا. أعرف السبب الذي من أجله أنت هنا، وقد قلت لأملك أن تلك كانت فكرة جيدة.

قامت سيدة المنزل بإراحة إيلينا من معطفها الثقيل ومن قبعتها وأدخلتها طابق غرفة الاستقبال. لدى دخولها الغرفة، لم تمنع نفسها من أن تضيف:

- غير أنني لا أعرف أي فعل فعلته به، لأنه منذ لقاءك في ذلك اليوم فقد الشهية، ولا يخرج ويبدو دائماً هائماً.

- أظن أنه لا شأن لي بشيء من هذا التصرف الغريب أجابت إيلينا ببرة كما لو أنها فوجئت نوعاً ما.

بدأت على إيلينا أيضاً أعراضاً مشابهة منذ أربعة أيام. تفكر ليل نهار بجيوفاني، ذلك ما كان يضعها في حالة إثارة كبيرة.

ردت صوفيا بريولي بابتسامة.

- بما أنه سيكون لدينا متسع من الوقت لنرى بعضنا أثناء العشاء، سأقودك دون كبير انتظار إلى شقته.

- بدأ قلبها في الخفقان، تجاوزت إيلينا الخادمة وصعدت الدرجات المؤدية إلى الطابق الأخير في القصر. عند كرسي الدرج، أشارت ماريتلا إلى باب جيوفاني وانسحبت بهدوء. وجدت إيلينا نفسها وحيدة وانتظرت بضع ثوان لتستعيد أنفاسها. وبحركة آلية رتبت شعرها وقرعت الباب مرتين بقرعات خفيفة متزنة. سمعت صرير الأرضية الخشبية. أوشك قلبها على التوقف عند ما ظهر جيوفاني أمام الباب المفتوح.

- إيلينا!

فجأة وجدت نفسها خجولة جداً، دخلت الفتاة إلى الصالون مظهرة اهتمامها بالزخرفة والتزيين.

- لم تضيع وقتك سدى، يبدو كأنك تعيش هنا منذ خمسة أعوام.

في البداية حزن، لأنها عادت لتخاطبه بتكلف «أنتم» لاحظ بسرعة قلق الفتاة وحاول إراحته. مختاراً هو أيضاً التكلم بصيغة الجمع.

- كما تشاهدين لقد تكيفت بسرعة! لكن لم يكن لدي حتى الآن متسع من الوقت لترتيب هذه الشقة الصغيرة.

- على العكس، الأجر جيد هكذا يجب أن لا تحمل الفرق بكثير من الأثاث لأنها ضيقة. حدّقت إيلينا بلوحة معلقة بين النافذتين تمثل منظرأ شتوياً للقناة الكبرى.

- لم تتمكن حتى الآن من تذوق البندقية شتاء. سترى كم ذلك رائع وفتان!

لم تتوصل إلى التكلم بصيغة المخاطب «غير المتكلفة». ذلك ما كانت

تحلم به طوال الأيام الماضية وقد بدا لها في تلك اللحظة غير وارد.

يبدو أننا كنا مجبرين عبور ساحة القديس مرقص والقدمين في الماء؟

ضحكت إيلينا بصوت عال. لقد أراحتها هذه الملاحظة

- بالفعل! وفي فصول شتاء أخرى، لا يمكن التجوال إلا بواسطة

الزوارق. لكن هذا هو سحر وجمال مدينتنا، أليس كذلك.

- طبعاً وأنا مفتون لدى تفكيري بالرجال الذي صمّموا وأشاروا

هذه البحيرة الشاطئية، لهذه القصور الواسعة التي تركز على آلاف

الأوتاد المغروسة في الطين هذه أعجوبة الإرادة، وعبقرية الإنسان!

- حقيقة أنا فخورة بمدينتي ومؤسسيها. في كل مرة أعود فيها من

قيرص، ينقبض قلبي بقوة عندما ألمح عن بعد العشرات من هذه الأبراج

أو القبب التي تخرج من الماء.

انفجرت أسارير إيلينا وتأكدت أن الخوف من رغبتها قد جعلها

متحفظة حيال جيوفاني. التفتت نحوه بابتسامة جذابة:

أعدتُ التفكير فيما قلته لي حول الحب الأفلاطوني. استقبل جيوفاني

بارتياح هذا البذل في النبرة وهذا التقارب العائد.

- آه... وهو يشير إلى كرسي مريح.

- نعم، تابعت إيلينا وهي تجلس، أنسأل كيف الحب الذي يوحى لك

بوجه جميل يمكنه بلا خطأ أن يقودنا إلى الحب الحقيقي للشخص،

والأفضل أيضاً إلى حب الله؟

لم يسبق لي أن قلت أن هذا الأول المحسوس سيقود حتماً إلى

الدرجات الأسمى للحب.

هذا هو احتمال مقدّم لنا، لكن من الواضح أن البعض يبقى لافتتان

وإغراء الحواس ولا يتوصل، للأسف إلى السمو نحو الحب الأكثر

كمالاً.

- على ماذا ينص هذا الحب الأكثر كمالاً؟

- قطعاً ذلك الذي يجمع المحب بالمحوبة بالطريقة الأكثر ترفعاً عما يكون. ما يجعلنا نحب شخصاً لشخصه وليس لمزاياه فقط، وخاصة الجمال، أو لأجل الذي يمكنه أن يعطينا إياه.

لكن عندما ندعى حب شخص منذ اللحظة الأولى التي نرى فيها وجهه، كيف يمكننا التأكد بأننا نحبه حقاً لشخصه، وأنا نتعلق بروحه لا بجسده أو منظره الخارجي؟

كان السؤال مردوداً بوضوح جلياً إلى تصريح جيوفاني، لدرجة أنه كان مضطرباً أخذ وقتاً للتفكير.

هل يجب مجاراتها في مجرى هذه المناقشة النظرية متظاهراً عدم فهم إلى ماذا تلمح، أو أن يجيبها مباشرة حول مشاعرها الخاصة؟ لقد اختار الحل الثاني.

- إيلينا، لا يمكنني أن أعطيك برهان يثبت أن حبي لك هو فعلي. الشيء الوحيد الذي أعرفه، هو أنني أفكر بك كل يوم منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وأن هذا التفكير يعطي كل معنى لوجودي...
- لقد مضى ما يقارب الأسبوع! لم أقدر على تصديق أن حياتك قد مالت منذ تلك اللحظة.

كان جيوفاني قد ذهب بعيداً ليتمكن من العودة عن كلامه، رافضاً وزن المخاطر لتصريح من هذا القبيل، أغمض عينيه:

- إيلينا، أفكر بك كل يوم منذ أربع سنوات طويلة.

- ماذا.. ماذا تريد القول!

- لقد لمحتك لأول مرة في ليلة صيف... منذ أكثر من أربع سنوات أنا..

أنا لا أتذكر أنه سبق أن تقدم أحدنا للأخر. هل في البندقية؟ أو في قبرص.

- لا في البندقية ولا في قبرص.

- لم يسبق لي أن ذهبت إلى مكان آخر. لا إلى روما، ولا إلى فلورنسا.
- حقاً؟

- أنت تحمل أسراراً كثيرة.!

نهضت إيلينا من كرسيها وتوجهت نحو النافذة وهي في حالة غليان داخلي، خائفة من لعبة إغراء تافهة من قبله.

وعلى العكس، فقد شعر جيوفاني أن هدوءاً وقوة غريبتين تغمرانه. هذا الاعتراف لم يكلفه شيئاً بل كان يحرره من حمل ثقيل.

- لا أحمل أي سر، إيلينا. أحاول أن أذكرك دون أن أفاجئك بالذكرى البعيدة للقائنا الأول.

- ولماذا سأفاجأ؟ احتدت إيلينا وسادها شعور حقيقي بالغيظ يجتاحها. ذلك اللقاء البعيد هل كان مكدرًا جدًّا؟

نظر إليها جيوفاني من خلال غمامة من الحزن. لم يكن يجد الكلمات ليقول لها أنه كان ذلك القروي المسكين الذي حاول رؤيتها عبر ألواح مخزن البيت وأنهم عاقبه بقسوة. عندئذ وجد شارة، تقدم منها، ورفع قميصه ببطء وأظهر لها صدره العاري.

- دُهِشت إيلينا بشدة لدرجة أنها بقيت مسمرة في مكانها. استدار جيوفاني فاكتشفت الندب القديمة التي كانت تحرق ظهره. أدركت أن هذا الرجل كان قد ضرب بالسوط دون فهم ذلك بشكل دقيق، شعرت بنفس القلق المرتبط بذكرى قديمة مؤلمة. ثم استعادت فجأة منظر الجسد المدمى والذي لا حراك فيه لفتى قروي من كالابري والذي جرَّ أمامها رجفة هزت روحها. اقتربت من جيوفاني، ومدت يداها المرتجفتان نحو ظهره ووضعتهما على الجرح. كانت الندبات ترتجف تحت راحتها. التفت الشاب نحوها من جديد وعيناه مغمورتان بالدموع حدقت به وأطلقت صرخة مخنوقة من شدة التأثر.

- أنت!

- أنت إذن؟

تابع جيوفاني التحديق بإيلينا دون النطق بأي كلمة والوجه محبط.

- أنت جئت إلى هنا من أجلي؟

- نعم.

بقيت إيلينا مذهولة لعدة لحظات، ثم ارتمت في أحضان جيوفاني شادة وجهها إلى صدره وضمته بكل ما لديها من قوة.. وعانقها الشاب بقوة، تاركاً دموعه تسيل بهدوء على رقبة الفتاة التي ظلت تجهمش بالبكاء دون أن ترخي عناقها:

- جيوفاني، كنت لا أعرف حتى اسمك. أنا أيضاً فكرت بك دائماً.

كنت مغتمة جداً لأجلك...

رفعت رأسها وبحثت عن عينيه:

- أفهم لماذا كنت متأثرة جداً عندما رأيتك في تلك الحفلة. ظهر لي

أني أعرف روحك. وذلك كان صحيحاً!

- إيلينا، انتظرت هذه اللحظة منذ سنوات عديدة! تقابلت عيناها

بصمت، والوجه قريب الواحد من الآخر لدرجة أن إيلينا أغمضت

جفניה. أرتقت لتقف على رأس قدميها ووضعت برفق شفيتها على

شفتي جيوفاني وارتجفت شفاههما لدى تلاقيهما.

جيوفاني كان الأول في إرخاء ضمه لها، خوفاً من أن يقطع أنفاس الفتاة. هذه المرة كان بريق من الفرح يملأ عينيه السوداوين.

إيلينا، أنا سعيد جداً، سعيد جداً...

- إذن يا سيد دا أسكولا، كنت تسكن في المدينة ووالدك تاجر

خيول؟

- أظهرت إيلينا ابتسامة عريضة. نظر إليها جيوفاني نظرة يشوبها القلق.

- اسمي الحقيقي هو جيوفاني تراتوري. هل تحقدين علي لأنني

كذبت فيما يخص أصولي بغية صيانة سرنا؟

- على الإطلاق! الأفضل بالفعل أن لا يعرف أحد هنا من أنت حقاً..

- لا يمكنك تخيل كم كانت الرسالة التي تركتها لأبي، قد أراحتني

وعزتني! بالرغم من أنني كنت أحفظها عن ظهر قلبي، فإنني كنت أقرأها كل يوم.

- كانت تنظر إليه بصمت. هذا الوضع بدا لها غير واقعي وخارج

مباشرة من قصص الجن.

- أجد صعوبة في التصديق أنه فقط بسبب حبي تركت عائلتك

وتسلقت إيطاليا على الأقدام!

- مع ذلك فهذه هي الحقيقة بعينها.

- لكنك أمضيت وقتاً طويلاً قبل اللحاق بي!

ضحك جيوفاني بطيبة.

- ليس خطيئة أنني فكرت بك! عندما قابلت معلمي، طلب مني

البقاء إلى جانبه على الأقل ثلاث سنوات. لو تعرفين كم ترددت، كنت

متلهفاً لرؤيتك من جديد!

وجدت إيلينا صعوبة في إدراك أنه فعل كل شيء بدافع حبه لها، بما

فيه تعلم الفلسفة والتنجيم. ذلك يغمرها بالرضى ويسبب لها ضيقاً شديداً في آن.

أنا أخشى أن لا استحق هذا القدر من الإخلاص والحب والأمل. ستكتشف سريعاً أنني فتاة عادية جداً.

- أعرفك قليلاً، إيلينا، لكنك دون علمي جعلتني أسلك طريق لقاءات، رائعة ومعارف لا تقدر بثمن وفرحاً كبيراً. إذن أعتقد خاصة أنك لا تعرفين أنت الجمال الذي فيك... جمال جسدك ليس سوى صدى لها.

- نعم، سيدي الذي يعرف كل شيء..

- لا تنس أنني منجم وأني وضعت مخطط طالعك الذي أعرف الآن الكثير عنك.

- نسيت أنه من المفروض أن أخبرك عن رأيي في التنجيم والأبراج، ولا أريد أن أخذلك، فطالعي التنجيمي لا يعنيني مطلقاً ولا المتقدمين لزواجي، أتخذت هذه الحجة لرويتك هنا من جديد.

- أنت مخطئة، تابع جيوفاني لأنني اكتشفت شيئاً عجيباً غير مألوف لدى وضع مخطط طالعك.

مدت شفيتها بفضولية.

- تخيلي أن كوكب الزهرة «فينوس» الذي يعني الحب، موجود بالضبط في نفس المكان في طالعك وطالعي.

هل سأستنتج من ذلك أننا وُجدنا لنحب بعضنا؟

رد جيوفاني على ابتسامة إيلينا وقرب شفيتها من شفيتها. وتعانقا بشغف وشهوة طيلة دقائق طويلة لكنهما قوطعا بوقع خطي أمام الباب. تماسك الحبيبان وشدا نفسيهما، قرع أحدهم ثلاث ضربات على الباب، سمع صوت مارنيلا:

- عذراً لإزعاجكم، لكن الطعام جاهز، إنهم بانتظاركم في الصالون.

- سنصل بعد عدة دقائق، أجب جيوفاني وهو يتحنح.

انحنى ليلتقط القميص بينما إيلينا تعيد تصفيف شعرها.

- ماذا سنقول فيما لو سئلنا عن هذه الاستشارة التنجيمية الشهيرة! تساءلت الفتاة بصوت مرح.

- ستقولين إن ذلك كان مثقفاً ومنيراً جداً لكنه شخصي جداً لكي يقال أمام الناس، دعيني أتصرف بالنسبة لما تبقى، سأقصر بعض الأشياء الشخصية حول طباعك...
- أترى أنني بالإجمال عادية!

انطلقا وهما يضحكان، ثم قاد جيوفاني إيلينا إلى دورة المياه، بقيت فيها لبضع لحظات بينما كان الشاب يرقب أثاث صالونه، انضمت إليه بينما كان يرتب كتبه المتعلقة بالتنجيم في الخزانة الجدارية. انشغل بال إيلينا لدى رؤيتها المغلف الكبير الموضوع في مؤخرة الخزانة.

أغلق جيوفاني الخزانة بالمفتاح وأعاد المفتاح إلى عنقه.

- حسناً، لنذهب ولنتحقق بمضيفينا، وسيكون من الحذر أن نستعيد الحديث مع بعضنا بتكلف أمامهم؟

- بكل سرور سيدي المنجم.

كانت عائلة بريولي قد فرغ صبرها.

- آه! أخيراً! هتف سيد المنزل لدى رؤيته الشابين وهما ينزلان

الدرج. لنجلس بسرعة إلى المائدة، معدتي لا تعرف الانتظار!

- اعذرونا، أجب جيوفاني، هناك الشيء الكثير للقول حول هذه

الشخصية الظرفية.

- لا نشك بذلك، قالت صوفيا وهي تجالس مدعويها. إذًا، هل علمت إيلينا أشياء مشوقة؟

- الكثير من الأشياء! لكن الأمور تبدو غضةً وغامضة لكي أتكلم عنها بوضوح وصفاء.

ومن ثم فهي أشياء خاصة حميمة، تابع جيوفاني وهو يبتسم لمضيفيه.

- طبعاً، لكن قل لنا ولو شيئاً صغيراً، أنا متشوقة لمعرفة!

نظرت إيلينا إلى سيدة المنزل بنظرة متسائلة. انتظرت صوفيا بضع لحظات لكي تضع الخادمة الأطباق الساخنة وحملت ملعقة من الحساء إلى شفتيها، ومقلدة من قبل زوجها وضيفيهما، وطرح أخيراً السؤال الذي كان يحرق الشفاه:

- هل ستزوج إيلينا «دون غريغوري باديًا» أو الشاب «تومًا سو غريمانني؟».

كاد جيوفاني أن يختنق وإيلينا بدت مرتبكة، لكنها غير متفاجئة بالسؤال، أجابت برزانة:

- لم أتخذ بعد أي قرار بهذا الموضوع، والسيد داسكولا لم يتطرق إلى هذه المسألة.

نظرت صوفيا إلى جيوفاني مشوشة:

- كنت أحسب أنه كان عليك أن تقرأ طالعتها للكلام حصراً عن مستقبل إيلينا العاطفي؟

- طبعاً، لكننا تطرقنا لموضوعات ذات صفة عامة، حول ما يناسب أو لا يناسب الآنسة كونتاريني، بدل الكلام عن أشخاص بشكل خاص.

- ما يناسبها هو الزواج من رجل ناضج ومثقف مثل دون غريغوريو، صاح بريولي العجوز.

- لكن يا عزيزي، إنه في الأربعين من العمر، أي بمثابة والدها، استدركت صوفيا.

- هذا لا يهم، هو رجل ذو شخصية قوية وبكامل قوى عمره، ثري وذو نفوذ. الفتيات سيربحن كل شيء بالزواج برجل خيرة بدلاً من غلام أو فتى عليه أن يتعلم كل شيء عن الحياة مثل الشاب غريمانى.

- لم يعد توماسو طفلاً! وقد يكون أكبر سنًا من صديقنا جيوفانى، جميل الطلعة، جيد التربية وهو أحد أفضل أحزاب المدينة، وهل علي أن أذكرك أنه لاعب شيش رائع ذو شهرة رهيبه! لو كنت مكان إيلينا، لما ترددت لحظة!

كانت إيلينا تصغي بنفاذ صبر.

- هذا سابق لأوانه، ليست لدي النية بالزواج في الأشهر القادمة، بالمقابل، قال لي السيد داسكولا أنه لدي استعداد كبير للفلسفة واقترح علي أن يعطيني بعض الدروس الخاصة.

فتح جيوفانى عينيه الكبيرتين، ثم تماسك وأجزل كثيراً في هذا الاتجاه.

- لدى الأنسة كونتارين ذكاء كبير فهي تهوى المسائل الفلسفية، وسيكون ذلك مدعاة سعادة لي أن أجيب على أسئلتها.

- فكرة رائعة! استدركت صوفيا بريولي، من المؤسف أن بناتنا ليس لهن ثقافة عميقة، ولا يتمكنون من الذهاب إلى الجامعة كما هو الحال في فتياتنا.

أجاب زوجها:

- قد أكون من المدرسة القديمة، لكن يبدو لي أن لدى النساء شيئاً آخر ليفعلنه كإدارة المنزل أكثر من التكلم بإسهاب حول أفكار مجردة.

استطردت إيلينا:

- أحدهما لا يمنع الآخر، كما قال لي السيد داسكولا. أنا خلقت لأربي أطفالاً بالقدر نفسه الذي خلقت فيه لأتقف ذكائي وعقلي.
- تابع بريولي وهو يهز كتفيه: آه، إذا كانت الكواكب تقول هذا!!
توصل جيوفاني إلى جعل المحادثة تنزلق نحو مواضيع أكثر عمومية.
عند الانتهاء من المائدة، رافق إيلينا حتى مدخل القصر. قبل أن تدلف الفتاة إلى الزورق، همس في أذنها:

- هل بمقدوري أن أمرّ غداً لإعطاء الدرس الأول؟

- دعني أولاً أحاول إقناع أمي.. سأعلمك بذلك قريباً.

تبادل الشابان قبلة عابرة، ودخلت إيلينا الغرفة الصغيرة الخشبية الواقعة في وسط الزورق. شاهد جيوفاني المركب ينزلق على الماء حتى غابت عن الأنظار. ثم صعد للاستئذان من مضيفيه إلى شقته.
جلس على كرسيه المريح ليشتم من جديد بانفعال بعضاً من عبق عطر إيلينا. بعد فترة طويلة، نهض من مكانه وفتح خزائنه. أخرج المغلف المخصص للبابا، وجلس من جديد على كرسيه وحدق به (المغلف) برزاة.

- متى ستكون لدي الشجاعة الكافية لترك إيلينا وأذهب إلى روما؟
تتم بهذه الكلمات.

- ليتني أعرف ما بداخلها!

فكّر الشاب بالجدل حول لوثر، المسيح الدجال، ونهاية العالم. كلما زاد تفكيره بذلك كلما زاد اقتناعه أن في الرسالة شيء يتعلق بهذه المواضيع، من المحتمل أن يكون معلمه قد كشف عن اسم المسيح الدجال أو تاريخ نهاية العالم؟

كادت أصابعه تحترق شوقاً لفتح المغلف، نظر جيوفاني إلى الغلاف بتأمل: هل من الممكن فتحه دون إزالة الختم؟ كلا. كاد يحترق رغبة

لفعل ذلك. تردد لحظة طويلة ثم أعاد المغلف إلى الخزانة.

ذهب إلى غرفته، خلع ثيابه وتمدد على سريره، وأنظاره متوجهة نحو زجاج النافذة حيث تمتد سماء مليئة بالنجوم والأسرار. لم يكن ضميره في حالة سلام غير أن قلبه كان مليئاً بالغبطة. يقول في نفسه أنه يجب التأكد أيضاً لبضعة أسابيع من تعلق إيلينا به قبل أن يشرح لها سبب مغادرته إلى روما. هذه مسألة خمسة عشر يوماً على أكبر تقدير. بعد هذا يمكنه أن يعيش دون ندم قرب محبوبته.

انتظر جيوفاني بفارغ الصبر كلمة من إيلينا، بعد ذلك بيومين، تلقى أخيراً رسالة صغيرة من الفتاة. كانت الأخبار سيئة، بعد كلمات ودية دافئة، أقرت إيلينا أن أمها قبلت فكرة دروس في الفلسفة... شرط أن تحضرها شخصياً! من الممكن أنها تشك بشيء ما.؟ في كل الأحوال، سيكون من غير الممكن لهما أن يتلاقيا بصورة حميمة.

مع ذلك أعطت إيلينا موعداً لـ جيوفاني بعد ظهر الغد في قصرها. ذهب المنجم في الموعد المحدد وأعطى درساً في الفلسفة اليونانية للأم والابنة، وكذلك إلى امرأتين أخريين مدعوتين من قبل فينا. كان من المستحيل للصدّيقين أن يتكلما بمفرديهما.

استمرت التجربة بمعدل درسين في الأسبوع، كان جيوفاني يلتقي بإيلينا بسعادة كبيرة، وكبت مساوٍ لأنه لا يستطيع معانقتها. وكانت إيلينا أيضاً تموت رغبة في أن تلقي بنفسها في أحضانه وعلى عنقه ولا تتحمل أكثر أن تلعب هذه الكوميديا أمام أمها وصدّيقاتها.

وبينما كان جالساً إلى المائدة أمام الفندق يفكر بوسيلة للقاء إيلينا بمفردهما، نودي على جيوفاني بصوت صديق:

- أوه، كم أنت غارق في التفكير!

رفع جيوفاني عينيه، واستنار نظره:

- أوغستينو! إنه لسرور كبير أن أراك من جديد.

كان الرجل مصحوباً بشخصية تكبره سنأ يرتدي ثياباً مترفة فخمة.
- وأنا إذن! أقدم لك آندريا بالبي، صديق رائع، يمكننا الجلوس
ومشاركتك في كأس نبيذ؟

- لا شيء يفرحني أكثر من هذا.
- نادراً ما نراك في المدينة، يبدو أنك قضيت العديد من الأمسيات،
وكمّاً من قلوب منكّسة.

- أتعلم، في هذه الأوقات ليس لدي رغبة في التسلية.
قد يكون جيوفاني على وشك القبول بأوغستينو، لكن وجود هذا
الجهول منعه من ذلك، مع أنه كان صديقه الذي وجه المحادثة نحو امرأة
قلبه.

- أليس لقاءك مع إيلينا كونتاريني هو من قلب عقلك وتفكيرك؟

- أنا.. أنا علي أن أقر بأنني غير مبالٍ.

- لقد حذرتك: إنها أجمل فتاة في البندقية! ومن ثم فإنها قطعة
جميلة شديدة الثراء. يا للخسارة فهي لا تستطيع أن تتزوج إلا من نبيل
من أعرق عائلات المدينة.. مثل صديقنا بالبي!

ضحك أوغستينو وأندريا بصوت عالٍ، في حين بدا على جيوفاني
التشنج.

- ماذا أردت القول؟

حسناً، أتكلّم عن ذلك القانون الذي أجري الاستفتاء عليه منذ عشر
سنوات تقريباً، الذي يمنع الزواج بين النبلاء وعامة الشعب.

ذهل جيوفاني، فالبندقية كانت تبدو له مدينة متفتحة ومختلطة،
ومتعددة الأعراق، لدرجة أنه لم يتصور أبداً أن عائناً قضائياً (قانونياً)
يمكن أن يقف فجأة بينه وبين إيلينا.

حاول الشاب إخفاء قلقه الداخلي، ياله من قانون غريب، لاحظ أن المنافسة في محاولة وصول المناقشة إلى الناحية السياسية، أعتقدت أن البندقية كانت جمهورية؟

- أنت تضع اصبعك على الغموض السياسي الفاضح لمدينتنا العزيزة! مزيج غريب من الديمقراطية والاستبداد المستنير، نظامنا السياسي يركز كلياً على الأرستقراطية التي تنتخب النواب، قاضي القضاة والمستشارين.

ما يثير الإعجاب، أن هذا النظام غير المنصف كلياً يلقي قبولاً لدى الجميع، بدءاً من أولئك المستبعدين عن أي تمثيل وقرار سياسيين، ما يقرب من ثمان وتسعون بالمئة من الشعب!

- أعترف بأننا لسنا ديمقراطية شعبية مثلما يحلم البعض بذلك؟

قال ذلك آندريا بالبي، الذي كان واحد من 2500 نبيلاً أعضاء في الجمعية الكبرى، حجر الزاوية لكل البناء السياسي للبندقية، مظهراً الفرق، لكن نظامنا على عكس العديد من الممالك التي تحيط بنا يتجنب أي دكتاتورية وراثية، ممثلنا الأعلى الدوق قاضي القضاة المنتخب من أعضاء المجلس الكبير خلال صيرورة معقدة استثنت أي مشورة لفريق واحد، وسلطتها مراقبة دائماً من سلطات، مجلس النواب ومجلس العشرة.

وتابع أوغستينو:

- إنني لا أعيد طرح البحث في مؤسساتنا، حرصاً على تجنب أي سوء فهم قد يكون مميتاً في مدينة كثرت فيها الوشائيات المجهولة المصدر والاسم والتي قادت أكثر من معارض سياسي إلى السجن أو إلى التسمم. تعطي هذه المؤسسات لحكومتنا استقراراً ملحوظاً منذ أكثر من سبعة قرون وأنا مسرور لذلك. أشرح ببساطة لصديقنا الشاب أن مدينتنا ميسّسة من قبل نخبة أرستقراطية، مستنيرة حقاً، لكنها تبحث

شرعاً عن حياتها ومنافعها ومثانتها، خاصة أمام التجار الأثرياء الذين يتوقون إلى المشاركة في القرارات السياسية. أليس هذا، يا عزيزي معنى القانون الجديد الذي يمنع على الشرفاء الرومان الزواج من عامة الشعب، مهما كانوا أغنياء؟

- تماماً، تابع بالبي، مطمئناً لكلام صديقه، الزيادة في عدد الزيجات بين النبلاء وغير النبلاء تتعرض للتقويض على المدى القصير. كذلك الأساس الحقيقي لقوتنا واستقرارنا السياسي. هذا هو السبب الذي من أجله كنت أنا بالذات قد ناضلت لصالح هذا القانون، في نهاية المطاف يوجد في البندقية ما يكفي من الفتيات الجميلات لكي ندع بعض النبلاء يتزوجوا من أقرانهم (الذين هم من طبقتهم)!

رسم أوغستينو ابتساماً مسموعة وحدث في عيني جيوفاني.

- أترى، يا عزيزي، يجب عليك مثلي أن تصمّم على الصيد في أراض أخرى غير أرض كونتاريني. من جهة أخرى فإن العديد من الكواسر المتحدرين من العائلات العريقة الكبيرة يحومون حول هذه الطريدة الفاتنة. لكن، اطمئن، سأكون قادراً على إرشادك إلى أراض جيدة للصيد في تناول يدك. الشيطانة آنجيليكا، مثلاً، تتكلم عنك دون انقطاع، فهي جميلة وابنة وجيه ثري، فهي لا تشكل جزءاً من الأرستقراطية القديمة، صدقني، إنه أثر يجب اقتفاؤه!

وأضاف أندريا:

- وهي ليست فظة جداً، كما يشاع.

لكن كل شيء يتعلق بما تبحث عنه، إذا كنت تريد التمتع، فإن كل فتيات الطبقة النبيلة يفتحن لك أذرعهن تقريباً.. فيما لو كنت تظن نفسك ماهراً لكي تؤثر أيضاً في جزء من قلبها، أما الزواج منهن، فهي قصة أخرى.

لم يكن جيوفاني قادراً على سماع المزيد، ابتسم بتصنع وتذرع بموعده لكي يستأذن منهم. عليه الذهاب إلى منزل إيلينا ليعطي درساً جديداً في الفلسفة. وبينما كان يتجول في الشوارع الصغيرة، بمحاذاة القنوات شارداً الفكر، متأملاً بعمق كلام أوغستينو وأندريا. حتى أنه لم يتجرأ على دراسة فكرة الزواج بإيلينا، وواقع علمه أن هذا الزواج لا يمكن أن يتم مهما حصل، فإن ذلك يغرقه في حالة عميقة من اليأس. بما أن الباب الأخير لحلمه أصبح موصداً إلى الأبد. فكر أيضاً بالمتقدمين إلى فتاة البندقية، تساءل بما كانت الفتاة تفكر به حول القانون الذي سيمنع أي زواج بينهما، على ماذا هي عازمة؟ البقاء عزباء والحفاظ على جيوفاني عشيقاً؟

ذلك يبدو مستحيلًا نظراً لوضعه الاجتماعي. الزواج من رجل لم تكن تحبه ومقابلة جيوفاني سرًا؟ هذه الأسئلة تعذبه، لذلك يجب عليه أن يتكلم مع إيلينا، لكن كيف العمل لمقابلتها على حدة؟ عندما وصل إلى قصر كونتاريني، عبرت رأسه فكرة. توقف وخط كلمة على صفحة انتزعها من الكتاب الذي كان يمسك به، ثم دخل القصر كما لو أن شيئاً لم يكن، كانت إيلينا تتفرسه دون توقف، مترصدة عبثاً لأول شعاع أو وميض من الحنان أو الحب في عينيه، غير أن جيوفاني بقي لا مبالٍ ومتحفظ.

بينما هم على وشك الافتراق مرة جديدة في هذا الشعور المثقل من الكبت والحрман وخاصة أن إيلينا كانت على حافة الغيظ والسخط، دسَّ جيوفاني بلطف ورقة مطوية بشكل ناعم في يد الفتاة إيلينا.

دقت ساعة برج كنيسة سان صموئيل معلنة منتصف الليل. تسلل ظل في الشارع الضيق لقصر كونتاريتي، ووصل إلى عدة أمتار من القناة الكبيرة. توقف الرجل ورفع عينيه. كان القمر مكتملاً (بدرأ) وأنوار القصر في الداخل مطفاة. نوافذ عريضة مدعمة بشباك، تتابع حتى الطابق الأخير من البناء. قفز الرجل حتى النافذة الأولى للطابق الأرضي من القصر، تمسك بالقضبان، وتسلق الفتحة العليا حتى القمة ورفع جسمه حتى النافذة الثانية التي كانت تشرف على الصالون الكبير. وبالطريقة نفسها وصل إلى الفتحة الثالثة. وميض من ضوء خفيف كان ينبعث داخل الغرفة، غرفة الحمامات. قرع جيوفاني على زجاج النافذة، اقترب الضوء الخافت ضوء الشمعة.. فتحت إيلينا النافذة.

- حبيبي، لقد نجحت!

- سأل جيوفاني بحرارة وأنت.

- نعم! انظر.

نزعت الفتاة القضبان التي كانت تحمي النافذة، دخل جيوفاني إلى الغرفة الصغيرة، وتمكن أخيراً من ضم بعضهما بشوق.

نظرت إيلينا إلى جيوفاني، وعينيه المتلاكنتين.

- لقد طبقت تعليماتك وتطلب الأمر مني ساعتين للوصول إلى ذلك، ثم

تأبعت وهي تظهر بفخر الأداة التي استعملتها لانتزاع القضبان.

- أنت رائعة!

دخل الشاب لأول مرة إلى غرفة إيلينا. كانت الغرفة رحبة شاسعة، نافذاتها العاليتان تشرفان على القناة الكبيرة. كان المنظر خلاباً، في الليل. من الجهة الأخرى للغرفة يتربع سرير ذو قبة. أمسك جيوفاني بالفتاة من خصرها ووضعها على السرير، كانت إيلينا ترتدي فقط قميصاً من الحرير الأبيض.

- أنت أيضاً أكثر جنوناً مني!

- فمك، جسديك، يدك أنا مشتاق لها جداً.

- لو كنت تعرف كم أشتهيك!

- إذن خذيني!

لم يسبق لإيلينا أن سلمت جسدها لرجل، لديه شبقية كبيرة. كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر. لم يكن مجتمع البندقية محتشماً والعديد من الشباب كانوا يعرفون الحب الجسدي قبل الزواج، حتى أنه كان لدى إيلينا فكرة سابقة عن الحب ولم تكن تريد أبداً أن تقوم بتجربة الجنس دون أن تكون روحها متأثرة أيضاً مثل حواسها.

وقد شعرت أخيراً بأنها غارقة بشغف ووله. تعرف أيضاً أن جيوفاني يحبها ويشتهيها من كل جوارحه.

بينما كانت تعريه، كان يداعب وجهها وشعرها. بالرغم من أنه سبق أن عرف لذات العناق الجسدي مع لونا، فقد كان لديه الشعور بممارسة الحب للمرة الأولى، كانت روحه ترتجف كما جسده. في الوقت ذاته الذي يقبلها بشوق، مدد إيلينا على السرير، أمواج من الرقة المخنونة تعقد بلعومه، شد حبيته إلى جسمه، للتحقق ما إذا كان جسمها ممتلئاً، وأن تلك الليلة، ليلة على الرغم من كل التعاويذ، كانت له.

في الحال ذاب فيها برجفة صادرة من أعماق كيانه، الفم المقترس، الوجه الغارق في أمواج شعرها الحريري.

إن كروية الثديين الغضين والجامدين عند هذه الفتاة المضغوظين على صدرها يفاقمان شهوته. كانت تن تن تحته. فتح عينيه، شوّشته صورة الشهوة المؤلمة. العينان مغمضتان، الجبين مغطى بالعرق، صورة تلي الأخرى، طاهرة عفيفة للغاية لدرجة أنه دفع من دمه. في تلك الثانية، بينما النار تلتهب وتنظم رقص خواصرها، بينما كان يحملها، وهي تن، في نشوة في رحلتها الأولى، همس لها كم كان يحبها، وإيلينا تسمع اسمها كما لو أنها لم تسمعه أبداً من قبل.. كما تردد الصلاة.

بقي العشيقان فترة طويلة مشدودين إلى بعضهما دون القدرة على الانفصال عن بعضهما. ثم تمدد جيوفاني إلى جانب محبوبته. كلاهما يتذوق ويتلذذ لحظة الفرحة الطاهر النقي هذه، والعيان محذقتان في السقف، القبة السماوية لغرفة إيلينا.

- همست إيلينا أبداً لن أتحمّل أن نفترق.

عانقها جيوفاني طويلاً.

- أنا كذلك، يا حبي. ومع ذلك لن يكون بمقدورنا أبداً أن نصبح زوجاً

وزوجة.

- رفعت إيلينا رأسها ونظرت إليه باندهاش.

- لماذا تشغل نفسك بهذا في هذه اللحظة؟

- أليست هذه هي الحقيقة؟ إن هناك قانوناً يحرم الزيجات بين النبلاء

وعامة الشعب؟

- هذا صحيح ومؤسف جداً.

- كيف يمكنك أن تحبيني وأنت تعرفين أنه في يوم من الأيام يجب علينا

أن نفترق لكي نتزوجي دون باديا هذا أو غريماني؟

حولت إيلينا نظرها.

- أنا متأكدة من شيء، قلبي لا يحب سواك ولن أمكّن أبداً من العيش

بعيدة عنك.

- كيف لهذا أن يتم فيما لو كنت متزوجة إلى آخر؟
شدت إيلينا جسدها إلى جسده بقوة.

- سنبقى دائماً عشيقين!

- ولن تتمكن من رؤية بعضنا إلا خلسة؟

- أوه أنا أكره الكلام عن ذلك: هل يوجد حل آخر؟
طبعاً.

نظرت إيلينا إلى جيوفاني بدهشة.

- تابع الشاب بصوت عازم: أن نغادر البندقية.

غمامة من الحزن مرت أمام نظر إيلينا.

- لا يمكن لأهلي تحمل قوانين المدينة وأهرب مثل لصة.

- مع ذلك هذا هو الحل الوحيد الواقعي لكى نبقى معاً، يا إيلينا. فكرت
بهذا طويلاً. يجب عليك يوماً ما أن تختاري بين عائلتك وأنا.

بقيت: إيلينا لفترة طويلة والنظر حائر. ثم نهضت بهدوء، اجتازت
الغرفة واتحت على النافذة.

- أبداً لن أقدر على ترك هذه المدينة. فهي جزء مني.

أدارت رأسها نحو جيوفاني. وعيناها مليئتان بالدموع.

- حتى لو أحببتك أكثر من كل شيء، حتى لو كنت حب حياتي، فلن

أقدر أبداً على التسبب بهذا الحزن لأهلي. مغادرتي ستقتلهما.

أخفض جيوفاني عينيه. ألم شديد عصر صدره، تماسك حتى لا يجهش
بالبكاء. بعد جهد كبير، توصل إلى امتصاص ألمه ورفع وجهه نحو إيلينا.

- أنت محقة، حبيبتى، لن أكلملك أبداً عن هذا.

عادت إيلينا إلى السرير وازممت في أحضانه، وغمرته بالقبل وهي تبكي،

دون إدراك أن شيئاً ما قد انكسر في قلب عشيقها، وأن النتائج ستكون،
مأساوية.

في السادس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ارتدى جيوفاني لأول مرة عباءة وهي عبارة عن معطف يغطى للرأس من الحرير الأسود ومشلح من دانتيل. ووضع قناعاً أبيض وقبعة مثلثة القرون على رأسه. ثم وضع على كتفيه، سترة كبيرة سوداء. ثم خرج من قصر بريولي وانتظر للحظات. كان الوقت ليلاً والضباب الكثيف يغلف البحيرة الشاطئية. يتقدمه خادم يحمل فانوساً، رجلٌ يرتدي الثياب نفسها التحق به في الحال.

- عذراً لأنني جعلتك تنتظر. لا نبصر شيئاً مع هذا الضباب! أنت لا يمكن لأحد التعرف عليك بسهولة...

- أنت كذلك، عزيزي أوغستينو!

هذه سعادة كبيرة أن آخذك إلى أول حفلة رقص مقنعة، سترى. إنها لحظة لا يمكن نسيانها... حيث كل شيء ممكن.
سار الرجلان خلف حامل الفانوس.

مرت الأسابيع. أمسيتان أو ثلاث أمسيات أسبوعياً، جيوفاني وإيلينا يلتقيان سرّاً في غرفة الفتاة، مرات عديدة أوشك أن يفاجأ عند مطلع الفجر، عندما كان يهبط بصعوبة على طول الجدار. لكن لحسن الحظ، لم يكشف أي من الخدم حتى الآن أثر الزيارات الليلية. استمر في مقابلة إيلينا ليعطيها دروساً في الفلسفة التي تروق لها، حتى وإن كانا يجلسان

جنباً إلى جنب دائماً بحضور مجموعة من أصدقاء عائلة كونتاريتي. كانت إيلينا تعبد رؤية جيوفاني وهو يتكلم نهاراً ببراعة عن الأفكار الأكثر سموً ومقابلته ليلاً في السر والدخول معه في نقاشات جدل غرامي مملوءة بالسعادة.

وفي جيوفاني بوعدته ولم يتطرق أبداً إلى مسألة الزواج المؤلمة. لكن أماً داخلياً مستتراً بقي يعذبه وهو يسعى إلى تجاهله.

حاول عدة مرات أن يعلن لعشيقته أنه سيتغيب عدة أسابيع قصد الذهاب إلى روما، لكن لم تكن لديه القوة اللازمة، لأنه يخاف تركها وحيدة. لقد حدد هدفه وهو القيام بهذه الرحلة مع بداية السنة الجديدة، بعد عيد الميلاد الذي يحدد بداية الاحتفالات الشعبية.

التقى بثلاث شخصيات مقنعة بلباس السهرة كانوا ذاهبين إلى الأمسيات الخاصة. عبروا العديد من الساحات التي ملأتها الجموع الغفيرة المتنوعة، الذين يحيون اليوم الأولي للكارنفال. هذا الاحتفال سيستمر لعدة أسابيع ويصل إلى أوجه في ثلاثاء المرفع، الذي يسبق الصيام. بينما الشعب يتسلى ويلهو في الشوارع على أصوات الطبول، كان النبلاء يقيمون حفلات رقص باذخة في قصورهم.

لكن الفقراء والأثرياء كانوا يتقاسمون الولع نفسه بهذه اللحظات، خارج الزمن، حيث كل شيء مسموحاً. كان أهل البندقية سابقاً ميالين إلى لسلوك الحر، يستفيدون من ليالي الشتاء المبخونة ليتعاطوا كل أنواع الفحشاء في زوبعة من الموسيقى والرقص، المروية بالخمور المسكرة.

حتى ولو أن هذه الناحية من الأمور لا تهم جيوفاني، فقد قبل بفضول عرض أوغستينو بأن يرافقه إلى أحد حفلات الرقص المشهورة في المدينة. كان يعرف أنه لن يجد إيلينا، التي كانت تستقبله في بيتها، والتي اعتذر عن دعوتها، خوفاً لأنه لا يتحمل رؤية الرجال المقنعين

يتجاسرون على القيام بحركات في غير موضعها حيالها.
وصلت الجماعة الصغيرة قاصدة قصر غوسوني سيراً على الأقدام أو
بواسطة الزورق، العديد من الرجال يرتدون العباءات والنساء المقتنعات
كن يدخلن إلى القصر الرائع المضاء.

ناول أوغستينو قطعة من النقود إلى حامل الفانوس وقدم بطاقة
الدعوة إلى الخدم، المقنعين، الذين يحرسون مدخل القصر. صعد
الرجلان الدرجات المؤدية إلى الطابق والمنتحية إلى صالة واسعة حيث
يتمتع أكثر من مئتي مدعو بالطعام الأكثر تنوعاً.

في الحال ألهب صوت الكمان المدعوين وبدأ الجميع بالرقص. رغم
أن جيوفاني جاهل في هذا المجال، فقد اندسّ داخل الحلقة وشارك بفرح
العيد. الرقصات الجماعية تتعاقب مع رقصات الأزواج وكان جيوفاني
قادراً بسرعة على القيام ببعض الخطوات بين ذراعي امرأة التي لم يكن
يعرف أن الأمر يتعلق بإحدى الشريفات الرومانيات أو الموسسات
العديدات اللواتي اختلطن بالأعياد. المقدمة عند الأرستقراطيين رقص
وشرب لعدة ساعات. عند منتصف الليل، بدأ الأزواج والجماعات
يتغازلون في زوايا الصالة حيث الأرائك الواسعة، المجهزة بالحواجز
الواقية التي وضعت لهذه الغاية. رفض جيوفاني العديد من عروض
السيدات. بقي جالساً إلى المائدة يشرب مع مجموعة مرحة من المدعوين.
بدأ أحدهم، يشرب بشمالة أكثر من جيوفاني، توقف على الطاولة
وروى مغامراته الماجنة، فجأة تنبه جيوفاني، الرجل يؤكد أنه أمضى
جزءاً من السهرة في قصر كونتاريتي.

آه! يا أصدقائي، يا له من جو بهيج! توجد هناك عدد من النسوة
الراقصات أكثر مما هو في هذا المكان الكئيب حيث أهلنا وأجدادنا قد
تواعدوا بشكل واضح.

صفق الشباب وهم يضحكون.

- منهن من كانت مؤخرتها ساخنة إلى درجة تجعلك تظن أنها كانت جالسة على الجمر منذ العشية!

- وأنت تبرعت لتبريدها بحمام فاتر، هتف رجل من الطرف الآخر من المائدة تحت ضحكات المدعويين.

- ألا تعتقد أن قولي صحيحاً! فقد استولت علي واحدة من تلك النسوة برقصها الرائع لدرجة يقال أنها كانت تقلد قطة في أوج شبقها. أمسكتها من خصرها وحملتها إلى كرسي كبير. تظاهرت بالمقاومة للحظات، ثم رفعت تنورتها الداخلية لتظهر لي عزيزها. آه! يا أصدقائي، يا لها من فاسقة جميلة!

لقد قلّد الشاب الحدث كما جرى.

- قلبتها على الجهة الأخرى وأخذتها من مؤخرتها صاحت كثيراً من عظمة اللذة لدرجة أن بعض العذراوات الأخريات جئن ليشجعنا بانتظار دورهن! بعد أن تمتعت وحصلت على لذتها كاملة، انسحبت وتصوروا أن تلك العاهرة الجميلة أعطتني اسمها لأعود وأشبع لذتها وشهوتها في منزلها! تهلل المدعوون مرحاً.

- اسمها! اسمها! اسمها!

كان الشاب يتردد. ثم اندفع:

- أنتم تعرفون جيداً أنه ليس لي الحق بالكشف عن اسم المرأة المتخفية (المقنعة). لكن ما أقدر على قوله أن الأمر يتعلق... بخطيبي!

رجال ونساء صرخوا من شدة الضحك.

- خطيبي العفيفة، التي كنت انتظر بفارغ الصبر القبله الأولى، قدّمت مؤخرتها لشخص غريب!

المدعوون ضحكوا حتى جرت الدموع من عيونهم بغزارة. التفت واحد منهم نحو جارتته، الموجودة إلى جانب جيوفاني وهمس في أذنها:

- أليس هذا الشاب هو توماسو غريماتي؟ لكن لمن هو إذن مخطوب؟
 - ليس بعد لكنه يتكلم طبعاً عن خطيبته المستقبلية: الفتاة إيلينا
 كونتاريني. زد على ذلك أن حفلة العيد تمت في قصرها.
 - غير ممكن.. مستحيل.

وقع كلامه في قلب جيوفاني كضربات خنجر. بقي صامتاً بضعة
 لحظات، ثم صاح وهو يرفع قبضته:
 - أنت تكذب!

نهض جيوفاني مستشيطاً غضباً. الجميع تسمّر في مكانه.
 - أعرف جيداً تلك المرأة، التي توسّخ شرفها واسمها! هي أجرد
 وأرفع من أن تنزلق بين قوائمك التنتة!
 احتار الشاب من التدخل العنيف لـجـيـوفـاني.
 حاول أن يستدرك الأمر.

- آه... أظن أنني أمام واحد من المعجبين بها، أنا آسف سأسميها
 فجأة.

- أنت تكذب، ارفع قناعك وقدم حساباً بواسطة السلاح على
 الإهانة التي وجهتها لتلك المرأة!
 ومع من لدي الشرف؟
 رفع جيوفاني قناعه.

- ادعى جيوفاني داسكولا، إذا كنت رجلاً جديراً بهذا الاسم، ارفع
 قناعك وتعال لتتقاتل بالسيف!
 حاول رجل التدخل بينهما.

- هيا، اهدأ، صديقنا لم يعط أي اسم، هذا لا يستحق أبداً أن تتقاتلوا.
 - بالرغم من قناعته، فإن هذا الشخص السافل معروف من قبلكم

جميعاً، وكذلك المرأة التي حاول أن يدنسها بكلامه الخسيس. ألا يستحق تدنيس اسم سيدة بغير حق أي تعويض أو ترضية؟

ليس لك من النيل سوى اللقب، في أنفسكم لستم سوى خنازير! خنازير متخفية، معطرة، ومقنعة!

قشعريرة من الرعب استولت على الحضور.

- أنت أردتها.

قفز الرجل على الطاولة، ووقف أمام جيوفاني ونزع قناعه.

- توماسو غريماتي، سأجعلك تتجرع إهاناتك من جديد، سيد داسكولا لتلتاقى بعد ساعة، عند طلوع النهار، مجهزاً بسيف ومصحوباً بشاهد.

- في أي مكان؟

المكان الوحيد في البندقية حيث يمكننا التبارز دون أن تقاطعنا الشرطة، جزيرة سان إيلينا. هذا مسلٌ كذلك؟

- سأكون هناك!

انطلق توماسو مسرعاً وغادر الصالة محاطاً بأصدقائه.

بقي العديد من المدعويين إلى جانب جيوفاني، أخذت امرأة الكلام:

أنت مجنون، هذا الرجل يتقن المبارزة وسبق له أن أرسل العديد إلى

السماء أو الجحيم.

في تلك اللحظة وصل أوغستينو.

- جيوفاني، علمت أنك قد دعوت غريماتي الابن للمبارزة هل فقدت

صوابك، ليس فقط بنصل سيفه الحاد، بل زيادة إن عائلته مرتبطة منذ

قرون بعائلة كونتاريني.

- وماذا يقول أهل إيلينا عندما سيعلمون أن ابنتهم قد نعتت علناً

بعاهرة من قبل هذا الخنزير!

بقي أوغستينو مذهولاً، أخذ رجل الكلام:

- لم يذكر اسم أحد، لقد تكلم عن خطيبته.

- لكن توماسو ليس مخطوباً إلى أي شخص وخاصة إيلينا، تابع أوغستينو.

لقد طلبها رسمياً للزواج، منذ أسبوعين، لكن الفتاة رفضت.

- روى أشياء لا على التعيين ليقضي على حزنه. تابع مدع آخر، لم يكن ذلك سوى كلام في الهواء تقوه به رجل ثمل، لم يصدقه أحد.

- اذهب اعتذر منه ما دام هناك متسع من الوقت يا جيوفاني!

لن أكون أكثر جنباً من هذا الشخص، أوغستينو لدينا موعد في أقل من ساعة على جزيرة سان إيلينا. لدي سيف في منزلي، أتريد أن تكون شاهدي؟.

السابع والعشرون من كانون الأول، بدأ الفجر يطلّ، غادر المركب القناة الكبرى متوجهاً نحو جزيرة سان إيلينا الصغيرة، الواقعة على الطرف الآخر لحي آرسانال. كانت الجزيرة تقريباً مقفرة، في وسطها دير لراهبة متوحّدة، محاط ببعض البيوت، ضفافها موحشة وكل أنواع النشاطات الخفية واللاشرعية، تجارات ممنوعة مختلفة، مبارزات، زنا، كانت تجري خلف حقول القصب.

كانت إيلينا جالسة في مقدمة المركب، تنظر إلى البحر بقلق، هل ستصل في الوقت المناسب لتمتع جيوفاني وتوماسو من الاقتتال؟ كانت قد أنبتت بالحادث من قبل إحدى المدعوات في قصر غوسوني. بينما كان العيد يشرف على نهايته، أسرعت إيلينا لتطلب قارباً وأبحرت، دون إخبار أحد، برفقة هذه الصديقة. فهي تخاف على حياة جيوفاني. كان توماسو رجلاً عنيفاً يحب الشجار، له شهرة أنه مبارز جيد بالشيش، ولمرتين، سبق أن حكم بالسجن لأنه انتصر أثناء المباراة وقتل خصومه التعساء. قلما بقي فيه طويلاً، لأنه إذا كانت المباراة ممنوعة حسب القانون، فقد كانت عملياً مسموح بها عندما كان يوافق النبلاء وتجري عادة أمام شهود، حسب الأصول (القواعد).

سار المركب بمحاذاة ضفاف سان ماركو، ثم الأرسنال. كان الليل قد ترك مكانه للنهار. كانت إيلينا تشعر بضيق رهيب. لديها الشعور بأنها ستصل متأخرة لتوقف هذه المباراة التي كانت تبدو لها مبررة،

بحسب ما روته لها صديقتها فقد حوّل خلط الكحول والفرح الدراماتيكي، للمرارة والحيوية في قلب توماسو، بالغيرة ومعنى الشرف السامي في قلب جيوفاني.

- أسرع من هذا! قالت إيلينا للمجدف الذي كان العرق يتصبّب منه بالرغم من البرد القارس.

حالاّ لمحت الفتاتان طرف الجزيرة، قاربان، قطعاً قارباً المتبارزين وشهودهما، كانا راسيين مربوطين لبضعة دقائق التي ما زالت تفصل قاربها عن الضفة. بدت وكأنها ساعات بالنسبة لإيلينا، شعرت بصعوبة في التنفس، نظراً لأن روحها قلقة. كانت أكيدة من ذلك: مأساة رهيبة حصلت.

ما أن رسا المركب، حتى ألقت بنفسها على اليابسة متضايقة بسبب بزة الرقص التي لم يكن لديها الوقت لتخلعها، رمت حذاءيها وجرت كما استطاعت عبر شجيرات القصب، وصلت إلى ساحة مكشوفة والمشهد الذي حضر أمام عينيها أكد أسوأ مخاوفها.

رجل كان ممدداً على الأرض، وآخران منحنيان عليه، أسرعت إيلينا نحوهم، نهض أوغستينو وأمسك إيلينا بشدة بذراعيها قبل أن ترى هذا المنظر الرهيب.

- إنه ميت! صرخ بها محاولاً حملها بعيداً عن المشهد.

تخبطت إيلينا بكامل قواها.

- دعني، أريد رؤيته!

غطى أوغستينو يديه المرتجفتين وجه الفتاة الباكي.

- لا يوجد شيء، يمكن فعله، لقد ثقب السيف عنقه، لقد فرغ دمه في

دقائق.

بدأت إيلينا بالصياح والعيويل وضرب كتف أوغستينو بقبضتيها.

- دعني، أريد رؤيته، أريد رؤيته.

خدشت إيلينا أوغستينو بأظفارها وتمكنت من الإفلات، وارتمت على الجثة الممدودة. كان المسكين يسبح في مستنقع من الدم ووجهه فاقد المعالم. ارتمت إيلينا عليه وضمت رأسه إلى صدرها. المعطف ذو القبعة من الحرير ومشلع الدانتيل تلتطخوا بالأحمر القاني.

- حبيبي، تمتت إيلينا، لماذا تركتني؟ لن أقدر على العيش بدونك. لماذا... لماذا؟

أجهشت بالبكاء، تراجع شاهد توماسو خطوة إلى الوراء وهمس في أذن أوغستينو.

- لم أكن أعرف أنها كانت متعلقة به إلى هذا الحد.

- وأنا كذلك، هذا مأساوي جداً.

نهضت إيلينا وأمسكت بمعطفه لتمسح وجه صديقها الذي كان مائلاً على الجنب، مغطى كلية بالدم، برقة، مسحت الوجه المدمى بقطعة من المخمل ثم رفعت رأسها وجمعت القليل من القوة التي بقيت لديها.

وتأملت الوجه الذي أحبته كثيراً.

بقيت الفتاة بضعة ثوان والعينان محدقتان على معالم الجثة، أطلقت صرخة، ثم فقدت وعيها.

قام الشاهدان برفع جسد إيلينا ونقلها إلى الضفة ورشها بالماء، لكن الفتاة بقيت دون حراك.

- انظروا! قالت صديقة إيلينا.

رفع الرجال الثلاثة بصرهما، فلمحا قارين كانا يقتربان بضربات قوية من المجازيف.

- أحدهم أعطى إنذاراً، قال أوغستينو مغتاضاً. لحسن الحظ انتهى إلى القبول بالهرب ومغادرة المدينة، لأن ذلك يعني السجن المؤبد.

فتحت إيلينا عينيها، نظرت باندهاش إلى السرير الذي كانت ممددة عليه ورأت أمها واثنين من صديقاتها اللواتي كن يتناقشن، جالسات إلى جانبها.

- صاحت، جيوفاني، وهي تجلس فجأة. جيوفاني!
هرعت أمها وصديقاتها نحوها.

- شكر الله، لقد استعدت وعيك، قالت أمها وهي تسند رأسها، كم كنا قلقات!

أدارت إيلينا عينيها الهلعتين نحو النسوة الثلاث.
- أين جيوفاني؟

- عزيزتي، استريحي، نصحت صديقتها الوفية وهي تمسك بيدها.
دفعت إيلينا يدها بصورة عنيفة.

- أين جيوفاني؟ رددت وهي تحدق بوالدتها.
أدارت فينًا وجهها كعلامة للارتباك.

- ماما، أين هو؟ أريد رؤيته.

نظرت فينًا إلى ابنتها وقلبها منسحق.

- هذا غير ممكن.

- كيف ذلك غير ممكن؟

- أنت.. أنت تعرفين جيداً ذلك الذي حصل؟

- وإذن؟ لماذا لا أستطيع رؤيته؟

- هيا، كوني مدركة، إيلينا، رددت واحدة من صديقاتها.

تعرفين أنه ممنوع أن نقوم بزيارة إلى سجين قتل لتوه رجلاً.

كانت إيلينا منذ قرابة نصف ساعة في غرفة الانتظار لمكتب قاضي قضاة البندقية، بعد الصدمة التي تعرضت لها، معتقدة بوفاة عشيقها قبل أن تكتشف وهي تمسح وجه المسكين توماسو أن جيوفاني هو من كسب المباراة، لا شيء يمكن أن يمنعها من رؤية من تحبه بأسرع ما يكون. اتخذت قراراً على الفور بطلب مقابلة استثنائية لدى جدها.

قام سكرتيره بفتح الباب.

- الآنسة كونتاريني؟

نهضت إيلينا بقفزة.

- نعم؟

- تفضلي بالدخول، أرجوك.

ما أن دخلت الغرفة، حتى ترك القاضي العجوز مكتبه وتقدم، والذراعين مفتوحين.

- ابنتي!

- ارتمت إيلينا بين ذراعيه ولم تمسك دموعها. طلب العجوز من سكرتيره الخروج، ثم توجه نحو الفتاة مداعباً بحنان وجهها:

- ماذا حدث يا أميرتي؟

- جدي، أنا بحاجة إلى مساعدتك.

- أسمعك.

هناك رجل أوقف فجراً لأنه تقاثل في مباراة على جزيرة سان إيلينا.

- أعلمت بهذه المباراة القبيحة والمأساوية، قاطع (القاضي). من جهة أخرى أرسلت تعازي لعائلة غريماتي.

- نظر العجوز إلى إيلينا بحنان.

- أعرف أنك كنت مقربة من الضحية، طفلي المسكينة.

- صحيح، أن توماسو طلبني للزواج منذ وقت قصير وقد رفضت. هذا لم يكن سبباً للمأساة.

- فسري ما تعنيه.

- بحسب شهود، توماسو، الذي أفرط في تناول الكحول مساء البارحة، تفوه عليّ بالفضائح (بخصوصي)، مدعياً أنه احتسبني كعاهرة سوقية أثناء حفلة الرقص المقنع. وذلك من أجل أن يحو هذه الإهانة، قام الشاب جيوفاني بتحديه في مباراة.

بدت علي (القاضي) ملامح الارتباك.

- ليس لدي بعد كل تفاصيل هذه القضية، لكنني طلبت تحقيقاً، سأعطي أمراً بأن تؤخذ شهادتك بعين الاعتبار في كل الأحوال، هذا لن يعيد لنا توماسو البائس الذي وقع ذات يوم على رجل أقوى منه.

- جدّي، لم آتي لأراك بخصوص توماسو، احتجت إيلينا، لكن لكي تساعد جيوفاني داسكولا.

- قاتله؟

- أعرفه جيداً، كان يعطيني دروساً في الفلسفة مع أمي منذ شهرين. إنه رجل رقيق ومهذب جداً وطيب القلب. لم يتصرف كذلك إلا دفاعاً عن شرفي!

- ابتعد القاضي، مفكراً، ووضع يده على لحيته.

- سبق أن سمعت الحديث عن هذا الشاب، منجم بارع من فلورنسا، على ما أعتقد.

- من كالابري، لكنه كان تلميذاً لفيلسوف كبير من فلورنسا،
صححت إيلينا.

- من كالابري... أوم... سوف نجري بحثاً عن هويته. لأنه لم يتقاتل
في مبارزة فقط، بل لأنه حاول الهرب. لقد عثرنا عليه بينما كان راجعاً
إلى منزله يبحث عن بعض الأشياء قبل أن يغادر المدينة. أنت تعرفين
قوانيننا: يجب أن يحاكم، بكل قسوة بسبب التحدي في مبارزة محرمة.
بيد أنه، إذا كانت المبارزة قد تمت لقضية عادلة وحسب قواعد الفن،
فإن صديقك سيخرج من هذه القضية فقط مع السجن لعدة أشهر وطرده
نهائي من المدينة.

- أنا.. أنا أريد أن أطلب منك معروفين صغيرين.

نظر القاضي العجوز إلى إيلينا وصمت.

- هل يمكن أن يأمل بمعاملة حسنة وأن لا يتعرض للتعذيب.

- سأسهر على ذلك شخصياً.

- أتمنى أيضاً رؤيته، ولمرة واحدة فقط ولفترة وجيزة.

- هذا مستحيل، طفلتي.

- لكن... أنت قاضي القضاة.

- القاضي ليس فوق قوانين المدينة! هتف العجوز بقوة. خاصة عندما

يتعلق الأمر بقضية يقحم فيها أشخاص من العائلة.

أنت تعرفين جيداً أنني مراقب من قبل مجلس العشرة... حيث ليس

لدي فيه الأصدقاء والابتعاد ضرورة!

ارتمت إيلينا على قدمي جدها.

- أتوسل إليك! لقد فعل هذه الحماقة بدافع حبه لي!

إنهضي إيلينا:

- لدي الشعور أنه كان أكثر من أستاذ فلسفة بالنسبة لك...

- حقاً، اعترفت إيلينا، نحن نحب بعضنا، حتى وإن كان هذا الحب مستحيلاً حسب قوانيننا.

- أعدك بالتفكير في ذلك، لكن من ناحيتك إلزمي الهدوء ولا تتكلمي عن ذلك لأحد، حتى إلى المحققين وإلى القضاة، عن الصلة الحقيقية التي تجمعك مع هذا الرجل، أسمعيني؟

امتثلت إيلينا بإشارة من رأسها، عانقها جدها وقبلها على جبينها ووعدتها بأن يذهب قريباً إلى قصر كونتاريني ليعطيها أخباراً عن جيوفاني.

بعد ذلك بأسبوع، وَفَى أندريا غريتي بوعدته، تناول العشاء عند حفيدته وابنة حفيدته. كانت إيلينا قد انتظرت هذه اللحظة باضطراب كبير، لم تكن البندقية تتكلم إلا عن هذه المباراة، الإشاعات تتناقل أسبابها وظروف المباراة، يروى أن المباراة استمرت لعدة دقائق وأن جيوفاني كان أخصائياً ملحوظاً بالمبارزة (الشيخ).

بحسب أحد الشهود، فقد تمكن للوهلة الأولى من صرع خصمه في الساحة وطلب منه الاعتذار عن أقواله عن الفتاة التي أهانها. حينها ردّ توماسو بسخرية مبتسماً: «أبدأ لن تتزوج إيلينا، لأنك أنت نبيل صغير من مدينة لا قيمة لها». عندها فقط ناوله جيوفاني بضربة قاضية في رقبتة. البعض لم يكونوا قادرين على تصور هذه القصة. بينما الآخرون، على العكس، فقد أكدوا التصرف: تلك طبيعة توماسو المتبجحة الميالة للتحدي وامتدحوا حسَّ الشرف لدى المنجم، الذي كان الجميع يجهلون حتى الآن ميزاته كمبارز ماهر.

بدت إيلينا مضطربة جداً بهذه القصة الرهيبة، التي تتهمها بصورة غير مباشرة وبطريقة مبالغ فيها، غير أنها كانت تتألم خاصة لحالة جيوفاني، وخشيت أن يضع الشاب نهاية لحياته في السجن.

أمضى (القاضي) نهراً طويلاً وصحته كانت تجبره بأن لا يطيل السهر. لهذا جلسوا إلى المائدة بسرعة دون انتظار، قَدَّم إلى فينَّا وإيلينا أخباراً عن السجين.

- لقد ذهب صباح أمس إلى سجن جيوفاني هذا.

- كيف حاله؟ قلقت إيلينا.

- يعامل بشكل جيد، ومعنوياته لم تبدُ لي منخفضة حتى ولو أنه قليل الكلام.

- متى سيقدم إلى المحاكمة؟ سألت فينَّا؟

- سريعاً، نظراً للتقدم في التحقيق.

- ماذا تعني؟

تنحنج العجوز:

- يجب أن يبقى هذا سرّاً فيما بيننا.

- وافقت المرأتان.

لقد تم ربط تسلسل الأحداث بشكل كامل، لا يوجد أدنى شك حول أسباب المبارزة والطريقة المشينة التي تصرّف بها الشاب غريماتي. يؤكد الشاهدان أيضاً أن المبارزة تمت حسب القواعد المعمول بها، وأن توماسو رفض العودة عن كلامه في اللحظة التي كان فيها سيف خصمه موجهاً إلى عنقه.

- إذًا، جيوفاني يجب أن لا ينال حكماً قاسياً؟

تساءلت إيلينا بقلق.

- للأسف، فقد تعقدت الأمور فيما يخص هوية المتهم. صعد الدم

إلى وجه إيلينا.

- وشاية من مجهول وُضعت منذ ثلاثة أيام في قصر الدوق، تؤكد أن

الرجل لم يكن يدعى داسكولا، قد يكون قروياً بسيطاً حاول، منذ أربع سنوات، التعدي على حشمة إيلينا، لدى عودتها من قبرص عندما اضطرت السفينة على القيام بمحطة استراحة في كالا بري بعد تعرضها لهجوم القرصنة.

توقف القاضي لعدة لحظات ليبلغ السردين المشوي الذي كانت جوليا قد وضعت له لتوها في طبقه، استغلت فينا ذلك لتأخذ الكلام.

- شيء لا يصدق! أتذكر تلك القصة التي حضرتها سلفتي ماريا، وجوليانا. كان الرجل قد حكم عليه بالضرب بالسياط، أليس كذلك جوليانا؟

عبرت عن رأيها برأسها قبل أن تغادر إلى المطبخ.

- هذا صحيح، تابع القاضي، لقد وجدنا التقرير الذي كتبه قبطان السفينة في ذلك الوقت وبعض الشهود عن تلك الرحلة الذين تعرفوا عليه دون تردد. في جميع الأحوال فإن وجود ندب الضرب بالسوط على ظهره لا تترك أي مجال للشك.

- وماذا قال جيو فاني؟ سألت إيلينا المكتئبة.

- أمام العديد من الإثباتات، كانت لديه الحكمة بأن يقر بذلك، فقد شرح أن مجيئه إلى البندقية لم يكن له أي علاقة مع تلك القصة البعيدة. أشك بذلك، لكن لا يهم، الأخطر ليس هنا.

تناول القاضي كأساً كبيرة من النبيذ وتابع:

- ذلك ما سيكلفه غالباً بأنه قد عرّف بنفسه على أنه نبيل بينما هو ليس كذلك.

من هذا فإن القواعد الأكثر أساسية في المبارزة لم تكن قد احترمت، وستحول التهمة إلى اغتيال أو جريمة قتل.

أطلقت إيلينا صيحة صغيرة حاولت إخفاءها بوضع يديها على فمها. نظرت إلى جد والدها محدقة بعينه:

- هو معرض لأي خطر؟

أدار القاضي العجوز بصره نحو فينا، وتهد عميقاً وزفر، وسيمأوه شاحبة:

- قوانيننا قطعية، إذا قتل واحد من عامة الشعب واحداً من النبلاء، فيجب أن يموت محروقاً على الحطب أو يشنق حسب اختياره.

استمرت محاكمة جيوفاني تراتوري نهارين طويلين، ودعت إيلينا إلى المحاكمة كشاهدة، كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها جيوفاني من جديد. نظر العشيقيان إلى بعضهما طويلاً، لكن دون التمكن من تبادل أي كلمة. رافعت إيلينا بقوة كبيرة عن قضية المتهم لدرجة أن القضاة تأثروا للغاية. لسوء الحظ، لا شيء في قضاء البندقية كان يسمح بمنح ظروف مخففة لـ جيوفاني: إما أن يدان ويجب أن يموت، أو يبرأ، وهذا ما كان مستحيلًا. بعد ساعة من التشاور أعطى القضاة الثلاثة حكمهم ونادوا على جيوفاني ليحضر أمامهم. محاطاً بجندين، حضر الشاب الذي هزل جسمه أمام القضاة، كانت إيلينا مثل غيرها من الشهود الآخرين وأبطال هذه القضية في غرفة المحكمة. في صمت مطبق أخذ أكبر القضاة سناً الكلام:

- جيوفاني تراتوري، أنت محكوم عليك بجريمة قتل توماسو لويجي غريماتي، نتيجة لذلك أنت محكوم عليك بالإعدام.

صفق أهل توماسو، وبقيت إيلينا متحجرة ونظرت إلى جيوفاني الذي بقي أيضاً غير مبال. كانت تعرف أنه بقي مخرج أخير لتجنيب جيوفاني المحرقة أو الشنق، هو عفو القاضي العجوز.

بالرغم من توسلات إيلينا، لم يقدم العجوز أي وعد، كان يخشى من

أن تفسّر هذه اللفتة بمثابة فعل محاباة الأقارب وتعكر وإلى الأبد علاقات عائلته مع عائلة غريماتي القوية النافذة جداً. حبست إيلينا أيضاً نفسها. تابع القاضي العجوز:

- مع ذلك، نظراً لعنف الإهانة التي سببتها ضحيتك للآنسة إيلينا كونتاريني وللأسباب التي دفعت السيد غريماتي إلى المبارزة، نظراً للشهرة العظيمة التي كسبتموها سريعاً في مدينتنا، بقي لقاضي قضاة البندقية بأن يمنحك عفوه وتحويل عقوبتك إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. سينفذ الحكم اعتباراً من نهار الغد. الجلسة مرفوعة.

صاحت عائلة غريماتي قائلة يا للفضيحة. ارتمت إيلينا في أحضان أوغستينو وأجهشت بالبكاء ثم جرت نحو جيوفاني الذي غادر القاعة، محاطاً دائماً بجندين. دفعت أحد القضاة، وأفلتت من ذراعي أحد الجنود الذي حاول إمساكها وتمكنت من الإمساك بكم جيوفاني. استدار الشاب إلى الخلف، عانقته إيلينا بقوة قبل أن يتمكن الجندين من القيام بأي حركة. بينما كانا يستعيدان قدرتهما ويحاولان إبعاد الفتاة، استغل جيوفاني ذلك وانتزع المفتاح الصغير الموجود في عنقه. دسّه خلسة في يد إيلينا وهمس في أذنها:

- المغلف الكبير الموجود في خزانتي: سلميه يداً بيد إلى البابا، هذا أمر

مهم.

لم يتسن له الوقت بالمتابعة واقتيد خارج القاعة. إيلينا، التي كانت عندها محاطة بثلاثة رجال نادته بصوت عال عبر الباب:

- اعرف أنني سأنتظرك دائماً.

IV زل

يا رب أرحم، يامسيح أرحم، ويارب أرحم. كانت الكنيسة مغمورة بضباب من البخور. الأصوات الرزينة للرهبان الأربعة تصدح عند بزوغ نور الفجر. الكل يرتدي السواد. رجال الله ينهضون بانتظام أثناء القداس ليذهبوا ويقبلوا أيقونات المسيح والعذراء الموجودة وسط الجوقة. بعد انتهاء القداس خرج الرهبان بفوضى مرحة، كانوا يصلون منذ أكثر من أربع ساعات في كنيسة الدير وتوجب عليهم الانتظار أيضاً ساعتين آخرين ليشاركوا في غرفة الطعام الوجبة الأولى للنهار. كانت هذه الفترة القصيرة مخصصة للنشاطات اليدوية المتنوعة. أحد الرهبان الشباب ما زال يرتدي ثياب المبتدئ بالرهبة، جبة سوداء وحزام عند الوسط، ذهب إلى غرفة الاستقبال حيث كان ينتظره مدير الدير (كبير كهنة الدير)، رجل في الخمسين من العمر ذو لحية سوداء كثة، ومشهور بحسه المشدد نحو الاستقامة العقائدية (المذهبية).

- قال رئيس الدير بحزم وهو يستقبل المترهب الجديد الأخ إيوانيس! لدي ما أقوله لك حول شيء قد يكون مؤلماً بالنسبة إليك. أخفض الأخ الشاب عينيه علامة الخضوع، مثل بقية الرهبان، لحيته خفيفة وشعره الطويل المشدود إلى الظهر، مغطى بالقبعة التقليدية (القلنسوة) المسماة سكوفيا.

- علينا اتخاذ قرار فيما يخص تجنيديك في حياة الرهبة.

سنواتك الثلاث التي قضيتها في التحضير للرهبنة، قد شارفت على الانتهاء، وطلبت أن تنطق بأمنياتك. لقد تكلمنا عن ذلك مع القديم، إيمانك، تحمسك الديني وأخلاقيتك لا غبار عليها، لا شيء يمنع إذن أن تمارس مهنتك.

أبقى الشماس الشاب عينيه خافضتين، منتظراً بقلق شيئاً مزمعاً قد يقوله له رئيس الدير.

- هناك فقط شيء واحد يطرح مشكلة، تابع رئيس الدير بنبرة جافة، لدى وصولك إلى جبل أتوس، قبل أن نقبلك كمبتدئ في الرهبنة في ديرنا، كنت قد التقيت بتيوفان من كريت، هذا الفنان الكبير رحب بك وعلمك رسم الأيقونات المقدسة. عندما استقبلناك هنا، تركنا لك الفرصة وإمكانية متابعة رسم صور العذراء، لأنها تلك هي رغبتك ومهارتك جعلتك تميل إلى ذلك، لكنني قلق بالانعطاف الذي أخذته الأمور، فالأيقونات التي ترسمها أضحت بالتدريج غير متناسبة مع القوانين التقليدية (المألوفة) لرسم الأيقونات.

رفع الأخ إيوانيس عينيه المندهشتين نحو رئيس الدير.

- أو بالأحرى ليس إلا ظاهرياً، صحح الرئيس، طبعاً، أنت تحترم الأدوات والمواد، اللباس، الألوان، الرموز... لكن وجوه العذراء التي ترسمها هي... إنسانية بشرية جداً سأذهب حتى إلى القول أنها شيقة تثير الشهوة.

أظهر المترهب اندهاشاً أكبر من ذلك أيضاً.

أنا متأكد أنك لست مدركاً لذلك، تابع رئيس الدير، بسبب آخر فالعديد من الإخوة الرهبان، كانوا مضطربين بسبب جمال هذه الوجوه، التي تبدو أنها تعبر أكثر عن جمال بشري، حساس، من كونها

تمثيل لأم الله. لأقول لك الحقيقة، أن بعض الرهبان طلبوا مني سحب الايقونات الأخيرة التي تضفي عليهم الكثير من الاضطراب، من الأماكن الجماعية (الخاصة برهبان الدير).

- كيف ذلك؟

- تعرف جيداً أنه لا يمكن لأي امرأة أو لأي أنثى حيوان أن تدخل جبل أتوس المقدس.

البعض من الأخوة، لم يروا النساء منذ عشرات السنين وأيقوناتك المخصصة للعدراء تثير لديهم بعض الأشياء الأثوية لكنهم مرغمين على الهدوء تساعدهم على ذلك قوة إرادتهم على العفة.

- لا أقدر على تصديق ذلك، أقرّ إيوانيس.

- مع أن الأمر كذلك، وأنا نفسي أقلق من التطور. بقي المترهب الجديد صامتاً.

- مهما يكن، فلقد اتخذنا قراراً بأنه لا يمكنك أن تعلن أمنياتك إلا بشرط وحيد.

اتخذ رئيس الدير الملامح الأكثر رزانة ونظر إلى أعماق الشاب.

- تخلّ عن الرسم، تخلّ عنه إلى الأبد.

بعد تناول وجبة الساعة العاشرة غادر الراهب الشاب دير سيمونوس بيترا. متّبعا درباً عريضاً يهبط نحو البحر. بعد عدة منعطفات، التفت إلى الوراء، وقلبه يعتصر، نظر إلى البناء الرائع المنتصب على نتوء صخري. استأنف سيره وسلك طريقاً متعرجاً يحاذي الشاطئ على بعد ثلاثين متراً من البحر. كان الطقس معتدلاً بشكل خاص في أيام الصيف الأخيرة. المنظر الذي حضر أمام هذا الشاب بدا رائعاً، أشجار ذات عطور متنوعة تغطي الأرض الصخرية الوعرة. ممتدة مثل إصبع منسّلة، ولمسافة ستين كيلومتراً في بحر إيجه، كانت شبه جزيرة

آتوس مأهولة بالرهبان منذ القرن العاشر. وقد أصبحت المكان الأعلى الروحي للأرثوذكسية في العالم. لم توقف أبداً السيطرة العثمانية على اليونان ديناميكية آتوس ولعدة آلاف من الرهبان، ليس فقط من اليونانيين، لكن أيضاً، روس، مولدافيون (رومانيا)، قوقازيون، أوكرانيون كانوا يعيشون فيه على وقع الصلاة الأبدية (الدائمة)، بقيت الأغلبية في أكبر عشرين ديراً، موزعة على كامل شبه الجزيرة وعلى طول السواحل الشرقية والغربية في أهم هذه الأديرة التي تضم عدة مئات من الرهبان. هناك نمطان من الحياة الرهبانية التنسكية (التقشفية)، التي كانت تلزم كل الأخوة على العيش وفق القاعدة الطائفية (الجماعة) والحياة الدينية الذاتية نفسها حيث يحتفظ الرهبان باستقلالية في العمل والأملاك أو وجبات الطعام، ولا يشاركون إلا في القداديس (الصلوات). آخرون كثيرو العدد يعيشون في قرى تتعلق بالدير حيث بيوت الرهبان كانت متجمعة حول الكنيسة الرئيسية. هذه القرى تدعى سكيت. البعض من الرهبان اختار نمط حياة فريدة: الانتقال بين الدير والسكيت، دون أن يحدد لنفسه قاعدة خاصة.

أطلق على هؤلاء اسم الرحالة أو المسافرين. أخيراً كان الجبل المقدس يضم في أحضانه العديد من المتوحدين المنتسكين، غالبيتهم رهباناً طاعنين في السن معتادين على الشدة اختاروا الوحدانية (التوحد) بعد حياة جماعية أو ذات وقع خاص.

تابع المترهبين الشاب طريقه إلى أقصى جنوب آتوس ليقابل واحداً من أشهر المنتسكين المتوحدين، راهب عجوز ذو شهرة روحية كبيرة: المرشد الروحي سيمون. سار بمحاذاة الشاطئ مدة ساعتين، تجاوز دير غريغوريو ثم دير ديونيسيو الذي كان قيد إعادة البناء بعد الحريق الهائل الذي اجتاحه قبل ثماني سنوات عام 1535.

عبر يحذر الشلالين اللذين يحيطان بدير هاغيو بافلو، مسندا ظهره

إلى السفح الشمالي لجبل آتوس الذي ينتصب على علو ألفي متر فوق سطح البحر.

بعد أن استراح للحظات، استأنف طريقه الذي كان يدور حول الجبل المقدس من ناحية الجنوب. ابتعد الطريق عن البحر وتقدم المترهين الشاب أيضاً لمدة ساعتين عبر السفوح المشجرة، طوال سيره كان يتلو دون توقف، على وقع حركاته التنفسية، الصلاة التقليدية ليسوع والرهبان والحجاج الأرثوذكس: «إلهي يسوع ابن الله الحي ارحمني واشفق علي أنا الخاطيء».. وصل إلى مفترق طرق. من على اليسار، كان الطريق يستمر نحو غراند لور، أقدم دير عند الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة إلى اليمين، وينتهي الطريق عند البحر.

تذكر الأخ إيوانيس توصية رئيس الدير واختار درب الجهة اليمنى. بعد عشرة دقائق تقريباً، قاطع طريقاً آخر يصعد من البحر نحو الدير، مشى عليه مسافة مئة متر تقريباً ثم دخل في طريق ضيق غير واضح المعالم يتلوى وسط الغابات والأحراش. وصل أخيراً أمام صومعة من الخشب المستندة إلى الصخرة.

كانت الصومعة محاطة بحديقة صغيرة بدورها محاطة بحزام من الخشب الذي كان لا يتجاوز علوه المتر الواحد.

حبل رفيع من القنب يصل بين باب مدخل الصومعة ومدخل السياج الذي يبعد مسافة عشرة أمتار. المتوحد العجوز الكفيف البصر تماماً منذ عدة سنوات، وضع آلية لكي لا ينزعج في كل لحظة من الرهبان أو الحجاج الذين كانوا يقصدونه للنصح في حياتهم الروحية، عندما يكون مستعداً، كان يترك مفتاح باب الحديقة ينزلق على الحبل.

كان الأخ إيوانيس مرتاحاً لدى تحققه بأنه الوحيد ذلك اليوم للقدوم إلى المرشد الروحي. تحقق من أن المفتاح في أعلى الحبل، قرب باب مدخل الصومعة، لينبئ بوجوده، أمسك بلوح من خشب السنديان

المعلق أمام باب السياج وقرع عليه عشرات المرات بواسطة قطعة خشب. ثم جلس تحت ملاذ موضوع على بعد عدة أمتار من المدخل. أخبره رئيس الدير بأنه قد ينتظر ساعات طوال قبل أن يرسل له المرشد الروحي المفتاح بواسطة الحبل علامة على أنه مستعد لاستقبال ضيوفه. ويروى أنه كان يجعل بعض زواره ينتظرون عدة أيام. تابع المتوحد العجوز التفرغ إلى مشاغله كأن شيئاً لم يكن، يدخل ويخرج إلى حديقته، ويظهر أنه لا يدرك من ينتظره أمام صومعته. كان البعض يأس ويعود من حيث جاء، والبعض الآخر ينتظر وهم يتلون الصلاة، دون طعام أو نوم ويروون أن هذا الانتظار كان بالنسبة لهم منبع أكبر النعم الإلهية. الخبر الشائع أنه لدى المرشد الروحي هبة البصيرة والذكاء، التي تتناقض مع عاهة العمى الجسدية. حصل له أن يتعرف مقدماً على أولئك الذين يأتون لزيارته، حتى ولو كانوا لأول مرة.

كان يقرأ في الأفكار، كما يقال، ولم يكن أحد يجروء على الكذب عليه.

وبنوع خاص، فهو رجل ذو قداسة كبيرة، مولود في قرية صغيرة في جنوب روسيا، جاء إلى أتوس في سن التاسعة عشرة ولم يغادرها مطلقاً. سبق أن قاد طوال أربعين سنة حياة متواضعة ومتروية في دير آغيوس بانديلامونوس الروسي الكبير. ثم نزولاً عند رغبته بالعيش في داخل جماعة أقل عدداً، هاجر في سن السبعين إلى قرية صغيرة «سكيت» قريبة من الدير. هناك ولدت شهرته. بعد خمسة عشر سنة، راغباً بالهرب من الأفواج المستمرة من الزوار الذين يهرعون ليتلقوا نصائحه، انعزل أكثر من ذلك، واستقر في هذه الصومعة الضائعة في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة. كان يسكن فيها منذ ثماني سنوات، لكن إذا فقد معظم الزوار أثره، فإن رهبان أتوس يتناقلون سرية أخباره، مثل كنز ثمين. وكان العجوز دائماً مشوشاً أثناء صلاته بسبب الاخوة الآتين من كل جهات أتوس.

مرت ساعات بعد الظهر دون أن يعطي المتوحد أي إشارة حياة. لعدة مرات، حاول الراهب الشاب الضرب على لوح الخشب خوفاً من أن يكون المرشد الروحي لم يسمع بوجود زائر، لكنه تذكر كلام رئيس الدير الذي أوصاه بأن لا ينبئ عن حضوره سوى مرة واحدة، لأنه لدى الناسك المرشد حاسة سمع قوية ولا يروق له أن يعكر الزوار صفوه مرات عديدة. صلى المترهب بحرارة، مردداً دون انقطاع صلاة يسوع وطالباً إلى الله أن ينير الرجل القديس فيما يخص النصيحة التي جاء يطلبها منه. عند هبوط الليل، بدأ الجوع ينهشه.

لحسن حظّه فإنه تحضّر لإمكانية انتظار طويل، أخرج من قميصه المطوي على شكل كيس حول بطنه قطعة من الخبز.. بينما هو يأكل كان يتابع تلاوة الصلاة داخلياً: سيدي يسوع، ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطيء.

حوالي العاشرة مساءً بدأ النعاس يداعب عيون الشاب وما هي لحظات حتى، ظهر نور صغير في الصومعة. فجلس الأخ إيوانيس وتقدم من باب السياج. لحظ، في الغرفة المنارة شكل ظل ضعيف، العجوز يمشي جيئةً وذهاباً.

بعد عدة لحظات فتح المنتسك باب النافذة الواقعة إلى جانب بابه بشكل غير كامل، ومرّر مفتاحاً كبيراً على الحبل. جاء المفتاح ليقرع بصوت قوي على لوحة من النحاس موضوعة على مدخل السياج. وقلبه يخفق، أمسك المترهب الشاب بالمفتاح ووضعها في قفل مدخل السياج، أعاد إغلاقه خلفه وفتح الباب الثاني بواسطة المفتاح نفسه.

مبني شكلاً بشرياً جالساً على فراش من القش موضوعاً على الأرض داخل الغرفة الوحيدة، كانت هناك شمعة مشتعلة في الزاوية على طاولة صغيرة، تقدم المترهب ببطء باتجاه المنتسك. ما أن وصل أمام العجوز الذي ما زال يميزه بصعوبة، حتى انحنى المترهب أمامه كعلامة إجلال واحترام.

- إفلوجيت.

- باسم الله: ردّ المتزهّد راسماً إشارة الصليب قبل أن يمد يده الطويلة والمغضنة للمتّرهبن الذي لثمها كعلامة تقى وورع.

- خذ مكاناً، يا بني، قال المرشد الروحي بصوت لطيف مشيراً إلى مخدة موضوعة أمامه.

كانت يده اليمنى مشغولة بسبحة من القطن صنعها بنفسه. جلس المتّرهبن على المخدة. ناظراً إلى الناسك وأخوذاً بجمال طلّعتة.

لحية طويلة، بيضاء نقية ومشذبة بصورة تقريية، تحيط بوجهه ملامحه المتناسقة. سنوات الحياة الطويلة من الحرمان رسمت أخايد على وجهه. بالرغم من هزاله الشديد وفقدان بصره، فإن وجه الرجل العجوز كان مشعاً بنور داخلي يدل على الطيبة المحسدة.

- باتيوشكا (يا والدي الصغير) أشكرك لهذه المقابلة.

- ما الذي أقدر على فعله من أجلك يا ولدي؟

- جئت بناء على توصية من رئيس دير سيمونوس بيترا، توقف الراهب الشاب، لكن المرشد الروحي لم يحرك ساكناً. تابع:

أنا متّرهبن جديد في الدير منذ ثلاث سنوات وعلي أن أعلن عن نذور الدين (قسم اليمين). لكن هناك عائق، منذ وصولي إلى آتوس، تعرفت على رسام يدعى تيوفان من كريت علّمني مبادئ من رسم الأيقونات.

رسمت الكثير منها للدير، فقط العذراء التي تحمل الطفل. لكن رئيس الدير ومجلس القدماء قلقوا بسبب رسومي الأخيرة، يرون أن الأيقونات التي تمثل العذراء.. كانت تثير الغرائز.

تبسّم العجوز ابتسامة خفيفة.

- يا لسوء الحظ أن أكون كيف البصر لكي لا أستفيد من ذلك.

فوجئ الأخ إيوانيس بهذه الروح المرحه. وتابع بنبرة مترددة:
 - ليس لدي أنا أي وعي بهذا، ورسم هذه الأيقونات أصبح الشيء
 الرئيسي في حياتي الروحية. أصلي دون توقف. عندما أرسم أجد سلام
 الروح. بيد أن القدماء يطلبون مني الإقلاع نهائياً عن الرسم، دون ذلك
 فلن أقبل ضمن الجماعة.

توقف الشاب لفترة طويلة، لاحظ أن الناسك، الذي كان يميز بشكل
 أفضل تعابير وجهه، تجهم واتخذ شكلاً جدياً وبدأ مستغرقاً في صلاته.
 تابع الراهب الشاب:

- منذ أن أعلمني رئيس الدير بهذا القرار، فقدت السلام، لا أنا،
 ولا أتمكن من التركيز أثناء الصلاة الجماعية، أو صلاة التأمل، أشعر
 بإحباط وإعياء دون أن أتمكن من أخذ قرار يخص مستقبلتي في
 الدير، أرغب بحرارة إلغاء قسمي وندوري ومتابعة حياة التقشف
 والتدين.

لكن فكرة التوقف نهائياً عن رسم أيقونات العذراء تبدو لي
 مستحيلة... أنا... أنا أعتقد أنه لن تكون لدي القوة اللازمة.

ساد الصمت في الصومعة، خارجاً كان يسمع نفخ الريح الآتي من
 جهة البحر القريب. والمرشد الروحي يتابع مداعبة سبخته، والمترب
 الشاب يتأمله.

أجاب الراهب العجوز:

- كلمني عن المرأة التي أحببتها في العالم قبل أن تلتحق بالدير.

بقي الأخ إيوانيس متجمداً دون حراك.

- ماذا... ماذا تريد أن تقول؟

- حدثني عن تلك المرأة التي تحرق قلبك حتى الآن والتي ترسمها

تحت معالم قسماوات وجه العذراء.

كان صوت والمرشد الروحي العجوز صارماً، غير أنه مطبوع بلطافة كبيرة.

توقف المترهبين عن الكلام للحظات، ثم أغرق بالدموع بالرغم من كل مجهود بذله، ولم يتوصل إلى كبح بكائه.

هزته نوبات من البكاء القوي وتوجب عليه وضع كفيه على وجهه لتنشيف الدموع دون أي كلمة، لم تحضر أي صورة إلى مخيلته، وشعر بتعب كبير يغزو روحه.

ثم عادت إليه صورة وجه امرأة، وجه حاول نسيانه إلى الأبد، وجه يعتقد أنه محاه من روحه بالصلاة المتواصلة.

بعد عشر دقائق طويلة، تمكن من تهدئة بكائه، لكنه شعر أن قلبه يسبح في هوة من الحزن. بقي الراهب العجوز صامتاً. انحنى ومدّ يده نحو يد المترهبين التي أمسكها بقوة. شعر الفتى بحرارة قوية تأتي من هذه اليد الهزيلة والمجعدة.

امتدت الحرارة إلى كامل جسمه وصعدت حتى قلبه. عندها أصبحت لديه القوة للقول:

- كانت تدعى إيلينا.

على مدى ثلاث ساعات متواصلة، أفصح جيوفاني عن قصته معترفاً بحقيقته إلى الراهب العجوز. في العديد من المرات كانت تعاوده نوبة البكاء وتوجب عليه قطع روايته. بقي المرشد الروحي صامتاً. أرخى يده برفق، غير أنه كان يصغي إليه بحنان كبير لدرجة أن المترهبين كان يشعر بنور دافئ يشعُّ من العجوز. يعطيه الشجاعة لمتابعة قصته. بعد أن روى جريمته والحكم عليه (إدانته) تابع جيوفاني روايته:

- سلّمت إذن مفتاح الخزانة إلى إيلينا، موكلاً لها هذه المهمة التي من أجلها، كدت أن أخدع ثقة معلمي الذي قدّم لي الكثير. أطلق الراهب الشاب تنهيدة عميقة.

- منذ اليوم التالي، اقتادوني إلى متن سفينة عسكرية كانت تنهياً لمغادرة البندقية لتقوم بأعمال الدورية في البحر المتوسط.

أوثقوني في مقعد إلى جانب خمسة مجدفين آخرين، هكذا كنا أكثر من مثني محكوم، كلهم من المجرمين. في الظروف التي كنا نعيش فيها، الأكثر صلابة وبأساً كان يقاوم مدة عامين أو ثلاثة على الأكثر. علي أن اعترف لك يا أبتى، أنني كنت لا أفكر إلا في الموت. لكن العناية الإلهية رأت دون شك شيئاً آخر لأن ما يجب أن يكون حادثاً مميتاً أضحي سبب خلاصي.

عشت بالفعل في ذلك الجحيم من الألم والبؤس منذ ما يقرب ثمانية عشر شهراً، عندما أغرقت سفينة تركية سفينتنا بعد معركة رهيبة.

بينما كان الماء يدخل السفينة من كل حذب وصوب وبينما نحن الآخرون، البؤساء المحكومون بالأشغال الشاقة موثوقين إلى مقاعدنا، نصيح مثل الحيوانات الذاهبة إلى المسلخ (الذبح)، أشفق علينا واحد من حراسنا ليباركه الله، وبدأ بفتح أقفال سلاسلنا. بما أنني كنت في الصفوف الأولى، تمكنت من الإفلات قبل أن تغرق السفينة كلياً. ألقيت بنفسي في الماء وبفضل رحمة الله، تمكنت من الإمساك بقطعة طافية من الخشب. بعد ساعات وساعات، انتهيت إلى الجنوح على شاطئ كان مجهولاً بالنسبة لي. فقدت الوعي لفترة طويلة، وعندما عاد إليّ الوعي، وجدت نفسي ممدداً في أحد الغرف الصغيرة من الدير. لقد جنحت إلى جزيرة كريت وفهم الصيادون الذين أنقذوني، من آثار السلاسل التي تحيط بمعصمي، أنني كنت واحداً من المحكومين بالأشغال الشاقة. بدل أن يسلموني إلى سلطات البندقية التي كانت تحكم الجزيرة اقتادوني إلى دير أرثوذكسي. اعتنى بي الرهبان بحب وحنان، وشرح لي رئيس الدير أن الشعب الكريتي كان مناهضاً لسلطات البندقية التي هي من الكاثوليك. وأنه أبقى عليّ مخبأً في ديره كي لا تتعرض للخطر معاً.

بما أنه كان عليّ البقاء داخل سور الدير، فقد كنت أمضي كل وقتي في القراءة والتأمل في الكنيسة الصغيرة المهداة إلى العذراء. لم أكن مؤمناً متعصباً وكان إيماني غير كامل. لكن أيقونة قديمة للعذراء كانت تؤثر بي بشكل خاص. تلك كانت عذراء الرحمة أو العذراء الحنون. بشكل لا يقاوم، كنت أمضي أكثر أوقاتي في تأملها. لقد رسمها في الماضي فنان روسي يدعى أندريه روبلييف.

في أحد الأيام بينما كنت أصلي أمام الأيقونة مفكراً بقلق وحزن بحياتي الماضية، شعرت بنور وحنان لا متناهيين ينبعثان من الأيقونة، كانت العذراء تبتسم وتبدو كأنها تقول لي: «جرائمك وانحرافاتك». توقف جيوفاني مرة أخرى، وبانفعال شديد كاد يخنق صوته.

- عندئذ، يا أبتى، أجهشت بالبكاء، كما فعلت منذ قليل أمامك. شعرت بفضاعة وفي الوقت نفسه بالحلم اللامتناهي لأم المسيح. بكيت ندماً على جريمتي، ثم جاء الرهبان ليقوموا بصلاة المساء. ولأول مرة انفتح قلبي للشعائر المسيحية الإلهية، كنت في غبطة لا حدود لها. في نهاية الصلاة ذهبت لمقابلة رئيس الدير الذي اعترفت أمامه بحياتي. قال كلاماً قاسياً فيما يخص خطاياي، لكنه عرف كيف يجد الكلمات الحنونة والريحة بالنسبة للخطائي النادم. مع مرور الأسابيع، ومع تقديمي في إتقان اللغة اليونانية، كان يلقني أسس الإيمان الأرثوذكسي، ثم بموافقتي، قررت أن أعلن قسمي الكهنوتي. آه، يا أبتى، لقد عشت لحظات كبيرة من النعمة!

حتى الآن لم ينطق المرشد الروحي بأي كلمة. الوجه هادئ، يواصل الإصغاء إلى رواية جيوفاني وهو يداعب سبخته. تابع المترهبين:
- لم أكن أعلم ما علي فعله. من جهة، كنت أتحرق للعودة إلى البندقية والرجوع إلى إيلينا، لكنني كنت أعرف أن ذلك مخاطرة كبيرة بأن أحطم حياة محبوبتي التي قد تكون تزوجت من أحد المتقدمين لها. من جهة أخرى، فكرت ملياً بالعودة إلى إيطاليا للاعتراف أمام معلمي بفشل مهمتي. لكن رئيس الدير أقنعني بعدم فعل ذلك، خوفاً الوقوع من جديد بين أيدي البندقيين الذين يتحكمون بالبحر الأدرياتيكي. بدا لي أن إيلينا ستكون سعيدة جداً بالنجاح بهذه المهمة التي عهدت بها لها خلال لقائنا الأخير. آمل أن أكون على حق.

تابع المترهبين: في أحد الأيام، جاء رئيس الدير ليخبرني بقلقه، بدأ وجودي في الدير الصغير يُعرف من أناس عديدين فيخشى أن تعلم بذلك السلطات السياسية، عندئذ عرض علي الذهاب إلى جبل آتوس، حيث هناك ثلاثة إخوة عليهم أن يغادروا التنسك طويل. نظراً لأن الجبل المقدس مثل كل اليونان، ضمن الأراضي العثمانية، ولم يكن هناك أي

خطر من أن أقع في أيدي سلطات البندقية. قبلت بطيبة خاطر خاصة لأنني بدأت أشعر بالضيق داخل سور الدير.

هكذا وصلت إلى آتوس. الرهبان الذين كانوا يرافقونني ذهبوا إلى دير سيمونوس بيترا. تفهّم رئيس الدير وضعي ورضي بأن أسكن في قسم الفندقية الذي يستقبل العديد من الحجاج. بعد عدة أسابيع، تلقى الرهبان الثلاثة زيارة مواطن لهم من كريت، الرسام تيوفان. سمع هذا الفنان والرجل الكبير الإيمان، الناس يتكلمون عن قصتي وثنى مقابليتي. رويت له محادثتي أمام أيقونة عذراء الرحمة لآندريه روبليف وعبرت له عن انجذابي نحو الصور المرسومة. عندئذ ويا لدهشتي، اقترح علي أن أتعلم مبادئ رسم الأيقونات وتعليمي رسم عذراء الرحمة حسب التقنية الروسية. بتواضع وحماس قبلت عرضه. خلال سبعة أشهر، تعلمت رسم وتلوين الصور المقدسة قرب هذا المعلم الذي لا مثيل له. ثم غادر دير سيمونوس بيترا ليذهب إلى سترافونيكيتا حيث طُلب إليه أن يقوم بإعداد الرسومات اللازمة للكنيسة وقاعة الطعام. ترددت بادئ الأمر في مرافقة معلمي، غير أن نداء أكثر إلحاحاً أبقاني في سيمونوس بيترا.

كلما تعمقت المشاركة في حياة الرهبان، كلما ازدادت رغبتني بالبقاء فيما بينهم. فتحت قلبي لرئيس الدير والذي أكد دعوة الرب إلي واستقبلني كمرهبين في الجماعة. أخذت الثوب يوم عيد ميلاد المسيح من مريم العذراء. مع استمرارني في الرسم كل يوم للإيقونات، كنت أشارك في الصلاة والحياة الجماعية للإخوة.

استعاد جيوفاني قوته، أغمض عينيه لبضع لحظات والصوت مبحوح من شدة التعب والانفعال، ثم استطرد قائلاً:

- طوال ثلاث سنوات صليت دون توقف باسم يسوع، ناشدت الله، ورسمت أيقونات لأم إلهنا. كنت أفكر أنني طويت صفحة الماضي

بشكل كامل، لكن عندما أكد لي الرئيس أن أيقونات العذراء كانت «إنسانية أكثر من المعهود» بدت لي صعوبة فكرة التوقف عن الرسم مثل فكرة مغادرتي الدير.

توقف المترهبين مرة أخرى عن الكلام.

- الآن، يا أبتني، جئتك متوسلاً لتتبر قلبني الذي يهيم من جديد في الظلمات، أعتقد أن الله سيطلب مني التوقف عن الرسم وأعلن عن قسمني في الدير؟ أو علي الاستمرار في الرسم وأتخلى عن حياة الدير؟ كانت عينا جيوفاني محدقتين في وجه العجوز المتجدد، المضاء بنعومة بواسطة شمعة صغيرة. من فمه، كان مقتنعاً بذلك، فقد نطق الكلام الذي سيحرره من هذه المعضلة (الدوامة) التي دفع فيها. في نفس الوقت السؤال الذي طرحه الناسك (المرشد الروحي) حول إيلينا أيقظ ذكرياته المدفونة ولم يكن ذهنه أبداً أكثر صفاء. أو على الأصح أن شيئاً ما كان قد جرى، في قلبه وجسده الذي حركه، وهزه في تأكده وفي شكوكه (ظنونه). حالته النفسية لم تكن أبداً مثلما كانت قبل دخوله كوخ التوحد. السؤال البسيط الذي طرحه الرجل العجوز قاده إلى شرح قصة كامل حياته، وفهم أن قلبه ما زال متعلقاً بإيلينا. في نهاية روايته، طرح بصورة أكثر السؤال الذي أتى به إلى الرجل القديس. لكن في أعماقه، كان يشعر بصورة مبهمة أن الأمور لم تعد تطرح بنفس العبارات. لذلك ظل متوتراً ومتشوقاً لسماع جواب المرشد الروحي سيميون.

بقي الراهب العجوز صامتاً لعدة دقائق، ثم رفع اليد اليسرى وأشار إلى طاولة موضوعة على عدة أمتار من المترهبين:

- قد تكون عطشاناً، يا ولدي. اذهب وتناول قليلاً من الماء.

فعلاً كان فم جيوفاني ناشفاً ونهض ليشرب، عاد وجلس قبالة المرشد الروحي. ابتسامة خفيفة كانت تطفو على محيا هذا الأخير:

- لأي سبب دخلت الدير ولماذا تريد اليوم إلغاء القسم؟

بقي جيوفاني حالماً.

- لكى أكرّس نفسي كلياً لله في الصلاة المستمرة، انتهى به الأمر إلى

التصريح بهذا.

- حسناً. لماذا إذن تكرر كل حياتك لله بالصلاة؟

- لأنه الخير الأكثر لطافة والأقرب إلى النفس من كل شيء. وأنى لا

أريد أبداً أن أهدد حياتي في طلب الخيرات الأخرى التي كانت تقودني

إلى دمار نفسي أو لحياة الآخرين.

- إذا كنت فهمتك جيداً، أنت دخلت وتتمنى البقاء في الدير، بدافع

حب الله وخوفاً من أن تفقد العالم؟

- إذا صح القول، نعم.

من الممكن أن تكون مسألتك هنا، جيوفاني.

(فرك) المترهين عينيه.

- الخوف من العالم هو في الواقع خوف من الذات. إذا كنت تخشى

نفسك، فإن حبك لله سيكون دائماً محدوداً ولن تتوصل أبداً إلى بلوغ

الهدف المنشود للحياة الروحية.

بقي جيوفاني صامتاً، غير مهال بذلك، ثم سأله:

- ... ما هو إذن هذا الهدف؟

- هو تمجيد الإنسان.

تأمل المترهين كلام الراهب العجوز، ثم تابع:

- هل يمكنك أن تزيدني القول، يا أبتى؟

أطبق العجوز جفنيه على عينيه الكفيفتين، كما لو كان يبحث عن

الجواب في أعماق نفسه.

تقول لنا الأناجيل بأن «الله خلق الإنسان على صورته ومثاله».

أفهم اللاهوتيون القديسون للكنيسة الشرقية، أن كل الحياة الروحية

المسيحية تنطلق من هذا الكلام الأساسي. «الله خلق الإنسان على صورته» تعني أن الإنسان كان المخلوق الأرضي الوحيد الذي يحمل بصمة الله في ذاته. هذه البصمة أو السمة، هي ذكاؤنا المنطقي وإرادتنا الحرة. الكائن البشري هو الحيوان الوحيد الذي يملك العقل وحرية الاختيار. بهاتين الموهبتين يمكن الوصول إلى المشابهة الإلهية. هذه المشابهة ليست معطاة دفعة واحدة، فهي موجودة على شكل فراغ، نداء، شكل كامل، في رغبة. وبالاستناد والاعتماد على الموهبتين الإلهيتين اللتين هما ذكاؤه وإرادته، يتمكن الكائن البشري، بكل حرية كاملة أن يتطلع ليصبح شبيهاً بالله.. وأنه بالمساعدة المستمرة التابعة للنعمة الإلهية سيصل إلى ذلك.

- لكن ألم تقل لنا الكتب المقدسة أن خطيئة آباءنا الأوائل كانت بالضبط ناجمة عن أنهم حاولوا «أن يصبحوا كالألوهة»، بإيحاء من الأفعى، وذلك بقطعهم الثمرة المحرمة التي تتيح لهم معرفة الخير والشر؟

- خطيئتهم ليست أنهم أرادوا أن يصبحوا شبيهين بالله، لأن تلك هي تطلع كل كائن بشري. خطيئتهم أنهما أرادا أن يصبحا بنفسيهما، دون المساعدة الإلهية، غير معتمدين إلا على مجهوداتهم الخاصة ودون المرور بالطريق الذي قد أعدّه الله لهم. هذا هو السبب الذي من أجله كان عليهم أن لا يلمسوا ثمرة هذه الشجرة التي هي بحق ثمرة التأله لأنه ما دامت هذه الثمرة لم تنضج، فلن يسمح الله للإنسان أن يتلعبها. ليس لأنه يخشى من أن يصبح الإنسان بالنسبة له منافساً أو نداً، كما كانت تقصد الأفعى! لكن ببساطة لأن الإنسان ليس جاهزاً. فالتأله عمل طويل يجب أن ينجز على مراحل وبالمساعدة الدائمة للروح القدس.

- أفهم يا أبتى. لكن لماذا أطلق على هذه الشجرة اسم: شجرة معرفة الخير والشر...؟

- لقد قمت بدراساتك اللاهوتية حسب الترجمة اللاتينية للقديس جيروم، أليس كذلك؟
- حقيقة.

- بالفعل، هذه الشجرة تدعى، حسب الترجمة الصحيحة «شجرة معرفة المكمّل من غير المكمّل». للأسف فإن اللاهوتيين اللاتين، بعد ترجمة جيروم، قد ترجموا هذه العبارة المعقدة بشجرة معرفة الخير والشر. لنفس السبب فإن الخطيئة الأولى للإنسانية كانت مفهومة بمثابة خطيئة أخلاقية. بينما يتعلق الأمر بشرح حول وجود الله، انقطاع في نظام الكائن، لأن الله خلق الكائن البشري في وضعية عدم الاكتمال، لكن مع رغبة في الاكتمال.

هذه الرغبة تدفع الإنسان للبحث عن الله لكي يصبح شبيهاً به. هذا الانتقال التدريجي من غير المكمّل إلى المكمّل - وفقاً لمفهوم أرسطو: «من القدرة إلى الفعل» يجري بواسطة الذكاء وبالإرادة البشرية في ممارسة حرية الاختيار، حسب بعض القوانين المتعلقة بوجود الله. الله وحده يعرفها وسيكون مغامراً إذا أراد التفكير باجتياز هذه المراحل دون أن يحرك بواسطة النعمة الإلهية، ويترك نفسه ينقاد بكل ثقة.

توقف المتوحد الناسك عن الكلام، ثم استأنف بصوت قوي:
- الإغواء الأساسي والدائم للإنسان، بالرغم من أنه مفهوم بشكل سيء تحت عبارة «الخطيئة الأصلية» هو الإرادة في اكتساب السلطة الإلهية المطلقة دون المرور عبر تنقية وتطهير قلبه وعقله، التطهير الضروري سيسمح لتلك القوة أن تمارس في الحب. لكن هذا التطهير يتطلب أن نُنزَلَ فينا، في أعماق أعماقنا. لأنه في قلبنا فقط، يتم اللقاء مع الله، كما يذكر ذلك الكتاب المقدس: «إن مملكة الله هي في أعماقنا». بدل أن نضع ثقتنا بالله، ونستسلم مثل طفل بين يديه ثم البحث عنه في داخلنا، بأننا نرفض مساعدته ونبحث على أن نرتفع بذواتنا نحو

السموات الخارجية، ذلك ما كانت تمثله صورة برج بابل، لكن هذا الإغواء التبجحى، هذه الإرادة بالسلطة المطلقة التي تحيد الكائن البشري عن حتميته الصحيحة، يجب أن لا تنسينا أن التأله هو هدف الحياة الروحية.

نحن مدعوون جميعاً، وهذه هي عظمة الحياة البشرية، لنصبح شبيهين بالله.

هل يعني هذا أننا سنصل إلى الذات الإلهية وسنكون متحدين بها؟
- قطعاً لا، المسيحية ليست فلسفة حلولية (فلسفة قائمة بوحدة الوجود: الله والطبيعة واحد)، التي بحسبها الروح الفردية ستمتزج مع الطبيعة أو روح العالم. الله في ذاته، سيقى إلى الأبد منيعاً على الإنسان. لو كنا قادرين على معرفة الله، ونتمناه وننضم إليه، فذلك عبر طاقاته.
- ماذا هناك للقول؟

- الله هو الآخر الكلي. في أعماق سره، لا يمكن أن يعرف إلا من خلاله وحده. لكن مدفوعاً بالحب، أراد هذا الإله المطلق الخروج من ذاته، ينتشر، يظهر، ويقدم نفسه للمشاركة مع مخلوقات جاء بها بحرية إلى الوجود والتي لا توجد إلا فيه وبه.

«هذا الإشعاع لجوهر «ذات» الله، هذا الذي سماه دونيس «القدرات» الإلهية وغريغوار بالاماس «الطاقات» الإلهية. هذه الطاقات هي أصل ونهاية الخلق. كل الكائنات الحية المخلوقة على صورة الله إذن الموهوبة بالعقل والإرادة مدعوة للمشاركة بحرية في الإشعاع الإلهي لكي تكون مؤهلة. لكن هذا التأليه هو مشاركة بالحياة الإلهية التي تحافظ على غيرية الله وغيرية الإنسان، فهي ليست خلط أو مزج أو انصهار أو استيعاب في الإلهي الفائق الوصف. هنا تكمن كل الدقة «الحجة الدقيقة» في العقيدة المسيحية، المعروفة بشكل سيء أو المفهومة بشكل خاطئ.

سعل (المرشد الروحي)، بينما كان جيوفاني مأخوذاً ومفتوناً. صحيح أنه درس اللاهوت، لكن لم يسبق أن أحداً كلمه عن الحياة الروحية بطريقة قاطعة بهذه الدرجة، ومحدداً بوضوح هدفه الأخير. سأل من جديد الراهب العجوز:

- لكن إذا كان هذا هو هدف كل حياة إنسانية، أليست للحياة الرهبانية نزعة لتجمع أفضل الظروف لكي يركّز الإنسان على هذا الأساس ويضع نفسه كلياً بين يدي الله؟

- طبعاً، ورغبتك أن تكرس نفسك له هي مشكورة، لكن هذه النيّة يجب أن لا تكون قناعاً يمّوه الخوف من العالم ومن ذاته، دون هذا فإن كل حياتك الروحية ستكون مغلوطّة. في حين يبدو لي أنك في ذلك متأثراً بثقل ماضيك وبالخوف من شهوتك الجسدية.

- قد يكون هذا صحيحاً يا أبتّي، لكن ماذا علي أن أفعل لأتححر من ذلك؟

- خطاياها العديدة ستُغفر لها، لأنها أظهرت الكثير من الحب. قال سيدنا المسيح بخصوص المرأة الخاطئة. أنت أيضاً، أخ إيوانيس، لقد ارتكبت خطايا ثقيلة، لأنك أخذت حياة إنسان، تصرفت بداعي الحب لامرأة وندمت على جريمتك بقلب صادق. إذن لا تياس أبداً من عفو

المسيح، احتفظ في ذهنك رحمة الله وهي جبلٌ أعلى بكثير من هوة خطيئة الإنسان.

واقفه جيوفاني بحركة من رأسه، هذا ما كان يعرفه منذ اهتدائه أمام أيقونة عذراء الحنان في الدير الصغير في جزيرة كريت، لكن سماعه ذلك من فم الرجل القديس حرك أعماق مشاعره.

- تابع الناسك بصوت قوي رغم تعبته: قلبك ليس في سلام،. الندم ينهشك مثل سُم قاتل. لا أعرف ما إذا كانت جريمة قتل ذلك الرجل أو لأنك أخلفت وعدك حيال معلّمك أو أيضاً للشعور بالشهوة نحو تلك المرأة، لكن قلبك ليس في سلام. تشعر أنك مذنب بسبب هذه الانحرافات وأن عقدة الشعور بالذنب عائق يمنع نور الروح القدس من الولوج إلى أعماق روحك.

- لكن يا أبتى، كيف يمكن أن لا نتهم من قبل ضميرنا بعد قتل رجل وخيانة ثقة معلم؟ شعرت بندم عميق حتى لحظة اهتدائي. منذ ذلك الوقت، تلقيت مغفرة الله ووجدت روحي السلام من جديد.

- أتعقد؟ أتظن ذلك؟

- تابع جيوفاني، ما اختل توازنه بسبب كلام المرشد الروحي. شعرت به منذ المحادثة مع رئيس الدير فيما يخص أيقوناتى وهو زيادة الحزن أكثر من الندم.

- أنت لا تشعر إذن بأي توبيخ للضمير في اكتشاف أن الأيقونات التي ترسمها تشبه إلى حدّ كبير المرأة التي أحببتها والتي ما زلت تشتهيها بعد، مما تشبه القديسة أم المسيح.

- هذا أنت ما أتيت على اتهامى إياه.

ألا تظن أنك تعرف ذلك سابقاً في أعماق ذاتك؟ ألا تظن أن الحقيقة هي الحب الذي ما زلت تكنه لتلك المرأة، والتي ترفض رؤيتها، كان

ثقيلاً جداً يصعب حمله؟ ألم أقل ببساطة فقط ما كان قلبك يعرفه سابقاً، لكنه يرفض قبوله؟

- أقرّ جيوفاني أنا.. أنا لا أعرف..

ثم ألا تعتقد أن هذا الشعور الداخلي الغامض، لا يمكن أن يُعرَف ويعبّر عنه، إلا بشهوة مقبولة أو بتأنيب الضمير (الندامة)، قد تحوّل إلى شعور مرضي بالذنب؟

- ماذا تريد القول؟

- للشفاء من الحزن الذي يرهق نفسك، عليك أولاً الإقرار بالشهوة التي مازلت تحملها لتلك المرأة. يجب عليك فيما بعد الاختيار بين أن تلتحق بها وتعيش حبك لأجلها، أو أن تبقى هنا وتتقدم إلى الله طالباً من المسيح أن يطهّر هذا الحب ليجعلك تكبر في القداسة دون أن يُغاظ قلبك بهذه الشهوة والشعور بالذنب الذي يولده في ذاتك.

- أفهم يا أبتى، لكن لو أردت البقاء هنا، أليس عدلاً، وضرورة أن يتهمني ضميري بأنني مازلت أشعر بالحب نحو امرأة بينما قطعت عهداً بأن أكرّس نفسي كلياً إلى الله والصلاة؟

- أعتقد أنك تخلط تأنيب الضمير وعقدة الشعور بالذنب.

- نظر جيوفاني إلى الناسك العجوز بدهشة: تأنيب الضمير هو الندامة (التوبة) المخلصة التي تحس بها بعد ارتكاب خطيئة، هذا الندم يعيدنا إلى نور الروح القدس الذي يعيننا على النهوض. عندئذ تكون عين روحنا ناظرة كلياً نحو الله. بالمقابل الشعور بالذنب، هو سُمّ الروح. بدل النظر إلى الله، فإننا ننظر إلى ذاتنا ونحكم أنفسنا بأنفسنا، أحياناً بغفلة منا. بما أننا ارتكبنا ذلك الفعل السيء، أو لأن لدينا ذلك التفكير السلبي، فإننا نحكم على أنفسنا بأننا سيئون، سنيأس من ذواتنا، والأخطر أيضاً، أننا نضع في الله إدانتنا الذاتية، عندها يأخذ الله شكل

قاضي مخيف، آنذاك، فإننا لا نسمع مطلقاً صوت الله، بل صوت ضميرنا المتهم الذي ارتدى قناع العبادة لإلهنا القادر والرحوم. تذكر قول الرسول يوحنا: إذا كان ضميرك يدينك، فإن الله أكبر من ضميرك.

الثمار البشرية للندم والشعور بالذنب هي الحزن والقلق وحتى اليأس. الثمار الإلهية للندم وتأنيب الضمير هي الفرح، السلام وفعل الرحمة. بانفتاحنا على مغفرة الله الحاضرة دائماً، فإن الندم المخلص الصادق يحرر قلبنا، هناك حيث الندم المرضي يغلقه على ذاته وعلى شياطينه.

لدى سماعه كلام المرشد الروحي، أدرك جيوفاني بالفعل أن عليه الشعور، بطريقة أكثر عمقاً، بالذنب، وأنه ما زال مسكوناً، رغمًا عنه بذكرى إيلينا، لكن أيضاً بانحرافات السابقة. عند اهتدائه، طلب تلقى المغفرة الإلهية ظناً منه أنه تحرر من هذا الندم، بينما الندم ما زال ينهش ذاته على غفلة منه.

- أبتي، أدرك أن قلبي ما زال تحت سيطرة ندم سيء بسبب خطاياي السابقة. مع أنني سئمت نفسي إلى الله مرات عديدة وكنت أعتقد أنني حصلت على مغفرته. لماذا يستمر وزر هذه الأخطاء يثقلني رغمًا عني وبالرغم من صلواتي؟

رفع الناسك المترهد عينيه الكفيفتين نحو السماء وأطلق تنهيدة قبل أن يتابع:

- الشيء الوحيد الذي يجب أن تأخذه بعين الاعتبار هو حب الله.. لأنك عيد الخوف.

قوجي جيوفاني بهذه الملاحظة.

- ماذا تريد القول، يا أبتي؟

- كل خطايانا، كل أخطائنا، تأتي من ثلاث عِلَل:

التكبر، الجهل والخوف. لقد حدثوك أثناء دروس اللاهوت عن التكبر لكن أغفلوا الاثنين الآخرين، الجهل، الذي استنكره سقراط بشكل جيد، وهو داء الذكاء. والخوف وهو المرض الذي يتلي به قلبنا. بما أن المعرفة هي الوسيلة الوحيدة لقهر الجهل، فإن الترياق الوحيد للخوف هو الحب، قلب الإنسان لا يصبو إلا إلى الحب وأن يكون محبوباً. كل جراح الحب، التي تبدأ من طفولتنا، تولد مخاوف تنتهي إلى شلل قلبنا وتجعلنا نرتكب كل أنواع الأفعال السيئة، وأحياناً الجرائم. - لكن ليس بدافع الخوف ارتكبت هذه الجريمة.

بل بدافع حماس الحب وبدافع الغيرة...

- قال العجوز لا أشك في ذلك! لكن وراء هذه الأقاويل الدينية التي تُلَفِّظُ بها ذلك الرجل، من أين جاءك هذا الانفعال (الحماس) وهذه الغيرة القاتلة؟

فكر جيوفاني للحظات.

- بحزن كبير، يبدو لي ذلك، دون شك، معرفة أنه لا يمكنني أبداً تزوج المرأة التي كنت أحبها، لأنني لم أكن قد ولدت حيث يجب. - طبعاً، لأن الحزن يأتي من الحرمان من شيء مرغوب، لكن أليس الخوف من فقدان هذا الحب هو الذي أصاب رأسك بالدوار؟ - أجاب جيوفاني بخجل دون شك.

- ثم أليس الخوف من تعذيب معلمك السابق، أو تخييب أمله ما زال يحزن قلبك؟

- حقاً، اعترف المترهب بعد برهة قصيرة من التفكير.

- الداء الوحيد الذي يجب قهره في قلبك، يا ولدي هو الخوف.

كل العيوب الأخرى: الغضب، الغيرة، الحزن، الإحساس بالذنب المرضي، تأتي من ذلك العدو الداخلي. إذا ما توصلت إلى السيطرة على

خوفك، فلا شيء يصيبك ولا أي قوة شريرة سيكون لها السيطرة على قلبك. ولقهر الخوف، ما من دواء له سوى الحب. كل طريق للحياة، هو الانتقال من الخوف إلى الحب.

ظل الرجل العجوز صامتاً. جمع يديه أمام فمه وأحنى رأسه قليلاً. ثم فتح راحتيه المجمعدين ومدّهما نحو جيوفاني: يجب أن تغوص في حب الله. عندها ستولد من جديد مثل وليد، محرراً من الخوف الذي - حتى الآن - منع قوة الحب من امتلاك قلبك كله.

توقف المرشد الروحي ووضع يديه على ركبتيه. كأنه في حلم سأل: - أتعرف كم من المرات وردت في الكتاب المقدس كلمة «لا تخف؟».

- كلا.

- ثلاثمائة وخمس وستون مرة. في كل يوم عند شروق الشمس يقول الله: «لا تخافوا! لا تجزعوا!» إذا ما فهمنا الوحي التوراتي جيداً، ولا شيئاً آخر: معناه كشف انتصار الحب على الخوف، والحياة على (الموت). منذ جريمة القتل الأولى التي ارتكبتها قابيل، كل تاريخ الإنسانية ليس سوى سلسلة دموية من القتل مدفوعة بالخوف، بالحاجة للسيطرة وروح الثأر. بعد الأنبياء، جاء المسيح ليضع حداً لهذه الحلقة المحنونة. كل قدرة الله تحت تصرفه مع ذلك قدّم نفسه على أنه خادم متواضع، وهو على الصليب لم يلعن جلاديه، لكنه صرخ: «أبتي، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» جاء ليعلمنا قوة المغفرة، انتصار الحب على الحقد وعلى الخوف.

عاد المرشد الروحي إلى وضعيته الأولى، ويديه على فخذه وتابع التسبيح في سبحته.

- لا أريد أن أضيع عليك وقتك ولا أن أستغل طبيعتك، يا أبتي.

كلامك يلمس قلبي وإني سأ تأمله طيلة حياتي. لكن ماذا يجب علي فعله الآن؟

- أغرس بعقلك الحب والرحمة الإلهية.

ارتبك جيوفاني وتردد في إعادة طرح السؤال.

أخذ الأمور بطريقة أخرى.

- أتظن أن علي أن أتابع رسم الأيقونات؟

- ليس علي أن أقول ذلك. إذا لم تجد الجواب في أعماق قلبك، إلى

معلمك (الذي علمك رسم الأيقونات كيف يحكم علي رسومك الأخيرة).

- أتظن أن من واجبي القيام بأداء أمنياتي الكهنوتية؟

- ليس من واجبي أن أقول ذلك، إذا لم تجد الجواب في أعماقك،

عندئذ اطلب من رئيس ديرك عن رأيه.

فكر جيوفاني للحظات، ثم طرح سؤالاً آخر.

- أتظن أن قلبي يجب أن يكون أسيراً لحب تلك المرأة؟

- إذا كان قلبك حبيس الحب، عندئذ فليباركك الله.

- لكن إذا كنت أحب تلك المرأة، فكيف يمكنني تكريس حياتي لله؟

- لا يوجد أي تناقض بين لجوئك إلى الله في حياتك الرهبانية وبين

حبك لتلك المرأة فيما لو قررت العودة عن الشهوة الجسدية التي تجذبك نحوها.

لا تحاول نسيانها أو إنكار شهوتك، كما فعلت حتى الآن، خوفاً من

أن تستسلم إليها. صلّ من أجلها في كل مرة يظهر وجهها فجأة في داخلك وأودعها رحمة الله اللامتناهية.

- وإذا كنت أرى أن هذه الشهوة تلازمي، بالرغم من كل صلواتي؟

- إذا كان قلبك مضطرباً باستمرار، عندئذ لا تبق في الدير. كما قيل في الكتب المقدسة (الأنجيل): «يوجد الكثير من المساكن في بيت الرب.. والقليلون هم المدعوون إلى العفة الأبدية. إن مصيرك قد يكون في مكان آخر» يا ولدي، صل للمسيح ولأمه، تعمق في حبه وستحصل على الجواب الصحيح على أسئلتك.

بعد لحظات من الصمت، رسم المرشد الروحي إشارة الصليب باتجاه جيوفاني، مشيراً بهذه الطريقة إلى نهاية الحديث.

قبل المترهين يد الرجل العجوز، وشكره من أعماق قلبه. نهض بصعوبة نظراً لأن ساقاه كانا متشنجين، أدرك أن الفجر بدأ يُطل برأسه. في اللحظة التي فتح فيها باب الصومعة، أعطاه الرجل العجوز الوصية الأخيرة:

- لا تنس أبداً هذين القولين للمسيح، يا ولدي: «لا يوجد حب أكبر من أن يقدم الإنسان حياته للذين يحبهم» وأيضاً «أنا ولدت ولم آتي هذا العالم إلا لأشهد بالحقيقة». الحب والحقيقة هما المنارتان اللتان ستقودان حياتك.

بقي جيوفاني مجمداً في مكانه. شكر مرة أخرى المرشد الروحي (الناسك) وغادر الصومعة.

سيدنا يسوع، ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطئ... .

القلب مترسخ في الصلاة، عاد جيوفاني إلى دير سيمونوس بيترا، وقد تحررت روحه من حمل ثقيل. في الوقت نفسه، بقي فكره منشغلاً بالسؤال الذي ظل يلاحقه. كلمات الناسك تسمح له باتخاذ قرار.

غير أنه يعرف في داخله أن عقدة المسألة كانت إيلينا.

هل بمقدوره نسيانها كما أمل ذلك منذ ثلاث سنوات؟

الآن تأكد له أن ذلك كان مستحيلاً. ما أن عاد إلى الدير، ونظر بقلق إلى الأيقونات المذنبه. وما كان حتى ذلك الوقت يرفضه أصبح جلياً لعينيه: خلاف ملامح العذراء، كان يرسم إيلينا بالواقع.

فمها، نظرتها، كلما زاد في نسيانها، ازداد في رسمها. معتقداً نفسه محرراً من الماضي، غير أنه لم يتوقف عن تمثيله. كان يظن أنه دفن هذا الوجه المحبوب إلى الأبد، وهامو ينبعث من جديد بواسطة يديه، قلبه، حتى بصلواته. واعياً لكل ما يفعله، شعر جيوفاني بوهن عميق. دون تفكير، أمسك بالأيقونات، بكل الأيقونات التي منعها رئيس الدير، وذهب إلى مطبخ الدير ورماها في النار. عندئذ عادت أقوال الناسك إلى ذاكرته. وأدرك أنه تصرف بدافع الخوف. بكى بحرارة بينما كان ينظر اللوحات المرسومة وهي تفرقع، والصور تتلاشى خلف السنة اللهب.

قرر القيام بزيارة لمعلمه تيوفان الذي بدأ برسم جدران دير

سترافرونيكيتا. قص على راسم الأيقونات أحداث الأيام الأخيرة التي كان يكنّ فيها لجيوفاني عطف الأب لابنه. بعد أن قضى عدة أيام بالتفكير، أعطاه الرسام الكريتي رأيه:

- الآن عدت إلى وعيك، بفضل كلام الأب سيميون الجليل من اللبس والغموض اللذين كنت فيهما. أظن أنك قادر على العودة إلى الرسم. اجتهد وتدرّب على إيقونات القدماء وحافظ على قلبك متوجهاً نحو العذراء. عندما ترسم ابق متيقظاً: إذا ما تعرفت من جديد إلى ملامح وجه تلك المرأة، لا تيأس، ابدأ عملاً من جديد.

عاد جيوفاني إلى دير سيمونوس بيترا مستقوياً بهذه النصيحة وأعلم رئيس الدير برغبته في أداء القسم الكهنوتي ومتابعة الرسم ضمن الاستعدادات الجديدة.

أدى عناد وتشبث رئيس الدير برأيه إلى إدخال جيوفاني في أزمة أعمق. فقد جابته مسألة مع السؤال المطروح من قبل المرشد الروحي (الناسك): هل كان يشعر بالشهوة حيال إيلينا؟ هل ما زالت فتاة البندقية تسكن قلبه، ليس فقط بطريقة روحية، بل أيضاً جسدية؟ هل كان بمقدوره في حالة الشك هذه أن يتكرّس لله في العفة دون المخاطرة بخداع نفسه وأن يخالف يوماً ما ما امنياته.

أذعن جيوفاني لنصيحة الناسك متأملاً ليل نهار حب الله. فقد وجد بعض السلام الداخلي وأدرك أنه غير قادر على اتخاذ قراره. كانت الصلاة المتواصلة قد فتحت قلبه للتواضع.

بعد حوار طويل مع رئيس الدير، قرر ارتداء ثوب الرهبنة لمدة سنة، وهو الزمن اللازم له ليوضح مشاعره حيال إيلينا. نصح رئيس الدير جيوفاني بالابتعاد والسفر لعدة أشهر إلى أديرة أخرى أو جزر بعيدة، ويقابل معلمون روميون آخرون.

في صباح أحد الأيام وبعد الصلاة، غادر جيوفاني دير سيمونوس

بيتراً حاملاً صُرَّةً على ظهره. عرّج مرة أخرى إلى سترافو نيكيتا ليعلم المعلم تيوفان بقراره. تلقى راسم الصور هذا الخير بإيجاب. اقترح جيوفاني بأن يبقى لمدة شهر أو اثنين إلى جانبه. تردّد تيوفان وأجابه:

- يبدو لي أنه ويجب عليك أن تغادر الآتوس بعد زمن قصير. أنت تعيش هنا منذ أكثر من ثلاث سنوات وأعتقد، أنه للتفكير بمصيرك، عليك أن الذهاب إلى مكان آخر. الأسفار تغير الأنظار الذي نحملها على كاهلنا وتحول حياتنا.

- أي مكان؟

- هل تعرف الميتور؟

- هذا الاسم لا يعني لي شيئاً.

- هي مدينة كهنوتية واقعة وسط اليونان، على بعد يوم واحد بالسفينة ويومين مشياً على الأقدام من هنا هذا هو المكان الأروع الذي أعرفه!

- أكثر روعة من الآتوس؟

- من الناحية الروحية، إنه مكان مقدس أيضاً - لكن الموقع أكثر روعة. الطبيعة فخمة! ركام مشقّق من الصخور ينتصب وسط سهل. منذ عدة قرون كان العديد من النساك المتوحدين يختبئون في كهوف هذه الصخور الغريبة. لكن الأكثر أخذاً بالعقول، هي المنشآت التي أشادها الرهبان القديسون في قمة معظم هذه الصخور العملاقة. الله يعلم بأي عجيبة توصلوا بها إلى هذه الإنجازات! لا يمكن الدخول إلى هذه الأديرة المشادة بين السماء والأرض إلا من طريق نظام ذكي من الدواليب والبكرات والحبال التي تسمح برفع الناس. الغذاء والمواد الضرورية محفوظة في شباك معلقة في الفراغ.

- هذا مدهش، تابع راسم الصور. المرة الأولى التي كنت محبوساً في

هذه الشبكة ومعلقاً بالهواء طوال خمس دقائق طويلة، اعتقدت أن قلبي سيتوقف! ومن ثم اعتدت على ذلك.

- كم من الوقت أمضيته فيه؟

- مدة طويلة! كان ذلك منذ خمسة عشرة سنة. ذهبت ورسمت كامل كنيسة الدير الصغير: الذي يدعى القديس - «نيكولاس أبانا فساس» مكان فائق الجمال الذي أحفظ له بعض الحنين.

- هل بالإمكان أن تعطني رسالة توصية إلى رئيس هذا الدير؟ طلب جيوفاني الذي لتوه اتخذ قراره بالذهاب إلى ذلك المكان المميز جداً.

أمضى جيوفاني خمسة أيام للوصول إلى ثاني أعلى مكان للأرثوذكسية اليونانية بعد آتوس. بما أن كل البلاد كانت تحت الهيمنة العثمانية، فلا عليه أن يخاف شيئاً نظراً لأن ثيابه كراهب كانت تعطيه موقفاً مميزاً.

عندما وصل إلى قبالة الجدار الصخري، وصدم جيوفاني لمنظر هذه الصخور العملاقة، الملساء التي كانت تبدو أنها تنبثق من العدم. عند الاقتراب منها، تأثر كثيراً بجمال الأديرة المبنية على قمة الصخور الرئيسية كما تيوفان، فإن مساكن الرهبان لم يكن سهلاً الوصول إليها إلا بواسطة منظومة من الروافع أو المرفعات. اجتاز المترهبين قرية واقعة أسفل الصخور وسأل عن اتجاه دير سان - نيكولاس. دخل بعدها طريقاً ضيقة وسط طبيعة مقفرة بعد ما يقارب من الساعة سيراً على الأقدام وصل إلى أسفل الدير. الصخرة التي بني عليها الدير كانت قليلة الارتفاع، مقارنة بمثيلاتها، لكن بسبب صغر مساحتها فقد بني الدير على شكل طوابق، متوافقة مع منحنيات الصخور. ذلك ما كان يضيف على البناء تناسقاً نادراً.

رفع جيوفاني ناظريه ولمح، على ارتفاع خمسين متراً فوق الأرض، شبكة كانت تبدأ بالنزول، معلقة إلى حبل. رأى بعدها راهباً موجوداً داخلها، مثل سمكة تم اصطيادها. ما أن لمس الأرض حتى فك الراهب

الكلاية التي تبقى على حبال الشبكة معلقة حول حلقة موصولة إلى جبل رفيع. تبادلاً عبارة التحية الطقسية:

- قال الراهب: أبانا!

- أجاب جيوفاني: يا سيدنا.

- من أي دير أنت؟

- أنا قادم من آتوس.

- من الجبل المقدس! الله يباركك. وما هو اسمك؟

- الأخ إيوانيس.

- أهلاً وسهلاً. أنت ترغب بالذهاب إلى ديرنا.

- نعم. لدي رسالة توصية من طرف تيوفان ستريليتزا.

297

- الله يباركه كيف حاله.

- بخير. يقدم بدهن ورسم غرفة طعام دير سترافونيكيتا.

- بإمكانك التأمل بالجداريات الرائعة التي أنجزها في كنيستنا

الصغيرة. عطاء كبير من الله لطائفتنا.

- كم عدد الرهبان عندكم؟

- ثمانية عشرة. لكن ديرنا أصغر الأديرة.

- لجمع الأديرة الكبير الذي تراه في الخلف، يتضمن أكثر من مئتين

ديراً، على عشرين ديراً وعدد من الصوامع، يبلغ عدد الرهبان قرابة

الألفين جميعهم يصلون على هذه الصخور!

- هذا رائع!

- هل سبق أن جئت لتصلي هنا؟

- أبداً؟

- إذن، أنت محظوظ بأنني نزلت لأذهب إلى القرية! سأشرح لك كيف تعمل للوصول إلى الدير.

أخذ الراهب جيوفاني بعيداً قليلاً.

- هذه هي اللوحة الخشبية، يجب أن تقرعها عشرون مرة ومن ثم انتظر الرد من الراهب البواب.

إذا لم تكن الشبكة في طريق النزول، فإنه سيرسلها في الحال. هيا سنناديه وسأضعك داخلها.

قرع الراهب على القطعة الخشبية بوقع خاص جاء الجواب في الحال: صدى الضربات الصغيرة كان يُسمع من أعلى الصخرة. بخوف نوعاً ما، أخذ جيوفاني مكانه في الشبكة المفتوحة على الأرض ثم تبين له الراهب الذي يرفع حلقات الشبكة والكلايات التي تجمعها داخل حلقة كبيرة كانت تربطه في طرف جبل. ما أن تمت العملية، حق شدّ الراهب خمس شدات قصيرة على الحبل الذي يصل الشبكة بالملفات. بعد ذلك للحظات، بدأ الحبل بالصعود وغادر جيوفاني الأرض. كان منكمشاً في وضعية الجلوس. يدها تحضنان ركبته.

- صاح الراهب وهو يحييه لا تخف، نادراً ما يحدث أن ينقطع الحبل!

كلمة النادر جداً جعلت جيوفاني يغرق في هلع كبير. أغلق عينيه لكي لا ينظر في الفراغ. بدت له عملية الصعود وكأنها استمرت فترة طويلة جداً. صلى دون توقف للمسيح. أخيراً وصل أمام منصة، أمسك راهبان بهذا الطرد الفريد ليضعوه على الأرض القاسية.

ما أن تحرّر من الشبكة لمح جيوفاني راهبين آخرين جاء لإدارة الملفات عندها أطلق تنهدة الارتياح وقال في نفسه أنه غير مستعجل ليعاود الهبوط.

أربعة أشهر مضت منذ وصول جيوفاني إلى دير القديس انقولا. لم يغادر خلالها عش النسر هذا. كان يتقاسم حياة التقشف مع الرهبان ومعظمهم من المسنين. لكن خلف هذه الحياة المشتملة على الصلاة ظاهرياً بدون توقيت، مأساة عميقة. تقضّ مضاجع المترهبين لم يتوقف عن التفكير بإيلينا. لم يكن فكره يتذكر لحظات السعادة ويتساءل عما هو قادم عليه، لكن جسده كان مضطرباً. كثيراً ما يستيقظ وهو مليء بالشهوة حيالها. لقد قدم أفكاره إلى الله، وأسلم نفسه للعدراء، وتأمل الرحمة الإلهية، واطمأن بأن لا شيء يؤثر به:

كانت الفتاة تحيطه ليل نهار. أقر إلى رئيس الدير، الأب باسيل العجوز الصارم والعنيد هل كان للشهوة الدائمة التي يحس بها بالنسبة للفتاة علاقة على أنه لا يمكنه مطلقاً سلوك الحياة الرهبانية؟ ألا يجب عليه آنذاك مغادرة الدير مثلما اقترح عليه المنتسك سيميون؟ لم يكن رئيس الدير يشاطره هذا الرأي. بل على العكس كان مقتنعاً أنه إذا كان للأخ الشاب إيونيس دعوة ربانية صادقة، فيجب إجتثاث كل الشهوة، والتفكير الجسدي، بالصلاة، الصوم، قام إذن بدفع جيوفاني إلى سلوك متشدد نسبياً والاعتراف يومياً بالأفكار البشعة التي كانت تراوده.

استأنف جيوفاني رسم ودهن الايقونات من جديد. كان يقظاً بشكل خاص بأن لا يعيد رسم معالم وسمات الفتاة التي كانت ما تزال

تحرق قلبه. توصل بسهولة إلى رسم وجه العذراء وفق الإيقونات الأكثر تقليداً، لكن النظرة تبقى غريبة. عندئذ أدرك جيوفاني أنه بالرغم من كل جهوده، كان من غير الممكن له أن لا يرسم نظرة إيلينا. بعد أن أعاد رسم عيني عذراء الرحمة لمرات عدة، جاءت فكرة.. بما أنه لا يتوصل إلى نسيان نظرة إيلينا، لماذا لا يتجنب الصعوبة ويرسم العذراء ذات العينين المغمضتين؟ في حالة كبيرة من التهيج، توصل أخيراً إلى إنهاء أيقونته.

كانت النتيجة مذهلة. نظر إليها طويلاً ودموع التأثير تسيل على خديه. كان بمقدوره إذن متابعة الرسم. أخذ يتهاى لعرض عمله على رئيس الدير، عندها خطرت له فكرة مظلمة طوال صلاة المساء. على إثرها غادر الكنيسة وصعد إلى الكوخ الذي يستخدمه كمرسم. أضاء الأيقونة على ضوء الشمعة. ركز نظره. ما أن توجه داخل الكنيسة خطرت له بديهة.. هاتان العينان المغمضتان، هذا التعبير عن النعومة والرقه والسكون الداخلي نقشوا في أعماق ذاكرته منذ سنوات عديدة. إنها بالضبط تعابير وجه إيلينا. عندما رآها للمرة الأولى. وعندما كانت ممددة على السرير.

موجة من اليأس أغرقت قلب جيوفاني. فقد أيقن أنه لا يمكنه نسيان إيلينا. ظل وجهها محفوراً إلى الأبد في ذاكرته.

في المساء، روى كل شيء إلى رئيس الدير المكلف بإتلاف الأيقونة الملعونة بالنار. منعه من الرسم. غير أنه بالرغم من كل شيء شجعه على الاستمرار في الدعاء للرب.

أمضى جيوفاني أسابيع كثيرة في حالة من الإرهاق. كيف يمكنه عيش حياة الرهبنة هذه إذا كان عقله وجسده لا يتوصلان إلى نسيان إيلينا؟ للمرة الأولى، فكر جدياً بمغادرة الدير مخالفاً رأي رئيسه.

لكن إلى أين يذهب؟ يملي عليه قلبه العودة إلى البندقية ليكون إلى جانب إيلينا. كان ذلك ضرباً من الجنون، لكن بما أنه كان لا يستطيع العيش بدونها!! هل من الممكن أنها تنتظره؟ أو أنها غيرت رأيها وتكون جاهزة اليوم للهرب من عائلتها ومدينتها بدافع حبها له؟. ومن ثم سيتمكن من المعرفة أخيراً فيما إذا حملت رسالة معلمه لوسيو إلى البابا. بالرغم من المخاطر الكبيرة بدأ في دراسة عودته إلى البندقية، متنكراً وتحت اسم مستعار. في إحدى الليالي بينما هرب النوم عن جفونه وضع مخططاته، عاد كلام لونا إلى ذاكرته: لقد قتلت بدافع الغيرة، بدافع الخوف وبدافع الغضب... منذ أن كان في الدير، نسي تماماً رؤى الساحرة. وها هو كلامها الغريب ينبعث في داخله. كان جيوفاني مضطرباً في أعماقه. ألم تكن الساحرة قد شاهدت القتل؟ فإذا عاد إلى البندقية، ألم تكن عودته، بدافع الحب الذي يسكن فيه، ويصبح من جديد مكبلاً بسلاسل القدر القوية مندفعاً لارتكاب جرائم جديدة؟

في الأيام التالية، تأمل تلك الفكرة وقرر أن يفتح صدره للأب باسيل. تلقى هذا الأخير بكثير من الارتياب كلمات لونا. في كل الأحوال وافقه بقوة أن عودته إلى العالم تعني وقوعه في سلاسل العبودية للشهوة والخطيئة. بالنسبة للعجوز، اختار جيوفاني الحياة العصبية: بدل الحرية الروحية ووجود فاضل، ضمن إطار حياة مكرسة كلية إلى الله، أو الانحياز لسلطان الشهوة وحياة مضطربة، ومأساوية، في العالم. تأثر جيوفاني بكلام رئيس الدير. بعد ذلك بأسبوع قرّر إعلان نواياه الأزلية بالعفة، بالفقر وبالطاعة في هذا الدير. كان الأب باسيل راضياً جداً، اقترح عليه أن يتحضر لذلك عند بدء الصيام. صلى جيوفاني ليل نهار وتابع إمارة الجسد. الآن وبعد أن اتخذ قراره فقد وجد بعض السلام

الداخلي. شيء واحد ما زال يقلقه: أنه لم تعد لديه مطلقاً القوة، طوال حياته كراهب، بأن يتعهد أمام الله.

وبينما كان يتأمل الصخرة المنتصبة على عدة مئات من الأمتار من الدير. انبثقت فكرة حمقاء من ذهنه، استقبلها في البداية بارتياح ثم استسلم لها شيئاً فشيئاً. أخيراً، مع مزيج من التمجيد (التحمُّس) ومن القلق، نزل من على الدرج الخشبي وذهب ليقرع باب رئيس الدير.

أبونا

بني، ردّ العجوز، بصوت بدا عليه التعب.

- بعد تقبيل يد العجوز، جلس جيوفاني على الأرض.

- ما الأمر؟ طلب الراهب العجوز المندهش من الوجه المتحمس

للمترهب.

- أعتقد أن الله أعطاني الحل!

- حل ماذا؟

- للأزمة الروحية التي أمر بها منذ أسابيع عديدة وقت اتخذت

قراري بالتعبير عن نيتي في الترهبن الدائم. أسريت إليك، أنا معذب

ومضطرب الفكر أن أكون غير مخلص لنواياي والعودة يوماً ما إلى العالم

والعثور على تلك المرأة التي دغدغت قلبي لا أعرف أي جريمة أخرى

شنيعة سأرتكبها.

وافق العجوز بحركة خفيفة من رأسه.

- عندما كنت ومنذ لحظة أنظر إلى الصخرة المقابلة للدير وخاصة

الكهف حيث يعيش القديس إفرام، أوحى لي الله الحل لهذا القلق.

بدأ رئيس الدير يفهم إلى أين يريد الراهب الشاب الوصول. لكن

ذلك جاء مفاجئاً لدرجة أنه تجنب عدم سماع شيء، قصد إعطاء نفسه

مزيداً من الوقت للتفكير.

- حسناً؟

- لقد روى لي الأخ أنطوان حياة إفریم الناسك الموحد. كيف، أن هذا الراهب منذ قرنين، كان معذباً بسبب الجسد وبذكرى المرأة إذ قرر أن يحبس نفسه مدى الحياة في الكهف الواقع وسط تلك الصخرة العالية. ما نعرفه أنه عاش هكذا أكثر من أربعين سنة، دون أن يتكلم مع أحد، بالوحدانية والصلاة. ومع الملائكة كأصدقاء حميمين. روى لي أنطوان كيف، وكما لجميع القديسين المتوحدين الذين قاموا بهذا الاختيار الجذري، كان ينزل له مرة كل أسبوع، في سلة، شيئاً من الخبز والماء وتوجب الأمر انتظار أربعين عاماً لكي لا نلمس مؤونته. عارفين دون شك أنه فارق الحياة عندها نزل راهب بواسطة جبل ليتحقق من المكان ويحضر جثته. وكم كانت دهشته بالتحقق من أن الكهف كان فارغاً، وجسد إفریم قد اختفى تماماً وقاد البحث الذي تم أسفل الصخرة، على بعد عشرين متراً من الكهف إلى لا شيء. بعد عدة أسابيع، حلت على أحد الرهبان القديسين رؤية جسد إفریم أنه أصبح نقياً، نقلته ملائكة الله مباشرة إلى السماء. منذ ذلك الوقت يكرم ويقدم إفریم المتوحد الناسك في أديرتنا كقديس كبير.

- أعرف كل هذا. إلى أين تريد الوصول؟

- لماذا رهبان آخرون، معذبون بشهوة امرأة لا يمكنهم التمثل به في إيمانهم وثقتهم المطلقة بالله؟ لماذا لا يمكنني الانعزال والتوحد في كهف القديس إفریم وأقسم بأن أبقى فيه حتى موتي؟ بقي رئيس الدير صامتاً للحظة طويلة. داعب لحيته التي غزاها الشيب!

- طبعاً، القديسون هم نماذج، لكن هل تشعر بنفسك أنك مدعو إلى هذا الزهد والتنسك؟ تخيل الصراعات التي ستخوضها ضد الشيطان وضد نفسك لكي لا تفقد صوابك وعقلك؟

- هذه الصراعات، أخوضها منذ أن كنت هنا. أعتقد أن الله يطلب

مني اليوم هذا الزهد والتخلي المطلق لأتحرر أخيراً من القيود التي تربطني بتلك المرأة.

ألم يتحرر إفريم بهذه الطريقة من نير العبودية لماذا جاء بي الله إلى هذا الدير، قبالة هذا الكهف تماماً، إلا ليدعوني لاتباع خطى هذا القديس؟. أغمض رئيس الدير عينيه متابعاً مداعبة لحيته.
- هذا يتطلب التفكير.

- على مستوى عملي، لا شيء أبسط. تابع جيوفاني والنظرة منورة متوهجة. كانت قمة الصخرة مأهولة من قِبَل راهبين صنعنا لها ملفافاً. يكفي أن يرفعاني لمرة واحدة إلى منتصف علو الصخرة، إلى الكهف، وأن يوصلوا لي مرة واحدة أسبوعياً الخبز والماء في سلّة. عندما تصعد السلّة مليئة، هذا سيعني أنني التحقت بملكوت أبانا السماوي.

- نعم، نعم، أعرف أن هذا يمكن فعله، تابع رئيس الدير وهو يدمدم، لكن هل أنت فعلاً مدعو لهذا النداء الرباني الرائع؟ هذا ما علي التأكيد منه من طريق الصلاة.

أحنى جيوفاني رأسه ووضعاً يده على قلبه.

- حقاً، يا أبتى، لكن لتعرف أنه منذ أن دخلت هذه الفكرة عقلي، وبينما أطلب من الله العفة بإنارتي، وجدت نفسي السلام أخيراً.

- ستكلم عن ذلك يوم السبت بعد الشعائر الدينية وحتى ذلك الوقت أطلب من أم الله أن تنورني.

- السبت التالي، يوم زحل، وجد جيوفاني نفسه في غرفة رئيس الدير الصغيرة. حيث ظهر الأب ياسيل ملامح الجد والصرامة.

- هل أنت مصمم على رغبتك في البقاء حتى الموت في مغارة القديس إفريم؟

- لقد رجوت إلهنا وأمه ليلاً نهاراً وهذه الرغبة لم تفتأ في داخلي
أجاب جيوفاني بنبرة واثقة.

- م. م. م، تتمم الرجل العجوز. أنا أيضاً كنت قد صليت طويلاً لكي
أنور قضيتك. هذا قرار خطير وهام لا يرهن فقط كل وجودك - مثل
ذلك التعهد بالنيات - لكنه لا عودة عنه. بمقدار ما يستطيع راهب هزيل
نقض تعهداته يكون قد أنقذ برحمة الله وعطفه بعد أزمنة من الضياع.
بمقدار ما يوجد متوحد منعزل مدى الحياة، فما من مخرج أمامه سوى
الذهاب حتى النهاية تحت طائلة فقدان عقله أو الانتحار. أنت لا تجهل
أننا وجدنا جثامين بعض المتوحدين في أسفل الصخور حيث كانوا
يعيشون منعزلين؟ لم يعرف أبداً ما الذي حصل. لكن لا يمكن استثناء
فرضية الموت الإرادي.

- أعرف هذا، أيها الأب، لكنني أفضل المخاطرة في فقدان عقلي من
أن أنقض في يوم من الأيام تعهداتي والعودة إلى العالم لتعذيب قلب تلك
المرأة أو ارتكاب جرم قتل آخر.

- أنت شجاع، ولكن حتى ولو كان هذا ضرباً من الجنون بنظر
الناس، أعتقد أن أمنيته تأتي من الله ولا يمكنني معارضتها.
تألقت نظرة جيوفاني.

- شكراً!

- ستلتفظ بتعهداتك ورغباتك بعد تسعة أيام. أربعاء الرماد،
وستقسم وستتعهد أيضاً بالعيش منعزلاً في ذلك الكهف في اليوم نفسه،
سننزلك إلى المغارة، ستأخذ معك ثياباً دافئة وبعض الأغذية الصوفية
لتقيك من البرد. سيكون معك كتاب واحد، الإنجيل المقدس لا يمكن
لأي توسلات، أو صراخ أو أي صلاة أن تحرك من تعهدك. وحده
الموت سيحرر نفسك من هذا السجن الإرادي. أطلب منك للمرة
الأخيرة: أتريد ذلك من أعماق نفسك وبكامل وعيك وتفكيرك؟

- أريده من كل نفسي وبكل عقلي وتفكيري. أريد أن أكون إلى الأبد منعزلاً عن العالم ومختبئاً بالله. أريده حتى الموت، مدفوعاً ليس بقوايا البشرية بل بالأمل الوحيد واللقاء الأزلي مع إلهنا يسوع المسيح هو الذي قال «من يريد أن يُخلص نفسه سيفقدها، ومن سيفقد حياته في سبيلي فسيجدها...».

«إلهي يسوع ابن الله الحي أرحمني أنا الخاطيء».

وقف جيوفاني بصعوبة. لعدة ساعات، ظل يتلو صلاة يسوع بطريقة مستمرة، راکعاً داخل الكهف الرطب. أشرقت الشمس فأنارت أشعتها الأولى مدخل المغارة، المتجه نحو الشرق. كل صباح، يقضي جيوفاني حاجاته في وعاء من الخشب ويلقي نفاياته في الخلاء ثم يجلس على حافة الكهف ويترك حرارة الشمس الصباحية الدافئة تداعب جسده الهزيل. كان ذلك الاكتفاء الوحيد الذي يمنحه لجسده. بعد حوالي عشرين دقيقة، من تدفئة الهيكل، فتح كتاب المزامير وتلا صلاة الشكر «إلهي يسوع ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطيء». ما أن إنتهى من قراءة المزامير شدت ضجة البكرة انتباهه نحو مدخل الكهف. سلّة كبيرة معلقة بحبل من القنب ظهرت فجأة أمام الفتحة أخذها برفق، خوفاً من تدفق محتواها الثمين: برميل صغير من الماء وقطعة كبيرة من الخبز: هذه المؤن لكل الأسبوع. أحياناً، كان الأخ غريغوار والأخ نيكوديم الراهبان اللذان يعيشان في الدير الصغير على قمة الصخرة واللذان كانا قلقين يمدانه بالغذاء، ويضيفان بعض الفواكه الطرية أو الجافة، حسب المتوفر والممكن الحصول عليه.

هذه المرة، تحقق جيوفاني أنه لا يوجد سوى الماء والخبز. أمسك بها، وشدّ الحبل خمس مرات على مسافة عشرين متراً إلى فوق، هناك ملفاف كان يشغله الأخ غريغوار قد بدأ العمل.
«سيدي يسوع، ابن الله الحي. ارحمني أنا الخاطيء».

كانت صلاة القلب ترافق كل حركة من حياته بينما هو يأكل يتلو الصلاة، أو يقرأ الإنجيل، أو يتأمل الأفق. كان اسم يسوع يتجذر هكذا في قلب جيوفاني. وغالباً ما يحصل له أن يستيقظ وهو يصلي، دون أن يكون واعياً لذلك. لقد فارق وجه إيلينا أحلامه وبقي قلبه مخبأ في الله ما أن ينتهي من وجبته البسيطة يرش وجهه بالماء ويضع الخبز والماء في زاوية من الكهف.

كان الكهف منحوتاً وسط الصخر مثل عين مغولية عريضة بطول ثمانية أمتار ارتفاعها ثلاثة أمتار تقريباً تتسع نحو الداخل. عمقها عشرة أمتار وعرضها اثني عشر متراً. جيوفاني ينام ويصلي في مؤخرة الكهف. يأكل ويتلو الصلاة ويقرأ الإنجيل قريباً من الفتحة، ليكون لديه ما يكفي من الضوء.

منذ ثمانية أشهر وهو يقود هذه الحياة المترهدة المنعزلة، لم يسبق له أن ندم ولو للحظة واحدة على خياره. في كل الأحوال، ماذا سينفع الندم. لأن هذا الخيار كان لا رجعة عنه؟ حتى في حالة المرض فلا يمكنه تلقي الزيارة أو العون الخارجي. يعيش معلقاً بالعناية الإلهية، عيون الروح محدقة ببؤس الظرف الإنساني وعظمة الرحمة الإلهية:

«سيدنا يسوع، ابن الله الحي أرحمني أنا الخاطيء».

لقد وجد قلبه السلام. خلال الأشهر الأولى عرف لحظات قاسية من الندم لدرجة أنه بكى لساعات طوال، ونفسه مليئة بقوة الحب الإلهي. ثم شحّت النعم تدريجاً. مع ذلك بقي مثابراً على الصلاة دون توقف والعيش حسب القواعد الصارمة. طلب منه الأب باسيل أن يكون متيقظاً جداً وأن لا يترأخى مع نظام حياته اليومي. كان يصلي أيضاً كل يوم، مثاله القديس إفريم. طالباً منه مده بقوة الاستمرار في الإيمان والثقة بالله. عندما يظهر شبح من وهن في الهمة، كان يفكر بالقديس الشفيع الذي عاش وصلي وتكلم مع الله ومع الملائكة في ذلك المكان مدة أربعين سنة، وهذه الفكرة وحدها كانت تعيد له الشجاعة.

«سيدنا يسوع، ابن الله الحي، أرحمني، أنا الخاطيء».

منذ بضعة أسابيع، بينما كان البرد الخريفى يجعل الليالي أكثر قساوة وصعوبة، بدأ يشعر باضطراب داخلي خفيف. دون التمكن من تحديد هذا الشعور، أدرك أنه بحاجة للإكثار من الحركة الجسدية وأن أحلامه، نفسها، كانت أكثر اضطراباً. بالفعل، بدأ الشعور بضيق هذا المكان المحدود، لكنه رفض الإقرار بذلك! إن إدراكا من هذا الشعور سيقدر على فتح باب الضجر والقلق. قام بالتفتيش خفية في مؤخرة الكهف كما لو أنه يبحث عن فتحات جديدة.

«سيدنا يسوع، ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطيء»..

في ذلك الصباح وفي الوقت الذي يرتل فيه صلاته الدائمة، ببطء يديه على الصخرة في مؤخرة الجدار، من دون شك سيقوم باكتشاف لا يصدق.

- شعر في الزاوية الأقل ارتفاعاً والأكثر ظلمة من المغارة، أن الصخرة أقل نعومة، ولدى استلقائه على الأرض والنظر إلى الجدار أدرك أن الأمر يتعلق في الواقع بالعديد من الكتل الصخرية المتراكمة فوق بعضها، المغطاة بطبقة سميكة من الغبار لدرجة كان من المستحيل عليه أن يعدها من طريق النظر.

فجأة اجتاحت نوبة من التوتر، بدأ جيوفاني بواسطة حجر صوان قاطع الحفر في الجدار. بعد ساعة أدرك أن الأمر يتعلق بانهييار قديم. في الأصل كان الكهف أكثر عمقاً يمكن الوصول إلى مؤخرة الفتحة عبر نفق ضيق. وقد تعرض سقف هذا النفق إلى إنهييار لذا فإن مؤخرة الكهف أصبحت غير سالكة. انفضت اللحظة الأولى من الدهول، فقرر جيوفاني بأن يدع نفسه تضطرب لهذا الاكتشاف واستأنف نظام وتوقيت الصلاة والقراءة اليومية.

«سيدنا يسوع ابن الله الحي، أرحمني أنا الخاطيء»..

بالرغم من صلاته المستمرة تلك الليلة، لم يتمكن من منع نفسه عن التفكير بالإنهييار، فضول لا يمكن كبحه كان يهز عقله: ماذا يمكن أن يكون خلف هذه الكتل الصخرية المتراكمة؟ هل كان الكهف أكبر من

ذلك بكثير؟ من كل هذه الأسئلة المتوفرة، قرر أن يتأكد من حقيقة الأمر ويحاول، منذ الغد، رفع الصخور.

ما أن انتهى من طعام الصباح، حتى بدأ جيوفاني برفع الصخور الأكثر ثقلاً. بالاستعانة بحجر صوان مشحود، حيث توصل إلى إظهار الأطراف خلال مدة تزيد عن الساعتين. حاول تحريكها. عبثاً. فجأة أدرك أنه، لأول مرة منذ تسعة أشهر، نسي صلاة واحدة. من أجل ذلك اتخذ قراراً بأن لا يستأنف التنقيب إلا في الغد، واطعاً أوقاتاً محدودة. في الصباح على الأقل ظاهرياً، لأن عليه أن يناضل كي لا تكون أفكاره متوجهة بشكل دائم نحو الصخور المنهارة التي اكتشفها. لقد كرس ساعتين صباحاً ومثلها بعد الظهر محاولاً إخراج الصخور. بقوة الصبر والجهد، توصل إلى تحريك وسحب صخرة.

لقد أصبح من السهل عليه تحريك باقي الصخور.

في اليوم العاشر من العمل، حرّر النفق من الركام ولم يكن يتجاوز المترين طولاً لينفتح نحو الجزء الآخر من الكهف المضاء بشكل ضعيف. رائحة قوية من الرطوبة، والعفونة. ما أن تأقلمت عيناه على الظلام الخفيف أدرك أن هذا الكهف الثاني أصغر بمرتين من الأول وأكثر انخفاضاً. عندها توجب عليه الزحف، في العمق الأكثر ظلمة، صدمت يده شيئاً فريداً. التقط الشيء وحمله إلى النور!
عظم! عظم ساق بشري.

«سيدي يسوع المسيح ابن الله الحي، أرحمني أنا الخاطيء» مصلياً من جديد، والقلب يخفق، عاد إلى مؤخرة الفتحة الرطبة. هيكل عظمي كامل يتوضع تحت شرائح من القماش (النسيج). واحدة واحدة، جمع جيوفاني العظام في المغارة الرئيسية، لم يلق أي صعوبة في إعادة تركيب الهيكل لرجل ذي قامة متوسطة الميدالية الصغيرة الذهبية المعلقة في عنق المرحوم، لم تدع مجالاً للشك حول هويته: إفريم.

كونيات هي المعادن المجردة الخمسة: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة والعرض العام، وفهرسهما أرسطو المحمولات.

تحت اسمه راهب كان منقوشاً أيضاً تاريخ مهنته الأبدية. عيد الفصح 1358 بقي جيوفاني مذهولاً. هو ذا السبب الذي من أجله لم يعثر أبداً على جثة القديس المتزهدا من المرجح فراشه وضع في الجزء الثاني من الكهف. في إحدى الليالي انهار سد النفق الذي يفصل الكهفين، فوجد المسكين نفسه محصوراً لقد مات من الجوع والعطش. الأخوة الذين حضروا للبحث عن جثته لم يكونوا على علم بالكهف، لأن العجوز الناسك كان يعيش فيه منعزلاً منذ أربعين سنة. ولم يتمكنوا التحقق من الاختفاء العجيب للعجوز.

فكر جيوفاني من جديد بالراهب الذي روى الحلم، بعد عدة أسابيع من ذلك، لاعتقاده أن ملائكة الله نقلت جسد الناسك مباشرة إلى السماء. هذا التفسير فرض نفسه منذ ما يقارب المئة والخمسين عاماً ذكرى هذا الناسك القديس الكبير. قشعريرة من القلق اجتاحت ظهر الشاب.

«سيدنا يسوع ابن الله الحي، أرحمني أنا الخاطيء». صلى جيوفاني وأطمأن مفكراً أن الأب إفرم قد وصل حقاً، بعد سنوات من الوحدة والانعزال إلى درجة عالية من الروحانية. لا يهمل عندها إذا كان موته عرضياً أم بإعجوبة.

قرر جيوفاني بإعطاء قبر «مسيحي» إلى رفيقه المسكين.

الأفضل والمثالي، كان بأخبار الرهبان الإخوة حول هذا الاكتشاف، قصد أن يوارى الرجل القديس في الدير. تراجع عن هذا المشروع، خوفاً من تعكير إيمان بعض الرهبان، الذين كان لديهم تقدير كبير وتقديس له. قرر بدل ذلك أن يجمع العظام في مؤخرة الكهف ويغطيها بالحجارة التي يعلوها صليب من الخشب الذي اصطحبه معه.

بينما كاد ينهي عمله، لاحظ شيئاً فريداً على واحدة من الصخور التي وجد عليها كتابة غير واضحة المعالم مغطاة بالغبار مسحها بواسطة كفه.

نعم، كلمات تتواصل هنا، غير مقروءة في الظلام المتوسط. هذا الاكتشاف الجديد أنك نفس جيوفاني الناسك القديس، قبل موته، إذ تمنى ترك رسالة. في هذه الوصية، رأت الإرادة الإلهية أن يكون هو، الأخ إيوانيس، الذي يتلقاها... قرنا ونصف القرن بعد ذلك.. شكر الراهب الله على نعمه وعلى هذه الميتة التي لا تقدر بثمن.

«سيدنا يسوع ابن الله الحي، أرحمني أنا الخاطيء». الذهن مضطرب ومشوش، قام بدحرجة الصخرة نحو النور بعد مجهود كبير، فوصل إلى غايته وتأمل الصخرة.

ثلاث كلمات كانت مكتوبة بيد مرتجفة. صعبة القراءة فوجب على جيوفاني تدليك ومسح الصخرة.

أدرك عندئذ أن الرجل القديس رسم كلماته الأخيرة بطرف أصبعه... بالدم.

ازداد خفقان قلبه، فوصل أخيراً إلى تفكيك الرسالة التي تركها إفريم للبشر أربعين سنة من حياة العزلة.

وهذه الرسالة كانت: «الله غير موجود».

V

المريخ

بقي جيوفاني للحظات في حالة خدر، فاقداً وعيه. عندما عاد إليه هدوءه، اعتقد أنه خرج من كابوس رهيب. لكن الصخرة موجودة حقاً هنا، أمامه. أعاد قراءة الحروف المكتوبة على الصخرة لعشر مرات، مئة مرة، كانت عيناه تقفان رموز الرسالة نفسها، لكن عقله لم يسمعه أبداً، قلبه لا يصدقه. كلا، كان ذلك مستحيلاً، غير ممكن كلية، كيف أن رجلاً أمضى هذا العدد الكبير من السنوات في الصلاة الزاهدة والتفرد و(التوحد) قد تمكن، في غسق حياته (شيخوخته) من رفض حتى وجود الله. أما أن يكون الله قد ترك خادمه المخلص الأمين بهذه الطريقة فهذا أكثر استحالة أيضاً.

عندئذ فتش جيوفاني على تبرير: قد يكون الناسك المتوحد أراد أن يكتب جملة أطول ولم تكن لديه القوة لإكمالها. نعم، طبعاً كان الأمر كذلك، أعاد مطلع المزمور 41 في ذاكرته: «قال الأحقق في قلبه: الله غير موجود! فاسدة دينية أفعالهم، لا أحد يتصرف بشكل جيد. من السموات ينحني يهوه نحو ابن آدم، ليرى ما إذا كان هناك واحد عاقل، واحد يبحث عن الله».

هوذا التفسير! قال جيوفاني في نفسه: مثل القديسين الكبار الآخرين، عاش إفريم وذهنه غارق في الجحيم من رافة يأس أولئك الذين لا يجدون الله أو أنهم منفصلون عنه بخطاياهم، بعد أن هدأ، استعاد

الراهب قليلاً من القوة وانتهى من بناء قبر المتوحد الناسك. أمضى بقية النهار بالصلاة، «سيدنا يسوع، ابن الله الحي، ارحمني، أنا الخاطئ...». في الأيام التالية، لم يتمكن جيوفاني من منع نفسه من قراءة وإعادة قراءة الرسالة المنقوشة (المخطوطة) على الصخرة. بالرغم من تصديق تفسيره للأمور بإخلاص، فإن عقله وروحه بدءاً يشعران بوهن وضجر دائمين. بينما، كان حتى الآن، يرجو القديس إفريم بأن يساعده ويعينه، ولأول مرة فوجئ بأنه يصلي للعدراء من أجل سلام روح العجوز الزاهد. لقد ضاعف هذا الإدراك من اضطرابه. لذلك عليه أن يتخلص من الصخرة، حتى لا يكشفها أحد، فدحرجها من جديد إلى مؤخرة الفتحة وقرر إعادة إغلاق النفق المؤدي إلى الكهف الثاني.

بعد هذه اللحظة المضنية، استأنف جيوفاني المجرى الطبيعي لحياته التنسكية محاولاً نسيان الحدث. أدرك بسرعة أن ذلك كان مستحيلًا. بدل أن يحاول طرد هذه الأفكار المقيدة باستمرار إلى تلك الجملة الرهيبة، قرّر تقبلها وضم صلاته إلى صلاة إفريم من أجل كل أولئك الذين بقيت أرواحهم منفصلة وبعيدة عن الله، طبعاً غير مؤمنين، وأيضاً كبار الخطأة والمتحفظون الذين يشكون حتى بوجود الخالق.

أخيراً قال في نفسه إن العناية الإلهية أذنت بهذا الاكتشاف لإيجاد معنى جديداً لله أكثر عمقاً لحياته التنسكية.

«سيدنا يسوع، ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطئ» طوال عدة أسابيع، صلى الراهب الشاب بحماس من أجل الأرواح التائهة، لكن قلقاً خفياً بدأ يتسلل إلى قلبه وأصبح من غير الممكن نكرانه.

فهم عندئذ أنه لم يعد يصدّق فرضيته المتعلقة بإفريم، كذلك كان يصلي مراراً عديدة من أجل المسكين الناسك، الذي كانت نفسه وروحه خلال كل هذه السنوات الطوال من التوحد قد عرفت الضلال

دون شك. كان الله قد سمح بهذا الاكتشاف ليتمكن من الصلاة من أجل سلام هذا البائس.

قرر عندئذ تقديم كل صلواته من أجل راحة وسلامة روح إفریم:
 «سيدنا يسوع، ابن الله الحي، ارحمني أنا الخاطيء»..

لكن، يوماً بعد يوم، يتفاقم اضطرابه، شيء من الغضب يصعد من أعماق كيانه. لا يمكن وصفه في البداية، في إحدى الليالي تملكه الغضب الشديد، بدأ بالصياح، ماداً قبضته نحو السماء: «لماذا؟ لماذا تركت خادمك يموت في اليأس؟ لماذا سمحت للشيطان أن يدمر أمله في رحمتك؟ لماذا تركت رجلاً كرّس لك كل حياته، يموت في ليلة من الشك؟ هل أنت قاس؟ هل تتلذذ بتعذيب البررة (البرئین)؟ كم من الدم والدموع يكفيك بعد تشبع غضبك؟ كانت صيحته صحيحة كل البشرية المتألمة، التي تؤمن ولم تكن تفهم صمت الله الذي لا يطاق.

بعد أن صرخ حتى أغمي عليه، خرّ جيوفاني وهو يبكي، ضيق كبير جثم على قلبه، شعر بهوّة من الشفقة نحو هذا الرجل الذي حُرّم من كل شيء، رفض كل ملذات الدنيا، وضحى بحياة العائلة، وصلى ليل نهار، في البرد والجوع والعزلة وطوال عشرات السنين ليموت في التخلي (عن ربه) شاعراً أنه متروكاً من قبل الإله الذي خدمه بحب وإخلاص، دون أن يعرف ذلك، أجهش جيوفاني بالبكاء على نفسه.

انقضت ثلاثة أسابيع على ليلة التمرد تلك، ثلاثة أسابيع كان أثناءها جيوفاني يحاول عبثاً إطفاء الحريق الذي استولى على نفسه.

مرّ بكل الحالات: الشك، الأمل، القلق، الإيمان، الغضب، إهمال النفس، الإرهاق، الثقة، الحزن، أخيراً وبعد ساعات رهيبية داخلية، قلبه وعقله التقيا متوحدين في هذه القناعة الحميمة: إما أن الله كان كائناً شريراً، نوعاً من الأب الطاغية، وإما أنه لم يكن موجوداً..

ذلك ما كان يعني بشكل أفضل، أن جيوفاني لم يكن في حالة غضب، لم يكن أبداً حزيناً. بل كان يائساً هادئاً.

ذكريات الماضي عادت تطارد عقله، بدأ يستعيد رؤية الصور اللطيفة اللذيذة والمريحة لعائلته.

عندما كان في الدير، كتب رسالة إلى والده وأخيه ليطمئنهما عن مصيره، لكنه هو نفسه يتساءل الآن عما أصبحوا عليه. كان يفكر بايلينا، ورغبة اللقاء تلاحقه من جديد. وخاصة لهفته للقاء المعلم لوسيو في هذه اللحظة المؤلمة جداً.

كان بوّده أن يفتح له قلبه حول شكوكه، ويطلب منه النصيحة. حاول جيوفاني تصوّر ما سيقوله له الفيلسوف أو ماذا كان سيفعل في مثل هذه الحالة. كم هو متشوّق لوجوده إلى جانبه!

في إحدى الليالي حيث سيطر اليأس على عقله بحدّة، راودته الرغبة

بانتهاء حياته. تقدم من الهوة ونظر طويلاً أعالي الأشجار، من على عشرين متراً.

أغلق عينيه، صور عديدة عادت إلى ذاكرته. وجه إيلينا، ووجه أمه، انهمرت بعض الدموع الحلوة والمرّة على خديه المجعدين لنقص النوم والحرمات.

مقرباً من الحافة.

- تهباً للقفز في الفراغ عندما فاجأه ظهور وجه لونا. داخله شعور غريب سيطر على جسده، رغبة لا يمكن كبح جماحها لممارسة الحب. وتركز ذهنه على الساحرة، عطرها الجذاب، بشرتها اللذيذة، وعاد منظر ثدييها اللذيذ فجأة ليمتلك جسده الهزيل. دون أن يدرك ما كان يفعله، داعب جسده، والعينان مغلقتان، وتذكر تلك المرأة التي أغوته وقدمت له أوّل لذّة جنسية، أصدر صرخة قوية، صراخ حيوان، صراخ يبدو وكأنه يعود إلى غابر الأزمنة.

مضت أيام عديدة دون صلاة. طبعاً، الكلمات ما زالت تعود إلى شفتيه، غير أن روحه كانت ترفضها. استعاد رغبة ضعيفة بالحياة الغريزية. كان يستدعي عدة مرات في اليوم، أحياناً ذهنه وفكره كانا متوجهين تارة نحو لونا، وتارة نحو إيلينا، شيء واحد كان يلزمه: مغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن.

لم يكن هناك سوى حل واحد: الإيحاء بوفاته لكي ينزل أحد الإخوة ويتحقق من وفاته. قتن من استهلاك الماء والغذاء ليضع شيئاً منها جانباً.

الأسبوع التالي، لم يلمس الخبز أو الماء اللذين أنزلا له.

قلق الراهبان اللذان يعيشان منعزلان من رؤية السلة كما هي دون نقصان فقررّا الذهاب للتحقق في عين المكان لمعرفة ما حصل، الأقوى كان يدير الملفاف بينما نزل الآخر داخل شبكة إلى أن بلغ الكهف.

ما أن وصل أمام المدخل، حتى تحرّر الأخ نيقودمس من

الشبكة وتقدم نحو جيوفاني الذي كان ممدداً على الأرض.
ما كاد الراهب ينحني على جسد جيوفاني حتى تلقى ضربة عنيفة
على الرأس، سحب جيوفاني الجسد الهامد، وضعه في الشبكة وجهاز
الراحلة بدوره، وشد الحبل خمس مرات.

صعدت الشبكة وارتفعت بطريقة على دفعات حتى بلغت قمة
الصخرة، ولما وصلت القمة، حرر جيوفاني نفسه وسحب جسد
الراهب المغمى عليه إلى المنصة. أوقف الراهب الآخر الملفاف وتوجه
نحوه، ظناً منه أن أخاه كان يجلب جثمان الناسك. توقف مندهشاً.

- ماذا تعمل هنا؟ ماذا حصل للأخ نيقودمس؟

- فقط متعب، لم يكن لدي اختيار آخر لمغادرة المكان.

- لكنك... قطعت عهداً، ليس من حقك المغادرة!

شعر جيوفاني بخوف مرعب يغزو قلبه.

- قال بقوة: علي المغادرة.

- سأمنعك من ذلك! صاح الراهب وهو يثب عليه.

تجنب جيوفاني الهجوم وألقى الراهب البدين جانباً. تدرج هذا
الأخير لمسافة عدة أمتار ثم سقط من أعلى المنصة.

- صاح جيوفاني: الأخ غريغوار، وهو يبعد ذراعيه، أسرع محاولاً
الإمساك به، لكن المسكين أفلت حافة المنصة وسقط من علو أربعين
متراً.

تأمل جيوفاني المشهد مرعوباً، ورنت جملة من كلام الساحرة في
داخله: ستقتل مرة أخرى بدافع الخوف.

فهم عندئذ أنه أراد الإفلات من قدره. بمغادرة العالم وصحبة الناس.
لكن القدر كان قد أدركه حتى في ديره، وفي حياته المنعزلة
المتوحدة، ومغارته، لأن قدره كان مكتوباً في أعماق قلبه.

أمسك جيوفاني الحبل المربوط إلى أسفل الدولاب الخشبي الذي كان يستخدم كملفاف، ورماه في الفراغ، ثم بدأ النزول الطويل الوعر (حبل مزدوج). ما أن وصل أسفل الصخرة، نظر بهول لجثة الأخ غريغوار المحطمة.

دون أن يلتفت إلى الوراء، ابتعد، وسار مسافة يومين وليلة باتجاه البحر. أشفق القرويون على منظر هذا الراهب الشديد الهزال، وملاحه الشاحبة، وقدموا له الطعام والماء. لقد اتخذ القرار بالعودة إلى المعلم لوسيوس، ليس فقط ليعترف له أنه لم يقم بمهمته، بل ليجد القليل من الراحة والنصائح لدى هذا الحكيم العجوز وخادمه، الأصدقاء الحقيقيون. فكر جيداً بإيلينا، إما بكسر قلب الفتاة ثانية أو إنهاء حياته على سفينة السجن سيرينيسيم (صاحبة السموم) لقد امتنع عن ذلك. من الممكن أن يلتحق بها فيما بعد. حالياً، الشيء الوحيد والمهم هو العودة إلى معلمه السابق.

لحسن الحظ، وجد في مرفأ فولوس مركباً تابعاً لجنوة الذي قبل بأن يقله مجاناً إلى إيطاليا.

بعد أسبوع من الملاحه، رسى في ميناء باسكارا. ما أن وصل على الأرض الإيطالية، حتى تخلص من ثوب الرهينة البالي الذي استبدله بثياب بالية قديمة. سلك طريق فاليريا باتجاه روما. بعد ليلة من التعسك،

استأنف طريقه وغادر بعد ذلك فوراً الطريق الرئيسي ليسلك الطرق التي كانت تخترق هضاب جبال أبروزيس المشجرة.

سار بخطى سريعة حتى بلغ قرية أوستوني. ما أن وصل إلى أطراف غابات فيديش، حتى بدأ قلبه بالخفقان بسرعة لأنه كان مسروراً جداً بالعودة إلى هذا المكان حيث يعرف الدرب الذي يؤدي إلى بيت الغابة، جعلته سعادة الذكريات يغني في داخله، وتسيل من عينيه الدموع. كان يشعر بنفسه مذنباً لأنه تخلف عن مهمته، لكنه يعرف، في أعماق ذاته، أن أصدقاءه كانوا سيغفرون له ذلك.

ما أن وصل إلى الفسحة داخل الغابة، حتى تجمد دمه.

الكوخ قد تحول إلى رماد.

لدى النظر إلى النباتات التي نمت على بقايا البيت، أدرك أنه أحرق منذ عدة سنوات. كان ذلك حادثاً مأساوياً عرضياً.. أو أنه فعل إجرامي؟ أين أصبح معلمه وبيتر؟ حلّ القلق مجدداً في نفس جيوفاني، كان عليه أن يعرف، سلك من جديد طريق القرية، وصادف في سيره قروياً فسأله:

- أتيّت لزيارة صديقين كانا يعيشان في غابات فيديش فوجدت المنزل محروقاً ومهجوراً ما الذي حصل؟

- آه! إنها مأساة كبيرة! أجب القروي بعد عدة ثواني من التردد، لكن مضى على ذلك وقت طويل.

- ما الذي جرى؟ أين هما الرجلان اللذان كانا يعيشان في ذلك المنزل؟

- لقد اغتالتهم عضابة من قطاع الطرق، فرسان سود.

كما لو أن جيوفاني قد تلقى غرزة خنجر في القلب.

- متى تم هذا؟

- منذ عدة سنوات! رجل ثالث كان يعيش مع هذين الاثنين، تلميذ على ما أعتقد، سافر قبل وصول الرجال المرتدين السواد يزمن قصير، لقد أضرمو النار في الكوخ.

هذا ليس كل شيء! لو كنت رأيت جسد العجوز وخادمه! كيف عذبوا قبل أن يجهزوا عليهم، لكي أكون متأكداً أنهم حاولوا أن يجبروهم على الاعتراف أين خبأوا مالهم وأنهم لم يقولوا شيئاً.

- طلب جيوفاني الذي كان فريسة ألم مبرح: أين وضعوهم؟

- لقد حفروا حفرة ليس بعيداً عن المنزل ووضعوا فيها جثمانهما، جاء راهب وباركهما ووضع صليماً على القبر.

عثر جيوفاني بصعوبة على المكان حيث دفن صديقه، قوم وضع الصليب، دون النطق بأي كلمة. أخذه الحزن وأصابته غصة، لكن لم تجد أي دمعة طريفاً إلى عينيه الجافتين والتعبتين. شعر أيضاً بعقدة ذنب لاذعة، ألم يكن يعلم أنه أفلت سابقاً من ملاحقيه، وأن هؤلاء عذبوا صديقيه ليعرفوا محتوى الرسالة الملعونة؟ أي سرّ رهيب يمكن أن تحتويه لتبرير جرائم القتل هذه؟

طلب جيوفاني العفو من معلمه وبيتر، كانت نفسه منهارة، لم يكن يقدر على الصلاة أو التفكير.

جاء الليل وأضحى البرد قارساً، ظل جيوفاني راکعاً أمام القبر وبدأ الثلج يتساقط.

هكذا بقي جيوفاني طوال الليل مسمراً في المكان ذاته منهكاً من التعب، وبدأ يضعف تدريجاً. مضى هناك، في وضع الجنين، على قبر صديقيه.

عند الصباح، توقف الثلج، جسده مغطى بمعطف رقيق أبيض. شعر ببرد شديد يتملك لحمه وعظامه. تقوقع على نفسه أكثر فأكثر ليقى نفسه غريزياً من لسعة البرد.

وفيما كان جسده في خضم هذه المعاناة، كان ذهنه ينحدر، وروحه تفرغ مما تبقى لها من قوة. لم تكن لديه أي رغبة، حتى رغبة العيش، أو حتى رغبة الموت. لم يكن يفكر بشيء، كان ذهنه وديعاً. ليس سالماً، أو مليئاً بالمعنى، كما عرفه سابقاً، لكنه خالياً من أي اهتمام. بينما كان يفرغ جسده، كانت روحه قد خلصته من الصراعات ومن أي إرادة. يعلم جيداً أنه سيموت قريباً. لكنه لم يكن يفكر بذلك، ينتظر الخلاص الأخير، دون خوف، مثل حيوان مجروح يذهب ليموت في حفرة.

استولى البرد على كامل جسده، لدرجة أنه لم يعد يحس به أبداً. بدأ عقله أيضاً مغادرته بهدوء، كان يطفو بين عالمين. لم يكن ينتظر سوى الإشارة القاتلة ليتخلص نهائياً.

لم يكن يسمعه يقترب، غير أنه يشعر بحرارة جسده، ينضم إلى صدره. دفء جعل جسده المجد يرتجف. بصورة لا شعورية، حاول أن

يضم إليه أي مصدر للدفع. غير أن عضلاته المجددة لم تكن تقوى على القيام بأي حركة. شعر بنفخة تلمس مؤخرة عنقه، نفخة سريعة كانت تذيب الجليد الملتصق ببشرة عنقه. تدريجاً، أعادت له هذه الحرارة المريحة وعيه. لم يبحث عن أسباب ذلك، ترك نفسه مغمورة بهذه السعادة. لسان يلحس ببطء مؤخرة عنقه. ارتعد جسده. بعد فترة طويلة شعر بعضلاته تتحرك، استدار بجهد كبير وفتح عينيه. ذعر الكلب ونهض. بقي ممدداً على الأرض، نظر إليه جيوفاني. كان كبيراً كفاية، لكنه في حالة تثير الشفقة. وبره رمادي ملوث بالطين، وجسمه هزيل. الذيل بين ساقيه، الأذنان منخفضتان، ينظر إلى الرجل بشيء من القلق، حدق به جيوفاني للحظة طويلة، متابعاً تحديقه دون التفكير بشيء. ثم نجح في رسم ابتسامة، ومد يده نحو الحيوان.

- لا تخف.

بدا الكلب مطمئناً بهذه الحركة والصوت الصديق. اقترب ببطء وتمدد قرب الشاب، ووضع خطمه على يده. داعب جيوفاني خطمه، كان الكلب ينظر إليه بشدة وبخوف وفرح. أثرت هذه النظرة في جيوفاني الذي جهد للوقوف. انتصب الكلب وتراجع إلى الخلف، جلس الرجل على قدميه، كانت أطرافه ما تزال مجمدة ولم يكن يشعر بيديه أو رجله لكنه ضرب على ركبتيه بيده اليسرى ومد اليمنى باتجاه رفيقه في الحظ العاثر:

- تعال.

بعد بضع ترددات اقترب الكلب وهو يحرك ذيله مع مزيج واضح من الفرح والحذر، استمر الكلب في المداعبة، عانق جيوفاني وبدأ الكلب بالنباح فرحاً.

حسناً، يا عزيزي، أتراني في حالة يرثى لها، أنا متأكد أنك لم تأكل منذ زمن ليس بالقصير.

رد الكلب بتأوهات قصيرة.

- لا تقلق، سأهتم بنا نحن الاثنين.

نهض جيوفاني بصعوبة، دوار جعله يتأرجح، كان يرتعد من البرد والجوع. الاثنان بحاجة إلى النار، جمع قليلاً من الحطب الجاف، وبعد جهودات عديدة نظراً لشدة برودة أصابعه، نجح بإشعالها بمساعدة حجري صوان مشحودين وجدهما في البقايا المحترقة للكوخ، أمضى عدة ساعات في تدفئة نفسه، تدريجاً، بدأ الدم يروي جسده وأطرافه من جديد. استفاد الكلب من النعمة وجلس إلى جانبه، ناظراً إلى اللهب دون انقطاع.

عندما استعاد حركة أطرافه، قرر جيوفاني الذهاب بحثاً عن الطعام. كان يعرف جيداً الغابات المجاورة ويتذكر الأفخاخ التي يتركها بيترو في بعض الأماكن. وجد منها واحداً ما زال صالحاً للاستخدام، وقام بصبه. والكلب ينظر إليه وهو يقوم بذلك بفضولية. ثم عاد جيوفاني نحو النار.

كان الليل بارداً على ما يبدو وصراخ حاد دوى فجأة، ركض جيوفاني نحو الفخ، سبقه الكلب، وأعطى ضربة الرحمة إلى الأرنب البري الذي وقع في الفخ، وبدأ في الحال التهامه. انقض جيوفاني على الكلب لينتزع منه فريسته، كسّر الكلب لأول مرة عن أنيابه، وبدأ ينخر بوحشية.

- مهلاً يا صديقي، أعرف أنك جائع لكن قد يمكنك بالرغم من ذلك تقاسم الفريسة!

تمكن أخيراً من انتزاع ثلثي الطريدة من الكلب الذي اكتفى أخيراً بالتهام حصته من الغنيمة.

فسخ جيوفاني ما تبقى من الأرنب البري وشكّه في طرف ذراع ذو رأس دقيق ليشويه فوق قطع الجمر. عندما رأى أنه شوي تماماً أخذ منها قطعة وألقى بها إلى رفيقه:

- خذ، أنت لا تستحقه، غير أنك لم تأكل دون شك قبلي بكثير!

بينما كان الكلب ينقض على اللحم، كان جيوفاني يتلذذ بنصيبه. دفع النار، وجود هذا الحيوان، لذة الطعام، كل هذا أعاد له بعض التمتع واللذة وحب الحياة. ليس رغبة في العيش، بل الحاجة إلى الطاقة اللازمة ليتمكن من البقاء حياً.

ما هو اسمك؟ طلب جيوفاني من الكلب.

نظر إليه الحيوان باندهاش.. يبدو أنه يقول: أنت ترى جيداً أنني مثلك، متشرد تائه. ليس لي سيد منذ زمن طويل ولا أتذكر أبداً الاسم الذي أعطني لي في يوم من الأيام. عندئذ، إذا أردت أن نسير معاً ما تبقى من الطريق، عليك أنت أن تعطيني اسماً.

توجب على جيوفاني قراءة أفكاره لأن جواباً خطر له:

- نواه! ما رأيك بهذا الاسم، نواه؟

أطلق الكلب بعض النباح الفرح وحرك ذيله.

أسابيع عدة مضت على عودة جيوفاني إلى بيت معلمه أو إلى ما تبقى منه. منذ الأيام الأولى جهد في إعادة بناء الكوخ المؤلف من غرفة واحدة مكان البيت السابق، من الطبيعي أن يزور الكهف حيث كان الفيلسوف يخبيئ كتبه الثمينة، لكن هذه الكتب نهبت. سمح له هذا الملاذ بالتغلب على برد الشتاء المتزايد، كان ينزل لينام وسط التبن عندما يكون البرد شديداً، أما نواه فلم يتركه ولو للحظة، كان يتبعه في أقل تحركاته. في الليل ينام ملتصقاً أحدهما بالآخر على الفراش من القش. كانا يصطادان معاً. اتضح أن الكلب يتقفى أثر الطرائد، مشيراً إلى الدرب الذي كانت تمر عليه الطريدة الصغيرة.

يوماً بعد يوم، استعاد جيوفاني لذة العيش، كانت صُحبة نواه المرححة تكفيه ولم يكن يبحث أبداً عن صحبة الناس. كان يحب السير الطويل في الغابة، خاصة بعد تساقط الثلج. يتوقف مراراً أسفل جذع سنديانة ووجهه نحو البعيد، يغمض عينيه ويترك نفسه ليتدفأ بأشعة شمس الشتاء الفاترة. من وقت لآخر يفتح جفنيه ويتأمل الضوء الشاحب على الرؤوس البيضاء للشجر. يظل نواه ممدداً تحت قدميه، وينتظر، دون أن يتحرك. هذا التشارك مع الطبيعة ووجود الكلب كانوا بمثابة البلمس المسكّن لقلبه الممزق.

لم يكن يفكر لا بالله ولا بالدير. لكن العديد من صور طفولته وحياته

المرحلة منذ لقائه بإيلينا كانت تتقاطر مراراً في ذهنه. يشاهدها دون التفتيش عن المعنى. من وقت لآخر، يجتاحه الانفعال مع كل ذكرى. هناك أيضاً، لم يفتش أكثر من رفضه التوقف عندها. يترك نفسه لتشبع بها، الطريقة نفسها التي كان يستقبل بها دفء الشمس أو الريح اللاسعة على بشرته. كانت حياته مؤلفة من نشاطات للبقاء على قيد الحياة، قطع الخشب، الصيد، وشعور بدائي، بالدفء والبرد والجوع. دون مشاعر أخرى من الحنين، الأمل، أو التصور الساذج. كما لو أنه مثبت في الحاضر وهذا التابع من اللحظات كان ينسج شبكة حياته الجديدة. من الممكن يوماً أنه سيقدر مغادرة هذا المكان والاتحاق بإيلينا. وجب عليه أن يحس، عزيزياً، أنه من المبكر جداً التفكير بذلك، والعيش دون أحلام أو مشاريع.

عندئذ قرع القدر بابيه من جديد.

كان عائداً من صيد خائب، والطقس مائل إلى الاعتدال. على بعد مئة متر تقريباً من الكوخ، تصرف نواه بطريقة غير مألوفة، رفع أنفه في الريح وأسرع نحو البيت وهو ينخر. دار حول البيت مرات عديدة، وخطمه ملتصق بالأرض، ثم تبع أثراً واختفى. فكر جيوفاني بطريقة ولم يعر ذلك أي أهمية.

الأيام التي تلت، أظهر نواه علامات توتر، بدأ جيوفاني بالقلق لذلك، وفتش جوار الكوخ بدقة. ولمفاجأته الكبرى، لاحظ آثار سنابك الخيل على مئات الأمتار من مكانه. قطعاً كان أحدهم قد جاء إلى هنا، قد يكون مسافر تائه؟

عندئذ بدأ جيوفاني بمراقبة الطرق والغابات المجاورة، بعد أيام لاحظ آثاراً جديدة في الوحل على الطريق المؤدية إلى البيت. هذه المرة لم يتعلق الأمر بحافر خيل بل لأقدام بشرية. تفحصها بدقة.

كانت القدم صغيرة جداً وعلى الأرجح ناعمة. احتمالاً أن يكون

مراهقاً أو امرأة. بعد هذا الاكتشاف، غامر نواه داخل الأحرار، لكنه عاد فارغ الوفاض.

لم يكن جيوفاني يعمل شيئاً غير التفكير، هل كان الشخص نفسه؟ في كل الأحوال ما هو مؤكد، أن أحدهم كان يحوم حول المنزل. وذكرى قطاع الطرق بقيت حية في ذاكرته فاتخذ بعض الاحتياطات، فقد وضع حبلًا رفيعاً في عرض الطريق الذهاب نحو القرية، الموصول بجرس، لن يتأخر عن الرنين فيما إذا جاء أحدهم ليحوم حول المكان ليلاً.

هذا ما جرى. في مساء أحد الأيام، سمع جيوفاني رنة الجرس، نبه نواه بكل قواه وأسرع نحو الدرب الضيق. ركض جيوفاني خلفه. بدا له أن ضجيجاً بين الأغصان المكسرة المزوجة بنباح الكلب، فجأة أطلق نواه عواء وسكت. وصل جيوفاني إلى المكان فوجد الكلب ممدداً على خاصرته. سمع وقع خطى تبتعد في الغابة. بما أن الليل قد حلّ، فلم يخاطر بمتابعة الملاحقة. انحنى على نواه المجروح بشكل خفيف في رأسه. كان الكلب مصروعاً بضربة عصا. استعاد بسرعة وعيه، لكن جيوفاني تحصن في الغرفة ولم يغمض له جفن طوال الليل.

في صباح اليوم التالي، عند بزوغ الفجر، خرج مع نواه إلى مكان الاعتداء، وقام عندها باكتشاف هام جداً، قبل أن يصرع بضربة على رأسه كان الكلب قد انتزع شريحة من ثياب مهاجمه.

التقط جيوفاني قطعة القماش الزرقاء، دون أي شك ممكن، كان ذلك هُذب تنورة امرأة.

قال جيوفاني في نفسه قد تكون آثار قروية جائعة، كانت تحاول الاقتراب من الكوخ. من الممكن أنها امرأة شاردة أو فتاة منهوكة أجبرت على الهرب؟ أو مجنونة تائهة يصادف مثلها في الأرياف؟ أحاطت هذه الأسئلة بعقله وهمه الوحيد منذئذ كشف هوية الغريب.

رفع الحبل الرفيع الذي لم يعد نافعا، ووضع شيئاً من الطعام في كيس صغير وعلقه على غصن شجرة، ليس بعيداً عن المكان الذي ضرب فيه نواه. لكن لم يلمس أحد الكيس، باستثناء العصافير التي نجحت بثقبه لتمتّع بقطعة لحم الطريدة الموضوعة داخلها.

قال جيوفاني في نفسه أن المجهول، أرتعب من وجود الكلب ودون شك غادر الأمكنة.

انتابه الحزن بسبب ذلك.

مضى أكثر من أسبوع ولم يجد أي أثر، في صباح أحد الأيام بينما كان يتناول الغذاء في كوخه، قفز نواه على قدميه وبدأ ينخر. فتح جيوفاني الباب، الثلج يتساقط والأرض مغطاة بطبقة رقيقة بيضاء. لم يجد أي جهد في اتباع آثار أي زائر محتمل. لتجنب تكرار حادث ذلك اليوم، ترك نواه مغلقاً عليه في البيت وسار وحده على الطريق. وما أن قطع ما يقرب من ثلاثمئة خطوة، حتى جذب انتباهه آثاراً عديدة على الثلج، كان من السهل التكهن أن فرقة من الفرسان وصلت ذلك المكان قبل أن تعود أدراجها. عندئذ سمع ضجة قادمة من الغابة. كان لديه الوقت الكافي للالتفات ورؤية فارسين يرتديان السواد يتوجهان نحوه.

استعاد جيوفاني وعيه في الكوخ، كان مربوطاً بشدة إلى عارضة خشبية. آلام في الجمجمة أفهمته أنه ضُرب حتى فقد وعيه. رأى أن نواه أيضاً ربط بحبل في الناحية الأخرى من الكوخ. ما أن استعاد وعيه، حتى أصدر الكلب أنيناً وحرك ذيله.

كان الراهب القديم أمام خمسة رجال، يرتدون معاطف واسعة سوداء مع قناع من الجلد. أحدهم، رفيع القوام جلس على الكرسي الوحيد في الغرفة، منعزلاً قليلاً عن الجماعة.

- قال رجل طويل القامة وضعيف البنية الذي كان يضع ضماداً مدمى على يده: عجباً، يقال أن صديقنا قد عاد إلى وعيه. فهم جيوفاني أن نواه عضه عندما دخل الكوخ.

وتساءل: لكن لماذا هؤلاء الرجال القساة لم يقتلوا الكلب؟

- من أنت؟ سأل الشاب أخيراً بنبرة مرة. إذا كنتم أنتم من قتل معلّمك فلستم سوى جناء، ليلعنكم الله!

صفع الرجل الذي يحمل ضماداً جيوفاني بشدة بيده السليمة.

- نحن الذين نطرح الأسئلة، ماذا فعلت بالرسالة التي كان معلّمك قد أمّتك عليها ولم توصلها إبدأً إلى الجهة الموجهة لها.

- الأمر كذلك؟ هل ارتكبتم هذه الجرائم البشعة لتعرفوا المحتوى؟ لكن ما الذي يمكن أن يرر هذا النوع من الأعمال؟ هل أنتم مسيحيون أم برابرة؟

تهياً الرجل ليصفعه مرة أخرى، عندما قاطعه صوت المسؤول عنهم.

- هذا يكفي! دعه لي لأستجوبه.

كان الصوت صوت عجوز، نهض الرجل الجالس على الكرسي ببطء وتقدم من جيوفاني.

- أنت لا تعرف ما الذي تقوله. غير أنه بمقدوري فهم حزنك وغضبك، لم يكن هناك للأسف، وسائل أخرى لتجنب شيء أخطر من هذه الجرائم.

نظر إليه جيوفاني بمزيج من عدم التصديق والغضب والازدراء.

- وما هو ذلك الشيء الذي يسمح لك بتعذيب وقتل الأبرياء؟

- أبرياء! حنق الرجل العجوز، أبرياء، هل عندك فقط فكرة عما يحتويه المغلف الذي كنت تنقله؟

- ولا واحدة.

- إنه يكذب! صاح أحد الرجال.

- لا أعتقد أجب العجوز برصانة، وإلا لما كان صُدم واستنكر لهذه الدرجة بسبب موت المنجم.

ثم اقترب أيضاً من جيوفاني وحدق بعينه الصغيرتين عيني الفتى (الشاب)، ارتبك الراهب القديم بسبب برودة هذه النظرة، حيث لم يسبق له أبداً في حياته أن لاحظ لا إنسانية بهذا الشكل في أعين البشر.. تساءل ما إذا كان هذا الشعور قد ازداد بسبب وجود القناع. تابع العجوز بنبرة جليدية ومهدداً:

- أين اختسفت طوال كل هذه السنوات؟ ماذا فعلت بالرسالة؟

تدافعت الأفكار في ذهن جيوفاني، فهم أن خليلته لم تكن قد سلمت

الرسالة إلى البابا، فإن أي ذكر لاسم البندقية كان بمقدوره أن يضع هؤلاء المجرمين على طريق إيلينا، يجب إذن خداعهم.

عندما نجوت من مخالبكم منذ سنوات في بسكارا، صعدت إلى سفينة قادتني إلى اليونان.

ما أن وصلت هناك حتى أعطيت الرسالة إلى تاجر روماني (من أهل روما) الذي وعدني بتسليمها إلى الفاتيكان. من جهتي، فقد انقلبت إلى الأرثوذكسية وأصبحت راهباً رحلاً.

- ما هذا الكلام المنمقاً صاح الرجل المجرور واقترب من جيوفاني. أبعده العجوز بيده.

- قصتك لا تصدق، هل بمقدورك أن تقدم لنا برهاناً يثبت أنك كنت راهباً بحق؟

- فتشوا في جيبتي.

نفذ أحد الرجال وأخرج سبحة من الصوف البالي.

- كومبوسكيني، صاح العجوز المفاجأً ظاهرياً بهذا الاكتشاف، هذا لا يثبت شيئاً، لكن يجب أن يوجد شيء من الحقيقة في روايتك. أن تكون قد ذهبت إلى اليونان، فليكن، لكن أن تكون قد أوصيت بالرسالة إلى مجهول، وأنت تعرف أنها مهمة وثمينة بالنسبة إلى معلمك، هذا لا يمكنني تصديقه.

مع أن هذه هي الحقيقة، لم تكن لدي أي فكرة عن فحواها، وفهمت أنني لن أستطيع دون شك أبداً الوصول إلى البابا، لو وصلت إلى روما لوجدتموني وقتلتموني. كنت مقتنعاً من ذلك، لهذا وجدت من الحكمة أن أوكل بها إلى هذا التاجر الذي أوحى لي بالثقة.

- لا أعرف هل أنت أحق ساذج أو أنك تهزأ بنا، تابع الرجل العجوز، من جهة أخرى فإنني أعرف القليل عنك، اللهم أنك أمضيت عدة

سنوات قرب هذا المنجّم اللعين وشريكه. ما هو اسمك، من أين أتيت؟
فكر جيوفاني في أن هؤلاء الرجال كانوا قادرين على الذهاب
وتعذيب عائلته.

فأجابه بكذبة أخرى:

- أدعى جيوفاني داسكولا وأنا من مواليد كالابري.

لماذا أتيت لمقابلة المعلم لوسيو؟

- تركت المدينة مسقط رأسي بغية الدراسة في مدينة كبيرة في
الشمال، ومحض الصدفة التقيت بهذا المعلم النادر الرائع، الذي بقربه
درست الفلسفة مدة ثلاث سنوات.

لا أو من بالصدفة، رد العجوز بفتور، وهل درست أيضاً التنجيم إلى
جانبه؟

شعر جيوفاني بأنه كان عليه الكذب حول هذا السؤال.

- كلا.

- ليس لديك أي فكرة عن طلب البابا؟ مع أنك رأيت معلمك يعمل
طوال شهور عديدة قبل أن يرسلك حاملاً رسالته. لديك طبعاً فكرة
حول هذا الموضوع.

- أنا.. أعتقد أنه كان بالحقيقة يستخدم كتبه التنجيمية، غير أنني لا
أعرف لأي غاية.

- أحقاً؟

كان الرجل العجوز يحاول تفحص عقل جيوفاني بعينه الثاقبة.

- ليست لدي أي فكرة عن ذلك.

- هذا مؤسف، سيكون علينا بتر بعض أعضائك لمعرفة ما إذا كنت
تقول الحقيقة. سيكون من السهل عليك أن تقول لنا في الحال أين توجد
الرسالة!

- أحس جیوفانی بقشعريرة القلق، لكن غضباً أقوى من الخوف تملكه.

- لا يمكن لأي تعذيب أن يجبرني على قول ذلك الذي لا أعرفه. أليس لديكم ما يكفي من الدم على أيديكم؟ لكن أي قضية تخدمون إذن؟

- قضية الخالق العلي وابنه يسوع المسيح أجاب الرجل العجوز بهدوء.

- صاح جیوفانی منفعلًا: لكن كيف يمكن القتل باسم المسيح، وهو الذي لم يتكلم إلا عن الحب.

- بالضبط، بغية الحفاظ على رسالته وأن لا يُخان من قبل الممارسات الوثنية... التأليه الكوكبي مثلاً.

نظر جیوفانی إلى الرجل غير مصدق.

- تريد القول أنك قتلت معلمي وخادمه بيترو لأنه كان يمارس التنجيم؟

- أوه كلا! إن كنيسة يسوع المقدسة هي اليوم مغزوة بهذه الممارسات الكافرة، المدانة من قبل الكتب المقدسة (الأنجيل) لدرجة أنه لن يكون لدينا متسع من الوقت للقتل بحد السيف كل رجال الدين الذين يمارسون ذلك ببهجة! لا يا صديقي الشاب، ما كان قد فعله معلمك هو أخطر من ذلك بكثير.

اقترب العجوز من وجه جیوفانی وهمس في أذنه:

- استجابة لطلب بولس الثالث، خادم الشيطان هذا الذي يدنس مقام البابا، لقد تجاسر على الاستعانة بهذه الممارسة النجسة لينال مما هو أعلى وأسمى في إيماننا.

تساءل جیوفانی عن أي مبدأ مقدس كان يخشى وقوعه من الناحية

التنجيمية، غير أنه تساءل أيضاً، على كل حال ما يهمله أكثر، من كان هؤلاء القتلة المتعصبون.

- هل أنتم من تلامذة لوثر لتحقدوا على البابا بهذا الشكل؟

ضحك الرجل العجوز بصوت عال مرعب وقال مقهقهاً:

- ألا يمكنك إيجاد إهانة أسوأ لتغيظني وتعطيني الرغبة بتعذيبك بنفسي، أيها الأحق الحقير! المجددون هم أسوأ من المنجمين! حول كثير من النقاط، لقد خانوا العقيدة المقدسة للكنيسة، كم يدنسها هؤلاء البابوات الكذبة المشركون بمعتقداتهم وممارساتهم الوثنية، لكن مهما كان إيمانهم ضعيفاً، ومهما كان فهمهم للدين بائساً، فإن لا أحداً منهم يتجرأ على فعل ما قام به معلمك.

استعاد الرجل العجوز أنفاسه وتجشأ في وجه جيوفاني.

- رجسَ الرجس.

- مهما فعل معلمي، ألم تتأثروا بما فيه الكفاية لأنكم عذبتموه بقساوة وقتلتموه، هو ورفيقه الوفي وخادمه؟ لماذا تأتون بعد سنوات من ذلك وتلاحقونني؟

- لأن تلك الرسالة يجب أن لا تقع في أي يد.

أمسك الرجل بكلتا يديه بقبة جيوفاني.

- ولا أحد، أسمعني! أنا فقط من يجب معرفة محتواها وإتلافها إلى

الأبد!

بقي العجوز ممسكاً بجيوفاني مثل إبليس، ثم أفلته وعاد ليجلس، ظاهرياً متعباً لهذا المجهود. بدأ نواه يزجر لدى رؤيته الرجل يقترب منه. فجأة توقف العجوز ونظر إليه.

اقترب الرجل ذو اليد المجروحة من جيوفاني واستجوبه: ثق بي، أنا

أعرف كيف أفك عقدة لسان رجل ما.

أخرج سكيناً من تحت معطفه الواسع ونزع قميص الشاب وقرب شفرته بهدوء من صدره.

- توقف.

استدار الرجل العجوز.

- الكلب. قلت لك أنه يمكن أن يكون مفيداً لنا. هناك بعض الناس الذين لا يتحملون آلام كائن آخر، حتى ولو كان حيواناً (بهيمة).

- هذا يسمى الشفقة وأن المسيح هو من علمنا إياه!

هكذا صاح جيوفاني.

- هذا إذن، سنرى إلى أي حد ستذهب شفقتك، تابع العجوز

بابتسامة سادية.

ثم أشار إلى نواه بحركة تعبه.

- لا، كالا! صرخ جيوفاني، دعوا نوحاً بسلام، ليس له أي دخل في

هذه القضية!

تملك الدهول الرجل العجوز.

- كيف أسميت هذا الحيوان؟

- لا يهم، سوف لن تعلموا أي شيء مني فيما لو عذبتكم هذا الكلب!

- لقد تجرأت على تسمية هذا الكلب على اسم بطيريك أو حبر

التوراة المقدسة.

- بطيريك كان يرفق بالحيوانات التي أنقذها من الطوفان! أنتم لستم

سوى وحوش دون شفقة دون روح.

قرب الرجل ذو اليد المجروحة سيفه من نواه الذي تراجع وهو يكشر

عن أنيابه.

- لا! صاح جيوفاني، لا أعرف شيئاً، أقسم لكم بهذا أمام الله، لا

أعرف شيئاً!

ضايق الرجل خطم الكلب بطرف سيفه.

هي ذي الفرصة لأجعلك تدفع مقابل العضة القبيحة التي سببتها لي،
يا نواه..

بضربة سريعة، ضرب بسيفه على قائمة الحيوان اليمنى فقطعها في
الوسط.

أصدر الحيوان نباحاً يفطر القلب وسقط. سائل أحمر سال على
الأرض.

- توقفوا! توسل جيوفاني.

- إذن قل لنا أين هي الرسالة، عاد العجوز بلهجة جافة.

- أقسم لكم أنني لا أعرف شيئاً، اقتلوني لكن يكفي هذا الحيوان
المسكين عذاباً.

- أشار الرئيس برأسه إلى الرجل الجريح. رفع هذا الأخير سيفه من
جديد نحو نواه الذي بقي ممدداً على جنبه يئن من الألم. ضربه مرة
أخرى بغضب شديد. لكن الحيوان وقف في نفس اللحظة وقفز إلى
الجهة الأخرى ليتجنب شفرة السيف التي، بسبب صدفة ملائمة قطعت
الحبل الذي كان يشده. بقي الرجل مندهشاً ووقف نواه على قوائمه
الثلاث التي بقيت له.

- اهرب، نواه، اهرب! صاح جيوفاني.

هرع أحد الرجال نحو الباب المفتوح بصورة غير كاملة، لكن
الكلب سبقه بقفزة وتمكن الهرب من الكوخ.

أسرع الرجلان خارجاً، وبعد عدة دقائق عادا مغتاظين:

- بالرغم من جرحه، لقد أفلت منا هذا الحيوان القدر. أقر أحدهما.

- لا يهم، تابع العجوز.

- لنستأنف الاستنطاق من حيث توقفنا، ألح الرجل الجريح.
- هذا لا فائدة منه.

التفت نحو العجوز المتلى دهشة.

- هذا كله دون فائدة، في حياتي، بدأت أفهم الرجال، كن أكيداً من هذا، لو كان يعرف شيئاً لما حاول الحفاظ على هذا الكلب. لن يضيف أي شيء تحت التعذيب.

- ماذا سنفعل به؟

- أن نتخلص منه.

اقرب العجوز من جيوفاني.

- من المحتمل أنك كنت تحب معرفة محتويات تلك الرسالة قبل أن تموت؟

بقي جيوفاني صامتاً.

- أنا متأكد أنك كذلك، من الأفضل معرفة لماذا تموت، إذن لن تعرف شيئاً.

- أنتم لستم فقط متعصبون ومجرمون، لكن أيضاً من الجبناء الذين لا يجروؤن على إظهار وجوههم.

لو نجوت، سأجدمكم جميعاً حيثما كنتم وستجيئون على جراتمكم! رفع العجوز قناعه وطلب من شركائه أن يفعلوا الشيء نفسه، نظر جيوفاني مباشرة في عيني كل هؤلاء الرجال الذين قتلوا صديقيه العزيزين، أبدأً كان لن ينسى هذه الوجوه، حدق الرجل أيضاً بجيوفاني:

- أسافر غداً قاصداً القدس المدينة المقدسة مقر جماعتنا. يجب عليك أن تقوم برحلة طويلة لتجدني، لكنني أخشى أن لا تملك القوة حقاً.

- لقد أسستم جماعة لتخططوا لهذه الجرائم؟

- أراك فهمت جيداً. نعم أسسنا جماعة سرية: «رهبانية الخير المطلق». لقد تلقينا الرسالة (المهمة الإلهية بالقضاء كلياً بأي طريقة كانت على كل من يقدر على أن يتعدى على الأسس الأساسية للإيمان الكاثوليكي المقدس).

أنتم لستم سوى متعصبين تنتكرون للإيمان، كيف يمكن ارتكاب جرائم باسم إيمان ينادي بالحب كفضيلة سامية؟ ألم ينادي الرسول بولس: «عندما سأتكلم لغات الناس والملائكة، وإذا لم يكن لدي الحب، فأنا لست سوى جماد يدوي أو صُنْحُ يَرُنُّ...».

- صرخ الرجل العجوز. يكفي!

«... عندما سيكون لي هبة التبشير وأعرف كل الأسرار وكل العلم، وعندما يكون لي كامل الإيمان، إيمان نقل الجبال، ولم يكن لدي الحب، فأنا لا شيء...».

- ألن تسكت!

- عندما أعطي كل أملاكي إلى الفقراء، وأسلم جسدي إلى النار، ولم يكن لدي الحب، فهذا لن يفيدني شيئاً...

أشار العجوز إلى الرجل ذو الندبة الذي أمسك بسكين طويلة وانقض على الشاب.

- الحب يسامح عن كل شيء ويؤمن بكل شيء ويتمنى كل شيء، وتحمل كل شيء...

- دخلت شفرات السكين في صدر جيوفاني الذي أطلق صرخة وهو ينفث دفقاً من الدم.

- الحب... لا... يمر... أبداً...

رفع رأسه، ومدّ عينيه نحو السماء، وقال في تنهيدة أخيرة:

- لكن أنا... أكرهكم.

أضرم الرجال السود المرتدون النار في الكوخ وانطلقوا مسرعين تحت عاصفة من الثلج الناصع تاركين جسد جيوفاني.

خرج شبح من الغابة وركض نحو الكوخ الذي بدأ يحترق. امرأة هرعت إلى داخل الكوخ وتمكنت من إطفاء الحريق. شاهدت الجرح المفتوح في صدر جيوفاني، وبارتياح تأكدت أن النصل قد مرّ إلى جانب القلب.

كان جيوفاني ما زال يتنفس، لكنه فقد الكثير من الدم. قطفت المرأة أوراق شجرة البندق التي مزجتها مع قليل من التراب الطيني، مزقت قطعة من تنورتها الزرقاء وصنعت منه ضماداً مؤقتاً.

رفعت نحوها وجه الجريح وداعبته بحنان:

آه! يا جيوفاني ماذا فعلوا بك؟

بدأت خيوط الفجر الأولى بالظهور، كان نائب مدير دير سان جيوفاني إن فينيري قد أصغى إلى قصة ضيفه الطويلة دون أن يقاطعه ولو لمرة واحدة. كان جيوفاني جالساً دائماً على فراشٍ من القش، شاداً ساقيه الملتويين على صدره. عيناه مغرورتان بالدموع. بعد أشهر من السبات (فقدان الوعي) وأسابيع من فقدان الذاكرة، فقد استعاد لتوّه ذاكرته.. ووجد نفسه.

بعد لحظة طويلة من الصمت، متأثراً، اقترب منه دون سالفاتور:
- عزيزي، لقد بلبنتني روايتك، أفهم الآن لماذا احتفظت بك هنا، لماذا اعتقدت أنني أعرف في نظرتك روحاً عميقة، عرفت محن الجحيم وأفراح الفردوس.

رفع جيوفاني عينيه نحو نائب رئيس الدير:
- شكراً على كل شيء قمتم به من أجلي. بدونكم...
- قاطعه نائب المدير لم أقم إلا بواجبي كخادم لله وإخوتي.
- لكن من الذي قادني إلى هنا؟ ليس لدي أي ذكرى منذ أن طعنت بالخنجر من قبل هؤلاء المتعصبين.
- قرويون وجدوك في كوخ ساحرة. عندما رأتك فاقداً للوعي، اعتقدوا أنك مسكوناً بالشیطان.
- كوخ ساحرة؟

- نعم، لقد قبضوا عليها، لكنها لحسن الحظ نجحت بالهرب. لقد وجدوك ممدداً على فراش من القش في ملجأ تحت الأرض، على ما يبدو لي.

- ركز جيو فاني ذكرياته. فعلاً كان الأمر يتعلق بكوخ أعيد بناؤه على أنقاض بيت معلمه والذي كان يملك كوة تؤدي إلى كهف صغير. لكن من كانت تلك الساحرة المجهولة التي أنقذته واعتنت به طوال أشهر عديدة؟

- لونا؟

- عفواً؟

- لونا، ردّد جيو فاني. إنه اسم الحكيمة الشافية التي أعلمتني بهذا التنجيم والتي أنقذت حياتها.

- آه نعم. هذه الفترة من روايتك أدهشتني.

- كانت تسكن في غابة جبال آبروزس. على بعد عدة أيام سيراً على الأقدام من منزل معلمي لوسيووس. من الممكن أن تكون هي التي أنقذتني بدورها وأن هؤلاء القرويين أرادوا حرقها باعتبارها ساحرة.

- حسب شهادة القرويين يبدو أن الأمر يتعلق بفتاة شابة.

- هذا هو. وقد تكون هي التي كانت تحوم حول الكوخ قبل مجيء الرجال المرتدين السواد بقليل. ما أغرب القدر..؟

على كل الأحوال فهي ما تزال محتبئة في الغابة ولم يجدها القرويون بعد.

- من حسن الحظ! إذا كان لدي بعض الشكوك فيما يتعلق بها فإنني أعرف اليوم أنها امرأة مليئة بالطيبة.

فكر: «فقد اتضح له أن سحرها كان صحيحاً جداً».

الآن وقد عادت لك ذاكرتك، هناك سر أرغب في تفسيره، تابع

نائب المدير بصوت رزين. ماذا جرى في غرفة التمريض عندما وجدناك، والباب مغلق من الداخل مع الأخ موديستو، الذي اغتيل بعنف؟

أغلق جيوفاني عينيه. كان يجد صعوبة في تذكر هذا المشهد، لأنه كان ما يزال غارقاً في فقدان الذاكرة. مع ذلك ركز أفكاره، وصعدت الصور من أعماق ذاكرته.

- أحد المتعصبين!

- كيف هذا؟

- أذكر وجهه! أحد أولئك الذين كانوا يحيطون بالعجوز في الكوخ. واحد من أولئك الذين قتلوا المعلم لوسوس وبيترو.

- هذا مستحيل!

- أنا متأكد من ذلك. أبدأ لن أنسى وجوه هؤلاء القتلة!

- لكن ما الذي جرى في غرفة التمريض في تلك الليلة؟

- لا أعرف جيداً. أستعيد رؤية ذلك الرجل المنحني على جسدي والذي يحاول خنقي بواسطة محدة (وسادة).

أستعدت وعيي في تلك اللحظة، تعرفت على وجهه. استيقظ الغضب الذي يقطن قلبي. أمسكت السكين الذي كان إلى جانبي ووجدت القوة بيقربطنه. بعد ذلك. لا أتذكر شيئاً.

فكر نائب المدير لبعض الوقت.

- لو كان ما روئته صحيحاً، وليس لدي أي سبب للشك فيه، مهما كان مدهشاً، هذا سيعني أن الأخ موديستو كان دون أن نعرف شيئاً، واحداً من أعضاء تلك الجماعة السرية. ما أن تعرف عليك عندما جاء بك القرويون إلينا، قرر اغتيالك خوفاً من أن تستعيد وعيك وذهنك وتتعرف عليه. غادر صالة النوم في منتصف الليل وذهب إلى غرفة

التمريض. ليكون متأكداً وأن لا يفاجأ، ليسحب القفل من الداخل ويحاول خنقك. اعتداؤه دون شك فعل غير متوقع، خلق صدمة تجعلك تستعيد وعيك. تتعرف عليه، مدفوعاً بالرغبة بالثأر الذي في داخلك، فتقتله. من المحتمل أن تكون قد تصارعت معه، لأننا وجدناكما ممددين على الأرض وقد أنفتحت جرحك من جديد.

- كل شيء يفسر إذن. لم يهرب القاتل، لأنه كان واحداً من الضحيتين اللتين وجدناهما داخل الغرفة.

بقي جيوفاني صامتاً. فكر مرة أخرى في رؤى لونا. إذ ارتكب جريمة قتل لثلاث مرات. واحدة بدافع الغيرة، ومرة أخرى بسبب الخوف وثالثة في حالة الغضب. مسح نائب رئيس المدير وجهه بيديه، ثم رفع عينيه نحو ضيفه:

- وأخونا أنسيلو الذي وجدناه مسمماً بعد ذلك بعدة أيام؟ هل أنت من ارتكب هذه الجريمة الجديدة؟

أظهر جيوفاني اندهاشاً قوياً.

- كان هناك جريمة بينما كنت فاقد الوعي؟

ليس لدي أي ذاكرة حول ذلك!

- نعم، واحد آخر من إخوتنا وجد ميتاً مسمماً، من المحتمل أن السم كان موجهاً ضدك وأن هذا الأخ لسوء حظه شرب الكأس القاتلة.

- هذا يعني أن هناك راهباً آخر كان يحاول قتلي.

- محتمل، قد يكون عضواً في هذه الأخوية أو الجماعة السرية، كل هذا غريب جداً.

بقي دوم سالفاتور جالماً ومفكراً لبضع لحظات، ثم قال: وهل تتذكر الأيقونة التي رسمتها؟

بقي جيوفاني مذهولاً.

- لقد رسمت أيقونة هنا؟

- رائعة، عذراء ذات العينين المغمضتين.

جيو فاني مرتعشاً.

- تمكنا، بفضل صديق تاجر ذهب إلى المكان، الذي أقيمت فيه في آتوس.

- كنتم تعرفون هذا؟

- نعم، ونعرف أيضاً حتى اسمك الرهباني، أخ إيوانيس، وهذا ما أعلمنا به رئيس الدير حيث أقيمت فيه لفترة طويلة...

- سيمونوس بيترا؟

- هذا هو، إذن رفض رئيس الدير أن يرشدنا إلى مصيرك وأين أصبحت، متظاهراً بأنه لا يعرف شيئاً عنك. بينما آخر من أصل إيطالي كان يتذكر أيقوناتك الخاصة جداً وأصلك الكالابري مثل والدتي!

- قمتم بكل هذه الاستقصاءات من أجلي؟

- كنت آمل مساعدتك بهذا الشكل لكي تستعيد ذاكرتك.. وجرى هذا بشكل عادي وليس بالسيء. عندما أتيت لتسمعي بدمدمة أغنية تقال للأطفال في كالابري وهم في أرجوحة النوم. بدأ الجدار الداخلي الذي كان يقف حائلاً بين وعيك في الحاضر وذاكرتك حول الماضي ينهار أخيراً.

نظر جيو فاني إلى نائب رئيس الدير بتمعن. فبدون عطف هذا الرجل، ما الذي كان سيحل به؟ شدُّ بقوة على يدي الراهب.

شكراً، شكراً من أعماق القلب لعنايتكم واهتمامكم، لا أو من أبدأ بالله، لكن إذا كان موجوداً بالرغم من كل هذا، أتمنى أن يعوضه عليك مئات الأضعاف عن كل ما فعلته من أجلي.

وهل فارقك الإيمان حقاً؟ سأل نائب الرئيس متأثراً بهذا الاعتراف أكثر من تأثره بعرفان الجميل الذي أقر به جيوفاني.
أخفض الشاب رأسه.

- كما رويته لك سابقاً، كان إيماني قد انطفأ في الكهف، عندما أدركت أن الله تخلى عن ذلك الناسك الذي كرس له حياته. والذي عشته بعد، اكتشف الموت الرهيب لأصدقائي، ووحشية هؤلاء المتدينين المتعصبين الذين يقتلون باسم نقاوة الإيمان، كل ذلك لم يفعل سوى تأكيد شعوري.

كان دوم سلفاتور يرغب في إطالة هذا النقاش، لكنه تذكر أنه تلقى من رئيسه الأب أمراً ملحاً بأن يأخذ جيوفاني منذ طلوع الفجر، إلى ملجأ سان داميانو.

- يجب أن أذهب لمقابلة الراهب رئيس الدير، هل يمكنك أن تنتظري هنا دون أن تتحرك؟ سأذهب إلى الصلاة التي ستبدأ في الحال وسوف أكلمه مباشرة بعد التساييح الصباحية قصد تنبيهه حول هؤلاء القتلة الذين يتجولون فيما بيننا، ودراسة مصيرك.

بقي جيوفاني غير مبال، ارتدى نائب رئيس الدير جَبْتَهُ المقلّنة الصوفية وغادر من باب غرفة التمريض.

- سأتغيب لمدة ساعة تقريباً، أو أكثر بقليل. على كل حال، لا تتحرك من هنا، وأغلق قفل الباب جيداً.

بعد ذلك بساعتين، عاد دوم سلفاتور إلى غرفة التمريض بخطى مسرعة، بعد أن لخص حياة جيوفاني للأب رئيس الدير، الذي بدا مضطرباً ومتردداً، لكنه لم يكن ليرفض إعادة تقييم حكمه، وسماعه. بالمقابل، كان يرغب بأن لا يجري هذا الحديث في الدير نظراً للخطر الذي يحدق بالشباب، يجب أن ينقل إلى مكان آخر آمن بأسرع ما

يمكن، واقترح دوم ثيودورو أن يؤخذ كما كان مقررًا إلى سان داميانو حيث سيكون في مأمن، عارفين أنه سيحرر بسرعة من ذلك الملجأ.

قرع دوم سلفاتور الباب، ولما لم يتلقَ أي جواب نادى جيوفاني.. لا شيء. أخيراً فتح الباب بسرعة ولم يتمالك نفسه من أن يطلق صرخة. كانت الغرفة فارغة بائسة.

كتبت على المنضدة الخشبية كلمة: شكراً... بشكل غير متقن مستعيناً بتصل السكين.

وصل جيوفاني إلى مرفأ آنكون. سائراً بمحاذاة الشاطئ تاركاً العنان، قطع ما يقارب الأربعين فرسخاً وهي المسافة التي تفصل دير سان جيوفاني إن فينيري عن المرفأ الأدرياتيكي في أقل من يوم وليلة، استراح فقط ليستعيد جواده قواه بعد ساعات في منتصف الطريق.

هكذا اطمأن أن لا أحداً سيتمكن من اللحاق به، حتى ولو لاحظ الرهبان سرعة اختفائه مع الحصان الذي سرقه من الاسطبل. كان يشعر بشيء من عذاب الضمير لأنه أيضاً خان ثقة نائب رئيس الدير الذي أظهر نحوه الاهتمام، لكنه أقسم أن يعود ويعيد ثمن الحصان بعد أن ينهي مهمته. المهمة كانت بسيطة: العثور على العجوز الذي عذب وقتل معلمه وبيترو.

عندما وجد نفسه وحيداً في غرفة التمرريض، لم يتردد طويلاً، البقاء أكثر من ساعة في هذا المكان حيث تعرض مرتين لمحاولة اغتيال ويعدّ هذا أمراً خطيراً.

أشارت عليه غريزته بالهرب على وجه السرعة، طبعاً، كان بمقدوره أن يكشف، في سان جيوفاني إن فينيري أعضاء من الأخوانية التي كان بعض الرهبان من أعضائها في غفلة عن رؤسائهم. لكن، إلى جانب خطر الاعتداء عليه من جديد قبل أن يكون لديه الوقت للعمل. كانت فكرة العثور على العجوز الوقح تراود ذهنه، وفي الوقت نفسه يشعر

بالحقد المطلق على هذا الشرير المتعصب الذي أغوى العديد من النفوس الهشة، مقتنعين أنهم يعملون لقضية نبيلة في هذه المغامرة الإجرامية.

كان العجوز هو من يجب العثور عليه وقتله. هكذا سيقطع رأس هذه الجماعة (الإخوانية) السرية ويكون موت أصدقائه وموت أبرياء آخرين قد أخذ بالتأثر لهم. كان الرجل قد أعطاه سرّاً ثميناً قبل محاولته قتله وتركه ليموت. فهو يسكن في القدس. لم تكن لدى جيوفاني سوى فكرة واحدة في رأسه: الذهاب إلى مهد المسيحية. كان يعرف أن سفناً تبحر من آنكون لتذهب إلى الشرق. إن سرقة الجواد سمحت له ليس فقط الإفلات من مطاردين محتملين، بل ضمنّت أيضاً، مقايضته مقابل كلفة سفره.

دخل راجلاً إلى الرفأ، ممسكاً بلجام جواده المنهك. استعلم لدى تاجر دله على سفينة ذات ثلاثة صواري كانت ستبحر في اليوم التالي إلى الأرض المقدسة حاملة العديد من الحجاج. بما أنه لم يكن لديه حتى قطعة نقود ليأكل والجوع يمسك بمعدته، انهمك ببيع جواده. باعه بسعر جيد، بالرغم من حالته المذرية، وذهب ليأكل في حانة. ومن ثمّ ليفاوض حول رحلته. معتبراً أن ملامحه متواضعة. بدأ القبطان بالتصريح له أن السفينة كاملة الحمولة، هذا ما كان صحيحاً، لكن عندما رأى قطع النقود الذهبية قال في نفسه أن سفينته لن تغرق بسبب مسافر واحد فوق الحد، لتجنب أي مطالبة لاحقة. حذر الشاب من عدم الراحة في سفرة من هذا النوع التي ستدوم قرابة الخمسة عشر يوماً في عرض البحر: الطعام كان سيئاً، المسافرون يبيتون على الجسر، مهما كان الطقس، لأن جوف السفينة مكّسّ بالبضائع، فوق بعضها البعض لدرجة أنه من الصعب الاستلقاء للنوم. أبحر جيوفاني في الحال، دون البحث عن المساومة. المبلغ الذي طلبه القبطان بدا معقولاً ويبقى لديه ما يكفيه ليعيش بعض الوقت في القدس.

إلى جانب البحارة كان المركب يغص بالرجال، أكثر من مئتين، هكذا قدرهم، ذاهبين للحج لإحياء عيد الفصح في نفس مكان موت وقيامه المسيح.

استلم الشاب القصعة، الملعقة والغطاء الصوفي السميك المحسوب ضمن تكلفة الرحلة واستقر في مقدمة السفينة، حيا جيرانه بحركة من رأسه واستند إلى الدرايزين واستسلم للنوم في الحال، لأنه كان متعباً جداً بسبب رحلته على ظهر جواده.

كانت السفينة ذات الثلاث صواري تتقدم ببطء، بعد أن سارت بمحاذاة السواحل الإيطالية حتى رأس «بوي» مع رياح مواتية تدفعها من الخلف، كانت تتمايل الآن في عرض البحر، قبالة بيلوبونيز، لكن الريح خفت، والطقس جميل ولطيف. كان جيوفاني قد ارتبط بصداقة مع حاج يدعى عمانويل، من منطقة الفلاندر قطع أوروبا سيراً على الأقدام حتى ميناء أنكون. كان أرملاً منذ زمن طويل ونذر أن يذهب إلى الأرض المقدسة بعد شفاء ابنته الوحيدة، ابنة في العشرين سنة من عمرها أو شكت على الموت أثناء الولادة. أوكل لصفه تجارته الصغيرة وسافر لمدة ستة أشهر. لم يصرح له جيوفاني بالسبب الحقيقي لسفرته كيف يقول إلى رجل يذهب إلى الأماكن المقدسة ليصلي، أما هو فيذهب إلى الأرض المقدسة ليقتل؟

في اليوم التاسع من الرحلة، أعلم القبطان المسافرين أننا نمر على مقربة من جزيرة كريت، هذا الذكر لكريت حرك مشاعر جيوفاني الذي تذكر السنة الرهيبة التي أمضاها على سفينة السجن التابعة للبنديقية، وهربه العجيب تقريباً إلى السواحل الكريتية (نسبة إلى جزيرة كريت).

فكر من جديد، باهتدائه أمام أيقونة عذراء الرحمة، بما أن قلبه كان محبطاً باكتشاف حب يسوع وأمّه! كان يشعر عندها بنوع من الحيرة في

قلبه. ترغرغت عيناه بالدموع، في لحظة ما، راودته فكرة الصلاة، غير أن إرادته شدته، «كلا»، قالها: «كلا مقللاً باب قلبه، لا يوجد أي إله صالح طيب في هذا العالم».

لا يوجد أي إله صالح طيب يمكنه ترك البائس المسكين إفريم فريسة لليأس. ليس من إله خيّر طيب يمكن أن يتخلى عن أصدقائه، الطيبين ويدعم من يذبحون باسمه. المسيح مات على الصليب وتضحيته لم تخدم سوى إثارة الشفقة لدى البشر حتى نهاية الأزمنة، وليس لإنقاذهم. لا توجد قيامة، لا خلاص للبشر على يد المسيح، ولا حياة أبدية. إلا لمن يعبث (اللامعقول) في هذه الحياة ويمزج اللذات بالفظائع. قرّر جيوفاني أن يرفض ليس فقط الإله التوراتي الشخصي وألوهية يسوع، وأيضاً الحقائق الأفلاطونية، الجمال، الحقيقة والخير.

من المؤكد أن الطبيعة تقدم الكثير من الأمثلة عن الجمال. والحقيقة أن قلب الإنسان بمقدوره أن يحتوي على الكثير من قوى الخير. يسوع أو كائنات بشرية أخرى مميزة، حاول تحريرهما. من المؤكد أن الذكاء البشري يميل نحو المعرفة والحقيقة. لكن الشر، الخطأ، القساوة تمارس جميعها في العالم بنفس المقدار أو أكثر.

لم يعد بمقدور جيوفاني قبول مبدأ سام كلياً، أو جوهر خيّر كلياً، يخلق ويسوس العالم. بما أنه يؤمن عبثياً بوجود جوهرين أو مبدئين إلهيين متناقضين، أحدهما نبع الخير والآخر مصدر الشر، على الطريقة المانوية والمانويين، لم يعد له سوى الإيمان والأمل بالإنسان. ذلك الذي بعد تفكير طويل ويأس عميق. بينما كانت هذه الأفكار تراقص على الوقع البطيء والرتيب للسفينة، أصدر راصد السفينة فجأة صرخة.

- الشراع إلى اليمين!

أولئك الذين كانوا يتمتعون بقوة نظر أفضل لاحظوا نقطة تلوح في

الأفق، مع مرور الدقائق كانت هذه النقطة تكبر، هذا يعني أنها تتوجه نحو السفينة الإيطالية. لكنه بعيداً عن الحكم على مصدره ونواياه.

- نأمل أن لا يكون مركب قرصان! صاح عمانوئيل وبصره مثبت نحو النقطة السوداء.

- أو قرصان بربري (من شمال إفريقيا)! تابع جيوفاني متذكراً المغامرة التي حصلت لإيلينا وجوليا.

الأفضل أن يكون لص بحر من أن يكون قرصاناً، صاح بحار ليس بعيداً عنهم، على الأقل ستكون حياتنا في مأمن وسنباع مثل العبيد.

- إلا إذا تعلق الأمر بقرصان مسيحي، في تلك الحالة يمكننا متابعة طريقنا بكل اطمئنان، تابع عمانوئيل.

- إلا إذا كان فرنسياً! رد البحار، تحالف هؤلاء مع القراصنة من البربر (بربر شمالي إفريقيا) وتفاهموا ليهاجموا السفن التي ترفع علم الإمبراطورية (العثمانية). بصق الملاح من على ظهر المركب وأضاف وهو يعبر عن سخطه:

- نحن في يوم الثلاثاء، يوم الريخ.. علامة سيئة.

بسبب ضعف الريخ وغياب المجدفين، لا يمكن لهذه السفينة التجارية أن تفلت من ذلك المركب المجهول الذي توجه مباشرة نحونا. بدأ توتر البحارة بالازدياد مع مرور الدقائق، أعطى مكان الرصد معلومة جديدة:

- سفينة ذات ثلاث صواري!

- انظروا تقدمها السريع بالرغم من غياب الريخ!

علّق البحار الواقف إلى جانب جيوفاني، أكيد أن لديه العديد من المجدفين.

بصق الرجل مرة أخرى من فوق السفينة وقال:

- إنها سُبُك (سفينة بثلاث صواري) بربري، أقطع يدي إن لم يكن ذلك صحيحاً!

استمر الانتظار المقلق أيضاً طوال ساعة من الزمن إلى أن أكد الراصد تشخيص البحار وهو يصف علم السفينة:

- علم أحمر، سيفان متقاطعان، قرصنة جزائريون!

- برابرة (بربر الجزائر)؟ سأل جيوفاني البحار.

- كلا، قبطانها، «الجزائرية»، ترفع راية الحرب على شكل شعلة حمراء في وسطها ثلاث هلالات فضية اللون. لكن للتأكد واحد من زعمائها (رئيس).

- ماذا سنفعل؟ سأل عمانوئيل.

- لا شيء! إما محاولة الهرب فيما لو هبت الريح بأعجوبة!

- ألن نتقاتل؟ تابع جيوفاني.

- لماذا أفعل ذلك؟ لديهم على الأقل عشرون مدفعاً وأكثر من مئة محارب مدربين، فيما يخص سفينتنا فهي غير مسلحة ولا تحتوي سوى على الحجاج وبحارة دون تجربة في القتال.

- ماذا سيكون مصيرنا؟ تابع عمانوئيل، والوجه شاحب.

- إذا تركونا على قيد الحياة، من تقاليد القرصنة البربر، أنهم

سيبيعوننا كعبيد في مدينة الجزائر.

كانت السبك (سفينة ذات ثلاث صواري) مدفوعة بقوة ما يقرب من مئة جَدَاف الذين توقفوا عن ذلك عندما أضحت على مدى الصوت. طلب الرئس الجزائري من القبطان أن يستسلم دون شروط، هذا ما قبله. ألقى القراصنة بزورقين صغيرين في البحر، كل واحد على متنه خمسة عشر رجلاً مسلحاً، صعدوا على ظهر السفينة التجارية. الجيش الصغير بقيادة المارق المرتد، وهو عبد مسيحي سابق اعتنق الإسلام ويعمل لحساب القراصنة. ظل المرتد يحقق مع القبطان لمدة طويلة بينما رجاله يقومون بتفتيش دقيق للسفينة. بدا القراصنة وكأنهم راضون تماماً عن صيدهم (غنيمتهم)، فضلاً عن ذلك، أنها لم تكلفهم أي طلقة نار. أعطى المارق المرتد التعليمات إلى رجاله بالعودة ليقدموا تقريراً إلى رئيسهم. خلال هذا الوقت، تفقد القراصنة كل المسافرين والبحارة.

- خبثوا دراهمكم في مكان ما من السفينة واحتفظوا بقطعة أو قطعتين في جيوبكم، دمدم البحار موجهاً الكلام إلى جيوفاني وثمانوئيل متخذاً من نفسه قدوة.

دسّ جيوفاني نخلسة عشرة دوكات خلف جبل وأبقى على اثنتين. عندما جاء القراصنة ليفتشوه من الرأس حتى القدمين، غير ناسين البحث في حذائه وجدوا دون صعوبة القطعتين وأبقياه بسلام مع

جيرانه. لم يتم الأمر بالسهولة نفسها مع الآخرين الذين أخفوا كل نقودهم ولم يعثروا على شيء معهم، عارفين أن لا أحد يسافر وجيبه خال من النقود. توتر القراصنة وهددوا بسيوفهم المتغافلين الذين وضعوا مالهم في مأمن.

صرح هؤلاء بسرعة عن الخبأ الآني لكنزهم الصغير، باستثناء حاج من توسكانيا الذي أصر على الإنكار وألقي من على السفينة برودة فعل مزاجية. ذكّر هذا الحادث المسافرين على السفينة التجارية أن حياتهم معلقة بخيط واهن. وعندها أظهروا تعاوناً أكثر.

عاد القارب الثاني محملاً بالغنائم إلى السفينة القرصان. بعد ذلك بقليل، شاهد الحجاج مشهداً مريعاً، صراخ، نداء يعلو من السفينة البربرية. - ماذا يجري؟ لدينا الشعور أنهم كانوا يتباقرون أحشاء بعضهم البعض تساءل جيوفاني.

- هذا يدهشني، أجباب البحار. لدي الشعور على الأرجح أنهم يقتلون الذين يعملون على المجازيف، المرضى منهم أو المنهكون. بعد ذلك جاءهم التأكيد حول هذا العمل الكارثي.. ما يقرب من عشرين جسداً، حياً أو ميتاً ألقيت في البحر. رسم عمانوئيل إشارة الصليب ليحفظ الله روحهم.

- علق البحار أن يحفظنا خاصة من أن نحل محلهم.

بعد ذلك عاد القراصنة مصطحبين قارين فارغين باتجاه السفينة التجارية. صعد الحارس الفظ على ظهر السفينة مصحوباً بما تبقى من القراصنة، ودار حول المسافرين بحثاً عن مجدفين جدد. عادت إلى ذاكرة جيوفاني صور حياته في الأشغال الشاقة، قطرات من العرق سالت على جبينه. لن يتمكن أبداً من تحمل تجربة من هذا النوع. الأفضل أن يموت فوراً، كان يقول ذلك في داخله.

طلب الحارس الفظ من الشباب أن يخلعوا ثيابهم لتفقدهم بدقة. من وقت لآخر كان يعطي القرصان أمراً، بالاستيلاء على رجل ونقله إلى الزورق. لم يتجرأ أحد على المقاومة عازفاً أنه كان سيقتل في الحال ويلقى به في البحر مثل أولئك البؤساء.

عندما وصل الحارس الفظ أمام جيوفاني وازنه بنظرة ظاهرياً مرضية، بالرغم من هزال جسمه بعد نقاهة طويلة، فقد كان شاباً بنيته جيدة. كلما اقترب الرجل منه، كان جيوفاني يشعر بدمه يتجمد. توقف الحارس الفظ، حدق به للحظات، أشار برأسه إلى الحراس الذين يتبعونه، أمسك أحدهم بجيوفاني الذي تسمّر في مكانه وصاح:

- كلا!

رفع الحارس الفظ سيفه وتهياً ليضرب به الشاب لكن صوتاً أوقفه.
- توقف! أنت ترتكب خطأ، هذا الرجل نبيل من كالايري يسافر كحاج متواضع، يمكن لمعلمك أن يستفيد منه بفدية كبيرة.
أخفض القرصان ذراعه ونظر إلى عمانوئيل مهدداً.

- من أنت؟

- خادمه، سيلومني سيدي دون شك لأنني خنته، لكن لا أقدر على تحمل فكرة رؤيته يذهب كعامل تجذيف على سفيتكم.

أعاد الحارس الفظ تقييمه لجيوفاني واستحضر قرصاناً آخر، كان يبدو أنه واحد من الزعماء، الذين شُرح لهم الوضع. نادى هذا الأخير على جيوفاني:

- ما هو اسمك؟

لم يتردد جيوفاني ولا لثانية:

- جيوفاني داسكولا. أنا بالفعل نبيل من كانانزانو، ستدفع عائلتي فدية جيدة لإطلاق سراحي وكذلك خادمي.

- ولماذا ترتدي هذه الثياب مثل بئس مزحوم على ظهر هذا المركب؟
 - بعد شفاء والدتي، نذرت بالذهاب للحج إلى القدس. كان نذري
 يتطلب أن أذهب إليها بتواضع ودون مال، بصحبة خادمي الأمين فقط.
 حذق القرصان طويلاً في عيني جيوفاني.

- تبدو وكأنك تقول الحق، سأوصي بك إلى الباشا عند وصولنا.
 أعطى الزعيم إشارة برأسه إلى الحارس اللفظ الذي تابع مساومته
 المشؤومة وغادر حالاً إلى السفينة الشراعية الحربية (القادس) بصحبة
 عشرين من المساكين. شد جيوفاني بقوة على يد عمانوئيل الذي أنقذ
 حياته.

أخيراً قرر القراصنة إرسال السفينة الغنيمة أماريناتي مع طاقم
 مختصر. أبقوا على متنها مئة من أنصارهم مدججين بالسلاح تحت قيادة
 خائن مرتد. كانت لديهم مهمة اقتياد السفينة إلى الجزائر مع كل طاقمها
 وبضاعتها ومسافريها، بينما كان الرئيس وسفينة القرصان بعيدان عن
 المرفأ البربري، تابعت مسارها بحثاً عن طرائد أخرى.

غيرت السفينة وجهتها وسلكت طريق الغرب باتجاه السواحل
 الإفريقية. كانت الحياة على ظهر المركب قد استعادت سيرها الطبيعي.
 كان بحارة السفينة مخلصون لمواقعهم يتلقون دائماً أوامرهم من القبطان
 نفسه الموضوع تحت مراقبة المرتد. بعد عدة أيام من الملاحه، بينما هبت
 الرياح المواتية، جاء زعيم القراصنة إلى جيوفاني.

- أنا أيضاً من مواليد كالابري، من منطقة ريجيو، حدثني قليلاً عن
 هذه البلاد.

- أنا من كانازانو ولم أسافر وللأسف إلى مسقط رأسي إلا قليلاً، لأن
 أموري قادتني بسرعة إلى الشمال.

نظر إليه الرجل بصمت وبشيء من الغيظ.

- لكن أنت بالذات ماذا تفعل هنا بين هؤلاء القراصنة؟

عاجله جيوفاني بالسؤال قاصداً تجنب إطالة التحقيق.

- مات والدي أثناء غزوة على الشواطئ الكالابرية التي قادها خير

الدين، البربري المشهور. والدتي، أخواتي وأنا ألقى القبض علينا وأصبحنا عبيداً.

كان عمري ست سنوات تقريباً، بعد ذلك بعدة سنوات، اقترحوا

علي أن أنقلب إلى الإسلام مقابل الحرية، قبلت وانخرطت على واحدة

من سفن رئيس البربر. اليوم أبلغ من العمر عشرين سنة وأنا نائب

الرئيس على سفينته، ذلك ما رأيته منذ عدة أيام.

- ما اسمك؟

ضحك الرجل عالياً.

- بهاء الدين الكالابري! لكن مضى زمن طويل ولم ألفظ اسمي

المسيحي القديم.

- هل تتذكره؟

حدق بهاء الدين بجيوفاني، غطاء من الحزن، متبوع على الفور

بملامح الغضب، عبرت نظره الزرقاء الجميلة.

- طبعاً، لكن فيما يخصك هذا، أيها الكلب المسيحي؟

- أنت بالذات طلبت مني أن أكلمك عن منطقتك كلابري حيث

ولدت، ظننت أنه يروق لك أن تتذكر ماضيك.

ابتسم الرجل.

- أنت محق، لقد أخطأت بانفعالي الشديد، كنت أدعى جياكومو.

مثل أخي!

- آه نعم، وماذا يعمل؟

أجبر جيوفاني على الكذب وكَمَدَ وجهه قليلاً.

- يخدم في جيش الإمبراطور، لم أره منذ سنوات.

- هل أنت متزوج؟ هل لديك أطفال؟

- كلا، لاشيء بعد. وأنت.

- لدي زوجة وولدان يعيشان في الجزائر التي تسمونها ألبير، بفضل

الله سأراهم قريباً.

- حدثني عن تلك المدينة، هل تحبها؟

انفتحت أسارير الرجل.

- نعم أحبها! ستمتع قريباً بروعتها، وسترى أنه إذا كانت تلك المدينة

وقراصنها قد أخذوا أبي أسيراً اليوم إن قلبي مولع بها، لن أذهب أبداً

لأعيش في مكان آخر.

قوطع من قبل القرصان الراصد:

- العديد من البواخر أمامنا مباشرة.

التحق القرصان بمؤخرة السفينة، تابع المركب طريقه محافظاً على

الاتجاه نفسه، بعد أقل من ساعة التقى بثلاث سفن حربية عسكرية

من البندقية. كانت السفينة التجارية ترفع دائماً العلم الامبراطوري

لمملكة نابولي وصقلية. بما أن كل شيء يبدو عادياً على ظهر السفينة،

اكتفى البندقيون باستدعاء القبطان بواسطة مكبر صوت لمعرفة ما إذا

كان كل شيء طبيعياً على متنها، كان القراصنة قد اختبأوا في

مستودع السفينة وبهاء الدين ارتدى ثياب القبطان. أجاب

بالإيجاب، خلال عدة دقائق كان كل واحد قد حبس أنفاسه، لكن

لم يجرؤ أي بحار أو مسافر على الصراخ بأنهم أسرى القراصنة

نظراً لارتعابهم الشديد. فكر جيوفاني للحظة أنه بمقدوره أن يلقي

بنفسه في الماء ويحاول الالتحاق بالسفن الحربية المسيحية سباحة،

لكن وجد من الأفضل أن يباع مثل عبد في الجزائر من أن يقع في أيدي البندقيين.

استغرقت السفرة عشرة أيام أخرى دون أي حدث آخر. في صباح أحد الأيام لمح جيوفاني الساحل الإفريقي بعد عدة ساعات صاح الراصد معلناً:
- الجزائر.

أفرغ القراصنة مسدساتهم في السماء الزرقاء وتعانقوا فرحاً. الحجاج والبحارة، من جهلهم كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض ووجههم شاحب، ما أن ينزلوا الأرض فإنهم سيبيعون فوراً كعبيد (رقيق).

مدينة الجزائر بروعتها، تتكشف لأنظار الأسرى القلقة، المدينة البيضاء، المبنية على هضبة مطلة على البحر. هضاب أخرى مخضرة تحيط بها، يجعلها بياض الحجارة التي استخدمت في بناء كل المنشآت: البيوت، القصور، والمساجد.

ما أن رست السفينة حتى، استقبلت القراصنة جموع فرحة. متسكعون، وفقراء بثياب رثة، أطفال، بحارة، وأيضاً تجار أثرياء أو من ينوب عنهم، كانوا يتدافعون ليروا الغنائم الجديدة محاولين تقدير قيمتها. كان حراس المرفأ لا يهتمون إلا بالمركب، لأن تجهيزات السفينة من الأشرطة والصواري تعود لهم قانوناً. ذهب القبطان الشاب في الحال إلى قصر الباشا مصحوباً بكاتبين لكي يسلم حاكم الجزائر، ممثل سلطان القسطنطينية، كشفاً عن محتويات الغنيمة: سفينة، رجال، بضائع، أموال، حُلبيّ. كان الباشا يتقاضى بمنهجية عشرة بالمئة من كامل الغنائم، وأي تزوير حول تقدير قيمتها كان يجمع بشدة.

نسبة مئوية أقل منها تعود إلى مختلف الموظفين والإداريين في المدينة وواحد بالمئة إلى المرابطين (الشيوخ المسلمين)، هؤلاء المتدينون لديهم مواهب كثيرة في الشفاء أو التنجيم ومحترمين من قبل الشعب، أما الباقي فيوزع بين الرئيس الذي أسر السفينة وطاقمها، حتى المساهمين فيها يعطى الحساب لواحد أو للعديد من الخواص.

قبل أن يفرغ القراصنة البضاعة، أنزل الحجاج المساكين وطاقم السفينة الأسيرة، إجمالاً، ما يقرب من مئة وخمسين رجلاً وثلاثون امرأة. محاطون بحراسة من العسكر الإنكشاري، هؤلاء المرتزقة الأتراك الذين أهداهم سلطان القسطنطينية إلى حاكم الجزائر والذين كانوا يخدمون في الوقت ذاته في الشرطة، جيش النخبة وحرس شخصي للباشا، ذهبوا مباشرة إلى سوق العبيد (الرقيق). لا حاجة مطلقاً لتقييدهم بالسلاسل، أي محاولة للهرب كانت مستحيلة، نظراً لوجود الجمع الكثيف الذي يحيط بالموكب. إن كانوا فقراء أو أثرياء، رجالاً أو نساء، شباباً وشيوخاً، الكل يتسلى في تأمل سحنة الأسرى. بعض الشابات اللواتي يجذبن أنظار الرجال، بينما نساؤهم وبناتهم وقد وضعن الحجاب على وجوههن ليخفين ضحكاتهن أمام الرجال. ما أن يلتفت أحدهم نحوهن. بما أن واحداً من الرجال الشباب القوي البنية الذي أفلت من التجنيد القسري على متن السبّك القراصنة، كان لجيوفاني نجاحاً حقيقياً فيه.

ما أن وصلوا إلى ساحة واسعة مربعة وسط المدينة، طُلب من السجناء الجلوس على الأرض. رجل مُسَيّن ضامر يحمل لوحة ورقم، اقترب من قبطان السفينة الأسيرة، أشار له بأن يقف ويسجل رقماً على ثيابه بما يشبه الطبشور. ثم يأخذ بذراعه، ويجبره على الطواف حول الساحة. كان الجزائريون واقفين على الجوانب، المهتمين منهم كانوا يطلعون على الأسير، عمره، مهنته أو بلده الأصلي. الرجل العجوز يتكلم عدة لغات أوروبية ويترجم الأجوبة، أحياناً، بعض التجار يجسّون عضلات السجناء أو يطلبون منه فتح الفم للتأكد من حالة أسنانه.

تذكر جيوفاني وهو طفل عندما حضر سوق بيع الجياد، وأن التشابه في التصرف جعله يتقزز حتى الغثيان. قاطع جيوفاني نظره وهمس في أذنه:

- عندما نفكر نحن المسيحيين من جهتنا، نعمل الشيء نفسه مع الأسرى الهنود أو المسلمين!

- ما أن انتهى من الدوران حول الساحة، حتى طلب الرجل العجوز من القبطان بأن يجلس وأمسك بسجين آخر أخضعه المعاملة ذاتها.

مرت الساعات، حضر جيوفاني عاجزاً وناقماً، لمشهد فتاة عمداً كل الرجال إلى محاولة لمسها، بعد أن كانت قد قرّصت، وجُست ودُغدغت لعشرين مرة، أصيبت الفتاة بنوبة عصبية وانهارت. أنعشت، وعادت مقاساتها من جديد إلى أن صرخت بكامل قواها إرضاء لمتعة الجماهير. تطلب الأمر بعد ذلك تكييلها بالسلاسل وجرها بقوة لأنها رفضت التقدم. كان جيوفاني من بين الأخيرين الذين مروا، لقد جلب نظر العديد من التجار والخواص الذين ثمنوا فتوته، ملامحه النبيلة وصلابته. عند منتصف النهار، دوى صوت رجل قوي وموزون في أعلى المئذنة المطلة على الساحة.

- إنه المؤذن الذي يدعو إلى الصلاة، همس أحد البحارة في أذن جيوفاني. يحصل هذا خمس مرات في اليوم: الفجر، الظهر، العصر، عند غروب الشمس، وساعة بعد بداية الليل.

تأثر الشاب بجمال وعذوبة الأذان الذي ذكره ببعض النبرات والألحان الأرثوذكسية. ذهب الرجل العجوز وجزء كبير من الجموع للصلاة وتناول طعام الغذاء. وُضع المساجين تحت ظل القناطر ووزع عليهم الماء والخبز والتمور. بعد عدة ساعات من انتهاء صلاة العصر مباشرة، عاد الجميع إلى الساحة. أمسك العجوز بالسجين الذي كان يحمل الرقم 1 ودار حول الساحة وهو ينادي:

- اشحال (كم) اشحال (كم)؟

سجل الرجل بعناية على لوحة رقم السجين، ثمّنه، واسم المالك. وسجل أيضاً الثمن على ثوب الأسير.

قبل أن يعود إلى رفاق الدرب، سأل جيوفاني أحد البحارة ما السبب في ذلك؟ الظاهر أنه كان يعرف العادات المحلية.

ما أن انتهت المزادات حتى اقتادونا أمام الباشا الذي يمكنه أن يفتدي لحسابه الشخصي، رقيقاً واحداً من كل ثمانية. - لماذا اقتادونا إلى هذا المكان؟ أجاب جيوفاني متحيراً.

- لأنه في المزداد العلني تقدر القيمة الحقيقية للرقيق. إذا كان للباشا الحق بافتداء رقيق من كل ثمانية، فإنه يؤخذ أيضاً بعين الاعتبار قيمة (ثمن) العبيد، وهذه القيمة الإجمالية ستؤخذ من النسبة المتوية من كامل الغنيمة.

- تكلم جيوفاني يا لها من دقة ويا له من معنى للعدالة... كان بدوره قد بيع بالمزاد واندھش من ارتفاع المبالغ المعروضة، التي كانت تتجاوز حتى سعر الفتاة. فهم فيما بعد أن القراصنة نبهوا البائع العجوز، أنه بالرغم من تواضع مظهره، فإنه كان نبيلاً يمكن أن يأتي بفدية مرتفعة. تجار أو خواص كانوا يضاربون إذن حول قيمته عند إعادة البيع. أخيراً بيع بمبلغ كبير لتاجر إفريقي (بربري من سكان الصحراء الغربية) مُتخصّص في اقتداء (دفع الفديات) للأسرى المسيحيين.

توقفت المزادة قبل حلول الليل، قريباً سينادي المؤذن المؤمن إلى صلاة العشاء وتفرق الجمع.

اقتاد الإنكشاريون، الأسرى نحو أحد سجون الباشا الثلاث الواقعة في المدينة المنخفضة، حيث كان يعيش بشكل دائم مئات الرقيق في أنفاق تحت الأرض دون تهويه أو نور. جمعوا القادمين الجدد مع حرص على فصل الرجال عن النساء، ووضعوهم في غرف دون نوافذ

تسع الواحدة منها عشرين أسيراً، وزع عليهم الماء والخبز وشرح لهم أن عليهم الاحتفاظ بالغذاء لغاية صباح الغد.

كان الحراس يتكلمون لغة غربية تسمى «الفرانكو» وهي مزيج من الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية. وهكذا فإن الأتراك وسكان مدينة الجزائر كانوا يتواصلون مع العبيد لكن معظم العبيد يتواصلون فيما بينهم أيضاً.

- فورتى، فورتى «بسرعة، بسرعة!» صاح الحرس فاتحاً باب الغرفة حيث كان جيوفاني قد أمضى ليلة دون نعاس أو نوم في أرجوحة مشبعة برائحة النيوس.

تم جمع السجناء عند مخرج السجن، واقتيدوا إلى الجنيحة، القصر الفخم الذي يسكنه الباشا. لاحظ جيوفاني غياب الفتاة التي انتابتها نوبة توتر في سوق العبيد. فقد أخرجت من مجموعة النساء، وسرت الإشاعة أن المسكينة انتحرت أثناء الليل، خانقة نفسها بواسطة منديل. جمّد هذا الخبر دم الشاب، متذكراً النظرة الشّبية للتاجر البدين الذي اشتراها، تساءل ما إذا كانت قد اتخذت القرار الصائب.

اقتيد السجناء واحداً واحداً أمام الباشا مصحوبين بالرجل العجوز ولوحه. هذا الأخير لم يكن سوى ابن بربروس، الذي يتجاوز عمره خمس وسبعون عاماً. في العام الماضي استدعي القرصان الرهيب حيث أمضى بقية أيامه، قبل الذهاب إلى القسطنطينية، بعد أن ضمن خلافته بتسمية ابنه حسن باشا الجزائر من قبل السلطان سليمان. بيد أن حسن لم يشبه أبيه أبداً لا من حيث الجسم والطبع ولا بالطموحات السياسية. أخذ عن أمه البربرية حبه للجزائر الذي لم يكن لدى أبيه ذو الأصول العثمانية. اعتبر خير الدين، الملقب بربروس، الجزائر موقعاً استراتيجياً لاحتياجاته (غزواته) في البحر. كان يصبو قبل كل شيء إلى قرصنة البحر المتوسط، الذي يعرفه مثل جيبه عن ظهر قلبه، وكان مهتماً براحة

سكان مدینته. لم یكن حسان مولعاً بالمدينة التي شهدت ولادته، بل كان یطمح سراً بجعلها يوماً ما مستقلة ذاتياً ویتخلص من الأفیین الینشاریین الأتراك الذین كانوا یكدرون حیاته وحیاة السكان.

لم یحظ بلقب سید الجزائر إلا منذ سنة، لكنه سبق أن حصل علی احترام سكان الجزائر (المدينة)، وهم خلیط من البربر المحليین، العرب (الذین كانوا فی الأندلس)، اليهود ومن المرتدین المسیحیین، دون احتساب العبید المسیحیین المأسورین فی البحر والعبید السود المباعین من قِبَل العرب.

تربع حسان علی منبر یطل علی غرفة واسعة مزينة باعتدال، جسد قبیح: قصیر وضحوك، وجه مدور محاط بلحیة سوداء مبعثرة، جبهة عنیده محدبة تبدو مصفرة بفعل عمامة زرقاء اللون، علی غرار والده. یشكو من زأزأة (لفظ الجیم زین)، كان شعله ذكاء متقد، بارعاً. محاطاً بأربعة من الینشاریین المتمركزین فی أسفل المنبر ومن مستشارین جالسین خلفه: أما الرجل العجوز الذی كان یشرف علی بیع العبید (الرقیق) فقد جلس عند أسفل المنبر، عیناه منكبتان علی لوحته بینما الأسرى العبید یمرون واحداً تلو الآخر أمام حاکم الجزائر. كان الباشا ینظر بتمعن إلى كل أسیر، وثمنه المسجل أسفل ثوبه ویسأل العجوز عندما یرغب بذلك. من وقت لآخر كان یتحدث مع مستشاریه وأحياناً یطرح أسئلة علی الأسیر من طریق الرجل العجوز. وهكذا حقق طویلاً مع جیوفانی عن أصوله، عائلته وثروته. كرر الشاب نفس الأكاذیب نفسها التي اخترعها أمام القبطان القرصان. طلب من الباشا ما إذا كان هذا الأخير راغباً فی شرائه بأن یتفضل علیه ویشتري خادمه عمانوئیل معه لأنه لا یفضل أبداً الابتعاد عنه، وأقل من ذلك تركه هنا بعد أن تدفع فدیته.

حسب عادته، لا یتخذ الباشا أي قرار فوری ویعید كل الأسرى إلى

السجن.. بعد مرور عدة أيام على سجنهم جُمعوا من جديد. ونودي على الذين تم اختيارهم اسماً واحداً واحداً.

سمع جيوفاني وعمانوئيل اسميهما بارتياح.

الجزائريون الذين قدموا أنفسهم على شراء السجناء كانوا أيضاً حاضرين، دفعوا أثمانهم إلى الرجل العجوز وإلى معاونيه وغادروا مع رقيقهم الجدد.

البعض كان يبكي لدى فراقهم أصدقائهم المؤقتين، لكن الغالبية كانت تبدو مترسّسة. المجموعة الصغيرة الصغيرة من أولئك الذين اشتراهم الباشا بقوا في المكان عينه. ثم جاء مديره، وهو رجل ذو ملامح مهيبه عمره خمسة وأربعون سنة، ليكلّمهم. تعرّف جيوفاني على واحد من الرجال الموجودين إلى جوار ابن باربروس عربي من مدينة الجزائر يدعى إبراهيم بن علي التاجر، يتكلم بصوت عذب ورزين هذا الذي طمأن وهدأ شيئاً من قلق العبيد. شرح أن كل النساء سيؤخذن إلى القصر وتوكل لهن مهمات متنوعة. باستثناء واحد سيعين أيضاً في القصر نظراً لخبرته في الطبخ، الرجال الذين سيقون في السجن سيقومون بأعمال متنوعة للصالح العام مثل الترميم وبناء الطرق أو الأبنية العامة. شرح إبراهيم أنهم سيعاملون دائماً بشكل جيد ما داموا ينصاعون للقواعد العسكرية. لكنه يحذرهم أيضاً من أن أي محاولة للهرب ستعاقب بقسوة، الأولى من طريق الضرب بالعصا ثلاثماية ضربة، الثانية بتر إحدى يديه، الثالثة بالموت.

يجب أن تكون الأولى هي الأصلح، همس جيوفاني في أذن عمانوئيل.

عاد جيوفاني إلى السجن وبرفقته أسرى آخرين. اقتيدوا إلى غرفة كبيرة ووضع الحديد في معصم قدمهم اليمنى.

كان الحديد متصلًا بسلسلة مؤلفة من خمس أو ست حلقات تعيق تنقل السجنين وتجعل أي جري سريع غير ممكن. كان لهذه الطريقة العديد من المزايا، التي تسمح للأسرى بالعمل دون إزعاج كبير، لكنها تجعلهم معاقين بشكل كبير في حال الفرار، ومعروفين من قبل الشعب على أنهم عبيد الباشا.

ما أن وضع الحديد في أرجلهم، حتى تمكن جيوفاني وعمانوئيل من التجول بحرية داخل السجن، إلى جانب مكان النوم المهوّى بشكل سيء. كان السجن تحت الأرض يتألف من مكان للأكل، غرفة واسعة مقببة لا يكاد يدخلها النور، مع نافذة صغيرة لتهوية المكان حيث يمكن للعبيد الاجتماع والشرب واللعب. لدى الدخول إلى هذا المكان الذي يعج بالضجيج بصحبة عمانوئيل، تساءل جيوفاني أين سيجد السجناء المال الذي ينفقونه في هذا المجال، بما أنهم جُردوا من مالهم قبل وصولهم إلى هذا المكان. اتخذ عمانوئيل هيئة ساخرة وأبرز لجيوفاني قطعة نقود دوكانج بإخفائها في حذائه. جلس الصديقان إلى طاولة لا تصدر الكثير من الضجيج وطلبوا ملء بنته (نصف لتر = كيل) من النبيذ إلى مراهق هزيل البنية.

يا للسعادة أنني نجحت في الإبقاء على هذه القطعة!
 همس بهذا عمانوئيل. هذه هي على الأقل بعض اللحظات السعيدة
 التي يجب الاستفادة منها في هذا البؤس الذي يصيبنا.
 - لقد جردني واحد من هؤلاء الجنود الأتراك ما نجحت في إنقاذه على
 ظهر السفينة. وكم كنت ساذجاً عندما أعدته إلى جيبي.
 لا أعرف كم من الكؤوس سيقدمه لنا هذا الدوكا الذهبي، لكن أخشى
 من أن نعود بسرعة إلى الماء.
 نظر جيوفاني من حوله وقال.

- الغريب، أن كل هؤلاء الرجال، الذين قضى بعضهم هنا أشهر أو
 سنوات، يمكنهم اتفاق المال المسروق من القراصنة أو الأتراك عند
 وصولهم. في كل الأحوال هذه مهارة من طرف الباشا بأن يجعلهم
 يردونها (يسددونها).
 - استدرك رجل بدين جالساً في الطرف الآخر من الطاولة أليس
 كذلك؟

- من لنا الشرف بالتعرف؟ أجاب جيوفاني بعد أن مرت اللحظة الأولى
 من المفاجأة.
 مد الرجل، الذي يقارب عمره الأربعين سنة، يده البدينة وهو يظهر
 ابتسامة مرحة:

- جورج موروا، أنا من دنكرك، مدينة مرفأ ساحلية في الشمال من
 مملكة فرنسا.

شدّ جيوفاني طويلاً على يد الفرنسي.

- جيوفاني داسكولا وخادمي عمانوئيل، نحن أصلنا من كالابري.

- أهلاً وسهلاً في الجزائر!

- شكراً، سنكون قد استغنينا عن هذه الرحلة في الرحلة البحرية التي

كانت ستقودنا إلى القدس، وأنت منذ كم من الوقت موجود هنا؟
- أظهر الرجل ابتسامة عريضة خالية من الأسنان وبقي صامتاً
للحظات. تبادل جيوفاني وثمانويل نظرة مندهشة.

- نطق أخيراً منذ ثماني سنوات، يا أصدقائي.

ثماني سنوات طويلة اخترت فيها هذا المكان الضخم منزلاً وملاًذاً.
أعرف كل زواياه، كما أعرف أصغر طريق أو شارع في هذه المدينة.
- سأله عمانويل هل لديك أي أمل بأن يطلق سراحك في يوم من الأيام؟
ضحك جورج بصوت عال كالرعد.

- لقد دفعت فديتي ثلاث مرات! وسُرقت لثلاث مرات أيضاً أثناء
الطريق! أهلي وأصدقائي أنفقوا كل ما لديهم ولكن عبثاً وليس لديهم أي
قرش ليخرجوني من هنا.

جيوفاني وثمانويل نظرا إليه مندهشين.

- يا للمأساة! تابع جيوفاني والنظرة مليئة بالشفقة.

- ولم لا تحاول الهرب؟

اقرب الفرنسي من محادثيه وتابع بصوت منخفض:

- هذه أشياء يجب عدم التكلم عنها مع مجهولين، لأن السجن يعج
بالمساجين الجاهزين ليشوا بكم مقابل عدة قروش. لقد عرفت أكثر من
حالة انتهت نتیجتها بالدم، لأن صاحبها لم يعرف لجم لسانه أمام الأسرى
الآخرين. منذ شهر أيضاً، تعرض ثلاثة رجال للضرب بالعصا بعد أن ألقى
القبض عليهم ليلاً بينما كانوا يرسون زورقاً في خليج صغير مجاور.
أعرفون من وشى بهم؟

الرجلان يسألانه بحركات من عينيهما.

- راهب كبوشي يعيش هنا أفضى إليه أحد الرجال لكي يرافقه الرجل

القدیس بصلواته!

- بحق العذراء! صاح عمانوئيل.
- وعرفاناً بالشكر، أطلق الأتراك سراح رجل الدين. في كل الأحوال، لم يدفع أحد فديته. صدقوني، لا تثقوا بأحد.
- حتى من أجلك؟ استدرك جيوفاني بشيء من السخرية في عينيه.
- خاصة لا! لأنني أبيع أبي وأمي مقابل العودة إلى مدينتي (بיתי)!
- ضحك الثلاثة مقهقهين بصوت عال.
- كنا نتساءل من أين كنت تأتي بالمال الذي تفقه في هذه الحانة، تابع عمانوئيل بعد أن تذوق عدة جرعات من ابريق الخمر.
- نحن نكسيها.
- كيف ذلك؟

- في كل صباح، ما أن تشرق الشمس، نذهب على شكل مجموعات مؤلفة من عشرين إلى مئة نعمل في ورش الباشا، ينتهي العمل عند العصر، يبقى لدينا عدة ساعات من الراحة قبل مغيب الشمس. يؤجرونا للينشارية الجزائرية الذين هم بحاجة إلى اليد العاملة الملتزمة. يعيدون لنا نسبة ضئيلة من المال. يقتصد البعض يوماً بعد يوم طوال سنوات عديدة أملاً في دفع فديتهم الشخصية واسترداد حريتهم. لكن الغالبية، مثلي، ليسوا قادرين على منع أنفسهم من إنفاق كل شيء، في هذه الحانة البائسة أحاول تمضية هذه الحياة بأقل تعاسة وتعب.

بقي جورج لبضع لحظات هائم النظر وتنهد بعمق.

- أقر أنني لو اقتصدت كل ما كسبته طوال ثماني سنوات، لتمكنت اليوم من لعب الورق في أفضل حانات مرفأ دونكرك. لسوء الحظ انتظرت لسنوات هذه الفدية التي لم تصل أبداً.
- هل لديك زوجة وأطفال؟ سأل جيوفاني.

- ليحميمهم الله! أنا متزوج منذ عشرين سنة ولدي أربعة أطفال، عندما غادرت مدينتي مسقط رأسي، كانت الصغيرة الأخيرة في العامين

من عمرها.

- ألم تحصل على أخبار عنهم؟

- أعرف من طريق إبراهيم، مدير الباشا، أنهم جميعاً على قيد الحياة. لأن رسله يلتقون بعائتي وأصدقائي وشركائي وتمكنوا من جمع الفدية ثلاث مرات متتالية، لكن كما سبق أن قلت لكما، لقد استبسل الحظ ضدي وهو جموا وسلبوا مما لديهم وهم في طريق العودة.

في المرة الأولى من قبل قراصنة أثرياء من القسطنطينية الذين حرّروا رسل الباشا، غير أنهم احتفظوا بالفدية. في المرة الثانية من قبل قطاع طرق لصوص في ميناء دنكرك، حتى قبل أن يبحروا. وفي المرة الثالثة من قبل قراصنة مسيحيين من منظمة مالطا الذين لم يأخذوا المال فقط، بل باعوا رسل الباشا كعبيد من اليهود، كعبيد.

- أنت تلمح إلى المضيفين، سأل عمانوئيل.

- نعم، هذا التنظيم الديني العسكري الذي كان يدعى في الأصل فرسان القديس يوحنا في القدس، على شاكلة سدنة الهيكل، تأسس في زمن الحروب الصليبية لمساعدة الحجاج، وبعد أن قضى فيليب الجميل على سدنة الهيكل ورثوا جزءاً من أملاكهم. ظل مقر هذه المنظمة القوية في جزيرة رودوس لغاية سقوطها في يد العثمانيين، ثم أعطاهم الإمبراطور شارل كنت حديثاً أرخبيل مالطا. لهذا أصبحوا يسمون بفرسان مالطا.

- ولم يتمكن المبعوثون اليهود من اثبات أن هذا المال كان يجب أن يستخدم لتحرير مسيحي بائس سجين لدى القراصنة الجزائريين؟ تابع عمانوئيل.

- طبعاً قالوا لهم ذلك، لكن فرسان مالطا رغم كونهم من الرهبان الذين يتعهدون بخدمة إلهنا، كانوا يعيشون من غزواتهم البحرية كغيرهم من القراصنة العثمانيين، ومن ثم فإن لا عليهم أن يعطوا ميثاقية لليهود الذين يحتقرونهم، مثل معظم المسيحيين، زيادة أيضاً عما يفعله

المسلمون، الذين يمنحونهم رغم كل شيء بعض الثقة.

- سأل جيوفاني بدوره لأي سبب سافرت منذ ثماني سنوات؟

ربت الفرنسي بدافع المحبة على كتف الشاب.

- نعم، لرفع التكلف، أعزائي، اسمحوا لي أن أقدم لكما كأساً من هذا

النبيد السيء.

نادى جورج على الفتى الذي كان يخدم في الحانة.

- بيبو! ثلاثة كؤوس على حسابي.

- هل هو إيطالي؟ سأل جيوفاني وهو ينظر إلى الفتى.

- نعم، من منطقة نابولي، قبض عليه وهو طفل في قرينته أثناء غزوة.

ثم بعد أن اشتراه يهودي عجوز لم يعامله بشكل سيء، لكن عند وفاة

هذا الأخير، منذ عامين، اشتراه من جديد مسؤول حانة السجن، مسيحي

مرتد سمى نفسه مصطفى كان يعامل هذا الفتى المسكين أقل مما يعامل

الكلب.

نظر جيوفاني بانتباه أكبر إلى هذا الفتى، ليس فقط أنه كان هزيل الجسم

جداً بل لأن عيناه كانتا غائرتين ونظرته خافتة. شعر بالشفقة حيال هذا

البائس.

- تابع جورج أنا تاجر، وكنت أود الذهاب إلى ليشبونة لشراء الأقمشة

الهندية. لسوء الحظ، مع أن سفيتتنا كانت جيدة التسليح، فقد هوجمت من

ثلاث (سفن حربية) للقراصنة البربروسيين.

- سأل جيوفاني: هل يمكنك التحدث أكثر عن باريروس وابنه الذي

يحكم المدينة؟ غريبة معرفة تاريخ القرصان الشهير الذي سمعت الكلام

عنه لمرتين في الماضي: فيما يتعلق بمهاجمة سفينة البندقية التي كان على

متنها إيلينا وأثناء محاولة خطف جيوليا غونزاغا.

- بطيبة خاطر.

خير الدين آخر إخوة بربروس، قرصان شرير، لكنه محارب أكثر
خطورة وملاح أكثر مهارة من أي أميرال مسيحي أو تركي!
- هل هو تركي؟

- كلا مطلقاً. لقد ولد في ميتيلين، جزيرة يونانية في بحر إيجه، على
ما يقال، أبوه يعقوب، كان مرتدأ مسيحياً اعتنق الإسلام بعد أن سجنه
الأتراك وعرف حياة سجن قاسية. استعاد حريته وحياة جديدة في
ميتيلين. تزوج من كاتالينا، أرملة راهب أرثوذكسي، التي كانت قبل
ذلك أمأ لابنتين رزق منها بأربعة صبيان، أصبحوا فيما بعد الأخوة
بربروس الرهييين.

- آه، من هذا! تعجب عمانوئيل، مع كل المعمدين الذين اغتالوهم،
لم أكن أبداً لأتصور أنهم تلقوا تربية مسيحية!

- لقد تلقوا تربية إسلامية، نظراً لأن أباهم انقلب إلى الإسلام، لكن
من المحتمل أن تكون أمهم التي وضعت ابنتيها في دير أرثوذكسي، قد
نقلت إليهم بعض الإيمان المسيحي. لكن لقول الحقيقة أعتقد أن لا أحداً
منهم، منذ أن أصبح راشداً، خدم آلهة أخرى غير آلهة الذهب والفضة.
الواقع يبدو أن البكر عروج، القريب من والدته، لم يكن في البداية
مناهضاً جداً للمسيحيين، أصبح كذلك بعد أن بيع كعبد من فرسان
مالطا الذين يقطنون جزيرة رودس.

- كيف حصل ذلك؟ سأل جيوفاني، باهتمام كبير.

كان عروج بحاراً ماهراً، وبالرغم من قصر قامته، كان رجلاً قوياً، اندفع في سباق مع أخيه الياس، وقام بتسليح سفينة خفيفة الحمولة واستولى بواسطتها على سفن صغيرة مسالمة. كان يبيع البضاعة المستولى عليها من طريق تجارة يديرها في ميتلين أخاه اسحق.

فاجأته أحد الأيام السفن الحربية الكبيرة التابعة لفرسان القديس يوحنا في القدس. قُتل الياس في المعركة، وبيع عروج بالمرزاد العلني مثل عبد في جزيرة رودس. اكتشف عندها قسوة وعنف الرهبان - الفرسان، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بأنهم آخر ورثة الصليبيين وأفضل المدافعين عن المسيحية في مواجهة التهديد الإسلامي. بقي مدة عامين مكبلاً بالسلاسل الحديدية، وأجبر على القيام بأعمال مرهقة، وكان ينام ليلاً في زنزانه رطبة، مراراً عديدة أذلّ وأشبع ضرباً، وقد دُفع أخيراً بالقوة إلى إنكار النبي. اجترّ طويلاً تأره ضد المسيحيين. استطاع الفرار. لكن سنوات الأسر الرهيبة قتلت في نفسه الذكريات اللطيفة الرقيقة عن طفولته والخطابات الإنسانية الرقيقة المليئة بالنصائح التي كانت ترددها أمه على مسامعه.

جعل منه الزمن حيواناً متوحشاً، متعطشاً ومقتنعاً أن قانون حكم القوي على الضعيف هو وحده المسموع من البشر. دخل الخدمة على متن سفينة تجارية تركية، قام بذبح القبطان مستخدماً بطلته وأقنع معظم النوتيين (الملاحين) بالانضمام إليه لجمع الثروة من طريق غزو البحار. في البداية عاد إلى جزيرته مسقط رأسه، كان فرح أمه قصيراً عندما علمت أنها فقدت ابنها إلى الأبد. لكن كم كان حزنها شديداً عندما أعلمها أن أخويه أيضاً يريدان الالتحاق بأخيهم البكر في حياته الجديدة كقرصان.

كان جورج يتكلم الإيطالية بلكنة فرنسية، لكن انفعاله وطريقته في

سرد الرواية وفي إرفاق الكلمات بالنظر وحركات اليدين كانتا تأخذان بمجامع محاورية اللذين لم يتوقفا عن التحديق به.

كان جيوفاني أيضاً مهتماً بمصير هذا القرصان الذي تملك الحقد قلبه تدريجاً، بعد أن رأى كيف تعرض لكثير من الحيف والظلم والآلام. ومن دون أن يعي ذلك بوضوح. كانت تلك القصة بمثابة صدى لقصته.

- اكتسب الإخوة الثلاثة بسرعة شهرة قوية كقراصنة بلا دين أو أخلاق، اهتم عروج خاصة بالمال، اتخذ فيما بعد اسم خير الدين، وبسبب شعره، ولحيته الشقراء، أطلق على عروج لقب «بربروسا». خلال سنوات قليلة، جمع حوله كل ما تحويه المرافئ من محتقرين وقتلة، ومرتدين، وأوغاد، وتجار مفلسين، وعبيد فارين أو مغامرین عديمي الذمة جاؤوا لينضموا إليه ويضخموا أسطول الإخوة الثلاثة الذين أضحوا مصدر الرعب للمسيحيين في البحر المتوسط.

توقف جورج ليروي ظمأه. فكر جيوفاني بإيلينا ماذا سيكون مصيرها فيما لو وقعت بين محالب هؤلاء القراصنة العديمي الوجدان؟ هل كانت ستهدى لحريم السلطان؟ أو تبقي مسجونة أسيرة مقابل فدية كبيرة؟ أو مغتصبة مرات عديدة ثم مقتولة من قبل القراصنة؟ لماذا أنقذها القدر؟ شيء واحد مؤكد، وهو أنه ما كان ليلتقي بها وأن وجوده كان أيضاً مختلفاً. هذا التسلسل في الأسباب والنتائج سبب الدوار لجيوفاني.

كل من ينسج شبكة الحياة لكائن بشري والبشرية جمعاء هل يكون ذلك محض صدفة أو بالأحرى يستجيب إلى ضرورة سامية وعجيبة (مجهولة)؟

بالرغم من أنه لم يعد يصلي، ولم يعد يؤمن بالله الشخصي والطيب، لم يعد بمقدور الشاب أن يطرد من ذهنه هذه الأسئلة الفلسفية الرئيسية، والتي تبقى إلى الأبد دون جواب. بتأثر عاد وفكر من جديد بالمعلم لوسيسوس.

- استأنف جورج روايته:

- كان عروج طموحاً جداً ويتطلع إلى امتلاك بلاد أو مدينة جميلة شاطئية لها ميناء. وكان له ما أراد: فلقد قدم له الشيطان أو العناية الإلهية الجزائر على طبق من فضة.

كان سيد المدينة، سليمان التومي، عاجزاً عن تحمّل الوصاية الإسبانية المسيطرة على نشاطات المرافئ بفضل بينون، وهي قلعة منيعة فوق جزيرة صخرية صغيرة على بعد أقل من ثلاثماية متر من المدينة. كانت بينون مجهزة بمدافع قوية ترغم أي سفينة قرصنة على الابتعاد وعدم الرسو في الجزائر. لحظ التجار والأمير التعيس، وعضواً عن أن يخضع للأترك، طالباً إليهم طرد الحامية الإسبانية، خطرت بباله فكرة الطلب إلى مرتزقة تنفيذ هذه المهمة القذرة. وكان بربروس وإخوته يملكون كل الصفات القتالية المؤهلة للوصول إلى تلك الغاية؛ غير أن الأمير بصورة مأساوية قلل من تقدير أطماع عروج الذي ما أن وصل إلى المكان مع رجاله، حتى أخذ يتصرّف كفاتح ومحتل وعامل السكان بقسوة بالغة، دون التوصل، رغم ذلك، إلى احتلال القلعة الإسبانية. فهم سليم التومي خطأه متأخراً جداً. وبينما كان يحاول التخلص من الدخيل بلعبة مزدوجة مع الإسبانين، جاء إليه هذا الأخير ليلاً وخنقه في حمامه. استفاد عروج من جريمة القتل هذه والادعاء بمطاردة القتلة التي تلت ترسيخ سلطته بالدم. فشله الوحيد أنه لم يتوصل إلى امتلاك الأميرة ظفيرة، وهي امرأة رائعة الجمال، رفضته دائماً أن تبصق في وجهه قبل أن تنتحر.

وجه حاكم بينون من جهته رسالة إلى القائد العام الإسباني دييغو دو فيرا، راجياً منه إرسال تعزيزات إلى الجزائر. حرك هذا الأخير جيشاً حقيقياً نزل في المدينة البربرية مع أكثر من أربعين سفينة وثلاثة آلاف رجل، لكن غطرسته من جهة وجهله للمكان من جهة، كانتا في أساس الضربة القاصمة؛ فقد أبعد جيشه بفضل القرصنة وجبل عروج،

المدعوم بألف جندي تركي. ولقد منح هذا الانتصار لبربروس شهرة البطل الأسطوري.

كان لنشوة النصر غير المنتظرة على الإسبانين، أن أصبح عروج سيّد مدن رائعة الجمال مثل تينيس وتلمسان. لكن ملك تلمسان، أبو حمّو تمكن من الهرب إلى المغرب.

من هناك جهّز جيشاً من خمسة عشر ألف مقاتل عربي، من فرسان ومشاة، وأقام تحالفاً مع حاكم مدينة وهران الإسباني، المركيز كوماريس الذي لاقاه على رأس جيش من عشرة آلاف جندي مدرّبين تدريباً جيداً... في طريقهم إلى تلمسان، حيث كان عروج ما يزال موجوداً، قام المتحالفان بالإنقضاض على قلعة بني راشد واحتلّوها. قُتل إسحق بربروس خلال هذه المعركة، ما جعل معنويات أخيه عروج تتلاشى؛ وسرعان ما أعلن الجيشان، العربي والإسباني، حالة الحصار في تلمسان.

واندفع الشعب بثورة عارمة ضد بربروس ومرترفته. غير أن عروج نجح في الإفلات. بصحبة ثلاثين من حاملي البنادق وثلاثين من الخيل، حيث وجدوا ملاذاً في قبة متداعية وواجهوا الإسبانين. ولما كان قد فقد إحدى ذراعيه في معركة سابقة، فقد واجه أعداءه حاملاً فأسه بيده السليمة وقتل حوالي عشرة من الجنود الإسبانين. غير أنه ما لبث أن انهار بعد أن أصيب برأسه. وفجأة رأى نفسه وجهاً لوجه أمام ضابط بحرية إسباني، الدون غارسيا فرناندز دولايلاز، وقد دخل الخبأ لتوّه... كان الإثنين بين آخر الأحياء الذين نجوا خلال هذه المذبحة...

لم يكن عروج قادراً حتى على رفع ذراعه، ومع ذلك انقضّ كالوحش الضاري، على الضابط الإسباني وغرس أسنانه في يده. فما كان من هذا الأخير إلا أن تراجع، ثم حوّم سيفه باتجاه القرصان العجوز، فانفصل رأس عروج طائراً في الهواء.. قبل أن يتدحرج على الأرض.

انتزع الجندي البدلة الاصطناعية الحديدية المشهورة التي كان يستعملها «ملك الجزائر» كذراع بديل.. مصحوباً بغنيمتيه، عاد الضابط إلى تلمسان عودة المنتصر... وقد حُمل رأس عروج بعد ذلك إلى وهران حيث بقي موضوعاً عدة أيام فوق باب الساحة الكبير... ثم دار على القبائل ومرافىء إفريقيا قبل أن يصل إلى بلاط إسبانيا، عديم الملامح وكرهه الرائحة.

قام جورج باستراحة جديدة، ولاحظ بارتياح وسرور النظرات المتعطشة والمتوهجة لمستمعيه؛ كان يحبُّ سرد القصص، وكان قادراً على الكلام لساعات طويلة، من دون توقّف.. ولعله قد اكتسب ذلك من جدّه لأمه، الذي كان يمضي أمسيات الشتاء الطويلة، سارداً القصص لأحفاده الثلاثة قرب الموقد... كان جورج يحتفظ بذكرى راسخة تجعله، بعد مرور حوالي أربعين سنة، قادراً على تذكّر هذه القصص بأدق تفاصيلها.

كانت تلك مؤاسة عزيزة عليه خلال مدة أسره الطويلة. وعندما كان يشدّه الحنين إلى مدينته مسقط رأسه، كان يغضّ عينيه ويستعيد إلى ذاكرته صور طفولته وشذاها ونكهتها وكلماتها. بعض الدموع كانت تنهمر على خديه الضخمين اللذين لفحتها شمس الجنوب وكان يجد، جراء ذلك، الأمل والقوة على الإنتظار.

وأخيراً أنهى عمانوئيل قصته قائلاً: إن تاريخ بكر الإخوة بربروس مدهش جداً! وإذا كنت فهمت جيداً فإن أخويه الأصغر سناً توفيا قبله، لكن ماذا كان يفعل الأخ الأخير، خير الدين الذائع الصيت، بينما كان عروج يقاتل في الصحراء ضد العرب والإسبانيين؟

خلال العامين الأخيرين من حياة عروج، بين انتصاره على الإسبانيين ونهايته المأساوية، كان خير الدين مكلفاً من أخيه بحكم الجزائر. عندما خبر بوفاة عروج، حزن حزناً عظيماً لدرجة أنه قرر

صبغ لحيته وشعره بالحناء وأطلق على نفسه اسم بربروس «صاحب اللحية الشقراء» إحياءً لذكرى أخيه المحبوب.

توقف جورج فجأة بسبب ضجة قوية صادرة عن العبيد المكلفين إدارة وتوزيع وجبة المساء.

غادر العبيد (الرقيق) الحانة ليذهبوا إلى النوم حيث وُزِعَ عليهم الخبز وبعض الثمار الجافة. لم يكن جورج في (المهجع) ذاته حيث الوافدين الجدد، غير أنه قال لهم، من الممكن، لقاء بعض قطع النقود، رشوة بعض العبيد المرتدين الذين كانوا يديرون حياة السجن، قصد تغيير مكان النوم.

بعد أن شبعوا، أخذ كل من العشرين أسيراً الذي كان يحتويهم كل مرقد، على أرجوحات من الحبال، معلقة بقوة إلى كلاليب مثبتة في الجدران الضخمة.

لم يكن جيوفاني يتحمل نقص الهواء أو عفونة المكان أو قفل السلاسل التي تجرها ساقه اليمنى نحو الخلاء.

كما في الليلة الماضية، لم يتمكن من إغماض عينيه، عاد ليفكر بهذا اللقاء مع الفرنسي، متأكداً أن ذلك الرجل كان مستقيماً، ليس فقط يستطيع أن يوليه ثقته، بل وأنه أيضاً يرغب بمساعدته على العودة إلى بيته. كلنا معاً يجب أن نغادر هذا المكان، وأنا متأكد أن صديقنا لديه فكرة عن أفضل طريقة للتصرف، لنعرف كيف نكسب صداقته وسوف لن يتوانى عن الإفصاح عنها.

كان يوم العمل الأول مضمياً بصورة خاصة. جيوفاني وعمانويل عيّنوا مع مئة آخرين من الصباح في بناء قلعة، استيقظوا منذ الفجر، وصعدوا بصعوبة بصفوف مرصوفة على بعد ألف وسبعمائة خطوة من المدينة، مخفورين من قبل عشرين من الينشاريين تحت أنظار السكان، ما أن وصلوا إلى الرأس المسمى رأس تافورا، وهو عبارة عن هضبة تطل على المدينة البيضاء، حتى بدأوا فوراً بعملهم. الأمر يقضي بحفر أسس القلعة التي قرر حسن باشا إشادتها. طوال ساعات كان العبيد يحفرون حفرة كبيرة بالفؤوس والرفوش والمعاول. عند الظهر يُسمح لهم بالراحة للحظات والذهاب للشرب من نبع ماء يبعد مئة خطوة. شرح أحد العبيد لجيوفاني أن هذا النبع كان يمد الجزائر بالماء الصالح للشرب. لاحظ بالفعل وجود قناطر رومانية متجهة نحو المدينة.

استفاد جيوفاني من فترة الراحة ليتأمل المنظر الرائع. نحو البعيد، كان يرى المرفأ مع رصيفه الذاهب من قلعة بينون التي شيدها الإسبانيون على جزر الجزائر الصغيرة، الجزر التي منحت اسمها للمدينة. عشرون من (السفن الحربية) والسفن التجارية راسية. أهم ما يميّز فيه المركب الذي أبحر عليه من آنكون. بما أن الجزائر مبنية على هضاب، فإن الآلاف من الأبنية تهبط نحو البحر.

منازل الخواص، قصور، مآذن الجوامع، حدائق ومصاطب متداخلة

في فوضى بتناغم تام. بقي جيوفاني طويلاً في تأمل هذا المنظر الذي، رغم ظروفه كان يلامس روحه. ثم بدأ الأتراك بالصياح وكان عليه العودة فوراً إلى الورشة. في أيام نيسان (ابريل) هذه، بدأت الشمس تنهك الأسرى الذين لم يكن لديهم أي ظل يتفيئون به. اعتاد جيوفاني نوعاً ما على قوة أشعتها، لكن عمانوئيل عاد مع ضربة شمس. كانت بشرة وجهه وكتفاه أكثر حمرة من دم الثور. شاهده جورج وهو عائد في حال يرثى لها. جورج، الذي يعمل في ورشة البناء استدعى الرقيق الإنكليزي واسمه ألكساندر، الذي يقوم بمهام الطبيب. وضع الرجل بعض المراهم الباردة على جلده المحروق.

بينما كان الطبيب يدهن بشرته، التفت الفرنسي نحو جيوفاني:

- يبدو لي أن خادمك غير معتاد على الأجواء الحارة وبشرته بيضاء جداً. طبعاً فهو لم يولد في كلابري.

- بالفعل، أجاب جيوفاني دون اضطراب، هو من مواليد الفلاندر.

التفتت به أثناء سفره في شمال أوروبا وبقي متعلقاً بي.

- لم يتقن بعد اللغة الإيطالية.

- يخلص نفسه فيما يخص حاجياتي.

- طبعاً.. انتبه جيداً في كل الأحوال، إذا ما سئلت على حدة من قبل

إبراهيم، بأن لا يكون كلامكم متناقضاً، يمكن لذلك أن يكلفكم غالياً فيما لو بدا أن بعض النواحي من روايتكما ليست مطابقة للحقيقة.

نظر جيوفاني إلى جورج بصمت ووافق مشيراً برأسه.

- صديقك ليس في حال تسمح له اليوم بالعمل أكثر، تابع الدنكري

(من دنكريك). لكن إذا كنت ترغب بكسب قليل من المال يمكنكني

أخذك إلى إفريقي يمكنه تشغيلك لديه كل يوم لبضع ساعات من أجل

صيانة الشقة التي يؤجرها للنشيارين.

- بسرور، أجاب جيوفاني.

لم يكن رافضاً المزيد من العمل أو طامعاً في كسب بعض النقود، لكنه كان يقول في داخله أن تلك واحدة من أفضل الوسائل للهرب وعليه أن لا يهمل أي منفذ.

أخذه جورج إلى ينشاري يدعى محمد. كان التركي قصيراً ومربوعاً، شارباه رقيقان أسودان مرفوعان من نهايتهما يزينان وجهاً مربعاً ودون أناقة. يتكلم الفرانكو بطريقة سيئة ويحاول التعبير بواسطة الإشارات العنيفة وتقاسيم الوجه. شرح له الفرنسي أن جيوفاني يرغب بالعمل لديه.

نظر محمد إلى الكلابري مثلما ينظر إلى بغل قبل أخذه إلى الحراثة، ثم قبل بإشارة من رأسه، عبد ثالث، وهو هولندي يدعى سجويرد، التحق بهما في الحال.

عبر الرجال الثلاثة القصبية مخفورين من قِبَل التركي. في عصر ذلك اليوم، كانت التجارة في أوجها والشوارع الصغيرة الملتوية تعج بالتجار المتجولين الذين ينادون على حاجاتهم: الزيتون، البيض، التمور، التوابل، الفاكهة، العطور، الأقمشة المتعددة الألوان، المطرقات، البرانس، الآنية الفخارية من التراب الطبيعي والمزينة بالرسوم.

بعد أن تسلقوا عدة شوارع ضيقة، اجتاز الرجال الأربعة عتبة باب صغير أزرق ودخلوا باحة دار مربعة، ساحة نوعاً ما محاطة ببناء من أربعة طوابق.

- همس جورج في أذن جيوفاني بينما التركي ذهب ليفتش عن المالك لأن الأمر يتعلق بإصلاح فندق. كانت ملكيته تعود إلى واحد من المور (أفريقي أصله من الصحراء الغربية) الذي يؤجر فيه عشرين شقة إلى الينشاريين. بما أنه لا يريد إسكان وإطعام الكثير من العبيد، فقد كان يستخدم البعض منهم كل يوم لتنظيف غرف عائدة إلى الجنود الأتراك.

عاد محمد برفقة سيد المنزل، وهو رجل مسن هزيل الجسم تأمل جيوفاني للحظات، تبادل بعض الكلمات مع التركي ثم أفهم هذا الأخير أنه كان يقبل وضعه قيد التجربة لعدة أيام.

ذهب محمد ليستريح في غرفته بينما اقتاد عبد لدى المور الأسرى الثلاثة. بدأوا عملهم في تنظيف الغرف وأماكن المراحيض. عندما أوشكت الشمس على المغيب في الأفق وسماع صوت المؤذن، استدعى محمد بصوت عال الأرقاء، أعطى كلاً منهم أربع قطع نقود وأعادهم إلى السجن.

فيما ظل جورج يذهب كعادته، مباشرة إلى الحانة ليشرّب مقابل المال الذي كسبه لتوه. عاد جيوفاني إلى مهجعه ليطمئن على صحة عمانوئيل. فوجده يغط في النوم وما زال يتألم، لكن بآلام أقل حدة بفضل كمادات الكساندر. روى جيوفاني إلى صديقه ما رآه وأعطاه وصفاً دقيقاً للشوارع الملونة في الجزائر.

قاطعهم في الحال العبيد المكلفين بتوزيع الطعام. انقضّ جيوفاني على قطعة خبز كبيرة، نظراً لجوعه الشديد بعد نهار طويل من العمل المضني. بالرغم من انزعاجه الدائم بسبب الروائح الكريهة الناتجة عن نقص التهوية، فقد ظل منهكاً لدرجة استسلامه سريعاً للنوم.

جرت الأيام التالية على المتوال نفسه، لم تكن بنية جسم عمانوئيل جيدة وبقي متحسناً من أشعة الشمس. عليه تغطية رأسه بغطاء واقٍ، كما قدم رشوة إلى التركي ليتمكن من شرب الماء باستمرار. رغم الانتهاء من حفر الأساس، بدأ العبيد بتكديس الأحجار التي تسحبها العربات والتي تجرها البغال من المرفأ.

إن التعامل مع الأحجار المشدبة يتطلب مجهوداً كبيراً وانتباهاً في كل لحظة بغية تجنب سقوط كتلة أو عدة كتل تزن مئات الكيلوغرامات على أحد العبيد.

استمر جيوفاني في الذهاب إلى الفندق بصحبة جورج بينما عمانوئيل كان يستريح، وفي نهاية النهار يلتقي الثلاثة في الحانة ليشرّبوا كأساً من النبيذ أو الكحول المحلّي، متحدثين أحياناً بمفردهم، أو مع سجناء آخرين من جنسيات مختلفة.

جميع أرقاء السجن كانوا من أصل مسيحي، البعض منهم أنكر دينه واعتنقوا الإسلام بهدف تحسين وضعهم، رغم عدم إعتاقهم، فهؤلاء هم المرتدون، كما يسمّون. كانوا يتجولون بحرية في المدينة، ويتوصلون إلى كسب معيشتهم من طريق القيام بمختلف النشاطات وسط السجن (الزنانة) أو خارجه، وكانوا غير مقبولين، من قبل الأتراك الذين يحتقرونهم ومن العبيد المسيحيين الآخرين الذين يلومونهم على جحودهم. كانوا أيضاً دائماً عدائين وسريعي الغضب. تلك حال مصطفى صاحب الحانة، رجل يصعب تقدير عمره، من أصل إسباني يمضي وقته في إهانة مساعده، الفتى بيبو. كان جيوفاني يشعر بشفقة متزايدة حيال الفتى المراهق ويتساءل فيما إذا لم يكن ضحية سيده لإهانات أقل علانية. ففي مساء أحد الأيام، عندما كان الأصدقاء الثلاثة جالسين إلى الطاولة قرر بأن يكشف جورج بذلك.

- أنا أشفق على بيبو، هو شاحب مثل الثوب، عيناه حزنتان دائماً. ألا تعتقد أن الصبي المسكين يتعرض خلسة إلى معاملات أسوأ بكثير من صراخ سيده المرتد؟

- هذا معروف من الجميع.

- ماذا تريد القول؟

- نحن نعرف أي نوع من الأفعال يرتكبها مصطفى على عبده.

بقي جيوفاني مندهشاً.

انحنى جورج إلى الأمام وهمس:

- يمارس ما نسميه هنا «الحب الدنيء».

- تعني أنه يمارس مع الصبي علاقات جنائية؟

حنى جورج رأسه.

- ألا يمكن فعل أي شيء لإخراج هذا الطفل المسكين من هذا

الجحيم.

للسيد كل الحقوق على عبده: يمكنه اغتصابه، تعذيبه، حتى قتله. حتى ولو كان الحب الفاحش الدنيء ممنوع من الدين، فالعديد من أرباب العمل يتجاوزون الحد بعبيدهم من الفتيان المسيحيين ومن المستحيل فعل أي شيء لتلافي ذلك.

- هذا رهيب، علق عمانوئيل.

- ما هو مرعب، استدرك جيوفاني هو هذا الواقع كعبد، نحن موجودون أكثر كبشر... نسمع أشياء.. يجب أن لا يوجد هذا هنا أو في أي مكان عندنا.

قال جورج متنهداً:

- هناك الكثير من الأشياء والأمور يجب تغييرها في هذا العالم!

جاء بيبو بثلاثة كؤوس من النبيذ، نظر جيوفاني إلى الفتى بشفقة كبيرة وأعطاه بخشيشاً كبيراً. رفع بيبو عينيه شاكراً، لكن أي بريق أو إضاءة وجه أو ابتسامة تقدر أن تحرره من قناع الحزن. قرر عمانوئيل تغيير الموضوع تماماً ووبخ الفرنسي:

- قل لي، أيها العزيز، ألم تنتهي بعد من رواية الحياة الرائعة للإخوة

بربروس. أمامنا متسع من الوقت، ألا يمكنك المتابعة؟

أين سبق لنا أن وصلنا؟

- بعد أن علم خير الدين بموت عروج، استولى على الحكم في الجزائر، وصبغ شعره ولحيته باللون الأشقر (الحنة) وأعطى لنفسه اسم بربروس تيمناً بأخيه، تابع عمانوئيل الذي لم يكن أوضاع أي فتات من القصة.

وضع الدنكركي رأسه بين يديه محاولاً إيجاد خيط القصة.

- هذا هو. في الواقع خير الدين لم يكن لديه الوقت ليسترده أنفاسه. أقوياء بسبب انتصارهم، قرر الإسبان الانتهاء من عش قراصنة الجزائر، طلب شارل كنت، ملك إسبانيا الشاب، ومملكة نابولي وصقلية، والإمبراطور المقبل، من هوغو دومونكاد بمغادرة نابولي على متن أسطول من ثلاثين قطعة بحرية وخمسة آلاف رجل.

كان خير الدين صلفاً فظاً مثل ديغو دو فيرا، فقد رفض انتظار الإمدادات والتعزيزات من أبي حمّو، الذي استرجع عرشه في تلمسان وأطلق جيوشه ضد الجزائر. في هذا الوقت، نجح خير الدين بجمع خمسة آلاف فارس وبفضل معرفته التامة للمكان تمكن من دحر الجيوش الإسبانية. لقد كانت مجزرة استطاع فيها هوغو دومونكاد الهرب، تاركاً في ساحة المعركة عدة آلاف من القتلى والمئات من الأسرى. عرض شارل كنت على بربروس فدية تقدر بـ 240,000

دوكات لتحرير الضباط الأسرى. لكن عبثاً، قرر خير الدين الثار لأخيه. فقام بإعدام الإسبان بعد تعذيب شديد.

حاول ملك إسبانيا أيضاً دفع فدية مقابل الجثامين لينالوا جنازة مسيحية. واستجابة لهذا العرض أخرج بربروس الجثامين من قبورهم ودهنهم بالقطران وحرقهم. لا شك فإن أفعال القرصنة في العشرين سنة الماضية قد أعطت الشهرة لبربروس، عند المسيحيين الذين وسموه بالوحش.

وعند المسلمين أصبح البطل المدلل.

لم يرتكب خير الدين الخطأ نفسه الذي ارتكبه أخاه المسكين، فقد فهم أنه بحاجة إلى حماية قوية لمقاومة الهجمات الإسبانية الجديدة. تحالف مع سلطان القسطنطينية، سليم الأول، الذي منحه حمايته وأرسل له ميليشيا شخصية تقدر بألفين من الإنشارية.

جرع جورج كأسه دفعة واحدة وتابع وهو يرفع صوته:

- هؤلاء المرتزقة بسرأويلهم المنتفخة المضحكة هم جرح سكان مدينة الجزائر، يعيشون على حساب الشعب، يعتقدون أن كل شيء مسموح، يلقون أرضاً بوجهاء المدينة ليشربوا أولاً من منابع الماء، ويعاملون من يزاحمهم في الشارع بقسوة، يمضون وقتهم، عندما لا يحاربون في تدخين الأفيون والحشيش أو في شرب المسلاش. يحيكون الفتن ضد الباشا عندما يتأخر عن دفع رواتبهم ولو ليوم واحد وأمور كثيرة، فهم منبوذون من الجميع، غير أنهم يضمنون للمدينة الأمن الفعال ضد أعداء الخارج.

- هل هم جنود أتراك؟ سأل جيوفاني.

- مرتزقة جندوا من قبل الأتراك، ليس فقط في تركيا، بل أيضاً في مقاطعاتهم المستولى عليها. مدرّبون ليقاتلوا ولا يخشوا شيئاً. مثل

رهبان الفرسان المسيحيين، يقسمون على العفة ويحولون قوتهم الجنسية إلى عنف! ما يهمهم فقط هو الربح. تدفع لهم رواتب مرتفعة، ما أن تنتهي خدمتهم ويربحوا ما يكفي يعودوا إلى أهلهم سالكين الحياة التي يرغبون بها.

داعب جورج ذقنه المخلوقة بشكل سيء.

- تلقى بربروس دعم السلطان، الذي أعطى إلى الجزائر اسم دار الجهاد وكتب له: «من أجل الشرف الكبير للإسلام الذي تدافع عنه بحماسة كبيرة، أمنحك منصب باي البايات لكي تحمل، حيثما تذهب، روح النبي الذي لا يقهر».

تأمل جيوفاني، متذكراً أن الأخوة بربروس تلقوا تربية مزدوجة: إسلامية من أبيهم ومسيحية من أمهم. تساءل ماذا سيكون مصيرهم فيما، إذا لم يكونوا سجناء فرسان مالطا الذين يعاملوه مثل كلب، لو أن عروج عاش التجربة نفسها في غياهب سجون السلطان. ألم يكن ليشعر بحقد قاتل على المسلمين؟ أو لم يكن ممكناً أن يصبح رأس سهم المسيحية ضد الإسلام؟ ولكان بسبب ذلك شيئاً آخر فيما لو أن الفرسان المسيحيين تصرفوا حسب مبادئ وتعاليم دينهم، بدل الحقد والقسوة حيال مساجينهم. فكر جيوفاني من جديد بالرجال المقنعين التابعين لمنظومة الخير السامي «كم من الجرائم ارتكبت، سواء من قبل المسيحيين أو من قبل المسلمين، باسم هذا الإله الرحيم».

تابع جورج ليتمكن بربروس من الإمساك بقوة عرش الجزائر، عمل على تصفية أي تهديد إسباني قريب من مدينته. هاجم قلعة بنون الشهيرة، وبعد حصار طويل وقاتل عنيف، تمكن من قهر المقاومة البطولية لخمسمائة من الإسبان. قلد السلطان سليمان، سلطان القسطنطينية الجديد الذي خلف والده، القرصان أميراً لكامل الأسطول العثماني. منذ ذلك الوقت تزايدت رحلات القرصان البحرية

وغزواته على الشواطئ المسيحية، مضاعفاً ثروات القسطنطينية والجزائر بكنوز من كل نوع وبآلاف من الأرقاء المسيحيين.

- هل تعرف كم يبلغ عددنا الآن نحن الذين نعيش في هذه الظروف الحقيرة؟ سأل عمانوئيل.

- في الجزائر، يملك الباشا قرابة الألف من الرقيق.

لذلك بنى بربروس ثلاثة سجون (زنزانات) كبيرة تحت الأرض. لكن على الأقل هناك خمسة عشر ألفاً من الرقيق يملكهم الخواص، في مدينة يبلغ عدد سكانها ثمانين ألفاً. غالبيتهم من المسيحيين، غير أن مصيرهم محط حسد أكثر من مصيرنا. فهم يعيشون في بيت سيدهم، غالباً ما يعاملون بشكل أفضل. يمكنهم التجول بحرية في المدينة لخدمة مالِكهم، شرط أن يعودوا كل مساء قبل حلول الليل. علّق عمانوئيل وقال: مأساتنا هي أن الباشا ابن بربروس اشترانا وأنا نتعذب في هذه الزنزانة القذرة:

سأل بدوره جيوفاني الذي كان دائماً يتذكر الفرار الناجح للكونتيسة الجميلة: هل سمعت عن غزوة فوندي في إيطاليا، سنة 1534 لأسر واختطاف جيوليا غونزاغا الجميلة؟

رفع جورج عينيه إلى السماء ومرر يده على وجهه.

- كلا لدى بربروس شهرة في حب النساء، وقد اختطف أو حتى تزوج منهم أكثر من واحدة، لكنني لم أسمع أبداً عن امتلاكه هذه الأخيرة.

دُهِشَ عمانوئيل.

- تريد القول أنه اختطف مسيحيات وتزوجهن؟

- حتماً! بالرغم من أن لديه العديد من النساء المسلمات ضمن حريمه، وأن خير الدين افتتن بالعديد من الأسيرات المسيحيات. لكن هؤلاء المسكينات كانت لهن نهاية سيئة!

قطع جورج كلامه فجأة لسقوط عبد (رقيق) عليه. تخلص بأي طريقة من ذلك الجسد الذي تفوح منه رائحة الحشرات (الهوام) والخمر وسلمه إلى رفاقه في المهجع الذين نقلوه إلى أرجوحته.

- هذه لسوء الحظ اللذة الوحيدة التي يمنحها لنا!

تابع جورج وهو يعدل من جلسته.

- سأل عمانوئيل الدنكري بما ألمح إليه: ألا يوجد هنا مومسات كما في كل موانئ العالم؟

- طبعاً! المدينة تعج ببنات الهوى. رقيقات مسيحيات مبيعات من أسيادهن أو حتى مسلمات مهجورات، أرامل دون أي مورد، لكنهن محرمات علينا، لأننا لا نقدر على مغادرة السجن ليلاً.

توقف جورج قليلاً. تابع بلهجته الحميمية:

- توجد هناك دائماً طريقة للإتفاق مع النيشاريين وأرباب العمل الذين نعمل لديهم في نهاية النهار للعثور على فتاة، غير أن هذا يكلف ثروة ويجب أن تكون هناك الرغبة بمقايضة شهر من العرق مقابل عشر دقائق من اللذة!

- إلى ماذا نكون قد تحولنا؟ تابع جيوفاني، الأفضل أن نهتم بقصة بربروس بدل البؤس الجنسي للأسرى.

- إنك محق، الأفضل أن نُشغل فكرنا بالكلام عن أشياء أخرى غير النساء، وإلا سنفقد صوابنا! أين وصلت؟

- لقد رويت لنا انكسار الإسبانيين الذين لم يتمكنوا من احتلال الجزائر وأن انتصار خير الدين رفعه إلى مرتبة أميرال الأسطول العثماني.

آه نعم! لكن تساءل كيف لم ينس أبداً تلك الهزيمة الرهيبة، تابع جورج بعد انتخابه امبراطوراً على الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، صمم القضاء ولمرة واحدة على عدوه القديم. عندما لم يكن

یتجول فی البحر، کان بربروس یسکن فی القسطنطنیة، فی قصر السلطان. وأوکل عرش الجزائر إلی ابنه حسن آغا.

- سأل جیوفانی: حسن هذا الذي یحکم المدینة الیوم؟

لا. لقد اختطف بربروس من جزيرة سردينیا فتی فی التاسعة من عمره یدعی بیینو الذي أصبح مرافقاً وکان جمیلاً ومهذباً. قرر خیر الدین أن یخصیه لیفتح له باب الحریم ولیجعل منه کبیراً للخدم، وکونه مفتونا بصفات هذا الشاب، قرر أن یجعل منه ابنه بالتبني. هو الذي یؤمن حکومة المدینة خلال غیاب والده المتواصل.

لقد عرفته جیداً، لأنني عندما أسرت، کان هو من تعامل معي. لنعد إلی شارل كنت الذي قرر الاستفادَة من غیاب بربروس وغالبية جنوده عن الجزائر لیستولي علی المدینة.

لم یکن لدى حسن آغاسوی خمسة آلاف رجل للدفاع. أما الأمیراطور شارل كنت فقد أبحر ومعه 30,000 رجل علی متن أسطول کبیر من خمس مائة سفینة! لم تبد أي معركة متفاوتة بهذا المقدار. بربروس الذي کان عارفاً بتحضیرات المسیحیین طلب من السلطان السماح له بالذهاب إلی الجزائر علی رأس الجیش العثماني لنجدة ابنه ومنطقة نفوذه. لكن أعضاء الديوان، الغیورین من نفوذ القراصنة، توصلوا إلی إقناع سلیمان أن هذا الهجوم ضد الجزائر لم یکن سوی خدعة معدة لسحب الجنود من القسطنطنیة، وأن شارل كنت لیس أمامه مشروع آخر سوی مهاجمة الأتراك حتی فی قلب إمبراطوریتهم. والحقیقة أنه لا یوجد شيء من ذلك. فی 23 أكتوبر (تشرین الأول) 1541 أنزل شارل كنت فرسانه ومدفعيته فی مکان غیر بعيد عن الجزائر. وأقام معسكره علی هضبة فی رأس تافورة، الذي یطل علی المدینة.

- سأل جیوفانی: حیث نعمل لتشید قلعة هناك؟

- بالضبط! ثم أرسل رسولاً إلى ابن بربروس ليطلب منه تسليم المدينة. تردد هذا الأخير طوال يوم كامل. لكن يروى أن واحداً يدعى يوسف، عبد مخصي أسود كانت لديه موهبة التنجيم جاء ليقابله ويؤكد له أنه يجب المقاومة لأن الله يريد تدمير الجيش المسيحي. عندما علم شارل برفض حسن بالاستسلام، أقسم على إبادة كل سكان المدينة. تهباً للمعركة، لكن المستبعد قد حدث. في ليلة 26-27 أكتوبر (تشرين الأول) السماء التي كانت، حتى ذلك الوقت مواتية، امتلأت بالغيوم الداكنة وتساقطت أمطار بغزارة على جيوش الإمبراطور. رمت العواصف مئة سفينة على الرصيف ولقي آلاف الرجال حتفهم.

أما الناجين الذين رسوا على الشواطئ، فقد قتلهم وأسرههم رجال حسن. استفاد هذا الأخير من الوضع ليقود حرب عصابات ضد الجيش المسيحي، الذي فوجئ تماماً بسبب الاتجاه الذي اتخذته الأحداث. أمر الإمبراطور بتنظيم مسيرة دينية قوية لتهدئة العاصفة، لكن الله كان حقيقة قد اختار معسكره. لم يتوقف المطر طوال عدة أيام وليالٍ، متابعاً التسبب بالأضرار الكبيرة في أسطول الإمبراطور. بغية تجنب كارثة أكبر، في الثاني من (نوفمبر) تشرين الثاني، تهباً شارل كنت لإعادة ما بقي لديه من الجند إلى السفن. كان لهذه الهزيمة أثر كبير في تقوية الجزائر، التي غنمت من السفن الجانحة كمية كبيرة من العتاد، مئة وخمسين من نفائس البرونز وأسر الكثيرين من الرجال لدرجة يقال أنه كان من الممكن شراء العبيد ببيصلة واحدة.

- الأنباء عن هذا الزلزال بالنسبة للمسيحية وصلت الفلاندر مسقط رأسي، علق عمانوئيل على ذلك، لكن بما أنك فرنسي، هل بمقدورك أن تشرح لي كيف تمكن ملك مملكة فرنسا من عقد تحالف مع الشيطان؟ لأنه لا يحكى عن هذا إلا في منطقتنا منذ بضعة سنوات.

للأسف هذه هي الحقيقة، ليس فقط فرانسوا الأول من تحالف مع

الأتراك، بل أنني سمعت منذ وقوعي في الأسر أن بربروس دعي للإقامة مع سفنه وقراصته في مرفأ طولون، منتظراً الإبحار ليهاجم أراضي الإمبراطور. يأتي كل هذا حقاً من الحقد الذي يستمده ملكنا بأنه في السابق لم ينتخب إمبراطوراً، منذئذ لم يتوقف عن بذل جهوده للتفاهم مع الأتراك لكي يناضل ويقا تل ضد عدوه الأزرق.

- لو أن هذا التحالف، قد تم بنية السلام، فلا غبار عليه، علق جيوفاني، لأنه يجب في يوم ما التوقف عن الاقتتال الدائم بين المسيحيين والمسلمين.

فليسمعك الله! ردّ جيوفاني مصدراً تنهدة عميقة.

منذ ثماني سنوات وأنا هنا، تعلمت معرفة أتباع محمد، يمكنني التأكيد أنهم ليسوا أفضل أو أسوأ منا نحن المسيحيين. يتصرفون حيالنا كما نتصرف حيالهم، لديهم الفهم نفسه بالله والدين، يمارسون العدالة والإحسان حيال المساكين الفقراء، البعض منهم مثقفون ومتبحرون جداً ويتحمسون لأي نوع من العلوم، الأكثر تربية وتهذيباً يعيشون حياة رقيقة جداً جسدياً وروحاً. سأضيف: حتى أن لديهم في بعض الميادين، بعض التفوق الأخلاقي علينا.

أبدت نظرة عمانوئيل بعض الدهشة.

- أغنياء كانوا أو فقراء، فإن لديهم احترام مطلق للوعد، تابع الفرنسي دون أن يتحير، وعلي أن أقرّ أن ذلك ليس من الشائع في مناطقنا المسيحية، حيث أن للورقة غالباً أهمية أكبر من كلمة الرجل. فيما يتعلق بقساوتهم الأسطورية ليست بالواقع إلا من صنع بعض الرجال، مثل خير الدين، وتمارس خاصة ضدّ أولئك الذين يصفونهم بالمشركين. لكنني تمكنت من رؤية كيف أن بعض الضباط، القراصنة المسيحيين يتصرفون مع سجنائهم من المسلمين!

قال جيوفاني برزانة: أشاركك شعورك. ليس هناك من شعب

بالحقيقة أعلى أو أقل مرتبة من شعب آخر. في كل مكان يوجد عندنا أو عندهم رجالاً أفاضل أو قساة برابرة.
صمت الأصدقاء الثلاثة لعدة لحظات.

- إذا أين أصبح الابن المتبنى لبربروس؟ سأل عمانوئيل. لماذا لم يعد يحكم المدينة في غياب القرصان؟

- لقد توفي مصاباً بالسل منذ سنة تقريباً.

كانت مأساة كبيرة لجميع السكان، لأن حسن آغا، خلافاً لأبيه بالتبني، كان يحب مدينته بشغف وعمل كثيراً لتجميلها ولتلطيف العادات والسلوك.

استلم الإبن الشرعي لبربروس، المسمى حسن، مكان أخيه المتوفي. وعمره لم يناهز سبع وعشرين سنة. لم يسبق لي أن رأيته، لكن سكان الجزائر يحبونه ليس فقط لأن أمه من الجزائر، بل من أجل لطافته ورقته وغيرته واهتمامه بالصالح العام.

- كانوا قد أخذونا إليه لدى وصولنا، تابع جيوفاني.

هيئته وشكله قبيحين، غير أنه يبدو أنيقاً وواثقاً من نفسه.

- إن شاء الله سيطلق سراحنا في أسرع وقت ممكن من هذا الجحيم! أرغى عمانوئيل.

هذا يتعلق خاصة بإسراع أقربائكم في دفع فديتكم ولحسن الحظ أن تصل إلى الباشا!

تبادل جيوفاني وعمانوئيل نظرات كامدة. كما أنهم كذبوا على رئيس السفينة والباشا، لن يكون هناك قلق من شيء يأملونه من هذه الناحية. فكر جيوفاني أنه كان يجب التفكير بسرعة في إعداد الفرار، لأنه ما أن يعود رسل الباشا فارغي الوفاض من إيطاليا، فإن القراصنة لن يترددوا في جعلهم يدفعون غالياً ثمن كذبهم. كان يعرف جورج قليلاً،

لكنه يشعر غريزياً أن بمقدوره الوثوق به. لقد جازف في الانفتاح نحوه، نظر إلى عمانوئيل نظرة رزينة. فهم هذا الأخير الرسالة ووافق بحركة من رأسه.

جورج، لدينا شيء مهم أود أن أبوح به إليك، همس جيوفاني وهو يدنو من الفرنسي ليكون متأكداً من أن لا تسمعه أي أذن متنصطة أو فضولية.

نحن نفكر بالهرب بأسرع ما يمكن من هذا المكان، همس جيوفاني تحت نظرة موافقة عمانوئيل والقلقة نوعاً ما. التزم جورج الصمت للحظة طويلة. ثم قال متذمراً:

- أعلمكما، يا أعزائي. كان علي أن أفعل ذلك منذ سنوات. الآن لم تعد لدي الشجاعة مطلقاً. هذا العمل محفوف بالمخاطر ومعظم المحاولات التي حصلت سابقاً فشلت. سبق أن حضرت لمشاهدة عقوبة الجلد بالعصي. كان صياح المعذبين لا يحتمل والبؤساء لا يمكنهم وضع أقدامهم على الأرض طوال عدة أسابيع من شدة الضرب. فكرة العذاب من ذلك النوع تنزع رغبتني في الهرب.

- لا يمكنك تصور إنهاء حياتك في الزنزانة النتنة، بعيداً عن أهلك! استدرك جيوفاني.

- منذ ثماني سنوات، وأنا أحلم كل يوم بالعودة إليهم و أرى نفسي فيما بينهم. لكن ليس لدي الشجاعة للقيام بأي محاولة فأنا دائماً أعيش على أحلامي.

- حتى لو تخليت عن الفرار، هل لديك فكرة عما عليك القيام بفعله عوضاً عن ذلك؟

- طبعاً. أفكر أيضاً بهذا كل يوم! الواقع، من المستحيل الهرب دون وجود متواطئين. الأسرى التسعة الذين عرفتهم والذين نجحوا بالفرار،

فروا خلال الليل وأبحروا على متن زورق صغير كان ينتظرهم في خليج صغير قريب من المدينة.

- كيف يمكن تأمين هذا التواطؤ؟

- هناك حلان: إما إيصال رسالة إلى مسيحيي مدن بجايا أو وهران الذين ليسوا إلا مسافة يومين في الزورق من الجزائر لانتظارنا في الزمان والمكان اللذين يصر إلى الإتفاق عليهما. أو دفع مبلغ مرتفع رشوة لأحد سكان الجزائر ليساعدنا على مغادرة المدينة. لكن هذا يعادل دفع فدية ومع ذلك ستبقى العملية محفوفة بالمخاطر.

- لندع الحل الثاني جانباً. إلى من يمكن الكتابة لكي نتلقى دعماً من الخارج؟

- منذ الحروب الصليبية، هناك منظمتان دينيتان مهمتهما وشهرتهما الوحيدة هي تحرير المسيحيين الواقعين في قبضة المسلمين: منظمة أو رهبانية الثالث الأقدس ومنظمة سيدة الشكر (الرحمة). غالباً، ما يقومون بجمع الأموال قصد إعتاق الأرقاء. غير أن بربروس رفض مراراً تحرير الأسرى المدفوعة فديتهم رسمياً ولم يرسل المال أبداً إلى باشا الجزائر. بالمقابل، فيما لو وصلتهم رسالة مع تفاصيل دقيقة مقنعة حول هوية الرقيق، فإنهم لن يترددوا في تأمين سفينة كبيرة مع مالكها، للحضور إلى المكان ونقل الفارين ليلاً. هذا ليس ممكناً إلا في فصل الصيف وخاصة عندما يكون القمر بديراً ليتمكن من الإبحار دون مخاطرة.

- هذا حل رائع! لكن كيف يمكن إيصال الرسالة من هنا من السجن؟ استدرك جيوفاني الذي كان يشعر أن الأمور ليست سهلة بهذا القدر.

- أنت تضع أصبعك على النقطة الأكثر حساسية، أجاب جورج مبتسماً هنا أيضاً، يجب شراء متواطئ. يمكن المرور عبر عبد مسيحي يعمل على إيصال الرسالة إلى قافلة متجهة نحو وهران أو بجايا. الكلفة

معقولة لكن يبقى الخطر الأكبر كامن في مصادرة الرسالة. الأرقاء، يمكن التعرف عليهم بسهولة، ويتلقون عندها ثلاث مئة جلدة؛ لقد رأيت حصول ذلك عدّة مرات!

نظر جيوفاني إلى عمانوئيل الذي أسرع بغضّ الطرف.

- هذا يستحق التفكير، تابع الكالابري. لكن يجدر بي الاعتراف برغبتني في التعفّن هنا أطول من ذلك. إذا ما قررنا الهرب هل باستطاعتك تأمين اتصال مع واحد من العبيد المسيحيين.

- طبعاً. يمكنني أن أخبرك مسبقاً، ذلك سيكلّف مثني قرش.

حدّق عمانوئيل بجيوفاني، الذي بدا مذهولاً.

- نحن بعيدون عن امتلاك مثل هذا المبلغ!

- تابع جورج إذا ما عملتما أنتما الاثنين يوماً عند الخواص، ففي أقل من سنة ستجمعون المال اللازم.

قو طع الأصدقاء الثلاثة من مجموعة من الرقيق الذين حضروا اليشربوا على طاولتهم.

هذه الليلة، لم يذق جيوفاني طعم النوم. كان يفكر دون انقطاع بمخطط الهرب وبتأمين المبلغ المطلوب بأسرع ما يمكن. لأنه يعرف عدم قدرته على الانتظار مدة سنة.

بعد ظهر اليوم التالي بينما كان عائداً من القلعة، حضر عبد (رقيق) أسود يبحث عن جيوفاني ليأخذه إلى قصر الباشا لمقابلة المسؤول عن الإدارة. لدى دخوله الحديقة لم يتمكن جيوفاني من منع نفسه من التفكير برواية جورج، فكر بالأمير سليم التومي المسكين الذي كان يمضي أياماً سعيدة في هذا القصر الظريف قرب الجميلة ظفيرة. لكن لسوء حظه استدعاه الإخوة ببروس. بعد أن اجتاز داراً واسعة مزينة بالأشجار المثمرة وبالأحواض المزخرفة بنباتات عطرية دخل الرجلان

غرفة رحبة حيث كان إبراهيم يستقبل ضيوفه. اقترح العبد على جيوفاني الجلوس على مقعد خشبي صغير بانتظار وصول المدير، وقدم له حليب الناقة والتمر الطازج. قبل جيوفاني ذلك بطيبة خاطر. جلس على وسادة مريحة من الخمل الأحمر، بدأ يتأمل الجدران الرخامية المزينة بثلاثة أحرف عربية. ظهر إبراهيم فجأة من فتحة الباب مصحوباً برجل يزيد عمره قليلاً، مرتدياً لباساً عادياً.

- أه، السيد داسكولا، آمل أن تكون ظروف الحياة في السجن محمولة من قبلك!

- لا أقدر على أجابتك، أنا مازلت على قيد الحياة، لكن أعتقد أنهم يؤخرون مغادرتي من هذا المكان.

جلس إبراهيم على مقعد خشبي آخر، ليس بعيداً عن ضيفه، جلس الرجل الآخر إلى جانبه.

- هذا يتعلق بك فقط، يا عزيزي. أو بكرم أقرائك. ومن أجل هذا أيضاً أحضرتك إلى هنا. يجب علينا معاً تقدير قيمة فديتك.

استدار إبراهيم نحو معاونه وتابع:

- أقدم لك اسحق، أحد رسلي من اليهود والمكلفين بالمفاوضة حول فديتك لدى أقرائك، يجب إعطائه رسالة مفصلة ليعثر على عائلتك. أنت من كالابري على ما أعتقد؟

شعر جيوفاني بقلق يعتريه وأن الفخ الذي وضع فيه نفسه قد بدأ بالإطباق عليه. تساءل فيما إذا كان من الضروري التصريح فوراً بعدم ثقته بهذا الدجال البشوش. ثم تذكر ما قاله جورج له حول أهمية الكلام أو الكلمة المعطاة (العهد أو الوعد) عند المسلمين. حتماً سيجعلونه يدفع ثمن كذبه غالياً، دون شك بالحكم عليه بالتجذيف على سفينة حربية، وهربه سيصبح أكثر تعقيداً. كلا: ليس هناك سوى حل

واحد: أَلعب هذه اللعبة بأفضل ما أمكن ومحاولة الهرب قبل أن يعود اليهودي ويعلن للبasha عن شَمّه رائحة الخداع والغش.

- سأعمل كل ما ترغبون به من أجل إطلاق سراحني، أجب جيو فاني. لكن هل تعرفون كم من الوقت يجب علي الانتظار؟

التفت إبراهيم نحو إسحق، داعب الرجل لحيته ببطء وأخذ الكلام بلهجة إيطالية ممتازة التي تتناقض مع النبرة القوية وضعف المفردات لدى المدير.

سأسافر خلال أسبوع قاصداً مملكة نابولي وصقلية، لدي أربعة أسرى للمفاوضة حولهم، مع مدة السفارة وجمع المال، فإني لن أعود قبل ثلاثة بدور للقمر.

تابع إبراهيم مبتسماً: ما قيمة ثلاثة أشهر في حياة إنسان، إذا كان عبداً.

بقي جيو فاني صامتاً، مدركاً أنه من المستحيل عليه جمع مئتي قرش في وقت قصير، يجب عليه إذن إيجاد حل آخر لخطط فراره.

أشار إبراهيم إلى العبد الذي قدم طبق التمر من جديد إلى جيو فاني وملاً كأسه، ثم طرح أسئلة مطولة على الشاب حول ثروته وثروة أقربائه.

اخترع جيو فاني كل شيء. بعد النقاش الطويل المتواصل بالعربية مع اليهودي، انتهى مدير أعمال البasha إلى تحديد قيمة فديته وفدية خادمة بمئة

دوكا من الذهب. لم تكن بالحقيقة لدى جيو فاني أي فكرة عن أهمية هذا المبلغ. ثم سأله إسحق عن مدينته ومكان سكنه. من جديد أثبت جيو فاني

عن خصب خياله وأعطى تفاصيل محددة ليوحه رسول البasha نحو منزله المزعوم. أخيراً أحضر العبد (الرفيق) محبرة وريشة كتابة وورقة إلى

جيو فاني، أملى إبراهيم الرسالة التي يجب عليه كتابتها لأهله، كونه غير متزوج، هذا ما فعله دون تردد، كما طلب منه أن يذكر قيمة الفدية،

ومطناً في وصف العذاب الذي يتعرض له قصد إثارة الشفقة لدى أقربائه.

ما أن انتهى من كتابة الرسالة وتوقيعها، حيا إسحق الرجلين وغادر الغرفة مع الرسالة. نظر إبراهيم إلى الحديد الموجود في معصمي وقدمي جيوفاني اليمنى كما شاهد جرحاً منتناً مليئاً بالصديد. نادى على عبد آخر وطلب منه جلب لبخة (لزقة) شافية للجروح، بانتظار ذلك، سأل جيوفاني بما كان يفكر به حول الجزائر.

- إنها مدينة جميلة جداً، أجب الشاب دون كذب، يجب أن تكون الحياة فيها مريحة وممتعة عندما أصبح حراً.

لا شيء سيمنعك من البقاء فيها بعد إعتاقك، رد إبراهيم بابتسامة صغيرة خبيثة، بعض الأسرى القدامى فضلوا العيش هنا على العودة إلى بلادهم.

- أحب أهلي وبلدي، ردّ جيوفاني.

- طبعاً، أقول هذا مهما حدث، ومن ثم عليك أن تنقلب إلى ديانتنا، ذلك ما نتمناه.

لم يجب جيوفاني، وجه نظره نحو الجدران وسأل مضيفه حول الأحرف العربية التي تزيناها.

- إنها الأحرف الثلاث أَلِفٌ، لَامٌ، وَهَاءٌ، التي تدل إلى كلمة الله. بالحقيقة، في واحدة من الآيات الأكثر أهمية في القرآن: لا إله إلا الله، لا يوجد سوى هذه الأحرف الثلاث. أترى، خلافاً عنكم، وقصد تجنب عبادة الأوثان نحن نرفض رسم الله والنبى، وجميع صور البشر. طريقتنا الوحيدة في التمثيل الإلهي تنص بالكتابة على الجدران أو الأشياء لبعض أحرف من الآيات القرآنية.

- رد جيوفاني: يبدو لي هذا حكيماً، مفكراً بوجه إيلينا الذي رسمه بغفلة عنه تحت معالم وملاحم العذراء مريم.

ثم تابع:

- بما أن لدي ميزة التمكن من التحدّث مع الخادم الكبير للباشا هل

يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً يخص خير الدين والسلطان سليمان؟

- بكل سرور.

- شئت الصدف أن أقابل في إيطاليا الجميلة جوليا غونزاغا.

- لدى ذكر هذا الاسم، أظهر إبراهيم انتباهاً أكثر تركيزاً.

- أحد أصدقائها، الفيلسوف جوان دوفالدس روى لي بقية قصتها

التي تكاد لا تصدق، هل صحيح أن بربروس حاول خطفها وتقديمها

هدية إلى سليمان الذي تناهى إلى سمعه ما يقال عنها وعن جمالها.

بقي إبراهيم جسوراً لبضع لحظات، محدقاً بعينيه إلى محدثه ثم أجاب

بصوت عذب.

- لم تجر الأمور تماماً بهذا الشكل، هل سبق أن سمعت أحدهم يتكلم

عن روكسيلان، المحظية في حرم السلطان وإبراهيم الوزير الكبير؟

- أبداً.

- إذن إذا كنت تحب قصص مؤامرات البلاط، فلن أخيب أملك.

توقف إبراهيم ليدع المجال للعبد لوضع الضمادات على قدم جيوفاني

المجروحة، ثم اقترح عليه الإفادة من عذوبة ولطافة ذلك المساء للتنزه في

الحديقة.

ما سأقصه عليك اليوم معروف من الجميع، في القسطنطينية وهنا،

لقد جرت في تلك الحقبة واحدة من أكبر الدسائس التي تكاد لا

تصدق، في بلاط السلطان. بدأ كل شيء بالمنافسة بين الشخصيتين

الأكبر مكانة لدى حبيبتنا سليمان، المسمى العظيم: من جهة، إبراهيم

الوزير الأول والصدیق الأعز لدى السلطان كان مسيحياً ابن صياد

يوناني اختطفه القرصنة الأتراك وعمره لا يتجاوز الاثني عشر عاماً

وبيع كعبد إلى أرملة أخذته إلى مانيزي التي كانت تحت سلطة سليمان

آنذاك. سحر السلطان بجمال وذكاء هذا العبد الفتى، الذي كان يحسن

الكلام بشكل عظیم، ویغنی القصائد وینظم الشعر. فضمه إلى خدمته وقیل أنه قاسمه غرفته، أمام استنكار ودهشة البلاط. بعد اعتناقه الإسلام تلقى إبراهيم التعلیم من أفضل المعلمین تعلم العديد من اللغات. عندما خلف سليمان أبيه، تبعه إبراهيم إلى القسطنطينية وأصبح بسرعة الشخصية الثانية الرسمية في القصر، مثيراً الغيرة والحقد من كبار وجهاء الديوان. والواقع لم يكن لدى إبراهيم سوى خصم واحد قادر على أن يلفت سمع السلطان على الأقل وعلى معارضة مشاريعه وخاصة العلاقات الدبلوماسية مع الممالك المسيحية، مجال كان يستهويه أكثر من كل شيء. دون شك بسبب أصوله. وهذا الخصم كان امرأة، محظية من بين الحریم والمسماة روكسيلان.

اقترح مدير الأعمال على جيوفاني أن يجلس على حافة حوض وطلب من الرقيق أن يجلب لهما كأس عصير من الثمار. ثم شعر من نظرة جيوفاني بالأهمية الكبرى التي كان يمكنها لروايته فتابع متلذذاً. يُشار إلى أن قصة المحظية الواقعية على أنها أجمل الحكايات كما يقال، كانت الفتاة تدعى ألكساندرا. من مواليد جنوب - غرب روسيا. ابنة راهب أرثوذكسي، اختطفها التتار وهي في سن العاشرة من عمرها وباعوها إلى الأتراك. بسبب بشرتها الناصعة البياض وغرابة شعرها الأشعث، فقد اشترتها والدة السلطان وأدخلتها إلى حريم ابنها. لون شعرها فرض عليها اسمها: كانت تدعى روسًا «الشقراء» ثم روكسيلان. اعتنقت الإسلام، وتعلمت اللغة التركية، عندما أصبحت بالغة (قابلة للزواج)، أوصلت بها السلطانة إلى الخزنदार أوستار، «السيدة المهتمة بتدبير الأمور» التي علمتها كيفية الاستجابة إلى رغبة سيدها القادم، شرحت لها هذه الأخيرة كيف ستقدم قريباً إلى السلطان برفقة العشرات من الفتيات العذارى. إذا ما أسقط السلطان منديله أمامها، فذلك يعني أنها كانت ستذهب إلى فراشه في مساء ذلك اليوم.

مع أن اللقاء الأول مع السلطان كاد يكلف روكسيلان حياتها. بينما كان يرمي لها المنديل، بقيت جامدة ولم تظهر أي ابتسامة رضا. استدعيت من قبل السلطان الذي شعر بنفسه قد أذل بسبب ذلك التصرف المتعالي، أجابت أنها وضعت أحلى ثيابها وحليها مثل وزه جاهزة كي يلتهمها وأنه لم يكن لديها أي خيار!

بينما كان المخصيون يستولون عليها والسلطان يتحضر لإصدار الحكم بسبب هذه الإهانة التي لا تصدق، عرضت على سليمان بأن تلعب معه الشطرنج. قبل السلطان عرض الفتاة المفاجئ، وهو مضطرب متحيراً.

بعد عدة نقلات تمكنت من إخراجها، مهما بدا ذلك غريباً، شعر بشهوة نحو تلك الفتاة الجميلة، الشجاعة التي لم تخيب حسن ظنه. أصبحت فيما بعد وبسرعة المفضلة بين الحریم وسليمان لا يمكنه الاستغناء عن آرائها في إدارة وحكم الإمبراطورية.

شعر إبراهيم بغيرة شديدة. عندما سمع الكلام عن تلك المرأة التي حظيت جوليا غونزاغا بمقابلتها، وعن جمالها وذكائها اللذين لا مثيل لهما. قطع المدير تسلسل روايته وسأل جيوفاني.

- هل هي جميلة بقدر ما يقال عنها؟

- لقول الحقيقة لم أرها إلا عن بعد وفي ظروف سيئة جداً، لأنها كانت على جوادها طوال الليل مرتدية ثياب رجل، غير أنني مع ذلك أعجبت بحدّة نظرها وشعرها الطويل الكستنائي، ورقة ونبيل ملامحها. داعب إبراهيم طويلاً لحيته الناعمة، وهو ينظر جيوفاني.

- خطرت للوزير الكبير فكرة جعل الفتاة تختطف من قبل ببروس ليقدمها إلى السلطان مع الأمل الخفي بجعلها حليفته، وأن تطفىء شعلة روكسيلان في قلب سليمان. لكن المفضلة علمت بنواياه وبفشل

مسعاه. منذئذ لم تتوانى عن فقدانه مستعينة بالجواسيس، انتهت بمصادرة رسالة معرّضة للشبهة يقترح فيها إبراهيم معاهدة سلام مع فرديناند النمسا، الأخ الشرعي لشارل كنت، منهيّاً رسالته السرية بهذه الكلمات: «السلطان يفعل كل ما أريده لأنه منذ نعومة أظفاره، وصلت لحمي بلحمه بالحب والشهوة. وبالرغم من أنني ادعيت كوني مسلماً، فقد بقيت في أعماقي مسيحياً». لم تكن روكسيلان تأمل أكثر من ذلك، هرعت إلى السلطان سليمان لتطلعه على الرسالة، رفض تصديقها، ومن ثم حنق غيظاً وبكى طويلاً، وصمّم سليمان على موت أعز أصدقائه. سلمه لأيدي محظيته التي قتلته في إحدى الليالي في غرفته، من قبل سبعة مخصيين، قصد إفشال أي محاولة خيانة أخرى، طلب سليمان بأن لا تمحى آثار دماء وزيره الممتدة على الأرضية الخشبية لغرفته وجدرانها.

انتحر إبراهيم، قالها، وهو ينظر إلى السماء المحمّرة، ثم قال:

- آمل أن أكون قد أشبعت فضولك؟

- أفضل من ذلك أيضاً، أجب جيوفاني بصوت متأثر، لقد أتحتني

بمهارة الراوي الفائقة، بقصة مشوّقة!.

- هكذا عندما تكون قد عدت إلى إيطاليا، يمكنك أن تروي إلى جوليا

الجميلة الأسباب الحقيقية لمحاولة خطفها! الآن أصبح الوقت متأخراً.

سيقودك علي إلى زنراتك. أنا أسف بأن أفرض عليك هذا النوع من

ظروف الحياة القاسية، نحن نخطط لبناء سجون ذات نوافذ وحتى

مصاطب على السطوح، لكنك ستكون لحسن الحظ في بلدك عندما

سنتهي من بنائها!

- إن شاء الله، كم هي جميلة طريقة قول هذه الجملة.

- إن شاء الله! وليساعدك الله، سيد داسكولا.

ما أن عاد جيوفاني إلى الزنزانة، حتى قصد الخمارة. لحسن الحظ، وجد عمانوئيل وجورج، وكانا قد عادا لتوَّهما من العمل في الفندق؛ فانتحى بهما جانباً وبدأ بين الجميع حديث خافت، ابتدره جيوفاني قائلاً:

- أصبح وضعنا لا يطاق؛ طرح عليّ إبراهيم وبصحبة رسول يهودي الكثير من الأسئلة حول ثروتني وأهلي وبيتي. لم أروِ سوى الأكاذيب، في نهاية المطاف حدد فديتي بمئة دوكات من الذهب.

- ليس سيئاً! تابع جورج الذي كان منذ زمن طويل قد أيد التخلص من هذا الوضع المأساوي.

- في كل الأحوال، سيعود اليهودي بعد عدة أشهر وسيكشف كذبنا.
- سبق أن رأيت وضعاً مشابهاً. فقد كبّل الرجل بالسلاسل على سفينة حربية في اليوم نفسه.

- هذا بالضبط ما أخشاه! تابع جيوفاني. يجب قطعاً أن أهرب قبل عودة رسول الباشا، لكن ما العمل دون نقود؟

- لا يوجد أي حل يمكننا من خداع حراسنا، أو حتى قطع أغلالنا، لكن لا أحد يمكنه مغادرة المدينة دون شركاء أو متواطئين خارجيين. لا عن طريق البحر، أو من طريق البر. حاول البعض أن يختلطوا بالقوافل، لكن بما أنهم يتكلمون العربية بشكل سيء ولا يعرفون

عادات أهل البلاد، فقد تم كشفهم بسرعة وأعيدوا إلى السجن.

مع ذلك يجب القيام بشيء ما، احتار عمانوئيل، لأنه لا شيء أسوأ من الانتهاء على متن سفينة حربية تابعة للقراصنة. سموت في الحال، إما من الضرب أو الإنهاك، في أقل من ثلاث سنوات.

صمت ثقيل، علامة ليأس كبير، حل على الأصدقاء الثلاثة. استنتج جورج، وهو يهز رأسه:

- ليس لديكم سوى الصلاة لكي تحصل عجيبة ما، يا أعزائي لأنني لا أرى أي مخرج ملائم لوضعنا.

- أنت تتكلم مثل إبراهيم الذي أوكلني إلى نجدة الله وعونه، ردّ جيوفاني وعينه مدلهمة غامضة. لكن كما ترى لقد مضى وقت طويل وأنا لا أومن بالله ولا بالعجائب.

- مرت الأيام وحياة السجن تتابع مجراها المعتاد. كان جيوفاني يبحث عن حل للهرب.

في صباح أحد الأيام، حصل حدث غير مألوف، جُمع ما يقارب مئتين من الأسرى ونقلوا بالسفينة إلى مكان لعدة أيام، كانوا يقطعون الأخشاب المخصصة لبناء السبك (سفينة حربية)، إبراهيم الذي كان يحب أحياناً مغادرة الجزائر، كان يقود بنفسه هذه الحملة. وبينما كان العبيد مشغولين بتناول الطعام، متربصين على الشاطئ تحت العين المتيقظة للنيشارين، جاء رجل يرتدي ثياباً فخمة، مصحوباً بخادمين، وقابل إبراهيم. قدم نفسه على أنه زعيم القرية المجاورة، وشرح لمدير أعمال الباشا أنه كان مسلماً تقياً وأنه طبّق بحماس كل تعاليم الإسلام إلا واحدة.

- أي منها؟ سأل إبراهيم.

- لم تكن لدي حتى الآن القدرة على أن أقتل، بيدي، واحداً من هؤلاء الكلاب الكفرة، أجباب رئيس القرية.

- ماذا تمنى؟ سأله إبراهيم الذي فوجئ نوعاً ما بجواب محادثه.

- بما أنك هنا مع العديد من العبيد المسيحيين، هل تمنحني الفرصة بأن أقتل واحداً لكي لا أموت قبل أن أكمل كل أركان الإسلام؟ وأنا موافق على أي مبلغ تطلبه.

بقي إبراهيم مفكراً لبضع لحظات ثم أعطاه سيف أحد النيشارية.

- أمنحك هذا الفضل، خذ هذا السيف التركي وأعطني خمسمائة قرشاً، إنه ثمن الحياة لأكثر العبيد تعاسة.

- ليباركك الله، أجاب الرجل وهو يمسك السيف.

ثم طلب إلى أحد خدمه بأن يعد المبلغ ويسلمه إلى إبراهيم.

التقت عندئذ إبراهيم نحو العبيد، المنذهلين، الحاضرين المشهد، قال لهم باللكنة الفرنسية، هل هناك بينكم من يتقن استعمال السيف؟ نظر إليه العبيد، بدهشة أكبر.

- هيا! فليتشجع أي واحد منكم يتقن استعمال السيف ويقابل هذا الرجل بقتال عادل، السيف باليد وإلا فإنني سأعين واحداً لا على التعيين منكم.

بعد هذه الكلمات خرج جيوفاني من الصفوف.

- أنا أتقن القتال.

بدا إبراهيم متردداً قليلاً، خشية أن يفقد أسيره الذي يمكن أن يكسبه مئة دوكات ذهباً، ثم حدق بنظرة جيوفاني المصممة ونظرة زعيم القرية المرعوب الذي بالرغم من أنه لا يفهم الفراتكو، بدأ بالإدراك أن الأمور لا تجري كما تصورها. قال إبراهيم في نفسه أخيراً أنه لن يتعرض للخطر، فمد سيفه المنحني إلى جيوفاني، طالباً من نيشاري أن يفك غلاله.

- استدرك رئيس القرية المغتاض، كيف تعطيه سيفاً وترفع أغلاله من

قدمه!

- ماذا كنت تأمل! القرآن يأمرنا، عندما يكون إيماننا أو جماعتنا مهددين، فعلينا أن نقاتل ضد الكفرة لكن أين قرأت أن النبي يطلب قتل رجل دون دفاع لم يتعرض لك بالأذى؟ أتعقد أن الإسلام هو دين ينادي بالقتل؟

بقي الرجل ساكناً. أشار إبراهيم إلى جيوفاني الذي تقدّم نحو زعيم القرية، بدأ هذا الأخير بالصياح:
- ستركني أقتل من هذا المسيحي! بالله، أرجوك اطلب منه أن يوفّر حياتي.

نظر إبراهيم إلى جيوفاني:

- إنه يرفض المعركة ووضعك الآن يسمح لك طلب التعويض منه. ما هو المبلغ الذي تريده؟

فكر جيوفاني لعدة لحظات، ثم أجاب:

- هذا الرجل سلّمك خمسمائة قرش ثمناً لحياة عبد، ألا تعادل حياة نبيل مسلم على الأقل المبلغ ذاته؟

ابتسم إبراهيم وترجم الجواب إلى رئيس القرية الذي أسرع بقبول العرض، سلّم خادمه المبلغ إلى جيوفاني، ثم غادر الرجال الثلاثة وهم يركضون، خوفاً من أن تنهال عليهم مصيبة جديدة.

قدّم هذا المشهد تسلياً للحرس، وأدخل الفرح بعمق إلى قلوب الأسرى الذين هناؤا جيوفاني. ما أن عاد إلى السجن، ذهب لمقابلة جورج وعمانوئيل وكله انفعال، بدأ يروي لهم القصة التي يصعب تصديقها، مظهرًا الخمسمائة قرش أمام أعينهم غير المصدّقة.

- هذه أعجوبة! انتهى عمانوئيل إلى القول. منذ ذلك اليوم لم أتوقف عن الصلاة للعذراء والقديسين لكي يساعدونا. انظر إلى هذه الهدية غير المتوقعة التي تهبط من السماء.

لم يجب جيوفاني ولم يكن يعرف كيف يفكر. الشيء الوحيد الأكيد الذي لديه، كان هذا المال الذي سيفتح لهم باب الحرية.

انحى جورج ببصره وهمس لأصدقائه:

- يجب البدء فوراً وابتداء من هذا الأسبوع بكتابة رسالة إلى رهبان الثالوث الأقدس في وهران لكي يكون لديهم الوقت الكافي لتنظيم فرارنا ليلاً وتحديد المكان حيث سينتظرنا زورق قبل أن يعلم الباشا بما جرى.

- لتصرف هكذا، ردّد جيوفاني بحمّية وحيوية، لكن بشرط واحد، يا جورج، أن تكون معنا!

- طبعاً تابع عمانوئيل وهو يشد على قبضة الفرنسي.

بقي هذا الأخير صامتاً لفترة طويلة، ثم قال:

- شكراً، شكراً من كل قلبي، يا أعزائي. لو كان لدي شجاعة المغادرة لوفرت هذا المبلغ منذ زمن طويل. في الواقع، أنا خائف جداً أن يعترض الأتراك البريد، ومن أجل كل مال الدنيا لا أريد أن أجازف بتلقي ثلاثماية ضربة عصا. الأمر كذلك ليس لدي أي شجاعة جسدية.

بالرغم من إلحاح عمانوئيل وجيوفاني لم يبدل الفرنسي رأيه.

بفضل علاقاته توصل جورج إلى الحصول على الورقة والخبر، نقل مع المتين من القروش الرسالة إلى رجل من المور الذي كان يعرف عنوان رهبان الثالوث الأقدس والطريقة لإيصال البريد إليهم. الجزء الأول من المخطط سار على ما يرام. يبقى الآن انتظار الرد. ثم إذا لم يعترض أحد البريد، وفيما لو جاء الرد إيجابياً، يجب أيضاً إيجاد الوسيلة لخدا ع يقظة الإنشاريين، في اللحظة المناسبة.

عاش جيوفاني هذا الانتظار في مزيج غريب دائم من الخوف والأمل، ليلاً نهاراً، كان عقله مشغولاً بهذه الفكرة الوحيدة. من فرط

المراقبة، توصل إلى تحديد أفضل الوسائل لخداع الينشاريين، كان ذلك طبعاً أثناء العمل في الفندق.

معظم الوقت كان محمد يذهب للراحة وباب المنزل يبقى مفتوحاً. يكفي انتظار عدم وجود أي حارس أو عبد في المدخل لمغادرة المكان والاختفاء في القصة.

لكن كان من الضروري أيضاً التخلص من الأغلال لتجنب تعرف الناس إليهم فوراً. تمكن جيو فاني وبمساعدة جورج ومقابل عدة عشرات من القروش من الحصول على منشار من مرتد. سمح له، عشية الفرار بنشر السلاسل ليتخلص منها في وقت قصير وتخبيئة الحديد داخل رداء (توب) كبير تصل حتى أخمص القدمين، هذا الرداء يسهل سرقة من الفندق.

مرّت ثلاثة أسابيع على نقل البريد إلى المرسال من المور، سلم هذا الأخير، بغفلة من محمد، رسالة صغيرة إلى جورج بينما كان عائداً من الفندق. لدى عودته إلى السجن فتح الفرنسي الرسالة الصغيرة بحضور صديقيه، كان مكتوباً فقط:

أن يذهب المسيحيان إلى رأس ماتيفو أثناء الليلة الأولى من الفترة التي يصبح فيها القمر بدرأ.

وأخيراً جاءت عشية اليوم الكبير، الذي سيصبح فيه جيوفاني وثمانوئيل أحراراً أو أن يحكم عليهما بعقوبة قاسية. وفق عادتهما التقيا مساء في الحانة برفقة جورج، ثم شربوا كأساً وتحدثوا عن آخر التحضيرات. كلما كان الموعد المقدر يقترب، كان الفرنسي يبدو حزيناً أكثر فأكثر. برّر هذه الكتابة أمام أصدقائه قائلاً لهم كم سيشعر بغيابهم، لكن جيوفاني فهم أن شيئاً كان يشغله، أكثر إيلاماً. قرر في تلك العشية التوجه مباشرة إلى جورج:

صديقي، أعرف مخاوفك، لكنني مقتنع اليوم أنك جاهز لقهرهم ومحاولة استعادة حريتك. لا يهم أن نكون اثنان أو ثلاثة على الزورق. مكانك معنا غداً.

دافع عمانوئيل بالنظر، لم يتوصل جورج إلى إخفاء انفعاله، امتلأت عيناه بالدموع. لدى رؤية هذه القوة الآتية من الطبيعة تبكي، شعر جيوفاني بشيء يعصر قلبه والانفعال نفسه بللّ عينيه السوداوين الجميلتين بالدمع.

- قال الفرنسي أخيراً وبصوت محطم: لا أعرف أبداً بماذا أفكر.

شد جيوفاني على يده:

- لا تفكر بل اعمل. تعال معنا ودع خوفك في السجن.

نظر جورج طويلاً إلى صديقيه اللذين لم يفارقاه بنظرهما، ثم انتصب واقفاً وتكلم بتنهيد عميق:
- هل سنصبح ثلاثة.

لم يتمالك عمانوئيل نفسه وعانق الدنكر كي. وريت جيوفاني على كفه بقوة وبحنان، استعاد جورج الابتسامة:
لن أتمكن من العيش هنا يوماً واحداً إضافياً، مع وجود الندم في الضمير. الآن قضي الأمر، فلننظم أنفسنا استعداداً ليوم الغد، لأنه يجب عدم ترك أي شيء للصدفة!
- قبل أن نأتي للزورق لديّ اقتراح آخر أعرضه عليكما، تابع جيوفاني:

نظر إليه عمانوئيل وجورج بانتباه.

- مع احتمال أن نغادر نحن الثلاثة، هل يمكن أن نهرب بأربعة؟
- همس عمانوئيل فجأة وهو قلق: بمن تفكر؟
- بالفتى بيبو.
- حملق الرجلان.

- منذ وصولنا هنا، ألاحظ ألمه وعذابه. ما من شك أن هذا الطفل يرغب بمرافقتنا والهرب نهائياً من هذا المكان الملعون.
- تابع جورج: هذا أكيد، لكن ذلك يعني إضافة خطر جديد.
- سأل جيوفاني ما هو؟

- حتى أنني أرى اثنين، تخيل أولاً أنه سيحبك بنعم، ثم يبيع المعلومة إلى الأتراك مقابل حرثته أو على الأقل خروجه من السجن؟ هذا احتمال لا يمكننا إبعاده فيما بعد فهو لا يعمل معنا في الفندق. سيكون إذن أكثر تعقيداً أن نشركه في فرارنا.

- كل هذا يتطلب، في الواقع، مزيداً من التفكير، تابع وهو مرتاب.
فكرت طبعاً بهاتين النقطتين، تابع جيوفاني. فكرتي هي أن نرشو رب عمله، الينشاري محمد، وكذلك مالك الفندق ونأخذه معنا غداً بعد الظهر، سندعهم يفكرون أننا نرغب بممارسة الحب الدنيء الفاحش مع الفتى في غرف المنزل.

أنت بنفسك يا جورج أوحيت لي بهذه الفكرة عندما رويت لي أن ذلك كان شيئاً مألوفاً يقوم به بعض أرقاء السجن بجلب بعض المومسات إلى بيوت خاصة حيث كانوا يعملون. ما أن نكون بمفردنا مع الفتى حتى نقترح عليه مرافقتنا في الهرب، إذا ما رفض، ندعه في ذلك المكان، مع احتمال أن نغلق فمه (نكلمه) فيما لو شعرنا ببعض الخطر منه، وإلا سنغادر معه.

- فكرتك ليست غبية ولها ميزة: ستركوننا لوحدنا نحن الأربعة في غرفة، هذا ما سيسهل فرارنا، تابع جورج بعد زمن قصير من التفكير.
- أنا متردد، قال عمانوئيل. ألا تخشون أن يفشي بنا محمد مصطفى إلى المدير بسبب هذه الممارسة التي هي ممنوعة بموجب الدين الإسلامي؟ فبدل الهرب، سنجد أنفسنا في سجن أكثر نتانة وقذارة أيضاً، إنها مخاطرة صغيرة، تابع جورج لكنها صغيرة جداً. مصطفى لن يشي بنا أبداً لأنه معني جداً ويمارس هو نفسه الشيء ذاته. محمد، من ناحيته لا يفكر إلا بالمال وليس له أي دين أو أخلاق شخصية. أمّا مالك الفندق، فقد سبق أن قبل المال من يديّ هاتين لكي يدع مومس تدخل إلى واحدة من غرفه.

نظر إليه عمانوئيل وجيوفاني مندهشين.

- حسناً، التصريح به أفضل، كنت أحياناً قد تنازلت عن رغبة امتلاك امرأة، ماذا تريدون: ثماني سنوات بعيداً عن أهلي، هذا طويل.

- نحن لا ندينك، جورج، وما كنا إلا لنفعل الشيء ذاته بعد عدة أشهر، تابع جيوفاني مازحاً، لكن ملاحك كانت تدل على أنك بعيد جداً عن ذلك، وكنت شبه مشمئز عندما رويت لنا هذا خلال حديثك عن العيد.

- يبقى أن يجيب هذا على أسئلتني، تابع عمانوئيل بجديّة أكثر.

في هذه الحالة لا أرى اعتراضاً على تطبيق جيوفاني. لقد سببت لي مأساة هذا الفتى المأ في القلب.

- حسناً، تابع جيوفاني، يبقى لدينا مئة وثمانون قرشاً، كم تعتقد جورج، أنه علينا أن ندفع منهم من أجل أن تسير الأمور كما نريد؟

- لكي لا تصادفنا أي مخاطرة ونتجنب أي مساومة طويلة، وزّع المبلغ إلى ثلاث حصص: خمسون إلى صاحب الحانة، وخمسون للينشاري وخمسون إلى مور. بهذا الثمن، لن يرفض أحد، ويبقى لديك ثلاثون قرشاً عند حدوث حالة صعوبة غير متوقعة.

- حسناً، أنا اهتم منذ الآن بمصطفى، وسأترك لك غداً أن تهتم بالاثنتين الباقيين.

أخذ جيوفاني ثمانون قرشاً وأعطى الباقي إلى جورج ثم توجه نحو صاحب الحانة وطلب التحدث إليه بضع دقائق على انفراد. قبل هذا الأخير متدماً. عاد جيوفاني في الحال إلى طاولة صديقيه.

بدا أنه تفاجأ بطلبي ومظهراً عدم الفهم. وعندما رأى النقود، قال لي ببساطة: خذوا الفتى غداً مساء واعملوا به ما تريدون فعله، لكن إذا ما قبض عليكم فسأنكر أنني تلقيت المال أو أنني علم بمشروعكم.

- هذا لا يدهشني من قبله، علق الفرنسي. سأذهب وأكلم محمد غداً.

قبل السفر مباشرة، لكي لا يكون لديه الوقت للتفكير.

- ممتاز، استنتج عمانوئيل.

لم يتمكن أي من الشركاء الثلاثة إغماض جفنه تلك الليلة، الأخيرة، كما يتمنى، في هذا المكان الملعون. تناقل الجميع المنشار خفية وانتهوا من قطع الحلقة الأولى من قيدهم، تاركين ارتباطاً ضعيفاً لا يلبث أن ينكسر ما أن توجه له ضربة قوية. أمضوا النهار بكامله وهم يعملون في الورشات كالمعتاد متبهيئين خاصة إلى تجنب أي خطر أو جرح أو عقوبة يمكنه القضاء على مشروعهم.

وصلت أخيراً اللحظة الحاسمة، نادى المؤذن معلناً صلاة العصر وعاد الأسرى إلى الزنزانة. ذهب جيوفاني إلى الحانة، كان متوتراً جداً وخائفاً من أن يكون مصطفى قد غير رأيه. على الفور طالبه صاحب الحانة بدفع عشرين قرشاً إضافية، غادر جيوفاني مؤكداً أنه يتراجع عن مشروع. تبعه مصطفى وانتهى إلى القبول مؤكداً له في أذنه بعد أن فعلوا فعلتهم بالفتى فإنهم سيدفعون له فعلاً في المرة القادمة ثلثاً إضافياً. توجب على جيوفاني أن يتمالك نفسه كي لا يضرب صاحب الحانة. نادى هذا الأخير على بيبو وأمره، دون أي شرح آخر أن يتبع جيوفاني وإطاعته في كل شيء. ألقى الفتى نظرة مظلمة على الكالابري، ثم تبعه حتى مخرج السجن حيث كان محمد عمانوئيل وجورج بانتظارهما. ما أن لاحظ نظرة محمد الشهوانية وضحكته المسموعة، حتى فهم جيوفاني بسرعة أن الاتفاق قد تم.

عبر الرجال الأربعة والفتى حي القصة، ظاهرياً، كان على بيبو أن لا يخرج مطلقاً من السجن لأنه بدأ، في آن معاً، مرعوباً ومفتوناً بكل هؤلاء الباعة، وهذه الأشياء، والعطور والألوان. ما أن وصلوا إلى الفندق، حتى ذهب جورج لمقابلة المالك بينما كان الآخرون ينتظرون في الباحة. قلق جيوفاني للطريقة الغريبة التي كان ينظر فيها محمد إلى بيبو، بعد عشرة دقائق تقريباً عاد جورج مصحوباً بـالمور الذي قال أشياء بالعربية إلى محمد، بناء على هذا صعد محمد إلى الطابق الأول من البناء، مشيراً إلى الآخرين باللحاق

به. غمز جورج بعينه مشيراً إلى رفاقه أن كل شيء جرى على ما يرام.

فتح محمد باباً وترك الأصدقاء الثلاثة والفتى يدخلون الغرفة الواسعة. كان بيبو يبدو متوتراً بشكل خاص وبدأ يتوقع المصير الذي كان يمكن أن ينتظره. لكن، ولدهشة المسيحيين، دخل محمد أيضاً إلى الغرفة، ذكره جورج بمواد الاتفاق، لكن الإنشاري لم يقتنع وأفهمهم أنه يريد أيضاً الاستفادة من الوضع. أمام الواجهة التي اتخذتها الأحداث، جازف بالكل ليربح الكل وربت على كتف التركي بصداقة. هدأ الإنشاري ونزع حزامه الضخم، ثم ارتمى على الأريكة وأشار إلى السجين بأن يبدأ، تابع جيوفاني التظاهر باللعب وذهب ليتمدد إلى جوار الإنشاري بطيبة قلب قائلاً لجورج بأن يهتم بالفتى. كان هذا الأخير فاتر القوى في إحدى زوايا الغرفة. ذهب الفرنسي نحوه وأخذه بيده نحو الأريكة قبالة التركي وجيوفاني. تبعه الفتى وهو ييرطم خافضاً عينيه. في تلك اللحظة استدار جيوفاني على محمد وضغط على وجهه بواسطة وسادة. انهال عمانوئيل وجورج بدورهم على الإنشاري. أمسك جورج بطاولة صغيرة وضرب الحارس بعنف.

- ما زال حياً، أكد عمانوئيل واضعاً رأسه على صدر التركي.

- زيادة في الأمان، يجب أن نكمّم فمه ونوثق يديه ورجليه بواسطة أربطة حذائه، تابع جورج.

بينما كان الرجلان يهتمان بالإنشاري ذهب جيوفاني إلى بيبو وتكلم معه بالإيطالية، اللغة الأم للفتى، كانت ملامح الطفل تدل على أنه كان مرعوباً.

- لا تخش شيئاً، لقد كذبنا على سيدك وعلى المور، لقد أتينا بك إلى هنا لنقترح عليك أن تهرب معنا. هذه الليلة سينتظرننا زورق يقوده مسيحيون، هل تريد ترك هذا السجن؟

بقي الطفل مذهولاً وبدأ يرتجف، ألح جيوفاني:

- هل تفهم كلامي؟

بعد عدة لحظات، حرك بيبو رأسه من فوق إلى أسفل بقوة.

- هل تريد الهرب معنا؟ هل تعرف أنه إذا كشفنا، فإننا سنتلقى

ثلاثماية ضربة عصا؟

كان بيبو يحذق بجيوفاني، مندهشاً.

يجب أن تقرر يا بيبو، هل تريد المحاولة مثلنا جميعاً وتعود إلى بلدك

وإلى أهلك؟

كان الطفل متشنجاً.

قاطع جورج جيوفاني.

- هوذا التركي في حالة خارجة عن إلحاق الضرر، لكن يجب علينا

الهرب دون تأخر. سأذهب لأجلب الجلابيب. خرج من الغرفة،

واستغل جيوفاني غيابه في تعجيل الطفل على اتخاذ قراره.

- كما ترى، نحن سنغادر. لديك أيضاً بعض اللحظات لتتخذ

قرارك. إذا ما رفضت أن تبغنا، فإنك ستعود إلى السجن عند سيدك

الذي يعاملك بشكل سيء وإلا فلديك فرصة لتستعيد حريتك أو أن

يقبض عليك من جديد وتعاقب بقساوة.

انتهى عمانوئيل وجورج من قطع الأغلال التي انفكت بسهولة.

عاد جورج لتوّه مع ثلاث جلابيب.

- لم أجد منها للطفل، لكن ليس في قدميه حديد، وسيظن أنه كان

عبداً الذي يتبعنا.

ثم نشر سلسلته، دائماً تحت نظر بيبو المتجمد. ارتدى الرجال الثلاثة

الجلابيب التي كانت تغطيهم من الرأس حتى القدمين.

- هكذا لن يعرف أحد أننا روميون (غير جزائريين): صاح عمانوئيل

مفتوناً.

عاد جيوفاني مرة أخيرة إلى بيبو وأمسكه من كتفيه.

- إذن، يا ولدي، ماذا قررت؟

بقي الفتى صامتاً.

هل تريد، نعم أو لا، أن تأتي معنا؟

محدقاً بجيوفاني أحنى بيبو رأسه ببطء مشيراً بالإيجاب.

- أنت فتى شجاع، قال جيوفاني بفرح عظيم، أتمنى أن تتمكن من

العودة إلى أهلِكَ قريباً!

كان جورج يعرف سابقاً المنزل جيداً، غادر الثلاثة الدرج وعبروا

الباحة التي كانت مقفرة في تلك الساعة.

خرجوا إلى الشارع وتمكنوا من التغلغل بين أفراد الشعب الزاخر،

دون أن يقلقهم أحد، خرجوا من المدينة مختلطين بالجموع ومشوا باتجاه

كاب ماتيفو، عندما مالت الشمس نحو الأفق سمعوا من بعيد نداء

الصلاة وقالوا في أنفسهم أنهم لن يتأخروا على اكتشاف هربهم. عندما

هبط الليل، وصلوا أخيراً إلى الرأس، القمر، في أبهى صورهِ كان بدرأ

يشرق فوق البحر، لم يبقَ لهم سوى انتظار وصول الزورق، وهم،

منكمشين خلف صخرة.

انتظروا ساعات طويلة، تبادلوا القليل من الكلام، لكنهم تقاسموا

القلق الصامت نفسه، لأن محربهم لم يلتزموا الموعد. نظر جيوفاني إلى

أضواء الليل تتراقص على زبد الأمواج، فكر بلونا، وأشياء كثيرة

أعلنتها الساحرة وقد تحققت جميعها، لكنها لم تتكلم عن السجن أو

عن الرِّق. إذا كان القدر موجوداً، فماذا سيكون قدره في تلك الليلة

حيث كل شيء بات ممكناً؟ لو كان ما زال يؤمن بالله، لصلى، كما

كان يحب أن يفعله في قلوبهم جورج وعمانوئيل.

فجأة، صاح بيبو، الذي كان متمركزاً على تلة صغيرة:

- هناك زورق!

نهض الرفاق الثلاثة قفزة واحدة ونظروا إلى النقطة المشار إليها بذراع الفتى.

- هاهم! لم يتركونا! صاح جورج قبل أن يرمي في أحضان جيوفاني. كان الزورق يقترب ببطء من الشاطئ. خلال بضعة دقائق سيكونون أخيراً أحراراً، بينما كانت عيونهم تهلل ولا تتمكن من الانفصال عن هذه النقطة التي تتقدم على سطح البحر.

ارتعدت فرائصهم رعباً عندما سمعوا ضجة غامضة آتية من كتبان الرمال. التفتوا إلى الخلف مندهشين، لحوا الجنود يتقدمون نحوهم بخطى سريعة.

- الميليشيا! الينشاريين. لقد قضى علينا، همس عمانوئيل.

- كلا، لنلقي بأنفسنا في الماء ولنسبح حتى بلوغ الزورق!

ألقى جيوفاني بنفسه في البحر، متبوعاً بعمانوئيل وبيبو، بعد سباحة عشرين ذراعاً سمع جيوفاني صراخاً، التفت مرتعباً ليتحقق أن جورج الذي كان آخر من غادر قد غرق.

- تابعوا، لا تتوقفوا، أنا أهتم به، صاح برفاقه.

بينما كان بيبو وعمانوئيل يتقدمان نحو الزورق، استدار جيوفاني إلى الخلف، وأمسك بالفرنسي الذي كان يتخبط مثل شيطان لينجو من الفرق.

- أنا.. أنا لا أجد السباحة! توصل جورج إلى القول بينما جيوفاني ينزلق تحته ليحمله.

- توقف عن التخبط! صرخ به جيوفاني، سنغرق نحن الاثنان.

بالرغم من التحذير، لم يهدأ الفرنسي، «يجب صرعه وإلا لن يتمكن أبداً من سحبه حتى الزورق». قال جيوفاني في نفسه وهو يحاول

سحب صديقه، الذي ظل يتابع التخطيط، بأي طريقة تجرع جيوفاني عدة مرات الكأس وأدرك أنه لن يتمكن أبداً من اللحاق بالزورق. خيار رهيب كان حاضراً أمامه، إما أن يخلص نفسه فقط، تاركاً جورج يلاقي حتفه، وإما أن يأخذه إلى الشاطئ الذي ما زال قريباً، ويعود إلى حالة العبودية. كان يسمع صياح الأتراك الذين وصلوا إلى رمل الشاطئ. فكر عندئذ أنه لن يقدر على العيش حراً وضميره يعاتبه على موت صديقه. لم يتردد أكثر وعاد أدراجه.

وصل إلى الشاطئ منهوك القوى، جورج الذي ابتلع كمية كبيرة من ماء البحر كان في حالة نصف إغماء. انقض الينيشاريون عليهما وأشبعوهما ضرباً بالأقدام والعصي. هذا الضرب كان مفيداً بإعادة الفرنسي إلى وعيه بعد أن استفرغ الماء من رثتيه ومعدته.

عندما وقفا، تحقق الهاربان أن الزورق اختفى في الأفق وفهما أمام حلق الأتراك أن صديقيهما قد نجحا بالفرار.

عند التفكير بعمانوئيل وبيبو اللذين سيتمكنان قريباً من لقاء عائلتهما، كان جيوفاني مليئاً بالسعادة لدرجة أن دموعاً دافئة غمرت عينيه. لكنه أدرك، في الحال، أنه عائد إلى السجن ليخضع فيه إلى عقوبة رهيبة. عندئذ سيطر عليه شعور كبير أنهك روحه وجمد دموعه.

ما أن أُعيدا إلى المدينة، حتى أُلقي بالفارين في زنزانتين صغيرتين جداً وأوثقا بسلاسل حديدية مثبتة في الجدران. استمرّا هكذا في الظلام، دون شراب أو طعام، طوال خمسة عشر ساعة، مقيدَي القدمين موثوقين بالسلاسل فيما بينهما. اقتادوهما أمام المدير الباشا، بنبرة جافة، استنطقهما ابراهيم افرادياً، ثم مع بعضهما، أقر الأسرى بالحقيقة باستثناء، كما كان متفق عليه، نقطة واحدة: لقد نفوا استعانتهم بشريك يعيش في الجزائر، وأكدوا أنهم نقلوا رسالة إلى زعيم قافلة لا يعرفونه. لفت إبراهيم نظر جيوفاني أن فعلته كانت غبية لأن حرите باتت قرية من طريق دفع الفدية. تردد الكاليري في الإفصاح عن الكذبة، لكنه شعر أنه من الأفضل الانتظار حتى يهدأ غضب المدير، ويشرح فعلته كما حصل لجورج والخوف أن لا تصل الفدية أبداً. تأكداً أيضاً أن صديقيهما توصلا فعلاً إلى الهرب. سألهم إبراهيم أيضاً حول الأسباب التي دفعتهما إلى تحرير الفتى بيبو بالرغم من الخطر المحتمل. ظاهرياً وجد الكثير من الصعوبة في القبول بدافع الشفقة فقط. ما أن انتهى من التحقيق أعلن لهم المدير أنهم سيتعرضان للعقوبة المحددة في حال المحاولة الأولى للفرار: ثلاثمائة ضربة عصا على الوجه السفلي للقدم.

في اليوم التالي، وبعد صلاة العصر، جُمع كل السجناء في الساحة الكبرى للمدينة. كانا محاطين بمائتين من الإنشارية. في الجهة الثانية من الساحة هرع المئات من المتسكعين ليشاهدوا العقوبة.

نُزعت أغلال الأسيرين واقتيدا إلى وسط الساحة.

أمر قائد الحرس:

- انبطحوا أرضاً، أيها الكلاب وإليّ بالفلق.

عبارة عن خشبة ذات أربع أو خمس قوائم، مثقوبة في الوسط.

أفهم الحراس المحكومين بأن عليهم الاستلقاء على الظهر، جاء تركيان بالفلق ووضعاً قدمي جيوفاني في الفتحتين وربطاهما بشكل متين بالخشبة، وأمسكا بها من الجهتين، رفع ساقيه ينيشاريان آخران جاء ليثتا كتفي وذراعي الكلابري. رجل خامس، حمل سوطاً طوله ثلاثة أو أربعة أقدام، اسطوانياً عند القبضة لكنه يتوسع ليصل إلى نصف قدم عرضاً عند نهايته، جاء ليقف قبالة الأسير، محدقاً بقدميه المرفوعتين نحو السماء منتظراً إشارة القائد. أخفض هذا الأخير يده إيذاناً بالتنفيذ. انهال التركي بكامل قوته على سطح القدمين. فوجئ جيوفاني بعنف الضربة، فلم يتمكن من كبت صرخة ألم. تهامس الجمع الغفير الذي كان يحضر التعذيب فرحاً أو شفقة. تابع التركي الضرب بالعصي بوقع منتظم، وهو يعد الضربات بصوت عال. واصلاً إلى المئة، أخلى مكانه إلى جندي ثان الذي استأنف تنفيذ الحكم على أشده.

بعد خمسة أو ست ضربات رهيبة وقع جيوفاني في حالة من غياب الوعي لأن الألم لم يعد محمولاً. جاء حارس ثالث ليخلف الثاني، في الضربة المتتين والثلاث والعشرين، فقد جيوفاني وعيه كلياً، أنعش بسطلين من الماء، واستطاع الشاب ذلك بابتلاع بعض الجرعات المنعشة.

بعد انتهاء العقوبة، لم يعد جيوفاني يشعر أبداً بوجود قدميه، اللتين لم تكونا سوى رقائق مدماة وأورام دموية. رفعت عنه الفلقة وسُحِبَ جانباً. عندئذ بدأ تعذيب جورج الدنكركي الذي كان يرتجف ويتصبب

عرقه خوفاً. تُبِتت قدماه في الخشبة انهال بأول ضربة سوط سقطت على قدميه، شد جورج على أسنانه، لكنه لم يصرخ، فعل الشيء نفسه حتى الضربة الثلاثماية الأخيرة، أعجب الجمع بشجاعة الفرنسي.

فيما بعد حمل أربعة من العبيد المعدّين إلى السجن، ومدّاهما على أرجوحتهما السابقتين. بينما عبد يشربهما الماء وألكساندر ينظف جراحهما ويضع عليهما المراهم.

أوصاهما الطبيب الإنكليزي أنه سيكون من غير الممكن أن يضعا أقدامهما على الأرض. طوال خمسة أو ستة أسابيع وأنه سيعود كل صباح ومساء لتقديم العناية لهما!

لم يكن لدى جيوفاني وجورج القوة للنطق بأي كلمة. بقيا واهنين طوال ساعات، وانتهيا إلى السقوط في نوم يشبه السبات.

في صباح اليوم التالي، ما أن وجدا أنهما لوحدهما في المهجع، حتى همس جيوفاني بأذن جورج قائلاً:

- لقد أهديتني بشجاعتك، لم يصدر عنك أي صراخ.

رسم الفرنسي ابتسامة صغيرة:

- اكتشفت أن الخوف من الألم هو أسوأ من الألم نفسه! أنا آسف

لأنني ورطتك في...

- لا تأسف لشيء، ندمي الوحيد هو أنني أجبرتك على العودة لتتقذني عندما كنت أغرق. بدل فرارك مع صديقنا، لم يكن عليك مطلقاً القيام بهذه التضحية يا جيوفاني.

- لا تقل هذه التفاهات، بالنسبة إلي أن أراك على قيد الحياة أهم بكثير من أن أهرب وأراك تغرق.

غضن جورج وجهه.

- جيوفاني، علي أن أقرّ لك شيئاً.

نظر الرجلان إلى بعضهما.

- شيء ما يثقل ضميري.

بقي جيوفاني صامتاً، متسائلاً عما كان لدى صديقه شيء يلام عليه.

- الليلة السابقة لهربنا، لم أغمض عيني تابع الفرنسي بصوت محطم.

كنت ملاحقاً بفكرة أن أخونكم وأذهب لأروي كل شيء إلى إبراهيم مقابل حريتي.

تلقي جيوفاني هذا الاعتراف بمثابة طلقة مسدس. لكنه استدرك

سريعاً وقال في نفسه، المهم أن جورج لم يضعف أمام هذا الإغراء.

- قال جورج وهو على وشك البكاء عندما أفكر أنك أنقذت حياتي

مقابل ثمن حريتك، أطلب منك الصفح، جيوفاني أنا رجل بائس.

- أنت كل شيء ولست بائساً، ردّ الإيطالي بقوة بالرغم من حالة

الإنهاك، ليس لدي شيء لأعفو عنك لأنه لا عيب فيك أو في

أفعالك.

تبادل الرجلان نظرة حارة طويلة.

دخل باولو وهو عبد روماني كان يخدم في السجن فجأة إلى المهجع

مفسحاً المجال للقليل من الهواء والضوء.

- آه، باولو، دع ذلك الباب مفتوحاً، لو سمحت! تألم جورج الذي

لم يعد بمقدوره تحمل هذه الظلمة.

- بكل سرور، أيها الرفيقان، جئت لأخبركما عن آخر الأخبار عن

شريكيكما.

أعار جورج وجيوفاني أذنهما بانتباه.

- الينشاري الذي رافقكما كان قد فصل من خدمته وسيحاكم من

قبل رؤسائه لتخلفه عن مهمته ومحاوله النكس بوعده بالعفة بأسوأ

الطرق. لا أحد يعرف ماذا سيكون مصيره، لكننا لن نراه في الوقت

القريب! أما مالك الفندق فقد حكم عليه بدفع غرامة تعادل ثمن سجينين فارين.

- وهذا الكلب مصطفى؟ سأل جورج.

- لقد احتفظت بأفضل الخبر للنهاية، تابع باولو بصوت عذب، لقد حُكِم في الديوان عليه منذ قليل بالتعرض للعذاب بالخازوق.

- يا إلهي! صاح الفرنسي.

- ماذا يعني ذلك؟ سأل جيوفاني.

سيعاقب من حيث أخطأ، أجب باولو بنوع من الفرح.

سيعلق من تحت إبطيه في أعلى مشنقة، ثم ينزل ببطء على خازوق قاطع يدخل من فتحة الشرج إلى أن يخترق كل أحشائه.

- هذا فظيع! صاح جيوفاني.

ليس أسوأ من ذلك ما كان يمارسه منذ أعوام على المسكين ييبو، تابع باولو وهو يبصق على الأرض.

- ما هو رهيب في عذاب الخازوق أنه يدوم لعدة ساعات، علق جورج. هل تعرف متى سيعطى له ذلك؟

- غداً صباحاً في باب الواد (حي في الجزائر).

- تابع الفرنسي سيسمع صراخ هذا البائس مصطفى حتى هنا.

- ومن سيستلم الحانة إذن؟ ردّد بعد لحظة من الصمت.

- أنا بالذات! هذا ما اقترح علي إبراهيم أمس مقابل إعتناقني الإسلام، وقد قبلته في الحال.

- همس جورج، الذي لم يفهم جيداً مزاج باولو، لكل مشقة عوض.

- هيا، يا أصدقائي. فأنا مدين لكما نوعاً ما بهذا الحظ. سأعرف كيف

أشكر كما على ذلك بأن أقدم لكما كل مساء عدة بتات (نصف لتر) من

الخمر الجید! الآن یجب علی أن أجد مساعداً بین الأسرى الشباب.
لا ترتكب الأخطاء نفسها التي ارتكبتها مصطفى المسکین، قال له
ذلك جیوفانی بینما كان یخرج من الباب.
- ما من خطر علیّ، فأنا أحب النساء كثيراً ویمکنني الآن التنزه بحرية
في المدينة خارج أوقات عملي!

مضت خمسة أسابيع، كما تنبأ لهم ألكساندر، لم یتمکن جورج
وجیوفانی من وضع أقدامهما علی الأرض قبل هذه المدة. كانت
خطواتهما الأولى صعبة جداً. لیس بسبب الجراح، التي اندملت، بل
بسبب عضلات الساقین اللتين لم تعملأ أبداً منذ زمن طويل ولتين لم
تعودا قادرتين علی حملهما، مدة أسبوع كامل كان علیهما أن یمشیا
داخل السجن متکین علی رفاقهما، ثم علی عكاز، قبل التوصل إلى
الحركة دون مساعدة. في هذه الفترة استدعي جیوفانی إلى الجنينة.

كانت الشمس في قبة السماء نادى المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة
الظهر. الساقان والقلب یرتجفان، وصل بصعوبة إلى قصر الباشا. لم یکن
یشک للحظة واحدة بالسبب الذي من أجله استدعاه إبراهيم. ما أن
دخل غرفة استقبال المدير، حتى جوبه بوجه الرسول اليهودي المكفهر
الذي سافر إلى إيطاليا. التزم الرجلان الصمت. دخل إبراهيم الغرفة
فوراً وحیا جیوفانی بطريقة بشوشة وبغرابة:

- آه! السيد داسكولا! إنني فرح لرؤيتك من جديد! أنا سعيد أنك
توصلت إلى الوقوف علی ساقيك. لكن لا تبق واقفاً، في هذه الحالة من
الهزال!

- انتظر جیوفانی أن یجلس الرجل لیاخذ مكانه بدوره.

- أنت تتذكر اسحق، أليس كذلك؟

- وافق جیوفانی بحركة من رأسه.

- حسناً، عاد صديقنا هذا الصباح من سفره إلى إيطاليا وقد روى لي كل ما شاهدته وسمعه وما أوصي به فيما يخص الأسرى الذين كانت له مهمة إعادة بيعهم.

بقي إبراهيم صامتاً مداعباً لحيته. ثم تابع باندهاش:

- حسناً، أنت لا تبدو متلهفاً لسماع ما لديه للقول فيما يخصك؟

- أخفض جيوفاني عينيه، فقد فهم جيداً اللعبة الماكرة التي يلعبها المدير وقرر أن يسبقه.

- أعرف أنني خنت ثقتك، أعرف أنك ستحكم علي بعقوبة أصعب من التي تعاقبتها، لكنني أعرف أيضاً أنك كنت ستصرف بالطريقة نفسها فيما لو كنت مكاني بغية تجنب سجن الأشغال الشاقة، لأنه ما من رجل لا يفعل كل شيء ليجنب نفسه مرة ثانية العودة إلى هذا الجحيم! حدق إبراهيم بالشاب، ثم تابع.

- لماذا مرة ثانية؟

- منذ عدة سنوات حكم علي بالأشغال الشاقة من قبل قضاة البندقية لأنني قتلت أحد النبلاء بالمبارزة، بينما أنا نفسي، كما فهمت، أنني لست سوى قروي بسيط. اعترف جيوفاني بذلك.

- وكيف لقروي كالأبيري أن يتمكن من النزال مع نبيل من البندقية؟ سأل إبراهيم مندهشاً.

أخفض جيوفاني عينيه من جديد:

- هنا كل حكاية حياتي البائسة التي يجب أن أقصها لك! لكن لا فائدة ترجى من هذا.

- بالعكس، مثل معظم مواطني هذا البلد، أحب القصص! هيا، اسحق دعنا لوحدنا، بما أن صديقنا يعترف بازواجيته وريائه، ليس لديك هنا ما تفعله. سأطلبك من جديد فيما لو دعت الحاجة.

بدا اليهودي ظاهرياً أنه مرتاح لتمكنه أخيراً من مغادرة الغرفة. طلب إبراهيم من عبد تقديم الشراب وطلب من جيوفاني البدء بروايته، طالباً منه بأن لا يهمل شيئاً هاماً.

للمرة الثانية في غضون عدة أشهر، يلخص جيوفاني بانفعال مجرى أحداث حياته القصيرة والتعيسة. لم ينس شيئاً مما أثر به، لا الرسالة، ولا فقدان الإيمان في المغارة، ولا الكلب الذي أنقذ حياته. بدا إبراهيم مأخوذاً بالقصة. قاطعه مرة واحدة في فترة بعد الظهر للصلاة، عاد مع طبق من الثمار الجافة وطلب من جيوفاني متابعة روايته. عندما صمت، كان الليل قد أرخى سدوله وغادر إبراهيم مرة أخرى للصلاة. عند عودته، حدث شيء نادر، فقد دعى الشاب ليشاركه عشاءه.

أثناء العشاء، طرح عليه ألف سؤال يخص الفلسفة، الفقه، والتنجيم. عندما دعا المؤذن إلى صلاة العشاء اعتذر من ضيفه، طالباً منه العودة مساء الغد ليشاركه عشاءه، ويتابع هذه النقاشات التي كانت تفتنه.

- قال له محيياً:

- لماذا لم ترو لي قصتك الحقيقية منذ البداية؟ لكنت أخرجتك من السجن وأخذتك كعبد شخصي في الجنيحة لأتحدث معك عن كل هذه الحقائق!

في مساء اليوم التالي جاء عبد يبحث عن جيوفاني ليأخذه إلى مكان إقامة مدير الباشا. أثناء تناول الطعام، تبادلنا من جديد المسائل الفلسفية والدينية التي كانت تفتن إبراهيم. استغلها جيوفاني ليسأله عن الدين الإسلامي ووجد مضيفه رغبة كبيرة في تثقيفه حول هذا الموضوع. في يوم ما بعد الغد، أخذ العبد جيوفاني مباشرة إلى شقة قريبة من شقة مدير الباشا وشرح له أنها كانت إرادة (رغبة) سيده أنك ستسكن هنا من الآن فصاعداً. ظروف حياته بدأت تتبدل من لا شيء إلى كل شيء، لأنه سيتمكن من العمل فكرياً، النوم في شقة فاخرة وحتى التنزه بحرية في الجنية. في حين لم تدخل السعادة إلى قلبه، فقد ظل سجيناً، لكن قفصه تغير فقط.

حاول جيوفاني عبثاً الحصول على الموافقة بأن يرافقه جورج، لكن إبراهيم كان مغتاضاً من الفرنسي لأنه ساعده في محاولة فراره، و متمنياً أيضاً الاحتفاظ بمحاورة المفضل لوحده فقط. مع ذلك حصل جيوفاني على الموافقة بأن يتمتع جورج بسجن مع ظروف حياتية أكثر ملاءمة. ألبس مدير الباشا عبده الجديد أبهى الثياب، وأمن له الكتب، ما يلزم للكتابة وعرض عليه حتى عبدة فتية وجميلة من المور لتخدمه وتستجيب لرغباته، ولدهشة مضيفه الكبيرة، فقد رفض جيوفاني هذا العرض الأخير.

مرّت الأسابيع، وجاءت لطافة أيام أيلول الأولى، بعد حرارة شهر آب الحانقة. بدأ النهار يقصر والليالي أضحت أكثر طراوة. ذلك الصيف الذي لم يرق لجيوفاني الذي كان يشكو من الحر القاتل داخل مهجع السجن. يمكنه من الآن فصاعداً التجول كيفما شاء في الجنيينة، التي ورثها عن سليم التومي المسكين. لم يكن القصر واسعاً جداً، لكن لديه سحراً خاصاً وجيوفاني يحب التنزه في الحدائق الرطبة الباردة والعطرة. وفي الساحات التي كانت تتوالى حتى بلوغ الشقة الخاصة لابن بربروس وحرمه.

كان ذلك المكان، الوحيد المحرم على العبيد دخوله، ولم يتمكن جيوفاني أبداً أن يشاهد أو يلمح واحدة من نساء الجزائر الكثيرات، اللواتي كن مراقبات ومحروسات بشدة من عشرات من المخصيين.

تباعدت المناقشات بين إبراهيم وجيوفاني لانشغال مدير الباشا بمهمته، لكن لم يمض ثلاثة أو أربعة أيام إلا ويدعو الفتى ليشركه عشاءه. كان جيوفاني مفتوناً بتقوى وتدين مدير الباشا، الذي يتقيد حرفياً بأركان الإسلام الخمسة: فقد أعلن إيمانه بوحداية الله، ملتزماً بالصلوات الخمس اليومية، يحسن إلى الفقراء (الزكاة)، قام بتأدية مناسك الحج إلى مكة، مرتين ويؤكد له العبيد أنه يصوم بشكل صارم خلال شهر رمضان.

في مساء أحد الأيام، عند الانتهاء من العشاء، عرض إبراهيم على جيوفاني اقتراحاً غريباً.

- سأغادر غداً لمقابلة سيدي الروحي الذي يسكن على مسافة يومين ممتطياً الجواد من هنا، على الطريق المؤدية إلى تلمسان. إنه متصوف كبير، هل ترغب في مرافقتي؟
- ماذا يعني الصوفي؟ سأل جيوفاني.

- الصوفية هي فرع متزهّد من الإسلام. عاش بعض الرجال غير المثقفين بعد وفاة النبي بقليل تجارب روحية شديدة. فأسرع الناس لرؤيتهم نظراً لأن قدسيّتهم بدت واضحة للعيان. أسس العديد منهم إخوانيات أو تعاليم المعلّم (السيد) ويمارسون العديد من الفنون المقدسة والتمارين الروحية. تعرّض بعض الصوفيين للاضطهاد من العلماء فقهاء الشرع، لأن لهم كامل الحرية في تقديم خطاب يبدو أحياناً في تناقض مع الأنظمة الدينية التقليدية.

معلّم الروحي هو صوفي كبير أسس «طريقة» في مدينة صغيرة بين الجزائر (المدينة) وتلمسان.

- ساكون سعيداً بمرافقتك ومقابلة معلّمك، لكن هل أنت أكيد أنه لن يكون منزعجاً بسبب وجود مسيحي؟
ضحك إبراهيم عالياً.

- سيكون أكثر بسبب وجود قاض أو عالم! معلّمي لا يفرّق بين الناس ويحب اللقاء بكل الباحثين عن الله، مهما كانت دياناتهم.

في صباح اليوم التالي، دون أي مواكبة، سلك إبراهيم وجيوفاني طريق تلمسان، امتطوا الخيل طوال يومين متتاليين. عند وصولهم إلى «الطريقة» رحب بهما شاب واصطحبهما إلى غرفة حيث يمكن للضيوف تناول الطعام فيها.

فوجئ جيوفاني بالملامح البشوشة لتلامذة الشيخ سليم العقبة. كانت الأغلبية فتيان شبان يرتدون جميعاً لباساً أبيض من القطن. بعد أن تناولا الطعام دعي المدعوان لحضور صلاة المساء. بالرغم من كونه مسيحياً لم يخيب ذلك، فقد سُمح لجيوفاني بالدخول إلى المسجد الصغير التابع للطريقة.

نزع حذاءيه وبقي في مؤخرة البناء، قرابة الخمسون من التلامذة وما

يقرب العشرة من الضيوف حضروا الاحتفال الذي كان يتناوب مع صلاة صافية، قراءة سور من القرآن وتراويل مرفوقة بكمان أو قيثارة التي أثرت في جيوفاني بسبب جمالها. أمضى إبراهيم والشاب الإيطالي الليل في منامة الطريقة.

جميع الضيوف، مهما كان أصلهم الاجتماعي كانوا يعاملون بالطريقة نفسها في صلاة نوم واسعة دون رفاهية أو رغد عيش.

في الغد، بعد صلاة الفجر مباشرة، دعي إبراهيم للذهاب إلى المعلم الصوفي. اقترح على جيوفاني انتظاره في باحة الطريقة المليئة بالأزهار. بعد ساعتين طويلتين، جاء تلميذ يبحث عن الإيطالي وأدخله إلى غرفة الشيخ سليم الصغيرة.

المعلم، رجل مسن متوسط القامة، ضعيف الوجه دون لحية، نظرتة زرقاء صافية مضيئة. استقبل جيوفاني بابتسامة عريضة:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. أجاب جيوفاني الذي بدأ يعتاد على التحية العربية.

- مرحباً بك يا ولدي.

- شكراً لك يا سيدي.

- الله يحفظك!

أدار جيوفاني رأسه نحو إبراهيم الذي قرأ في عينيه أن ليس بمقدوره الذهاب بعيداً في الحديث. فهم الصوفي الوضع وذهب في ضحكة كبيرة منفتحة، ثم سأل جيوفاني بالعربية وقام إبراهيم بالترجمة إلى الإيطالية. طول قرابة النصف ساعة من الزمن، كانت المحادثة تدور حول حياة جيوفاني ووضعه كعبد، وعن بلده، ودينه وتكوينه الفكري والروحي، ثم طلب إبراهيم من جيوفاني فيما إذا كان لديه سؤال

ليطرحه على المعلم. وبما أنه كان مستعداً لهذا اللقاء، فقد ردّ جيوفاني دون تردد.

- ما هو برأيك الداء الأكبر الذي يسكن قلب الإنسان والذي يستطيع ان يكبحه في دربه الروحي؟

القي الحكيم على محدثيه نظرة مشفوعة بابتسامة ساخرة.

- ما هو رأيك أنت؟

- التبجح والزهو والكبرياء.

توجهت الأنظار نحو جيوفاني الذي كان قد احتفظ بالصمت .

- الخوف، أقرّ الشاب.

- كلّ أجاب حسب قلبه تابع المسلم المتزهد.

ضحك الجميع من كل قلبهم.

- مع ذلك، إذا كان الجوابان صحيحان، فإن جواب صديقنا الشاب قد يكون أكثر انتشاراً عالمياً. لأن الخوف يسكن كل القلوب دون استثناء، في حين أن نفوس بعض الناس خالية من الكبرياء والزهو.

نظر الصوفي في عيني جيوفاني.

- هل تعرف ما هو خوفنا الأكبر؟

فوجئ جيوفاني بهذا السؤال، فكّر للحظات.

- الخوف من الموت، على ما يبدو لي.

بقي العجوز صامتاً قبل أن يتابع بصوت منخفض وواثق في آن

واحد:

- أبدأ! ففر إبراهيم مندهشاً. مهما كانت الحياة مؤلمة، أليست هي

أعز ما لدينا؟ تتعلق بها جميعاً بحماس.

- نعم، تتعلق بها، لكننا لا نعيشها. أو على الأصح، نحن نتمسك بالوجود. الوجود واقع. أما ان تعيش فذلك فن .
- ماذا تريد أن تقول؟ سأل جيوفاني.

- هذا الشيء بسيط جداً! دون أن يطلب منا رأينا، الله خلقنا: أعطانا الوجود. إذن نحن موجودون. هذا واقع ولا نقدر أن نغير فيه شيئاً. الآن يجب علينا أن نعيش. وهنا، نحن معنيون، لأننا مدعوون لوفاء الصانعين حياتنا. مثل عمل فني، بداية نريده، ثم نتخيله، ونفكر فيه، وأخيراً ننجزه، ونضع نموذجاً لنحتة، وهذا من خلال كل الأحداث السعيدة والتعيسة، التي تحدث دون أن تتمكن من فعل أي شيء. نتعلم الحياة، كما نتعلم التفلسف أو الطبخ، والزري الأفضل في الحياة، هو الحياة نفسها والخبرة التي يمكننا أخذها منها.

- أفهم ذلك. لكن في أي شيء نخاف الحياة؟

- نخاف من الانفتاح كلياً على الحياة، وتلقي دفقها العنيف. نفضل التحكم بوجودنا بسلوك حياة ضيقة، مصّواة، مع أقل المفاجآت الممكنة. هذا صحيح في البيوت المتواضعة كما في القصور! الكائن البشري يخاف الحياة وهو دائماً يبحث عن أمان الوجود، يبحث في نهاية المطاف عن البقاء حياً أكثر منه عن العيش. بيد أن البقاء حياً (النجاة أو الصمود) هو أن نوجد ولا نعيش... وهذا يعني الموت المبكر.

نظر الحكيم إلى محدثيه بابتسامة عريضه ثم تابع:

- الانتقال من التغلب على الموت والبقاء حياً إلى الحياة فهو واحد من الأشياء الأكثر صعوبة! أليس من الصعب والمرعب قبول أن نكون خالقي حياتنا! نحن نفضل الحياة مثل النعاج دون تفكير، دون مخاطرة دون تجرؤ على الذهاب نحو أحلامنا الأكثر عمقاً، والتي هي، مع ذلك أفضل أسباب الحياة ودواعيها.

أكد أنت موجود، يا صديقي الشاب، لكن السؤال الذي يجب أن تطرحه على نفسك هو: هل أنا حي؟

وجد جيوفاني في كلام الحكيم الذي كان إبراهيم يترجمه له تدريجاً صدى عميقاً. فكر أنه في الماضي، عندما غادر قريته ليجد إيلينا، اختار الحياة. لقد تخلى عن أمن وفرته له حياة هادئة ليتبع أحلامه، وليتبع قلبه. اتخذ قراراً هاماً، واجه المخاطر، ولكنه وثق بالحياة التي قدمت له هدايا لا تقدر بثمن: وضعت على طريقه بيترو وسيده المعلم لوسيوس. سمحت له بحب إيلينا. لكنه أفسد كل شيء عندما قتل هذا الرجل. ثم إنه التحق بدير، دون شك ليهرب من الحياة. لأنه كان خائفاً من ذاته. وما السبب الذي أصبح من أجله عبثاً؟ لأنه أبحر على سفينة بهدف الثأر. إلا تعكس حالته الحالية حالة قلبه الداخلية؟ وكان أيضاً عبداً لأهوائه؟ نعم، قد يرفض الحياة ليسلك طريق الموت، منذ مغادرته البندقية وافتراقه عن إيلينا ألم يتوقف عن كونه حياً.

أجاب جيوفاني الحكيم بابتسامة، كانت تقول كلاماً أطول بكثير من كل الكلام. ثم طرح عليه سؤالاً آخر:

- عرفت في جبل آتوس ناسكاً روسياً منفرداً عظيماً يؤكد على أن الهدف الأخير في الحياة البشرية هو تأليه (التمجيد) الإنسان. هل تشارك هذه القناعة؟

- طبعاً. أحد أكبر المعلمين الصوفيين، الحلاج مثلاً، صُلب، لأنه صرخ بملء صوته: «أنا إله، أنا إله!» وكان محقاً كليةً! إرادة ذلك الذي هو كل شيء في الله فهي لا تضع إلا واحداً بإرادة الله. المسلم الصوفي يبشر بالشيء نفسه الذي يبشر به الصوفي اليهودي أو المسيحي. لكن هذا لا يمكن أن يقال على الجميع، لأن الحياة الصوفية هي طريقة خطيرة وعرة.

- قطب جيوفاني جبينه كإشارة استفهام.

- خطيرة بالنسبة الى الذين لديهم العقل والذهن الهش. يعتقدون أنهم أصبحوا آلهة في حين هم ببساطة مختلو العقل! وخطيرة أيضاً بالنسبة للفقهاء (دكاترة التشريع) المرشعين الذين لا يحبون أولئك الذين يعيشون التجربة الإلهية ويحتجون على قراراتهم التشريعية!.

ضحك الحكيم مرة أخرى بطريقة فيها فرح وتواصل.

ثم طرح إبراهيم، بدوره سؤالاً كان يحز في قلبه:

- إذا كان ذلك هو هدف الحياة الروحية، فما هو أفضل السبل إليها؟ هذا السبيل الذي، مهما كانت ديانتنا، يقودنا بصورة مؤكدة إلى الهدف؟

- أجاب الحكيم: ما رأيك أنت في هذا؟

- محبة الله واحترام وصاياه، أجاب إبراهيم بغفوية.

- طبعاً، لكنك تتكلم هنا من طريق الرجل المتدين.

إن طريق الرجل الروحي أوسع وأبسط. فهو يعني المؤمنين وغير المؤمنين. اليهود والمسيحيين والمسلمين والوثنيين. هذا الطريق ليس موصوفاً في أي كتاب أو أي دين، لكنه يدرك في القمة أفضل المسالك الموصوفة في الكتب المقدسة. يمكننا سلوكها جميعاً: رجالاً ونساء وأطفالاً، أغنياء وفقراء.

تناظر إبراهيم وجيوفاني. فلم يكن لديهم أي فكرة عما سيقوله لهم الصوفي. حذق الصوفي نظره من فوق وجه جيوفاني، كما لو كان ينظر إلى شيء في البعيد ثم تابع بصوت بطيء وهادئ:

- أترون يا أصدقائي، إن جوهر الحياة الروحية ليس بالمعرفة الجيدة للتوراة والإنجيل أو القرآن، وعبادة الله حسب أحكام الدين. ليس الذهاب كل يوم بإخلاص إلى الكنيسة أو إلى الجامع أو تلاوة الصلاة أو التراتيل. كل هذا جيد، لكن جوهر الحياة الروحية تكمن في فضيلة

الدين. كنا أنه لا يمكن العيش وفق القواعد الصالحة والقيام بالواجب وعدم ارتكاب الاخطاء. هذا، مهم جداً، لكن الأكثر أهمية منه الأخلاق. إن جوهر الحياة الروحية أبعد من الأخلاق والدين. هو في الوقت نفسه أبسط وأكثر صعوبة في إنجازه. جوهر الحياة الروحية... هو القول نعم إلى الحياة. ليس بصورة منقادة لكن بثقة وحب. هكذا نحن نميز حضور الله المنجأ في قلب كل حدث.

أنا حائك من حيث المهنة، وعلى كل إنسان أن يتعلم الثقة من الحياكين.

كل واحد، عبر حياته يحبك النسيج بصورة معكوسة لا يرى سوى خيطه وإبرته. إن جمال صناعة السجاد لا يتجلى إلا بعد الانتهاء ومراجعة العمل. تظهر عندئذ صورة أن الله وحده كان يعرفها والتي لا يمكننا الشك بشكلها أو بروعتها. الثقة بهذا المستقبل الذي بدئ العمل به هو محرك الطريق الروحية. والأساس فيه هو الانفتاح على الحياة وإلى ما تقدمه لنا من صالح يبدو ظاهرياً أقل جودة.

جميع أجوبتنا على أحداث الحياة، أكانت موحى بها من قلوبنا، أو من ديننا أو أخلاقنا، ومهما كانت صغيرة، فهي ترسم ملامح شكل غامض يتجاوزنا ولا ندرك معناه إلا بعد موتنا... عندما نكون أخيراً في أحضان الله. عندئذ لن يكون هناك سوى الحب.

VI

الزهراء

خلال الأسابيع التي تلت، ظل جيوفاني يفكر بكلام الحكيم المسلم. الذي وجد صدقاً في أعماق نفسه والأسئلة التي كان يظن أنها مدفونة إلى الأبد عادت وطفقت على سطح ضميره.

عاد وانكب على الدراسة بشكل أكبر، طالباً من إبراهيم أن يؤمن له بعض المؤلفات الفلسفية باللغة اللاتينية أو اليونانية، وكذلك كتاب التوراة. ورغم كونه متردداً فيما يخص إدخال كتاب الكفار إلى قصر الباشا، فقد وافق إبراهيم على طلبات محميه، الذي كان يحبه ويعجب به، قائلاً أن القرآن نفسه كان يذكر الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين في مقاطع عديدة. بفعله هذا لم يكن مدير الباشا يعرف أنه سيعطي أعداءه السياسيين الذريعة الأخيرة التي كانوا ينتظرونها ليسرعوا في سقوطه.

بعد عدة أيام من تسليمه توراة لاتينية وهي نفسها التي تركها قبل ذلك بعدة أشهر الراهب الكابوشيني الذي روى جورج خيانتة، أوقف جيوفاني في شقته من قبل قائد الإنشارين، واستولى على التوراة، ثم قاد جيوفاني أمامه إلى الديوان، مجلس الباشا ولشد ما كانت دهشته عندما تحقق أن إبراهيم غائباً عن المجلس، بينما كان أحد أهم أعضائه. وهو حسن ابن بروس، جالساً في الوسط. ورجل فارغ القامة اسمه رشيد بن حمرون، بادر بالكلام وأخذ يسأل جيوفاني باللغة الإيطالية ويترجم جوابه إلى العربية.

فهم جيوفاني بسرعة أسباب غياب إبراهيم، كان سيده في الواقع متهماً من قبل بعض أعضاء الديوان، ومنهم رشيد، بالإعداد لانقلاب ضد الباشا. لدعم أقوالهم، فإن متهمي مدير الباشا حاولوا إفقاد الثقة بخصمهم بكل الوسائل. هناك سببان برّرا وجود جيوفاني: المتآمرون يحاولون الإثبات إلى الباشا أن إبراهيم كان مسلماً تافهاً لا قيمة له، لأنه يمضي العديد من الأمسيات بصحبة ذلك العبد المسيحي الذي من أجله، يا للكفر، قدّم له على الفور هدية هي الكتاب المقدس لدى الكفار! التهجّم عليه لم يقتصر على الدين، بل انحوا إلى أن وجود جيوفاني عند إبراهيم كان مدفوعاً باعتبارات أخرى ذات طابع شهواني. احتج جيوفاني بشدة، لكن متهميه لم يتوانوا عن تذكيره بحادث هربه مع الفتى بيو، ونقلوا إلى الباشا الشهادة التي أمليت على محمد الينشاري الذي كان يؤكد أنه حضر قبل الفرار إلى جلسة ممارسة الحب الشنيع بين جيوفاني والفتى. أجاب جيوفاني أن كل هذا لم يكن سوى محض كذب واقتراء وذكر الأسباب الحقيقية التي من أجلها اقترح على الصبي أن يرافقهم في فرارهم. لكن عندما طلب منه لماذا رفض خدمة فتاة، كان أكثر تردداً في جوابه. قال للباشا أنه ما زال يحمل في قلبه حب امرأة أخرى، التي لم يرها منذ وقت. المستحيل بالنسبة له أن يلهو مع عبدة.

أكد أيضاً أنه كان ضد مبدأ الرّق وإن لم يتمكن من إجراء علاقات جسدية مع امرأة لا حول لها ولا قوة. عندما ترجم كلامه ارتسمت على وجوه الكثيرين من أعضاء الديوان ابتسامة عريضة هازئة وفهم جيوفاني أن جوابه لم يكن مقنعاً.

بعد نصف ساعة من التحقيق، لم يعاد إلى شقته، بل مباشرة إلى السجن في غرفة منفردة حيث ربط بالسلاسل بقوة.

هكذا قضى عدة أيام، دون أن يرى النور، لا يأكل سوى البسكويت

العفن ويشرب الماء الآسن.

في اليوم الخامس، اقتيد إلى الجنيئة. فهم من السلاسل الثقيلة التي وضعت في قدميه، أن إبراهيم نحّي من منصبه.

في الحال، استقبله في مكتب مدير الباشا الرجل الذي أكال ضدّ سيده الاتهم أمام الديوان. استقبله رشيد بن حمرون بازدراء وتكلم دون مواربة:

سيّدك السابق سافر أمس إلى القسطنطينية قصد محاسبته أمام السلطان عن لعبته المزروجة التي جعلته متواطئاً مع المسيحيين وأعدائنا. - أنا متأكد أن إبراهيم كان موالياً تماماً تجاه الدين والباشا.

- اخرس! كافر كلب! تابع رشيد بقوة. أنت تشكل جزءاً من أولئك الذين أفسدوا روحه. بانتظار محاكمته في ديوان القسطنطينية، فقد صادر الباشا جميع أملاكه. ولدي حق التصرف، وبمكنتني إعدامك في هذه اللحظة، فيما لو كانت هذه إرادتي.

كانت عيون رشيد السوداء تبرقان. فهم جيوفاني أن هذا الرجل لم يكن يحب شيئاً أكثر من السلطة وعليه انتظار اللحظة التي تمكنه أخيراً الاستيلاء على مسؤولية وأملاك مساعد الباشا الأيمن.

- ما الذي تنوي فعله بي، بما أنني عبدك؟

ابتسم رشيد ونادى على عبد أسود الذي جلب له ورقة وريشة وضعها أمام جيوفاني.

- لا أطلب منك سوى شيئاً واحداً، بعد ذلك يمكنك العودة إلى شقتك، كتبك، باستثناء التوراة والحرية داخل الجنيئة.

نظر جيوفاني إلى رشيد محذقاً.

- اكتب انك كنت تمارس الحب الفاحش مع سيّدك السابق، ثم اكتب أنك نادم على أفعالك السابقة، وانك تثبت ذلك بإنكار إيمانك المسيحي واعتناقك الإسلام، الدين الوحيد الصحيح.

أخفض جيوفاني عينيه ببطء ثم أمسك الورقة والريشة.
فكر لبضع لحظات، ثم كتب بعض الأسطر بالايطالية. رفع عينيه
وأعطى الورقة إلى رشيد الذي أخذها بفرح دون تصنع. دنا المدير
الجديد للباشا من النافذة وقرأ اعتراف جيوفاني:

- «أنا جيوفاني تراتوري، عبد مدير الباشا إبراهيم بن علي التاجر،
أشهد بالأخلاق الفضيلة العالية والإخلاص الكامل لسيدي حيال
الباشا، السلطان، والرسول. وأؤكد أيضاً تعلقي بالدين المسيحي بآبائي
واحترامي لكل الديانات الأخرى، مثل الإسلام الذي ينادي باحترام
كلمة الشرف، وصحة الأفعال، ويذكر أن الله هو كامل الرحمة».

ارتجف رشيد حنقاً وغضباً لدى قراءته الرسالة. بقي صامتاً لبضع
لحظات ثم استدار نحو الأسير. ثم أمسك شمعة وأحرق الورقة أمامه
وهو يوبخ ويؤنب بصوت مرتفع:

- من أنت لتعطيني دروساً؟ يمكنني أن أخوزقك في هذه اللحظة
بسبب ما أتيت على كتابته!

احمر وجه رشيد وبدت عيناه وكأنهما تلفظان الحناجر. مع ذلك
تمكن من استعادة هدوئه وتابع بنبرة أكثر اتزاناً:

- لكن يجب أن لا أستسلم للغضب، بل سأكتفي بتطبيق العقوبة التي
كان على سلفي أن يطبقها عليك حسب عاداتنا، لأنك كذبت حول
ظروف معيشتك التي تعادل محاولة الفرار. سبق أن حاولت الفرار للمرة
الثانية: فيجب بتر أحد الأطراف! سأكون فرحاً فيما لو كانت اليد اليمنى،
التي تحب الكتابة بها، والتي بواسطتها أتيت على كتابة هذا التصريح.

بعد ذلك بيومين، بعد النداء الأول إلى الصلاة بوقت قصير، عُرض
جيوفاني في الساحة الكبرى، التي تلقى فيها عقوبة الضرب بالعصي قبل
ذلك بعدة أشهر.

وضعت منصة صغيرة من الخشب ليكون عذابه مرثياً من الجميع.

كان يقف على المنصة مكبلاً بالسلاسل، محاطاً بينشارين قوين. وضعت كتابة عند قدميه تحدد وقت تنفيذ العقوبة: بعد صلاة الظهر مباشرة. للمرة الثالثة في حياته كان جيوفاني يجد نفسه معرضاً إلى عقوبة أمام الجمهور. غير أن هذه العقوبة كانت تحدث فيه رعباً شديداً تعافى من ضرب السياط والعصي. لكن فكرة، فقدان يده اليمنى إلى الابد والآلام الفورية لذلك البتر، كانت تقلقه بعمق. حاول أن لا يظهر شيئاً أمام المتسكعين الذين كانوا يتزاحمون أمام المنصة لمشاهدة هيئة المحكوم عليه، لكن روحه كانت غارقة في ظلمات عميقة. فكر بإيلينا من جديد، بالله، بالقدر، بلونا. تبدو الآن حياته كأنها فوضى. لماذا الحصول على كم كبير من المعرفة، الحب والحقائق السامية للوصول إلى هذا الدرك. كان يعرف أنه يوشك إنهاء أيامه هنا ببؤس كعبد. وعبد متبور يوكل إليه المهام الأكثر انحطاطاً داخل السجن.

مرة أخرى، شعر بنفسه وحيداً في العالم ويائساً.

كلمات المزمور كان يرددتها يومياً في الدير عادت فجأة إلى ذاكرته. بالرغم من أن هذه الكلمات لم تعد محمولة بالإيمان الذي كان يحركه سابقاً، تركها تنساب على شفتيه، باللغة اليونانية حيث اعتاد على تلاوتها: «من أعماق الهوة أتضرع إليك أيها الأزلي، إلهي اسمع صوتي، ولتكن أذناك صاغيتان لصوت تضرعاتي! إذا كنت تحتفظ بذكرى الخطايا، أيها الأزلي عندئذ فمن سيبقي؟ لكن المغفرة توجد لديك لكي نخشاك. أمل بالأزلي، نفسي تأمل وأنتظر وعد».

سالت الدموع على خديه وتوقف. صوت جاء من الجموع عند أسفل المنصة، كان هناك يتابع المزمور باللغة اليونانية: «يا نفس انتظري الأزلي، أكثر مما ينتظر الساهرون الفجر. إسرائيل، ضعي أملك بالله لأن الرحمة والعطف هما إلى جانب الأزلي والخلاص

أمامه بوفرة. هو الذي يفدي إسرائيل عن كل خطاياها..».

فتش جيوفاني مندهشاً بعينيه بين الجموع عن الذي يردد هذا الكلام. كان ذلك صوت امرأة. فقد شاهد الكثيرات، لكنها كانت محجبة لأنه لم يكن لديها الحق بإظهار وجهها إلى محكوم. فتش جيوفاني عن عينيها، فأخذ بجمال نظرتها، المحتشمة والحادة محتبئة خلف شال أزرق.

الفتاة ذات العينين الواسعتين السوداوين كاللوز، حدقت به بنظرات حارقة ثم أخفضت رأسها وغادرت المكان.

أعاد هذا الحدث شيئاً من البلسم إلى قلب جيوفاني، حقاً هناك من أشفق على عقوبته، لكن من؟ وخاصة أية امرأة عربية يمكنها معرفة المزمور اليوناني عن ظهر قلب؟

شغل هذا اللغز لبعض الوقت الذهن المعذب الكالابري، الذي لم يكن سوى على بعد ساعة واحدة من تنفيذ العقوبة الرهيبة.

قريباً وحسب العادة، سيوتى بمئات أسرى السجن الذي فرّ منه جيوفاني. العقوبات العلنية كانت «أمثولة» هدفها منع أي محاولة أخرى. فتش جيوفاني عن جورج بعينيه، بدا له أنه تعرف على الفرنسي عن بعد، لكنه لم يكن متأكداً من ذلك. قال في نفسه معزياً، على الأقل سأعود وأجد رفيقي في السجن.

نادى المؤذن المؤمنين إلى الصلاة وفرغت الساحة في لحظات.

صمت الموت خيم قرابة عشر دقائق.

ثم عاد الجمع بأعداد كبيرة. جاء رشيد بن حمرون بنفسه ليحضر العقوبة. وضعت له للمناسبة كرسيّاً مريحاً إلى جانب المنصة. لكنه فضل البقاء واقفاً. وضع ينشاريان جيوفاني على ركبتيه. أحدهما ثبت خاصرتيه والآخر وضع يده في «فلقة» معدة لهذه العقوبة الجديدة.

أدخلت يد جيوفاني داخل الخشب إلى أن توقفت عند وسط القبضة. ثم وضعت الفلقة على قاعدة خشبية.. تركيان آخران كانا يمسكان بأطرافه بينما الينشاري يمسك مؤخرة رقبة جيوفاني بشدة لكي لا يتحرك. أشار رشيد إلى الجلاد، مزوداً بفأس قاطعة فراعة ذات قبضة قصيرة. صعد تركي مربع إلى المنصة، وقف إلى الناحية اليسرى من القاعدة الخشبية وحدق بيد الكلابري التي تتجاوز «الفلقة»، أخذ شهيقاً عميقاً ورفع الفراعة ببطء نحو السماء، أغمض جيوفاني عينيه.

- الرحمة بالأسير! صرخ صوت رجل آت من الجمع.
 رداً على هذه الكلمات، أشار رشيد إلى الجلاد بإيقاف التنفيذ.
 - من طلب بالعفو عن المحكوم؟ صاح بدوره مدير الباشا وهو
 يتفحص الحضور بنظرته السوداء.
 خرج رجل من الجموع، كان معروفاً لديهم إنه، محمد اللطيف من
 المور ومن أغنى التجار الجزائريين.
 تقدّم ببطء من رشيد الذي تعرف عليه.
 - آمل أن يكون لديك سبب وجيه لتوقف عمل العدالة هذا؟ سأله
 رجل الجنينة الجديد القوي.
 - أفضل ما يكون!
 كان رشيد ينتظر، العين مليئة بالحنق.
 - هذا الأسير يهمني، اقترح عليك افتدائه.
 - أنت تعرف العادات من أجل افتدائه محكوم؟ اندهش رشيد.
 - عشرة أضعاف ثمنه، أليس كذلك؟
 - غض رشيد عينيه وبدأ يدرك وجود عملية مربحة.
 - هذا صحيح.
 - وما هو ثمنه؟

فكر رشيد للحظات.

قبل زوال حظوته، كان إبراهيم بن علي التاجر قد قدّر ثمنه بمئة دوكات ذهباً.

داعب محمد لحيته ببطء وتابع مبتسماً:

أعرف هذا، لكنني أعرف أيضاً، مثلك أن العبد قد كذب حول اسمه وثروته، وهذا ما سبب له هذه العقوبة الثانية. قل لي إذن المبلغ الذي تقدّره ثمناً لعبد مسيحي، دون ثروة (معدم)، نحن هنا نتعامل جميعاً كتجار نوعاً ما، تابع وهو يمد بصره نحو الجمهور وستعرف كيف نقدّر صحة ثمنك.

أمام هذه الكلمات، همسّ هازئ عمّ الجمهور. المساومة بين المدير الجديد للباشا والتاجر الموري بدت مشوقة. انزعج رشيد من ذلك لكنه لا يقدر أن يقلت من هذا الأخذ والعطاء الذي يشكل جزءاً من العادات الأكثر تجذراً.

- ثمن هذا الرجل يساوي أكثر بكثير عما تقدره! إنه بحائثة يتكلم العديد من اللغات القديمة وبالرغم من كذبه، كان إبراهيم قد أخرجه من السجن ليجعل منه عبده الشخصي. كان يقدر من ناحية أخرى صحبته وميزاته الفكرية لدرجة أنه كان يتناول طعام العشاء عدة مرات في الأسبوع معه على انفراد.

- تبدو أنك أقل إدراكاً وتقبلاً لميزاته الفكرية، لأنك أعدته إلى السجن! هزئ محمد.

ضحكة ساخرة عمت الجموع، كان رشيد مغتاضاً لكنه يحاول بأن لا يظهر حيرته وغضبه.

- لدي أشياء أخرى لأخدم معلّمي من أن أهتم بديانة الكفار.

- لا أشك بذلك، إذن بكم تقدّر ثمن كافر ثرثار؟

- ليس أقل من سبعين دوكات من الذهب.

تصاعدت الضحكات عالياً من الجمع، ذلك أن المبلغ كبير بالنسبة إلى الرجل لا أمل بالحصول على فدية له، عبد مسيحي شاب ومتمين البنية يمكن العثور عليه بعشر دوكات.

- لديك أيضاً اعتباراً كبيراً لهذا الكلب الكافر.

هيا، لنكن واقعيين. إن ثمنه في أقصى حد، نظراً لثقافته خمسة عشر أو عشرين دوكات من الذهب، ولا تنسَ أنني أقدم لك عشرة أضعاف السعر، أي مئتي دوكات!

- لا أنزل تحت خمسمائة دوكات صاح المدير بصرامة. إذا لم تكن موافقاً، عد إلى الجمع ودعني أمر بقطع يده قبل أن أعيده إلى السجن.

- ستكون مديراً جيداً يا رشيد بن حمرون! لكنني أبدأ بالتعب والضجر من تبجحائك. هذا العبد يهمني، لكن ليس بأي ثمن. أقدم لك العرض الأخير ثلاثمائة دوكا قطعاً ذهبية رنانة!

- أعطني أربعماية دوكا وسيكون هذا الرجل لك وإلا سأمر في هذه اللحظة الجلاد بالقيام بعمله.

كان محمد اللطيف يعرف أن المدير، لكي لا يفقد ماء الوجه، لن ينزل تحت هذا السعر. سلّم عليه، فتبعه ثلاث عبيد كان أحدهم يحمل صندوقاً ثقيلاً. وضعه عند قدمي سيده دون أن يترك رشيد بنظرة. أمره محمد بأن يعد أربعماية قطعة ويعطيها إلى المدير.

أمام هذه الكلمات، همس قوي عمّ الحضور. لأي سبب محمد اللطيف الذي كان تاجراً ماهراً، يمكن له أن يدفع هذا المبلغ لعبد مسيحي، حتى ولو كان عالماً؟

طلب رشيد بن حمرون من أحد الإنشاريين بأن يعد المبلغ مع العبد، ثم أمر الحرس بتحرير جيوفاني. نزل الكلابري ببطء درجات المنصة

تحت أنظار الجموع المندهشة. اقتيد إلى سيّده الجديد الذي حدق به دون أي كلمة.

- ماذا تريد أن تفعل به؟ سأل رشيد.

- لا أعرف بعد، تنظيف الاسطبلات؟

- بهذا الثمن يمكنك أن تطلب منه قراءة التوراة لجيادك. ضحك الجمع عالياً، وابتسم محمد.

طلب أن ينزع الحديد والسلسلة من قدم عبده الجديد ثم شق طريقاً وسط الفضوليين وعاد إلى منزله مصحوباً بجيوفاني وحاشيته. كان التاجر الثري يقطن مسكناً فخماً في القصة، لديه أربع نساء ويملك ما يقرب من ثلاثين عبداً. ما أن وصل إلى منزله، اقترح على جيوفاني أن يجلس على ديوان مريح وقدم له الغذاء والشراب.

- لماذا فعلت هذا؟ توصل جيوفاني إلى سؤاله عن ذلك وهو يرتجف، بعد أن تناول كأساً كبيرة من الماء البارد.

ابتسم الرجل.

- لقد كنت أول من اندهش؟

- كيف لا أكون كذلك؟ لم أتعافى بعد شكراً لك.

- أنا بنفسى لم أتعافى من كوني اشتريتك بذلك المبلغ من اللص أمام كل المدينة التي ترتعد.

منذ الغد سيحاول مؤرّدي مضاعفة أسعارهم بأربعة أو خمسة! يلزمني عدة أسابيع لكي أشفى من تلك الصفقة!

أطرح عليك سؤالاً من جديد: لماذا اشتريتنى بهذا السعر المرتفع؟

- لقد فهمت جيداً، من أمرني بشرائك قال لي بالحرف: «مهما كان

الثمن «السعر».

- تريد القول أنك لم تفتديني لنفسك؟ فهقه محمد ضاحكاً كالرعد.

- ماذا تريد أن أفعل بعبد يؤدي إلى الإفلاس بهذا القدر، مثقف وعلامة فضلاً عن ذلك، أنا الذي لا يهتم إلا بتجارة التوابل؟

- أنا.. أنا لا أفهم.. من إذن طلب منك اقتدائي؟

- صديقي ألعازر.

- لأي سبب؟ تابع جيوفاني بعد صمت.

- لا أعرف عن ذلك شيئاً مطلقاً! قبل تعذيبك بأقل من عشر دقائق، أرسل لي أكثر خدمة إخلاصاً ليطلب مني الذهاب في الحال لاقتدائك من مدير الباشا قبل أن تقطع يدك. «مهما كان السعر»، شدّد التاجر المور مرة أخرى.

- لماذا لم يذهب ألعازر بنفسه إلى عين المكان ليفاوض اقتدائي؟

- لأنه يهودي.

فتح جيوفاني عينيه مبدياً عدم فهمه.

- ألا تعرف أنه، في الإمبراطورية العثمانية، ليس لليهود الحق باقتداء الأسرى المسيحيين؟ تابع محمد.

كان جيوفاني يستعيد شيئاً فشيئاً قواه العقلية. لكنه لم يكن يفهم شيئاً. رجل لم يكن يعرفه اقتداه بثمان لا بأس به بكل وضوح، قصد تجنيبه قطع يده، لأي غاية؟

ماذا كان سيطلب منه؟

- أفهم أنك تتساءل، تابع محمد. أنا بالذات أنتظر بفارغ الصبر مقابلة العازر ليشرح لي أسبابه. لأنه، دون أن أقصد الإساءة لك، فإنك لا تساوي عشر المبلغ الذي اقتديت به.

ابتسم جيوفاني:

- أنا مقتنع جداً بذلك.

بعد أن سكّن ظمأه، اقتيد جيوفاني إلى بهو صغير حيث ألبس جلابية

بنية اللون. طلب منه محمد وضع قلنسوته وشرح له أنه سيؤخذ سراً إلى سيده الفعلي.

حيّاه وسلّمه إلى ثلاثة من الرقيق الذين قادوا جيوفاني عبر القصبية. صعدوا إلى أعالي المدينة القديمة في الحي اليهودي: كانت الشوارع ضيقة وقذرة. الأولاد الذين يلهون خارجاً كانت ثيابهم مذرية. قرع رجال محمد على الباب الصغير المدهون بالأزرق.

لاحظ جيوفاني وجود جسم غريب مثبت على مستوى عينيه على القائمة اليمنى للباب. رجل أسود اللون في الأربعين من عمره تقريباً، متشحاً بالبياض، جاء ليفتح. أشار إلى جيوفاني بالدخول تحت السقيفة الموجودة فوق الباب وصرف الأدلاء بإشارة من رأسه.

ما أن دخل صحن الدار، حتى نزع جيوفاني قلنسوته، تقدم رجل منه وعرفه بنفسه بلغة إيطالية سليمة:

- اسمي مالك. أنا مدير أعمال سيدك الجديد. أهلاً بك في بيت العازر بن يعقوب القرطبي.

تأمل جيوفاني الباحة الصغيرة المليئة بالأزهار، كان البيت مؤلفاً من طابقين، دون زخرفة زائدة.

- شرح مالك هنا يعيش الخدم ويحضّر الطعام. ثم اجتاز سقيفة أخرى أوصلته إلى باحة ثانية، أكثر اتساعاً، مزينة بحوضين مزخرفين بدقة.

- في هذا المكان يستقبل معلّمي ضيوفه.

توقف جيوفاني ليتأمل أعمدة الرخام التي تشكل الواجهة، لكن مدير الأعمال أدخله تحت سقيفة من الخشب منحوتة بشكل رائع. دخلا هذه المرة إلى حديقة فائقة الجمال، مزينة بالعديد من الأشجار والأيك وبالأحواض وينابيع الماء. صعد إلى المصاطب وعلى بعد مئة

خطوة تقريباً دكان محاط بجدران سميكة، بمستوياته الثلاثة. المنزل يفتح على الحديقة عبر أروقة تحملها أعمدة رفيعة من الرخام الأزرق والوردي.

- هنا يصلي سيدنا ويعمل ويأكل ويستريح.

بقي جيوفاني أخرساً من شدة الإعجاب أمام هذا التناغم والتناسق الرائع. عندئذ ظهر سيد الأمكنة، رجل يقارب الستين عاماً لحيته بيضاء تقريباً كيباض لباسه والقلنسوة التي كان يضعها على قمة جمجمته. لدى رؤيته آتياً نحوه بخطى رشيقة، كان لدى جيوفاني الشعور أنه أمام رجل ذو روحانية عالية، وتراكت صور المعلم لوسيوس، والناسك المنزل سيحيون والناسك المتصوف في ذاكرته. توقف الرجل أمام جيوفاني. كان يتسم ومد له يديه دلالة على الاستقبال.

- أهلاً بك في هذا المسكن المتواضع، يا عزيزي، قال ذلك بالإيطالية.

- أمسك جيوفاني بحرارة يديّ العازر.

لا أعرف كيف أشكرك لأنك انتزعتني من تلك العقوبة.

- لقد كانت خسارة كبرى أن تقطع يدٌ جميلة بهذا الشكل! أجاب

مضيفه مبتسماً. ما هو اسمك؟

- جيوفاني، أنا من مواليد كالابري.

- الحمد لله! هل أنت جائع؟

- قليلاً.

- مالك، أرشد صديقنا إلى غرفته واطلب من ساره أن تجلب له الحليب، الفاكهة والحلاوة. يمكنك أيضاً الاستحمام والاستراحة من هذه الانفعالات الشنيعة. سيأتون يبحثون عنك عند غياب الشمس لكي تشاركنا الطعام.

حيا ألعازر ضيفه وابتعد نحو البيت بخطى خفيفة.

أعاد مالك جيوفاني إلى الدار الأولى وقاده إلى الطابق الثاني إلى غرفة جميلة تطل على مصطبة (سطيحة).

فوجئ جيوفاني كثيراً بإقامته في هذه الغرفة. وصلت سارة، الخادمة الشابة الجميلة الوجه، البشوشة، بعد ذلك حاملة طبقاً بينما كان جيوفاني يهدئ رمقه حضرت له حماماً معطراً وغادرت دون أي كلمة. غمر الشاب نفسه داخل الماء الفاتر بتلذذ. بعد أن استحم واستراح خرج على السطيحة.

بدأت الشمس تميل نحو الأفق، بما أن بيت ألعازر مبني في أعالي المدينة، فقد كان المنظر رائعاً يمتد على كامل المدينة حتى البحر. بالمقابل، كانت معظم البيوت الأخرى المحاورة المحاطة بالشوارع الضيقة، متواضعة. تساءل جيوفاني لماذا رجل غني بهذا الشكل يعيش في حي فقير لهذه الدرجة.

تحقق أيضاً أنه سيكون من السهل عليه جداً الفرار انطلاقاً من السطيحة.. في كل الأحوال، سيده الجديد لا يخشى ظاهرياً هذا الاحتمال.

دخل رجل مسنّ إلى السطيحة. توجه إلى جيوفاني بلغة الفرانكو:

- أنا أدعى يوسف، طلب مني معلّم الطيب أن أدعوك إلى مائدته.

تبع جيوفاني الرجل الذي قاده إلى وسط الحديقة.

مقاعد خشبية مريحة تحيط بمائدة من الخشب الصلب.

مشاغل مغروزة في زوايا الطاولة الأربع مع العديد من الشموع التي تجلب إضاءة لطيفة. والخادمة التي هيأت له حمامه كانت تقف دون حراك، غائرة قليلاً. غادر يوسف في الحال، بقي جيوفاني صامتاً. لاحظ أن ثلاثة أطباق قد وضعت على المائدة، من المحتمل أن تكون له ولألعازر ولزوجته. طلب من الخادمة اسمها، ابتسمت هذه الأخيرة مفهمة إياه بإشارة من رأسها أنها لا تتكلم الإيطالية.

- ما هو اسمك؟ سأل جيوفاني الذي كان يعرف بعض الكلمات العربية. استنار وجه الفتاة.

- سارة! هل تتكلم العربية؟

- قليلاً.

- إنه صديقنا إبراهيم الذي علمك اللغة العربية الجميلة؟ قال له العازر الذي جاء لتوّه.

استدار جيوفاني.

- نعم، لقد تعلمت بعض الكلمات في الجنيّة، ليس من سفارته مع تمكّنك باللغة الإيطالية، كنت أتساءل من جهة أخرى كيف أنت ومديرك.

- كنا نساfer كثيراً ونتكلم كل لغات الدول الأوروبية. لكن اجلس يا عزيزي.

اتخذ جيوفاني مكاناً على المقعد الخشبي، جلس العازر قبالة. قدمت لهما سارة الشراب.

- لا أعرف كيف أشكرك لأنك خلصتني من عقوبة رهيبة جداً، تابع جيوفاني وهو ينظر إلى عيني مضيفه.

- هيا، كل هذا قد انتهى! لتكلم عنك. إذا أنت آت من كالابري؟

وافق جيوفاني بحركة من رأسه.

كنت أعرف أنك كنت إيطالياً، وأنك كنت تفرح صديقي إبراهيم. بمعرفتك لكنني لم أتخيل أنك أتيت من منطقة فقيرة بهذا الشكل.

أين تعلمت الفلسفة والتنجيم؟

- أنت عالم بكل شيء!

- أكن لإبراهيم احتراماً كبيراً وكان قد حدّثني عنك.

- هل لديك أخبار عنه؟

- للأسف لا، لقد غادر إلى القسطنطينية لكي يرافع عن نفسه أمام الديوان، لكن أعداءه أقوياء جداً. منذ غياب بربروسا، لم يتوانوا عن إعطاء إدارة الجزائر إلى واحد من أتباعهم وليس إلى ابن القرصان الذي يحتقرونه. كانت المؤامرة ضد إبراهيم تقصد بالواقع حسن باشا، لكنني أحسب أن يكون هذا الأخير لم يفهم شيئاً، لكنك لم تجب على سؤالي.

- بالحقيقة، غادرت قريتي مسقط رأسي، وبينما كنت أصعد شمالاً قابلت عالماً كبيراً اتخذني تلميذاً له طوال أربع سنوات.

- ماذا كان اسمه؟ سأل سيد البيت مندهلاً.

- لوسيوس كونستانتيني.

وميض قوي خرج من نظرة العازر.

- المنجم الفلورنسي الكبير؟ تلميذ فيشين؟

وافق جيوفاني بحركة من رأسه.

- هذا أمر عجيب! هل تعرف أنك عشت بقرب الرجل الذي يعتبره

كل المنجمين كواحد من أكثر الواسعين علماً ومعرفة بينهم؟

- هل أنت منجم أيضاً؟

- أبداً ليس مثل معلمك، وحسب علمي إنه الأقدر في العالم على

تفسير الأمور التنجيمية المتعلقة بالكواكب. لكنني أهتم بعلم الكواكب كما أشياء أخرى.

الحاجبان متقطبان، حدق العازر فجأة بنظر الشاب الذي كان

يكتب.

- هل ما زال على قيد الحياة؟

للأسف كلا، مات منذ بضعة سنوات.

أحد العازر نظره نحو الأرض.

- هذه خسارة كبيرة جداً بالنسبة إلى الجميع، كان تقدماً في السن، على ما أعتقد.

- نعم، لكن ليس فقط بسبب الشيخوخة، ولا المرض لقد مات. أجاب جيوفاني بنظرة مكفهرة.

رفع ألعازر رأسه وتمحص وجه ضيفه.

- تعني أنه اغتيل؟

- وبأبشع طريقة، كذلك بيترو، خادمه الأمين.

- لكن من.. ولماذا؟

بقي جيوفاني صامتاً، أدرك فجأة أنه لم يكن يعرف شيئاً عن سيده الجديد وأنه أفاض بالكلام.

- اسمح لي أن أجيب في يوم آخر حول هذا السؤال المؤلم.

أنت تجعلني أتكلم، لكنني لا أعرف شيئاً عنك، ولا عن الأسباب الغريبة نوعاً ما، التي من أجلها افتديتني من المدير الجديد للباشا.

عوضاً عن الجواب، ابتسم ألعازر.

- هل هذا لأنك سمعت إبراهيم يتكلم عني؟ لكن في أي شيء يمكن لإنسان فتى أن يعادل هذا الثمن المرتفع؟

- هذا صحيح أنني سمعتهم يقولون كل خير عنك، لكن ليس السبب الذي من أجله افتديتك عن طريق صديقي محمد.

حدق جيوفاني متحيراً بمحادثه.

- السبب الحقيقي، هذا هو.

إشارة باليد رافقت كلماته الأخيرة.

تابع جيوفاني بنظره يد مضيفه والتفت عيناه بخيال رقيق لشابة محجة وصلت لتوها دون أن يدري بها فوقف لاستقبالها.

عندما أصبحت في الضوء، رفعت ببطء الحجاب الشفاف الرقيق الذي كان يغطي وجهها ووضعته على شعرها. وجه ذو جمال فتان بدا لعيني جيوفاني العجيبين. شعر طويل أسود كان يسترسل حتى ردفها، أنف طويل، ناعم وأقنى بشكل خفيف يستريح على فم ذي شفيتين ورديتين. لم يكن عمرها يتجاوز العشرين، لكن يمكننا الاستشعار في أعماق نظرتها أنها كانت مسكونة بقوة داخلية نادرة. دُهش جيوفاني فوراً بهاتين العينين السوداوين الواسعتين اللتين كانتا تحدقان به.

- إيستير، ابنتي، قال أعازر ممسكاً الفتاة من يدها.

ثم أضاف ملتفتاً نحوها:

- أقدم لك جيوفاني.

بقي جيوفاني أبكماً، احمر بسبب الانفعال، نطق أخيراً:

- هذه أنت.. أليس كذلك؟

- ماذا تريد القول؟ سألت إيستير بالإيطالية:

- أنت التي رأيتها هذا الصباح في الساحة العامة، قبل ساعة من تنفيذ

العقوبة، عند أسفل المنصة تنظرين إلي.

- كانت هناك الكثيرات من النساء اللواتي كن ينظرن إليك هذا

الصباح، البعض بقساوة ووحشية، وأخرى بدافع الشفقة، وبعضهن

بدافع الشهوة.

- هل أنت التي ردّدت خلفي بقية كلام الزمور؟

- كنت سمعتها إذن؟

- كيف يمكنني ألا أسمعه حتى ولو همساً؟ وكيف لن أندersh من سماع هذا الكلام باليونانية؟

- كانت إيستير تحفظ التوراة باليونانية كما بالعبرية، تابع العازر بشيء من نفحة الفخر. لكن اجلسي يا ابنتي.

دون أن تترك جيوفاني بعينيها، جلست الفتاة على الكرسي (الديوان) الثالثة. واستأنفت الكلام:

- أفهم اندهاشك، لكن تخيل اندهاشي، وتأثري لدى سماع محكوم يتلو كلام زمور كنت أردده كل يوم.

- هل من أجل هذا طلبت من والدك بأن يفتدني؟

- ليس من أجل ذلك وحسب، كنت أعرف من طريق إبراهيم أنك كنت رجل علامة وهذا هو السبب الذي من أجله دفعني فضولي إلى المجيء إلى الساحة هذا الصباح، قرأت في عينيك حزناً كبيراً. لكن ليس ضيق الرجل الذي جيء به لقطع يده، قرأت في نظرتك شيئاً، فكرت بوجه يسوع، بالنظرة التي كانت له في بستان جتسماني عندما قال: «أبي أبعده عني هذه الكأس».

- أنت.. أنت مسيحية؟ سأل جيوفاني بصوت يرتجف.

- أنا يهودية، مثل أجدادي منذ أجيال عديدة. لكنني أقرأ الأناجيل كما التوراة العبرانية. ألم يكن المسيح يهودياً؟

- طبعاً... لكنني كنت أعتقد أن اليهود لا يقرأون العهد الجديد.

- الغالبية، كلا. شعبي يتألم كثيراً من حقد المسيحيين. ليس من السهل رفع العينين أبعد من آلامنا، أبعد من الاحتقار الذي يظهره لنا، ويجبرونا على اعتناق المسيحية.

للقراءة باسم يسوع شيئاً آخر عن سبب ذلك الحقد، لكن بفضل
والذي، تعلمت منذ طفولتي قراءة الأناجيل والنظر إلى يسوع كأكبر
الأنبياء الذين أرسلهم الله.

لم يتوصل جيوفاني من تحويل نظره عن وجه تلك المرأة. كان يرغب
بالكلام طوال ساعات معها بهذا الخصوص لكن سواً آخر ظل
يراوده، وكان عليه أن يطرحه.

بذل جهداً لينتزع عينيه من عيني إيستير وتوجيههما نحو العازر.

- الآن وقد افتديتني، أنا عبدك، ماذا تظن أنك فاعل لي؟

قبل الإجابة، تلا العازر تبريكة بالعبرية ورجا إيستير وجيوفاني بأن
يشرفوا خضار البستان التي أنت سارة على تقديمها على المائدة، ثم تابع:
- رسمياً أنت عبد لمحمد، فيما يخصنا ليس لدينا أي عبد. كل الذين
يعيشون في هذا المكان تدفع لهم أجورهم مقابل عملهم وأحرار
بالمغادرة إذا ما رغبوا بذلك فستعامل بهذا الشكل.

بقي جيوفاني مندهشاً.

- تريد القول أنني حرٌّ بالبقاء أو بالمغادرة؟

- طبعاً.

- لكن سيكون من المستحيل بالنسبة إلي أن أعيد لك هذا المبلغ
الضخم الذي أنفقته لافتدائي!

- لا يهم، فعلته إرضاء لابنتي الحبيبة، أمها ماتت، منذ زمن طويل،
ليس لدي ولد آخر وهذه هي المرة الأولى منذ عشرين سنة التي تطلب
فيها شيئاً من هذا القبيل. كيف لي أن أرفض طلبها؟

نظر جيوفاني إلى إيستير، التي أخفضت عينيها، وعيناه اغرورقتا
بالدموع:

- لا يمكنني أبداً شكركم بما يكفي من أجل ما فعلتموه من أجلي.

رفعت إيستير رأسها وقالت بصوت متأثر:

- هناك كلام وحيد ليسوع، رواه الرسول بولس والذي لم يكتب في الأناجيل. يقول: «هناك الكثير من الفرح لنعطيه أكثر مما نأخذه».. قلبي في هذا المساء، بفضلك في حبور كبير.

بكى جيوفاني بصمت، لدى رؤية الدموع تسيل على الخدين المسمرين لهذا السجين السابق، تأثرت إيستير من أعماق كيائها، أسدلت حجابها وطلبت من أيها الإذن بالانسحاب.

تركها ألعازر تغادر المكان وخاطب جيوفاني.

- إيستير انفعالية جداً، هذا بسبب فقدان والدتها وهي صغيرة جداً. وفي نفس الوقت هي أقوى وأكثر هشاشة من أي طفل آخر عرفته.

- لا يمكنك معرفة إلى أي حد كانت لفتتك ورفقتك قد أدفأت قلبي المتجمد، أجاب جيوفاني بصوت ممزق.

- أرى أنك أيضاً سريع التأثر، هل أنت أيضاً فقدت والدتك منذ طفولتك؟

- هذا صحيح، ردّ جيوفاني. توفيت والدتي عندما كنت في السابعة من عمري.

- يترك هذا في النفس آثاراً لا تمحي، لكنه أيضاً جرح تدخل فيه نعمة الله لتجعل النفس أكثر حساسية وشفقة. إذا كنت مثل يمامتي الصغيرة فعليك أن تتأثر لأي ألم أو ظلم يرتكب أمام ناظريك.

- فكر جيوفاني من جديد بلونا ومن ثم ببينو.

هذا دون شك صحيح، يمكن لجراح الحياة أن تسحقنا وتجبسنا. أن نجعلنا أيضاً أقوى وأكثر انفتاحاً على الآخرين. لم نختر الخضوع لها، لكننا أحرار بأن نجعل منها سنداناً يغرقنا أو نقاط استناد ترفعنا. هذا واحد من أكبر أسرار النفس البشرية.

- تبدو أنك تعرفها جيداً.

- لا يوجد سوى ثلاثة أشياء تعنيني والتي لم أتوقف عن فهمها بشكل جيد: الله، الكون والنفس البشرية. هذا يسير وكثير في آن معاً!

هذا يذكرني بالمعلم لوسيو سوس.. أنت أيضاً فيلسوف؟

- سمّ هذا كما تشاء. عندنا، يعتبرونني بمثابة قبلاني، هل سبق أن سمعت الحديث عن القبلانية؟

- نعم عند بيكو دولاميراندولا.

- آه! أفرح لأنك قرأت هذا المؤلف الجيد! معلّمي الخاص لقّنه فيما مضى اللغة العبرية ومبادئ القبلانية! لكن بالرغم من استعداده وعقله النير. عليّ القول أنه لم يحفظ منها سوى ما كان يناسبه ليعني تركيبه وتحليله الفلسفي والمسيحي. تبقى القبالية اليهودية أيضاً مجهولة على نطاق واسع بين المفكرين المسيحيين.

- سأكون سعيداً فيما لو حدثتني عنها.

- لم لا، يا عزيزي. لكن طبعاً ليس هذا المساء! أنت منهك القوي بعد هذا النهار القاسي، الحكمة تقضي بأن تذهب لترتاح.

- بطيبة خاطر، لكن قلّ لي شيئاً أيضاً.

- أسمعك.

- كيف يمكن لرجل كرّس حياته للدراسة أن يكون ثرياً بهذه الدرجة؟

ضحك ألعازر بصوت عال.

- هذا سؤال هام، هل ترى؟ أنا أمارس منذ أكثر من عشرين سنة إحدى أكثر المهن نادرة التي يسمح المسلمون والمسيحيون لليهود بأن يمارسوها، أنا مصرفي.

فتح جيوفاني عينيه محملاً ومندهشاً.

- بما أنه ممنوع في الديانتين المسيحية والإسلام بإعارة المال مع الفائدة وأن هذه المهنة ضرورية لتطوير النشاطات الاقتصادية وتنميتها، فإننا نكون قد استثمرنا أموالنا منذ قرون في هذه المهنة.

- وهذه المهنة ألا تشغل كامل وقتك؟

- أبداً! اخترت منذ زمن طويل خدمة الله وليس المال.

جيد، المال يأتي من المال وهذا يتم منذ سنوات وثروتي تزداد لوحدها دون أن تكون لدي هموم أخرى سوى حسن إدارتها. وهذا، يمكن لأي مدير أعمال مخلص، مثل مالك وآخرون في مكان آخر أن يهتموا بها لحسابي، هذا يترك لي وقتاً كبيراً للاهتمام بإيماني.

- تريد القول أن لديك أناس يعملون لصالحك في أماكن متعددة؟

حرك ألعازر يده بكسل معلناً موافقته.

- طبعاً! لدي مؤسسات في عشرين من المدن الأوروبية والإمبراطورية العثمانية.

بقي جيوفاني مطرق الرأس، وتابع ألعازر:

- ولهذا تعلمت العديد من اللغات وزرت العديد من المناطق.

- لكن لماذا العيش هنا؟ يمكنك السكن في قصر في البندقية أو روما

أو فلورنسا؟

- كان أجدادي يعيشون في قرطبة، في إسبانيا لغاية القرن الماضي،

ففي العام 492 طرد الملوك الكاثوليك اليهود من إسبانيا.

جميع أملاكنا صودرت. أرغم أجدادي على الهجرة مع أطفالهم.

بما أنه لم يكن هناك أي ثقة بالمسيحيين، فقد اختاروا مثل العديد من إخوتهم اليهود، الاستقرار في هذه المدينة حيث التجارة بدأت في الازدهار، والتي كانت تحت سيطرة المسلمين، ثم العثمانيين منذ

بربروسا. لأنه الأفضل لنا أن نعامل على أننا من أهل الذمة من أن نكون كشعب قاتل مهتم للدين في أعماقهم، جلّ المسلمين يحتقروننا، لكنهم يدعوننا نعيش ونعمل بسلام، المسيحيون يجبروننا على اعتناق المسيحية ويمكنهم ذبحنا وقتلنا في أي لحظة تحت أي حجة.

- وأنتم ألم تكتنوا لهم الحقد والضغينة؟

- هذه المشاعر التي تتكلم عنها هي سموم القلب والعقل.

- هذا قد يكون ضعفاً كبيراً من جهتي أن أخضع له. كنت أقول لك منذ قليل أن تجارب الحياة يمكن أن تقضي علينا أو ترفعنا وتعظمننا. فيما يخصني لقد حددت اختياري بأن لا أردّ على الإساءة بإساءة أخرى ولا على الإهانة بإهانة أخرى ولا الغضب مقابل الغضب والاحتقار مقابل الاحتقار. ومن ثمّ فإنّ دراساتي القبلانية لم تتوقف عن تقريبي من كبار الفلاسفة والمتزهدين من كل الأديان بدءاً بالمسيح. لكن سنتكلم عن ذلك من جديد في المرة القادمة، إذا ما قررت البقاء فيما بيننا لبعض الوقت.

تأمل جيوفاني الوجه المشرق الهادئ لهذا الرجل الذي أنقذه من العذاب.

- أنا متأثر بعمق بحرارة استقبالكم وسيكون لي الشرف بأن أبقى عدة أسابيع فيما بينكم وفي بيتكم.

- أنا متأكد أن إيستير ستكون كذلك: أنت هنا في بيتك. اطلب من مالك كل ما أنت بحاجة إليه، يتكلم لغتك جيداً، الآن اذهب لترتاح.

نهض جيوفاني، رافقه مضيفه إلى باب صحن الدار. قبل أن يتركه طرح عليه سؤالاً آخرًا:

- لماذا إذن اخترت العيش في الحي الأكثر فقراً في المدينة في حين أنت

ثري جداً؟

داعب العازر لحيته الطويلة.

- على الأقل لسببين، أولاً لأن هنا يعيش غالبية يهود الجزائر وإن وجودي بين بني جنسي يؤثر بي، من ثم فإنني لن أجد في أي مكان آخر في المدينة السفلى بستاناً بهذه الروعة أحب هذا البستان الذي يعرفه القليلون من سكان الجزائر، وإن يكن ممّوهاً بين هذه الشوارع القذرة. أترى، أني أحب الجمال المستتر، ذلك الذي لا يتألم من القادم الأول، الذي يترك نفسه ليكتشف. لذلك سمّيت ابنتي إيسثير. لهذا الاسم مدلولان، يأتي من استارتي إلهة الحب عند الفينيقيين التي أعطت أفروديت عند اليونان وفينوس عند الرومان. لكن هذا الاسم يعني بالعبرية «سأخبيئ». إيسثير هو النجم الأكثر سطوعاً، إنه الحب لكنه الذي يبقى مخبأً من الله.

وحدهم أولئك الجديرون به، يمكنهم كشفه.

بالرغم من حالته المنهكة، وجد جيوفاني صعوبة كبرى في النوم. كانت أحداث النهار قد حفرت هَوَات عميقة في داخله. قلبه الذي تلقى هذا الكم من الجراح منذ افتراقه عن إيلينا، كان كما لو الصداقة مع جورج وثمانوئيل ثم مع إبراهيم، أنه أصبح عصياً على كل عاطفة جعلت الدفء يتغلغل فيه تدريجاً. هذا اللقاء المؤثر مع ألعازر وإيستير أذاب الطبقة الخفيفة الأخيرة من الجليد التي مازالت تكبله. أمضى الليل باكياً. لم تكن دموعاً متجمدة، كالتي عرفها في الزنزانة أو في الكهف، بل دموع الخلاص الحارة. عاد قلبه إلى الخفقان. وجوه عديدة تلك التي أحبها، عادت ومرّت في ذاكرته مثل أشباح تستعيد حياتها. ثم رأى من جديد وجه إيستير. فهم أن تلك المرأة، التي هو مدين لها بخلاصه، قد أحبته من النظرة الأولى منذ أن كان مكبلاً بالسلاسل. طلبت من والدها أن يفتدي بأي ثمن، دون شك لأنها كانت تحب دون حساب. لكن هل سيكون جديراً بهذا الحب وهذه الثقة اللذين منحاه إياهما هي ووالدها؟ وما أن شعر أن قلبه بات خالياً من كل هم، حتى غرق في النوم. عندما استيقظ، كانت الشمس في قبة السماء. كان قلبه خفيفاً. غسل وجهه وهو يغني بفرح أغنية كالابرية. هذا لم يكن قد حصل له منذ خروجه من البندقية. نزل إلى ضحن الدار، التقى بسارة التي لدى رؤيتها له، أخفت ضحكة فرحة. لم يكن يفهم السبب، لكنه ضحك معها بطيبة.

ذهب إلى الغرفة حيث يعمل مالك، مدير الأعمال، لدى رؤيته جيوفاني ابتسم ابتسامة عريضة مظهراً أسنانه البيضاء التي كانت تتباين مع لون بشرته القائمة بشكل رائع.

- حسناً! لقد كنت بحاجة إلى الراحة!

- لقد سمعت لتوي نداء صلاة الظهر وبحسب موقع الشمس يكون الوقت ظهراً. كنت بالحقيقة منهكاً، لكنني أشعر الآن أنني بكامل قوتي.

- يمكن أن تكون كذلك، لأنك وصلت هنا قبل أمس، لقد نمت ليلتين كاملتين ونهاراً ونصف النهار.

بقي جيوفاني مندهشاً.

- لا يوجد أي شر في هذا، استدرك مالك ضاحكاً. لقد أرسلتني سارة إلى غرفتك أربع أو خمس مرات منذ أمس لأتأكد أنك لم تكن ميتاً، أو أنك قد اختفيت!

- بنعمة الله أنا على قيد الحياة وليس لدي أي رغبة بمغادرة المكان!

لكنني جائع، كما يجوع السبع!

- اذهب وتناول الطعام. قال لي سيدي أيضاً بمقدورك التنزه كيفما شئت في كل مكان في البيت وفي الحديقة. تجنب فقط الخروج إلى المدينة حالياً، فقد يكون من الخطر أن يتعرف أحد عليك.

بعد أن شرب وأكل، ذهب جيوفاني بخطى مرحة إلى البستان، لقد أثر جمال المكان عليه أكثر مما فعل في الليلة ما قبل الماضية.

خريف الماء، وتغريد العصافير كان يمتزج بأريج الأزهار والنباتات المائية. جلس جيوفاني على مقعد حجري، تحت ظل جُميزة. أغمض عينيه، من أعماق ذاته انبثقت كلمة، ودون أن يعرف حقاً إلى من كانت موجهة، لم يتمكن من منعها من الخروج من شفثيه:

- شكراً.

صوت رقيق لطيف جعله يرتعش.

- إنها الصلاة الأكثر كمالاً.

فتح جيوفاني عينيه. إيستير كانت واقفة أمامه. ترتدي ثوباً طويلاً أزرق خفيفاً ومندبلاً أصفر شفافاً يغطي الذراع والشعر ويهبط على ظهرها وكتفيها.

لم تكن طويلة القامة، لكن جسدها الناعم النحيل والخفيف يعطي شعوراً بالرشاقة، عندما رآها، خفق قلبه بشدة.

استدركت مبتسمة:

- إنني لا أخرجك من صلاتك؟

نهض مستجيباً لابتسامة الفتاة.

أنا.. أنا لا أصلي فعلاً، كنت سعيداً، فقط. لا أعرف كيف أشكركم، بدونكم...

وضعت إيستير اصبعاً على شفتيه.

- اصمت. سبق أن قلته لك. فرحي بمعرفة أنك حرّ هو أكبر من كل

شيء. هل رأيت ينابيع البستان العشرة؟

- كلا.

- حسناً، لنذهب ونكتشفها. والذي أمضى قرابة العشرين عاماً

ليصنع جنة عدن الحقيقية، حسب منطق رمزي محدد.

- لماذا عشرة ينابيع؟ العدد عشرة، على علمي ليس رقماً رمزياً هاماً،

خلافاً لرقم سبعة أو اثنا عشر.

- في الواقع، ليس رقماً توراتياً قوياً، لكنه يعيدنا إلى عشرة أسفار

القبال.

- أتذكر أنني قرأت بعض النصوص التي كتبها بيك دو لاميراندول حول الشفيروت، لكن هذا بعيد عن ذاكرتي. سأكون سعيداً، إستر إذا ما قبلت أن تحدثيني عن القبلانية.

- والدي سيجيد ذلك أكثر مني: هو عالم كبير مشهور في كل العالم اليهودي.

- لا أشك بذلك، لكنني متأكد أيضاً أنه علمك معرفته وأنت مفتونة بالمسائل الفلسفية والدينية.
ابتسمت إستر.

سأكذب إذا قلت غير ذلك. أنت تعرف دون شك أن كلمة قبّالا تعني «تلقي» قبل. بعد التورا، جاء الشرع الذي يشكل المخزون الأكثر قدسية في كتبنا المقدسة، والتلمود الذي يجمع التعليقات الحاخامية منذ تدمير الهيكل الثاني ونفي شعبنا. القبّال هي إذا صح القول الفرع النساك في اليهودية. القسم الرئيسي في التقليد الشفهي الذي بشكله جمع في «سفرها زوهر»: «كتاب الاشراق».

سبق أن سمعت الحديث عن «زوهر» المشهور، وأنا لا أعرف مؤلفه.

- هذا الكتاب منسوب إلى معلّم العصور القديمة «رابي سيمون بارياهواي»، لكن بالنسبة إلى والدي، الذي يتمتع بذهن واقعي وصارم، فإن هذا النسب رمزي. في الواقع، كُتِبَ زوهر في القرن الثالث عشر في كاستيل من قبل موسى بن شم طوف دوليون، انطلاقاً من التقاليد الشفوية و«سفرها باهير»: «كتاب الوضوح»، عملاً مكتوب في بروفنس قبل ذلك بقرن من الزمن.

- ما هو إذن التعليم الجوهري في هذا الكتاب؟ سأل جيوفاني، المهتم أكثر فأكثر بشروحات الفتاة.

- منذ البدايات، أخذ التصوف اليهودي توجيهاً من جهة نوعاً ما كما الزهد المسيحي، الصوفية الإسلامية، يبحث عن اتحاد الله بالقلب عبر خاصة تجربة الانخراط أو النشوة.

فكر جيوفاني أنه عرف الكثير من التجارب الانخطافية خلال حياته الرهبانية حيث كان قلبه متجهاً كلياً نحو الله.

تابعت إيستير:

- تيار آخر، أكثر عقلانية، تطور في اليهودية، ويتعلق الأمر بالتوصل إلى معرفة «الإلهي» عبر قراءة رمزية للكتب المقدسة.

يرتكز هذا الطريق الذي يطلق عليه القبلانية النظرية الصوفية (نظرية إشراقية دينية موضوعها الاتحاد مع الرب)، أولاً على اثنين وعشرين رسالة تؤولف الهجائية العبرية، لكل حرف عدة معانٍ رمزية، وأيضاً قيمة عددية (رقمية). ألف مثلاً تتوافق مع 1 واحد. بيث مع اثنين 2 جيميت مع 3 ثلاثة، وهكذا دواليك. وبتزج المعنى الرمزي والقيمة العددية (الرقمية)، تتمكن من قراءة تزهدي صوفية للتورا وإيجاد معانٍ مخبأة أكثر عمقاً من قراءة مبسطة للمعنى الحرفي.

- ألم يخبي الله كنوزه الأثمن؟

توقفت إيستير ونظرت إلى جيوفاني بقوة.

- حدثني والدك عن معنى إسمك، إيستير، أعتقد أيضاً أن ما هو أكبر من ذلك مستتر عن عيون عامة البشر. يجب على الإنسان أن يتعلم على فتح عيون قلبه وفكره لكي يتمكن من تأمله.

- هل تظن فعلاً هذا يا جيوفاني؟

- كانت حياتي فوضوية وأحياناً مؤلمة، لكنني حصلت على نعمة البقاء إلى جانب فيلسوف كبير قرابة أربع سنوات، ثم العيش خلال المدة ذاتها في الأديرة في اليونان. لقد تعلمت أن أفتح عيني وفكري وعرفت

بعض التجارب الزهدية للتوحد مع الله، يبدو لي الآن أن هذا بعيداً جداً!

- لا أعرف شيئاً عن حياتك يا جيوفاني، أعرف فقط أنك تجاوزت اليوم محنة كبيرة. أنا متأكدة، إذا كان الله جرّب قلبك، فذلك ليس للشيء. حياتك كانت دون شك أحياناً مؤلمة، لكن من المؤكد، أنها لم تكن فوضوية. ستفهم يوماً المعنى، أنا متأكدة من ذلك.

- كنت أفكر مثلك (بصيغة المفرد المخاطب)... (ثم أشفعها بصيغة الجمع المخاطب).

نظرت إيستير إليه... وعلى شفيتها تراقص ابتسامة خفيفة:

- أفضل.. مثلك.. (بالمفرد المخاطب).

- أفكر مثلك، كرّر جيوفاني وحلقه منقبض من الانفعال. لكن بعد أن تجاوزت هذه المحن، بعد أن رأيت إنساناً كرّس حياته لله يموت في اليأس، بعد أن رأيت أفضل أصدقائي يعذب بوحشية باسم الإيمان، توصلت إلى الشك.. حتى بوجود الله.

تابعا السير بصمت وخطى بطيئة في أروقة البستان ثم استدركت إيستير:

يقول حكيم إن من لا يعرف ليل الشك لا يمكنه حقاً الوصول أو الدخول حقاً إلى نور الإيمان الحقيقي.

- وأنت إيستير، هل شككت يوماً بوجود الله؟

- نعم، وأنا طفلة، ماتت أمي عندما كان عمري خمس سنوات وهي تلد أخي الأصغر الذي غادر معها. كان لدي حتى ذلك الوقت إيمان كامل بالله وكنت أمضي عندها فترات طويلة بالصلاة، لا شيء يهمني أكثر من الطقوس، خاصة تلك المتعلقة بيوم السبت، ومن ثم فجأة توقف كل شيء عندما علمت بموت والدتي التي تدعى باتشيفا، فرغ

قلبي ومات إيماني، كل ما كان ذو معنى بالنسبة إلي في السابق، لم يعد سوى شارات لا معنى لها، لم أعد قادرة على الصلاة والتفكير بالله كان يسبب الآلام في بطني.. استمرت هذه الحالة عدة سنوات.

- هل كان الشيء نفسه بالنسبة إلى والدك؟

- لقد مرّ والدي بمحنة كبيرة، لكن لا أظن أنه فقد الإيمان. احترم تصرفي ولم يحاول أبداً إجباري أو إقناعي. ومن ثم في أحد أيام الربيع، بينما كنت أتأمل زهرة تفتتح في هذا البستان، غمرني انفعال واسع، هذه الزهرة الصغيرة جداً أصبحت بمثابة رمز إيماني الذي بعث في حياته من جديد. بكيت لساعات وساعات في مآتم أمي، ومن ثم صرخت ضد الله. انتابت جيوفاني انتفاضة، متذكراً غضبه حيال الله في الكهف.

- صيّت عليه جام غضبي، بصراحة. وفي صباح أحد الأيام وأنا أنهض من النوم، عرفت أنني قد غفرت له ذلك.

- إلى لله؟

- نعم، إلى الله، تابعت إيستير بقوة، نظن عادة أن من واجبنا أن نغفر للناس. لكن عندما تعذبنا الحياة بصورة رهيبة، عندها نلوم الله، لأنه هو الحياة، يجب أن يغفر.

صمت جيوفاني. هذه الكلمات لاقت صدى عميقاً في تجربته. أدرك فجأة أنه لم يفكر أبداً إن كان بمقدوره أن يغفر.

بساطة الله الذي ثار منه بأسوأ طريقة: وتجاهله، لكن رفضه لله هل كان مبنياً على سبب، هل كان حقاً ثمرة اقتناع داخلي متأنٍ واعٍ، أم ردة فعل عاطفية حرّكها الغضب؟

سأل جيوفاني رغم اضطرابه. وهل استعدت الإيمان؟

- نعم، لكن إيماني لم يعد ذلك الإيمان اللامبالي وغير المكثرت... إنه

إيمان أضحى الله به أكثر غموضاً وأصعب إدراكاً في ذهني، لكنه أكثر حضوراً وأكثر حميمية لقلبي. لا أقدر على وصفه، أعيش كل ثانية بحضور الله، لكنني لا أقدر على الحديث عنه، لقد التحقت بطريقة ما وعبر تجربتي الخاصة، بصلب تعاليم القبلانية.

- حدثيني عن تلك التعاليم!

- يمكنني أن أشرح لك الأسس. سيطلعك والدي، إذا رغبت، على عمق هذه الاسس ودقتها.

كانت إيستير تتابع التقدم بخطى بطيئة وهي تعبر الرواق المركزي نحو أعلى البستان. استأنفت الكلام بصوت رزين:

- تضع القبلانية تمييزاً بين «إن سوف»، المظهر أو الشكل الخفي والعصي على الوصف لله، و«الأسفار» العشرة التي هي (تجلياته) في العالم. «إن سوف» يمكن ترجمتها «دون نهاية» أو «لا شيء» تعني أن الله خفي كلية عن إدراكنا، ليس من كلمة قادرة على وصفه. ولا أي صورة قادرة على تمثيله، ولا أي معنى مجرد يمكن أن يحيط به (يلمسه). كما قال ذلك بصورة جيدة اللاهوتي الكبير توما الأكويني الذي يذكره والدي دائماً: «الشيء الأكثر تأكيداً الذي يمكنني معرفته عن الله، هو أنني لا أعرف شيئاً عنه. هذا ما يقوله الصوفيون في كل الديانات: الله هو في منأى عن كل شيء وأنه من الخطر تسميته (ذكر اسمه). وهذا هو السبب الذي من أجله يمنع لفظ اسمه في الديانة اليهودية. أن نسّمى يعني أن نمتلك... أي الاستيلاء بسرعة على الله لمشاريعنا الخاصة!

فكر جيوفاني بأعضاء منظمة الخير السامي الذين كانوا يقتلون ويغتالون دون وازع باسم نقاوة الإيمان. فكر بكل المسلمين أو المسيحيين الذين كانوا يحاربون بحماس باسم الله! لكن من الصعب التشدد في الوقت نفسه بالصلاة لإله غير معروف والذي لا يمكن تسميته أو وصفه! تابعت إيستير:

الأسفار العشرة هي التصعدّات العشرة لهذا الإله الغامض والمغلق. هي الصفات الإلهية التي انبعثت خارجه والتي غطت وأشبعَت العالم. ليست هي الله، لكنها تجلياته، قواه، ومن خلالها علينا معرفة بعض الشيء عنه.

دخلت إيستير وجيوفاني إلى أعلى أقسام الحديقة، والتفتت:

- نحن في أعلى نقطة من البستان. المنزل في الأسفل ويمكننا الوصول إليه مباشرة عبر هذا الرواق المركزي. يمتد البستان مثل الشجرة، نحن هنا عالياً في المكان الذي يرمز إلى شجرة الأسفار. هذا الممشى المركزي يمثل نوعاً ما جذع الشجرة.

أدارت إيستير ظهرها نحو المنزل وخطت عدة خطوات إلى الأمام حتى نهاية الرواق. تلقائياً، أمسكت بذراع جيوفاني وأخذته إلى غابة صغيرة كثيفة الشجر. أبعدت الأغصان وأظهرت وسط دهشة الشاب الإيطالي عين ماء منخفضة مبنية على شكل تاج.

- انظر إلى هذا النبع، إنه أكبر ينابيع الحديقة، جميعها مخبأة. إنها تمثل السفر الأول: كثير «التاج». هو الرأس الذي به تبدأ صيرورة التصعدّ والذي سيسمح أيضاً بعودة كل الأشياء إلى الجوهر الأول. إذن الله ينتشر، يتدفق عبرها وبها أيضاً يعود كل الخلق المتحول نحو الله.

الآن لننزل نحو المنزل.

استدارت إيستير.

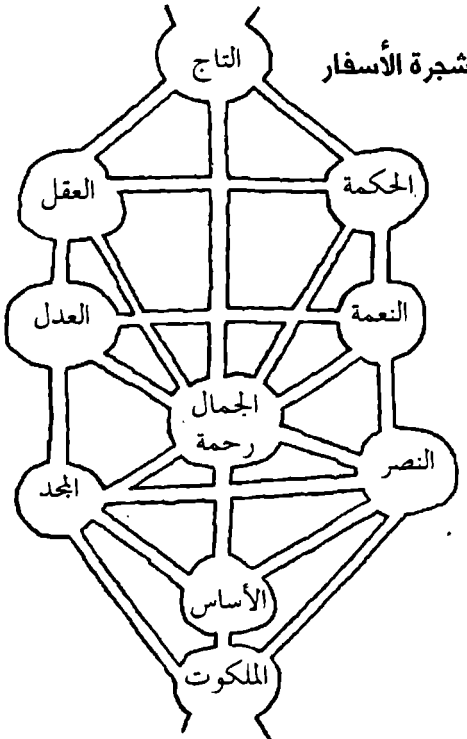
- إذا نظرنا إلى المنزل، يمكن التحقق من أن ثلاثة طرق تنحرف نحو اليسار ورابع نحو اليمين، في نهاية كل واحد منها ترى عين ماء أقل اتساعاً وأكثر ارتفاعاً من السابقة.

- النبعان اللذان تميزهما، تتوافقان مع السفر الأول والثاني الذي تصدر عنه «التاج». إلى اليسار هو شماه «الحكمة» السبب الأول الفعال، في الفكر الإلهي. إلى اليمين «بيناه» العقل الخلاق. النظام الذي

ما زال مخبأ في الحكمة من ثمّ يصبح جلياً في العقل «بيناه». فيها تصبح الجواهر (الذات) متميزة. الحكمة ترمز أيضاً إلى البعد الأبوي للإلهي والعقل بعده المادي. الأسفار السبعة الباقية هي مولودة من قبل العقل الخلاق لله. هذا المبدأ الثالوثي يشكل ما يسميه القباليون «الوجه الكبير» لله. الأسفار السبعة الأخرى المشتقة منه تشكل وجهه الصغير.

كان جيوفاني مأخوذاً، متأملاً ذكاء إيستير المتوقد، والمبادئ القبالية التي تتكلم عنها جعلته يفكر ببعض أوجه السر المسيحي. تمنى أن يتبادل بشوق مع مضيفيه هذه المسائل اللاهوتية، ففكر بكل هذا وهو يصغي للفتاة الشابة. - لننزل الآن إلى الممر الرئيسي (المركزي)، تابعت الفتاة بنبرة فرحة.

بعد عشرين خطوة تقريباً التقيا بممر آخر، حيث لاحظ جيوفاني عند نهايته نبعين آخرين. لكن إيستير أخذته إلى أبعد من ذلك نحو الأسفل، فوصلوا إلى منهل من الرخام الأبيض على شكل حوض واسع يرتكز على



قاعدة منحوتة بشكل رائع. وفوقه، طريقان يصعدان نحو الحكمة والعقل. وآخران يتوجهان نحو المناهل التي لحظها جيوفاني لتوّه، واثنان آخران يهبطان أيضاً نحو منهلين جديدين.

لم يُخفِ جيوفاني إعجابه:

الشجرة السفيروتية

- هذا بدون شك المنهل الذي يعجبني أكثر من غيره! فهو جميل كجمال التاج والأفضل صناعة.

- ارتسمت على شفاه إيستير ابتسامة صغيرة.

ولهذا السبب نحن هنا في قلب شجرة الأسفار. هذا القلب، السفيرة السادسة تدعى تيفيريت، الجمال والرحمة الإلهيين. وتدعى أيضاً الشمس، لأن إشعاعاتها تصل بين كل السفירות منسقة بين صفاتها الخاصة.

فلو نظرت نحو الأعلى، نحو التاج، فإنك ستلاحظ الطريقين القادمين من الحكمة والعقل. ترى أيضاً الطريقين اللذين يأتيان من المناهل التي تركناها من قبل. إلى اليمين، السفيرة الرابعة «هيسيد» Hesed (النعمة)، التي بها تظهر الطيبة السامية لله. إلى اليسار «غيبورة العدل» الإلهي، المعيار الصارم الذي تتجلى فيه النعمة. الآن استدر وانظر نحو الأسفل.

نفذ جيوفاني..

- ترى الينابيع «المناهل» التي في نهاية هذين الدربين اللذين ينطلقان من اليسار واليمين الممر المركزي؟

- نعم.

تلك الموجودة إلى اليسار ترمز إلى السفيرة السابعة «نتساح» النصر، الصبر، القدرة، الذكر، قوة الخالق. بالمقابل، تلك الموجودة إلى اليمين

ترمز إلى «هود» المجد، القدرة الأثوية، المتلقية «للفعل الألهي». الآن، إذا أردت، لنتابع نزولنا عبر شجرة السفירות.

تقدمت إيستير وجيوفاني عشرين خطوة داخل الممر المركزي فوصلا إلى دائرة جديدة في وسطها ينبثق منهل تاسع مبني من الحجارة، هذا الأخير كان منخفضاً ومربعاً.

- ها هي «يسود أساس» الوجود، أساس العالم المخلوق. كما يظهر هذان الطريقان اللذان يأتيان من نيتساه «النصر» والمجد «هود»، يسود الأساس يمثل أيضاً إلى اتحاد الانبعائين السابقين: القطب الذكري والقطب الأثوي للإلهي. لننهي الآن مشوارنا نحو المنهل الأخير.

أبعد من ذلك بعشر خطوات، ينتصب منهل غريب: هو فسحة واسعة عريضة من الحجر الموضوع على وجه الأرض. كان الماء يتفجر من وسط أرضيته.

- وها هو ملكوت الله المتلقي لكل الانبعائات الأخرى. إنها السفيرات التي تتحكم بالعالم (تديره).

التفتت إيستير نحو أعلى البستان ومدت ذراعها:

- هل ترى، يوجد العديد من الطرق المعترضة، لكن ثلاثة أروقة كبيرة منها يمكنها الوصول إلى التاج عبر المركز (الوسط) أي الأساس، الجمال والرحمة. يمكن أيضاً صعود الممر اليساري: عبر العنصر الذكري، الصرامة والعقل. يمكن أخيراً الصعود من ناحية اليمين، أي العنصر الأثوي، النعمة والحكمة.

أسئلة كثيرة كانت تحرك عقل جيوفاني. لكن أهم من كل شيء، أنه تذوق هذه اللحظة من السعادة والتناسق. كيف يمكنه نسيان، قبل ذلك بعدة أيام، كيف كان يتلوى في زنازة آسنة محروسة من أناس خشنين وفظين، وها هو اليوم يتنزه في هذا البستان اللطيف المبني حسب ترميز تزهدي، بصحبة امرأة جميلة بقدر ما هي عالمة. بدل متابعتها هذا

الحديث الروحي، كان جيوفاني يصبو الآن إلى معرفة هذه الفتاة بشكل جيد.

- إيستير، أنا مفتون بمعارفك وبالنزهة وسط هذه الينابيع السفيروتية التي سحرتني.

- نظرت إليه إيستير بصمت، كانت نظرتها حادة ووقورة وخجولة. في الوقت نفسه، كان التناقض الغريب يضي عليها سحراً فريداً. بدا جيوفاني حساساً لدرجة تهياً ليقول لها عندما دخل مالك من باب صحن الدار.
- آه! أنتما هنا! اعذروني لمقاطعتي حواركما، لكن سيدي يطلب رؤية جيوفاني في مكبه.

أتركك، قالت إيستير ذاهبة بابتسامة دون ترك المجال لـ جيوفاني بالرد. سبقه مالك وأخذه إلى الطابق الثاني من المنزل.

اضطرب جيوفاني، وتساءل عما يريد منه سيد المنزل، في الوقت نفسه، قلبه ما يزال قريباً من إيستير في ذلك البستان الذي أدهشه.
سلكا الممر الداخلي، قرع مالك باباً مزيناً بحشمة ومدهوناً بالأحمر.
- ادخل، أجب العازر.

فتح مالك الباب وغادر ليترك الشاب يدخل الغرفة.
تقدم جيوفاني بضعة خطوات ولم يتمكن من كبت صرخة المفاجأة.

كانت الغرفة بطول عشرين متراً وعرض عشرة أمتار وارتفاع ثمانية أمتار. والجدران مغطاة كلياً بالكتب، وفي سط الغرفة تتربع طاولة واسعة من الخشب، مغطاة بالشهادات الجامعية، بالريش، بأقلام الرصاص والكتب. ويعلوها شمعدان ذو سبعة فروع من البرونز. كان ألعازر جالساً خلف مكتب ضخم ولم يكن جيوفاني قادراً على رؤية سوى جمجمته المغطاة بقبعة بيضاء. رفع رأسه.

- آه يا عزيزي! كم أنا سعيد أن تكون قد استرحت. اقترب إذن.

كانت نظرة جيوفاني لا تتمكن من مغادرة آلاف الكتب المرتبة على الرفوف الخشبية، التي يبدو معظمها أنها مخطوطات قديمة. دار حول المكتب وتأكد أن المعلم كان مشغولاً في كتابة نص على شهادة جامعية. - هذه الكتابة هي بالعبرية أليس كذلك؟

- صحيح! هل سبق أن رأيت مخطوطات مكتوبة بهذه اللغة؟

- مخطوطات كلا، لكنني سبق أن رأيت أحرفاً عبرية في بعض الكتب. أجدها جديرة بالملاحظة: كل واحدة منها تشبه عملاً فنياً.

- بعض القبلايين يمشون حياتهم لرسمها لكي يتشبعوا بقواها وبمعناها الغني جداً.

فكر جيوفاني بكلام إيستير، وتابع:

- تظن إذن أن للأحرف قوة ومدلولاً بذاتها، خارج أي جملة؟

- هذا خاص بالإثني والعشرين حرفاً المؤلفة للهجائية العبرية، كل واحد غني بالكمون والافتراضيات، وأنها تطلق قوة لا يمكن تخيلها. إن لفظ أي واحد منها يعادل رواية أو تلاوة صيغة سحرية: لا نخرج منها سالمين.

إلى جانب الشهادة وُضعت رزمة من الأوراق عليها كتابة منمنمة باللاتينية مزينة برسوم تمثل الكواكب.

تمغنت نظرة جيوفاني بفعل هذه الرسوم. تسلى بها العازر:

- آه منجّمنا مأخوذاً بدائرة الكواكب!

- اعذرني... لقد أخذ نظري بهذا الشرح المصور بغرابة، حيث الشمس وسط الكون لا الأرض.

- بالفعل!

- هل أنت من وضع هذا التمثيل الغريب للكون؟

- كلا، هي رسالة من صديق، عالم بولوني كبير يخبرني عن نظرية تغلب تمثيلنا للعالم.

- بولوني؟ تابع جيوفاني مندهشاً.

- بولونيا بلد في شرق أوروبا. ارتبطتُ بعلاقة صداقة مع فلكي بولوني يدعى نيكولاس كوبرنيك. كنا قد تلاقينا منذ بضع سنوات أثناء إقامتي في بولونيا.

- ماذا يؤكد إذن هذا الرجل، هل من شيء مدهش؟

- الأرض تدور حول نفسها، والأفضل أيضاً أنها ليست في مركز (كوننا)، كوكب كسائر الكواكب تدور حول الشمس.

- بقي جيوفاني مذهولاً. كيف يمكن تأكيد شيء من هذا القبيل، في حين أن تجربة المرافعة اليومية أظهرت لنا أن الشمس هي التي تدور حول الأرض وليس العكس!

- أدرك مفاجأتك، يا ولدي، تابع العازر بنظرة ماكرة. أنا بالذات، للمرة الأولى التي أخبرني فيها كوبرنيك، في سرية كاملة، عن فرضيته، كنت مندهشاً مذهولاً جداً. الشمس مركزية، أي الشمس هي المركز ليست جديدة. أرستارك دوساموس سبق أن صاغها في العصور القديمة. لكن كوبرنيك يقدم اليوم البرهان الحسابي.

- نظرية من هذا النوع لا تصدم فقط المعنى الشائع، فهي تعيد طرح مسألة سلطتين كبيرتين ثقافتين اللتين هما التوراة وأرسطو.

- هذا هو سبب أن صديقنا يتقدم بحذر. سبق أن جمع الكثير من البراهين العلمية ليدعم فرضيته، لكنه ما زال يتردد في نشرها، فهو يجازف بأن يعاقب من الجامعة والكنيسة.

- و... أن نؤمن أن طرحه معقول؟

- ليس فقط معقولاً. بل أكيداً!

أصيب جيوفاني برعشة في ظهره ورقبته.

- لكن إذا كانت هذه النظرية صحيحة وأنتك تصدقها، ماذا سيكون مصير التنجيم الذي يركز كلية على علم الكون لأرسطو وبطليموس اللذين يضعان الأرض في مركز الكون؟

- هذا لا يغير شيئاً.

- لا أفهم؟

- هذا لا يغير شيئاً، لأن التنجيم، بعكس الفلك الصاعد، ليس معرفة علمية، بل رمزية. لا يهم المنجم أن تدور الشمس حول الأرض أو العكس! ما يحسبه، هو موقع الإنسان الذي يوجد موضوعاً، بحسب مشاهدته في مركز الكون، لا يقول المنجم كيف هي السماء بحد ذاتها، بل كيف هي السماء بالنسبة لفلان من البشر، في تلك اللحظة وفي ذلك المكان المحدد. رمزياً يمكن متابعة التفكير أن الرؤية التوراتية أو

الأرسطوطالية، التي تجعل من الإنسان مركزاً للكون، هي موافقة. حتى ولو كانت تمثل خطأ علمياً.

بقي جيوفاني صامتاً، لم يكن متأكداً من استيعابه للأمر. مظهرًا ابتسامة أيضاً أكثر بهاءً، تابع العازر:

- من ناحية أخرى فكرت طويلاً أن المسلمات الفلكية للتنجيم كانت خاطئة لسبب مختلف تماماً!

- ما هو؟ سأل جيوفاني بخجل.

- بسبب ظاهرة تتابع الاعتدالات الربيعية أو الخريفية. ألا يعني هذا لك شيئاً؟

- كلا.

- في كتابه «تيمي»، يتكلم أفلاطون عن تدمير جزئي لأطلنتيد وسينقسم تاريخ البشرية إلى سنوات طويلة «كونية». في كل دورة، قد تحضر فصول تدمير وعصر ذهبي جديد. بيد أن السنة الأفلاطونية الكبيرة، نفسها الموروثة عن النظريات الفيثاغورية، تعود إلى دورة فلكية محددة بدقة. في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. بعد أكثر من قرنين من وفاة أفلاطون، تمكن العالم اليوناني هيبارك، مؤسس علم المثلثات، من القيام باكتشاف فلكي غريب جداً أعطى وزناً للنظرية الأفلاطونية. بمقارنة مشاهداته بمشاهدات الذين سبقوه، تحقق أنه بالنسبة إلى النجوم الثابتة، فإن النقطة الربيعية، أي النقطة التي منها تشرق الشمس يوم الاعتدال الربيعي - تنتقل ببطء باتجاه معاكس لسير الشمس في فلك البروج. هذا التراجع أو مبادرة الاعتدالين، يتم بواقع درجة واحدة كل 72 سنة. هكذا فكل 2160 سنة، فإن نقطة الانقلاب الربيعي، أي بشكل آخر، الاعتدال الربيعي يبدل إشارة برجه، لأن شريط السماء المسمى شريط البروج، الذي نلاحظ عليه مسار الشمس والقمر والكواكب الأخرى قد قسّم إلى اثني عشر برجاً متساوياً

يتألف كل واحد من ثلاثين درجة. يتطلب إذن 25920 عامًا لكي تقوم نقطة الانقلاب الربيعي بتقهقر يعادل دورة كاملة لفلك البروج. هل تتبعني؟

وافق جيوفاني محرراً رأسه.

نجد إذن عن طريق الفلك السنة الأفلاطونية الكبيرة القيمة بالنسبة لعلم التنجيم. هي أن دائرة علامات البروج لا تتوافق أبداً مع خريطة صور البروج لمجموعة النجوم. عندما أوجد البابليون علم التنجيم، فإن خارطة الأبراج المدارية، وخارطة الإشارات المرتبطة بنظام تنالي العصور كانت تتوافق تماماً مع البرج الكوني، وأبراج النجوم الثابتة.

سابقاً في زمن هيبارك، فإن الميلان بين الأبراج والتجمعات النجمية يقدر بالكثير من الدرجات. اليوم يقدر هذا الميلان بأكثر من ثلاثين درجة أي أن الأبراج التنجيمية التي تبقى ثابتة حول النظام الفصلي لا تتوافق أبداً مع التجمعات النجمية التي أخذوا اسمها.

- هذا يعني تابع جيوفاني أنه إذا ولدتُ في نهاية الربيع تحت برج الجوزاء، فإنني في الواقع أكون ولدت تحت كوكبة نجوم الثور.

- تماماً!

- عندئذ أي تنجيم يجب تصديقه؟

- المداري طبعاً. الذي يتابع استعماله كل المنجمين وحتى الفلكيين العالميين. لأن الشيء الوحيد الذي يهم هو ارتباط الإنسان في تسلسل طبيعي منظم والطريقة التي ستؤثر عليه من الطبيعة في لحظة ولادته. كذلك نحن مكيفون بسبب انتمائنا لعائلة وشعب ولغة ومكان جغرافي، في اللحظة التي أتينا بها إلى الأرض. وليس من المهم أن نولد في الربيع أو في الصيف أو في الخريف أو في الشتاء.

تذكر جيوفاني دروس معلمه لوسيوس، الذي كان يفسّر ويشرح كل

برج، ليس بمدلوله الأسطوري أو الكوكبي، بل أيضاً بتحويلات الطبيعة.
 - أفهم، لكن فرضية أو طرح كوبرنيك لا يجعل علم التنجيم الكوني ساقطاً لقيمة له، مثل تلك النظرة حول الاعتدالات الربيعية والخريفية، فهي تدمر أساس أي فكرة تنجيمية التي تضع الأرض في مركز الكون.
 - طبعاً! فهي تقوّض ادعاءات وطموح علم التنجيم، في أن يكون علماً بالمعنى الذي نفهمه من الآن وصاعداً أو أن يتركز على أساس علمي. لكن علم التنجيم عبارة عن معرفة رمزية وليس علمية. فهو يتركز على مشاهدات صارمة تركز على الوقائع. ذلك الحدث حصل في اللحظة نفسها التي كان فيها ذلك التوضع الكوكبي قائماً. لكنني لا أصدق، باستثناء الشمس والقمر اللذان يؤثران بعمق على حياتنا الأرضية، أن للكواكب الأخرى أي تأثير على الأحداث الأرضية وأقل من ذلك على مزاج الكائن البشري أو أحداث حياته.

- لكن ماذا يبقى من علم التنجيم الوقائعي الذي يركز كلية على دورات الكواكب وعلى اقترابها من الموضوع الكوكبي المتعلق بولادة الأشخاص.

- النجوم ليست سبب مزاجنا أو أفعالنا، لكنها تدل عليهم. لقد درست بلوتين أليس كذلك؟
 - فعلاً.

شرح فيلسوف الاسكندرية بوضوح في تساعيته (مجموعة من تسعة أشياء)، أن الكون يولّف كائناً متعضياً هائلاً والإنسان كان جزءاً من هذا الكل، غير أن ثمة قوانين توافق كونية بين الأجزاء التي تولّف هذا الكل. تلخص لوحة الزمرد بشكل واضح هذه الفكرة. ما هو في الأعلى هو كذلك الذي في الأسفل، والذي في الأسفل كالذي في الأعلى. هذا التشابه بين الجسم الصغير والجسم الكبير يشكل الأساس الفلسفي لعلم

التنجيم. الكون مبني بشكل تام لدرجة أنه يمكن التعرف في النظام الكوني، في لحظة محددة عن ولادة شخص، الترتيب نفسه يشكل بنية عقل الطفل الذي يولد. والنبى أشعيا يذكر أن هذا النظام الكوني هو مُرادٌ تماماً ومنظم من الله: «ارفعوا أعينكم وانظروا من الذي خلق هذه الكواكب والنجوم؟ ينشر جيشه بنظام» يناديهم جميعاً باسمهم، نشاطه عظيم وكذلك قوته لدرجة أن لا شيء ينقص.

فجأة، تأثر جيوفاني لهذا الحديث الذي ذكره، بالحوارات مع المعلم لوسيوس.

- كما تعرف حتماً، تابع القبلاي، أن مختلف الكواكب تمثل مختلف وظائف النفس البشرية، وأن توّضَع الكواكب بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر، موحياً أو كاشفاً الاستعدادات الداخلية لمزاج الفرد. الكواكب هي إذن ببساطة العلامة وليست السبب لمزاجنا وطبعنا والسبب نفسه لقدرنا.

وكما جاء في كتاب التكوين الأول فيما يخص الشمس والقمر: «أنها تستخدم كدلالات، للأعياد كما لأيام السنة أو للسنوات».

- ما يعني أننا لا نولد صدفة، لكن في لحظة معينة حيث النظام الكوني يتطابق بطريقة ما، مع وجه أنفسنا؟

- تماماً! إن نفسنا التي لها بعض الاستعدادات والتي تتطلع إلى هذا المصير أو ذلك، ستتجسد، ومن ثم تولد في لحظة تناغم وتناسق مع الكون كله.

- لكن من أين تأتي هذه الاستعدادات الداخلية التي تسبق ولادتنا؟ كيف يمكن لروحنا إذا صح القول اختيار لحظة تجسدها؟

نظر ألعازر بفرح إلى الشاب الإيطالي وهو يصفق بيديه.

- إنه السؤال الكبير، عزيزي جيوفاني؟ الأجوبة تتباعد بقوة بين تيار

فكري وآخر. بالنسبة لأرسطو، ما تناوله وطوره اللاهوتيون المسيحيون، أن نسمة الروح الصغيرة تأتي من الله وتتجسد في الجسد أثناء الحمل. هذا الجسد وتلك الروح والعقل هما فيما يخصهما ثمرة وراثية عائلية. يأتي الطبع المزاج إذن مما نقله أجدادنا لنا. لكن بالنسبة إلى أفلاطون وإلى بعض القبلايين اليهود، النفس البشرية، الروحية كما النفسية ترتحل وتهاجر من حياة إلى حياة وتختار وجوداً أو حياة جديدة بحسب ما سبق أن كانت قد راكمته كتجارب في حياتها السابقة. فهي تمتلك سابقاً مزاجاً وصفة سوف تمتزج مع وراثية الجسم الجديد الذي اختارته. لكنها تمتلك أيضاً معارف، انفعالات، مخاوف، استعدادات روحية متفاوتة الارتفاع، مكتسبة خلال حيوات أخرى. هذا ما سيجعل أن ذلك الطفل سيكون لديه خوف غير مفسر من الماء لأنه مات غرقاً أثناء حياته السابقة أو ميلاً مدهشاً للموسيقى أو للعلوم، لأنه سبق أن جمّع المعارف في هذه المجالات.

نظر ألعازر إلى ضيفه في أعماق عينيه.

- قد لا أكون مندهشاً أن تكون تلك هي حالتك بالنسبة للفلسفة أو

الدين، عزيزي جيوفاني!

تبسم جيوفاني موافقاً.

- لماذا إذن اخترت الولادة من عائلة أمية في قرية صغيرة في كلابري

وليس من عائلة نبيلة في مدينة كبيرة مثل روما أو فلورنسا؟

- قد تكون اخترت قدراً كان يمر بمرحلة تعلّم وتدريب تدريجي عن

كل حالات الحياة، وهذا لم يمنع أبداً نفسك من البحث وإيجاد معلمين

لإعطائك أعلى المعارف، على ما أعلم؟

- هذا صحيح، وأنا طفل كنت أتطلع إلى وجود آخر غير ذلك الذي

كنت أعيشه في قريتي، رد جيوفاني.

- أترى، لن أتمكن من القول بصورة مؤكدة ما إذا كانت الروح البشرية تمر بالعديد من الحيوانات، أو أنها تتجسد مرة واحدة في جسد واحد وعقل واحد مشبعين بالصفة الوراثية وتتجارب أهلنا وأجدادنا. لكن مهما يكن فأنا مقتنع تماماً بأمر ثلاثة.

لكي يؤكد كلامه بشكل أفضل، وضع القبلاي سبائته اليمنى على إبهام يده اليسرى.

الأول، هو أننا نلد مع متاع نفسي هام الذي يكيّف على الأقل بالمقدار نفسه ما تفعله الظروف المادية لولادتنا. مثل عائلتنا أو بلدنا. أشار الآن إلى السبابة.

الأمر الثاني، هو أن وجودنا ليس ثمرة الصدفة ويتضمن مسبقاً في شكل جنيني أولي، منذ الحمل والولادة، ذلك ما نحن مدعوون لنصل إليه.

ثم وضع سبائته على الوسطى في اليد اليسرى.

- الثالث أخيراً أن الحياة هي ما يشبه المدرسة التي هدفها الوحيد تعليم كيفية المعرفة وكيفية الحب. من أجل هذا سنمر بكل أنواع التجارب، المقبولة أو المؤلمة، التي تسمح لنا بالتقدم. تأمل وجودك، يا ولدي، وقل لي إذا ما كان يقدم مثلاً واضحاً عن ذلك؟

بقي جيوفاني حالماً بما لا يقبل الجدل، كان يمكن لحياته أن تكون مُعدّة مثل مجرى مساري أو مسافة مسارية مزروعة باللقاءات والعقبات وتيسير النجاح من قبل القدر غير أنه كان هناك سؤال يشغل باله منذ سنوات عديدة منذ أن التقى بلونا.

- لكن إذا ورثنا قدرأً وقليلأً من الفرح والمحن، فأين هي الحرية؟

- إذا كان الإنسان يملك حق الاختيار، وأنا مقتنع بذلك، - إلا إذا كنا نؤمن بانتقال الأرواح، وتلك هي مسألة أخرى - لا يمكن فيها اختيار

طبعه أو ضعفه، أو تكيف حياته أو الخطوط الكبرى لقدره . هذا يكمن فيما سيفعله بهذه الصفة وبالطريقة التي سيستجيب بها لأحداث حياته.

مثل الرجل كمثلته على خشبة مسرح عليه أن يقوم بدور محدد، مكتوب سلفاً من قبل فرد آخر. حرية التحرك لدى الممثل لا تنص على تبديل هذا الدور بل القيام به على طريقته بأفضل ما يمكن. هكذا فإننا لا نعترف بممثل كبير يلعبه أمير أو خادم، لكنه بالطريقة التي يلعب فيها الأمير أو الخادم دوره. لا يهم عندئذ أن تكون غنياً أو فقيراً، أن يكون لديك قدر متواضع أو مجد ظافر، أن تكون رجلاً أو امرأة، أن تموت شاباً أو عجوزاً، وهذا الذي يحسب هو واقع أن يستثمر حيالك بطريقة واضحة جلية، عميقة عادلة. تكمن الحرية البشرية أكثر من طريقة العيش منه في أنماط الحياة، التي هي في قسم كبير منها مملاة من طرف قوة عليا.

نهض العازر ببطء عن مكتبه وترك للحظات صديقه المنغمس في أفكاره. كان هذا الإدراك يذكره بما يقدمه الفلاسفة الرواقيون (الزينوونيون = نسبة إلى زينون) الذين درسهم لدى المعلم لوسيوس. تعود القبلانية إلى مؤلف ظاهرياً ثمين جداً بنظره لدرجة أنه وضعه برفق على مكتبه. نظر جيوفاني باهتمام إلى المخطوط وخيوط تنسيب أوراقه المصنوعة من جلد الغنم.

- وذلك صالح على المستوى الفردي وأيضاً على المستوى الجماعي، تابع القبلائي، واضعاً يده على الكتاب.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أن البشرية جمعاء تتقدم ببطء نحو إنجاز جماعي عجيب. أكيد، أنها لا تتقن المقاييس الأساسية، ولا الأجل. لكنها تبقى حرة في رسم اتجاه وشكل هذه المسيرة الجماعية، عبر خيارات جماعية وأخرى

شخصية لكل الأفراد الذين يكونونها. شئنا أم أبينا، نحن جميعاً مرتبطون ومتكاتفون بعضنا مع بعض. أي فعل أو فكرة إيجابية لرجل واحد ترفع وتساعد الإنسانية كاملة، بينما الفعل أو الفكر السلبي لفرد واحد يخفض ويضعف كل البشرية. نحن نسير معاً وفق بعض القوانين وبعض النظم الكونية.

- ما هي؟ سأل جيوفاني معجباً بتبحر المحسن إليه.

- هنا أيضاً، يعطينا علم التنجيم مدلولات ثمينة، أجاب العازر وهو يضرب على المخطوط الضخم الذي أحضره.

- أترى هذا الكتاب؟ تابع بصوت رصين: إنه مخطوط عالي الندرة يعود إلى أكثر من سبعمائة سنة.

إنه من تأليف الفيلسوف العربي أبو يوسف يعقوب ابن اسحق الطباخ الكندي.

الكندي، ما أن ذكر هذا الاسم، حتى قفز جيوفاني في مكانه، لقد تذكر كتاباً في علم التنجيم من عمل هذا المؤلف الذي يهتم به المعلم لوسيو أكثر من أي شيء آخر، تابع القبلاي:

- يتكلم عن القدر الجماعي للبشرية. كتب المؤلف أكثر من مئتي عملاً تعالج كل المواضيع: الطب، الفلسفة، الدين، الفلك والحساب، الجغرافيا، التنجيم، ومجالات أخرى. غير أنه كرس حياته لحساب اللقاءات الكبرى للكواكب طوال عدة آلاف من السنين وألف هذه التحفة التي يمكن تسميتها: الكتاب الكبير للمصير أو القدر الإنساني.

لم يكن بمقدور عيني جيوفاني أن تغادرا الكتاب. كان لديه الاقتناع الحميم: حتى ولو كان حبك الأوراق مختلفاً فذلك الكتاب نفسه الذي كان يملكه المعلم لوسيو والذي مكث معه عدة أشهر ليكتب الرسالة إلى البابا.

تابع العازر: كنت أحدثك منذ قليل عن انتقال نقطة الانقلاب الربيعي، التي تبدل برج الفلك تقريباً كل ألفي عام، يشرح مؤلف هذا الكتاب بقوة الأمثال الداعمة، إنه يمكن منذ ذلك الوقت إدراك المراحل الكبيرة في تاريخ البشرية عبر كل واحدة من الإشارات المجتازة من نقطة الانقلاب الربيعي. هكذا، تقريباً وقبل أربعة آلاف سنة ق.م، كانت شمس الربيع تشرق في تجمع برج الثور. بيد أن كل شيء يدعو إلى التفكير. في تلك الحقبة التي بدأ بها الإنسان حياة الاستقرار، وتشيد المباني من الآجر، وممارسة تربية الحيوانات. إن الاستقرار وتشيد الأبنية هما العلامتان الأكثر تمييزاً النفسية التي تمثلها العلامة الثانية لدائرة الأبراج لدائرة الأبراج. الأفضل أيضاً، أن كل ديانات تلك الحقبة، سومر، آشور وحتى مصر كانت تقدر صورة الثور. إنها عبادة تمثل الرجل الثور (نصفه رجل والآخر ثور) أو الإله المصري آبيس الذي له رأس ثور. بطريقة رمزية، فإن ميزات برج الثور كانت تتطابق تماماً مع ولادة ومصير الحضارات الأولى التي أعطت أسساً متينة للحياة الاجتماعية والسياسية. ومن ألفي سنة قبل يسوع المسيح كانت نقطة الانقلاب الربيعي تراجعت دائماً، إلى برج الحمل. التضحية الدينية الممارسة عندئذ كما يدل على ذلك تضحية إبراهيم، كانت عبارة عن كبش. الشعب العبراني المنحدر من إبراهيم سيجعل من الكبش والحمل حيوانات للتضحية بامتياز.

لكننا نجد في كل مكان صورة الكبش كما في مصر فإن رفعة آمون - رع إله الشمس برأس كبش يطابق في ذلك العصر الفتح، الغزو لكل من الإمبراطورية المصرية الكبيرة، الفارسية والمكدونية والرومانية. ثم إن مجيء يسوع المسيح كان متزامناً مع دخول نقطة الانقلاب الربيعي في كوكبه برج الحوت. أنت تعرف أن الحوت هو شعار المسيحيين الأوائل! إشارة الصليب كرمز للمسيحية جاءت بعد ذلك بكثير. طوال عدة قرون كان تلامذة يسوع يتعارفون (يتميزون) برمز الحوت أو السمكة الذي كانوا يرسمونه في سراديب الأموات أثناء فترة الاضطهادات.

- إلا أن المسيح قد اتخذ أوائل تلامذته من الصيادين الذين كانوا يعيشون في الجليل؟ سأل جيوفاني.

- نعم، لكن أيضاً كلمة حوت (سمكة) باليونانية ICHTUS، التي يرمز بالأبراج وبرج الحوت كانت مؤلفة من الأحرف الأولى للكلمات الخمس من الجملة

lesous Khristos Theou Huios Sôter التي تعني: يسوع المسيح ابن الله، المخلص. من أجل العودة إلى علم التنجيم سأضيف أن رمز الأسماك ينطبق كثيراً مع المعالم المسيطرة في الدين المسيحي: الشفقة، التضحية، أو نكران الذات، السعي إلى اندماج وتحقيق وحدة الجنس البشري.

توقف أعازر للحظات، كان جيوفاني ينظر إليه باهتمام.

- إذا أحسنت الفهم، فإنه بعد ألفي سنة بعد ميلاد المسيح، ستشرق شمس الربيع في برج جديد.. برج الدلو. هل ستدخل البشرية في حقبة جديدة؟

- حتماً.. سيعرف القرن الواحد والعشرون تبدلات عميقة للحضارات والأديان.

- هل ستكون تلك نهاية الدين المسيحي؟

- النهاية؟ لا أستطيع قول ذلك، لكن حدوث تبدلات عميقة طبعاً. احتمالاً في اتجاه أنسنة الدين، لأن الدلو، خلافاً للأبراج الأخرى، وجه إنسان أو ملاك. سوف نشاهد احتمال تطوّر حقبة جديدة مبنية على الإنسان والقيم الإنسانية، التي تبدأ بشقّ طريقها في عصرنا هنا. كما يدل عليه رمز البرج، فإننا سنعيش عندئذ تحت مملكة الفكر وسيرغب الناس تشييد حضارة جديدة مبنية على فكرة الأخوة البشرية. هل سيقومون بهذا متخلين من كل فكرة عن الله أو على تبطين الله في القلب البشري؟ لا أحد يعرف. وهذا دون شك سيستغرق قروناً عديدة.

- وهذا المؤلف لا يقول شيئاً محدداً عن عصرنا الذي هو في الواقع مخيب للأمل؟

- طبعاً نعم! باستثناء الدورات لأكثر من ألفي سنة التي تتوافق مع ظاهرة تراجع الانقلابين الفصليين. قام الكندي بحساب دورات اللقاءات الكوكبية الكبيرة وهذا خلال مساحة أو حقبة الحوت. أعلن أن اللقاء الكبير لزحل وجوبيتر الذي سيتم في برج العقرب في عام 1484 سيكون الإشارة المعلنة لتغيير كبير في الدين المسيحي.

اندهش جيوفاني.

- لكن أليس أبو معشر الفلكي الكبير هو الذي أعلن عن هذا التبشير؟ ألم يعلن أيضاً عن مجيء نبي جديد لا يتردد البعض على أنه «لوثر» المولود في هذا البرج؟

- أرى أنك على علم بهذه الأشياء! بحقبة أبو معشر الفلكي، أشهر المنجمين العرب، هذا التنبؤ ارتكز على حسابات تنجيمية للكندي، الذي كان أستاذه!

- إن هذا الكتاب الذي تحت يديك هو من تأليف عالم التنجيم الكندي الذي اعتمد عليه أبو معشر الفلكي؟ تابع جيوفاني متأثراً.
- هذا صحيح.

- ما هو اسم هذا الكتاب؟

جفر، أجاب القبلاي. هو دون شك الكتاب الأثمن في مكتبتني، لأنه لا توجد منه سوى نسختان في العالم.
نظر جيوفاني إلى محدثه متفاجئاً:
- كيف تعرف ذلك؟

- المخطوط الأصلي كتبه الكندي بالعربية. لكن كما يؤكد المؤرخ ابن خلدون في مقدمته، لسوء الحظ أنه فقد في القرن الثالث عشر عند احتلال التتار بغداد. هولوكو، حفيد جنكيز خان، لم يجد أفضل من إلقاء كل المؤلفات الموجودة في مكتبة الخليفة في نهر دجلة. كان الخلفاء يحتفظون بالمخطوطات النفيسة ذاتها بدل أن ينسخوها ويعطوها للعلماء. كان أبو معشر الفلكي قد علم به دون شك في حياة معلمه، لكنه كان آخر منجم يتمكن من قراءته.

لكن هذه النسخة التي لديك؟ تابع جيوفاني غير مصدقٍ.

- من حسن الحظ قام مساعد الكندي بنسخه سراً بالعربية قبل وفاة معلمه وقبل أن يسلم إلى حرس الخليفة. هذا المخطوط الذي تراه. اشتريته بثروة من أحفاده بالذات الذين كانوا يعيشون في قرطبة.

- هذا رائع، والنسخة الثانية التي تكلمت عنها؟

- قبل أن أشرتها، سمح مالكوها بنسخها باللاتينية مقابل مبلغ كبير بواسطة راهب مسيحي مولوع بالتنجيم ويعيش في قرطبة. لا أعلم ما إذا كان قد أضحي مصير ذلك المخطوط الوحيد الذي ما زال يعد موجوداً.

نظر جيوفاني إلى ألعازر محققاً.

- ماذا دهاك؟ سأل القبلاي المفاجئ.

- أنا.. أنا اعتقد معرفة ما كان قد حصل لهذا الكتاب.

- ما الذي تقوله؟

- معلمي كان يملك مخطوطاً يحرص عليه جداً أكثر من كل شيء، كان كتاباً متعلقاً بعلم التنجيم كتبه الكندي باللاتينية، له أبعاد هذا الكتاب ذاتها تقريباً. لم أتمكن أبداً من قراءته، غير أنني علمت من طريق خادمه، بيترو أنه اشتراه من فلورنسا من راهب لقاء مبلغ طائل!

داعب ألعازر لحيته بهدوء.

- ماذا حصل للمخطوط بعد وفاة معلمك؟

- أجهل ذلك للأسف! وأخشى أن يكون قد أتلف.

- كيف هذا؟

- هذه قصة طويلة جداً، أقر جيوفاني.

- لدينا ما يكفي من الوقت وأنه يهمني إلى أعلى درجة.

قص عندها جيوفاني على ألعازر حكاية الأسقف الذي جاء يطرح على معلمه سؤالاً مصيرياً من طرف البابا. والجواب الذي لم يتمكن أبداً من إيصاله إلى روما بسبب الرجال المرتدين السواد، وموت معلمه وبيترو المأساوي، ولقاءه مع أعضاء الرهبانية السرية (الخفية). نسي في كل الأحوال أن يقول له أنه كان ذاهباً إلى القدس بهدف قتل زعيمهم، لكنه شرح أن الكهف كان فارغاً عند عودته وجميع كتب معلمه، ومن ضمنها كتاب الكندي سرقت أو أحرقت من الرجال المرتدين السواد.

أصغى ألعازر إلى رواية جيوفاني بانتباه كبير، هذه الرواية ستسمح ليس فقط معرفة محاوره بشكل أفضل بل إنها كانت توضح أيضاً الدافع الذي أدى إلى كل هذه الجرائم.

- أليس لديك أي فكرة عما كانت تحتويه تلك الرسالة الموجهة إلى البابا والتي تركتها في البندقية؟ سأل القبلاي.

أجاب جيوفاني والتأثر يغمره أنه لا يعرف، وأن ما يعرفه أن معلمة اعتكف لعدة أشهر بصحبة كتبه التنجيمية لأجل هذا.

- أترى، لن أكون مندهشاً من أن سؤال البابا له علاقة بكتاب الكندي وعلامات رموز الأزمنة. لأن البابا بولس الثالث مولع بعلم التنجيم أيضاً، وكان عليه أن يتساءل حول معنى الدلائل القوية لاكتشاف العالم الجديد أو تشرذم المسيحية الغربية مثلي، كان يعرف شهرة معلمك. من المحتمل أنه كان يعلم بامتلاك معلمك النسخة الوحيدة باللاتينية لكتاب الجفر، من يدري؟ في كل الأحوال، اندهش أن يكون قد سأله حول عدة مسائل، مثل اقتراب نهاية الأزمنة أو ظهور المسيح الكذاب.

هذا ممكن جداً، لقد فكرت أنا بهذا، لكن شيئاً يحيرني.

كان ألعازر يصغي إليه بفضول كبيرة.

- لماذا زعيم المنظمة أو الرهبانية السرية التي قتلت معلمي لوسيوس وحاولت أيضاً قتلي قال لي: أن معلمي ارتكب جرماً أسوأ بكثير من كل جرائم البابوات أو حتى من جرائم لوثر الذي كان ييغضه؟ لقد ارتكب أشنع الجرائم. ولماذا بصق في وجهي وعيناه مهووستان غضباً. أتساءل جيداً لنبوءة نهاية العالم أو لدراسات الكندي حول الدورات الكونية الكبرى وصلاتها مع الأحداث الأرضية أن تغضب لدرجة الهيجان متعصباً مسيحياً.

- هذه الأقوال هي بالفعل غريبة. يمكن للبعض أن ينفذ صبره من إعلان تاريخ محدد لنهاية العالم، لأنه قيل في الأناجيل أن الله وحده يعرف يوم وساعة الدينونة. لكن لم يشر من قريب أو بعيد إلى نهاية الأزمنة في جفر ولن أتمكن من تخيل معلمك، الذي كان لديه إيماناً

مستثيراً ومعرفة جيدة بالكتب المقدسة المسيحية، أن يغامر في نبوءة من هذا القبيل. أتساءل مثلك ما الذي يمكن أن تمثله بالنسبة لمتحمس أو متعصب كاثوليكي شناعة الشناعة أو فاحشة الفحشاء.

بقي الرجلان صامتين.

- هل بمقدوري النظر إلى الكتاب؟ توصل جيوفاني أخيراً إلى طلب ذلك.

طبعاً! أجاب العازر ممسكاً المخطوط بكلتا يديه ناوله إلى جيوفاني الذي وضعه على ركبتيه وقلب صفحاته ببطء.

- كم هو مؤثر التفكير، لأن الأمر يتعلق الآن بالنسخة الوحيدة الموجودة!

- هذا محتمل.. لكن ليس أكيداً، صحح العازر.

رفع جيوفاني رأسه:

- كيف هذا؟

- لا شيء، بمنعنا من القول أن الكتاب اللاتيني الذي كان لدى معلمك هو الجفر وزيادة على ذلك أنه أتلف. ومن المحتمل أن يكون المتعصبون قد استولوا عليه قبل أن يحرق منزله؟ ممكن أيضاً أن يكون الراهب الذي يملكه، مهما يكن ما قاله لمعلمك، قد صنع نسخاً أخرى قبل أن يعطيه إياه؟

- هذا صحيح أيضاً.

- في كل الأحوال فإن هذه الجماعة (الأخوية) السرية، كانت مهمة برسالة لوسيسوس إلى البابا أكثر من اهتمامها بمخطوط الكندي الذي كان بإمكانهم اختلاسه بسهولة. أظن أنه توجب عليه استخدام حسابات الكندي ليصنع منها شيئاً. ليس له علاقة مع أسس الإيمان المسيحي.

لكن ماذا؟

- إن أعضاء منظمة الخير السامي يعرفون السبب، لأنهم يريدون بأي ثمن الحصول على تلك الرسالة.

- يعرفون طبعاً السؤال الذي طرحه البابا على لوسيوس لكنني أشك أنه كان لديهم فكرة عن الجواب. بيد أن هذا يهمهم إلى أعلى درجة، حتى ولو كان الأمر يتعلق بشيء يقرفهم ويقرزهم أكثر من أي شيء وليس لديك أي فكرة عن هؤلاء الناس، ولا عن دليلهم؟

كان جيوفاني تردّد في الكشف عن الشخص الذي يعرفه، لأنه كان عليه الكشف عن سبب سفره إلى القدس. غير أنه لم يكن واضحاً مع ذاته. طوال أشهر، كان قلبه يقضه الحقد ولم يكن يحلم إلا بالثأر. لكن منذ بعض الوقت، وخاصة منذ أن جاء إلى هذا البيت، هدأ قلبه وبدأ يتساءل ما إذا كان يتمنى الذهاب إلى القدس ليقتل زعيم المتعصبين.

كان بحاجة إلى مزيد من الوقت ليفكر بهذا. فضل إذن الكذب على العازر.

- لا أعرف. شيء واحد مؤكد، بعض رهبان دير سان جيوفاني في فينيري، هذا حيث استقبلت وعولجت، كانوا أعضاء في تلك المنظمة. من المحتمل أن تلك المنظمة (الإخوانية) كانت تجند أتباعها في العديد من حلقات الكنيسة، حتى في الفاتيكان.

في الحقيقة، يجب أن يكون تأسيس هذه المنظمة من طريق أسرار أحد المقرين من البابا، وقد يكون كاردينالاً. إن هؤلاء الرجال المرتدين السواد جاؤوا يبحثون عن جواب معلمك. وبما أن الرسالة لم تصل أبداً إلى صاحبها، فعليهم أيضاً البحث عنها. هل قلت لهم أنك كنت قد تركتها في البندقية؟

- حرصت كثيراً على ذلك! وحتى أكثر من ذلك أن أقول لهم أنني أودعتها إلى صديقتي الشابة، وإلا لكانوا عثروا عليها وعذبوها!

بدت المفاجأة على العازر.

- كنت قد أودعتها عند امرأة؟

- نعم، على الأقل لذلك أعطيتها مفتاح الخزانة الجدارية حيث كانت الرسالة مخبأة، لكنني أعرف الآن عن طريق زعيم المنظمة أنها لم تحمل الرسالة إلى روما.

- ما اسم تلك المرأة؟

تهياً جيوفاني ليجيب عندما ثبتت قوة داخلية لسانه في حلقة. لماذا يهتم القبلاي بهذه الرسالة؟ خوف دفين قبض أحشاه. وبقي صامتاً.
- اعذرني عن فضولي، لكنني أعرف الكثير من العائلات في البندقية وكم يكون مسلياً لو كانت هذه المرأة تشكل جزءاً منها.

في كل الأحوال إذا كنت ترغب يوماً ما أن تستعيد تلك الرسالة والحصول على أخبار عن تلك المرأة، فلا تتردد في أن تكلمني عن ذلك. لدي حسابات هامة، وعدد من الأشخاص يعملون في خدمتي في البندقية.

رد جيوفاني وقد جف حلقة: لن أتردد. لكن حالياً أرغب نسيان كل هذا.

نهض العازر وربت بصدقة على كتف جيوفاني.

- أفهم، وأنا، الآن، جائع جداً! أنت ضيفي هذا المساء.

لنذهب ونتنزه في البستان حيث الجو أجمل لتناول العشاء. ذهب العازر ليعيد مخطوط الكندي على أحد رفوف مكتبه. اكتشف جيوفاني بنوع من الاندهاش والمفاجأة أن هناك مخطوطاً آخر، له الحجم ذاته والسماكة، لكنه ذو حيكات أحدث عهداً، كان إلى جانب المخطوط القديم.

تناول العشاء مع ضيوفه الذين طرحوا عليه الأسئلة مطولاً، وكان

فرحه عظيماً لدى لقائه إيستير. روى جيوفاني لحظات مفتاح حياته. مع ذلك وبدافع الخوف الشديد، أقدم على تبديل اسم إيلينا مخترعاً علاقة غرامية مع فتاة ذات مستوى اجتماعي أقل مرتبة. في نهاية هذا العشاء الطويل، استأذنت إيستير منه بدمائة ولطف ظاهرين. متأثرة بشكل خاص برواية جيوفاني بينما كانت رطوبة الليل وهدوئه يلفان البستان، عاد الشاب إلى غرفته.

لم يجد النوم سبيلاً إليه. كان يفكر بتلك الزهرة اللطيفة بصحبة إيستير في ذلك البستان السفيروتيكي. لقد سحرت هذه اللحظة حياته. فقد أعادت له التفكير بشروحات ألعازر التنجيمية التي أيقظت في داخله ذكريات كثيرة عندما كان قرب معلمه لوسيو. لكنه بقي مشغولاً بشيء آخر. شعور، مازال غامضاً، وضعه في القلق والحزن. رغم أنه وجد سلام النفس والروح... «سنرى جيداً» قالها في نفسه محاولاً طرد هذه الأفكار المظلمة.

خلال الأسابيع الثلاثة، تعلم جيوفاني التعرف جيداً على البيت. و حياة أسياده الجدد. بالرغم من كونهم أغنياء جداً، كان أعاازر وإيستير يعيشان ببساطة، غذاؤهم الأساسي السمك والخضار الطازجة. وهذا هو غذاة عموم سكان مدينة الجزائر. كان القبلائي ينام في غرفة صغيرة نسبياً، دون أثاث أو ديكور، يعيش على بساط مفروش على الأرض. جيوفاني يعرف أيضاً من طريق الخدم أن غرفة إيستير تقع في الطابق الثاني تطل على البستان، تمتاز برونقها، لها غرفة حمام واسعة ومصطبة مليئة بالأزهار. المنزل يسوده جو من المرح والوداعة ثمانية من الخدم يعيشون في المكان نفسه يحبون سيدهم ويعملون تحت سلطة مالك المباشرة. مالك، مثل كل العبيد المعتقين. يخدم القبلائي منذ أكثر من عشر سنوات ويرافقه في أسفاره العديدة. أعاازر يحب زيارة مكاتبه المهتمة بالصرافة خلال فصلي الخريف والشتاء في فترة من السنة حيث يسافر الناس قليلاً بسبب سوء الأحوال الجوية، والقراصنة يستقرون في بيوتهم أيضاً، هذا التوقيت للسفر بنظره، أفضل من الإحساس بالغثيان الناتج عن تأرجح وممايل السفن ذات الحمولة العالية. كان أعاازر معروفاً ومحترماً بشكل واسع، يقدر أن يسافر إلى أي بلد في أوروبا أو الإمبراطورية العثمانية، ومرتاحاً مع المسيحيين والمسلمين معاً. ومن شهر أيار لغاية تشرين الأول، يفضل العمل في الجزائر ويستقبل القليل من الزوار بهدف التركيز على دراسة الفلسفة والدين.

أعاازر يهودي مؤمن وممارس للطقوس اليهودية، ينهض باكراً ليتلو هذه

الصلاة القصيرة: «أشكرك، أيها الملك الحي والأزلي، لأنك شملتني بحبك، وجعلت نفسي، كبيرة بخلصك». ثم يغسل يديه كرمز للطهارة ويرتدي شاله الكبير المربع الشكل، وشرابات طويلة من الصوف تسمى تسيستيت تمتد في الزوايا الأربع للشال، حسب كلام الله مع موسى: «قل لهم ليضعوا أهداباً على أذيال ثيابهم مدى أجيالهم، ويجعلوا على أهداب الذيل سلكاً.. سترها وستذكر وصايا الله». ثم بواسطة سَيْر (حزام) من الجلد، كان يثبت إلى ذراعه الأيسر محفظة صغيرة مربعة مصنوعة من الجلد المصبوغ بالأسود وأخرى على الجبين. المحفظتان تدعيان تيفيلين، تحتويان على أربعة مقاطع من التوراة التي توصي المؤمن أن يربط الكلام الإلهي كإشارة على ذراعه وبين عينيه، ترمزان إلى أن عقله وفكره مستوحيان من القانون الإلهي. وأحياناً يستمر العازر جالساً في غرفته أمام طاولة منخفضة عليها عدة رزم ملفوفة متنوعة، ويستمر في الصلاة حتى شروق الشمس. كانت صلواته مؤلفة من تراتيل، وتبريكات يتبعها على التسلسل بمزامير وأناشيد دينية. بعد طعام الغذاء والعشاء وقبل النوم، يختلي من جديد في غرفته للصلاة. أما الباقي من النهار فكان مكرساً بشكل رئيسي للدراسة في مكتبته - المكتبة الفسيحة. يذهب على الأقل مرة واحدة في الأسبوع إلى الكنيس حيث يطلب غالباً من الحاخام قراءة وتفسير التوراة مع إيستير، بالرغم من أن هذا لم يلاحظ فوراً، اكتشف جيوفاني تدريجاً أن بعض الأطعمة كانت محرمة: مثل الخنزير، الأرنب، الحصان.

أما بالنسبة إلى ضيوفه فكان يتجنب مزج وخلط الأطعمة، مثل اللحم ومشتقات الحليب، التي تطبخ وترتب في آنية مختلفة.

أدرك جيوفاني أن في الجزائر العاصمة طائفتان يهوديتان مختلفتان. أولئك الذين كانوا يعيشون منذ زمن قديم والذين تأقلموا مع اللغة والثقافة العربية منهم الخياطين، طرازين أو الصاغة والرهان الذين يمارسون القروض مع الفائدة. ومن ثم أولئك الذين كانوا يدعون باليهود الفرنجة أو أيضاً الليفورنيين الذين وصلوا حديثاً من أوروبا (من ميناء ليفورن في إيطاليا)

يعاملون عامة بسبب ثرائهم وعلاقاتهم، ومعظمهم من التجار وأصحاب المصارف. في جميع الإمبراطورية العثمانية كان لليهود نظاماً خاصاً: أهل الذمة أي الأقلية الخاضعة لكنها المحمية، هذا ما يحميها من أعمال القتل والسطو، وسلب الأملاك مقابل ما يدفعون من ضرائب باهظة. لكن إيستير أفضت إلى جيوفاني أن اليهود كانوا يعاملون في الجزائر معاملة أقل من معاملة أي عبد. من أجل ذلك كان مالك يكلف دائماً خدماً من المور، لا من اليهود ليقوموا بالمشتريات في المدينة.

اكتشف جيوفاني أيضاً الطريقة التي يعيشها سكان الجزائر في حي القصبية. الشارع يشكل الحيز أو الميدان المشترك. وهو مكان للعبور واللقاء والشراء. الشوارع ضيقة وظليلة ومزدحمة، المنزل يبنى بشكل فسحة خاصة أو عائلية؛ هذه الفسحة الحميمة، على الأرجح مظلمة، لكنها محمية كلياً من الخارج، لا توجد أي نوافذ، باستثناء بعض الكوى للرؤية في الطوابق الأخيرة من البيوت حيث يمكن أن ترى ولا تُرى، تطل على الشارع، حسب تقاليد الموري، جميع البيوت مبنية حول ساحة تسمى صحن الدار التي هي عبارة عن فتحات سماوية مزينة بالنباتات العطرة الفواحة ونوافير المياه والأحواض. درج من حجارة الرخام يصل إلى جميع الطوابق والغرف، مخدومة بممرات تدور حول صحن الدار. بعد ذلك تأتي المصاطب، التي تغمرها الشمس، وهو حيز للعيش المشترك الخاص والعام، حيث الأطفال يلعبون والنساء ينشرن الغسيل ويتكلمن مع بعضهن من منزل إلى آخر.

خلال الأسبوعين الأولين، تجنب جيوفاني الخروج إلى المدينة. عليه قضاء أوقات طويلة على المصطبة الصغيرة قبل غياب الشمس، في تأمل المدينة والإصغاء لضجيجها، كان يتأمل بانفعال (تأثر)، جمال الضوء الذي يميل على أسطح المنازل المتراكبة. ثم يتحول بصره ويطيء إلى المصاطب التي تنزل على شكل مدرجات حتى البحر. مثل درج رائع. وهكذا بدأت الجزائر تفعل سحرها بجيوفاني.

كان يشارك مرتين أسبوعياً طعام العشاء مع مضيفيه.. والأحاديث، المهمة دائماً والشيقة، تنصب حول المواضيع الأكثر تنوعاً، روى له العازر طفولته في قرطبة والأحداث المأساوية عندما طرد منها مع كامل عائلته وهو في سن ست سنوات. لقد أمر الملوك الكاثوليك طرد اليهود من إسبانيا، وفي يوم واحد صودرت جميع أملاكهم. كان والده ياكوف (يعقوب) قبل ذلك مصرفياً، لم يجد أي صعوبة في الهجاء والاستقرار في الجزائر. كان ألعازر يحب السفر إلى أوروبا وقرّر، في أحد المرات، أن يصبح راشداً (بالغاً)، ويستقر في بولونيا. تزوج للمرة الأولى، من راشيل التي توفيت نتيجة مرض دون أن تنجب له طفلاً. بقي أرملاً لبعض الوقت، ورث مؤسسات مالية (مصرفية) عن والده وأسس منها الكثير. في سن الأربعين سنة، تزوج من جديد من باتشيفا، والدة إستر وعاد ليستقر في الجزائر مع مكتبته ليكرس مزيداً من الوقت لدراساته القبلانية. بعد الوفاة المأساوية لزوجته الثانية، قرر العيش وحيداً مع ابنته الحبيبة.

اعتادت إيستير منذ طفولتها على مرافقة والدها في كل أسفاره. وهكذا تعلمت عدة لغات وقرأت العديد من المعتقدات والطقوس الأوروبية المسيحية وفي الإمبراطورية العثمانية المسلمة. كان والدها يستغل إقامته في الخارج ليجعلها تقابل أمهر الفنانين والعلماء وخصّص لها في الجزائر مدرّياً ومربياً درّسها اليونانية واللاتينية والفلسفة.

أخذ والدها على كاهله أن ينقل إليها معرفة العبرية، التلمود والقبلانية. أصبحت إيستير في عمر العشرين سنة امرأة ذات ثقافة متميزة، غير أن جيوفاني اكتشف أنها تملك مهارات أخرى كثيرة: تمارس التطريز وتحب الاعتناء بالبستان وتغني بمصاحبة القيثارة. المرة الأولى التي سمعها فيها تغني، داعة صوتها اللطيف الدافئ بألحان طويل مع الآلة، حدثت له صدمة. فقد خاف أن تتوقف الفتاة عن الغناء عندما تراه، بقي متجمداً عند جذع شجرة أرز. أكثر من ساعة وروحه مشوشة يصغي إلى إيستير وهي تغني مزامير.

في المساء التقى الفتاة في البستان ولم يتمكن من منع نفسه القول لها أنه أعجب بجمال غنائها.

- لم أكن أعرف أنك كنت تنصت، وإلا لتوقفت في الحال! أجابته متفاجئة.

- لماذا؟ إن الإستماع إليك يبعث في النفس نشوة فائقة..

أخفضت إيستير عينيها.

- أغني إلى الله، لأن نفسي مليئة بالفرح أو الحزن، وليس لإغواء الرجال.

- فهمت ذلك، غناؤك لأمس روحي، أنت امرأة مدهشة، بينما الفتيات

النبيلات والجميلات اللواتي عرفتهن في البندقية انشغالهن الرئيسي

الخروج، الذهاب إلى الأعياد والعناية بجمالهن والعثور على زوج، أنت

تقضين الجزء الأكبر من وقتك في هذا المنزل، لا تستقبلين أحداً مطلقاً

وتكرسين وقتاً كبيراً للصلاة ولقراءة الكتب والغناء وللتنزه في هذا البستان

العجيب السحري ومن ثم للتأمل الطويل.

ضحكت إيستير بفرح.

- أنت محق بالسخرية مني! علي أن أعقب على شعورك، بأنني لا أهتم

إلا بالدين.

لا أهزأ بك مطلقاً! لا أراك أبداً تفعلين شيئاً آخر غير تغذية نفسك

وفكرك.

- هذا صحيح، إنها واحدة من تطلعاتي الرئيسية: العلم القبلائي،

الطقوس الدينية، مثل الفلسفة أو معرفة الأديان الأخرى جميعها بالنسبة لي

طريق من ضمن طرق أخرى لأسلك حياة جديدة بالموهبة التي قدمها لي

الله.

- وما هي الطرق الأخرى؟

جلست إيستير على أرجوحة بينما جيوفاني يجلس قبالتها إلى جذع

شجرة تين. تتأرجح ببطء وهي تنظر إلى السماء. بدت غائبة قليلاً كما لو أنها مأخوذة برقص الغيوم أو العصفير وأخذت وقتها للإجابة.

- منذ طفولتي، لم أتطلع إلا لشيء واحد: الحب، الحب أكثر ما أمكن. إذن أنا أبحث عن المفاتيح التي تسمح لي بلوغ هذا الهدف بأحسن حال. أبحث عنه في الأفكار ليكون قلبي موجهاً بأفكار صحيحة وعادلة. لكن أيضاً عن طريق الصلاة والتجربة الداخلية، لأنني مقتنعة أن أي حب يأتي من الله. أفتش عنه أيضاً في الفن، لأن الجمال والتناسق يرفع قلبي، أبحث عنه في ذاتي. أحاول كل يوم تعلم معرفة نفسي بشكل أفضل، فهم ذاتي ومحبتها، لأنه قيل في الشرع: «أحبب قريبك كما تحب نفسك» طبعاً أنا أبحث عنه، وخاصة، في العلاقة مع الآخرين. كيفية الإصغاء، المشاركة، المساعدة، العيش بشكل أفضل مع أولئك الذين وضعهم الله حولي؟

كان جيوفاني يصغي دون أن يرفع نظره إليها. كلما أمعن النظر لاقط كلماتها صدى في داخله وزاد حبه لها. لم يتصور أبداً أن امرأة من هذا النوع يمكن أن توجد على الأرض.

- أنت ساحر، يا جيوفاني! يقال عني أنني سرّية، متحفظة وها أنا أفضي بأفكاري الخاصة الحميمة جداً إلى واحد عرفته منذ وقت قصير.

- لو كنت تعرفين كم أنا مدين لك.

- من الممكن أن لا نكون مجهولين أحدهنا بالنسبة إلى الآخر؟ لدي إحساس غريب مذكرك لأول مرة الأولى في الساحة، على وشك أن تعاقب. انتابني شعور بأننا نعرف بعضنا من قبل.

- هذا مستحيل! لكن الغريبة، أنني أشعر قليلاً بالشيء نفسه، لأن كل ما تقولينه لي يجد صدى عميقاً في داخلي.

- هذا ليس مستحيلاً.

- ماذا تريد من القول؟

بقيت إيستير صامتة للحظات عديدة.

- لا شيء، سنتكلم عن ذلك في يوم آخر. أسفي كبير، علي أن أفارقك الآن يا جيوفاني، لأن علي الخروج. شكراً لإصغائك. غداً، أنت من ستفضي لي أسرار قلبك!

نهض جيوفاني، قبل أن تتوجه إلى المنزل، وسألها: لاحظت أنك تتغيين يوماً كل يومين مع خادمك سارة. تحملان دائماً سلاً ثقيلة، أتشوق لسؤالك، إلى أين تذهبان محملتان بهذا الشكل؟
أخففت إيستير عينها دون إجابة.

- اعذريني، أنا رجل غير متحفظ، استدرك جيوفاني أمام ارتباك الفتاة الحزينة.

ثبتت إيستير نظرتها الجميلة نحوه.

- أرجوك، فضولك مشروع. لا أحب التحدث عن ذلك، لكن لا أحب أن تعتقد أنني أحاول إخفاء شيئاً ما عنك، أذهب عدة أيام في الأسبوع لزيارة عائلات فقيرة وأقدم لهم القليل من الغذاء.
برقت عينا جيوفاني.

- هل بمقدوري مرافقتك؟

- أنت ترغب مغادرة هذا المنزل للتنزه في المدينة؟

- نعم، لكنني أحب فعل ذلك برفقتك ورؤية الناس الذين تزورينهم.

- حسناً، لكن ليس اليوم، لأن من واجبي إعلام والدي ومالك، لكن لنلتقي في فجر يوم الغد عند مدخل المنزل.

بعد أذان الفجر مباشرة، ستطلب من يوسف أن يعطيك جلاباً واسعاً مع قلنسوة تخفي معالمك كرومي لكي لا يتمكن أحد من التعرف عليك، لأنه من المفروض أن تكون عبداً لمحمد وليس ضيفي.

ابتسم جيوفاني.

- إلى يوم غد إيستير.

في صباح الغد، ومع شروق الشمس، كان يقف جاهزاً أمام باب المدخل. أنهى المؤذن لتوه النداء الأول لصلاة النهار. ظهرت إيستير مباشرة مغطاة بشال كبير أبيض، تصحبها سارة. حيت جيوفاني بحركة من عينيها وسلمته كيسين كبيرين مملوءين بالموّن.

- خذ، لكي تفعل شيئاً ما!

أمسك جيوفاني بالكيسين، كلٌّ من المرأتين كانت تحمل أيضاً كيساً في كل ذراع. سحب الخادم القفل وأغلق الباب خلفهم. تسللوا في شوارع الحي الضيقة، كان جيوفاني متأثراً ومتوتراً لهذا الخروج الأول من ملجئه. الفرق الشاسع بين نظافة جمال بيت المصرفي الثري وقذارة الشوارع المجاورة. في ذلك الوقت ظهر بعض الأطفال يمشون في الشوارع وبدأ التجار إخراج بضاعتهم من المخازن. الجميع يلقون تحية الاحترام على إيستير. على مسافة مئة متر تقريباً من المنزل، قرعت إيستير باباً مهترئاً نخره السوس. حضرت عجوز لتفتح وهي تدمدم. عندما رأت إيستير، عانقتها بانفعال. عند الدخول إلى الدار الصغيرة غير الصحية، أخذ جيوفاني بالرائحة الكريهة. تحلّق ما يقرب من عشرين من النسوة والأولاد الذين يعيشون تحت قناطر صحن الدار على فرش (جمع فراش) بالية قديمة، وأدوات مطبخ عتيقة وأقمشة ممزقة.

تجمع سكان المنزل حول إيستير، التي أشارت إلى جيوفاني بوضع

الكيسين أَرْضاً، كان الأطفال الصغار يقفزون على عنق الفتاة، بينما الأمهات والكبار يفرغون، بصراخ كبير وتعليقات قوية، الأكياس المليئة بالغذاء والثياب الملونة. تبادلت إيستير وسارة الكلام لبعض الوقت مع النساء، ثم استرجعتا أكياسهما وغادرتا المكان مُودَّعين بعدد من الأولاد. ما أن وصلتا إلى الشارع، حتى أسرع جيوفاني بالتخفيف عنهما قالت إيستير: هاتان المرأتان اللتان فقدتا زوجيهما ولا أحد يريد هما،

إحتلتا الدار الصغيرة في هذا البيت العتيق المهجور ويعشن مع أطفالهن مثل المنبوذين. البعض منهن يتعاطين الدعارة ليتمكن من العيش، لتجنب ذلك أجلب لهن كل أسبوع الغذاء والثياب. - هذا رائع هتف جيوفاني.

- أجابت إيستير، كلا، ما سيصبح رائعاً هو أن تتمكن من إيجاد زوج أو عمل لهن ليعشن بكرامة. أحاول، مستعينة بنعمة الله، تدارك الأكثر إلحاحاً، لكن يجب القيام بأكثر من ذلك. سنهبط الآن إلى أكثر الأماكن انخفاضاً في المدينة عند أطراف الأحياء اليهودية والعربية؛ على أن أوصل المون والأدوية إلى عائلة كثيرة الأولاد حيث الأب مريض، ومتوقف عن العمل منذ عدة أسابيع.

في الحال: قرعوا باباً مطلياً باللون الأصفر، أنبوب مصنوع من الخشب أدخل فيه جلد معلق بطريقة مائلة في الثلث العلوي من الدعامة اليمنى لباب المدخل.

- لاحظت أن شيئاً مشابهاً كان معلقاً على مدخل منزلكم وعلى معظم أبواب الحي اليهودي، على ماذا يدل هذا؟
سأل جيوفاني.

- أجابت إيستير بابتسامة عريضة: هذه هي «معزوزة»، على الطريق

الضيق أحوال مكتوبة من الكتاب المقدس دوتيرونوم: «اسمعي يا إسرائيل: إلهنا الأزلي الإله الوحيد ستحيينه من كل قلبك، من كل نفسك وبكل قوتك. أن تبقى هذه الكلمات التي أمليها عليك اليوم في قلبك! ستعيدين تلاوتها على أبنائك وتقولين لهم أيضاً أن يجلسوا في بيتك بدل السير على الطريق، النوم بدل الوقوف، ستشدينهم إلى يدك كعلامة على جبينك وكعصبة، تكتبينها على دعائم بيتك وعلى أبوابك».

جاءت امرأة لتفتح الباب، بكت فرحاً لدى رؤية إيستير ورفعت ذراعيها نحو السماء وهي تلو أيضاً من الكلام.

- سأحدث معها لوقت طويل وبما أنك لا تتكلم العربية، الأفضل أن تنتظر خارجاً مع سارة، همست إيستير في أذن جيوفاني، الذي وافق بإيماءة من رأسه.

بينما كانت إيستير تدخل المنزل، جلس جيوفاني وسارة على الحافة العريضة الحجرية لبيت مجاور متصل بساحة صغيرة فيها منهل ماء. بدأ سكان الحي الحضور ملء جوارهم. فوجئ جيوفاني بالتحقق أن البعض يدفع بإنائه قبل الآخرين دون التسبب بأي صراع. صدم بعد ذلك من رؤية رجل عجوز، وقف في الرتل منتظراً دوره مدة خمس دقائق، ثم حضر ولدان وأخذوا دوره ومن ثم امرأة وبعدها رجل أسمر دفعه دون انتباه، وبينما كان على وشك التدخل، أمسكت سارة يده بقوة وقالت له جملة بالعربية لم يفهمها. لكنه قرأ في نظرتها بعدم التدخل. بقي إذن دون حركة. بعد عدة لحظات، جاءت امرأتان ونادتا على جيوفاني. أجابت سارة عليهن بدلاً عنه بجفاء، لأن المرأتان غادرتا وهن يصرخن ويلوحن بأيديهن. أخيراً عادت إيستير إليهما.

- لنعد الآن.

- كيف حال الرجل؟ استفسر جيوفاني؟

- لقد ساءت حالته، فهو يشكو من حمى مرتفعة مع رجفان يشبه البرداء.

- هذا بدون شك مرض معدٍ من طريق لسع البعوض.

لا يمكن فعل شيء، النباتات التي أعطيها له ستسمح بتخفيض الحرارة مؤقتاً فقط.

بينما كانوا متجهين إلى المنزل، روى جيوفاني على إيستير مشهد المنهل (عين الماء).

- أجابت إيستير: أولئك الذين رأيتهم يملؤون آنيتهم قبل غيرهم أصلهم من المور عرب أو مسيحيون أرقاء. الآخرون الذين تخلوا عن دورهم، مثل ذلك الرجل العجوز هم من اليهود. يسامحونا، لكن قيمتنا أقل من قيمة الرقيق.

هذه الرحلة القصيرة في المدينة أراحت جيوفاني كثيراً. من الآن وصاعداً سيطلب من ألعازر السماح له بالخروج مرة أو مرتين أسبوعياً. قبل القبلاني، لكن بشرط أن يكون دائماً مصحوباً بواحد يتكلم العربية. في الواقع، كان جيوفاني يحب خاصة مرافقة إيستير أثناء الزيارات التي تقوم بها للفقراء والمرضى. بدأ جيوفاني أن يكون معروفاً لدى سكان الحي الذين قُدّم لهم على أنه عبد مسيحي أعاره محمد.

اقترح ألعازر على الشاب أن يأخذ الكتب التي يرغب بها من مكتبته. استعار جيوفاني كتاب التوراة باللاتينية وحوار أفلاطون باليونانية. وبكل سرور عاد لينكب على قراءة هذه الكتب التي فتحت له في الماضي العقل على المسائل النهائية. بدأ القبلاني أيضاً بإعطاء جيوفاني بعض أعمال الترتيب في مكتبته، بمقابل هذا العمل الفكري

حاول أن يقدم خدمات في المنزل وأحياناً يطلب مالك مساعدته بصيانة البستان أو في أعمال البناء.

مع ذلك، بالرغم من جمال المكان، فإن فرح القراءة والتأمل في البستان، ودفء مضيئه وحبه لا يستير الذي لم يتوقف عن التزايد، لم يكن جيوفاني حقاً بسلام. أشياء كثيرة كانت تشغله وتمنعه من أن يكرس نفسه كلية إلى ملذاته المتعلقة بالجسد والعقل.

ظل يفكر يومياً بجورج القابع في السجن على بعد عدة أمتار منه. ازداد شوقه لرؤية صديقه، وخاصة أنه يريد مساعدته ليغادر أخيراً هذا المكان. في صباح أحد الأيام بينما كان غارقاً في بحر أفكاره، لحقته إيستير إلى مقعد في الحديقة. سألته عن أسباب حزنه. تكلم جيوفاني معها بانفتاح، أفضى لها عن قصة الفرنسي المؤلمة، وتشوقه لرؤيته وتألمه لعلمه أنه ما زال أسيراً. أصغت إليه إيستير بصمت وغيرت الموضوع.

ثم شغلته ذكرياته مع إيلينا وتلك الرسالة التي لم تسلّم أبداً إلى البابا. ماذا حصل للرسالة؟ هل تنتظره إيلينا أم أنها تزوجت؟ هل ما زالت تفكر به؟ لم كان يريد رؤيتها! بما أنه كان حراً في حركاته، ألم يكن بمقدوره الذهاب إلى البندقية؟ لكن البندقية تمثل المخاطر الكبيرة، بالنسبة إليهما. ومن ثم كان يشعر في أعماقه أن قلبه خمد طوال هذه السنوات، وأنه بدأ بالعيش فقط من جديد منذ بضعة أسابيع... وهو قرب إيستير. كان حبه لإيلينا أزلياً، بقي وجه الفتاة منقوشاً في داخله إلى الأبد، لكن شهوته لها بدأت تضعف تدريجاً مع مرّ الزمن والمحن. لقد عرف الآن أنه وُلد من جديد في تلك اللحظة كما تحيا الجمرات التي تنفخ عليها. لكن بما أنه أنضح عقلاً وأكثر تفهماً بأن لا يحاول أبداً رؤية حبيبته، فالأفضل له أن لا يوظف هذا الحب. هذا ما كان يقوله في داخله، بالمقابل فإن حضور إيستير اليومي أيقظ في داخله المشاعر العميقة واضطراب شهواني لدى جيوفاني. حاول في البداية النضال ضد انفعالاته ثم صمم

على استقبال وترك ما كان يولد في داخله يكبر وينمو دون مشروع ودون قلق سوى العيش الواقعي في كل لحظة.

مع ذلك يحصل أن يتساءل ما إذا كان قلب ابنة العازر حراً حقاً أو ما إذا كانت قادرة على الشعور بأحاسيس تجاهه. كل هذه المشاكل تحيط بفكره وذهنه، في اللحظة نفسها التي بدأ فيها الشك يساوره حول رغبته الحقيقية في متابعة طريق الثأر نحو القدس.

لكن في الوقت الحاضر، ما زالت هناك مسألة تشغله أكثر، منذ حديثه الطويل في مكتب العازر حول كتاب الكندي، شك رهيب يقض مضاجع جيوفاني لدرجة أنه لم يستطع إخراجه من ذهنه. تفصيل صغير فاجأه في الحوار مع القبلاي، وأشدّه ارتباكه لرؤية المخطوط الموجود إلى جانب الجفر. بينما كان يقرأ الكتب في المكتب، حاول الاقتراب عدة مرات من هذا المخطوط الشهير، لكن القبلاي أدخله في البحث عن كتب ومؤلفات في أماكن أخرى من المكتبة، ولم يتمكن أبداً من أن يكون لوحده في الغرفة. أصبح هذا الشك قوياً وضاعطاً على مر الأسابيع لدرجة أن جيوفاني قرر اليوم التأكد من حقيقة الأمر.

وفي ليلة غاب قمرها، وعند منتصف الليل، بينما جميع أهل البيت نائمون، نهض وخرج من غرفته، ونزل الدرج بخطى خفيفة إلى صحن دار الخدم قاصداً المطبخ. تمكن من العثور على شمعدان تلمسه وأشعله، ثم أمسك بسكين لقطع اللحوم وغادر الغرفة على رؤوس قدميه. أطفأ الشمعة وعبر صحن الدار الثاني قبل أن يجتاز الباب الأخير الذي ينتهي إلى البستان. سلك فيما بعد الدرج الذي يقود إلى الطابق حيث مكان المكتب - (مكتبة القبلاي). سار بمحاذاة الجدار حتى باب الغرفة. ويا لسعادته، عندما رأى أنه ما زال مفتوحاً. دخل المكتب وأشعل الشمعدان من جديد، وتقدم بخطى أكيدة نحو المكتبة وقلبه يخفق.

اقترب من الرف حيث المخطوطات القديمة، كان الجفر هناك، إلى جانب المجلد الآخر الحديث الصنع، وضع جيوفاني الشمعدان على حافة الرف وأمسك بهذا الكتاب الأخير.. هذا جيد، على ما يبدو لي نفس حبكة الصنع، سيكون أمراً لا يصدق فيما..

انفتح الباب بقوة، قفز جيوفاني من مكانه، دخل مالك إلى المكتب مصحوباً بخادمين آخرين مسلحين بالسيوف.

- ماذا تفعل هنا؟ قال العملاق الأسود بلهجة مهددة.

- أريد التحقق من شيء ما، أجب جيوفاني بصوت مرتبك.

- الليل؟ بالخفية؟ كنت تريد سرقة المخطوط القديم، أليس صحيحاً!

- كلا، أوكد لك ذلك.

أعطى مالك أمراً بالعربية إلى أحد الرجال بأن يغادر الغرفة فوراً:

اقترب مالك والآخر من جيوفاني.

- ولماذا تتجول بصحبة هذه السكين التي سرقته من المطبخ؟

- كنت خائفاً أن ألتقي بشخص يريد لي سوءاً، أقر جيوفاني.

- هنا؟ أنت تهزأ بي! سيصل سيدي قريباً وسيأمرني طبعاً بأن أحبسك

في الكهف.

وصل العازر بالفعل بعد ذلك بلحظات، وعلى الفور دخلت إيستير الغرفة بصحبة خادم آخر مسلح.

بدت مذعورة جداً.. الكل ينظر إلى جيوفاني، الذي أدار ظهره إلى

الحائط والمخطوط بين يديه.

- فاجأته وهو يسرق كتبك الأكثر قيمة، يا معلم.

- هذا كذب، ردّ جيوفاني.

- حسناً، فسّر تصرفك، يا ولدي. تابع العازر بصوت مطمئن، لماذا

أنت هنا، في وسط الليل؟ ماذا كنت تريد أن تفعل؟ ماذا كنت تخشى؟

كنت أخشى أن أقتل، ردّ جيوفاني الذي لم يكن أمامه منفذ آخر سوى قول الحقيقة.

- أن تُقتل في هذا المنزل؟ لكن لأي سبب؟

- لأنني كنت سأكتشف..

لم يتمكن جيوفاني من إنهاء الجملة لأن الخوف الذي كان يعتصر بطنه قوياً، تظاهر مالك بالاقتراب نحوه. ترك جيوفاني المخطوط على الرف مثل حيوان مطارد، وأمسك بسكينه.

- لا تقرب!

أشار العازر لمديره بأن لا يتحرك.

- ماذا اكتشفت؟ تابع القبلاي.

كان جيوفاني مذعوراً للغاية، تابع بصوت منفعّل:

- جئت لأكتشف أنك تملك نسخة الجفر المكتوبة باللاتينية هي

نفسها التي كان معلّمِي يمتلكها قبل أن يقتل.

- أبتي، ماذا يعني كل هذا؟ صاحت إيستير ونظراتها قلقة.

- لا تقلقي، يا ابنتي. فهمت ما يجري في رأس صديقنا.

ثم توجه إلى جيوفاني:

- أتظن أنني عضو في تلك المنظمة الأخوية السرية التي قتلت

معلّمك، أليس كذلك؟ أتخيل أن أولئك الرجال المرتدين السواد جلبوا

لي مخطوط الجفر باللاتينية بعد أن سرقوه من معلّمك؟ أعتقد أيضاً أنني

حررتك من السجن بهدف وحيد هو الإعلان عن مكان الرسالة

الموجهة إلى البابا؟ من أجل هذا تتسلح وترتجف؟

بقي جيوفاني صامتاً في البداية، ثم تابع:

- لا أعرف.. وجدتك ارتبكت عندما سألتني عن اسم المرأة التي

أوكلت لها مهمة تسليم الرسالة. ومن ثم وجدت أنك وضعت مخطوط

الكندي إلى جانب مخطوط آخر يشبه تماماً مخطوط معلمي، وأردت التحقق من ذلك.
- إذن تحقق.

- حدق جيوفاني بألغاز. لم يكن يعرف بماذا يفكر. هل وقع في فخ رهيب أو أن كل هذا من نتاج مخيلته؟ بالحقيقة لم يكن أمامه أي حل سوى فتح هذا الكتاب الكبير. في الوقت الذي بقي فيه محترساً أخذ المخطوط من جديد. صمت الأموات خيم على الغرفة. فتح الكتاب ويدها ترتجفان، بقي لبضع لحظات مجمداً، وعيناه محدقتان بصفحات الكتاب المفتوحة، ثم أعاده إلى الرف.
تنهد بعمق وتابع:

- لحسن الحظ أخطأت، هذا المخطوط هو أيضاً بالعربية. أنا آسف.
اقرب ألغاز بهدوء من جيوفاني، توقف قبالته وقال له بصوت دافئ حنون:

- هذا لا شيء يا ولدي، أفهم قلقك، لقد حاولوا قتلك مرات عديدة وحتى في مكان مطمئن مثل الدير، الآن اذهب واسترح ولا تخشى شيئاً. ليس لدينا أي صلة بالمتعصبين الذين يطاردونك.
غادر جيوفاني الغرفة بصمت، التقت نظراته بنظر إيستير وتمكن أن يقرأ فيها مزيجاً من القلق والشفقة. في اللحظة التي كان يمر فيها أمام مالك، شدّ هذا الأخير على ذراعه:
- اعتذر عن تصرفي.

رفع جيوفاني نظره نحو المدير برفق.

- لقد قمت بواجبك.

ثم التحق بغرفته، وارتمى على فراشه وأجهش بالبكاء، أصبحت نفسه محررة من حمل ثقيل.

في الغد، نهض جيوفاني صافي القلب، الشمس في قبة السماء، تناول كأساً كبيراً من الحليب واللوز وبعض حبات التمر ثم خرج، كعادته، ينتزه في البستان مع أمل اللقاء سراً بإيستير. وجود الفتاة أصبح ضرورياً لسعادته. يكفيه أن يراها مرة واحدة في اليوم ويتبادل معها بضعة كلمات أو أن يصغي إليها وهي ترتل، أو يراها تعمل في البستان ليأخذ باقي يومه عطراً مختلفاً.

في ذلك الصباح، كان يتمنى رؤيتها على انفراد رغبة منه بشرح تصرفه في الليلة الماضية. بما أن اليوم كان يوم الجمعة، يوم الزهرة (فينوس) وهو أيضاً ليلة السبت، عرف جيوفاني أنه لا يمكن رؤية إيستير بعد أن تكون الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب. ولتأكد من رؤيتها، قصد الحديقة وجلس على مقعد صغير من الحجر الأبيض قرب هيسد منهل النعمة. ظل جالساً لفترة طويلة ناظراً الماء وهو ينساب إلى الأرض عبر حواف المنهل الرخامية. فجأة، رأى إيستير قادمة نحوه. بدأ قلبه يخفق بسرعة، كانت مرتدية ثوبها الأحمر الجميل. اقتربت من المقعد، وبدا وجهها متأثراً بأحداث الليل.

- أنا سعيدة لرؤيتك يا جيوفاني، قالت بنبرة مطمئنة ومطبوعة بالجدية في آن واحد.

نهض جيوفاني وشد على يديها الاثنتين بين يديه.

أنا أيضاً، آسف جداً عما جرى مساء أمس.
 - لا تقلق، شرح لي أبي كل التفاصيل المتعلقة بتلك القصة المأساوية،
 أفهم أنه كان لديك بعض الشكوك بخصوصنا.
 مزقت هذه الملاحظة قلب جيوفاني.

- لم يكن لدي أي شك فيما يعينك إيستير، أوكد لك ذلك. لكن
 عقلي وفكري المعذبين ممكناً أحياناً من تخيل أن أبوك كان يقيم
 علاقات مع تلك المنظمة، هذه الفترة أصبحت لا تطاق مقارنة بالمعاملة
 الحسنة التي أظهرها نحوي وأنتي أردت التحرر منها.
 قاطعته إيستير وهي تسحب يديها بلطف من يديه وتأخذه إلى أعلى
 البستان.

- فهمت جيداً هذا جيوفاني، ووالدي أيضاً. لا تقلق لهذا، لكن
 أرغب في أن أقدم لك مفاجأة.
 - مفاجأة؟

- نعم اتبعني نحو كثير (التاج).

صعد الاثنان بصمت الممر الظليل الذي قادهما أولاً إلى منهل
 الحكمة ثم إلى كثير (التاج). شعر جيوفاني ببعض التوتر لدى الفتاة.
 قلق تحاول إخفاءه خلف ابتسامة بشوشة وتصرف متزن، ما أن وصلا
 أمام الغابة الكثيفة الأشجار التي تغطي أعلى مناهل البستان، التفتت
 إيستير نحو جيوفاني.

- انظر إلى البيت، في أسفل الممر المركزي.

ترك جيوفاني نظره يعبر الممر المحاط بالأشجار المعمرة وعلى البناء
 البعيد.

- الآن قل لي، عزيزي جيوفاني، ماذا ستكون في هذه اللحظة أعز
 أمنية لديك.

فوجئ بالسؤال، استعد للرد، لكن إيستير قاطعته ووضعت اصبعاً على شفثيه.

- أصمت.. هامة، هذه في الوقت نفسه لعبة وليست كذلك. قل لي بصدق، من عمق قلبك، ماذا ستكون في هذه اللحظة أعز أمنية لديك؟

فهم جيوفاني أن الفتاة لم تكن تمزح. شرعت بالإصغاء إلى قلبها. الانفعال الذي كان يشعر به عند النظر إلى إيستير، وهو يشم عطرها المنعش برائحة الليلك، ويرتجف تحت العذوبة اللذيذة لإصبعها على شفثيه، همس لها فوراً بالجواب. تجنب التفكير أطول من ذلك، لأنه خشي أن تنقصه شجاعته.

- أعز أمنياتي... أن يكون قلبك مربوطاً بقلبي، كما أضحي قلبي عبداً لقلبك.. أن يتعانق جسمانا وشفثانا لأن عقولنا ترقص على أنغام بعضها.

بدت إيستير مندهشة بالجواب، نظرت إليه محذقة.

أدرك أن انفعالاً كبيراً استولى عليها، واحمر وجهها كالورد.

- هل أنت صادق حقاً؟

شعر جيوفاني بروحه وهي ترقص.

- كيف يمكنك أن تشكّي بذلك؟ منذ أن رأيتك للمرة الأولى هناك، تعلقت روحي بروحك، ولا تمر دقيقة واحدة دون أن تزورك أفكارى. إيستير لم يهتز لها طرف، كانت نظرتها تبحث عن الحقيقة في روحها.

- وتلك المرأة التي أحببتها كثيراً والتي من أجلها تخلت عن كل

شيء؟

- وما زلت أحبها وسأحبها دائماً. لكنني أعرف الآن بأنني لن

أذهب للبحث عنها، أعرف أن حياتينا فرقهما القدر نهائياً، هي موجودة في داخلي كما لو أنها تعيش في عالم آخر ولم أعد أشعر لا بالشهوة ولا بالشغف لها.

أمالت إيستير ثغرها.

- منذ أن عرفتك، إيستير، أدركت، بدهشة تقريباً، أن قلبي حرٌّ بأن يحب من جديد، وكل يوم يمر يربطني بك بشكل أكثر. أنت تسأليني اليوم ما هي أميبي الأعرز وليس لدي أي شك: أن يكون قلبك حرّاً وأن يكون هذا الحب متبادلاً. أن أمسك يديك بيدي.. أن ألامس شفتيك بشفتي وأن أنتشي بعطرك.

رفعت إيستير رأسها فجأة، كانت الدموع تسطع في عمق عينيها السوداوين الكبيرتين ونظرتها تعبر عن حنان لا متناه. داعبت بلطف وجنة الشاب.

- آه، جيوفاني، لم أكن أنتظر أبداً أن تكشف عن هذه الأحاسيس. لم يسبق لي أبداً أن أحببت رجلاً، هل تعلم ذلك؟ قلبي هو قلب فتاة دون تجربة في الحياة.

تبادلا النظرات، الانفعال نفسه كان يجعلهما يرتعدان. وضع يده على يد إيستير، فامتزج الكحل الأسود، مع الدموع التي بدأت تنهمر على طول قدميها.

- قلبي حرٌّ، يا جيوفاني... ولا شيء سيقلب سعادة أكبر مما أقدمها لك.

- حيال هذه الكلمات شعر جيوفاني بفيض من السعادة يغمر قلبه بقوة، ضم إيستير بين ذراعيه، ثم نظر إليها من جديد وأضعاً برقة شفتيه على شفتيها، كانت شفاههما تتلامس بخجل بينما أصابعهما تتشابك بشغف.

- أنا سعيد جداً، تمت جيوفاني.

- وأنا! لو كنت تعلم! ومفاجئاً جداً أيضاً. حتى يوم أمس أيضاً، كنت أعتقد أنك ستغادر.

- لماذا؟ منذ وجودي هنا، استعادت نفسي السلام والطمأنينة وقلبي في حالة نشوة.

- رجعت إيستير إلى الخلف قليلاً لتتمكن من مشاهدته بشكل أفضل.

- هل أنت متأكد من أنك لن تريد العودة إلى بلدك؟

- أكيد.. أو عندئذ أعود معك.

غشاوة من الجدية توضع على وجه الفتاة.

- هل تعرف أية أمنية فكرت أنك ستعبر عنها؟

أشار جيوفاني برأسه معبراً عن جهله لذلك.

- هي أمنية العودة إلى أوروبا. أتيت لأعلن لك أنه في هذه الليلة وبعد

هذه المساءة أقنعت أبي بتأمين الوسائل اللازمة لك لمغادرة الجزائر، ولكن أيضاً إطلاق سراح صديقك الفرنسي.

بقي جيوفاني مندهلاً.

- هل فعلت هذا؟

وافقت، بنجمل:

- ما زال بمقدورك تغيير رأيك والمغادرة.. كنت سأفهم ولم أكن

لأحقد عليك.

رداً على ذلك، عانقها جيوفاني باهتياج.

- أحبك، إيستير، أتفهمين؟ أحبك وما أتيت على قوله لي جعلني

أتشبث بك أكثر. سأكون سعيداً جداً فيما لو تمكنت من تحرير جورج، لكن لن أغادر هنا أبداً من دونك.

- لكن جورج حُرٌّ.

- ماذا تقولين؟

- ذهب مالك لافتدائه من مدير أعمال السلطان هذا الصباح، من طريق صديق آخر مسلم. كانت هذه مفاجأتي لك، جيوفاني، كنت مقتنعة جداً أنك ستعبر عن رغبتك بمغادرة الجزائر مع صديقك!

- هكذا إذن كنت جاهزة لرؤيتي قبل أن أغادر، لكن زيادة كنت

تعطيني الوسائل؟

- إذا كانت تلك هي أمنيته الأعز، كما أعتقد بالرغم من حزني،

كيف لي أن أبقيك بأناية بقربي؟

نظر جيوفاني إلى إيستير طويلاً بأعماق عينيه. هذه المرأة لم توحى بالحب فقط، بل لم تكن تعرف التحدث عن الحب بشكل رائع. هي الحب، هي كل وجوه الحب: إيروس الشهوة (غريزة الحب)، ابنة الحب ووليمة لوهب الذات. في تلك اللحظة عرف أن قلبه لن يقدر على حب امرأة أخرى سواها مهما حصل.

- وأين جورج؟ تابع بصوت محطّم بسبب الانفعال.

- هنا.

- هنا؟

لننزل الرواق ونذهب لخانة صحن بيوت الخدم، أتريد ذلك؟

كان جورج قد وصل قبل ذلك بساعة، دون أن يعرف شيئاً عن أسباب افتدائه، فقد اقتيد إلى تاجر مسلم أوكله في الحال إلى مالك، ودهش لوجوده في منزل رجل يهودي، انتظر بفارغ الصبر من يشرح له عن سبب وجوده هنا. لكن لم يكن هناك أحد مهياً للإجابة على أسئلته. كان قد بدأ يتضايق في الغرفة الصغيرة المخصصة لاستقبال زوّار مدير أعمال العازر، عندما فُتح الباب رأى أمامه فجأة خيال جيوفاني بقي معقود اللسان.

ارتمى الشاب الإيطالي في أحضانه، وتعانقا طويلاً، ثم نظر جيوفاني في عينيه:

- جورج! كم أنا منسور برويتك من جديد!

- جيوفاني، وأنا أيضاً! لم أحصل أبداً على أي خبر عنك. ما الذي حصل لك خلال هذين الشهرين؟

- لم يحصل لي سوى الخير، يا صديقي، لم يحصل لي سوى الخير.

- لكن ماذا تفعل عند هؤلاء اليهود؟ كنت أعتقد أنك عبد لتاجر عربي؟

- لدي الكثير لأرويه لك، لكن أهم ما يجب معرفته دون انتظار، هو أنك حرّ.

بقي جورج متجمداً في مكانه.

- حُرٌّ؟

- نعم، جورج، حُرٌّ، حُرٌّ بالعودة إلى بلدك إلى بيتك ساعة تشاء. سيد هذا المنزل افتدى حريتك.

- لا أصدق ذلك، أجاب جورج وقد خامره الشك.
- أوكد لك.

جورج كاد أن يسقط أرضاً، اقترح عليه جيوفاني الجلوس.

بقيت إيستير مع مالك في صحن الدار، ذهب جيوفاني يبحث عنها.

- جورج، أقدم لك إيستير، الابنة الوحيدة لسيد هذا المنزل، بفضلها استعدنا الحرية.

تأمل الفرنسي الفتاة كما لو أن صورة العذراء ظهرت له. ارتدى على قدميها، وهو يلثمها اعترافاً بالجميل، أنهضته إيستير وقالت له بالفرنسية:

- باسم إيماننا وقناعاتنا، أبي، وأنا ضد ممارسة الرُّق (العبودية). عندما توحى لنا العناية الإلهية بفرصة لتحرير الأسرى، فهذا ليس سوى عدالة. أهلاً وسهلاً بك بيننا. سنساعدك في مغادرة الجزائر والعودة إلى بلادك عندما ترغب بذلك.

- لا أعرف ما أقول لأن دَينِي كبير وعرفاني بالفضل أكبر، زيادة أنت تتكلمين لغتي!

- لقد أقيمت مرات عديدة في جنوب فرنسا وفي باريس، أحب بلادكم الجميلة، أنت من الشمال على ما أعتقد؟

- من دنكرك! آه كم سيكون استقبالي لكما كبيراً في مدينتي مسقط رأسي!

- منذ كم من الزمن لم ترى أهلك؟

امتلات نظرات جورج بالأسى.

- منذ ثماني سنوات، وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً.

- حسناً، أعذك أنك ستمضي أعياد الميلاد بصحبتهم.

بقي جورج أسبوعاً واحداً عند عائلة العازر، في الأيام الأولى حاول إقناع جيوفاني بالعودة معه إلى أوروبا، لكن بعد أن عرف عائلة العازر وابنته بشكل أفضل، فهم الأسباب التي دفعت صديقه إلى البقاء في الجزائر.

هنأه على قدرة التأثير على قلب امرأة بهذا الجمال، مع ذلك فقد أثار العديد من الاضطراب لدى جيوفاني وهو يطلب منه ما إذا كان عازماً على الزواج من إيستير، وإعتناق اليهودية. حقيقة، كانت العلاقة الغرامية مع إيستير حديثة جداً إلى درجة أنه لم يكن يفكر بهذه المسألة، أكد له جورج أنه يستحيل ليهودية الزواج من مسيحي دون أن تنكر شعبها وتلقى سرّ المعمودية.. إلا إذا كان الرجل هو الذي ينكر المسيح ويختن.

أدرك جيوفاني أن جورج كان محقاً جداً، وكان مضطرباً لذلك. في نهاية المطاف، فإن مسألة الزواج لم تطرح أبداً بينه وبين إيستير وقد تكون الفتاة، كما في السابق إيلينا، لا تفكر إلا بالأشياء الممكنة. أو أنها تفكر فقط بحياة غرامية حميمة ومحترمة مع جيوفاني، وأنها ستتزوج فيما بعد من رجل يهودي حتى لا تخالف أمر والدها؟ هذه الفكرة جعلته يغوص في ضيق عميق.

حاول جيوفاني إخفاء هذا الاضطراب الداخلي الذي لم يخف على ذكاء ابنة العازر، لكن إيستير كانت بعيدة عن تخيل ما يدور في رأس صديقها، ووضعت ذلك الحزن على حساب المغادرة الوشيكة لجورج، وتساءلت فيما إذا كان لجيوفاني بعض الندم. من ناحيتها بدت قلقة جداً إلى درجة أنها فقدت الشهية والنوم، لم تكترث في عشية مغادرة

الفرنسي الذي كان عليه الالتحاق بقافلة مغادرة ميناء وهران قاصدة فرنسا.

أخذت إيستير جيوفاني جانباً في أعلى البستان وفتحت له قلبها:

- جيوفاني، إنني أرى الحزن يغمر روحك منذ بضعة أيام. أدرك سبب ذلك وأريد أن أقول لك أنه ما زال من الممكن أن تغير رأيك.

فتح جيوفاني عينيه مندهشاً.

- ليس من وعد يربطك بي، تابعت وهي تفرك أصابعها.

لن أنساك أبداً، لن ألومك أبداً لأنك تمنيت العودة إلى بلادك.. وحتى العودة إلى تلك المرأة من البندقية.

بقي جيوفاني مندهلاً، لقد أدرك لتوه سوء التفاهم الرهيب. ضم إيستير بين ذراعيه، بقدر ما استطاع، متخذاً هذا الفعل كقبلة وداع. شعرت الفتاة بياس يغمر روحها لدرجة أنها وضعت كل قواها لتتخلص من بين يديه وتهرب راکضة نحو المنزل. جيوفاني أدركها بسرعة ممسكاً بها. ضمها بقوة بين ذراعيه ونظر مباشرة في عينيها، إنها تبكي.

- إيستير، هذا احتكار رهيب، لست حزينا لأن لدي الرغبة بالمغادرة، لكن لأنني أحبك جداً!

بقيت إيستير متجمدة مذهولة.

- كيف يمكن أن نحب بإفراط؟ كيف يمكن أن نكون حزينين بسبب

الإفراط في الحب؟

- تذكري، لقد رويت لك كم كنت سابقاً بائساً لعدم تمكيني من الزواج من المرأة التي أحببتها لأن العادات تعارض ذلك. إيستير، ليس لدي الآن سوى خوف واحد يقضم قلبي: أن لا تتمكني يوماً من أن تكوني زوجتي.. لأنك يهودية وأنا مسيحي.

تنور وجه الفتاة ببطء.

- أنت تفكر فعلاً بالزواج مني؟

- إيستير، كيف يمكن أن يكون غير ذلك إذا لم أكن أحمل لك حباً صادقاً؟ كيف يمكنني أن أحبك من كل قلبي ومعرفة أنك يوماً ما ستزوجين من رجل آخر؟

- هل أنت راغب بالزواج مني، وتفكر أن أبي سيرفض إعطائك يدي؟

- أخشى ذلك كثيراً، فمنذ أن وضع جورج هذه الفكرة في رأسي فأنا لم أتم أبداً.

- إذن الأمر كذلك!

ارتمت إيستير من جديد على كتف جيوفاني.

آه يا حبي! وأنا لم أتم الليل مطلقاً بسبب فكرة أن لديك الرغبة بالسفر مع صديقك.

بحثت شفاههما عن بعضها والتقت وتعانقت.

- ليس لدى والدي من شغل شاغل سوى سعادتي ويحمل لك التقدير والعطف، لن يعارض زواجنا، أنا متأكدة من ذلك جيوفاني.

- لكن هل علي أن أتحول إلى اليهودية أو أنت إلى المسيحية؟

فكرت إيستير وقطبت حاجبيها.

- لم أفكر أبداً بهذه المسألة، بالرغم من أنني يهودية متمرسة، فإن والدي ربّاني دائماً على فكرة أن كل الأديان تتلاقى، ويجب أن لا تكون عائقاً أمام الزواج لأنه ليس لدينا الإرث الديني نفسه، بينما نملك الإيمان ذاته والسعي نحو الأساسي عينه؟

- إيستير، تعرفين، أنني عندما وصلت إلى هنا كانت لدي القناعة بأنني فقدت الإيمان. والآن لا أعرف جيداً ما يحصل لي، أصلي من جديد وأفكر بالمسيح، لكنني لست رجل دين كما بمقدوركم أن

تكونوا، وأخشى من أبيك أن يعطي من الأهمية أكثر مما تعتقدن إلى الطقوس والممارسة. فكري بأولادنا، فيما لو أعطانا الله: حسب أي دين سيربُون؟

- دين الحب، أجابت إيستير دون أي تردد.

ابتسم جيوفاني.

- أنت رائعة.

- وحده الحب هو الجدير بالايمان ألا تظن ذلك؟

- نعم، لكن الدين يتضمن أيضاً ممارسات، ورموزاً، وطقوساً.

- حسناً، ستقل لهم كلام المسيح وأنا سأعلمهم الصلوات اليهودية.

أنت ستربي عقلهم حتى أرفع المسائل الفلسفية وأنا سأربي قلوبهم لاستقبال أي كائن بشري، كائناً من كان، مرسلًا من الأزلي. ستعلمهم المبادئ الأفلاطونية، وأنا أعلمهم القبلانية. أنت ستعلمهم الإيطالية واللاتينية وأنا العربية والعبرية. في الصباح ستسلمهم إلى العذراء وفي المساء سأجعلهم ينامون على تلاوة صلوات أجدادي:

- إيستير أنا منذهل بما تقولينه، لكن أي كاهن أو أي حاخام سيقبل

أن يزوجنا، لأننا لسنا من دين واحد؟

- حسناً أنا سأتعهد... إذا لم يكن هناك من حل آخر.

نظر إليها جيوفاني بحنان.

- كلا، يا حبيبتي، أنا الذي سيختن. تألم شعبك كثيراً ولا أريد أن

تتخلي عن دين آبائك، أضيفي إلى ذلك أن يسوع كان فعلاً يهودياً ومختنًا في نهاية المطاف؟

ضحكت إيستير والتصقت بين ذراعيه.

- ما أن يغادر جورج، حتى أذهب وأكلم أبيك وسأطلب يدك منه،

أتريدن ذلك؟

- هو من سيعطيك الجواب، لكن بعد أن أعطيه رأيي.

بقيا طويلاً في أحضان بعضهما.

بعد الوداع الأخير غادر الدنكركي المنزل يتبعه مالك ليُسلمه إلى رئيس القافلة المغادرة من وهران. من هناك سوف يغادر إلى طولون ثم إلى دنكرك. في أقل من شهر، إذا ما تم ذلك دون أي حادث،.. سيكون في منزله. وعد جيوفاني بأن يكتب له إلى عنوان العازر ليخبره أنه وجد أخيراً عائلته.

ما أن غادر صديقه، فكر جيوفاني ملياً حول الكلمات التي سيقولها للسيد العازر.

في صباح الغد، لمح الرجل العجوز منفرداً في البستان، متأملاً تحت شجرة تين فقال في نفسه أن اللحظة مؤاتية واقترب منه.

- هل بمقدوري أن أكلمك عن شيء هام أو أنك ترغب أن يكون فيما بعد؟

- اجلس يا ولدي، أنا أصغي إليك.

- العازر، لقد استقبلتني في هذا البيت أولاً كأسير افتديته بطيبة خاطر، تعاملونني منذ شهرين كابن فعلي وأنا متأثر وفخور لعملكم السامي.

نجح جيوفاني في السيطرة على اضطرابه، ثم تابع، بنفس متقطع:

- تعلّم قلبي على معرفتك ومعرفة ابنتك، تدريجاً، تعلق قلبي بها لدرجة أنني لن أستطيع التفكير بالعيش بعيداً عنها، لست يهودياً، ولا جزائرياً وليس لي وضع مريح، ليس لدي ما أقدمه لها سوى الإخلاص والحب واستقامة الفكر بحثاً عن الحقيقة. العازر أنا أحب ابنتك، أحبها أكثر من حياتي وأتمنى صنع سعادتها. هل تقبل أن تعطيني إياها كزوجة؟
كان جيوفاني منفِعلاً جداً لدرجة أنه أخفض نظره.

بقي الرجل العجوز صامتاً، وداعب لحيته بهدوء ثم أجاب:
 كلمتني إيستير عن حبكما، الذي لم يكن سراً بالنسبة إلي. وسبق أن
 قلت لك أن إيستير قادرة على اتخاذ قرارها وحدها. وكذلك خدمي لا
 يعملون كعبيد، فإن ابنتي الحبيبة تبقى حرة بسلوك حياتها كما تشاء.
 فوجئ جيوفاني بجواب العلامة. بعد ثوان من التردد. تابع بنبرة أكثر
 تردداً:

- لكن هل ترون أي عائق أمام هذا الزواج؟
 - صليت إلى الله، بصفاء روعي أن يكون هذا الحب حقيقياً وقوياً.
 أخرج جيوفاني تنهدة عميقة دلالة على ارتياحه.
 - مثلما قلت لإستر، فإن هناك مسألة الاختلاف في الدين.
 أمسك الشاب نفسه.
 - بما إنكما لم تتربيا في التقليد الديني نفسه، فمن غير الممكن أن
 تتزوجا في الكنيسة أو في الكنيس.
 - للأسف أنا مدرك ذلك جيداً، لذلك اقترحت على إيستير أن أتحوّل
 إلى اليهودية.
 - قالت لي لكن ليست المشكلة هنا.
 ارتجف جيوفاني من الخوف.

تابع القبلاي بحزم: من الخطأ تبديل الدين بسبب الرغبة في الزواج،
 ابنتي وُلدت يهودية وستبقى يهودية. أنت وُلدت مسيحياً وستبقى
 كذلك. لكل تقليد ديني عظمتة أو بعده الوحيد ومن الضرر فرض إرادة
 تغييره. صورة قبلانية كنت أستخدمها أحياناً لأثير هذا التنوع في
 الأديان: تقول أن الله نقل إلى البشر نور وحيه في إناء، غير أن هذا الإناء
 انكسر من شدة الضوء. عندئذ انتشر الوعي الإلهي على كامل الأرض
 منكسراً إلى ألف شظية من الضوء. كل شظية هي ارتداء للإلهي وليس

من واحدة تتضمن الحقيقة كاملة. بالنسبة إلي: كل دين يملك إذن قطعة أو جزءاً من الحقيقة. في قمتها هي وحيدة لا بديل لها.. مثلاً، نحن اليهود، نجلب للإنسانية معرفة الله الواحد والخير ويجب علينا أن نكون الشهود لذلك من طريق قداسة حياتنا.. أنتم المسيحيون، تأتون بالكلام المؤمن ووجود يسوع، ابن الله وأكبر أطفال البشر. لا يوجد تعارض بين التقليدين، بل تكلمة عميقة. بدل أن نتقاتل ويحتقر بعضنا بعضاً، يجب أن يكون الإحترام المتبادل والتمازج، لأن الأديان كلها تحمل الحقيقة الإلهية نفسها، لدرجة أنه ليس لأي شعب أن يحملها بمفرده. تغيير الدين يعود إذن إلى إنكار شظية من النور الإلهي، واعتبارها كظلام أو رفض لهبة من الله.

فهم جيوفاني كلامه، ووافق على ما يقوله أليغازر من أعماقه، لكن ما العمل ليتزوج إيستير.

تابع بنجل:

- لكن إذن.. هل من الممكن الاحتفال أو القيام بزواجنا أمام الله؟

- لا أرى أي عائق، لكن نظراً لنقل التقاليد والآراء المسبقة، فهذا لا يمكن تخيله.

ستكون دائماً خائناً للمسيحيين وستعتبر إيستير كعاهرة بنظر اليهود لأن شرعنا يمنع عليها الزواج من غير اليهودي.

شعر جيوفاني بقلق شديد يمتلك نفسه ويشحب لونه. إذن لا يوجد أي مخرج وأنت ترفض إعطاءنا بركتك؟

- لم أقل هذا. ما هو صعب تصويره جنون في أعين الناس حتى الأكثر تديناً، يكون أحياناً صالحاً وعاقلاً وحكيماً بنظر الله. سبق أن أعطيت رأيي الشخصي إلى إيستير، هي أن زواجاً من هذا النوع حيث يحتفظ كل واحد بدينه يجب أن يبقى سرياً حتى لا يكون مصدر فضيحة وسوء

فهم في طوائفكم الدينية المختلفة. هذا سيكون من الصعب العيش به، لأن عليكما أن تظهرا كمسيحيين أمام المسيحيين ويهوداً أمام اليهود. إذا كنتما جاهزين للقيام بهذا الإكراه النفسي الثقيل، فإنني لا أرى مانعاً أن تعيشا معاً وأن يكون زواجكما مكرساً أمام الأزلي.

وأذهب أبعد من ذلك بأنني سأكون سعيداً جداً.

عادت إلى جيوفاني ألوان وجهه.

- لكن من سيقدر على مباركة زواجنا؟ كما كنت تقول بالضبط، لا يوجد أي كاهن أو حاخام يقبل بأن يزوج يهودية ومسيحي.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه ألعازر.

- أعرف حاخاماً يقدر على قبول فعل هذا الاحتفال بالسرية الكاملة.

- هنا بالذات؟

- كلا، في القدس.

- القدس!

- حسب ظني كنت تمنى الذهاب إليها للحج عندما أغار قراصنة بربروسة على سفينتك؟

- هذا.. هذا صحيح، تمتم جيوفاني، متضيقاً.

لدي مصرفاً هاماً والكثير من الأصدقاء في المدينة المقدسة.

سنغادر بعد ثلاثة أيام وسنكون هناك قبل عيد الميلاد، أليس هذا هو

المكان الأفضل الذي يتزوج فيه يهودية بمسيحي؟

القدس!

عندما لمح ألعازر من بعيد أسوار المدينة المقدسة، ترحل بسرعة عن جواده وركع على الأرض الصخرية. فعلت إيستير والخدم الستة اليهود والمسلمون الذين يرافقونهم الشيء نفسه.

تأثر جيوفاني دون شك أيضاً بهذه الشهادة للحب أكثر من واقع الاكتشاف لأول مرة لمدينة الملك داوود، المدينة، حسب الإيمان المسيحي التي مات وقام فيها يسوع من بين الأموات.

بعد أن رتل مزموراً بالعبرية، استأنفوا السير. دخلوا تحت الأسوار السمكية، وساروا في شوارع ضيقة، فوصلوا إلى معبد علقت على قائمته اليمنى ميزوزة. عملاق أسود في الثلاثين من عمره جاء وفتح الباب. فاستنار وجهه فرحاً.

- سيدي!

- يوسف، يوسف الطيب أجب ألعازر وهو يعانق الرجل الضخم.

كان يوسف عبداً سابقاً ثم أعتق، أصله من قبيلة مالك ذاتها، مثل مدير الأعمال، قبض عليه العرب وتربى على الدين الإسلامي الذي ما يزال يتابع ممارسته بحماس، وكان الحارس الأمين للبيت الذي يملكه ألعازر في القدس.

استقرت المجموعة الصغيرة المنهكة من جراء طول هذا السفر الذي تم

من طريق البحر وطريق البر. في المسكن الكبير وسط حي يهودي، وبالرغم من التعب، اقترح ألعازر على ابنته وجيوفاني أن يذهبا إلى جدار المبكى، مصحوبين بخادم يهودي اسمه يهوذا اجتازوا بعض الشوارع المقفرة ووصلوا إلى أسفل ساحة الهيكل.

جدار قديم يقف، أمامه العشرات من اليهود يصلون وهم يرددون آيات من التوراة. شرح له ألعازر أن الأمر يتعلق بالجدار الداعم للهيكل الثاني المرمم في الماضي في عهد هيرود، قبل ميلاد المسيح بقليل. وقد شيده قبل ذلك بألف سنة الملك سليمان، الهيكل الأول دمره بالفعل نبوخذ نصر تقريباً قبل ولادة المسيح بستة قرون. ثم الهيكل الثاني الذي شيده اسدراس أثناء عودة اليهود من منفاهم في بابل، ثم وسّع وجُمِل من قبل هيرود. وفي عام 07 للميلاد دمر القائد الروماني تيتوس المعبد كلياً هذا ما أعلنه المسيح لتلاميذه عندما قال لهم: أترون هذه الأبنية الكبيرة؟ سوف لن يبقى منها حجر على حجر إلا ويلقى أرضاً... لم يبق من هذا البناء سوى جدار الدعم الغربي.

- بعد تدمير الهيكل، شرح ألعازر بانفعال واضح في صوته، حرّم الإمبراطور اديان اليهود من دخول المدينة المقدسة، لكن العديد جاؤوا سرّاً ليصلوا ويكفوا أمام هذا الحائط، الأثر الوحيد الباقي للهيكل.

منذ ذلك الوقت دُعِيَ بحائط المبكى. بعد عدة قرون من ذلك، ظل اليهود متعلقين بعمق بهذا المكان وكانوا يجدون آلاف الحجج والطرق للذهاب إليه. رفع الإمبراطور قسطنطين هذا المنع. وأبقى الخلفاء المسلمون على التسامح ومنذ ذلك الوقت يذهب آلاف اليهود كل عام للحج أمام هذه الحجارة.

اقرب ألعازر وإيستير من الجدار، مدا يدهما ليلمسانه. دهش جيوفاني عندما رأى يد ألعازر وهي ترتجف، ثم صليا بالعبرية. بقي جيوفاني بعيداً قليلاً، لكنه شعر أيضاً برهبة هذا المكان حيث

الناس يصلون للأزلي بحماس منذ خمسة وعشرين قرناً. أغمض عينيه وشكر الله لهذا اللقاء مع إيستير وألغازر الذي أعاد لحياته سعادة بسيطة وحقيقية. بطريقة لا تدرك، بدأ الإيمان يعود إلى قلبه. في الوقت ذاته، فإنه لم يكن بحالة سلام. منطقة من الظل بقيت في داخله تمنع حب إيستير المضيء بأن يمتلك قلبه. هذا الظلام، تمكن جيوفاني من التعرف على سببه، لكن لم يتمكن من إبعاده: حقد دفين عميق حيال قتلة معلمه لوسوس كانت سبب مجيئه إلى القدس وجعلته يستفيق من جديد.

بعد أن صلى قرابة عشرين دقيقة أشار ألغازر لابنته إلى يهوذا وجيوفاني باتباعه، صعدوا الأدرج الواقعة على يمين الجدار ثم وصلوا إلى الساحة التي أشيد عليها سابقاً الهيكلان المهديان إلى «يا هفي». بنور قمر فضي، بناءان رائعان كانا أمام أعين جيوفاني المفتونة. بناء كبير أبيض محاط بأعمدة من الرخام وآخر مائل إلى الزرقة على شكل مضلع ثماني، تعلوه قبة مذهبة كلية، دلّ ألغازر جيوفاني على البناء الثاني.

- هذه قبة الصخرة، المسماة أيضاً جامع عمر، على اسم الخليفة الذي قرر بناءه في المكان ذاته حيث التقليد الإسلامي يحدد موقع رحلة الإسراء والمعراج التي قام بها الرسول إلى فردوس الله .

التفت ألغازر إلى الجهة الأخرى من الساحة ودل على البناء الأبيض. وهذا هو المسجد الأقصى، شيده الوليد بن عبد الملك بعد وقت قليل من انتهاء قبة الصخرة وبعد إعادة احتلال المدينة المقدسة من الصليبيين منذ خمسة قرون، وقد تحوّل الجامع إلى مسكن للملوك القدس.. قبل أن يعود ويصبح مكاناً للعبادة الإسلامية لدى استيلاء صلاح الدين على القدس بعد ذلك بقرنين. هذا المكان هو اليوم مكان العبادة الأكثر قدسية للمسلمين بعد مكة والمدينة حيث عاش النبي محمد.

بعد هذه الشروحات تجولت المجموعة الصغيرة بصمت في الساحة،

كان جيوفاني يشعر أنه بسعادة كاملة في ذلك المكان، توقف لبضعة لحظات إلى جذع شجرة سرو وثبت انتباهه على تلة حيث شيدت عدة كنائس مسيحية، دنت إيستير منه ولامست يده:

- هذا هو جبل الزيتون، المكان الذي أمضى فيه يسوع آخر ساعات حياته بصحبة تلامذته قبل أن يخونه يهوذا ويوقفه الرومان. كانت تلك ليلة مقمرة مثل هذه على ما أعتقد.

ضم جيوفاني إيستير إليه وهو يتابع التحديق بالهضبة بانفعال وتأثر.
- كم هو مؤثر أن تمشي هكذا في الأمكنة نفسها حيث قضى يسوع معظم حياته.

- بالرغم من كوني يهودية وشعبي تألم كثيراً بسبب تصرف المسيحيين، فإنه نبي أدهشتني حياته وأقواله. سيقدمك أبي يوم غد للحاخام رايبى ميديا. هو حاخام عالي القدسية يعرف الأناجيل ويعيشها أفضل من معظم الرهبان المسيحيين. إنه هو الذي طلب منه والذي بأن يزوجنا.

بعد ظهر اليوم التالي، بالفعل، وصل رجل عجوز قصير القامة متواضع، جعدت وجهه السنون وأحاطته بلحية غزاها الشيب، إلى منزل القبلاي.

حياه ألعازر بانفعال واحترام فاجأ جيوفاني.

كان الرجل يتكلم عدة لغات؛ ما أن قدم ألعازر جيوفاني حتى حياه بالايطالية مع ابتسامة كبيرة. ثم عانق إيستير بحرارة قائلاً لها وضاحكاً أنها أضحت أكثر جمالاً من بطلة التوراة التي تحمل اسمها. ذهب فيما بعد ليختلي مع القبلاي في صالون الطابق الأرضي. طلب ألعازر من ابنته وجيوفاني البقاء في المنزل. بعد ساعتين طويلتين من النقاش، جاء يوسف يطلب من إيستير بأن تنضم إليهما. بعد ذلك بساعة، جاء دور جيوفاني

بأن يدعى للدخول إلى الصالون الجميل المزخرف بالأحمر والذهبي. قال له الحاخام أنه كان محظوظاً أن يكون محبوباً من امرأة مثل إيستير.

ردّ جيوفاني بابتسامة مضيئة، ثم سأل العجوز الإيطالي حول بعض أوجه حياته ودينه. بعد لحظة طويلة، أوعز ألعازر إلى الخدم إحضار الطعام. بينما كانوا يتناقشون تمتع الأربعة المدعوون بلحم حمل مشوي مرفق بنيذ محلي. وعند بدء حلول الليل، اتخذ الحاخام موقفاً جدياً وتكلم بالعربية مع ألعازر. أظهرت إيستير سحنة فرحة ووجهت غمزة متواطئة إلى جيوفاني.

ما أن غادر ضيفهم، توجه ألعازر بانفعال إلى جيوفاني بحضور إيستير:

- فهمت قبوله بزواجكما. فهو يفكر مثلي، بأن هذا الزواج يجب أن يحتفل به سريعاً وسراً. هكذا سنقول إلى كل معارفنا أنكما تزوجتما سابقاً ذلك ما يجب إعلانه باحتفال كبير حيث يمكن للكثيرين أن يلاحظوا أنك لست يهودياً. اقترح أن يتم الاحتفال يوم الأحد، أول أيام الأسبوع. ستكونان متزوجين أمام الله حسب الطقس اليهودي ولن يطلب منك تغيير أي شيء من إيمانك وممارساتك. ستتابع العيش كما في الماضي وسيربى أولادك في الديانتين. مثلما تصورت، تابع ألعازر اقترح الحاخام أن تتحايل في المستقبل لكي لا تكون هناك منغصات.

هنا بالذات، في الجزائر وفي كل مكان في الإمبراطورية العثمانية، ستقدم نفسك تحت اسم يهودي، لكن في العالم المسيحي، إنها ابنتي التي ستخفي أصولها اليهودية وتغير اسمها. هذا سيجنبكما الكثير من المتاعب، وحتى الاضطهادات.

وافق جيوفاني، بقي شيء واحد كان له أهمية في نظره: أن تتمكن إيستير من أن تصبح زوجته..

هذا المساء كان قلبه في حالة حبور وقرأ في عيني حبيته نوراً يكشف عن الشعور بالفرح العميق ذاته. كانت روحهما مرتبطتان في السابق، بعد ثلاثة أيام، سيكرس هذا الحب إلى الأبد. عندئذ سيتمكن كل واحد منهما أن يقدم ذاته للآخر. كلاهما ينتظر هذه اللحظة بشهوة شديدة نظراً لأنها نضجت على مرّ الشهور، على وقع حبهما.

في الغد احتفلوا بيوم السبت، مثل كل عشية يوم الجمعة، لكنهم تجنبوا خلال النهار التنزه في المدينة حتى لا يظهروا إلى العلن قبل الزواج. يوم السبت بقي العازر وإيستر أيضاً في المنزل بينما كان الخدم المسلمون، الملتزمون بالسراً، يخرجون لشراء الضروري للعيد الحميمي لليوم التالي. اقترح ألعازر على جيوفاني الذي لم يكن ملزماً براحة السبت بأن يرافقهم إذا دفعه قلبه لذلك واغتنام المناسبة لزيارة قبر السيد المسيح. قبل جيوفاني بطيبة خاطر.

بعد الانتهاء من المشتريات في السوق النشط وسط المدينة القديمة، أرسل يوسف الخدم إلى البيت وعرض على جيوفاني الذهاب إلى الكنيسة التي شيدها المسيحيون في أماكن موت وقيامه المسيح.

كانت الجموع غفيرة. فجأة، رفع جيوفاني رأسه وتوقف، على الفور، صُعق من شدة الدهول، لقد صادف رجلاً أيقظ وجهه في داخله ذكريات مدفونة.

هل من الممكن أن يكون هو، فكر بذلك ونبضات قلبه تتسارع بشكل مخيف.

أشار إلى يوسف، واستدارا نصف دورة وتبع الرجل عن كثب، الرجل كبير نسبياً، ضعيف الجسم، يمشي بخطى بطيئة. لدى الاقتراب على بعد متر واحد منه، وجد جيوفاني ما كان يبحث عنه: نُذْبَةٌ على اليد اليسرى. ما من شك في ذلك، كانت تلك الآثار القديمة لعضة كلب. إنه هو! الرجل المرتدي السواد الذي عذب نواه كلبه، الذراع الأيمن لزعيم منظمة الخير السامي، قال جيوفاني في نفسه، وهو متأثراً، ترك الرجل يتقدم عليهما قليلاً وهمس متكلماً مع يوسف:

- لتتبعه، لا بدّ لي من معرفة إلى أين سيذهب.

وافق الرجل العملاق بنظرة من عينيه وبدأ الرجلان الملاحقة. بما أن الجموع كانت غفيرة، يحصل أن يفقد جيوفاني طريدته وتغيب عن ناظره، لكن يوسف الذي يفوق الجميع بطوله بمقدار طول رأس ظل يتابعه. دامت المطاردة عشرة دقائق طويلة. ترك الرجل الشارع الرئيسي ودخل طريقاً صغيراً مقفراً.

توقف جيوفاني ويوسف عند مدخل الممر دون منفذ، في اللحظة التي كان فيها الرجل يعبر عتبة بيت واقع في نهاية الطريق المسدود.

أشار جيوفاني إلى يوسف بأن يتبعه، تقدما إلى الباب، أدار جيوفاني قبضة الباب وتأكد أنها لم تكن مغلقة، تردد في الدخول إلى البيت، تلك علامة الرجال المرتدين السواد. إذا كان هؤلاء عديدون، بالرغم من قوة

يوسف، فإن المخاطرة كانت كبيرة، أغلق الباب والتفت نحو يوسف.
- يجب أن أعرف كم من الأشخاص يسكنون هنا، هل بمقدورك
قرع هذا الباب وإيجاد حجة للدخول إلى البيت؟ أنتظر ك خارجاً في
تجويف هذا الدهليز.

- من هو ذلك الرجل؟ سأل قلقاً.

- أحدهم سابقاً حاول قتلي بعد أن قتل معلّمي وخادمه. أريد معرفة
ما إذا كان رئيس عصابة المجرمين موجوداً هنا.

أظهر يوسف بعض المفاجأة، ثم فكر وأجاب:

- سأفعل ما تطلبه.

اختبأ جيوفاني وقرع يوسف الباب.

جاء الرجل ذو الندبة ليفتح الباب، تكلم معه يوسف بالعربية وقدم
نفسه كمستخدم في المدينة مكلفاً بالتحقق من التقييد بالمعايير الجديدة
لتصريف المياه المستعملة. فوجئ الرجل وتردد في السماح للمجهول
بالدخول، لكن أمام حسن هندامه، وهيبته الطبيعية وعلو قامته، لم يتجرأ
على الاعتراض. دخل يوسف إلى البيت وجال فيه بسرعة، تظاهر بأنه
يهتم بفوهات التصريف والتمديدات الصحية في غرف الماء. وبعد
الانتهاء أفاد بأن كل شيء يبدو نظامياً. حياّه الرجل صاحب الندبة
باطمئنان وأسرع بإغلاق الباب. هرع جيوفاني نحو يوسف.

- إذن؟

- البيت واسع جداً، لكن الرجل يسكن فيه لوحده. بقي جيوفاني
مفكراً لعدة لحظات.

- هذه فرصة يجب عدم تفويتها. لنقبض عليه ولنجعله يقر أين يوجد
شركاؤه وزعيم تلك العصابة الرهيبة.

- ألا تظن أنه من الأفضل العودة إلى البيت وطلب رأي سيدي؟

- افعل ما يحلو لك يوسف، أنا لا يمكنني في أي حال من الأحوال أن أدع هذه الفرصة تمر.

تصور أن شركاءه سيعودون في الحال، سيصبح من غير الممكن لنا أن نفعل أي شيء.

- لا أحب هذا، لكن سيدي سيلومني أكثر لأنني تركتك لوحدي، سأرافك.

- شكراً يا صديقي، لا أطلب منك سوى شيئاً واحداً، اقرع الباب من جديد وما أن يفتحه، اقبض على ذلك الرجل لتتمكن من استجوابه. وافق يوسف، ثم ذهب من جديد نحو المنزل.

- ما هذا؟ طلب صوت مغتاض.

- هذا أنا من جديد، لقد نسيت أداة عمل في غرفة الماء في الطابق. فتح الرجل الباب وهو يتدمر، في الحال انقض عليه الرجل الأسود العملاق وثبته منبطحاً على الأرض بقوة لدرجة أنه لم يكن لديه الوقت ليصرخ. هرع جيوفاني ودخل البيت وأوصد المدخل بواسطة عارضة الأمان.

- ماذا يعني هذا؟ ماذا تريدون مني؟ توجّع الرجل ووجهه نحو الأرض.

عابن جيوفاني جبلاً معلقاً إلى الجدار وشدّ وثاقه بقوة خلف الظهر، ثم ربط الطرف الآخر للحبل إلى حلقة مثبتة في الجدار.

- نادى جيوفاني يوسف بالإيطالية: هل باستطاعتي تركه؟

نهض خادم العازر وابتعد على مسافة متر تقريباً، وفعل الرجل الشيء نفسه. نظر حائراً وتوجه إلى جيوفاني.

- أنت إيطالي؟

- نعم.

- أنا أيضاً، أنا روماني، ماذا تريدون مني؟ لا يوجد ذهب هنا.
- ليس الذهب، بل العدالة التي جئت أبحث عنها، ردّ جيوفاني بنبرة متجمدة.
- حدّق الرجل بجيوفاني بدهشة، وفجأة أبرقت عيناه.
- غير ممكن... أنت لست... تلميذ المعلم لوسيسوس.
- لدى سماع هذه الكلمات، عاد الغضب المحتقن في قلب جيوفاني منذ أشهر وطفى على السطح.
- نعم، أنا حقاً تلميذ الصديق وصديق البريثين اللذين أنت وشركاؤك قتلتهما بوحشية.
- هذا مستحيل.. كنت أنا بنفسى قد غرزت السيف في قلبك وخرج من الجهة الأخرى وأضرمت النار بالمنزل..
- حسناً لقد خابت ضربتك ولنقل أن العناية الإلهية أنقذتني. هذه الأخيرة التي باسمها تعذبون وتقتلون!
- بقي الرجل مذهولاً. فهو يتعرف الآن على جيوفاني بصورة مؤكدة.. لكنه لم يكن يصدق أنه ما زال على قيد الحياة.
- كيف فعلت لتفلت من مصيرك المحتوم؟
- لا يهم! لم آتِ إلى هنا لأروي حياتي، بل لأحاسبك على فعلتك.
- كيف عرفت أنه كان لدينا منزلاً في القدس؟
- تذكر! قبل أن تحاول قتلي، رئيسك، ذلك الرجل المتعصب العجوز السافل، قال لي إنه كان سيذهب إلى المدينة المقدسة.
- لقد قطعت كل هذا الطريق بحثاً عنه؟
- وافق جيوفاني على تساؤله بالإيجاب.
- بقي الرجل صامتاً ثم قهقهه بضحكة كالرعد.
- إذن فقد قمت بهذه السفارة مجاناً للاشيء، لأنه إذا كان رئيسنا

أمضى بضعة أشهر هنا، فإنه عاد إلى إيطاليا منذ فترة طويلة!

كان الغضب يخنقه، لكن جيوفاني تمكن من البقاء رابط الجأش.

- حسناً، لقد انتظرت كل هذا الوقت لأجعله يدفع ثمن جرائمه

يمكنني أيضاً الانتظار قليلاً، قل لي ما الذي كانت تحويه الرسالة، اسم رئيسك وأين كان يقيم.

- أضحى الرجل من جديد جدياً.

- أنت هنا في مكتب منظمنا، أعرف اننا أكثر من مئة من الأخوان

المكرسين لمهمة عظيمة تتجاوزنا لتجديد الكنيسة من الطهارة والإيمان ضد كل الهرطقات والانحرافات التي شهدتها في أزمنة التنبؤات هذه.

يوجد بيننا أساقفة، رهبان، كاردينالات، رؤساء أديرة وبعض العلمانيين البسطاء مثلي. لكننا جميعاً أقسمنا أمام الله بأن لا نُكشَف، حتى تحت

التعذيب عن اسم أيّ واحد منا.

التفت جيوفاني صوب يوسف وطلب منه سيفه، تردد العملاق،

لكنه أمام جدية وصلابة نبرة جيوفاني، انتهى بأن أعطاه سيفه.

- ضع يديه الاثنتين على ذلك الحجر وأمسكه جيداً، تابع جيوفاني

مشيراً إلى يوسف بحجر بارز من الجدار يقع خلف السجين مباشرة.

نفذ الخادم، وضع على الحجر يدي السجين الموثوقتين خلف ظهره،

وثبت ساعديه بطريقة لا يتمكن بها من الحركة. بصوت قاس وهادئ،

وجه جيوفاني الكلام إلى الرجل:

- لن أطلب منك هذا مرة ثالثة: اسم رئيسك ومكان إقامته؟ إذا ما

رفضت الإجابة، فإنني سأقطع يديك، كما أنت بالذات قد بترت قائمة

كليي.

ابتسم السجين وأجاب بنبرة ساخرة:

- يمكنك تعذيبي أو قتلي، لكنني أقدر أن أوكد لك أنك ستغادر

خالي الوفاض، سأكون أيضاً أحرص كما كان سابقاً أصدقاؤك عندما

وضعت الحديد الحارق في أمكنة شديدة الحساسية من أجسامهم.
شعر جيوفاني بحقد خارق من العنف يمتلك روحه. أمسك السيف
بكلتا يديه ورفع فوق السجين.

في اللحظة التي كان سيقتله، حضرت على الفور أقوال لونا في
ذاكرته: «ستقتل في المرة الأولى بدافع الغيرة ومرة ثانية بدافع الخوف
والثالثة بدافع الغضب. لكنني أرى أنك على وشك أن تقتل للمرة
الرابعة بدافع الحقد... لا شيء مكتوب، إذا ما حصل ذلك، عندها
ستكون روحك قد ضاعت إلى الأبد.

ارتجفت يدها. حضرت أمامه رؤيا كل الآلام التي شاهدها وقاساها
على مدى هذه السنوات وهذه الرؤى كانت تتوالى مع مشاهد معارك
وسلب وسرقات واغتيالات. عاد وفكر بكلام الراهب الناسك
سمعان: «منذ جريمة القتل الأولى التي ارتكبتها قايين، كل تاريخ البشرية
ليس سوى نتاج دموي للقتل مدفوعاً بالخوف، بالحاجة للسيطرة
وروح الثأر. جاء المسيح ليضع نهاية لهذه الحلقة الجهنمية. كانت معه
كل قوة الله في خدمته وجعل نفسه متواضعاً وخادماً. على الصليب، لم
يلعن جلاديه، بل صاح قائلاً: «أبتي اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما
يفعلون». جاء ليعلمنا قوة العفو، انتصار الحب على الحقد... بدت
نفس جيوفاني مشتتة، الحقد يسكن قلبه بشكل دائم. عادت إلى ذاكرته
صورة قبر أصدقائه... لكن الأصوات التي خرجت من ذاكرته شلت
ذراعيه. إذا قتل هذا الرجل، فإنه كان سيؤيد شريعة القتل والثأر..
وبالعفو عنه سيقطع حلقة من العنف التي تعود إلى آلاف السنين. لكن
كيف له أن يدع جرائم من هذا النوع تمر دون عقاب؟ كيف تكون
مقاومة الرغبة الجامحة للثأر لأولئك الذين نحبهم؟ أبداً لم يسبق له أن
شعر بثقل حرية الاختيار بهذا القدر.
انخفض ذراعه بقوة.

نظر إليه السجين، متحيراً، حلّ جيوفاني وثاقه. وكأنه بذلك حلّ
أربطة منسوجة في داخل قلب جيوفاني كان قد فكّها.
- بارس، أنت حر، قال بصوت يرتجف من الانفعال.
- أنت تدعني حياً؟

أكد جيوفاني ذلك بحركة من رأسه.
- لماذا تتصرف بهذا الشكل؟

- لأنني ما زلت رجلاً، الآن اذهب وحذر بدورك نفسك من أن لا
تقتل أبداً.

تفرسه الرجل بنظرة تكشف عن عدم فهم كامل، تراجع ببطء، حتى
بلغ مدخل المنزل منتظراً أن يغدر به في الظهر. دون أن يفارقه بعينه،
رفع العارضة الخشبية، فتح الباب الثقيل وهرب راكضاً.
أعاد جيوفاني السيف إلى يوسف، وعيناه مليئتان بالدموع.

- هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مسيحياً يعمل حسب تعاليم
الدين، صاح الرجل العملاق وهو يشد على كتفي الشاب. لن أنسى
هذا أبداً.

- لنحرق مكان القتلة هذا.

- هناك خطر انتشار الحريق إلى البيوت المجاورة. هناك شيء أفضل

نفعله، سيروي سيدي القصة إلى القاضي الذي سيصدر بدوره هذا البيت ليعطيه إلى المحتاجين.

- أنت محق، لنتابع طريقنا نحو وجهتنا الحقيقية.

أثرت الزيارة إلى قبر المسيح تأثيراً عميقاً في جيوفاني، حتى وإن لم يبق من قبر يسوع سوى قطعة من الصخر الخارجة من الأرض، شعر جيوفاني بروحه ترتعش وهو يضع قدميه على المكان نفسه الذي وهب فيه المسيح حياته طوعاً بدافع الحب. وشكر الله أيضاً لأنه أعطاه قوة المغفرة. أشار إليه كاهن أرثوذكسي، حارس المكان المقدس، بأن يقف جانباً ليدع الحجاج الآخرين يدخلون الكنيسة الصغيرة المبنية فوق الصخرة، ثم غادر الراهب السابق مدخل الكنيسة.

عاد يوسف وجيوفاني إلى منزل القبلاي، فقد انتهى يوم السبت مع غروب الشمس. خرجت إيستير من غرفتها لاستقبال خطيبها. ما أن لمحته، حتى تسمرت في مكانها وتأملته بتمعن.

- ماذا يجري؟ أنت تنظريني بطريقة غريبة.

قال لها جيوفاني وهو يطبع قبلة على جبينها.

- شيء ما في داخلك قد تغير.

- ماذا تعنين؟

- شيء ما حصل في قلبك، أراه في نظرتك.

- هل هو شيء جيد أم سيء؟ سألها جيوفاني متحيراً.

- إنه شيء جيد. الغمامة التي سيطرت على قلبك منذ أن عرفتك، قد

انقشعت الآن.

أمسكها من كتفيها وتأمل عينيها.

- كم أنت تعرفيني جيداً، إيستير. يبدو لي أحياناً أنك تعرفيني أكثر

من معرفتي بنفسي.

- ماذا جرى؟

- شاء الله أن ألتقي منذ قليل بواحد من أولئك الرجال المرتدين السواد الذين قتلوا معلمي لوسيوس وحاولوا قتلي.

تعرفت عليه بصورة مؤكدة من الندبة التي تركها كليبي نواه على يده قبل أن يهرب. تبعناه، تمكن منه يوسف وثبته واستجوبته. لم يرد أن يكشف عن اسم ومكان رئيسه؛ عجوز متعصب كنت قد أقسمت على قتله.

لم أكشف لك عن ذلك، لكنه السبب الذي من أجله قصدت القدس.

شعرت إيستير برجفة داخلية لدى سماع هذا الكشف، غير أنها تركت جيوفاني يتابع.

- أرادت العناية الإلهية أن يلقي القبض علي من قبل القراصنة، وأن أستقر في الجزائر لأتعلم الحب.. وليس في القدس لأقتل. شاءت أيضاً أن آتي إلى هنا لأجابه الحقد الذي ما زال يُظلمُ نفسي. بفضل قوة الحب الذي غرسته في قلبي تبدد هذا الحقد. كانت لدي الرغبة بقتل ذلك الرجل، لكنني لم أقتله أبداً. عندما رأيته يهرب راكضاً، شعرت بنوع من الشفقة عليه.

لاطفت إيستير خدّ جيوفاني، دلالة الرضا.

- هذا ما رأيته في عينيك، حبيبي، رأيت أن نفسك تحررت من داء كان يعطي حتى هذا اليوم لنظراتك اللامعة، شيئاً من الظلام. هذه إذاً هي أجمل هدية زواج يمكنك أن تقدمها لي.

عانقها جيوفاني ووضع شفتيه على شفتيها.

- إنه الله الذي منحنا نحن الاثنين هذه الهدية، دمدم قبل أن يعانقها. لم يتمكن جيوفاني من النوم. عند طلوع الفجر، خرج إلى الشارع

بصحبة يهوذا إلى جبل الزيتون، فكر بتلك الليلة التي بمقدور يسوع الهرب ورفضه الذي كان يقوده نحو رعب وعذاب الصلب، برفضه الهرب وبقبوله أن يجابه متهميه، بقي مخلصاً لقوة قناعاته ولصحة وحقيقة شهادته.

شعر جيوفاني من جديد بانفعال كبير وهو يثبت أفكاره على يسوع، وبكى.

عندما عاد إلى بيت ألعازر، كان الخدم يعدّون مائدة الأعراس حتى ولو لم يكن أحد من المدعوين سوى الحاخام العجوز..

أراد ألعازر أن يحتفل الجميع ويجلسون على مائدة سيدهم، وفي اللحظة نفسها وصل الحاخام ودعا جيوفاني لارتداء ثياب الاحتفال الذي سيجري في صحن الدار المزين بنافورة ماء.

بعد ذلك بساعة اجتمع عشرة من الخدم في صحن الدار. تناول أحدهم آلة العود وبدأ يعزف بها. كان جيوفاني ينتظر إلى جانب الحاخام الذي كان قد شرح له كيفية حدوث الاحتفال.

ظهر ألعازر فجأة، ممسكاً بإستير من ذراعها. كانت الفتاة تضع وشاحاً، أبيض ناصع البياض وشفافاً قليلاً يصل حتى صدرها. تأثر جيوفاني جداً لرؤيتها تتقدم ممسكة ذراع والدها. على صوت العود، بدأ الخدم اليهود ترتيل فعل النعمة بالعبرية. جاءت إستير وجلست إلى يمين جيوفاني. طلب الحاخام من جيوفاني رفع الطرحة للفتاة. بلطف ورقة، كشف عن وجه إستير التي أبقت أمام الجميع عينيها خاشعتين. ما أن توقفت التراتيل، ذكّر الحاخام الخطيبين بالواجبات التي عليهما القيام بها، ثم ألقى بالعبرية تبريكتين: واحدة على كأس من النبيذ، رمز الفرح والوفرة، والأخرى لشكر الله ومدحه. ثم نهض الشاهدان، سارة ويوسف ووضعوا شالاً كبيراً على كتفي الخطيبين وشربا من كأس النبيذ نفسه.

فيما بعد أمسك الحاخام يد إيستير اليسرى ويد جيوفاني اليمنى وجمعهما. ثم تلا الصلوات بالعبرية. والتفت إلى جيوفاني وقال بالإيطالية.

- الله خالق السموات والأرض ومنبع الخيرات، أراد جمع الرجل والمرأة ليشتهي أحدهما الآخر ويتحدا ليشكلا جسداً واحداً. أراد أن يتقاسم معهما، مخلوقاته المحبوبة، سر محبته وخصوبته. جيوفاني، هل تقبل الآن الزواج من إيستير أمام الله الأزلي لتشارك في هذا العمل الإلهي؟

بقي جيوفاني صامتاً لعدة ثوانٍ، ثم أجاب بالإيطالية والعبرية:
- نعم أقبل.

التفت الحاخام نحو إيستير وتلا الكلام نفسه، فأجابت اللغات ذاتها:
- نعم أقبل.

- أنتما من الآن فصاعداً متحدان (متزوجان) أمام الله كزوج وزوجة. لترافقكما نعمته في كل أيام حياتكما، وتعينكما في المحن، وتجعل منكما حماة وشهوداً على رحمته وعطفه.

عندئذ التفت جيوفاني نحو إيستير، نظرت إليه الفتاة، وعيناها تلمعان من الدمع. هذه اللحظة كانت بالنسبة للعروسين بمثابة عطر الأبدية.

استمرت المائدة ست ساعات، ولدى غياب شمس الشتاء بدأ المدعوون يغادرون مائدة الطعام واستأذن الحاخام مضيفيه بالانصراف.

زينت سارة غرفة العروسين بعناية، وطلبت إيستير من جيوفاني اللحاق بها فيما بعد.

انتظر العريس في الصالون برفقة العازر، ثم حضرت خادمة وراففته إلى الحمام لينظف جسده. عندما أصبح جاهزاً جاءت سارة وراففته إلى غرفة العروس.

صعد الأدراج، وقلبه يخفق. دخل الغرفة ببطء، كل شيء ناصع البياض: شراشف من الحرير، أعطية من وبر الإبل، برادٍ من الكتان، شمعة معطرة بالياسمين يتراقص نورها ليضيء السرير الكبير وسط الغرفة. كانت إيستير مستلقية على السرير، نصفها الأعلى مرتفع بواسطة الوسائد. قدمها وساقها عارية، جسدها الأثوي السفلي شبه محزوم بمئزر من الحرير المذهب، وصدرها مغطى بخمار أصفر اللون شفاف.

شعرها الأسود مسترسلٌ ومزينٌ بشكل تام، عيناها مخبأتان خلف برقع معلق على الجبين.

أعجب جيوفاني بجمال أشكالها الناعمة والرشيقة والعامرة. رونق جسدها كان رائعاً مغطى بالحلي. كاحلها الأيسر ومعصم يدها اليمنى محاطان بأساور من الفضة المتقنة الصنع مظهرة بوضوح رسوم الجنة. رباط من الجلد الأحمر يشد كاحلها الأيمن. عنقها مزين بثلاثة عقود من اللؤلؤ الأسود. كانت ترتدي أيضاً ما يشبه الخنفس المذهب المثبت على صدرتها، وقرطين طويلين مطعمين بحبات اللؤلؤ يتدليان فيما يشبه الشلال على كتفيها.

وقف جيوفاني طويلاً وهو يتأملها.. مغموراً بانفعال محب وجمالي. لم يفتن روحه ونظره جمال بهذا القدر. نزع نعليه، وفك حزامه وتخلص من ثوبه ووزرها. عار كلية، تقدم ببطء من السرير. جسده وشعره طليا بالزيت والعطور. أريج الورد والليلك يفوحان من جسم إيستير يمتزجان مع روائح العنبر والمسك اللذين كانا ينطلقان من جسم جيوفاني.

تداعبا طويلاً، لا يفعلان سوى التلامس، مكتشفين بانفعال شديد وقوي كل جزء من جسفيهما، ثم رفع جيوفاني بلطف الستار الذي كان يغطي عيني حبيته. عيناها السوداء وان الواسعتان على شكل لوزة، كانتا مخضبتيين. وشفتها مدهونتين بأحمر الشفاه.

وبينما هما يتناظران بمزيج من الفرح والجدية، دون تبادل أي كلام،
قرب الزوجان شفاههما وتعارف جسدهما أخيراً.

السعادة التي تذوقها طوال الليل كان لها مذاق النشوة المقدس.

عند الفجر، رافق صوت المؤذن أولى أشعة الشمس التي جاءت لتمر
على السرير حيث كان العشيقان ممدّدين. فارغين وممتلئين، منهكين
ومستريحين، تلفظ جيوفاني بأول كلمة طوال هذا الليل:

- آه إيستير، أبدأ لم يشعر كياني بهذه الدرجة من السعادة.

- أبدأ لم يسبق لقلبي أن عرف أنغاماً قوية بهذا المقدار، تغلغلت في

عروقي.

عاد الزوجان وتحاضنا بقوة، ثم أضافت إيستير:

- يوجد شيء غريب.

- ما هو يا حبيبتي؟

لدي الشعور بأنني أعرف جسدك. ذلك كما لو أن كل لمساتك
ومداعباتك كانت توقظ في داخلي ذكريات بعيدة يتذكرها جسدي
وحده، وعندما عمتني النشوة، حضرت الصور إلى ذهني.

- أي صور؟ سأل جيوفاني مرتبكاً.

- وجوه لا أقدر على التعرف عليها، لكن أعرف أنها كانت لكائنات

عزيزة. كنت أرى بركاناً ينشط وأناساً مذعورين يركضون في كل اتجاه

لينجوا من الرماد الذي يتساقط من السماء. رأيت أيضاً لفافة من بردي

النخيل مخبأة على عجل في خاوية، ومكتبة واسعة مؤلفة من آلاف

الكتب والمؤلفات.

- كم هذا عجيب، بالفعل. كيف تفسرين رؤى من هذا النوع؟

بعض المعلمين القبلايين يعلمون بوجود نوعين من الأرواح. أرواح

جديدة، تتجسد غالبيتها لأول مرة وأرواح قديمة هاجرت منذ قرون

وقرون لتؤدي مهمة خاصة. هذه الأرواح القديمة يمكن أن تتلاقى في حيوات مختلفة وفي حُقب متنوعة، فيما لو كانت لها صلوات خاصة. منذ اليوم الأول حيث رأيتك جيوفاني، كان لدي الشعور أن روحنا كانتا تعرفان بعضهما سابقاً. والآن بعد هذه الليلة، أنا متأكدة من شيء أن جسمي كشف لي: أنها ليست المرة الأولى التي نحب فيها بعضنا بعض.

أطلق جيوفاني تنهيدة ارتياحية.

- لا أعرف ماذا أقول. يؤمن أفلاطون الإلهي، مثل أتباع فيثاغورس بمهاجرة أو رحلة الأرواح. أعتقد أننا لن نكتشف هذا اللغز إلا يوم موتنا، في هذا الوقت تكون روحنا منفصلة عن جسدنا، من الممكن أن نكون مسكونين بذكريات أشخاص آخرين عاشوا قبلنا؟

- من الممكن حقاً. لكن مهما يكن، الآن وجدتك فإنني لن أدعك تبتعد عني.

انحنى جيوفاني مترعاً بالحب على زوجته الشابة.

- رغبتني وأمنيته الوحيدة هي العيش بقربك كل أيام حياتي.

VII

الأرض

اتكأ جيوفاني على الدرايزين الأمامي للسفينة، ونظره يرنو إلى البحر. شعور بفيض من العواطف يفتن قلبه، رغم الخوف الذي يسببه له السفر في البحر، منذ زواجه مع بإيستير وخبر حملها، بعد ذلك بعدة أشهر. لم يكن يشعر بالندم على ماضيه، ولا بالقلق على المستقبل. عاش حياته بانفتاح كبير على الحياة، متذوقاً بسعادة قوية كل لحظة قضائها قرب زوجته، التي أحبها بشغف.

من هنا إلى أكثر من شهر تقريباً، ستلد إيستير. السؤال الذي طرحه على نفسه هو معرفة أين تمنى إيستير أن تلد طفلها. بعد تردد، اتخذت القرار بالعودة إلى الجزائر، ذلك ما يناسب ألعازر، الذي لم يكن لديه من الأسباب للبقاء في القدس. يتطلع ورنو للعودة إلى مكتبته، لكن جيوفاني أيضاً، كان يحن إلى البستان «السفير وتيكي». لقد أبحروا مع خدمهم على سفينة صغيرة تجارية متجهة إلى تونس والجزائر.

بعد عشرين ساعة، غادرت السفينة ذات الصارين الأرض المقدسة متقدمة ببطء نحو الغرب، لأن الرياح كانت تهب باتجاه معاكس. بينما إيستير وألعازر يستريحان في غرفتهما، كان جيوفاني يستفيد من عذوبة الأيام الأولى من أيلول ليقى على ظهر السفينة. يتأمل الأفق، ويشعر بنسيم البحر يداعب خديه. ويتأمل الأمواج المتهادية بفعل قوة الرياح البحرية. تذكر أثناء طفولته أنه كان يقضي ساعات وساعات قبالة البحر

يحلم بحياته، واليوم جميع أحلامه أضحت واقعاً. يتلذذ بالانفعالات، بالمشاعر، بالأفكار التي تعطر قلبه وذهنه المتوحّدين والمطمئنين.

استعاد الإيمان بالله، الإيمان البسيط، الذي كان يترك قلبه مفتوحاً لصوت العقل. لكن الإيمان العميق الذي يعرف أن الله أبعد عن كل ما يمكن قوله أو التفكير به. إيمان كان يعايشه يوماً في أعمال الخير. هذا لم يمنع جيوفاني من متابعة طرح الأسئلة الفلسفية الهامة واللاهوتية ولم يؤخره عن العودة إلى مراجع كتب مكتبة العازر ليعمق معارفه.

سؤال كان يحفزه أكثر من كل شيء: من هو يسوع المسيح بالنسبة إلى الله؟ عندما غفر لقتلة لوسيوس وبيترو، كان قلبه في اللحظة نفسها، مفتوحاً من جديد على حضور المسيح؛ استعاد السلام الداخلي والفرح العميق، أشبه بتلك التي عرفها خلال اهتدائه والأيام الأولى التي أمضاها في جبل أتوس. التفكير بيسوع وحياته وأقواله، أو حتى النطق باسمه لوحده فقط يؤثر في روحه ويجعلها تهتز على موجة من الثقة والحب. مع ذلك فإن عقله لم يكن يعرف بشكل جيد تحديد مكانة هذه الشخصية الخارجة عن الضوابط. كان يردد وهو طفل ومراهق أن يسوع هو ابن الله ومخلص البشرية، دون معرفة ما تعنيه هذه العبارات. أثناء خشوعه أمام أيقونة روبليف، شعر بحضور جذاب للمسيح، منضماً عقله إلى العقيدة المسيحية التي تجعل من المسيح كلمة الله المتجسد. قرأ مرات عديدة المؤلفات اللاهوتية التي حاولت تحليل فهم السر الصعب لإله واحد ومميز في ثلاثة أقانيم: الآب، والابن والروح القدس. راهب عجوز في الدير قال له أن النار تعطي صورة جيدة عن سر الثالوث الأقدس: لا توجد سوى شعلة واحدة، لكن، في الوقت ذاته الذي تنبثق فيه النار يمكن تمييز ثلاثة أشياء: اللهب (الآب)، الضوء (الابن) والحرارة (الروح). قد يكون يسوع أكثر من بشر، قديس أو نبي، لكنه في الحقيقة تجسّد للشخص الثاني لهذا الثالوث الأقدس. ألم

تطرح هذه المشكلة على جيوفاني خلال السنوات التي قضاها في الدير؟ لكن بعد أن أضع الإيمان، ثم إستعادة لم تعد الأشياء تبدو بسيطة بهذا القدر في عقله. الحوار مع الشيخ سليم وخاصة مع إيستير وألغازر سمح له تعميق إدراكه أو بالأحرى عدم إدراكه لله.. وكان يتساءل كيف يكون الإلهي الذي ليس باستطاعة الفكر البشري تحديده أو تكوين أي فكرة عنه، أن يتوصّل إلى تحديد مفهوم على هذا القدر من اليقين؟ الثالث الأقدس والتجسد.

كان يفكر بهذا السؤال عندما ظهر ألغازر على ظهر السفينة.

- تبدو لي مستغرقاً في أفكار عميقة واسعة!

استدار جيوفاني.

- بالفعل! كيف حال إيستير.

- جيدة جداً، لحسن الحظ أن تمايل السفينة كان ضعيفاً.

جاء القبلاي ليتكئ على الدرايزين إلى جانب جيوفاني.

- نحو أي آفاق لا متناهية كانت تجول أفكارك؟

- كنت أتأمل السر المسيحي المتعلق بالثالوث الأقدس. يتكلم يسوع في الأناجيل، عن أبيه والروح القدس، لكن تعريف الله استناداً إلى ثلاثة أشخاص، كما فعله بعد ذلك بعدة قرون آباء الكنيسة أثناء مؤتمرهم الديني في مدينتي نيس والقسطنطينية! لا أعرف كيف يمكن للعقل البشري أن يكوّن مفهوماً بهذا الشكل عن الله.

- كان الهمّ الأساسي لدى آباء الكنيسة إثبات الصفة البشرية والإلهية للمسيح. فقد استعاروا المفاهيم الفلسفية اليونانية «طبيعة» و«شخص» لشرح أن يسوع كان شخصاً واحداً بطبيعتين: واحدة إلهية وأخرى بشرية. من هنا تأتي الفكرة التي أصبحت عقيدة، حيث بموجبها تميز الله في الأشخاص، لأنه لا يمكن أن يكون الله السامي الفائق والخالق

الذي سيتجسد ويموت في شخص يسوع. برأني، هذه النظرية اللاهوتية تطرح مسألة فيما لو اعتبرت أن التمييز لثلاثة أشخاص يتم في الله وليس في تجليه.

صمت العازر لعدة دقائق، كان جيوفاني يعرف إلى أين يريد الوصول، لكنه بقي صامتاً، منتظراً أن يتابع القبلاي كلامه.

- كما تعرف ذلك طبعاً، كل التقاليد الدينية والفلسفية المتعددة الآلهة أو الأحادية الآلهة، أن في صميمها تيارات ترفض تشبيه الحقيقة النهائية «باله شخصي» «بالكائن الأعلى»، أو «بالآلهة» التي يتكلم عنها اللاهوتيون الماوراء طبيعيين (الميتافيزيقيون) أو الشعراء والذين تقدم لهم العبادة. في كل مكان تقريباً تأسس هذا التمييز بين الجوهر والحياة، أو بين الواحد والكائن. لو أن الحقيقة النهائية الواحد لدى الأفلاطونيين الجدد، لا يمكن التفكير بها أو وصفها في جوهر، أو في الوجود، بمعنى أنها في حالة التجلي. تسمح العقيدة القبلاية «إن سوف» «وسفروت» بوضع هذا التمييز الأساسي بين الواحد غير القابل للمعرفة ومختلف تصعداته. نجد الفكرة نفسها في الإيمان المسيحي (العلم الروحاني المسيحي)، إن كان في الغرب عند جان سكوت إيريجين مع عقيدته «التيوفانية» التي تظهر الألوهية الفائقة الوصف، أو في الشرق مع غريغوار بالاماس وعقيدته عن «الطاقات» اللاهبة غير المخلوقة التي تنتشر انطلاقاً من الجوهر. لكن في السر أيضاً أو في الإيمان الإسلامي مع، تمييز الموضوع من قبل ابن العربي بين الله الأحد، فائق الوصف، والواحد، الله الخالق.

توقف العازر قليلاً، ثم تابع شرحه اللاهوتي:

- في إمكانية كهذه، التمييز الثالثي، هو تشييد أو بناء تصوّري، لا يمكن الوصول به إلى الله في جوهره، لكنه يقول شيئاً ما صحيحاً في نظام التجلي. لقد فهم منير هارت الإيمان المسيحي جيداً، ولهذا،

حسب دينيس، فهو يطرح فكرة إلهة أسطورية أو وغون بايت بالألمانية - كجوهر أولي فائق الفهم، يقود إلى مفهوم الله الشخصي - غوت - وثلاثة أشخاص إلهيين على مستوى التجلي. هذا ما سبب إدانة الكنيسة له. إذا استثنينا هذا التمييز الأساسي داخل الإلهي بين الجوهر أو الأساس فائق الفهم، وغير قابل للاختزال، وإلى أي تحديد أو تعريف الجوهر الذي يمكن وصفه في حالة الظهور، في حين أن عقيدة الثالوث الأقدس لا تصدمني. حتى أنني سأذهب بعيداً، من وجهة نظر قبلانية نقول شيئاً ما مشابهاً عندما نتكلم عن الأسفار الثلاثة الأولى مثل «وجه الله الكبير». كبير هو الجوهر غير متصعد من أي تصعد، الحكمة هي الفكر الإلهي والسبب الأول الفعال. بينه هو الذكاء الكاشف والمنقي. الأسفار السبعة تأتي من «بينه» الذكاء أو العقل. ألا يوجد هنا تشابه عميق مع العقيدة المسيحية الثالوثية؟ الله في وجوده «حياته» هو أب أو الأساس الأول، ابن، كلام خلاق، الروح أو النفس التي تعطي وتظهر الحياة. ثم من الروح تنبثق الهبات السبع التي هي النعم الإلهية التي تسمح للإنسان العودة إلى المصدر «الأصل».

هذا صحيح، تابع جيوفاني. لكن في تحليل نظري كهذا ماذا سيكون مصير مفاهيم التجسد لابن الله، والطبيعة الإلهية ليسوع؟

- يسوع قد يكون أكثر من نبي، من الممكن التجسيد الحقيقي للحكمة ولل كلام الإلهي المتجلي. بطريقة أخرى، قد يكون يسوع هو في الوقت ذاته الإنسان والإله، لكن هذه الصفة الإلهية لا تخص الجوهر الإلهي الفائق الفهم.

حتى بالنسبة لقبلاي يهودي مثلي، يمكن ليسوع أن يكون إذاً معتبراً بمثابة التجسد للكائن الإلهي الموصوف، للإله الشخصي المتجلي، لكن ليس الحقيقة النهائية. الواحد هو كل متسامي عظيم لا يمكنه مطلقاً في أي حال من الأحوال القيام بالطبيعة البشرية.

- انظر مباشرة إلى الأمام! صاح فجأة الراصد الواقف في أعلى الصاري.

صمت رهيب ساد السفينة؛ حذق جميع المسافرين بخط الأفق عند مقدمة المركب.

- سفينة ذات ثلاث صواري، صاح بعد ذلك الراصد.

- آمل أن تكون سفينة تجارية أو قرصان عثماني أو جزائري، علق العازر.

قال جيوفاني: الحقيقة أن سفينتنا تحمل الراية الجزائرية وجميع المسافرين من اليهود أو المسلمين. سنقتل بكل تأكيد أو نباع عبيداً، فيما لو وقعنا في أيدي القراصنة المسيحيين.

بدأت السفينة المجهولة الاقتراب بسرعة بسبب الرياح المواتية، لم تتأخر عن الوصول إلى مسافة بضعة مئات الأمتار من السفينة التجارية الصغيرة (الفليونة).

- سفينة حربية مسيحية! فرسان مالطا، صاح النوتي.

بالفعل يمكن مشاهدة الأشرعة الكبيرة السوداء لسفينة لفرسان القديس يوحنا في القدس. أمر القبطان النوتين فوراً بتغيير الاتجاه وتوجيه الشراع باتجاه الريح.

- قال جيوفاني: نحاول الهرب.

- نعم هذا المركب أخف بكثير من تلك السفينة الحربية الثقيلة. إذا لم يكن لديهم مجذفون، من المؤكد أننا سنفلت منهم. الأفضل محاولة المجازفة بكل شيء حتى لا نقع في أيديهم. قد نتمكن من الإفلات، لأنه لديّ علاقات مع مالطة، لكن الآخرين سيكونون أسرى وياعوا عبيداً.

اصطحبت إيستير خادمتها وصعدت على ظهر السفينة والتحقت بجيوفاني ووالدها.

- ماذا يجري؟ لماذا هذا التغيير المفاجئ في الاتجاه؟ أخذها جيوفاني بين ذراعيه وشرح لها الوضع. بينما المحاولة على وشك الانتهاء، الجميع ينظرون بقلق إلى السفينة وهي تنقض عليهم.

لكن ما أن وضعت السفينة في الاتجاه المواتي للريح تمكنت من الابتعاد والإفلات من مطاردتها.

بينما كان جيوفاني ينظر إلى إيستير التي تمسك بطنها الحامل بذراعيها، تذكر فجأة الكلمات الأولى لرؤى لونا: «امرأة، أرى امرأة محاطة بالجنود. يداها تسندان بطنها المكور. من المؤكد أنها تحمل طفلاً. يحدث بها خطر كبير... لأول مرة منذ زمن بعيد خاف وضم إيستير إليه.

- نحن نسير بشكل أسرع بالرغم من مجاذيفهم؟ تابع ألعازر بارتياح. لدينا إذن الحظ والفرصة السانحة لنفلت منهم إذا لم تضعف قوة الريح. - أجاب مسافر آخر، الحقيقة أنا لا أظن أنهم سيتخلون عن طريدتهم بهذه السهولة.

بالفعل، قامت السفينة الحربية المسيحية بمطاردة السفينة التجارية الجزائرية الصغيرة، بعد قليل سيحل الليل، وأصبح بالإمكان رؤية السفينة القرصان المنارة عن بعد.

- نحن مضطرون على البقاء في اتجاه الريح، شرح القبطان للمسافرين القلقين. فيما لو انخفضت سرعتنا فإننا سنكون تحت رحمة المسيحيين.. ولو استمرت، فإننا سنتابع التقدم نحو الشمال الشرقي، أي بصورة معاكسة تماماً لوجهتنا الأولى.

- سأل أحد المسافرين: أين سنصل فيما لو استمر هذا حتى يوم غد؟ - إذا بقيت الريح على هذا النحو من القوة فإننا سنصل إلى جزيرة قبرص قبل الفجر بقليل.

- قبرص! سيتحقق إنقاذنا، علق ألعازر. إن فرسان مالطا لا يتفقون مطلقاً مع أهل البندقية.

«قبرص، فكر جيوفاني، المكان الذي جاءت منه إيلينا عندما هاجم القراصنة سفينتها ورسد قريباً من قرיתי. الجزيرة التي كان والدها حاكماً عليها».

لم تضعف قوة الرياح طوال الليل، مما سمح للسفينة الاحتفاظ بتقدمها على السفينة ثلاثية الصواري. قبل الفجر بقليل، أعلن الراصد عن الخبر السعيد:

- الأرض أمامنا مباشرة!

- إنها السواحل القبرصية، لقد أنقذنا، صاح القبطان. المسافرون الذين أمضوا سواد الليل على ظهر السفينة وهم يراقبون السفينة القرصان، صرخوا فرحاً وتعانقوا:

بالفعل، عادت السفينة المالطية على أعقابها.

- تبدو أنك تعرف هذه الجزيرة سأل جيوفاني ألعازر.

- قليلاً. لقد أتيت إليها ثلاث مرات، أنت من يحب الأيقونات، ستجد ضالتك. كانت قبرص لفترة طويلة أرضاً بيزنطية قبل أن تبدأ أزمة محاربة الأيقونات كان الرسامون يلتجئون إلى الأديرة العديدة في الجزيرة. لكن المسيحيين التابعين للطقس اليوناني أرغموا على إخلاء المكان إلى اللاتينيين بعد أن احتلها ريتشارد قلب الأسد. تنازل ملك إنكلترا عنها فوراً إلى سدنة الهيكل، الذين باعوها بدورهم إلى لوسينيان، الفارس الفرنسي الصليبي.

أخيراً وبعد ثلاثة قرون من الحكم، تنازل عنها لوسينيان إلى البندقية، لقد مضى على ذلك قرابة الخمسين سنة.

وصلت الفليونة حالاً إلى مقربة من مرفأ كبير.
فاماغوستا! صاح ألعازر. أكبر مرفأى الجزيرة.

- نحن لا نخشى حقاً أي شيء؟ سأل جيوفاني بشيء من القلق.

كلا. البندقية والقسطنطينية عقدا تحالفاً بحرياً، السفن التجارية العثمانية لن تتعرض لأي مضايقة من قبل السفن الحربية التابعة للبندقية ويمكنها المتاجرة بحرية في مرفأى مدينة الدوك (segod) حتى ولو كان هذا الظرف الطارئ مؤسفاً، فإننا سنستغله لنستريح على الأرض. توجد هنا طائفة يهودية صغيرة في فاماغوستا ولدي فيها مصارف.

- موشيه بن سعار؟ سألت إيستير.

- صحيح. المرة الأخيرة التي رآك فيها، كنت عندها في سن العاشرة. سيكون سعيداً برويتك من جديد والتعرف على جيوفاني.

التفت ألعازر نحو صهره.

- لكن ستتجنب القول أنك مسيحي، ستكون من جديد سيمون بن روبن!

رست السفينة في المرفأ، صعد جنود من البندقية على متنها للتحقق من هوية السفينة وحمولتها، بينما كان ألعازر يستعد للنزول على الأرض، لاحظت إيستير توتر جيوفاني، أخذته جانباً:

- ماذا يجري يا حبيبي؟

- تردد جيوفاني لبضع ثوان، ثم أفشى إلى زوجته: لا أظن أني قلت لك أن والد إيلينا كان في تلك الحقبة حاكماً على قبرص. الواقع أن القدر قادنا إلى هنا فجعلني متوتراً. لا أعتقد، بسبب ذكرى إيلينا، لكنني أخشى أن أقوم بلقاء قديم يمكن أن يكون مميتاً لنا فيما لو تعرفوا علي.

شدت إيستير على يديه الاثنتين وأجابت:

- أفهم جيداً وأعتقد أنك محق في ذلك. الأفضل أن لا تجرب الشيطان. يمكنك البقاء على ظهر السفينة إذا رغبت.

- كلا إيستير، أنت بحاجة إلى الراحة والقبطان قال لنا: إنه لن يخاطر بالسفر من هنا قبل عدة أيام.

الأفضل أن ترافقي والدك إلى أصدقائه وبالتالي هذا سيسعدهم جداً برويتك من جديد. سأبقى وحيداً.

نظرت إليه إيستير بصمت قبل أن تتابع بصوت قلق:

- لا أحب فكرة أن نكون مفترقين هنا، في هذا المكان الذي لا نعرفه، حيث كل شيء ممكن.

- لا شيء، يمكن أن يحصل في هذه المدينة التي يعرفها والدك جيداً وحيث له معارف، وليس لي على هذه السفينة. لا تقلقي، إيستير، صديقي، سأكون أسعد بمعرفة أنك في بيت مريح خلال هذه الأيام القليلة بدل من أن تبقي سجيناً إلى جانبي في هذه الغرفة الضيقة والخائفة.

إذا أردت لنطلب من أبيك رأيه.

أيد ألعازر فكرة جيوفاني التي وجدها حكيمة، ومع ذلك أقنعه أن يذهب فقط ليمضي بقية النهار والليل عند صديقه، لكن العودة في صباح الغد.

قبلت إيستير أسباب والدها وزوجها، لكن في أعماق قلبها شيء ما يقول لها الأفضل أن لا تترك جيوفاني لوحده.

هكذا بقيت طويلاً ملتصقة به تحضنه. كما لو أنها لن تراه أبداً في هذه الحياة. خطر لها هذا الكلام الغريب وهي تغادره:

- إذا حصلت لك مأساة، فأنا أعدك بأنني سأنتظرك في حياة مستقبلية. إذا لم يكن لدي هذا الوجه فإنك ستعرفني من الأغنية الفرحة التي تغني في قلبك للمرة الأولى التي ستراني فيها. هكذا أكد رأيي ميديا، إننا نتعرف على أولئك الذين أحببناهم كثيراً في حياتنا السابقة،

وأنا متأكدة أنه سيكون لحن مزموور الفجر، الذي يؤثر بك كثيراً.
 - لا تلتفتي بالحماقات، إيستير، سنرى بعضنا غداً صباحاً. أنا لن
 أتحرك من هنا وأنت ستكونين تحت حراسة أمينة من مالك، وسارة
 وداوود. اعتني بنفسك وبطفلنا، حبيبتي.
 نظر جيوفاني بقلب مشدود إلى إيستير وهي تبتعد.
 التفتت نحوه وأشارت له بيدها، فرد عليها.

اختفت في شارع ضيق بصحبة والدها وخدمه الثلاثة. بقي جيوفاني
 على ظهر المركب بصحبة اثنين من خدم القبلاي. كان مصمماً أن لا
 يخاطر أبداً، بالرغم أن نفسه سوّلت له بالتزهر في المرفأ ويستجم على
 متن السفينة، فقرر البقاء منعزلاً في الغرفة طوال الفترة التي بقي فيها
 المركب على الرصيف.

في تلك الليلة، كان من الصعب عليه النوم. ليس بسبب ضجيج
 البحارة الثملين الذين كانوا يغنون على متن السفينة، بل بسبب هذه
 المحطة الطارئة لقوة الأحداث التي جعلته يغوص سنوات إلى الخلف
 وأيقظت فيه الذكرى الحلوة والمرّة في آن واحد لإيلينا. بالرغم من أنه لم
 يكن يشعر في داخله أي شك حول قوة وعمق حبه لإيستير، فإنه كان ما
 يزال يحب إيلينا بطريقة أخرى بفضل معرفة ما حل بها وكيف
 أصبحت، هل هي متزوجة؟ أين تعيش؟ هل هي سعيدة؟ عدد كبير من
 الأسئلة جعلته يضطرب والتي يعرف دون شك أنه لا يمكن الحصول
 على أي جواب عنها. فكر أيضاً بروى لونا وكان يأمل تجنب الخطر
 ببقائه محتبئاً هنا وتجنب أي خطر قد يتسبب لزوجته.

في صباح الغد، بينما كان جميع من في المرفأ نياماً، خرج لبضع
 دقائق إلى الرصيف ليتنسم الهواء ويفرّج عن نفسه، وعاد مسرعاً إلى
 غرفته وانتظر بفارغ صبر عودة إيستير. حوالي الظهر، بدأ القلق يساوره
 لغياب زوجته ووالدها، كان يعرف رغبة إيستير الجارحة في العودة سريعاً

إلى الباخرة ودهش لكونها لم تفعل شيئاً لتعود بسرعة. ليطمئن باله ويرتاح، أرسل أحد الخدم إلى الحارة اليهودية إلى العنوان الذي تركه ألعازر. حكيم الذي كان مسلماً من أصل جزائري ويتكلم لغة الفرانكو، طلب من بحار قبرصي أن يرشده إلى الطريق وذهبا في الحال بحثاً عن سيديهما.

بعد أقل من ثلاثين دقيقة عاد إلى السفينة، ودخل غرفة جيوفاني وعلامات الرعب بادية على وجهه.

- سيدي، لقد حصلت مأساة كبيرة!

قفز جيوفاني واقفاً.

- تكلم بسرعة.

- في هذه الليلة لدى عودتي من الحي اليهودي حصلت مجزرة، بعض سكان المدينة نزلوا إلى الحارة اليهودية وأحرقوا البيوت. مات العديد من الرجال والنساء والأطفال تحت وطأة الحريق.

- إيستير! ألعازر، أين هم...

- لا أعرف، سيدي.. جثامين عديدة متكلسة ولا يمكن التعرف على أصحابها.

- لا أريد أن أصدق ذلك! هل استعلمت عن الناجين؟ هل رأيت منزل موشي؟

- دُمر، كسائر البيوت الأخرى، لكن هذا لا يعني أن الكل في عداد الأموات. امرأة عجوز جالسة تبكي ذويها قالت لي: أن الجنود تدخلوا ليلاً وخلصوا من غضب الجموع عدة عشرات من اليهود. واقتادوهم إلى القلعة.

قد يكون سيدينا العزيزين موجودين بينهم؟

انهار جيوفاني على السرير وأمسك برأسه بين يديه وصلى بصمت، ثم رفع عينيه نحو حكيم:

- لنذهب إلى القلعة!

ارتدى جيوفاني معطفاً وقبعة وهو اللباس الذي يسمح له في حالة لقاء غير مرغوب فيه بأن يمويه وجهه. وفي أقل من عشر دقائق وصلوا أسفل سور القلعة الذي كان يستخدم كقاعدة عسكرية أكثر منه كسجن. تعرف جيوفاني على ضابط من جنود البندقية وتقدم نحوه. - أنا أدعى ليونيللو بومياني، مواطن إيطالي عابر سبيل في قبرص. حياه العسكري باحترام.

- يتفق أن لدي أصدقاء يهود كانوا هذه الليلة في المَجْبَر عندما حصلت تلك المأساة. أرغب معرفة مصيرهم، هل قضوا مع هؤلاء المساكين أو أنهم هنا في أمان.

بالفعل لقد أبدينا هذه الليلة استياء من حوالي ثلاثين يهودياً، قل لي أسماء معارفك ومقدوري عندها أن أقول لك فيما إذا كانوا من ضمنهم.

سارع جيوفاني بالكتابة على ورقة أسماء أليعازر، إيستير والخدم الثلاثة. ذهب الضابط على الفور إلى الحصن.

استغل جيوفاني هذه الفرصة ليسأل أحد الحراس حول أحداث الليل. شرح له الجندي أن طفلاً عمره ثلاث سنوات وجد مقتولاً في الليلة الماضية، على أطراف المَجْبَر. انتشرت الإشاعات بسرعة وبصورة مفادها أن الطفل المسكين كان ضحية جريمة قتل طقسية نظمها اليهود. في الحال عم المدينة الغليان. قام مئات من الرجال والنساء مجهزين بالمشاعل، بالذهاب إلى المحبر حيث تعيش أكثر من ثلاثين عائلة يهودية وأضرموا النار بالمنازل. عندما وصلت قوى حفظ النظام، نجحت بإنقاذ الناجين من ائثار الشعبي وقادوهم إلى الحصن.

ما أن أنهى الجندي روايته حتى نادى الضابط على جيوفاني:

- ثلاثة من معارفك هم هنا، الاثنان الآخران هم موتى بشكل مؤكد.

شعر جيوفاني بدمه يفرغ من داخله.

- من هم الناجون؟ قال بصوت ضعيف.

نظر الضابط إلى ورقته وتمتم:

- الناجون هم ألعازر، سارة وإيستير.

شعر جيوفاني بقلبه يجنح من شدة الفرح.

- هل بإمكانني الذهاب للقائهم وإعادةهم إلى السفينة التي قادتنا إلى

هنا؟

- هذا غير ممكن، قالها الجندي بنبرة رزينة.

- كيف ذلك؟ لم يفعلوا شيئاً، لا يمكنهم البقاء مسجونين.

- لقد تلقى مسؤول الحصن لتوه أوامر من الحاكم، يجب أن يبقى

اليهود في السجن وسيحاكمون على قتل الطفل، حتى ذلك الوقت

الزيارة ممنوعة.

هذا غير معقول! قال جيوفاني بصوت قوي. أنتم تعرفون جيداً أنهم

بريتون من الجريمة التي تتهمونهم بها.

- أنا لا أعرف شيئاً، سيدي، الشيء الوحيد الذي بمقدورك فعله هو

طلب مقابلة الحاكم، وحده من يوافق على رؤية معارفك.

حاول جيوفاني تهدئة غضبه، كان يعرف أن ذلك لن يخدم قضيته،

بل على العكس.

- أشكرك على هذه المعلومات، سأذهب في الحال لطلب المقابلة. هل

يمكنك إرشادي إلى قصر الحاكم؟

- إنه ليس هنا سيدي، يسكن الحاكم في نيقوسيا. إنها تبعد ساعة على

متن الحصان. إذا لم يكن لديك حصان بمقدورك أن تستأجر واحداً من

المرقا.

استأذن جيوفاني من جندي البندقية وسار باتجاه المرفأ، ثم توقف،
وعاد أدراجه متوجهاً من جديد للضابط:

- سؤال أخير: ما هو اسم حاكم قبرص؟

- إنه هنا منذ زمن بعيد ويشكل جزءاً من أكبر عائلات البندقية، يجب

أن تكون قد سمعت عنه بشكل مؤكد: باولو كونتاريني.

- أجاب جيوفاني بصوت مرتجف: نعم سمعت عنه.

انتظر جيوفاني عشر دقائق في رواق القاعة المخصصة لمقابلة حاكم قبرص، الذي كان يحمل لقب أو مرتبة «زعيم عسكري فاماغوستا» توجب على جيوفاني الانتظار أربعة أيام للحصول على مقابلة خاصة. حلق لحيته بتأنق واشترى للمناسبة ثياباً مخاطة على مقاسه من أقمشة باهظة الثمن. كان يعرف أن الحاكم سيحكم على شكله أكثر من كلامه. لحسن الحظ، لم يسبق له أبداً أن قابل في البندقية والد إيلينا. إذن لم تكن هناك أي فرصة لهذا الأخير من وضع أي علاقة بين الشخص الذي يمثل أمامه اليوم والعشيق السابق لابنته، الذي سمع عنه دون شك.

جاء حارس يبحث عن جيوفاني وأدخله إلى صالة واسعة يجلس في بهوها الحاكم، محاطاً بجنديين ومستشار يجلس على كرسي مريح كبير من الخشب المزخرف المشغول.

نهض ليستقبل ضيفه:

- السيد بومياني، أهلاً بك.

تأثر جيوفاني جداً وهو ينظر ملامح والد إيلينا. لقد ورث الفتاة جمال عينيه الخضراوين وابتسامته البشوشة. طلب الحاكم من جيوفاني الجلوس قبل أن يعود إلى كرسيه. كان الرجل يقارب الستين من العمر وتبدو عليه علامات التعب.

أشكر معاليكم لأنكم تفضلتم بقبول مقابلتني.

- هذا طبيعي جداً بالنسبة لمواطن، لكن قل لي بكلمتين ما هي مهنتك ومن أي حارة من البندقية أنتم.

- أنا مكتبي - ناشر في حارة ريالتو.

- آه! حسناً! تابع الحاكم.

تابع جيوفاني حول أسباب زيارته لكي لا يكذب لفترة طويلة حول هويته.

- بعد الحج إلى القدس، قررت الذهاب إلى تونس لألتقي فيها بهاوي مخطوطات مشهور وأبحرت على متن سفينة تجارية عثمانية. بيد أن هذه السفينة حولت وجهتها إلى قبرص نتيجة تعرضها لسفينة حربية تابعة لفرسان مالطا.

- علمتُ بالفعل حول هذه القصة. هؤلاء القبيحون الرهبان الجنود يصطادون أكثر فأكثر على مقربة من شواطئنا.

يجب أن أطلب من مجمع العشرة X أن يرسلوا سفينة حربية لتقوم بأعمال الدورية في تلك المنطقة. أفهم أنك خائف، لكن اعلم أنه لم يكن هناك ما يخاف منه بسبب كونك مسيحي، فيما لو سقطت سفينتك في أيدي المالطين.

- طبعاً. لكن السبب الذي أتى بي إلى معاليكم هو أكثر مأساوية بكثير. لقد تعرفت في القدس على مصرفي يهودي ثري وشريف، هذا الرجل واسع العلم والاطلاع والثقافة أبحر مع ابنته وبعض خدمه على نفس السفينة التي أخذتها ليذهب إلى دويلات البربروسية كونه يملك عدة مصارف. بيد أنه ولتعاسته، ذهب عشية وصولنا بالذات إلى فاماغوستا عند واحد من معارفه في الحي اليهودي بصحبة ابنته ومدير أعماله واثنين من خدمه. كما تعرف ذلك، حصلت اضطرابات شعبية في تلك الليلة بعد مقتل طفل. علمت في اليوم الثاني بهذه المأساة، التي أدت إلى وفاة عشر أشخاص تقريباً

واستعلمت في القلعة في فاماغوستا عن وجود الرجل وابنته وخادمتها.
- لقد اقتيدوا ليلة المأساة. كنت مرتاحاً جداً لدى معرفتي بوجودهم
أحياء وتحت حماية جيدة، غير أنني قلق لمعرفة أنهم لن يتمكنوا من
استرداد حريتهم وسيتعرضون للمحاكمة، كذلك اليهود الآخرون
الناجون، لجرمة طبعاً لم يرتكبوها.

أصغى الحاكم إلى جيوفاني بانتباه كبير، بعد انتهاء خطابه. أجابته
برزانة:

سأكلمك بصراحة، هذه القضية تضايقني شخصياً، لا أظن أن يكون
اليهود متورطين في جريمة قتل هذا الطفل، لكن جزءاً كبيراً من الشعب
متأكد من ذلك ويصعب علي معاقبة المسؤولين عن مذبحه اليهود. وإن
إطلاق سراح الناجين، ما هو إلا للمحافظة على أمنهم وسلامتهم، لقد
اتخذت قراراً بتنظيم دعوى يمكنهم فيها الدفاع عن أنفسهم والتي لا
أشك أبداً بالنتيجة المناسبة لأصدقائك.

- هذا طبعاً قرار حكيم، لكنني لم أقل لك أبداً أن ابنة هذا الرجل
الذي يدعى ألعازر في الشهر الثامن من الحمل، كانت ذاهبة مع أبيها إلى
الجزائر لتلد هناك في بيت يملكونه حيث زوجها ينتظرها، أخشى أن
يؤدي هذا الانتظار الطويل في السجن ثم المحاكمة إلى التسبب بالضرر
بصحتها، دون الكلام أنه سيلزمها فيما بعد أن تضع ولدها هنا، بعيداً
عن بيتها وأهلها.

- هم م م م .. أفهم قلقك في إطلاق سراحها. لا أشاركك توددك إلى
اليهود غير أنه بمقدوري الإصغاء إلى حججك.

دخل خادم مسن إلى الغرفة واقترح عصير فاكهة على الحاكم
وضيفه، بينما كان يسكب له ليشرّب، حدق الرجل بجيوفاني بطريقة
غريبة ثم غادر الغرفة.

- تابع الحاكم: كلما ازداد تفكيري بذلك، كلما قلت لنفسي أنه سيكون بالإمكان تحرير أصدقائك قبل المحاكمة. نحن نعمل سرّاً، لكن إذا وصل هذا الكلام إلى آذان الشعب، فيمكنني دائماً القول أن الأمر يتعلق بمسافرين عابرين، معروفين من قبلنا، الذين ليس لهم لا ناقة ولا جمل في الجريمة.

لدى الإصغاء إلى كلامه هذا، شعر جيوفاني بارتياح عميق.

- لا أعرف كيف أشكر معاليكم، وأظن أن صديقك ألعازر، الذي يملك ثروة فائقة سيعرف أيضاً كيف يتصرف على طريقته.

- ليست الثروة هي السبب الذي دفعني للقيام بهذا العمل، بل الرغبة بإسعاد مواطني بلدي، ودون شك أيضاً، الشفقة إزاء تلك المرأة الحامل التي على وشك الولادة، ماذا تريد؟ أنا بالذات جد وحفيدتي لها الكثير من السيطرة علي أكثر من أي واحد من مستشاري.

ضحك باولو كاتاريني ضحكة عالية وكذلك مستشاره، اكتفى جيوفاني بالابتسامة لأن ما عرفه الآن زاد من عصبيته وأهاجها. تلك الحفيدة هل كانت ابنة إيلينا أو ابنة أخته؟. وفيما لو كانت ابنة إيلينا، هل معنى ذلك أنها موجودة هنا. تحرقّ جيوفاني رغبة بسؤال الحاكم عن هذا الموضوع. مصمماً على أن لا يأخذ أي مخاطرة، فبدّل رأيه، ونهض الحاكم عن كرسيه، استأذن ضيفه بحرارة، معلناً أنه من الممكن الذهاب يوم غد إلى القلعة مع أمر بإطلاق سراح أصدقائه بعد أن شكره بحرارة وحياء باحترام، سار جيوفاني نحو باب الغرفة، في اللحظة التي بلغ فيها المخرج، استدعاه الحاكم بصوت قوي.

- السيد بومبياني!

- استدار جيوفاني، فشهد الخادم الذي جلب الشراب يقف إلى جانب باولو كونتاريني ويهمس في أذنه. كانت لدى الحاكم ملامح الدهشة الكبيرة. بعد عدة لحظات، توجه من جديد إلى جيوفاني:

- اعذرني لأنني أعدتكم إلى هنا، لكن فرانثيسكو الذي كان أحياناً في خدمة عائلتي وزوجتي، يقول لي شيئاً مفاجئاً جداً غير متوقع أرغب في التحقق من صحته، فيما لو سمحت؟
حاول جيوفاني بأن لا يدع أي شيء يظهر الاضطراب الداخلي الذي استولى عليه.

نظر إلى الزائر بانتباه وتمعن، محاولاً التذكر فيما لو كان قد التقى به عند إيلينا، لكن هذا الوجه لا يعني له شيئاً.

- فرانثيسكو، الذي يتمتع بذاكرة بصرية خارقة، يقول لي أنك تذكره بأحدهم.

- آه، صاح جيوفاني متخذاً نبرة كاذبة مازحة، ومن إذن.

- أحدهم الذي لم يلتق به سوى لعدة أيام منذ سنوات.

عضّ جيوفاني على شفثيه متسائلاً:

- هذا مسلّ جداً، قهقهه جيوفاني. هل لدي إذن هيئة أو ملامح قروي مسكين من كالابري!

- طبعاً كلا، تابع الحاكم. لكن يتفق أن هذا القروي، الذي أصبح لا أعرف بأي أعجوبة منجماً جاء فيما بعد ليلتقي بابنتي في البندقية وأنه أغواها وقتل منافساً، ابن أفضل أصدقائي. حكم عليه بالأشغال الشاقة مدى الحياة. اختفى ذلك الرجل بعد معركة بحرية.

توقف الحاكم، متربصاً ردود فعل جيوفاني، ثم تابع:

- سيكون ذلك مسلياً جداً أن يكون هذا المتحلل للهوية اليوم قد تغير إلى مكباتي - ناشر! لكن أقول هذا كمحض فرضية. يمكن لحادمي أن يخطئ.

- أعتقد ذلك معاليكم، ولو أنك لم تبد لي في السابق علامة أو إشارة عن حكمتك، فإنني كنت لأندesh من ذلك الذي يمكن أن يكون تلميحاً مهيناً حيالي، وفي نهاية الحساب لا يمكن التحقق منه.

أمام هذه الكلمات، همس الخادم من جديد في أذن سيده.

نادى هذا الأخير جيوفاني من جديد:

- خلافاً لما أتيت على تأكيده، توجد طريقة بسيطة للتأكد فيما إذا كان خادمي قد أخطأ. الرجل الذي أكلمك عنه تلقى بالضبط عشرين ضربة سوط، فرانثيسكو كان يرافق ابنتي وحضر تنفيذ العقوبة. فإذا كان ظهرك، سيدي، لا يحمل أي أثر لضرب السياط عندئذ سأقدم لك كل اعتذاراتي وسأعوض عليك لأنه لدي هذا الشك غير المبرر.

إذا فهمت جيداً، فأنتم تطلبون مني أن أخلع ثيابي في الحال حتى أثبت صدقي وحسن نيتي؟
- هو بالضبط ما نريد.

- أنا منزعج جداً صاحب المعالي، لأن القدر يحرض ضدي، يتفق أنني كنت أسيراً لدى القراصنة الجزائريين منذ عدة سنوات وأنتي تعرضت لعقوبة مشابهة لتلك التي أتيت على ذكرها. تعرضت للضرب بالعصي لأنني حاولت الهرب وقدماي يحملان الآثار التي يمكنني أن أظهرها لكما. لكن قد تقولون لي أن خادمك يتذكر فجأة أن هذا القروي تلقى ضربات بالعصي على قدميه.

- لن يصيبك أذى، سيدي، تفضل وأرنا هذه الجراح.

بدأ جيوفاني بنزع حذائه وأظهر سطح قدميه المشوهين، ثم فك قميصه وأظهر ظهره المخدش، كل أولئك الذين حضروا ذلك المشهد لاحظوا بانتباه الندب.

تحدث الخادم بصوت منخفض مع مستشاره ثم تابع:

- لم تكذب بالنسبة للضرب بالعصي التي تلقيتها طبعاً كأسير فار، لكنني آسف بأن أقول لك أن الآثار الباقية على ظهرك تأتي من سوط من

جلد شعر ذيل الحصان مصنوعاً بشكل خاص لم يكن يستعمله العثمانيون أو القراصنة... بل جيش البندقية.

- تهكّم جيوفاني وقال: أنا مرة أخرى ضحية الحظ السيء، لم يكن مسروراً لأنه تعرض للضرب بسياط الجلادين، بل عليه أن يتعرض للضرب بشيء مسروق من البندقيين.

- لا أعتقد أن يكون هذا من ضمن عاداتهم، لكنك محق، هذا لا يشكل إثباتاً كافياً لتوقيفك.

شعر جيوفاني بأن الملزمة الرهيبة تراخت عن عنقه، ودفع بتنهيدة ارتياح خفيفة.

- مع ذلك، استأنف الحاكم، سنحاول التأكد من ذلك خلال عدة دقائق، يوجد بالفعل شخص يمكنه القول بصورة مؤكدة فيما إذا كنت هذا الرجل أم لا. طلبت أن تُستدعى وستكون هنا في الغرفة بين لحظة وأخرى.

«إيلينا، فكر جيوفاني مندهشاً، إيلينا هنا وطلب حضورها».

- حسب كلماتها لن يسمح بعد ذلك بأي شك، تابع باولو كونتاريني. إما أن تغادر حراً مع أصدقائك مع تعويض سخّي، وإما أن تلتحق بهم في السجن.. لكن طبعاً لتشنق أو لتنتهي على المحرقة.

بناء على هذا، انفتح باب صغير في مؤخرة الغرفة، خلف الحاكم، دخل جندي متبوعاً بامرأة، بدأ جيوفاني يرتجف خوفاً، ثبت نظره على الخيال الهزيل الذي دخل صالة الاستقبال الواسعة.

لقد تعرف عليها دون أي تردد وتسمّر قلبه.

كانت يدي جيوفاني موثوقتين ومكبلتين بالسلاسل إلى حلقة مثبتة على جدار سجنه. شعاع خفيف من النور يدخل عبر كوة صغيرة. كل شيء ينهار عندما دخلت جوليانا، الخادمة وإيلينا التي عرفته جيداً في البندقية تعرفت عليه دون أي تردد على أنه جيوفاني داسكولا العاشق السابق لسيدتها المحكوم السابق بالأشغال الشاقة. أمر الحاكم على الفور زجه في سجن أحد أبراج القصر. بعد ذلك بعدة أيام، كان أحضر أمام القضاة الذين طبقوا حرفياً القانون البندقي المتعلق بمساجين الأشغال الشاقة الفارين من وجه العدالة. الحكم بالإعدام، كانت لديه فقط حرية الاختيار بين الشنق والمحرقة، فاخترت المحرقة.

قضى ما يقارب الأسبوع، في هذا السجن الرهيب، منتظراً إعدامه، المحدد في اليوم الثامن بعد المحاكمة.

بعد يومين سيغادر هذا العالم إلى الأبد، عندما صدر الحكم، لم يتدمر جيوفاني لذلك، حتى أنه لم يبك. منذ اللحظة التي تعرفوا فيها عليه كان واعياً وعارفاً ما ينتظره، لا أحد يمكنه إنقاذه هذه المرة، لقد قبل قدره. بالمقابل، كان يصلي ليل نهار لتبرأ زوجته وحماه. لم يفصح أبداً لقضاته عن الطبيعة الحقيقية للصلوات التي كانت تربطه مع أعازر وإيستير، مدرراً أن هذا سيسبب لهم إدانة أكيدة. الناجون من ذبح اليهود سيحاكمون بعد عدة أيام من إعدامي.

وصل حملُ إيستير إلى نهايته. تساءل جيوفاني متى سيولد ابنه. كان يحب معانقته، لمرة واحدة فقط! أفكاره متجهة نحو إيلينا، فقد عرف من طريق والدها أن الفتاة حاضرة في قبرص مع ابنتها. لكن باولو كونتاريني يرفض دائماً أن ترى جيوفاني من جديد، ولم يصرح لها أبداً بحضور المحاكمة التي تمت بجلسة مغلقة. يود من كل قلبه كثيراً رؤيتها! يفكر أن المرأتين اللتين حطمتا قلبه كانتا هناك، قريبتين من بعضهما كما لو كانتا متحدتين بالقدر، بينما قدره الخاص الآن أن يحكم عليه بمغادرة هذه الحياة، التي علمته بأن يحبها كثيراً.

قلبه وروحه مثقلين بالأحزان، ولكنهما صافيان. لاحظ خيطاً من النور البرتقالي يميل نحو الأفق. ظن أن الشمس ستغيب قريباً. السجن الذي سيجلب لي وجبة العشاء. انفتح الباب الثقيل الواقع فوق سجنه وانغلق في الحال. عشرة درجات تقريباً تقود إلى زنزانته حيث كان مكبلاً بالسلاسل. اندهش جيوفاني لعدم سماعه الخطوات الثقيلة لسجانه. رفع الرأس ولاحظ أسفل معطف امرأة.

- جيوفاني! جيوفاني الحبيب!

توقفت إيلينا عند أسفل الدرج تنظر إلى عشيقها السابق الذي كان جالساً على مقعد حجري صغير وعلى بعد خطوات فقط. تطلب الأمر بضع ثواني ليتمكن جيوفاني تصور ما الذي كان يجري، ثم صرخ بصوت أجش:

- إيلينا...

نظر إلى الفتاة، التي مضى عشر سنوات على رؤيتها للمرة الأخيرة، اليوم عمرها يقارب سبعة وعشرين عاماً. بدت إيلينا أجمل من أي وقت مضى. حافظت على رقتها ورشاقتها ونعومة معالمها لكن رقة وجهها الطفولي قد تغير شكله إلى وجه، أكثر ثقة ونبلاً، امرأة ناضرة، هرعت نحوه وغطته بالقبلات.

- آه يا حبيبي إني أنتظر هذه اللحظة منذ سنوات عديدة!

فاض قلب جيوفاني بفرح لا يوصف.

- إيلينا... لا أقدر أن أصدق ذلك، يا لها من سعادة أن أراك من

جديداً! كم أنت جميلة!

اغرورقت عيون إيلينا بالدموع. بدأت تداعب وجهه برفق وتتابع

تقبيله على خديه، شفتيه، جبينه رقبته.

- آه، جيوفاني حبيبي، أفكر بك كل يوم منذ تسع سنوات. روحي،

أفكاري لم تتركك ولو للحظة واحدة.

لماذا لم تعد؟ لكنك تركت كل شيء وتبعتك. قلبي لا يخفق أبداً إلا

لك منذ أن غادرت. يقول لي بصدق أنك قد نجوت من الغرق وأنت

مازلت حياً! لماذا، حبيبي لماذا لم تعد لتبحث عني؟

بكي جيوفاني بدوره. مدركاً إلى أي حد ما تزال تحبه.

إيلينا، تشوّق أن يعانقها بقوة ويضمها إلى ذراعيه لو لم تمنعه هذه

السلاسل الملعونة.

إيلينا، أنا لم أتوقف عن التفكير بك، لكن بما أنك قلت لي أنك لن

تستطيعي وعائلتك مغادرة البندقية، فلم يطاوعني قلبي بالعودة وتحطيم

حياتك وتعريضك للخطر. من جهة فأنت متزوجة.

اغتمّ وجه إيلينا.

- لا أحب زوجي، لم أحبه أبداً. لم يكن لدي الخيار، جيوفاني، كنت

سأنفصل عنه فيما لو عدت. فكرت بكل شيء.

- هل لديك أطفال أيضاً.

ابنة صغيرة، يمكنني الهرب معها، لو تعرف كم هي جميلة!! اسمها

استلاً.

- يا له من اسم جميل! صاح جيوفاني وعيناه ترقان. كانت ظاهرياً متأثرة للإطراء.

- تابع جيوفاني: كم عمرها؟

- أجابت إيلينا بصوت متردد قليلاً: تسع سنوات.

أدرك جيوفاني أن الطفل ولد بعد أقل من تسعة أشهر من مغادرته، يعني أن إيلينا تزوجت بعد وقت قصير من فراقهما.
- هل تزوجت أخيراً من...

- لا يهم من تزوجت، قاطعت إيلينا، كنت مرغمة على ذلك، ليس لي علاقات جسدية مع زوجي منذ وقت طويل. أؤكد لك جيوفاني، أنت وحدك تشغل قلبي أنت وحدك موضوع شهواتي وأفكاري.

غمرت رأسه بذراعيها ووجهها على وجهه، وهمست في أذنه:

- اسمع، لا شيء ضاع لم يفت الأوان بعد لم تأت إلي بمحض إرادتك لكن القدر جمعنا، لقد منعني والذي من زيارتك غير أنني رشوت رئيس الحرس ولدي مخطط لأساعدك على الهرب... هذه الليلة بالذات.

رفع جيوفاني رأسه.

- حقاً؟

- نعم، كل شيء خططت له. خادم أمين ينتظرنا مع ابنتي مع حصانين، ثم هناك زورق جاهز ليأخذنا بعيداً عن هذه الجزيرة وسنذهب حيث نشاء، حبيبي. المهم أن لا نفترق أبداً.

أخفض جيوفاني رأسه وبقي صامتاً.

- أأست سعيداً؟ توجد دون شك مخاطر كثيرة، لكن إذا كان الله معنا، وأنا لا أشك ولو للحظة أن لا يكون كذلك لأنه جمعنا من جديد، كل شيء يسير نحو الأفضل. من الغد يمكننا أن نحب بعضنا كما في السابق.

وأكثر أيضاً.

توقفت إيلينا قليلاً ثم أضافت.

- لدي أيضاً شيء مهم جداً ورائع لأقوله لك، لكن هذا سيبقى إلى الغد عندما نصبح بعيدين عن هذا المكان المشؤوم.

- أنا أيضاً إيلينا لدي شيء ما هام جداً لأقوله لك، تابع جيوفاني بجدية واضحة، لكن هذا لا يمكنه الانتظار.. يجب أن تعرفي.

رجعت إيلينا إلى الخلف قليلاً، وحدقت بعيني حبيبها السابق المغتمتين.

- يجب أن تعرفي، تابع جيوفاني بهدوء أنني متزوج أيضاً.

غمامة من الحزن هبطت على الوجه الجميل لابنة البندقية.

- هل تحب زوجتك؟

- نعم.

عندها كما لو أن سيفاً بتاراً انغرز في قلب إيلينا. بقيت للحظة صامتة، ثم سألت أيضاً بصوت محطم:

- هل لديك أطفال؟

- زوجتي على وشك الإنجاب لأول مرة.

- أين هي إذن؟ تابعت إيلينا.

- هنا بالذات، في قلعة فاماغوستا.

رجعت إيلينا إلى الوراء بوضوح وتابعت بنبرة مندهشة:

- لم يقل لي أبي أنه أوقف امرأتك!

- لأنه لا يعرف أنها زوجتي، فهي تدعى إيسثير، مع أبيها العازر،

أسروا وأدخلوا السجن بعد اضطرابات الغضب والحقد الشعبي في الحي اليهودي.

- هل تزوجت بيهودية؟ هل انقلبت إلى المسيحية؟

- كلا أبداً. لقد احتفظ كل منا بدينه ودين آباءه.

تزوجنا في عيد الميلاد في القدس ونحن عائدون إلى الجزائر عندما بدلت سفينتنا اتجاه مسارها إلى هنا بسبب القراصنة.

كما في السابق عندما التقيت بك، تابعت إيلينا بصوت مهزوم.

- فكرت بذلك مراراً منذ أن وصلت فيه إلى هنا، من أجل أي سبب

جمعنا القدر من جديد؟

نظرت إيلينا إلى جيوفاني في أعماق أعماق عينيه. خلف هاتين الحدقتين السوداوتين الجميلتين، كانت تسعى الوصول إلى روحه، تابعت:

- قد يكون هذا الحادث سبباً لجمعنا من جديد، هذا سيكون أكثر تعقيداً، لكن سأحاول المستحيل لأطلق سراح زوجتك وأبيها. ليس هذه الليلة، لكن الليلة التالية، عشية إعدامك. نعم بفضل الله سأتمكن من ذلك وسنهرب جميعاً معاً.

- أنت رائعة، إيلينا. قلبك لم يتغير، هو دائماً كريم ومتحمس، كم أنا أحبك!

هرعت إيلينا من جديد نحو جيوفاني وشدته بين ذراعيها وتابعت بصوت أكثر ثقة:

- لدينا بعد متسع من الوقت قبل أن أغادر لأنظم فرارك وفرار زوجتك. حدثني عنك، بكلمات عن الأشياء الأكثر أهمية التي حدثت لك منذ افتراقنا.

رؤى جيوفاني بإيجاز حياته في سجن الأشغال الشاقة، غرق السفينة، اهتدائه في الدير الأرثوذكسي الصغير، ثم هربه نحو آتوس، تعلمه رسم الأيقونات، لقاءه مع الناسك الراهب سيميون وذهابه إلى

الصومعة، حدثها أيضاً عن أمنيته في الانفراد، وفقدان الإيمان في الكهف وهربه من الصومعة، واكتشاف موت معلمه، كلبه نواه الذي أنقذ حياته، والرجال المرتدين السواد الذين أوشكوا أن ينتزعه منها. ثم تكلم عن عناية لونا به بينما كان في حالة سبات، خروجه من حالة السبات في الدير، سفره إلى القدس، هجوم القراصنة، السجن في الزنزانة، الهرب الفاشل، عقوبة الضرب بالعصي، اللقاء مع المعلم الصوفي، المؤامرة على إبراهيم.

كانت إيلينا معلقة بعينه، مذهولة من صموده ومعاناة هذه الأشياء الصعبة واجتيازه المحن، بينما هي تعيش في البندقية حياة ناعمة منتظرة عودته كل لحظة. لكن يجدر القول أن هذا العنصر لوحده كان يضيء على حياته مذاقاً خاصاً، كانت متأكدة أنه ما يزال حياً وسيعود للبحث عنها، وأنها بانتظار أي مؤشر لعودته مهما كان صغيراً.

ضجة كانت توقظها ليلاً، تسرع إلى النافذة لرؤية ما إذا كان جيوفاني يحاول تسلق الجدار المؤدي إلى غرفتها. لهذا السبب طلبت من زوجها بأن يناما في غرفتين منعزلتين على انفراد واختارت غرفة في قصرها الجديد يمكن الوصول إليها من طريق زقاق ملاصق، تراءى لها في الشارع شبحاً بعيداً، يذكرها بشبح عشيقها، تسرع وقلبها يخفق، نحو ذلك المجهول. بينما يخيب أملها ألف مرة، لم يفارقها الأمل بروية جيوفاني من جديد. رغم أنها ظاهرياً دون مشكلة، فقد كانت حياتها رومانسية بشكل جنوني، لأنها لم تتوقف عن ترقب اللقاء والاستعداد له. تنهض كل صباح، وتحضر نفسها بأبهى صورها لكي لا يخيب أمل جيوفاني بأن يراها في نفس اليوم. في كل مساء تنام وهي تفكر به وتنساب في النوم حاملة بانفعال أنه قد يأتي ليوظها وسط الليل. هكذا، عندما تكلم جيوفاني دون تمويه عن لقائه مع ألعازر وولادة حبه إيستير في الجزائر. صدمت بقوة «أنه لم يعد إلي منذ استيقاظه في الدير بعد أن

يسافر إلى القدس ليأثر لأصدقائه، فكرت بذلك بمرارة، لو كان الحب في قلبه عندئذ لتغلب على الحقد، لما التقى بتلك المرأة وكنا اليوم معاً. أنهى جيوفاني روايته بالحدث الوحيد الذي كانت إيلينا تعرفه: مواجهته مع أبيها، بعد لحظة من الصمت تابعت إيلينا بهدوء: أنا محبطة لحكايتك، لقد عشت ما يعادل أضعاف مدة الحياة خلال تلك السنوات التسع.

عندما أنتظرتك في البندقية، وأنا أعتني ببيتي وابنتي ستيلانت أنت أفكر بك كل لحظة تقريباً، تخيلت الكثير من الأشياء، فيما يخصك بما فيها إلقاء القبض عليك من قبل القراصنة، لكن شيئاً واحداً لم أفكر به أبداً.

- المدير؟

- كلا، الزواج.

- أنت تلوميني لأنني لم أجروء على العودة إليك، أليس كذلك؟

- لا أظن أن الشجاعة كانت تنقصك، أعتقد فقط أن حبك لي قد انطفأ على مر السنين، أجابت إيلينا بنبرة كئيبة.

- حبي لك لم يتوقف أبداً، إيلينا. في حين أنني متزوج وأحب زوجتي، اليوم أنا محبط لدى رؤيتي لك، فقط، كنت مقتنعاً أنك لن تستطيعين أبداً مغادرة مدينتك وعائلتك كما قلته لي بوضوح، كنت مقتنعاً أن حبنا مستحيل سيؤول حتماً إلى البؤس، إلى بؤسك.

التهبت نظرة إيلينا من جديد.

- نعم، لكن بعد الحكم عليك فهمت أنك كنت الأمل لحياتي، الروح لروحي، لذلك صرخت في قاعة المحكمة، في اللحظة التي ساقك الجنود إلى سجن الأشغال الشاقة: سأنتظرك. ألم تسمع ذلك أبداً؟

- بلى، اعترف جيوفاني. لكنني ظننت أن ذلك كان محض كلام نقوله في حمأة التأثير والانفعال. خشيت فيما بعد أن أخاطر بهدم حياتك مرة

أخرى، بينما كرست السنوات لإعادة بنائها، ثم مرت الأيام.
وضعت إيلينا ذراعيها على كتفي جيوفاني وحدقت به بشدة لدرجة
أنه فوجئ بذلك.

- لم يفث الأوان، حبيبي! لقد أخلفنا كلانا، بالنسبة لي لم تكن لدي
الشجاعة بترك كل شيء لأتبعك، وأنت لأنك فقدت الإيمان بحبنا.
لننس ذلك! العناية الإلهية جمعتنا من جديد، لنغادر ونذهب إلى أي
مكان، فقراء مطاردين، مرضى لن نكون بعد الآن تعساء.. لأننا
سنكون معاً إلى الأبد.

- كيف يمكنني الهرب معك بينما زوجتي والطفل الذي تحمله ما زالوا
في السجن، إيلينا؟

- قلت لك أنني سأطلق سراحهما! منذ الغد سأحمل أمراً موقعاً من
أبي لتحريرهم. لن يتمكن من رفض ذلك لي. ثم أجعلهم يغادرون
الجزيرة فوراً ويعودون إلى بلادهم بأمان. وفي الليلة القادمة أقوم بتنفيذ
مخطط فرارنا.

نظر جيوفاني إلى إيلينا بحنان وقلق.

- لكن، إيلينا، أنا لن أفارق إيستير أبداً، ما أن أكون حراً فإنني لن
أتوقف عن البحث عنها وكذلك عن طفلي.

بقيت إيلينا حاملة للحظات، تابعت بصوت ينقصه الحزم.

- ستبحث عنها وسترى طفلك، وستستقر ليس بعيد عنهما، هكذا
ستذهب لتراهما بقدر ما تريد.

- إيلينا أبداً لن أستطيع العيش بهذا الشكل، ستكون إيستير تعيش في
كل مرة أكون فيها عندك وستكونين تعيشين في كل مرة أكون فيها معها.

- حسناً من الممكن يوماً ما أن يكون عليك الاختيار، أجابت إيلينا،
دون شك بأن هذا الاختيار سيكون لصالحها.

- هذا الاختيار قد تمّ، حبيبتى.

رفعت إيلينا وجهها ونظرت إلى جيوفاني بحميمية:

- بزواجى من إيستير، تعهدت طيلة حياتى أن أبقى معها، أحبها ولن أتركها أبداً.

- شحب وجه إيلينا، شعرت أن الأرض تنزاح من تحت قدميها. بعد أن انتظرته قرابة العشر سنوات، ها هو الآن يرمى في وجهها حب امرأة أخرى. غضب غير موصوف سيطر على قلبها، انتصبت بهدوء وأجابت بصوت يرتجف:

- أهذا كل ما تريد أن تقوله لى؟

كان جيوفاني محبطاً، مقدرأً يأس إيلينا، لكنه لم يكن قادراً أن يكذب عليها قصد إنقاذ حياته.

- افعلى ما يحلو لك، إيلينا، أنا أحبك كثيراً ولا أريد أن أخفى عنك الحقيقة.

- حسناً، فكر أيضاً قليلاً، فيما لو غيرت رأيك قبل ظهر الغد، عندما تكون الشمس في قبة السماء، أعلمنى بذلك من طريق السجنان. عندها، يكون قد فات الأوان. فلن أكون قادرة على تنفيذ مخططى، ستموت، وزوجتك، تلك التي تحبها كثيراً، ستدان أكيداً.

- أرجوك إيلينا، إذا كنت تتركينى للتهلكة فلا تتأري من زوجتى وطفلى.

- طفلك! صاحت إيلينا. يجب أيضاً أن يولد هذا الأخير فى حينه.

توقفت إيلينا، نظرت إلى جيوفاني للمرة الأخيرة.

- لديك حتى ظهر يوم غد لتختار المرأة التي تحبها أكثر جيوفاني. ثم أخرجت مغلفاً من ثوبها وأعطته بيد ترتجف إلى عشيقها السابق:

- خذ، هذه هي الرسالة الشهيرة المكتوبة من المعلم لوسىوس والتي

كلفته حياته. احتفظت بها آملة أن أعيدها لك بيدي وها قد تم ذلك.
نظر جيوفاني إلى المغلف الكبير الأصفر، بمزيج من القلق
والاندهاش.

- هل فتحته؟

- كلا.

- احتفظي به، إيلينا، فيما لو وجدته الحارس هنا، فإنه سيصادره. وإن
وجب عليّ الموت، أرجوك أيضاً، إكراماً لحبنا، أن تأخذه إلى البابا، هذا
هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أسديه لأمتي بذكرى معلمي.

ترددت إيلينا في إلقاء الرسالة في وجهه، لكنها تمكنت من كبح
غضبها، متأرجحة بين الغضب واليأس.

ثم أدخلته من جديد في ثوبها وهرعت مسرعة متجنبة البكاء أمام
حبيبها السابق.

بعد أن صعدت عدة درجات أبطأت سيرها وبدت كأنها تتردد ثم
عادت.

- سأطلب من رئيس الحرس بأن يفك وثاق يديك ويعطيك ما يلزم
للكتابة، إذا كنت ستختار العيش معي، فاكتب على ورقة اسم كتاب
فلسفي، أيّاً كان فسأفهم، ستعطيه إلى الرجل نفسه. إذا لم تصلني أي
رسالة قبل ظهر الغد، فلن يكون بوسعي فعل أي شيء، لا بالنسبة إليك
أو لزوجتك.

حدقت إيلينا بالرجل الذي أحبته للمرة الأخيرة ثم غادرت السجن
بسرعة.

ما أن انغلق باب سجنه، حتى أجهش جيوفاني بالبكاء، قلبه، مثل
قلب إيلينا كان محطماً. يعرف أنه لن يغير رأيه. لا يمكنه فعل ذلك دون
أن يكون خائناً لذاته، وغير مخلص إلى الذين يحبهم وإلى حقيقة حياته.

فكر بكلام المسيح الذي ذكره به الناسك سيميون: «لم أولد، لم آت إلى هذا العالم إلا لأشهد على الحقيقة» وأيضاً: «لا حب أكبر من أن يعطي حياته للذين يحبهم».. هل تقبل إيلينا الموافقة على تهريبه مع إيستير متخفية عنه؟ لم يكن يعرف الإجابة على هذا السؤال. لكن مع ذلك فالجواب لا يعود له، لم يكن لديه سوى الانتظار والصلاة.

في فجر اليوم الثامن، شق شعاع ضوء ضعيف كوة زنزانة جيوفاني وتوضع على وجهه. اليوم الأحد، يوم الشمس المنتصرة، يوم قيامة يسوع المسيح، اليوم الأخير في حياتي على الأرض.

كان يعرف أنه، بعد عدة ساعات، لن يبقى في هذا العالم. لم يوصل أي رسالة إلى رئيس الحرس وإيلينا لم تأت. نفسه مليئة بالحزن لكنها تعيش بسلام. يعرف أنه قال كلاماً صحيحاً ولا يمكنه أن يؤثر أكثر من ذلك على مجرى الأحداث. إذا كان قدره مقضياً يجب أن ينتهي على هذه المحرقة وإلا فلن يكون بمقدوره سوى تسليم نفسه إلى الله ويصلي دون توقف منذ زيارة الفتاة وأن يهدي الله قلبها المجرّوح وتساعد زوجته السجينة.

دخل الحارس مصحوباً بجنديين إلى سجن جيوفاني وفك السلاسل عن يديه، اقتيد جيوفاني تحت حراسة مشددة إلى الساحة الأسقفية (المطرائية)، حيث تنتظره المحرقة.

مرّت المجموعة أمام دير أرثوذكسي سمع جيوفاني تراتيل الرهبان، صور من ماضيه تعود إلى ذهنه. اقتيد مباشرة إلى وسط الساحة حيث يحتشد جمع غفير. البعض يرميه ببعض المزاحات، لكن الأغلبية بقيت صامته عارفة أن هذا الرجل محكوماً لأنه قتل نبيلاً بسبب امرأة ولأنه هرب من سجن الأشغال الشاقة، هذا يجعله محبوباً يثير الشفقة.

كانت منصة الشرف التي نصبت للمناسبة في مؤخرة الساحة، مستندة إلى مركز الأسقفية، ما تزال فارغة، بانتظار حضور الحاكم،

والأسقف ووجهاء المدينة. ما أن وصل جيوفاني إلى أسفل المحرقة، أمسكه الجلاد.

في اللحظة نفسها، على بعد خمسة عشر فرسخاً من هناك أصيبت إيستير بدوار طالبة المساعدة. لم تعرف أخباراً عن جيوفاني وعما يدور في الجهة الأخرى من الجزيرة. عند المساء، فقدت الكثير من الماء وبقيت ممددة في غرفة سجنها برفقة سارة والعشرات من النسوة اليهوديات الناجين من المحرقة.

هرعت سارة نحو سيدتها.

- أعتقد أنه يريد الخروج، همست إيستير، النفس قصير. بطيء لم يتوقف عن الهيجان.

- قفي! صاحت امرأة تدعى ريبيكا، اثنتان منا ستساعدانك، في حين أن اثنتين أخريين ستمسكان بالطفل، هكذا ولدتُ أطفالي الثمانية.

مساعدة من طرف سارة وسجينة أخرى، نهضت إيستير بهدوء واسندت ظهرها إلى الحائط. أمسكتها المرأتان من تحت ذراعيها.

صعد جيوفاني ببطء درجات المنصة المحاطة بحزم الحطب والتي تُبَت عليها عمود. أسند ظهره إلى العمود، حارسان ربطا يديه خلف ظهره. ثم صعد راهب، وطلب منه تقبيل الصليب سألَه إذا كان يريد الاعتراف.

- بطيبة خاطر، أجاب جيوفاني بصوت هادئ.

أنصت الراهب.

أطلب المغفرة من الله عن كل ما رفضت أن أكون على مستوى متطلبات حبه وحيث رفضت أن أضع ثقتي بنعمته، أقر جيوفاني.

- هل هذه هي الجرائم الوحيدة التي تعترف بها؟ اندهش الراهب.

أردف جيوفاني بإشارة من رأسه.

- لا يمكنني منحك المغفرة لأن اعترافك ليس صادقاً! تابع رجل الكنيسة، كأنه أهين. أعرف أنك ارتكبت جريمة لتحكم عليك اليوم عدالة البشر.

- قلت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤنبني عليه ضميري في هذه اللحظة، بالنسبة للباقي، فإنني أسلم نفسي لعدالة الله، التي هي لحسن الحظ ليست عدالة البشر.

- إذن ليس لديك أي شيء تضيفه؟

لمح جيوفاني الموكب الرسمي الذي وصل إلى أسفل القصر الأسقفي، تعرف دون تردد خلف الوجهاء على شبح إيلينا، انقبض قلبه، ستحضر تنفيذ عقوبته.

- نعم.

- أصغي إليك يا بني.

- كنت قد وضعت تحت حزامي، ورقة مخصصة لامرأة يهودية، تدعى إيستير، سجنتم ظلماً في قلعة فماغوستا، أرجوك خذها. مد الراهب أصابعه تحت الحزام الجلدي وأخرج ورقة مطوية أربع طويات، دسها خلسة في جُبتّه وأضاف.

- هذا كل شيء؟

- كلا قل أيضاً لإيلينا، ابنة الحاكم أنني لم أتوقف أبداً عن حبها.

كانت إيلينا جالسة إلى جانب والدها، مقتنعة أن حبيبها سيرسل لها إشارات، حيث نظمت فراره بإحكام.

لكن عندما لم تر شيئاً يصل إليها، اشتعل قلبها وعقلها غضباً يعجز عنه الوصف. لم تتوصل إلى قبول الحب الذي يكنه حبيبها إلى امرأة أخرى. هذه الفكرة لوحدها كانت تفقدها صوابها. أن تفعل ما تنوي فعله، فقد تركت الوقت مبمضي، غير قادرة على اتخاذ أي قرار.. إلى أن

فات الأوان، كانت غائصة في حالة غريبة، كما لو أنها لا تملك نفسها أو تمتد مدتها. قلبها ما يزال مسكوناً بغضب بارد، لكن ما أن لمحت جيوفاني على المحرقة، تراجع الغضب، وترك مكانه الضيق دون قاع.

نزل الراهب من على المنصة، وحل مكانه الجلاد الذي جاء حسب التقليد، ليربط عصابة على فم المحكوم قصد كبت صراخه.

شعرت إيستير أن ابنها على وشك الولادة، فالتقلصات تتسارع والألم يتزايد تدريجاً، أخرجت ربيكا من جيبها منديلاً ووضعت بين فكي المرأة الشابة.

- عضني عليها، هذا سيساعدك على تحمل الألم.

عضت إيستير على القماش بكامل قوتها.

مع تراتيل الرهبان الأرثوذكس، بدأت الطبول تقرع. من أعلى المنصة مد الحاكم ذراعه لفترة طويلة، ثم أخفضها، في تلك اللحظة أشعل الجلاد حزم الحطب الموجودة حول منصة المحكوم.

عندها فقط أدركت إيلينا أن كل شيء قد انتهى، غادر الغضب نفسها وتاركاً اليأس مكانه: «آه! حبيبي! لماذا لم أضحي برغبتني بالحياة إلى جانبك لإنقاذ حياتك؟ لماذا لم أقل لك أنك أبا لابنتي؟ ذلك هو السبب الذي من أجله أجبرت على الزواج بعد عدة أسابيع من مغادرتك إلى سجن الأشغال الشاقة. رجل لم أكن أحبه؟ سكتُ بداعي الكبرياء كي لا أؤثر عليك في اختيارك، ولكي تختارني أنا... وليس بسبب ولدي! والآن كل شيء قد انهار اغفر لي حبيبي! اغفر لي.

بدأ دخان كثيف أبيض يتصاعد، بدأ جيوفاني يسعل من جراء الدخان الحار.

إيستير تن وتألم وتقلصات تقارب، فجأة صاحت إيستير:

- إنه يخرج!

أمسكت المرأتان معاً بالطفل.

جيوفاني كان يختنق، رثاه كأنهما تتمزقان، أصبحت الحرارة لا
تحتمل.

- إلهي يسوع، ابن الله الحي، أشفق علي أنا الخاطيء. هكذا صلى.

ثم أطلق صرخة كبيرة صماء.

صرخ الطفل، ربيكا أتت علي قطع جبل الصرة.

- إنه صبي ذكر!

لدى رؤيتها جيوفاني مثل مشعل أجهشت إيلينا بالبكاء، قبل أن
تسقط أرضاً دون حراك.

غادرت روح جيوفاني جسده.

- انظري كم هو جميل! قالت ربيكا وهي تضع الطفل الوليد بين

ذراعي أمه التي استلقت على الفراش لتوها، منهكة. نظرت الأم الشابة

إلى الطفل بإعجاب ووضعته بين يديها، فكرة حملتها نحو جيوفاني

«كم ستكون فخوراً بابنك».

خاتمة

قرعت إيلينا ثلاث ضربات حذرة ومحتشمة.
جاءت سارة لتفتح.
- سيدتي تنتظرك.

رافقت الخادمة إيلينا عبر الشقة الضخمة الجميلة التي وضعتها تحت تصرف عائلة جيوفاني. أجلستها على مقعد خشبي صغير.
- سأذهب لآتي بها، أعتقد أنها قد انتهت من إرضاع الطفل.

ما أن غادرت الخادمة نهضت إيلينا ونظرت عبر النافذة. كان بمقدورها رؤية ساحة الأسقفية البعيد حيث قضى جيوفاني نحيبه. كان قلبها ممزقاً جداً بسبب تلك المأساة التي تشعر أنها مسؤولة عنها، وأنها كادت أن تضع نهاية لحياتها في عشية المأساة. وجود ابنتها، جعلها تقلع عن ذلك في اللحظة الأخيرة. أمضت أياماً عديدة في البكاء من الصباح إلى المساء. لا أحد يمكنه رؤيتها أو الاقتراب منها. لأن حزنها كان كبيراً جداً. في اليوم الثالث قبلت رؤية الكاهن الذي عرف جيوفاني. جلب لها الكلمات الأخيرة من المحكوم والتي تخصها. بعيداً عن تعزيتها، انتزعت منها دموعاً كثيرة جديدة من روحها المنهكة.

غير أن هذه الدموع كانت أكثر حرارة من سابقتها.

في اليوم التالي، خرجت من عزلتها وطلبت من أبيها معروفاً واحداً، أن يطلق سراح اليهود المسجونين ويعوض عليهم. وأن يستقبل أصدقاء

جيو فاني الوقت اللازم لإرضاع الطفل قبل أن يتمكنوا من الإبحار نحو الجزائر، أمام حالة اليأس التي كانت ابنته المحبوبة غارقة فيها، لم يجرؤ باولو كونتاريني على رفض طلبها. أمر على الفور بإطلاق سراح العازر وسارة وإيستير والطفل، وضعتهم إيلينا في أفضل شقة من القصر وتأكدت أنه لن ينقصهم شيء. ثم حملت شجاعتهما بكلتي يديها وقصدت لترى إيستير، التي ما زالت تجهل مصير جيو فاني كانت تسأل عنه عدة مرات في اليوم. الحقيقة لم يتم الكاهن مهمته، بما أنه لم يتمكن منع نفسه من قراءة الرسالة إذ اكتشف الصلة التي كانت تجمع جيو فاني بإيستير فقد رفض نقل الرسالة إلى المرأة الشابة، التي لم تكن تعرف أي شيء عن النهاية المأساوية لزوجها.

روت لها إيلينا كامل قصتها وكذلك لقاءها الجديد مع جيو فاني في السجن، لم تنس أي كلمة، حتى الأكثر حميمية الذي اسميته إلى زوجته. توجب على إيلينا عدة مرات قطع روايتها، مهزوزة بالبكاء، من هذا الواقع توقعت إيستير بسرعة النهاية المؤلمة لجيو فاني قبل أن تتمكن ابنة البندقية أن تكشف لها النبأ. مستعدة لسماع الأسوأ منذ هذه الأيام الطويلة دون أي خبر عن زوجها، كان قلبها ينفطر على مدى رواية ابنة الحاكم.

في النهاية، عندما علمت أن حبيبها مات منذ عدة أيام، انكسر قلبها، انهارت على مقعد مريح وبدا كما لو أن الحياة تفارقها، مثل عطر نفيس يفوح من وعاء محطم.

عندئذ سمعت ابنها يبكي، فقررت مثل إيلينا قبل ذلك بعدة أيام أن تناضل وتعيش لابنتها.

سلمتها حفنة من رماد جيو فاني الذي جمعته على المحرقة، كما احتفظت إيلينا بكمية قليلة خبأتها في جيب صغير داخل صدرتها، قريباً من قلبها. بالرغم من أن إيلينا رجتها بأن تغفر لها لأنها لم تحاول

إنقاذ حياة جيوفاني، لكن إيستير رفضت. هكذا عاشت حياتها عندئذ في حالة اغتراب مع والدها، ابنها وخادمتها في تلك الشقة حيث لا يدخل أي غريب طوال أسابيع، احترمت إيلينا هذا الصمت وبدأت تصلي الليل والنهار لكي تغفو عنها إيستير وتغفر لها ذنبها. عمل واحد يمكنه تحرير قلبها، ليس من الحزن، بل من ندم رهيب كاد يقض مضاجعها. هذا الصباح بالذات، اتخذت قراراً هاماً لتتقاسمه مع إيستير فقد طلبت بواسطة سارة من المرأة الشابة أن تستقبلها «دون شك للمرأة الأخيرة».

فُتح باب غرفة إيستير، استدارت إيلينا وتأملت الأم الشابة التي كانت تحمل طفلها على وركها. اقتربت إيلينا وتأكدت أن عيناه كانتا داكنتين ومبتسمتين مثل أبيه. لم تجرؤ على قول شيء عن ذلك لإيستير واكتفت بابتسامة حنونة. ثم قالت:
- إيستير جئت لأقول لك وداعاً.

بريق اندهاش عبر النظرة الرزينة للمرأة الشابة.

- أغادر غداً عند الفجر مع ابنتي قاصدة إيطاليا، تابعت إيلينا. منذ هذه الأحداث المأساوية، ستيليا، ابنتي المحبوبة، مريضة جداً. تشكو من حمى قوية ولا أحد يعرف هنا كيفية معالجة هذا المرض. أقنعت والذي بأن آخذها إلى البندقية حيث يوجد أطباء مشهورون.

- لكن سفرة من هذا النوع، وفي هذا الفصل حيث البحر مضطرب جداً ألا يمكن أن يفاقم ذلك من حالتها؟ سألت إيستير.

- إنها مخاطرة يجب ركوبها، لكن لدي اليقين أنها ستموت هنا. ومن ثم هناك سبب آخر يدفعني للسفر. لقد قطعت عهداً بأن أوصول إلى روما الرسالة المشهورة التي أعطاني إياها، ما أن تتماثل ابنتي للشفاء، سأذهب إلى المدينة المقدسة لتسليم رسالة لوسيوس إلى البابا.

أخفّضت إيسْتير رأسها بهدوء.

- أفهم ذلك، إنه لقرار حكيم.

- لا تخشي شيئاً، لقد وعدني أبي بأن يسهر على راحتك أنت وأهلك لغاية مغادرتكم إلى الجزائر، فيما يخلصني أئمني بأن لا أعود أبداً إلى هنا.

بدت إيلينا مترددة.

- جئت إذن لأعانقك...

نظرت إيسْتير إلى إيلينا وشعرت بالحنان والشفقة عليها، غير أنها بقيت مترجعة.

- قبل أن أسافر، تابعت إيلينا، أردت معرفة شيء.

- أسمعك، أجابت إيسْتير بلطافة:

- كيف سميت ابنك؟

- يوحنا.

- إنه اسم عبري.. ماذا يعني هذا؟

- الله يغفر.

بقيت إيلينا متجمدة، بحثت عيناها عن عيني إيسْتير، ثم ارتمت في حضنها.

شدتها إيسْتير بقوة على صدرها، بقيت المرأتان هكذا لشوان طويلة، تبكيان فرحاً، حزنأً ومن فرط الحب.

في اليوم التالي أبحرت إيلينا على سفينة ذات صاريتين منجهة إلى البندقية، غادر قبرص مع ستيتلا، طيبب وخادمين والرسالة الموجهة للبابا، رفضت السفر مع جوليانا التي خانت جيوفاني، دون شك للمرة الثانية، لتذكرها الإبلاغ المجهول المصدر بعد المباراة.

أبحرت السفينة نحو البندقية وشراعيها مفتوحان للريح لمدة عشرة أيام، في منتصف الخريف، كان البحر قوياً ومائجاً، لم تتوقف السفينة عن التأرجح. كانت السفينة ذات الصاريتين تسير بمحاذاة شبه الجزيرة الإيطالية، وهي ما تزال على بعد يومين من البندقية عندما جاء الطيبب لينبه إيلينا أن الصغيرة على وشك الموت.

- يجب النزول إلى اليابسة فوراً. ساءت حالتها فجأة، فهي تهذي، أعتقد أنها لن تقاوم أكثر من ساعتين مع هذا التأرجح.

علم القبطان بالمأساة التي تجري على ظهر السفينة، قبل أن يقترب من الشاطئ، لمح ميناء صيد صغير، أرسى القبطان سفينته في عرض البحر وأنزل ركاب البندقية بواسطة زورق كاد أن ينقلب عدة مرات، لأن البحر كان هائجاً. ما أن وصلت إلى اليابسة، حتى استعلمت إيلينا من بحارة مرفأ فينيري. طلبت مكاناً للعناية بابنتها فأرشدتها البحارة إلى دير كبير يجسم فوق المرفأ، خلف حقول الزيتون. أفلتهم عربة نقل مغطاة تحت مطر غزير. ستيتلا وأمها تحميان نفسيهما من المطر بواسطة غطاء فوق رأسيهما.

أدخلهما الراهب البواب إلى غرفة الانتظار وهرع لمناداة نائب رئيس الدير.

- أهلاً بكم في دير سان جيوفاني دوفينيري، قال لها دوم سلفاتور وهو ينظر باندهاش كبير لهذه المغامرة الخطيرة.

لدى سماعها اسم الدير، قفزت إيلينا، فقد سبق لها أن سمعت عن هذا الاسم الغريب الذي يمزج الوثنية والمسيحية، وقد أعلمها جيوفاني بذلك. إلا إذا كان اسم جيوفاني من أوحى لها هذا الشعور. لكن الوضع كان مأساوياً لدرجة أنها لم تستطع التفكير به قبل ذلك.

- شكراً، أبتي، نحن عائدون من قبرص وذهبون إلى البندقية قالت بنبرة رزينة تكاد تكشف القلق الذي يغمرها، ابنتي مصابة بحمى قوية وغريبة ونحن عائدون إلى البندقية لمعالجتها. توجب علينا النزول إلى اليايسة بسرعة لأن حالتها تسير من سيء إلى أسوأ. هل لديكم غرفة شاغرة دافئة مع طيبب يمكنه مساعدة طبيبنا في معالجتها؟

انحنى دوم سلفاتور على الطفلة، بالرغم من المرض كانت عيناها الخضراوان الواسعتان تضيئان وجهها الملائكي، تأثر الراهب لهذا المنظر.

- سننقلها إلى غرفة التمريض الموجودة داخل سور الدير والمجهزة بمدفأة.

سنقوم استثناء للعادة محاولين إنقاذ الطفلة، فكر نائب رئيس الدير. نُقلت ستيلًا إلى غرفة التمريض التي كانت مقفلة. أمر دوم سلفاتور راهباً أن يشعل المدفأة وآخر أن يطلب بسرعة الأخ المريض، بينما ذهب الراهب إلى المطبخ ليحضر المشروب الساخن لضيوفه. بعد ذلك بلحظات دخل فياغاسبارو غرفة التمريض وفحص ستيلًا، تحت مرأى وسمع إيلينا القلقة والنظر المنتبه لطبييها.

أدفأت النار بسرعة كل البندقيين وقدم لهم دوم سلفاتورى كوباً من الحساء الأخضر الساخن، بذل جهداً لتشرب ستيلاً منه، غير أن الفتاة كانت في حالة لا يمكنها بلع أي شيء. جس الراهب الممرض نبضها، ونظر إلى لسانها، ومسدها، ثم تلفظ بقراره:

- للأسف، لا أستطيع إلا أن أؤكد أنها مصابة بمرض إنثاني لا أعرف سببه. الحياة تغادرها تدريجاً. الشيء الوحيد الذي يمكنني محاولته حالياً هو أن أعطيها منقوعاً أساسه نباتات مهدئة محاولاً تخفيف الحمى. لكنني أخشى أن لا يكون هذا كافياً لإنقاذها، الداء الذي يعذبها منذ أسابيع متجذر في جسمها.

- قالت إيلينا بصوت محطم: أبتى افعل أي شيء يخفف عنها.

ابتعد الراهب متبوعاً بالطبيب قاصداً مخزن أعشابه لاختيار النباتات المناسبة.

انحنت إيلينا على ابنتها وهي تمسك يدها.

- لا تقلقي يا عزيزتي سنخفف من آلامك.

لم تكن الفتاة قادرة على السماع أو الكلام. كان ذهنها مضطرباً، لم تتوقف عن الأنين والنطق بكلام غير مفهوم.

- يبدو أنها تهذي، تابع أحد الخدم.

- بما أن حياتها مهددة، فلا يوجد سوى شيء واحد يجب القيام به

همس دوم سلفاتور في أذن إيلينا.

- بماذا تفكر؟

- يوجد في مدفن قبو كنيسة هذا الدير أبقونة لأم المسيح، فيما لو

رجونا معاً عذراء الرحمة هذه بينما يعتني الأطباء بابتك؟

بالرغم من أنه لا يروق لها ترك الطفلة في تلك اللحظة، لم تتردد

إيلينا. نهضت، عانقتها بحنان وتبعت نائب رئيس الدير إلى داخل سور الدير.

بينما كانا يستعدان لدخول الكنيسة، جاء راهب ليهمس في أذن دوم سلفاتور:

الأب رئيس الدير يقلق على أم الطفلة المريضة يطلب مقابلتها في غرفة الاستقبال.

تردد دوم سلفاتور للحظات ثم التفت نحو إيلينا.

دوم تيودورو رئيس الدير عجوز تعب، يرغب في إلقاء السلام عليك. إنه رجل كنيسة كبير في مرتبة الأسقف، هذا لن يستغرق أكثر من عدة دقائق، سنعود إلى قبو الكنيسة بعد الزيارة فوراً.

قبلت إيلينا وتبعت نائب رئيس الدير حتى غرفة الاستقبال، كان دوم تيودور جالساً على كرسي منخفضة أمام نار المدفأة، حيا إيلينا التي قبلت الخاتم الذي كان يحمله مثل بقية رؤساء الدير والأساقفة، في الاصبع الخامس من اليد اليسرى.

سألها من أين أتت وماذا جرى لها، أجابت إيلينا على أسئلته.

- لينقذ الله طفلتك! صرخ العجوز بصوت قوي. أذهبُ غداً إلى روما لمقابلة الحبر الأعظم وأعدك بأن أوكل حياتها إلى صلواته.

أمام هذه الكلمات بدأت إيلينا بالارتعاش، ترددت في الكلام ثم قالت بصوت خفيف مرتجف:

- الصدفة أو العناية الإلهية تصنع الكثير من الأشياء، غبطة الأسقف هل بمقدوري أن أطلب منك خدمة أخرى عالية الأهمية؟
- طبعاً.

كانت إيلينا تبدو مرتبكة.

- هذا أمر عالي السرية.

دوم تيودور أشار إلى نائبه أن يتركهما على انفراد.

- يمكنك أن تتكلمي علي بكل ائتمان، يا ابنتي. ما الأمر؟

روت إيلينا إلى رئيس الدير العجوز أنها تحمل رسالة مكتوبة قبل عدة سنوات من قبل منجم مخصصة للبابا.

روت له أن صديقاً كان يملك هذه الرسالة وحالت العوائق من القيام بمهمته.

حدّدت أخيراً أن هذا الرجل هو الآن ميت وأنها وعدته قبل موته بأن تسلّم هذه الرسالة إلى البابا.

- بما أنك ذاهب إلى روما لمقابلة الحبر الأعظم، ألا يمكنك تسليمه الرسالة يدأ بيد؟ أنهت إيلينا وحنجرتها مشدودة.

أصغى العجوز إلى رواية إيلينا بانتباه مركزاً لدرجة أنه كاد يتوقف عن التنفس. بعد أن انتهت، تنهد عميقاً وأجاب بنبرة مطمئنة:

ابنتي، أوكد لك أنها العناية الإلهية هي التي قادتك إلى هنا، سأحمل هذه الرسالة معي وأؤكد لك أن الحبر الأعظم سيقراها في اللحظة نفسها التي سأسلمه فيها شارحاً له القصة.

ارتمت إيلينا على قدمي رئيس الدير وقبلت يده.

- لا أعرف كيف أشكر غبطتك! لو كنت تعلم كم تهمني هذه الرسالة وكم أحببت لو أقدر على المتابعة حتى النهاية! لكن الحالة الصحية لابنتي تقلقني لدرجة وصلت أن أرجئ تسليمها إلى ما بعد عدة أشهر، بينما روما هي قرية وأنت تذهب لزيارة البابا شخصياً.

انهضي يا ابنتي، ولا تخشي! الأفضل هو أن تؤمني علي هذه الرسالة في أسرع وقت لأن علي الذهاب إلى النوم وغداً سأغادر عند الفجر.

أدخلت إيلينا يدها تحت معطفها وأخرجت مغلفاً كبيراً أصفر، وقدمته لرئيس الدير.

- ها هو! لا أفترق عنه أبداً.

حذق دوم تيودور بالمغلف بدهشة، لم يكن يتوصل إلى الإدراك أن هذه هي الرسالة التي كان يبحث عنها عبر كل الأراضي المسيحية منذ عشر سنوات، هذه الرسالة المشؤومة التي من أجلها قتل وعذب تصل إليه بهذه الطريقة، إلى ديره بالذات! الدير الذي لم يكن يتركه أبداً إلا ليذهب إلى روما أو القدس، حيث مقر الجماعة السرية التي أسسها بغية تجديد وتنقية الدين المسيحي من كل هذه الوساخات.

مد يداً ترتجف نحو إيلينا وأمسك الرسالة. أخيراً سيعرف!
وسيمكن من إتلافها...

أدار دوم تيودورو مقعده نحو نور المدفأة وأخفض قلنسوته. معالم الوجه المتجعدة للعجوز المتعصب الذي حاول قتل جيوفاني بدت جلية أمام النور. عيناه الصغيرتان الغائرتان في أعماق مقلتيه كانتا الآن مستنيرتين بوهج حاد. بحث عن المغلف الكبير وفتح تسعة ورقات مطوية مخطوطة باليد. النظرة مهووسة، اليدان ترتعدان، بدأ قراءة الورقة الأولى.

كانت كتابة المعلم لوسيوس أنيقة وواضحة، وبالرغم من مرور الأعوام، لم يتضرر الخبر.
قداسة البابا الأعظم

أمسك ريشتي وأنا أرتعد في محاولة الإجابة عن المسألة الرهيبة التي تطرحونها، لو لم تكن الخبر الأعظم الحلف الرسولي للرسول بطرس ورأس الكنيسة المقدسة، لما قبلت الدخول أبداً في دراسة ترعيني من هذا النوع، من حيث صعوبتها ومن حيث مسائل الإيمان التي تثيرها.

أنا وواع جداً للبعض من كلامي أو استنتاجاتي يمكن أن تكون مصدراً لقضية كبيرة في الكنيسة، لكن وبما أن قداستكم يطلب مني الانطلاق في ذلك البحث، فلا يمكنني إلا أن أستنجد بتفهمكم وعطفكم الأبوي.

- أتم تسألون، مثل العديد من المؤمنين، ما إذا كان التمزق الدرامي

(المأساوي) الذي تعرّف له الدين المسيحي هو علامة نهاية الأزمنة، وأنتم منشغلون بمعرفة ما إذا كانت المسيحية وعبرها العالم، يعيش ساعاته الأخيرة.

تلمحون على «دو فاتو دي بابونازي» المنشورة في بولونيا عام 1520 الذي يضع الفيلسوف بموجها فرضيات أن الأديان تولد، تنمو، تنحط ومن ثم تموت حسب الدورات الكونية، يؤكد لنا أن وضع الطالع التنجيمي لكل دين، بما فيها الدين المسيحي. كما بالنسبة لكل فرد، فإن معرفة البداية - ولادته - يجب أن تدلنا على المراحل التالية لتطوره حتى لحظة النهاية. أنتم تطلبون مني ما إذا كان بالإمكان وضع الطالع التنجيمي للمسيحية.

فكرت طويلاً بهذه المسألة وكان الجواب يبدو لي بسيطاً ومرعباً ومحبطاً في آن واحد. الوسيلة الوحيدة لمعرفة البداية والنهاية لدين ما، هي رسم خارطة السماء المتعلقة بولادة مؤسسها. بصورة أخرى تطلبون مني قداستكم أن أضع الطالع التنجيمي لسيدنا يسوع المسيح. رفع دوم تيودور رأسه وقال وبنظرة ملتعبة.

- هذا هو بالضبط ما قالوه لي! همس وهو يشد على أسنانه.

- تنهد بعمق، زفر بقوة وشرع بقراءة الورقة الثانية.

إلى جانب الاهتمام الأخلاقي الذي يحاصرني، كيف يمكن التوصل إلى إنجاز هذه المهمة، لأن الأناجيل لا تذكر لنا شيئاً محدداً عن اليوم، الساعة، الشهر وحتى عن سنة ولادة يسوع؟ أنتم تعرفون مثلي أن تاريخ 25 كانون الأول اختير من قبل أساقفة روما، «ليبر» في القرن الرابع، لمكافحة العبادة الوثنية «ميرا» حيث أن العيد الكبير للشمس الطافرة حدد في 25. كانون الأول، تاريخ الانقلاب الشتوي. لا أحد يعرف في أي تاريخ بدأ المسيحيون الاحتفال بولادة المسيح، مع ذلك يمكن أن تعطينا بعض المؤشرات علامات، لكنني سأعود إليها فيما بعد،

صعوبة أخرى كبيرة تنص على حل لغز سنة ولادته، فقد تمكن الراهب دونيس لوبوني قياسها في القرن السادس لكن الكثيرين من الأحياء يعترضون اليوم على حسابات الراهب ولا أحد يعرف بالضبط في أي سنة ولد سيدنا المسيح.

هنا إيماني، لولا أن العناية الإلهية وضعت بين يدي مخطوطاً فائق الندر، منسوخاً بنسخة واحدة مكتوبة بالعربية منذ عدة قرون: الجفر. هذا المؤلف العظيم من عمل أكبر عالم في العصور الوسطى، الكندي، معلّم المنجم المشهور أبو معشر الفلكي، الذي أطلق النبوة المتعلقة بلوثر. بيد أن الكندي كان مصمماً أن الله رتب موضع الكواكب في السماء ليسمح للإنسان قراءة علامات ليس فقط قدره أو مستقبله الشخصي، لكن المصير الجماعي للبشرية أيضاً.

- كَذِب! أيها المسلم الخادع! صرخ بحنق الأب رئيس الدير وهو يقلب الورقة الثانية.

حسب معرفته، هناك دورتان كبيرتان تسمحان بمعرفة ولادة، وتطور ونمو، وانحطاط وزوال الحضارات والأديان. إن ظاهرة مبادرة الاعتدالين، التي تقضي أنه في كل ألفي سنة تشرق شمس الربيع في برج جديد وأن دورة التقاء الكوكبين الأبطأ في كوننا: جوبيتر وزحل.. تقريباً كل عشرين سنة يلتقي هذان الكوكبان في السماء. لكن التلاقي يتم كل قرنين في عنصر جديد من المربع إشارة للأبراج (التراب، الماء، الهواء، والنار)، وتتجدد سلسلة العناصر الأربعة كل ثمانية قرون.

قام الكندي الذي عاش في القرن التاسع بالحساب عائداً بالزمن إلى الوراء بمقدار ألف سنة لكل العناصر التي تمت فيها الالتقاءات، وأنا أتبحر في كتابه، تمكنت من التحقق وقلبي يخفق، أنه أوجد دورة كوكبية كبيرة في السنة السادسة قبل الميلاد حيث التقى الكوكبان في برج الحوت مجددين كل العناصر. مدققاً ملاحظته من طريق كتاب

«جدول مسلسل الأحداث» للمنجم اليوناني أناكزيلوس، الذي عاش في زمن المسيح، وألاحظ أيضاً أمراً غريباً في ليلة الأول من آذار من العام السادس قبل الميلاد التقاء في برج الحوت لخمس كواكب: الشمس، القمر، الزهراء، جوبيتر وزحل. هذا التاريخ مشار إليه دون أي تعليق في كتابه. علي أن أقرّ لقد استكم، أن ارتعاشاً كبيراً هزّ جسدي وروحي. أدار العجوز الورقة الثالثة ودمدم لاهثاً.

- أرى جيداً إلى أين سيصل هذا المنجم المشؤوم.

لأنه كما تعلمون فإن المسيحيين الأوائل كانوا يعرفون أنفسهم بـ برج الحوت أو علامة الحوت التي كانوا يرسمونها في السراديب أثناء الاضطهادات، أنتم تعرفون التفسيرات التقليدية التي تقدم لشرح وتفسير اختيار هذا الرمز. فكرة أخرى خطرت لي منذ زمن طويل، عندما اكتشفت لأول مرة مخطوط الكندي، أن ولادة الدين المسيحي تتوافق مع مرور الاعتدال الربيعي في برج الحوت. بيد أن رمز هذا البرج يتوافق بدقة مع برج الدين الجديد الذي علم مبادئه سيدنا المسيح. ممعناً النظر بكتاب المنجم العربي ومكتشفاً هذا اللقاء النادر جداً لخمسة كواكب في البرج ذاته، كيف يمكن أن لا أتساءل: ألم يتحدد أبداً تاريخ ميلاد سيدنا يسوع المسيح؟ أليس لأنه هو من مواليد برج الحوت، لأن تلامذته اختاروا هذا الرمز شعاراً لإيمانهم الجديد؟ وأن رمز الصليب، الذي تلاه فيما بعد، ألا يعني تجدد ذاته، إلى أبعد من أداة الصلب هو الرباعي المؤلف من أربعة عناصر أساسية التراب، الماء، الهواء والنار، يمثل اللقاء الكبير المتجدد كلية في هذا التاريخ؟ ألم يأتي المسيح لكي يخلص كل العالم، كما يقول الإنجيل؟ ألم يسمح الله بأن تتمكن من القراءة في الكون عن مجيء ابنه (يسوع المسيح) إلى الأرض الذي تكلمت عنه الديانة باسم اليهودية ملك اليهود الكبير، المولود من العذراء، والذي تنبأ الوثنيون عن ولادته؟

أصيب دوم تيودورو بنوبة سعال حادة وكاد أن يختنق. نهض وذهب ليشرب كأس ماء قبل أن يتابع قراءته المؤثرة.

خلال هذا الوقت، وحسب طلبه رافق دوم سلفاتور إيلينا إلى غرفة التمريض. وجدت هذه المرأة أن حالة ستيلا تزداد سوءاً. بجهد كبير تمكن الأخ الممرض من إطعامها منقوعاً مخصصاً لتخفيض الحرارة. لكن الطفلة فقدت وعيها وبدت غائبة عن العالم الخارجي.

وضع نائب رئيس الدير يده على كتف إيلينا برفق:

- ليس لدينا ما نفقده، تعالي، هيا لنصلي في مقبرة الكنيسة أمام أيقونة العذراء.

وقفت إيلينا بصعوبة، داعبت طويلاً بنظرتها الحنون ابنتها الضامرة، ثم اقتنعت في تركها للحظات وتبعته الراهب عبر الرهبانية، وخلال الكنيسة عبر باب جانبي صغير لينزلا إلى المقبرة. كانت الغرفة ضعيفة الإنارة، ميزت إيلينا أعمدة عالية كانت تستخدم لدعم قلب الدير. نقوش رائعة تزين الجدران، قادها نائب رئيس الدير إلى مؤخرة المقبرة، أمام نحت يمثل القديس ميخائيل، أمير الجيوش السماوية.

كانت الأيقونة موضوعة تحت النحت على منضدة منخفضة من الخشب، اقترب دوم سلفاتور وقبل الأيقونة بإيمان وقلدته إيلينا، ثم رجع كلاهما بصمت، على بعد متر واحد من الأيقونة. شمعة صغيرة كانت موضوعة على حافة المنضدة تير بشكل ضعيف وجه عذراء الرحمة. بدأت إيلينا بإغلاق عينيها لكي ندخل إلى أعماق إيمانها. ركعت وصلت بحرارة وإيمان لأم يسوع لتتخذ طفلتها ثم فتحتهما برفق ونظرت إلى الأيقونة. عنده! ظهرت على وجهها المشدود القسماط دهشة كبيرة.

بعد أن شرب دوم تيودور قليلاً من الماء استأنف قراءة رسالة المنجم. بدأ بقراءة الورقة الخامسة والسادسة.

هنا، قداستكم، توضح لنا الكتب المقدسة المسيحية بطريقة محددة ودقيقة هذا الحدث المعلن من طرف اليهود كما الوثنيين. مكتوب في الإنجيل حسب القديس متى، مقطع 2: بما أن يسوع ولد في بيت لحم اليهودية، زمن الملك هيرودوت، هاهم الجوس القادمون من الشرق يصلون إلى دمشق قائلين: «أين ملك اليهود الذي ولد؟ لقد رأينا بالفعل نجمة عند نهوضه، ونحن جئنا لنسجد له». ما أن علم هيرودوت بذلك تأثر وكل القدس معه. جمع كبار الكهنة، مع كتبة الشعب، وسألهم عن المكان حيث يجب أن يولد المسيح فيه.. «في بيت لحم في اليهودية» قالوا له، هكذا بالفعل، ما كان مكتوباً من النبي «أنت، يا بيت لحم أرض يهوذا، أنت لست أبداً أقل من أي منطقة في اليهودية لأنه سيخرج منك مخلص سيكون راعياً لشعب إسرائيل». عندئذ طلب هيرودوت سراً من الجوس، أن يحددوا من قبلهم وقت ظهور النجم وأرسلهم إلى بيت لحم قائلاً: «اذهبوا وتحققوا بالضبط عن الطفل، وعندما تجدونه، أعلموني، لكي أذهب أيضاً وأسجد له». حول كلام الملك هذا، تابعوا طريقهم وهاهو النجم، الذي رآوه عند شروقه، يسبقهم إلى أن توقف فوق المكان حيث الطفل. لدى رؤيتهم النجم، فرحوا فرحاً عظيماً. وعندما دخلوا إلى المغارة، رأوا الطفل مع مريم أمه وانحنوا أمامه، وسجدوا له ثم فتحوا علب كنوزهم وقدموا له الهدايا من الذهب والبخور واللبان والمر. بعد ذلك تنبهوا في الحلم بأن لا يعودوا مطلقاً إلى هيرودوت، فسلكوا طريقاً آخر عائدين إلى بلادهم هكذا أرشدهم ملاك الرب.

هذه الرواية العجيبة، أيها الأب الأقدس، لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى علم التنجيم. الجوس القادمون من الشرق هم طبعاً منجمون كلدانيون رأوا نجم المسيح ذلك ما تعنيه اللغة التنجيمية. إلا أنهم رأوا لقاء كبيراً بين جوبيتر - زحل يتكون في مجموعة الحوت.

حسب كتبهم المقدسة - كانوا يعرفون أن هذا اللقاء الكوكبي يعني مجيء ملك اليهود ومجيء نبي كبير. ذهبوا إلى اليهودية للاستعلام عن مكان الولادة المحدد لهذه الشخصية. بسبب واقع العلم الكوكبي، طلب منهم هيرودوت عن وقت ظهور النجم، ذلك ما كان يعني مدة اللقاء الكوكبي. ثم ذهب الجوس إلى بيت لحم «يقودهم النجم». يجب هنا عدم القراءة لإشارة جغرافية، لأن الجوس كانوا يعلمون أين يجب أن يولد المسيح، وزمن ولادته. هي في لحظة أعلى درجات اللقاء مدخلاً لخمسة كواكب التي منها القمر. كانوا يعرفون أن المسيح يجب أن يولد. تعطينا الكتب المقدسة إذن إشارة ثمينة عن اليوم، وحتى عن ساعة ولادة المسيح. لأنه ما هو الكوكب أو النجم الذي يقود الجوس حتى المغارة؟ ما هو النجم الوحيد الذي يتقدم سريعاً والذي يمكن اتباعه ليلاً بالعين المجردة؟ القمر! واتباع مسار القمر في قبة السماء عرف المنجمون الكلدانيون بدقة ويقين يوم وساعة ولادة الشخصية العظيمة التي كانوا يبحثون عنها. لقد عرفوا فعلاً أن ملك اليهود سيولد أثناء اللقاء الكبير شمس - الزهرة، جوبيتر، زحل والحوت. لكنهم كانوا يظنون أيضاً أن القمر لن يتخلف عن موعد هذا التجمع الكوكبي النادر جداً. وما من شك أنهم فهموا أن المسيح كان سيولد عند ظهور القمر الجديد (الهلال) أي عندما سيكون كلية منضمماً إلى الشمس والحوت. تعلمنا كتاب تسلسل الأحداث (آنا كسيلوس) بدقة ما كان يحصل في ليلة الأول من آذار عام 6 - قبل الميلاد قبل ثلاث ساعات من ظهور الفجر. بدأ الجوس يبحثون إذن عن طفل مولود في تلك اللحظة المحددة ووجدوا المغارة حيث ولد يسوع.

نظرت إيلينا طويلاً إلى الأيقونة ولم تتوصل إلى الفهم، كانت تلك العذراء المرسومة تبدو وكأنها صورتها، على الأقل عندما كان عمرها أربعة عشر سنة أو خمسة عشر. عادت إلى نائب الدير وسألته:

- من رسم هذه الأيقونة؟

دمدم دوم سلفاتور:

- مسافر عابر سبيل. تعلم التقنية في جبل آتوس. ارتعدت إيلينا، لم يكن هناك من شك محتمل. عاد اسم الدير الذي عولج فيه جيوفاني بعد إنقاذه من الساحرة في الحال إلى ذاكرتها: سان جيوفاني إن فينيري!

أبتي، الرجل الذي رسم هذه الأيقونة ألم يكن يدعى جيوفاني تراتوري؟

نظر الراهب إلى إيلينا.

- بالفعل.. هل تعرفينه؟

- جيداً، تابعت إيلينا بصوت محطم.

تأمل نائب الدير المرأة الشابة دون أن يقول كلمة. ثم نظر إلى الأيقونة ونظر من جديد إلى إيلينا. اندهاش كبير كان يقرأ في عينيه.

- أأنت الفتاة من البندقية التي وقع في حبها؟ تلك ذات الوجه النائم التي أوحى له في الماضي بهذه الأيقونة للعدراء ذات العينين المغمضتين؟

لم تكن تملك القوة للإجابة، وأجهشت بالبكاء.

بدأ رئيس الدير العجوز الورقة السابعة، لم يكن هناك أي فضل يشع من نظرتة، بل الغضب البارد.

واصلاً إلى هذه المرحلة من أبحاثي، ستفهمون أيها الأب المقدس، أنني لم أتمكن من المتابعة إلا بخوف وتواضع كبيرين، نظراً لأن ما أتيت على اكتشافه بفضل الحسابات الفلكية التي قام بها الكندي وقراءة متأنية للإنجيل القديس متى، يمكن أن تزلزل المسيحية وتبليبل الكثير من العقول.

لأنه إذا كان سيدنا يسوع المسيح قد ولد فعلاً في بيت لحم في ليلة

الأول من آذار العام السادس قبل الميلاد، فهذا يعني أنه يمكننا وضع موضوعاً تنجيمياً بطريقة دقيقة واستنتاج تفسيرات تخصه وكذلك من أجل تاريخ الدين المسيحي الذي هو حجر الزاوية.

قبل الوصول إلى هذه التفسيرات، إليكم قداستكم، ما هو، محتمل جداً، خارطة سماء ولادة يسوع المسيح.

روح مشوشة وريد ترتجف قمت بوضع خارطة سماء يسوع المسيح.

يسوع المسيح

كان وجه دوم تيودور شاحباً. ألقى نظرة خاطفة على الرسم الذي يرافقه الورقة. كما لو أنه يخشى من أن يحرق عينيه.

- اللعنة!! اللعنة الكبرى، همس بصوت ضعيف.

يا للدناءة ويا للعار! لحسن الحظ لم ير أحد ولن يرى إلى الأبد هذا العمل الفظيع! وإلا فإن البروتستانت، والفلاسفة أو الهراطقة الآخرون سوف لن يتأخروا عن القول لنا أين يمكن قراءة الطالع التنجيمي ليسوع والأحداث التي جرت أثناء حياته.. كما لو أن ابن الله يمكن أن يكون خاضعاً، كأى إنسان آخر إلى القدرات الكوكبية! ستكون تلك نهاية الدين المسيحي الصحيح وانتصار هؤلاء البشريين الذين ينتظرون أن يعيدوا كل شيء إلى الإنسان، بما فيه أسرار الإيمان.

لم تتمكن إيلينا من رفع نظرها عن الأيقونة. كان ذلك إذن صحيحاً، حتى في الدير، حتى وهو فاقد الذاكرة، لم يتوقف جيوفاني أبداً عن التفكير بها وحبها. يحبها لدرجة أنه رسمها، دون رؤيتها تحت قسّمات وملامح العذراء. دموع الفرحة شعشت على وجهها. شفاء عميق كان يجري في قلبها، في كيانها كله.

رئيس الدير يتابع قراءته المرعبة اليد ترتجف من شدة الغضب.

وصل المنجم الآن إلى أكثر ما يخشاه: تفسير الموضوع الكوكبي للمسيح.

التقاء خمسة كواكب في برج الحوت يعني أن المسيح يملك في أعلى درجاتها كل الصفات النبيلة للبرج: البديهية، الشفقة، التنازل، التزهد، ووهب الذات. موضع عطارد الذي يمثل الذكاء في برج الدلو، يعني أنه كانت لديه أفكاراً إنسانية، أخوية ومجددة يمكنها أن تصدم المبادئ التقليدية. بالمقابل نرى بطريقة واضحة عدوانية ومعارضة الأوساط المحافظة عن طريق تقابل كوكب المريخ (العنف)، الواقع في برج العذراء (التقليد)، مع كواكب الخمسة في الحوت. ها هي إذن الإشارة إلى أن رسالته لا يمكن إلا أن تثير النقاشات مع السلطات الدينية إلى حد الخشية من موت عنيف (الشمس مقابل المريخ).

قبل متابعة هذا التفسير والإجابة بصورة أكثر مباشرة على سوؤلكم حول مستقبل الدين المسيحي، هناك ملاحظة إضافية، قداسة البابا، حتى ولو أن العديد من المؤمنين يمكن أن يصدموا من تلك الجسارة فأنا شخصياً مقتنع أن التفسير للموضوع الكوكبي للمسيح لا يعارض في أي شيء الإيمان في ألوهيته. لأنه إذا كان المسيح، الشخص الثاني في الثالوث الأقدس، فقد أراد أن يغني الطبيعة البشرية، في هذا التجسد. وهو لا يمكن أن يفلت عن العوامل المختلفة التي تتحكم بحياة كل إنسان: وراثه جسدية، تقاليد شعب، لغة، كتابة في النظام الكوني. ما يمكننا قراءته في الكواكب فيما يخص يسوع يعطينا، كما بالنسبة إلى أي إنسان، إشارات ثمينة هامة حول طبعه والخطوط العريضة لمصيره الأرضي. ذلك لن ينقص في شيء من حرته بأن يقدم حياته لتخليص الإنسانية.

كمؤمن مسيحي، أعتقد أن المسيح تجسد بحرية بدافع الحب ومات بحرية بدافع الحب أيضاً. كمنجم، أعتقد أن الكواكب تشير لنا إلى

المزاج البشري الذي ارتداه والطريق الأرضي الذي اختار سلوكه لينجز ويكمل الغفران للعالم.

لم يسبق لـ إيلينا أن شعرت بهذا النوع من السلام الداخلي منذ أن ضمت جيوفاني بين ذراعيها للمرة الأولى. والآن تشعر به قريباً جداً في هذه اللحظة.

دوم سلفاتور، اندهش بعمق ليجد نفسه أمام المرأة التي أوحى الرسام، اقترب منها وسألها بصوت منفعل:

- ليس لدي أي خبر عن ذلك الرجل منذ عامين، هل رأيته مرة ثانية؟
 - غمامة من الحزن غطت النظرة الساطعة لإيلينا.
 - نعم، لقد رأيته من جديد منذ بعض الوقت.
 - استنار وجه نائب رئيس الدير.

- ماذا أصبح؟

- للأسف، لقد توفي. حكم عليه بالحرقة في قبرص.

- يا إلهي! تابع الراهب مصدوماً. لكن متى حصل ذلك؟

- منذ شهرين، في القديس ميخائيل.

حاول دوم تيودورو قراءة الأسطر الأولى من الورقة الثامنة، لكن أجفانه بدأت تحترق، توجب عليه التوقف لمرات عديدة نظراً للألم الشديد في عينيه كان يبكي من شدة الألم. انجاز قراءة الورقتين الأخيرتين كان فوق طاقته. في نهاية المطاف، هذا لم يكن يهمه.

بينما، كانت أصابعه الطويلة تمسك بالرسالة مثل مخالب النسر، مد العجوز يده نحو المدفأة وألقى بغضب كبير رسالة المعلم لوسيو، داخل أسنة النار المرتفعة، كانت الأوراق تنكمش وتتجمع على نفسها. تصاعد الدخان ورائحة الورق المحروق وانتشرت في أنحاء الغرفة. لم يسبق أن أنعش العطر أبداً أنف دوم تيودورو أكثر من رائحة الورق.

زفر بعمق ورفع عينيه نحو السماء:

- شكراً يا الله، لأنك استجبت إلى صلاتي وسمحت أن لا تسقط هذه الرسالة المشؤومة في أيدي كافرة، حتى ولو كانت يد البابا! لن يتمكن أي فكر سيء من محاولة الحط من ألوهية ابنك إلى المرتبة البشرية، بالصفة والمصير اللتان كتبتا في الكواكب، لكن من غير الممكن التفكير به، أن ابنك الإلهي، الكلمة، قد تجسد ليغفر للعالم، وتعرض في طبيعته البشرية إلى قوى الكون، خلافاً لما يفكر به هذا المنجم الهرطقي الضائع عبر فلسفته البشرية.

دخل «الأخ غاسبارو» مسرعاً إلى كنيسة مقبرة الدير، وجهه متوهج، هرع نحو نائب رئيس الدير وإيلينا وقال لهما: يبدو أن الطفلة قد أنقذت! انخفضت الحمى فجأة واستعادت الطفلة كامل وعيها، وهي تطلب أمها!

أوشك قلب إيلينا على الانفجار. بالرغم من أنها كانت ترغب بالقفز لتجد ابتها، فقد بقيت بضع ثوان زيادة تصلي أمام الأيقونة. في الوقت الذي كان فيه رئيس الدير العجوز يشكر الله على الأعجوبة التي أتى على إنجازها.

وصلت الجياد إلى مدخل الفسحة داخل الغابة، بينما الخادمان والقروي الذي قادهما يربط الأحصنة إلى أغصان شجرة سنديان تقدمت إيلينا نحو الكوخ المهجور.

لقد شفيت ابنتها، لكن بدافع الحذر تركتها في رعاية الطبيب والراهب الممرض، بالنسبة لهذا اليوم الأخير الذي قضته في الآبروز قبل عودتها إلى البندقية، عازت على الذهاب إلى المكان الذي كان مهماً في حياة جيوفاني.

قبل زعيم القرية المجاورة مرافقتهم لقاء بعض النقود. تفقدت البقايا المتفحمة للمنزل الصغير.

- هنا وجدناهم! قال العجوز جورجيو وهو يشير إلى الوكر المغطى بأوراق الشجر الميتة والتراب. كان عارياً تماماً وممدداً على القش. ما أن أخرج من هناك، قمنا بتطهير ذلك الكوخ المشؤوم.

ألحت إيلينا بأن تترك لوحدها لبضع لحظات، استغل الرجال الثلاثة ذلك ليقودوا الأحصنة إلى النهر. مشت ببطء حول بقايا البيت، كأن نظرها يبحث عن شيء ما. فجأة توقفت عند تلة تراب صغيرة. قلبها يخفق بشدة، تقدمت منها.

- إنه فعلاً ها هنا! قالت لدى رؤية الصليب الخشبي المغروس في التراب.

تأملته طويلاً، ثم ركعت على القبر. بقيت هكذا تترحم لدقائق طويلة وهمست:

- آه! حبيبي لو كنت تعرف كم أشعر بالأسى الذي أصابك عندما اكتشفت قبر أصدقائك

مزقت خياطة جيب مغبأة في صدريتها، وحفرت الأرض بيديها وأفرغت محتوى الجيب على القبر. بينما هي تخلط رماد جيوفاني بالتراب، قالت له:

- أعتقد أنك أحببت أن يستريح جسدك قربهما، احتفظتُ بهذا الرماد، لكنني أفضل أن أحفظك حياً في ذاكرتي. فلتمزج بالتراب الذي استقبل أولئك الذين أعطوك مفتاح الحياة. أغلقت عينيها، ويديها في التراب.

أجدك كثيراً في ابتك، فلديها عينك، فمك، ابتسامتك، أشعر دائماً بأنني أمامك. يا لها من هدية قدمتها لي بإعطائي هذه الطفلة وأنت تدخلت جداً في شفائها! هكذا سيكون جزء منك دائماً إلى جانبي. أشكر السماء في كل لحظة لهذه الهدية، كما أشكرها على منح إيستير طفلها الجميل.

قاطعها تكسر أغصان. ظنت لأول وهلة عودة الخدم استدارت إلى الوراء، ولدهشتها الكبيرة، اكتشفت شبح كلب، كان الحيوان يتقدم ببطء وبدأ يظهر نواجزه، وذيله وأذناه منخفضان. أصابها الخوف تصرف الكلب كما لو أن لديه مهمة حماية المكان.

تابع الكلب تقدمه نحوها وهو يزجر، بقيت مسمرة في مكانها. لاحظت أنه يعرج، وبينما الحيوان يتقدم نحوها مزجراً، فجأة انتبهت إلى أنه أصبح أكثر تهديداً، فتشت في ذاكرتها، لم يكن الكلب إلا على مترين منها محاولاً ومستعداً للانقضاض عليها.

- نواه! صاحت إيلينا.

تسمر الكلب في مكانه، انتصبت أذناه.

. نواه، كررت إيلينا بلهجة عذبة. هذا أنت أليس كذلك.

بعد لحظة من التردد، حرك الحيوان ذيله، فتحت إيلينا ذراعيها وهي تبسم.

- تعالَ نواه!

أطلق الكلب نباحاً خفيفاً وتقدم وهو يهمهم نحو المرأة الشابة.

عانقته إيلينا وهي تبكي. نواه كان يلعب يديها وهو ينبج بفرح، لم يسمع منذ عامين اسمه لكنه لم ينسه أبداً.

في الغابة وعلى مسافة ثلاثين متراً من المكان، كانت محتبئة تراقب المشهد بانفعال. لقد اهتمت بالكلب طوال هذه السنوات دون أن تعرف اسمه. ظلت تحوم حول كوخ جيوفاني القديم، فهمت إيلينا من كانت تلك المرأة الراكعة على القبر.

نظرت إليها بحنان وحب.

الخاتمة

لا أحد يعرف المحتوى الكامل لكتاب الجفر للكندي، كتاب التنبؤ التنجيمي الذي ضاع إلى الأبد. وهو الكتاب المتعلق بطالع المسيح أقول عنه بأنه هو رومنسي محض.

لكن:

في العاشر من أيلول 1327 م، أقدم الشاعر والمنجم الإيطالي سيكو داسكولي على حرق الكتاب بطلب من فلورنسا بداعي الهرطقة.

وجّهوا اللوم إليه لمحاولته وضع مفهوم تنجيمي ليسوع المسيح.

في عام 1614، نشر يوهاناس كيلر أحد المؤسسين لعلم الفلك الحديث، الذي كان مسيحياً مؤمناً ومؤيداً متحمساً لعلم التنجيم، كتاباً يؤكد فيه أن المسيح يجب أن يكون قد ولد أثناء لقاء جوبيتر مع زحل في برج الحوت الذي تم في العام السادس من عصرنا. يدعم أيضاً، لأسباب تنجيمية التاريخ الرسمي لولادة المسيح هو قبل التاريخ الموجود في التقويم المسيحي بعدة سنوات.

عقاباً على ذلك، أتهمت والدته بالسحر والشعوذة وسُجنت مدة أربعة عشر شهراً.

يوكد النقد التاريخي الحديث فرضية كيلر. بالمحصلة تقول الأناجيل أن يسوع المسيح ولد في زمن هيرودوت الكبير، وتعرف اليوم باليقين وبشكل مؤكد أن الملك اليهودي توفي في العام الرابع قبل المسيح.

الحسابات الفلكية التي أجريت من طريق الحاسوب تؤكد أيضاً أنه جرى لقاء كبير بين الشمس، الزهرة، جوبيتر، زحل في برج الحوت في العام السادس قبل المسيح في ليلة الأول من آذار، كان القمر أيضاً منضمّاً إلى هذه الكواكب.

شكر

كيف يمكنني أن لا أعبّر عن شكري وعرفاني بالجميل لماري دومينيك فيليب، الذي كان معلمي «الأول الحي» والذي لقنني المبادئ منذ خمسة وعشرين سنة المتعلقة بالحكمة الفلسفية والدين المسيحي؟

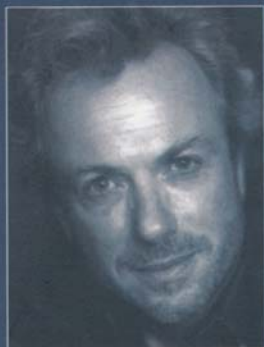
الشكر أيضاً لأبي، رينيه الجزائري الذي وضع بين يدي وليمة أفلاطون عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري وكذلك إلى أمي، إليزابيت، التي بفضلها اكتشفت في الوقت نفسه التنجيم والتي قرأت المخطوط بعين متيقظة.

أشكر أيضاً من أعماق قلبي الأصدقاء الأعزاء الذين شاركوني بنقدهم واقتراحاتهم الصائبة: نواغفسيا، كارين بايلو، صموئيل روفيا، صديق العمر، أوريلي غودفروا، إلزا غودار، صوفي بوافو، وفيوليت غابوسوس، شريكتي في «وعد الملاك».

شكر خاص إلى فايين دو لامبيلي الذي أُرشدني بحماس في روما وفي جبال آيروزيس وزودني بملاحظاته الغنية. لدي أيضاً فكرة صداقة مقرونة بالجميل لجان فرانسوا كولوسيمو، الذي جعلني أعرف جبل آتوس، والصخور، س.ل وفريقه وكذلك مريم بروغ كذكرى لإقامة لا تنسى في الجزائر.

شكر حار أيضاً لفرانسواز شافانيل، موغيت فيفيان وباتريسيا أوبرنين لملاحظاتهم الملحة، وكذلك إلى ألكسيس شابرت لرسم خارطة السماء، وإلى دونيس فيليكس المصور الروحي، أندريه باربولت، فيليب دوتي، آنيك دو سوزينيل وبول ريكنبوتش، المرشدين.

أريد أخيراً توجيه الشكر بحرارة إلى فرنسيس إزمينارد، الناشر والقارئ الأول المتيقظ الذي لم يتوقف عن دعمي بقناعة وصداقة منذ روايتي الأولى.



فريدريك لُونوار رُؤى لُونَا

«تأمل، جيوفاني قدرك المأساوي والمضيء. هل تقبله؟»

من هي لونا، الساحرة الجميلة ذات الشعر الناري، أية لعنة حلت بالجريح الذي وجد في كوخ الأبروزيس؟ من هم الرجال المقنعون بالسواد المتحمسون لقتله؟ أي كلام رهيب كانت تخفيه هذه الرسالة العجيبة الغامضة التي يجب أن لا تصل إلى يد البابا إطلاقاً؟

في منتصف القرن السادس عشر المسكون بالصراعات الدينية والفلسفية، ينتقل بنا الكتاب التاريخي الجديد لفريدريك لُونوار من قصور البندقية إلى سجونها، ومن جبل آتوس إلى سجن قراصنة الجزائر. ومن القدس إلى مخجر قبرص. رواية كبيرة في الحب والمغامرات، حيث السجن، والموت، والدين المسيحي والصوفي، وعلم التنجيم والقبلانية اليهودية وكتاب الجفر للفلكي العربي الكندي، اجتمعت كلها لتنظم البحث المكون لجيوفاني، الفتى القروي الذي تجرأ ورفع عينيه نحو ابنة قاضي القضاة.

فريدريك لُونوار فيلسوف، ومؤرخ للأديان وروائي، روايته الأولى، وعد الملك (المكتوبة بتعاون مع فيوليت كاييسوس)، المتوج بجوائز دور الصحافة، عرف نجاحاً عالمياً.



للطباعة والنشر والتوزيع



بناية يعقوبيان، بلوك ب مطابق 3، شارع الكويت، المنارة، بيروت 2036 6308
E-mail: alkhayal@inco.com.lb 009611-740110، تلفاكس، لبنان.